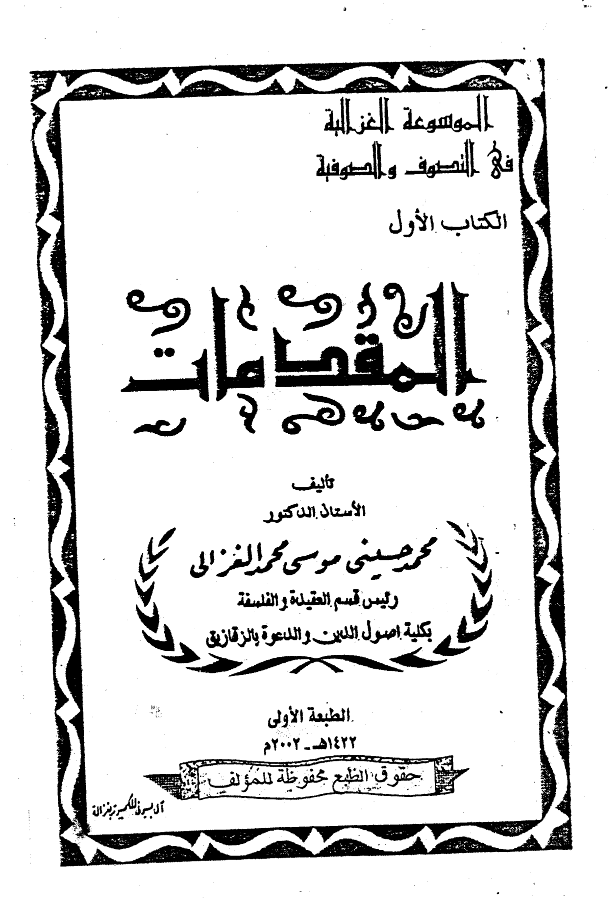


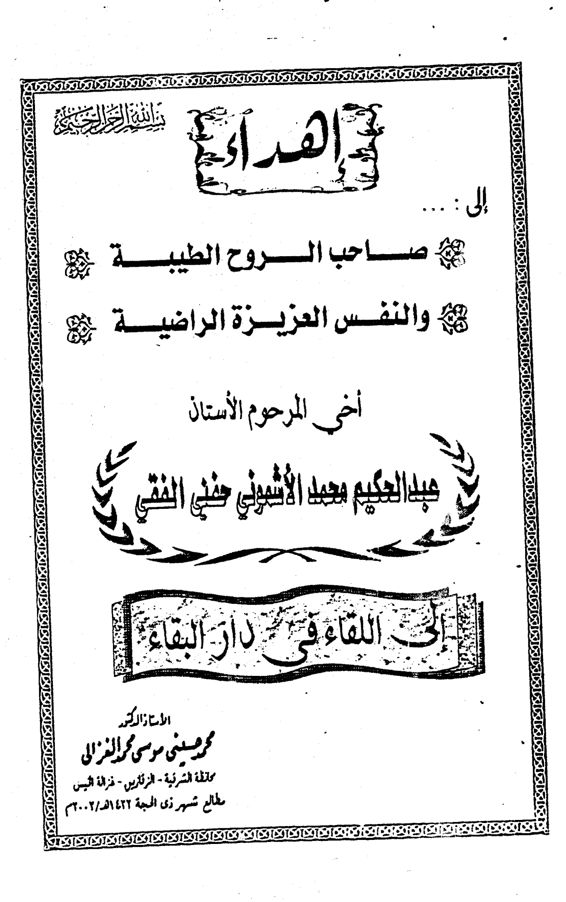
الموسوعة الغزالية
في التصوف والصوفية

الكتاب الأول

المقدمات

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمد حسيني موسى محمد الغزالي
رئيس قسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى : ...

صاحب الروح الطيبة

والنفس العزيزة الراضية

أخي المرحوم الأستاذ

عبدالحكيم محمد الأشموني حفني الفقي

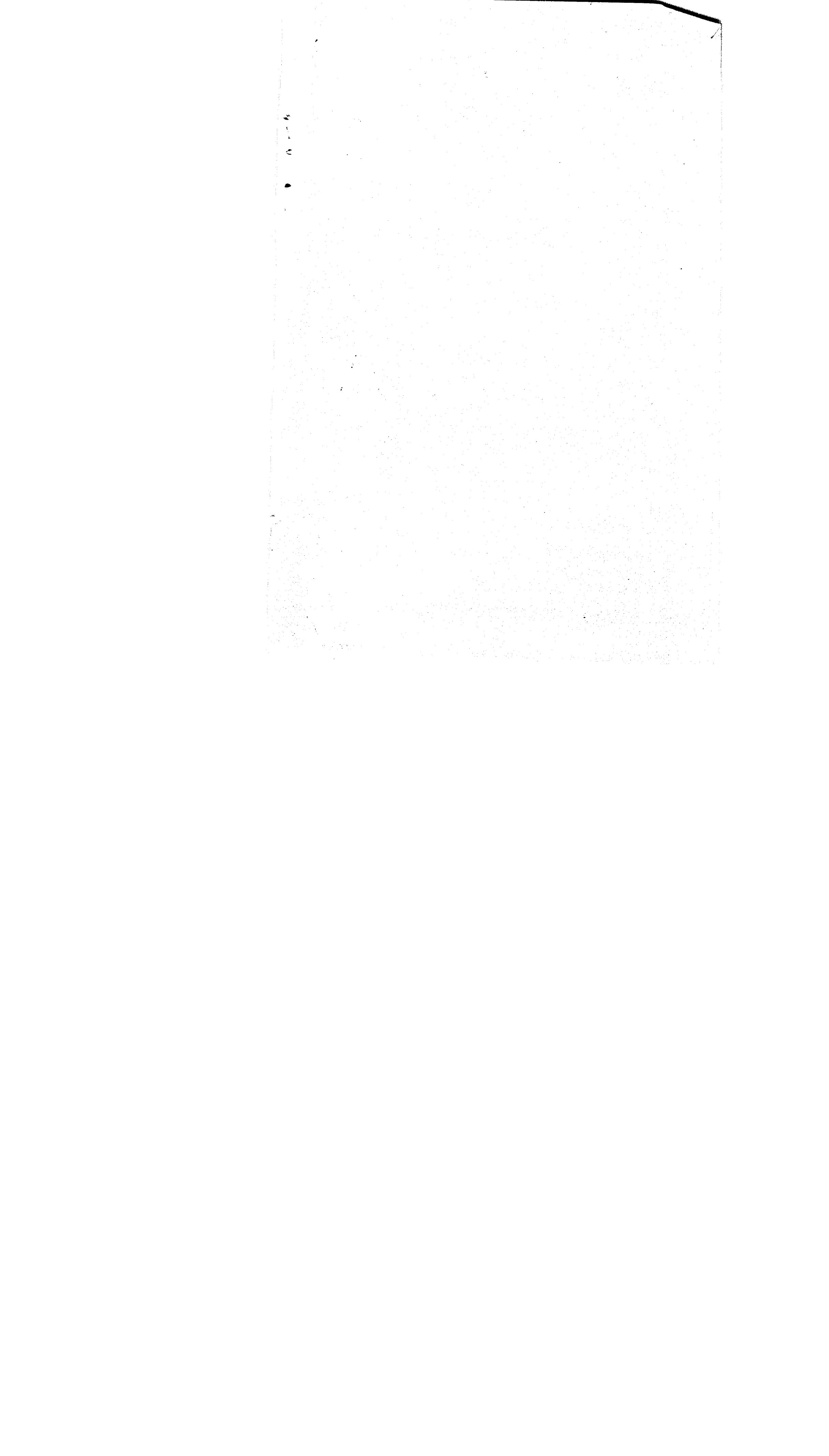
إلى اللقاء في دار البقاء

الأستاذ الدكتور

محمد حسيني موسى محمد الغزالي

محافظة الشرقية - الزقازيق - غزالة الخيس

مطلع شهر ذى الحجة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد الله صفًا من عباده من صافاه، وقربه من حبه وأرضاه، فانفتحت عليه أنوار مولاه، حتى صار حبه لله تسبيح فؤاده وترنيمة هواه، فراح يرفل فى النعيم وما أحلاه، ومتى كان من أنعم الإله فما أحراه، لقول سعيد بن جبير[١]: « التوكل على الله جماع الإيمان »[٢]، وعن أبي ثمامة قال: « قال الحواريون يا عيسى ما الإخلاص لله قال أن يعمل الرجل العمل لا يحب أن يحمده عليه أحد من الناس. والمناصح لله الذي يبدأ بحق الله قبل حق الناس، يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا عرض أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الآخرة قبل أمر الدنيا »[٣]. وقال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾[٤].

---

(١) سعيد بن جبير : هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدى بن محمود الكوفى إمام فقيه عابد فاضل. ورع حجة الله على المسلمين من التابعين، قتله الحجاج بن يوسف صبرا سنة ٩٥هـ. راجع التهذيب – جـ٤ ص٢١١ .

(٢) العلامة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي – الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار – ج٦ ص٧٦ – ما يقول إذا وقع في الأمر العظيم الحديث: ٢٩٥٨٩، ج٧ ص٢٠٢ رقم: ٣٥٣٤٢ – مكتبة الرشد – الرياض – ١٤٠٩هـ الطبعة الأولى – تحقيق كمال يوسف الحوت، وراجع حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى – ج٤ ص٢٧٤، ج١٠ ص٧٠ –الطبعة الرابعة – دار الكتاب العربى – بيروت ١٤٠٥هـ

(٣) العلامة ابن أبى شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج: ٧ ص: ٦٦ – رقم: ٣٤٢٣٤ .

(٤) سورة الطلاق – الآية ٣ .

وأشهد أن لا إله الله فتح بمفاتيح الغيوب أقفال القلوب ورفع حجب السرائر. وجلا أبصار البصائر، فانكشف عليها كل محجوب[١]، وأزال عنها الغشاوة، فانفرج كل مكروب، وظهرت حقائق اليقين أمام عيون القلوب ظهور المحبوب؛ لأن حقيقة اليقين مشاهدة العيون بكشف القلوب، وملاحظة الأسرار بمخاطبة الأفكار[٢]، وصون القلب عن الوَلَهِ بالعوارض[٣]، والأغيار[٤]؛ بغية الظفر برضوان الله والنظر إليه فى دار القرار

اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ، هو طب القلوب ودواؤها، عافية الأبدان وشفاؤها، نور الأبصار وجلاؤها، شفيع أهل الإسلام عند لقاء

---

(١) شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام – زبد خلاصة التصوف المسمى حل الرموز ص٧ – تحقيق أ. طه عبدالرءوف سعد – مكتبة العلم والإيمان بطنطا.

(٢) العلامة أحمد بن محمد عبدالملك الأشعرى التبريزى – سراج القلوب ص١٥ – تحقيق الدكتور عبداللطيف – دار النهضة المصرية ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م .

(٣) العوارض هى التى لا تبقى كالمال أو الصحة، والأولاد، فإنها جميعا متبدلة لا تبقى حينا إلا وتزول حيث تحل أحدها محل الأخرى على الدوام، فما المال يأتى إلا ويعقبه الفقر، ولا تستقر الصحة إلا ويعقبها المرض.

(٤) الأغيار : جمع غير : « والغِيَر بوزن العنب الاسم من قولك غيرت الشيء ومنه غير الزمان، وقيل هو اسم مفرد مذكر وجمعه أغيار، وقال أبو عمرو هو جمع غيرة و الغيرة بالفتح مصدر قولك غار الرجل على أهله يغار غيرا و غيرة و غارا ورجل غيور و غيران وامرأة غيور و غيرى و تغايرت الأشياء اختلفت و غير بمعنى سوى والجمع أغيار وهي كلمة يوصف بها ويستثنى فإن وصفت بها أتبعتها ما قبلها وإن استثنيت بها أعربتها بالإعراب الذي يجب للإسم الواقع بعد إلا وذلك أن أصل غير صفة والاستثناء عارض قال الفراء بعض بني أسد وقضاعة ينصبون غيرا إذا كان في معنى تم الكلام قبلها أو لم يتم، فيقولون ما جاءني غيرك وما جاءني أحد غيرك وقد يكون غير بمعنى لا فتنصبها على الحال كقوله تعالى فمن اضطر غير باغ ولا عاد كأنه قال فمن اضطر جائعا لا باغيا وكذا قوله تعالى غير ناظرين إناه وقوله تعالى غير محلي الصيد » [راجع للعلامة ابن منظور – لسان العرب ج:٥ ص:٣٤/٣٥].

الله يوم العرض على الملك الديان، فيقول ﷺ « أنا سيد ولد آدم على الله ولا فخر وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع »[١].

وأرض اللهم عن آل بيته الأطهار، وأصحابه النجوم المنيرة الأخيار الذين كانوا الأنجم الكاشفة لليل عن النهار، قال فيهم النبى المختار: « اصحابي كالنجوم فبأيهم إقتديتم إهتديتم »[٢]،

وقال ﷺ أيضا: « (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ. فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ. وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابي. فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ. وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي. فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أتى أمتى ما يوعدون) »[٣].

---

(١) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج: ١٤ ص: ١٣٥ – ذكر الخبر المصرح بأن هذا القول إنما زجر عنه من أجل التفاخر كما ذكرنا قبل – رقم: ٦٢٤٢، وراجع سنن البيهقي الكبرى ج: ٩ ص: ٤ – الحديث: ١٧٤٩١

(٢) العلامة: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت: ١١٦٢هـ) – كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس – كشف الخفاء ج: ١ ص: ١٤٧ – رقم: ٣٨١ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٥هـ – الطبعة الرابعة – تحقيق: أحمد القلاش. وقال العجلوني: رواه البيهقي وأسنده الديلمي وعن ابن عباس بلفظ أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم إقتديتم إهتديتم .

(٣) صحيح مسلم باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة. فى الحديث رقم (٢٥٣١). وذكره الإمام النووى(الإمام محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووى ت: ٦٦٠هـ) فى شرح مسلم فى الحديث رقم: ٢٠٧ م٨ ص٢٩٨ دار الفجر للتراث القاهرة.

وأخرجه الإمام: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت: ٣٥٤) – صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان – ج: ١٦ ص: ٢٣٤ – باب فضل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم – الحديث رقم: ٧٢٤٩ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م – ط الثانية – تحقيق شعيب الأرنؤوط وفى شرحه قال الإمام النووى: [قوله صلى الله عليه وسلم: (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد) قال العلماء: الأمنة بفتح الهمزة والميم والأمن والأمان، ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت. وقوله صلى الله عليه وسلم: »وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون« أي من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحا وقد وقع كل ذلك. قوله صلى الله عليه وسلم: (وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك وهذه كلها من معجزاته صلى الله عليه وسلم فى جانب الإخبار بالغيب]

وقوله ﷺ : «اللهَ اللهَ في أصحابي اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[١]،

وعن عمر بن الخطاب[٢] بالجابية قال: « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا مثل مقامي فيكم فقال احفظوني في أصحابي، ثم الذين يلونهم. ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل وما يستشهد، ويحلف وما يستحلف »[٣]،

---

(١) العلامة الإمام: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (٢٠٩هـ/٢٧٩هـ) – الجامع الصحيح سنن الترمذي – ج: ٥ ص: ٦٩٦ الحديث رقم: ٣٨٦٢ (راويه عبدالله بن مغفل)– طبعة دار إحياء التراث العربي– بيروت – تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون .

(٢) عمر بن الخطاب : هو عمر بن نفيل بن رياح بن عبدالله بن قرط بن زراح بن كعب بن لؤى القرشى العدوى أبو جعفر. ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان عمر بعد إعلان النبوة وقبل إسلامه شديدا على الرسول والمسلمين، ثم أسلم بعد رجال سبقوه، وهاجر علانية، وتحدى كفار قريش وهو مهاجر إلى المدينة، وقال عنه أبو بكر: ما على ظهر الأرض رجل أحب إلى من عمر. وتولى الخلافة بعهد من أبى بكر فى جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة هجرية، وقتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة بخنجر له، وحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة واحدة. وتوفى ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة عام ثلاث وعشرين هجرية . (راجع العلامة ابن الأثير – أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج٤ ص١٣٧/١٣٨، العلامة جلال الدين السيوطى – تاريخ الخلفاء ص٩٤ طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، وكذلك الشيخ عبدالوهاب النجار – الخلفاء الراشدون ص٢٣١ – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) الإمام : محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (٢٠٧هـ/٢٧٥هـ) – سنن ابن ماجه – سنن ابن ماجه ج: ٢ ص: ٧٩١ – الحديث: ٢٣٦٣ –دار الفكر–بيروت – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . وراجع المستدرك على الصحيحين ج: ١ ص: ١٩٩ – الحديث: ٣٩٠، وراجع المعجم الأوسط ج٢ ص٣٠، ج٧ص١٩٣

وعن سالم عن أبيه: « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حفظني في أصحابي ورد علي حوضي، ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرني يوم القيامة إلا من بعيد »[1].

واكرم اللهم التابعين أهل الفضل والعرفان بالله رب العالمين الذين مازالت جهودهم العلمية تترى مع الأزمان، حيث خدموا دين الإسلام بالبرهان، وأقاموا أفكارهم على الهدى والإيمان، فجاءت متينة الأركان قوية الأصول فيها العمران، حتى تسلمها العلماء فأتموا البنيان، وراح الخلف يحرصون عليه بالعقل والوجدان. وستظل بأمر الله، إلى يوم لقاء الملك الديان.

وارحم اللهم والدينا وأحفادنا وذرارينا، وشيوخنا الذين أخذوا بأيدينا، وبناتنا وأبنائنا وأهلينا، وكل من أمن بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبسيدنا محمد ﷺ شفيعنا ولله هادينا، فأنت أكرم الأكرمين وارحم الراحمين.

أما بعد

فإن الحياة الروحية فى الإسلام ما تزال بحاجة إلى المزيد من البحث والدرس؛ لأن نصوص دين الإسلام معطاة فياضة، فيها الثراء والخصوبة، كما أنها تحمل الإعجاز فى المعانى بالقدر الذى هو قائم بالمباني، فما من مقبل عليه إلا ويجد طلبته فيه، متى كان توجهه إليه بغرض الاقتباس من أنواره والاستفادة من أسراره، وكيف لا يكون كذلك وهو دين رب العالمين، الذى ارتضاه للخلق أجمعين. قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[2].

ثم إن التصوف الإسلامى إنما كانت نشأته ظاهرة قرآنية، ثم تطور إلى علم للارادات ورياضة النفس، وعرف فى مرحلة أولى باسم الزهد، وفى مرحلة ثانية باسم

---

(١) العلامة سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (٢٦٠هـ/٣٦٠هـ) – المعجم الكبير – ج:١٢ ص: ٢٨٣ – الحديث: ١٣١٢٥ – مكتبة العلوم والحكم– الموصل١٤٠٤هـ–١٩٨٣م – ط الثانية – تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

(٢) سورة المائدة – من الآية ٣ .

التصوف، ثم تطور بعد ذلك إلى علم أخلاق من ناحية، وفلسفة بحتة من ناحية أخرى[1]، وبالتالى فهو شامل لعلوم انبثقت عنه، وبينه وعلوم أخرى كانت تجاوره نوع ما من العلاقة التى لا يمكن إنكارها.

ولما كانت العلوم الإسلامية متنوعة باعتبار الموضوعات التى تتناولها. فقد تنوعت الأسماء التى تطلق عليها، من ذلك علم النحو الذى أطلق على الموضوعات المتعلقة بضبط أواخر الكلمات، وبيان مواقعها فى الجمل أو المفردات.

قال الجرجانى: « النحو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الأعراب والبناء وغيرهما »[2].

وقس على ذلك سائر علوم اللغة العربية من صرف وبلاغة وعروض وقافية. فإنها تتمايز بموضوعاتها وأسمائها، وكذلك العلوم الشرعية من توحيد[3]، وفقه وتفسير وحديث وأصول فقه[4]، فإنها جميعا تمايزت بالموضوعات واستقلت بالأسماء مع أنها فى جملتها علوم شرعية، ومن جملة العلوم الشرعية كل علم يخدم القضايا

---

(١) الدكتور على سامى النشار - نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج٣ ص١٩ - طبعة دار المعارف الثامنة ١٩٨٠.

(٢) العلامة علي بن محمد بن علي الجرجاني (٧٤٠/٨١٦هـ) - التعريفات - دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٥هـ - الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ١ - تحقيق إبراهيم الأبياري - باب النون ص٢١٤/٢١٥ طبعة الحلبى ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. كما نقل أنه علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال. وقيل علم بأصول يعرف بها صحة الكلام وفساده، ولكنه رجح الأول، لأن ما بعده ينصرف أولهما إلى علم الصرف، بينما ينصرف الثانى إلى فرع من علم البلاغة.

(٣) يعرف بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية. والرد على المنحرفين فى الاعتقادات. [العلامة ابن خلدون - المقدمة ص٤]، كما عرف بأنه علم بأمور يقتدر معه أى يحصل مع ذلك العلم حصولا دائما عاديا، قدرة تامة على إثبات العقائد الدينية على الغير. وإلزامها إياه بإيراد الحجج، ودفع الشبه عنها التهانوى كشاف اصطلاحات العلوم والفنون ص٢٣، وراجع كتابنا المدخل التام لعلام الكلام.

(٤) لا يقال إن الفقه هو أصول الفقه، بل هما متمايزان؛ لأن أصول الفقه هو العلم بالقواعد التى يتوصل بها إلى الفقه. [التعريفات ص٢٢] أو هو العلم الذى يعنى بالكليات. أما الفقه فهو علم الفروع الذى يعنى بالجزئيات فعلم أصول الفقه هو الذى يصنع القواعد، وعلم الفقه هو الذى يطبق فيه ذات القواعد. [راجع للشيخ محمد عبدالقادر النعمانى - أصول الفقه الإسلامى ص١٧]

الإسلامية يقوم به أهل الإسلام، يستوى فى ذلك ما يتعلق بالعلوم السلوكية كعلم النفس والأخلاق والصحة النفسية، وما يتعلق بالعلوم الكونية والفلك. وما يتعلق بصحة الإنسان الجسدية والنفسية والعقلية كعلم الطب والأدوية، فالمعيار هو أن تكون تلك العلوم قائمة لخدمة القضايا الإسلامية.

بيد أن التصوف الإسلامى[١] هو الآخر قد نشأ فى ظل الإسلام خدمة لقضاياه سلوكا عمليا، وعلما نظريا حيث صارت الممارسات الصوفية تمثل نوعا من السلوك العبادى المعبر عن علاقة الصوفى بالله رب العالمين[٢]. كما أن العلم النظرى الصوفى هو ترجمة عملية متعلقة بفهم الصوفية لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة، فصار الصوفى من الناحيتين العملية والعلمية قائما لخدمة القضايا الإسلامية.

☜ يعبر عن ذلك سلطان العلماء العز بن عبدالسلام[٣] حيث يقول:

أنا فى المحبة خائف مخطوب ∴ وهو المحب إياى والمحبوبُ
لولا قديم الحب ما أخلصت ∴ فى حبى فكنت الطالب والمطلوبُ
أبدا يصافينى الهوى فكأنما ∴ أنا فى الحقيقة صاحب مصحوبُ[٤]

---

(١) هذا الوصف ضرورى حتى يتميز التصوف الإسلامى عن غيره من أنواع الرياضات التى يقوم بها بعض من أتباع الديانات الوضعية أو التى قامت على أصول سماوية ثم انحرفت عنها كاليهودية بعد نبى الله موسى الكليم إلى اليوم. والمسيحية بعد نبى الله عيسى ابن مريم إلى اليوم، والغنوصية والهندوسية واليوجا وغيرها ممن يطلقون على رياضاتهم هذه اسم التصوف. [راجع التصوف الإسلامى ص١٣ للشيخ محمود زين الدين السامرائى – طبعة الدار الحديثة ١٣١٨هـ].

(٢) الدكتور صابر طعيمة – الصوفية معتقدا وسلوكا ص٧ بتصرف – طبعة شركة العبيكان للطباعة والنشر بالرياض – المملكة العربية السعودية.

(٣) هو « العز بن عبد السلام بن أحمد القيلوى البغدادي المولود فى دمشق والمتوفى سنة ٦٥٩ تسع وخمسين وستمائة » راجع العلامة مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي – (١٠١٧هـ/١٠٦٧هـ) – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – ج: ٢ ص: ١٣٣٩ – دار الكتب العلمية – بيروت–١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤) الشيخ العز بن عبدالسلام – زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز ص٧/٨ – تحقيق الأستاذ طه عبدالرءوف سعد.

في نفس الوقت فإن بواكير الحياة الروحية في الإسلام، قد ابتـدأت معالمـها في الإعلان عن نفسها من خلال السـلوكيات العملية التـي كـان قـد أستنها سـيدنا محمد ﷺ، وقام بممارستها معه آل بيت النبوة والصحابة الاجلاء، ثم جاء من بعدهم التابعون الذين استمروا على ذلك النهج يسيرون، وكانت الحياة الروحية في الإسلام، يتم أمر تفهيمـها بالنسبة للموضوعات التـي تمـارس معـها تـارة، وأخـرى بالنسـبة للمعالجات التي تقوم بها، وثالثة في حدود دفع الشبه التي أثيرت حول الممارسـات الصوفية، ورابعة حول ما يمكن إضافته للموضوعات. وطـرق المعالجـة، والدفـاع عـن شرعية هذه السلوكيات.

- والتصوف كأي علم من العلوم في الجوانب السلوكية يحدث أن توجد فيها جهتان:

☆ **الأولى: أصحاب التخصص:** – وهـم أصحـاب المعـارف العلميـة النظريـة، وهـم أيضـا أصحاب الممارسات الصحيحـة العلميـة، فالمسـألة متعلقـة عندهم بالعلم السـليم، والعمل الصحيح أيضا، وهم الصوفية أهل الله بالنسبة للتصوف الإسلامي.

☆ **الثانية: الأدعياء:** – وهم الذين لا علم لهم بالتصوف الإسلامي، لكنهم يمارسـوف بعض مظاهر سلوكية قد تتشابه مـع بعـض السـلوكيات الصوفيـة، وهـم فـي تلـك الممارسات الشكلية يحاكون ما بلغهم عن البعـض مـن القيـام بـه، دون أن يكـون لديـهم علـم بحقيقتـه[1]، وبالتـالي فـهم جمعـوا بـين الجـهل بحقيقـة التصـوف الإسلامي، والجهل بالأداء السلوكي، والعمل الصحيح في هـذا الجـانب، فيكـون خطرهم على التصوف والصوفيـة كبـير جـداً[2]، ولذلـك فـهؤلاء هـم الذيـن يمكـن تسميتهم المتصوفة ولا يمكن أن يكونوا صوفية أبدا.

---

(١) يراجع في ذلك كتابنا : أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، فقد ذكرت فيه نماذج كثيرة.

(٢) وخصوم التصوف ينظرون إلى هؤلاء الأدعياء على أنهم الصوفية، ويخلطون بين الأمريـن قصـداً أو جهلاً، كما فعل المستشرقون في الماضي والحاضر ويفعل ذلـك مـن يتعجلـون إصدار أحكـام الإدانـة على أصحاب السلوك الروحاني الإسلامي، ظنا منـهم أن مـا نقلـه المستشـرقون صـواب، أو أن هـذه الممارسات التي يقوم بها دعاة التصوف الوهمي الخيالي تعبر عن التصوف الإسلامي الأصيـل، ومن ثم يقومون بـإصدار الأحكـام الجائرة على التصـوف والصوفية، مع أن ذلك لا تصح نسـبته لا إلى التصوف الإسلامي ولا إلى الصوفية أهل الله.

ثم إن التصوف الإسلامي الخالص له قضاياه ومسائله، بجانب موضوعاته التي تجعله متمايزا عن غيره من العلوم التي تخدم القضايا الإسلامية، وقام الصوفية الأعلام بخدمة قضايا الإسلام – قدر طاقتهم – شرحا لتعاليمه وممارسة لها، وتدريب المقبلين إليهم عليها، حتى صارت طبقات الصوفية تترى مع الزمان مؤاخية له[١]، وهو الأمر الذى لا منازعة فيه عند الناظر للتصوف والصوفية والمتجرد عن التعبئة العدوانية عليهم[٢]، أو الشعور العام الغاضب من سلوكيات لم تصح نسبتها إليهم.

ولما كان كل علم من العلوم له مقدمات هي مباديه وموضوعات هي التي تعرض قضاياه ومسائله، وخواتيم هي التي تكون بمثابة النتائج التي تجيء له، فإن هذه الدراسة التي أقوم بها ستكون موسوعة في التصوف الإسلامي، وبالتالي فإن هذا الكتاب قد خصصته للمقدمات أو المبادئ العامة. وهي:–

☆ **أولا**: التعريف بالتصوف .

☆ **ثانيا**: الحديث عن نشأة التصوف في حياة الرسول الكريم ﷺ وحياة الصحابة ثم التابعين.

☆ **ثالثا**: التعريف بمصادر التصوف الإسلامي، وبيان القول في الآراء التي تنسبه لغير الإسلام.

☆ **رابعا**: بيان موقف أنصار التصوف وخصومه من قضاياه.

---

(١) كتب الطبقات مما أنشأه أهل الإسلام الأوائل إذ فيها تجميع لأصحاب كل مذهب على حده مع ذكر نبذة عن كل واحد منهم، وفي ذلك خير كثير من ذلك طبقات الشافعية، وطبقات الحنابلة، وطبقات الصوفية، بجانب كتب التراجم التي تمثل لونا من البحث العلمي الهادف كالمنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد للعلامة العليمي إلى غير ذلك من كتب الطبقات والتراجم في الفكر الإسلامي.

(٢) لقوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ [سورة النحل – الآية ٩٠] بل حث الإسلام على العدل في كل شيء، حتى لو كان مع من يخالفوننا في الرأي أو الاتجاه العام أو الاعتقاد. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ [سورة المائدة – الآية ٨] .

◈ **وربما يتساءل المرء قائلا:** لماذا جعلت هذا الكتاب للمقدمات فقط، أما كان يكفى أن تلمح للمقدمات ثم تعرض الموضوعات بتوسع يقتضيه المقام؟

❊ **والجواب:** أن المقدمات هى الأصول العامة والأسس الضرورية، فمن وقف عليها، أمكنه السير فى القضايا المطروحة بسهولة ويسر. أما من لم يقف عليها فربما بسط القول فى القضايا التى وضعها المتصوفة معبرة عن ثقافة أصحابها وليس الصوفية فيحدث الخلل العنوانى. وتختلط المسائل على الدارسين المحدثين، فتجيء النتائج على نفس المسائل مختلطة. ومثل ذلك لا يقدم خيرا للبحث العلمى.

وغاية ما أذكره: أن المنهج الذى سأصطحبه فى هذا الكتاب - مقدمات فى التصوف - هو المنهج التحليلى؛ لأنى أراه مناسبا فى ذات المسألة، بجانب المنهج التاريخى، باعتبار أن علم التصوف الإسلامى واسع جدا، كما أنه ممتد ابتداء من ممارسة سيدنا رسول الله ﷺ حتى يومنا هذا، مع الأخذ فى الاعتبار أنى لن أدع التعبئة الشعورية تغلب على النتائج؛ لأنى أعرف كيفية التخلص من العواطف الشخصية، كما ألمح إلى أن هذه المباحث التى أقف عليها، لا أزعم أنها بلغت الكمال، أو قاربته، وإنما هى محاولة مجتهد بقدر ما فيه من ضعف إنسانى وظروف صحية، فإن أكن وفقت للصواب؛ فذلك فضل المولى الكريم الوهاب، وإن أكن قد تعثرت بى الخطا، أو معى القلم قد نبا فإنى أستغفر الله مما وقعت فيه، وأوب إليه مما لم أبلغ الحق معه.

﷽ قال تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[1].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

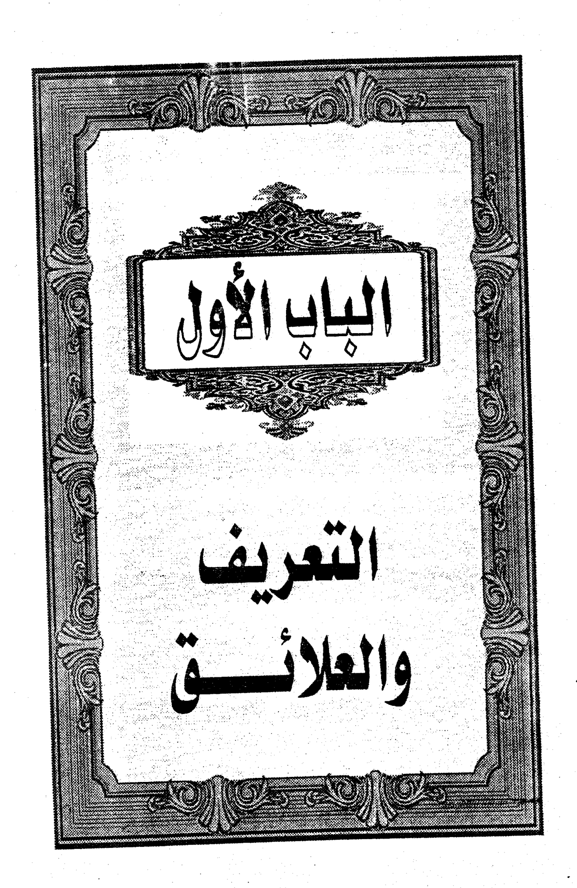
دكتور
محمد حسينى موسى محمد الغزالى
غزالة الخيس مركز الزقازيق شرقية

أول شهر ذي الحجة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م

ت: ٠٥٥/٢٣٠١٠٧٥ الزقازيق
٠٥٥/٢٣٧٤٣٨ غزالة

---

(١) سورة البقرة - من الآية ٢٨٦ .



الباب الأول

التعريف والعلائـــق

تمهيد

ما من شك فى أن التعريف بالتصوف الإسلامى على الناحية التاريخية غير التعريف به على الناحية اللغوية، أو الناحية الاصطلاحية؛ لأنها جميعاً جهات مختلفة، تحتاج مجهودات كثيرة متعاونة فيما بينها، حتى تحقق فائدة عظمى.

۞ **يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق** : « إن بحوث التصوف وما تحتاج إليه من عناء وجهد، ومن إلمام واسع بمصطلحات القوم التى يديرونها بينهم، ومن أدراك دقيق يوازن بين أذواقهم[1] الغيبية، وأراء غيرهم من أهل النظر الخالص، أو النظر المشترك، يَعدّ فى الحقيقة أمراً خطيراً يفتقر إلى أطراح الهوى واستعمال النصفة، والعدل فى الحكم، ويتطلب أيضا ضرورة أن ينزل الباحث حيبا عن بعض نظراته المادية ليتيسر له أن يعيش أونة فى هذا الجو الروحى »[2]، الذى يضفيه التصوف الإسلامى على صاحبه، ويصبغه به، فيجعله قانعا بما شرع الله، راضيا بما قسم الله.

كما أن معرفة الشيء بحدّه تضيف إلى عقل المرء أمراً جديداً معياره أن لا يخرج عن ذات العلم إلى غيره، إلاّ بإرادة لذلك الخروج، وتلك مهمة كبرى تعطى البحث العلمى ميزة على غيره، لأن معرفة حد الشيء تجعل المرء يلتزم بحثه فقط، بحيث يكون هو الغرض الأصلى لذلك البحث، فيثبت فى ذهن الباحث حتى يبلغ به حد الإجادة لما يقوم به وهو نوع من المجاهدة العلمية[3].

---

(١) الأذواق جمع ذوق، وهو أول مبادئ التجليات الإلهية عند الصوفية. [الشيخ السيد الشريف الجرجانى - رسالة فى اصطلاحات الصوفية ص٢٣٧].

(٢) الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق - مقدمته لكتاب ابن الفارض والحب الإلهى ص٧ للدكتور محمد مصطفى حلمى - طبعة دار المعارف ١٩٧١م.

(٣) يعول شيوخنا أهل الإسلام على المجاهدة العلمية والأخلاقية والأدبية والعملية، وكل يركز على الجانب الذى تجيء من ناحيته أبحاثه والصوفية الأعلام من أكثر أهل الإسلام حديثا عن المجاهدة ودورها فى حياة الفرد المؤمن والجماعة الإسلامية.

والصوفية الأعلام كانت المجاهدة ديدنهم يقول البسطامى[1] مكثت أثنتى عشرة سنة حداد نفسى، وخمس سنين كنت أجلى مرآة نفسى، وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا فى وسطى زناد، فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه أقطعته، فكشف لى فنظرت إلى الخلق، فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات »[2]. فكأنه جاهد نفسه وحدها ليعرف حدودها حتى يمكنه كبح جماح غرائزها، وضبط أدائها. والوقوف معها على شاطئ الأمان.

بيد أنه لما كان تاريخ التصوف الإسلامى يبتدئ من سيدنا محمد ﷺ للإنس والجن[3] بإرسال تكليف، فإن التعريف بالتصوف الإسلامى يحتاج إلى أن توضع تلك الناحية فى الاعتبار، حتى تكون مع اللغة الحاملة لذلك اللفظ جنبا إلى جنب، إذ ليس من السهل فصل الجانب التاريخى عن الجانب اللغوى فى مسألة التعريف بالتصوف الإسلامى على ما ذهب إليه أهل العلم على الناحية الفنية.

ومن نافلة القول: إن هذا الباب سيكون الحديث فيه حول أنواع التعريف المختلفة للتصوف الإسلامى على الناحية الاصطلاحية، سواء أكان ذلك باعتباره علما سلوكيا، أم باعتباره سلوكا عمليا. أم غير ذلك من الاعتبارات. مع الأخذ بعين الاعتبار عدم الالتفات إلى أقوال خصوم التصوف فى التعريف؛ لأن ذلك مما يخرج عن الإطار الطبيعى للبحث العلمى. بجانب أن للصوفية تلميحات وإشارات، وأيضا شطحات، فإذا أخذ التعريف للتصوف من هذه الإشارات أو التلميحات، فما أظن ذلك يقدم نفعاً فى دراسة التصوف على الناحية التعريفية الفنية.

---

(١) هو طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي شيخ الصوفية . من كبار مشايخ الرسالة وما أحلى قوله لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ حدود الشريعة. مات أبو يزيد سنة إحدى وستين ومائتين. [راجع: ميزان الإعتدال في نقد الرجال١ ج: ٣ ص: ٤٧٤ رقم:٤٠٤٠، ٤٣٨٠]

(٢) الشيخ محمود عمر البنجابى – شيوخ عرفوا الله ص٥٧ – الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ.

(٣) يذهب الشيخ محمد نووى الشافعى إلى أن رسول الله ﷺ مرسل إلى الجن والإنس والملائكة والحيوان والنبات والجماد وسوف أعرض لذلك فى حينه.

يذهب أحد العلماء إلى أن الإشارة سبيل الصوفي إلى ستر أذواقه ومكاشفاته عمن ليس من أهل الذوق والمكاشفات، ولعله لو اصطنع أسلوب العبارة فعبر في صراحة ووضوح عن أسراره وحقائقه لكان في ذلك ما يحنق عليه الناس ويشككهم فيه، ويغري به أهل الظاهر فيجعلهم يبحيون دمه[١]، ومثل تلك الإشارات والشطحات لا يعتمد عليها في تقديم تعريف واضح بالنسبة للتصوف الإسلامي. بحيث يكون مقبولاً على ناحية دقيقة عند الكثيرين من الدارسين[٢]، ولست أوافق هؤلاء في رفضهم تعريف التصوف الإسلامي بالإشارات الصوفية؛ لأن الصوفية الأعلام هم أعرف من غيرهم بالمصطلحات التي يتداولونها. ولا مشاحة في الاصطلاح.

والمتشوق للحديث عن التصوف ينجذب لدراسته باستمرار، حتى يصير ذلك الشوق عنده قاعدة لا يسمح لنفسه بالفرار منها أو الابتعاد عنها؛ لأن التعلق بأهل الله هو نوع من الحب لله جل شأنه، إذ هم أكثر الخلق اتباعاً للرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

۞ **يقول العلامة ابن كثير**[٤].: « هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع

---

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمي – ابن الفارض والحب الإلهي ص١٥٣ .

(٢) راجع في هذا الشأن على سبيل المثال: شطحات الصوفية للأستاذ فرج المتولى ص١٧ والصوفية في الميزان للأستاذ عبدالعاطي صابر ص٥١، صوفية الألغاز للأستاذ طه خيرى ص٣٣، وعلاقة الرمزية بالصوفية للأستاذ هاشم محمد هاشم ص٤٢ .

(٣) سورة آل عمران – الآية ٣١ .

(٤) ابن كثير : وهو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي من أشهر مؤلفاته تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية . توفي سنة ٧٧٤هـ . (الطبقات للداودى ج١/١١١) .

المحمدي. والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد][1].

ولهذا قال إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول. كما قال بعض العلماء الحكماء ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تُحَب. وقال الحسن البصري[2] وغيره من السلف زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله. وعن عائشة رضي الله عنها قالت [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله قال الله تعالى قل إن كنتم

---

(١) الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (المولود فى ٢٠٦هـ والمتوفى فى ٢٦١هـ) - صحيح مسلم - ج: ٣ ص: ١٣٤٣ - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور - الحديث: ١٧١٨ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - عدد الأجزاء ٥ - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ورواه البخارى - ج٢ ص٦٥٣، ج٦ ص٢٦٧٥، وراجع مسند أبو عوانة ١ ج٤ ص١٧١، وسنن الدار قطنى ج٤ ص٢٢٧، ومسند الامام أحمد ج٦ ص١٤٩، ج٦ ص١٨٠، ج٦ ص٢٥٦، والترغيب والترهيب ج١ ص٤٤، تحفة الأحوذى ج٥ ص٢٣٥ .

(٢) هو « الحسن بن أبي الحسن البصري الإمام أبو سعيد مولى زيد بن ثابت وقيل مولى جميل بن صفحة خالية قطبة وقيل غير ذلك وأبوه يسار من سبي ميسان أعتقته الربيع بنت النضر ولد الحسن زمن عمر وسمع عثمان وشهد الدار بن أربع عشرة سنة وروى عن عمران بن حصين وأبي موسى وابن عباس وجندب وعنه بن عون ويونس وأمم كان كبير الشأن رفيع الذكر رأسا في العلم والعمل مات في رجب سنة عشرة ومائة وقد قارب التسعين » [راجع العلامة حمد بن أحمد أبو عبدالله الذهبي الدمشقي المولود ٦٧٣هـ، المتوفى ٧٤٨هـ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة - ج١ ص٣٢٢ رقم: ١٠٢٢- دار القبلة للثقافة الإسلامية . مؤسسة علو - جدة - ١٤١٣هـ/١٩٩٢م - الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ٢ - تحقيق محمد عوامة، تقريب التهذيب ج١ ص١٦٠ رقم: ١٢٢٧، جامع التحصيل ج١ ص١٦٢ رقم: ١٣٥، سير أعلام النبلاء ج٤ ص٥٦٣ رقم: ٢٢٣، الطبقات للداوودى جـ١ ص١٥٠].

تحبون الله فاتبعوني][1]. وقوله تعالى ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم أي باتباعكم الرسول صلى الله عليه وسلم حصل لكم هذا من بركة سفارته »[2].

فإنه ﷺ جعله الله نورا يهدى للخير. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

وانطلاقا من قول الحارث بن أسد[4] عندما سئل عن مقام ذكر الموت ما هو عندك مقام عارف أو مستأنف فقال: « ذكر الموت أولا مقام المستأنف، وآخر مقام

---

(١) العلامة البيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج١٠ ص٢٣٣ – رقم: ٢٠٨٥٨ بلفظ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله أي عرى الإسلام أوثق قال قلت الله ورسول الله أعلم قال الولاية في الله الحب في الله والبغض في الله » ، وقال الشافعي رحمه الله ولو خص امرؤ قومه بالمحبة ما لم يحمل على غيرهم ما ليس يحل له فهذه صلة ليست بعصبية فقل امرؤ إلا وفيه محبوب ومكروه، والحديث أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص١٧٠ – رقم:٣٠٤٢٠ ، ج٧ ص٨٠ قم:٣٤٣٣٨.

(٢) العلامة إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء المتوفى ٧٧٤هـ – تفسير القرآن العظيم – ج:١ ص:٣٥٩ – دار الفكر – بيروت ١٤٠١هـ – عدد الأجزاء ٤ .

(٣) سورة المائدة – الآيتان ١٦/١٥ .

(٤) الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد البغدادي أبو عبد ، كان عالما فهما وله مصنفات في أصول الديانات وكتب في الزهد روى عن يزيد بن هارون وغيره وعنه أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي وأحمد بن القاسم بن نصر الفرائضي وأبو القاسم الجنيد... وغيرهم، وله كتب كثيرة في الزهد والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وكتب كثيرة من الفوائد ذكر أبو علي بن شاذان يوما كتاب الحارث في الدماء فقال على هذا الكتاب عول أصحابنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة قيل أنه مات سنة ٢٤٣، وكان إماما في الفقه والتصوف والحديث والكلام وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها واليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية » [راجع العلامة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي – المولود ٧٧٣هـ، المتوفى ٨٥٢ هـ – تهذيب التهذيب ج٢ ص٩٦٦ رقم:٢٢٦ – دار الفكر – بيروت – ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١٤، وراجع لسان الميزان ج٧ ص١٩١ – رقم: ٢٥٤٩

العارف، قيل له بين من أين قلت ذلك قال نعم أما المستأنف فهو المبتدئ الذي يغلب على قلبه الذكر فيترك الزلل مخافة العقاب، فكلما هاج ذكر الموت من قلبه ماتت الشهوات عنده، وأما العارف فذكره للموت محبة له اختيارا على الحياة وتبرما بالدنيا التي قد سلا قلبه عنها، شوقا إلى لقاء الله ولقائه رجاء أمل النظر إلى وجهه، والنزول في جواره لما غلب على قلبه من حسن الظن بربه. كما قيل: طال شوق الأبرار إلى الله والله إلى لقائهم أشوق...، وأما نعت الموت في قلب العارف فإنه إذا خطر ذكر ورود الموت بقلبه صادقت منه موافق مراده وكره التخلف في دار العاصين وتخير سرعة انقضاء الأجل وقصر الأمل فقيرة إليه نفسه مشتاق إليه قلبه»[1].

فالصوفي متعلق بحبال الشوق التي توصله لمولاه جل علاه، وهو دائما يتردد على تلك العلاقة حتى تكون تعبيراته عن التصوف قلبية وجدانية روحية عقلية، بحيث تشمله من كل جانب، وتأتيه على كل ناحية.

❁ **يقول العلامة التبريزي**: « اعلم أن حقيقة الشوق عند الصوفية هو جمرة توقد في القلب، فتصير أحوالاً على القلب، وهو على ثلاثة أقسام هي: شوق العام، وشوق الخاص، وشوق أخص الخاص. فشوق العام هو ما يكون إلى الدنيا، وشوق الخاص هو ما يكون إلى العقبى، أما شوق أخص الخاص فهو ما يكون إلى لقاء المولى جل علاه، فمن اشتاق إلى الدنيا؛ اشتاقت النار إليه. ومن اشتاق إلى العقبى؛ اشتاقت الجنة إليه. ومن اشتاق للمولى؛ اشتاق المولى إليه »[2].

ولما كانت مراتب التصوف ثلاثا لها بداية ثم وسط فنهاية. فإن البداية هي الباب الموصل إليه، والوسط هو الدهليز، أما الغاية فهي الغرف، وعند الباب تكون الشقة؛ لأنه لا يدق ولا يفتح إلاَّ بمفتاحين:-

---

(١) العلامة أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى في ٤٣٠هـ- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ج: ١٠ ص: ٩١ - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥هـ- الطبعة الرابعة .

(٢) العلامة أحمد بن محمد الأشعرى التبريزى - سراج القلوب ص٣٣ (بتصرف) - تحقيق الدكتور عبداللطيف العبد محمد - طبعة دار النهضة العربية ١٣٩٦هـ/١٩٧٧م.

☆ **أحدهما**: كسب علوم الشريعة مجمله مجموعة ومفصلة منوعة، وأن يكون القرآن الكريم والحديث الشريف هما منبع كل فكرة، وسحاب كل قطرة.

☆ **ثانيهما**: تجريد الهمة للعمل الدائم والسهر القائم، فإذا لم تمسك يد الطالب بهذه المقاليد امتنع الانفتاح، وعسر الولوج[1]. من ثم فإن التصوف الإسلامى هو الطريق إلى معرفة الله تعالى معرفة يقينية قلبية، ووسيلته إلى هذه الغاية السامية مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، وتطويعها للنفس المطمئنة بتصفيتها من الشوائب والشواغل التى تعوق السالك وتشغله عن ربه[2]، حتى تغلب عليه أموره كلها، غير أن هذا الباب سيتناول كلا من:

☆ التصوف بين المفاهيم اللغوية والاصطلاحية .
☆ التصوف بين الجمود والاشتقاق.
☆ علاقة أهل الصفة بالتصوف.
☆ علاقة التصوف والصوفية بكل من علم التصوف والمتصوفة.

ولاشك أن بعض الدراسات التى تحدثت عن التصوف الإسلامى - وبخاصة تلك التى قام بها بعض المستشرقين، أو أعدها خصوم التصوف - قد أرجعته فى أصوله إلى المصدر اليونانى تارة، ثم الهندى أخرى، والفارسى مرة ثالثة، ثم المصدر المسيحي مرحلة أخرى، دون أن يقيموا للنقل المنزل أو حياة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين أى أثر فى الدراسات الصوفية الإسلامية، وهو ما سوف أعرض له، ثم أناقشه على النحو الذى سيجيء بين سطور هذه الدراسة، إن شاء الله تعالى.

---

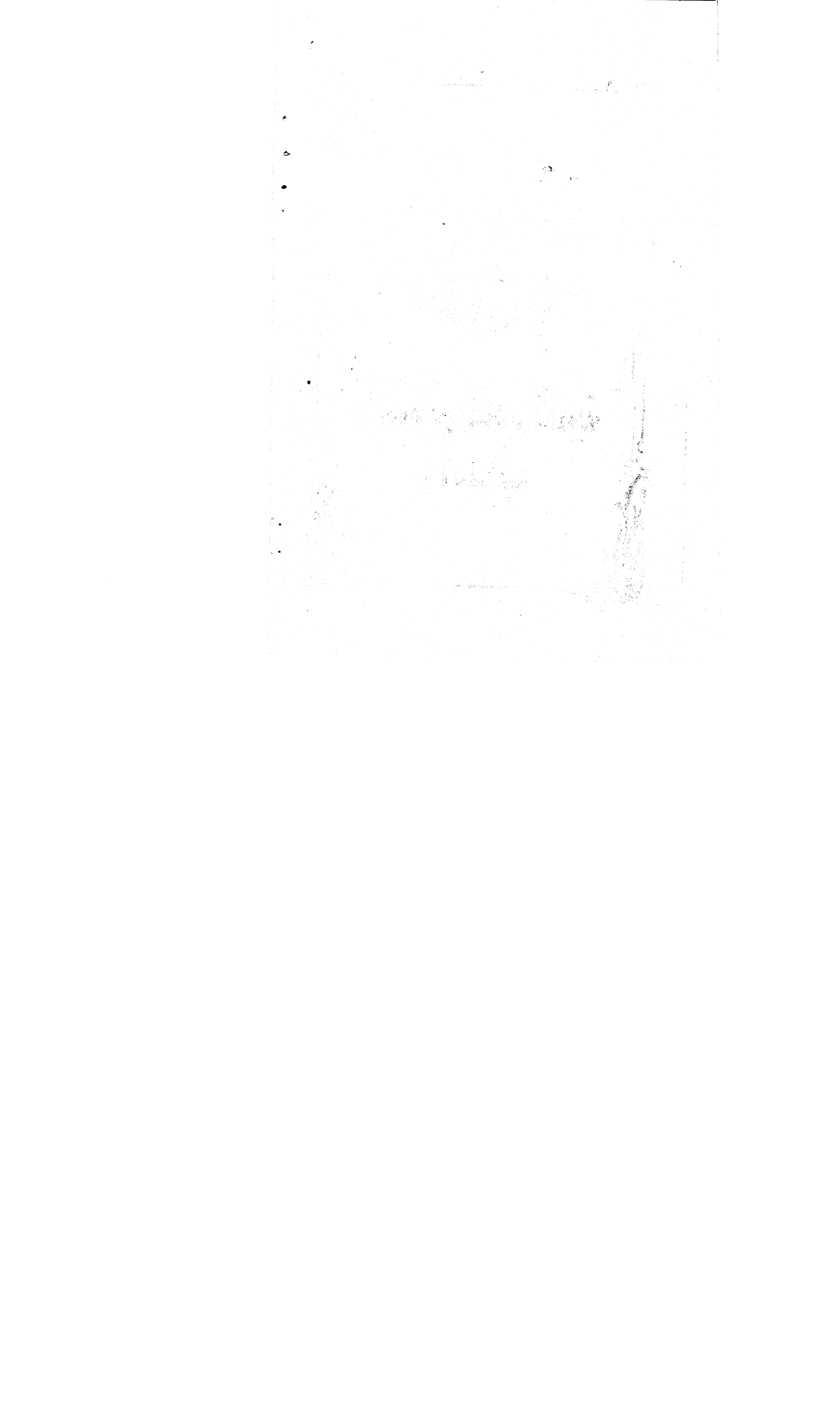
(١) الدكتور عبدالعزيز سيد الأهل - بين الشريعة والحقيقة ص٦٥/٦٦ - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - العدد ٢٣٣ - السنة التاسعة عشرة - شعبان ١٤٠٠هـ/ يونية ١٩٨٠م .

(٢) الدكتورة: كوكب مصطفى عامر - التصوف ودوره فى التربية الأخلاقية للمسلم ... من المقدمة ط١ إخوان رزيق ١٩٩٥م.



الفصل الأول

التصوف بين المفاهيم اللغوية والاصطلاحية



التصوف لفظ له مفهوم لغوى، باعتبار أن كل منطوق لغوى له مفهوم دلالى، والحال مع التصوف فى هذه الناحية كالحال مع سائر الألفاظ والعلوم المختلفة. سلوكية كانت أم غير سلوكية، بل إن هذا التنوع الدلالى قد عده البعض من مواهب التصوف والصوفية معا، ذلك أن أهل التصوف قد من الله عليهم بالعديد من المواهب، فانبسطوا وانشرحت صدورهم بذلك، فكانوا أهل أنس بالله، ثم هم لما منعوا أنفسهم من الالتفات إلى ذواتهم، أو إلى الأغيار أصبحوا فى مقام الفناء، فلم تشهد قلوبهم سوى الله، وكذلك لما اشتد شوقهم إلى الله، نودوا فى سرائرهم أن أبكوا علينا لعدم الوصال[1]، وذلك يقتضى بحثها فى كل من اللغة والاصطلاح، حتى تكون دلالتها واضحة عند الاستعمال.

أ- فى اللغة

لما كان كل لفظ لغوى يحمل العديد من المعانى اللغوية التى قد توجد لها بعض الدلالات الاصطلاحية، فإن الضرورة العلمية تقتضى بحث تلك المعانى على ذات الناحية، لما هو معروف من أن الألفاظ أثواب المعانى، فإذا لم يكن للفظ معنى أو معان؛ فإنه يكون لفظا مهملاً، لا يلتفت إليه[2]، ومن ثم فإن مادة الكلمة ص و ف قد وردت فى القرآن الكريم فى موضع واحد[3]، هو قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[4].

---

(١) الدكتور محمد فوقى حجاج - التصوف الإسلامى والأخلاق ج١ ص١٣ - طبعة مطبعة الفجر الجديد ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٢) يذهب المناطقة إلى أن اللفظ المهمل هو الذى لا يدل دلالة واضحة على معنى مفيد بالنسبة للسامع، [يراجع فى ذلك كتابنا الغزاليات فى التصورات أثناء بحثنا علاقة الألفاظ المفردة بالمعانى، وكذلك يمكن مراجعة كتابنا: النديم فى المنطق القديم ص٣١٥].

(٣) الشيخ محمد فؤاد شاكر - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - باب الصاد ص٤١٧ - باب الصاد - طبعة مكتبة الغزالى بدمشق.

(٤) سورة النحل - من الآية ٨٠ .

❁ **يقول العلامة الحافظ ابن كثير** : « يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها، ويستترون بها وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع.

وجعل لهم أيضا من جلود الأنعام بيوتا أي من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها أي الغنم وأوبارها أي الإبل وأشعارها أي المعز والضمير عائد على الأنعام أثاثا أي تتخذون منه أثاثا وهو المال وقيل المتاع وقيل الثياب والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأساس البسط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالا وتجارة وقال ابن عباس الأثاث المتاع، وقوله إلى حين أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله "والله جعل لكم مما خلق ظلالا" قال قتادة[1] يعني الشجر وجعل لكم من الجبال أكنانا أي حصونا ومعاقل كما جعل لكم سرابيل تقيكم الحر وهي الثياب من القطن والكتان والصوف وسرابيل تقيكم بأسكم كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك كذلك يتم نعمته عليكم أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته لعلكم تسلمون هكذا فسره الجمهور وقرؤه بكسر اللام من تسلمون أي من الإسلام.

وقال قتادة في قوله كذلك يتم نعمته عليكم هذه السورة تسمى سورة النعم. وعن ابن عباس أنه كان يقرؤها تسلمون بفتح اللام يعني من الجراح رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد وأخرجه ابن جرير من الوجهين ورد هذه القراءة، وقال عطاء الخراساني[2] إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب ألا ترى إلى قوله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل من السهل

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن عزيز السدوس البصرى ، من الثقات الإثبات، كان حجة فى الأحاديث مأمونا، توفى سنة بضع عشرة ومائة . راجع تهذيب التهذيب جـ٨ ص٣١٥ ، وتقريب التهذيب جـ٢ ص١٢٣ .

(٢) عطاء الخراساني: هو ابو أيوب ويقال أبو عثمان ويقال أبو محمد ويقال أبو صالح عطاء بن أبي مسلم واسم وأبي مسلم عبد الله ويقال ميسرة الأزدي الخراساني البلخي سكن عطاء الشام وهو مولى للمهلب بن أبي صفرة وعطاء من التابعين الكبار. روى عن معاذ بن جبل وكعب بن عجرة وابن عباس وأنس ...، وآخرين من التابعين. روى عنه عطاء بن أبي رباح وابن جريج ومعمر ومالك وشعبة ...، وخلائق من الأئمة وهو من التابعين العباد متفق على توثيقه، روى له مسلم، توفي بأريحاء فحمل ودفن ببيت المقدس سنة خمس وثلاثين ومائة. [راجع العلامة أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام – تهذيب الأسماء ج١ ص٣٠٧ – رقم:٤١٠، و الجرح والتعديل ج٦ ص٣٣٤ باب العين – رقم:١٨٥٠].

أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال ألا ترى إلى قوله ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ألا ترى إلى قوله وينزل من السماء من جبال فيها من برد لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه ألا ترى إلى قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر وما تقي من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر »[1].

وكذلك وردت في لغة العرب على العديد من المعاني أبرزها ما يلي :-

المعنى الأول: لبس الصوف

تقول العرب: تصوف الرجل، وتصوفت المرأة من شدة البرد، ومعناه لبس كل منهما الصوف، حتى يدفع عن نفسه شدة البرد[2]، والصوفى بناء على ذلك هو الذى يتمسك بالعقيدة الصحيحة والعبادة السلمية، حتى يدفع عن نفسه مصائب الدنيا وحر جهنم فى الآخرة، ويبعد عنها غضب الجبار جل علاه فى دار القرار، حتى إنه ليتداخل مع العقيدة الإسلامية الصحيحة تداخل جزئيات الصوف مع غزلها، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الأخر بحال من الأحوال.

الثانى: الانضمام لجماعة الزهاد

يقال تصوف فلان إذا انضم لطائفة الصوفية، حتى صار واحدا منهم، يلتزم آدابهم، ويمارس سلوكياتهم[3]، فهو زاهد فى الدنيا راغب عنها مقبل على الآخرة راغب فيها، مدبر عن كل ما فى أيدى الخلائق، مقبل على ما عند الله تعالى، حتى يصير عارفا بكل ما يقوم به. ملتزما آدابه وأحكامه.

الثالث: الطريقة المعروفة

يقال التصوف هو طريقة سلوكية قوامها الزهد والتقشف والتحلى بالفضائل واجتناب الرذائل، حتى تزكو النفس وتسمو الروح، فلا يكون للمرء تعلق إلا بالله جل

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير ج٢ ص٥٨١.

(٢) المعلم بطرس البستانى – قطر المحيط – باب الصاد فصل الواو وما يثالثهما.

(٣) العلامة الزمخشرى – أساس البلاغة – باب الصاد فصل الواو ص٤٩٠ – دار الشعب.

علاه[1]، مهما كانت الشدائد متراكمة عنده، أو كانت الضراء بادية حواليه، أو ضاربة خيامها عليه، فهو بالله قائم، وفيه يوجد، وعن غيره غائب.

وكل من اتبع تلك الطريقة فهو صوفي، طالما كان متمكنا من أسرارها عارفا بعلومها، متابعا شيوخها، سائراً على قواعدها التي يربى الشيخ عليها مريديه[2]، تربية إسلامية خالصة قوامها تقوى الله تعالى، والتعلق بما عنده جل شأنه.

وقد كان الصوفية الأوائل ممن صفوا أنفسهم لله تعالى فاصطفاهم الله جل شأنه، حتى صار فيهم العارفون، ومنهم العالمون، بجانب أنهم أبرار مقربون. كانوا ينظرون إلى الدنيا على أنها سوق قائم ثم انفض، ربح فيه من ربح، وخسر فيه من خسر[3]. وانفضاض السوق هو انفضاض الحياة بالموت. وانقطاعها إلى الأبد.

الرابع: الشيء النحيل

ذكرت مصادر العربية أن الصوفة هى الشيء النحيل جداً. الذى لا يصمد أمام هزات الريح[4]، ولا يتماسك فى مواجهة الأشياء القوية، وبناء عليه فإن الصوفى هو الذى يتمسك بحبل الله، ويعتبر نفسه أضعف الضعفاء، حتى لا يأخذه الغرور، أو يستولى عليه الاندفاع، ومن ثم يكون شعوره الداخلى متوجها إلى الله تعالى فى كل حالاته، باعتبار أن الله وحده سنده، وهو ناصره ومؤيده، فالتزامه طريق الله صار

---

(١) العلامة ابن فارس – معجم مقاييس اللغة – باب الصاد ص٥٦٠.

(٢) حقق الصوفية الأوائل العديد من النجاحات في مجالات متعددة، وبخاصة متى تعلق ذلك الأمر بتربية المريد، وقد كان هؤلاء الأجلاء نماذج ممتازة، تمكنوا من السيطرة على نوازعهم الداخلية، كما أمكنهم أن يوجهوا المريدين إلى الخير توجيها عمليا. حتى كان لهم الفضل الكبير فى بناء جيل إسلامى قادر على التماس رضوان الله وطاعته، بغض النظر عن متعلقات الحياة الدنيا. فكانوا رهبانا بالليل، فرسانا بالنهار.

(٣) الشيخ عبدالباقى محمد عبدالكامل – الصوفية الأوائل ص١٧ – طبعة دار المتوكل بغداد ١٣٣٥هـ.

(٤) العلامة مجد الدين الفيروز آبادى – القاموس المحيط – باب الفاء – فصل الصاد وما يثالثهما وبالهامش حواشي على القاموس. والفيروز آبادى : هو مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب. ولد سنة ٧٣٠هـ فى فارس قرب شيراز، وكان يسافر إلى بلاد ما بين النهرين، وإلى الهند وجزيرة العرب؛ لاكتساب العلم. تولى قضاء اليمن سنة ٧٨٥هـ، ومازال قاضيا حتى مات سنة ٨٢٠هـ (دائرة معارف القرن العشرين جـ٧ ص٥٦٨ . طبعة دار الفكر).

ديدنا له، وطبيعة ثابتة فيه؛ لأنه اتجه إلى الله تعالى بعقله وقلبه ووجدانه، أملا في رضوان الله تعالى، لا طمعاً في جنة النعيم، ولا خوفا من العذاب الأليم.

مما سبق اتضح أن مادة الكلمة ص وف في اللغة تأتي على أنحاء شتى، ولكنها يمكن أن يتكون منها تعريف عام على ناحية لغوية، وهو أن التصوف اتباع طريقة الصالحين الراغبين عن الدنيا، الطالبين لما عند الله، دون اعتبار لشيء أخر سواه، يستوى في ذلك أن يكون السالك طريق التصوف ناعم الحياة أو خشنها، ناعم الملبس أو خشنه، وحيداً في استقلاله عن الآخرين؛ أم في جماعة مادام ذلك يرضى الله رب العالمين، ويقوم على النقل المنزل[1] الذى أنزله الله رب العالمين[2]، هداية للخلق أجمعين. فما هو التصوف في الاصطلاح إذن؟ ذلك ما سوف التفت إليه فيما يلى من صفحات إن شاء الله تعالى.

...ـد في الاصطلاح

ذهب أهل الاختصاص إلى أن لكل علم اصطلاحا خاصا به، ومن ثم عرفوا الاصطلاح بعدة تعريفات من أبرزها:-

---

(١) النقل المنزل هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة، وكل منهما يتكامل مع الأخر، ولا يفترق عنه.

(٢) نعتقد نحن المسلمين أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة كليهما قد أنزل من الله تعالى، ولكن القرآن الكريم أنزل بلفظه ومعناه، أما السنة النبوية المطهرة الصحيحة فالمعنى من عند الله تعالى، أما اللفظ فهو من عند الرسول ﷺ وبتوجيه من الله. قال جل شأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سورة النجم - الآيتان ٤/٣] وقال أيضا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۝ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [سورة الحاقة - الآيات ٤٦/٤٤]. وقوله ﷺ : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه الا إني أوتيت القرآن ومثله معه » [الإمام أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني المولود في ١٦٤هـ والمتوفى في ٢٤١هـ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ج: ٤ ص: ١٣٠ - الحديث: ١٧٢١٣ - مؤسسة قرطبة - مصر - عدد الأجزاء ٦] .

[١] أنه اتفاق قوم مخصوصين على استخدام ألفاظ بأعيانها دالة على معان خاصة بها عندهم[١]، بحيث تكون إطلاق تلك الألفاظ على ذات المعانى قاعدة خاصة بأولئك المستعملين لها.

[٢] أنه إخراج الشيء عن معنى لغوى إلى معنى أخر لبيان المراد منه[٢]، حتى يصير خاصة عند المستعملين له، بعض النظر عن موافقة غيرهم لهم فيه أو مخالفتهم.

[٣] أنه عبارة عن اتفاق طائفة معينة فى علم من العلوم أو فن من الفنون على استعمال لفظ معين، وإطلاقه على معنى معين، سواء أكان اللفظ منقولا أم متفقا عليه، أم منحوتا، أم موضوعا له، بحيث يتميز هذا اللفظ بذات المعنى، وذلك العلم لدى تلك الطائفة[٣].

وبالتالى فإذا استعملت طائفة ما ألفاظا بعينها على أنها اصطلاحات خاصة بهم، فإن أية طائفة أخرى متى استعملت تلك الألفاظ فلا يمكن أن يراد منه المعنى السابق استعماله مع الطائفة الأولى، إلاّ إذا نصوا على ذلك أو نبهوا إلى نوع الاستخدام الذى سيقومون به.

من ثم فإن التعرف على الألفاظ المستعملة ودلالتها فى أى علم من العلوم يعتبر ضرورة علمية، حتى لا يظن القارئ بالدارس تقصيراً، وينسب إليه إلزاماً يبنيه على

---

(١) الشيخ منصور محمد البنغالى – معالم الفكر الإسلامى ص٣٧ – طبعة الدار النعمانية١٣٣٥هـ.

(٢) السيد الشريف الجرجانى – التعريفات – باب الألف ص٢٢، ونقل الشيخ عن تعريف الاصطلاح أنه عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول، كما يعرف بأنه اتفاق طائفة على وضع اللفظ بازاء المعنى، وقيل: هو عن إطلاق لفظ معين بين قوم معينين فى معنى بعينه، وكلها تعريفات مقبولة؛ لأنها جاءت على ناحية قصدها أصحابها.

(٣) راجع كتابنا: حصاد الاقتصاد فى الاعتقاد ج٣ – الأفعال الإلهية ص٣٧ – ط٢ أل بسيونى ١٩٩٨م مثال اصطلاح النحاة على أن الفاعل هو من فعل الفعل أو اتصف بالفعل، أو قام به الفعل، فإن هذا التعريف عندهم يخالف تعريف علماء القانون فى أن الفاعل هو من يفعل بحرية تامة، واختيار كامل حتى يكون مسئولاً عن تصرفاته، وكل ما يصدر منه على سبيل القصد إليه، مع الاختيار، ولا يصح اختلاف النحاة مع القانونيين وعلماء الأخلاق فى هذا؛ لأنه لا مشاحة فى الاصطلاح. [راجع كتابنا: محاضرات فى علم الكلام ص٤٣ – طبعة أل بسيونى ٢٠٠٠م].

كلامه لم يدر بخيال صاحبه، ولا تحرك فى خلده، وهى مهمة أود التأكيد عليها، حتى لا يقع المرء فى نوع من القلق الفكرى أو العقلى. فضلا عن العلمى والأخلاقى.

❁ **وفى تقديرى**: أن التصوف يمثل حالة ذاتية فردية لمن يمارسها، ومن ثم فلا يمكن تقديم تعريف حدى له على ناحية اصطلاحية. بل ولا على ناحية التعريف التقريبى العام، وإنما يمكن تقديم تعريفات اصطلاحية تقريبية على ناحية الرسم الناقص، باعتبار أن التصوف ليس سلوكا معيارياً، وإنما هو حالة وجدانية ذاتية. وذلك مما يمثل صعوبة كبيرة بالنسبة لمن يريد تقديم تعريف اصطلاحى للتصوف الإسلامى.

❁ **يقول أحد الباحثين**: « التصوف فى مفهومه العام هو تلك الرغبة الروحية العالية التى وجدت مع الإنسان من قديم، والتى كان أساسها هو الزهد فى الدنيا، وغايتها هى الاتصال بالملأ الأعلى مصدر كل خير، وفيض وإشراق، وهو بهذا المعنى لا يقتصر على أمة بعينها، ولا على حضارة بذاتها، ولا يختص بديانة من الديانات أو فلسفة من الفلسفات »[1]، وذلك المعنى الذى يمكن قبوله على الإطلاق العام.

فكل من مارس الزهد فى الدنيا بغرض الاتصال بالملأ الأعلى كان صوفيا. وهو اتجاه قد يكون له ما يبرره فى نظر صاحبه، غير أنه لا ينطبق على التصوف الإسلامى الذى لا يتقيد بمجرد ممارسة الزهد فى الدنيا، وإنما يقوم الزهد عند المسلم على أساس من الاعتقاد الصحيح فى أن ما عند الله خير وأبقى، وأن متاع الحياة الدنيا مهما كبر فهو صغير، ومهما عظم فهو حقير، ومهما طال فهو قصير. قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

❁ **يقول العلامة الطبرى**: « يقول رب العزة فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدها الله لأوليائه وأهل طاعته

---

(١) الدكتور محمد فوقى حجاج – التصوف الإسلامى والأخلاق ج١ ص٧ ط٢/١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٢) سورة التوبة – من الآية ٣٨.

إلا قليل يسير. فيقول لهم: اطلبوا أيها المؤمنون نعيم الآخرة وترف الكرامة التي عند الله لأوليائه بطاعته والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوه »[1].

ﷻ وقال تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾[2].

❁ **يقول العلامة الحافظ ابن كثير**: « قال الله تعالى قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وقال مجاهد[3] إن هذه الآية نزلت في اليهود رواه ابن جرير وقوله قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى إذ أن آخرة المتقي خير من دنياه ولا تظلمون فتيلا من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد، وقال الحسن: متاع الدنيا قليل، رحم الله عبدا صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها، إلا كرجل نام نومة، فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه. وقال ابن معين كان أبو مسهر ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن ∴ له من الله في دار المقام نصيب
فإن تعجب الدنيا رجالا فإنه ∴ متاع قليل والزوال قريب »[4]

ﷻ وقال جل شأنه: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾[5]. يقول العلامة الطبري: « يخبر الله جل ثناؤه عن قدر ذلك في الدنيا فيما لأهل الإيمان به عنده في الآخرة وأعلم عباده فقال وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع وما جميع ما أعطى هؤلاء في الدنيا من السعة وبسط لهم فيها من الرزق ورغد العيش فيما عند الله لأهل طاعته في الآخرة إلا متاع قليل وشيء حقير ذاهب، قال مجاهد قوله "إلا متاع" أي قليل ذاهب، وقال عبد الرحمن بن سابط في قوله وفرحوا بالحياة الدنيا

---

(١) العلامة ابن جرير الطبري – تفسير الطبري ج١٠ ص١٣٣ .

(٢) سورة النساء – الآية ٧٧ .

(٣) مجاهد : هو مجاهد بن جبر مولى السائب بن أبي السائب المخزومي . مات ساجداً سنة ١٠٣هـ .
راجع سير أعلام النبلاء – جـ٤ ص٤٤٩.

(٤) العلامة الحافظ ابن كثير– تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير ج١ ص٥٢٧ .

(٥) سورة الرعد – الآية ٢٦ .

وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قال كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق أو الشيء يشرب عليه اللبن »[1].

ﷻ وقال عز اسمه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

۞ **يقول الإمام القرطبى**: « قوله تعالى "وما أوتيتم من شيء" يأهل مكة "فمتاع الحياة الدنيا وزينتها" أي تتمتعون بها مدة حياتكم أو مدة في حياتكم فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم "وما عند الله خير وأبقى" أي أفضل وأدوم يريد الدار الآخرة وهي الجنة "أفلا تعقلون" أن الباقي أفضل من الفاني قرأ أبو عمرو يعقلون بالياء الباقون بالتاء على الخطاب وهو اختيار لقوله تعالى وما أوتيتم قوله تعالى أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو ملاقيه يعني الجنة وما فيها من الثواب كمن متعناه متاع الحياة الدنيا فأعطى منها بعض ما أراد ثم هو يوم القيامة من المحضرين أي في النار ونظيره »[3].

ﷻ وقال جل ثناؤه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

۞ **يقول العلامة ابن كثير**: « قوله تبارك وتعالى "وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا" أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى أي يعجل لهم بحسانهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها. ففى الحديث الشريف [لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء][5]. وعن سهل بن سعد قال [كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة

---

(١) الطبرى – تفسير الطبري ج: ١٣ ص: ١٤٤.

(٢) سورة القصص – الآية ٦٠

(٣) العلامة الطبرى – تفسير القرطبي ج١٣ ص٣٠٢ .

(٤) سورة الزخرف – الآية ٣٥ .

(٥) الطبراني – المعجم الكبير ج٦ ص ١٥٧ – الحديث: ٥٨٤٠، وأسنده البغوي من رواية زكريا بن منظور عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

برجلها فقال أترون هذه هينة على صاحبها فو الذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على ... ـبا ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة أبدا][1].

وعن سهل بن ... [2] عن النبي صلى الله عليه وسلم [لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافرا منها شيئا][3]، ثم قال سبحانه وتعالى "والآخرة عند ربك للمتقين" أي هي لهم خاصة، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما [قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى صلى الله عليه وسلم من نسائه فرآه على رمال حصير قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء وقال يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس وقال أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ثم قال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا وفي رواية أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة][4]، وعن عبدالرحمن بن أبي ليلى: [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها][5]، وعن سهل بن سعد قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٧٦ – [٣] باب مثل الدنيا – الحديث: ٤١١٠ .

(٢) سهل بن سعد بن مالك الساعدي كان اسمه حزن فسماه رسول الله سهلا كنيته أبو العباس مات بالمدينة سنة ثمان وثمانين وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة، وقال: إنه رأى النبي وهو بن خمس عشرة وقال أبو نعيم: مات سنة ثمان وثمانين بالمدينة وهو ابن مائة سنة وأكثر روى عنه الزهري وأبو حازم المديني وابنه العباس ويحيى بن ميمون الحضرمي » [راجع العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى ٣٥٤ – مشاهير علماء الأمصار ج١ ص٢٥ رقم: ١١٤، التاريخ الكبير ج٤ ص٩٧ رقم: ٢٠٩٢، الجرح والتعديل ج٤ ص١٩٨ رقم: ٨٥٣ ، التاريخ الصغير (الأوسط) ج١ ص١٨١ قم: ٨٤٦].

(٣) العلامة الطبراني – المعجم كبير ج٦ ص١٧٨ الحديث : ٥٩٢١ .

(٤) الإمام البخاري – صحيح البخاري – الحديث: ٢٤٦٨ ، وأخرجه مسلم – ج٢ ص١١١١– الحديث رقم: ١٤٧٩ .

(٥) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٥ ص٢٠٦٩ الحديث: ٥٤٢٦ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم – ج٣ ص١٦٣٨ – الحديث: ٢٠٦٧.

لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا][١] »[٢].

۞ **وقال الإمام القرطبي**: « والمتاع ما يتمتع به وينتفع كالفأس والقدر والقصعة. ثم يزول ولا يبقى ملكه. قاله أكثر المفسرين؛ قال الحسن[٣] : كخضرة النبات، ولُعَبَ البنات وبالتالى فلا حاصل له ولا دوام عليه. وقال قتادة[٤]: وهى متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها، فينبغى للإنسان أن يأُخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع »[٥].

كما أن الاتصال بالملأ الأعلى حيلة لجأ إليها الكثيرون من غير أهل الإسلام، بغية قراءة الغيب، أو التحدث عنه. فمنهم من زهد المطعم والمشرب، حتى عد نفسه من النساك[٦]، ومنهم من حرم نفسه المتع الجسدية من النظافة والنكاح بغية الاتصال بالملأ الأعلى، ومنهم من أطال شعره، وسار على يديه ورجليه كالحيوانات، أو عاش

---

(١) الإمام الترمذي – سنن الترمذى – الحديث: ٢٣٢٠ وأخرجه الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجة – الحديث :٤١١٠ من طريق أبي حازم.

(٢) الحافظ ابن كثير – تفسير ابن كثير ج: ٤ ص: ١٢٨ .

(٣) هو أبو سعيد الحسن البصرى بن أبى الحسن مولى زيد بن ثابت، ولد فى زمن عمر بن الخطاب ﷺ، وكان إماماً فى العلم والعمل. توفى سنة ١١٠هـ. راجع الطبقات للداودى جـ١ ص١٥٠ .

(٤) قتادة: هو قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسى البصرى، من الثقات الإثبات، كان حجة فى الحديث مأمونا، توفى سنة بضع عشرة ومائة . راجع تهذيب التهذيب جـ٨ ص٣١٥، وتقريب التهذيب جـ٢ ص١٢٣ .

(٥) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – – ج٣ ص١٥٤٤ . والقرطبى هو أبو عبدالله القرطبى محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج الأنصارى الخزرجى المالكى. توفى سنة ٦٧١ . (طبقات المفسرين للداودى جـ٢ ص٦٩).

(٦) النساك مفردها ناسك. والنُّسُكُ العبادة و النَّاسِكُ العابد وقد نَسَكَ يَنْسُكُ بالضم نُسْكًا بوزن رُشْدٍ و تَنَسَّكَ أي تعبد و نَسُكَ من باب ظَرُفَ صار نَاسكا و النَّسِيكَةُ الذبيحة والجمع نُسُكٌ بضمتين و نَسَائِكُ تقول نَسَكَ لله يَنْسُكُ بالضم نُسُكاً بوزن رُشد و المَنْسَكُ بفتح السين وكسرها الموضع الذي تُذبح فيه النسائك وقُرِئَ بهما قوله تعالى لكُلِّ أمة جعلنا مَنْسَكا. [راجع العلامة الرازى – مختار الصحاح ج: ١ ص٢٧٤].

فى الآبار الجافة، وأكل أوراق الشجر، وعاش على النباتات كما فعل القسس فى العصور الوسطى[١]، وكانت غاية هؤلاء هى الاتصال بالملأ الأعلى على ما يذكرون.

- بيد أن الكثيرين من الدارسين عرفوا التصوف على الناحية الاصطلاحية من خلال حكاياتهم عنه[٢]، أو ممارستهم الفعلية له، طبقا لكل حالة ذاتية، **وسألتقط بعض تلك التعريفات الاصطلاحية للتصوف على النحو التالى:-**

☆ التصوف ليس رسما ولا علما، ولكنه خلق؛ لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم[٣]، إنما تقبل عليها بالعقيدة الصحيحة والعبادة السليمة، والأخلاق الفاضلة، والرغبة الأكيدة فى الإقبال على الله تعالى، مع عدم الانشغال بشيء أخر سواه.

☆ التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به[٤]؛ لأن كل من يقبل على الله تعالى بقلبه وعقله وهواه على الله تعالى؛ فإن الله تعالى يفرح به حتى يجعله لا ينشغل إلاّ بالله جل علاه. ففى الحديث القدسى: «عن أبي هريرة[٥] قال: قال رسول الله

---

(١) راجع كتابنا: قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة ص٣٨ ط٣ /١٩٨٨م.

(٢) ذكر المستشرق أرنولد ألن نيكولسون للتصوف والصوفية ما يربو على خمسة وسبعين تعريفا، وكذلك ذكر القشيرى والسهروردي وغيرهم، ولكنى ذكرت تعريفات محددة، تكون بمثابة المعبر عن باقى التعريفات، وراجع كتابنا أوراق مطوية فى التصوف والصوفية، كما أنى سأذكر تعريفات أخرى للتصوف أثناء حديثى عن العلائق بين التصوف والصوفية وعلم التصوف والمتصوفة فى الفصل الثالث من هذا الباب.

(٣) العلامة أبو الحسين الثورى - التذكرة ص١٧ - نقلا عن - فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٣٢ - ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى - طبعة لجنة التأليف ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

(٤) الإمام القشيرى - الرسالة القشيرية ص١٤٨، وقد ذكر ذلك التعريف حكاية عن الجنيد البغدادى المتوفى فى عام ٢٩٧هـ.

(٥) هو أبو هريرة بن عامر بن عبد ذي الشري بن طريف بن عتاب بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبدالله بن زهران بن كعب الدوسي. وعن أبي هريرة قال: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالرحمن وكنيت أبا هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي فقيل لي أبو هريرة. وقد أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثا. قال البخاري روى عنه نحو الثمانمائة من أهل العلم وكان أحفظ من روى الحديث في عصره. وقد عاش أبو هريرة ثمانيا وسبعين سنة. وكانت وفاته بقصره بالعقيق سنة ٥٧هـ فحمل إلى المدينة. [راجع الإصابة لابن حجر القسم الأول [من ذكر له صحبة، وبيان ذلك].. رقم: ١٠٦٧٤ - ص٤٤٤/٤٢٦.

صلى الله عليه وسلم إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[1]،

وعن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله يقول من أهان لي وليا فقد استحل محاربتي وما تقرب إلي عبد من عبادي بمثل أداء فرائضي وإن عبدي ليتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت عينيه التي يبصر بهما وأذنيه التي يسمع بهما ويده التي يبطش بها ورجليه التي يمشي بهما إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن موته وذلك أنه يكره الموت وأنا أكره مساءته »[2].

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٣٨٤ – باب التواضع الحديث:٦١٣٧، ورواه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج:٢ ص:٥٨ – ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله في أحواله عند قيامه بإتيان المأمورات وانزعاجه عن جميع المزجورات – رقم:٣٤٧، ورواه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج:٣ ص:٣٤٦ – باب الخروج من المظالم والتقرب إلى الله تعالى بالصدقة ونوافل الخير رجاء الإجابة- رقم:٦١٨٨، ج١٠ ص:٢١٩ – رقم:٢٠٧٦٩، وراجع فى كتب الشروح فتح البارى ج١١ ص٣٤٤، ص٣٤٧، وتحفة الأحوذى ج١٠ ص٩٧، وشرح النووى على صحيح مسلم ج١٥ ص١٥١، وحلية الأولياء ج١ ص٤، ج١٠ ص٨٢، ص٩٩ .

(٢) الإمام الطبرانى – المعجم الأوسط ج: ٩ ص: ١٣٩ – رقم: ٩٣٥٢. وروى الإمام – مسند أحمد ج:٦ ص:٢٥٦ الحديث:٢٦٢٣٦، وذكر الحافظ نور الدين الهيثمى – مجمع الزوائد ج:٢ ص:٢٤٧ – باب فضل الصلاة عن عائشة قالت: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آذى وليا فقد استحل محاربتي وما تقرب إلى عبدي بمثل الفرائض وما يزال العبد يتقرب بالنوافل حتى أحبه إن سألنى أعطيته وإن دعاني أجبته وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن وفاته لأنه يكره الموت واكره مساءته » .

☆ التصوف هو أن يختصك الله تعالى بالصفاء. فمن اصطفى من كل ما سوى الله فهو الصوفى[1]، لأنه [illegible] خلص من كافة المعوقات التى تحول بينه وبين الوصول إلى طاعة الله [illegible] شأنه، وإذا كان الله تعالى هو الذى يختص العبد بالصفاء، فهل هناك [illegible] من ذلك قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[2].

۞ **قال العلامة ابن كثير** « إنه يختار - سبحانه - من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته »[3]، كاصطفاء جبريل الأمين للوحى، وميكائيل للأمطار، والبحار، والأنهار، والأرزاق، وإسرافيل للوح المحفوظ والنفخ فى الصور، وعزرائيل لقبض الأرواح، ومنكر ونكير للسؤال فى القبر، والحافظون الذين يحفظون العبد من المضار، ومما يصدر عنه من قول أو فعل. قال تعالى ﴿ "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ "﴾[4]، واصطفاء مالك للنيران، ورضوان للجنان[5]، ما مر ذكره كان بعضا من التعاريف المختصرة للتصوف، وقد التقطتها من مصادرها على ما هو مذكو فى أسفل الصفحات من مصادر.

ومن التعريفات المطوّلة للتصوف هو أنه تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، وعمل ما هو خير إلى الأبد، والنصح الخالص لجميع الأمة والإخلاص فى مراعاة الحقيقة، واتباع النبى محمد ﷺ

---

(١) رينولد أ نيكولسون - فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٣٣ .

(٢) سورة الحج - الآية ٧٥ .

(٣) العلامة ابن كثير - تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٢٣٥ - دار الفكر .

(٤) سورة الانفطار - الآيات ١٢/١٠ .

(٥) الشيخ محمد نووى الشافعى - نور الظلام ص١٦، وما بعدها حتى ص١٩، الطبعة الثانية - مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م

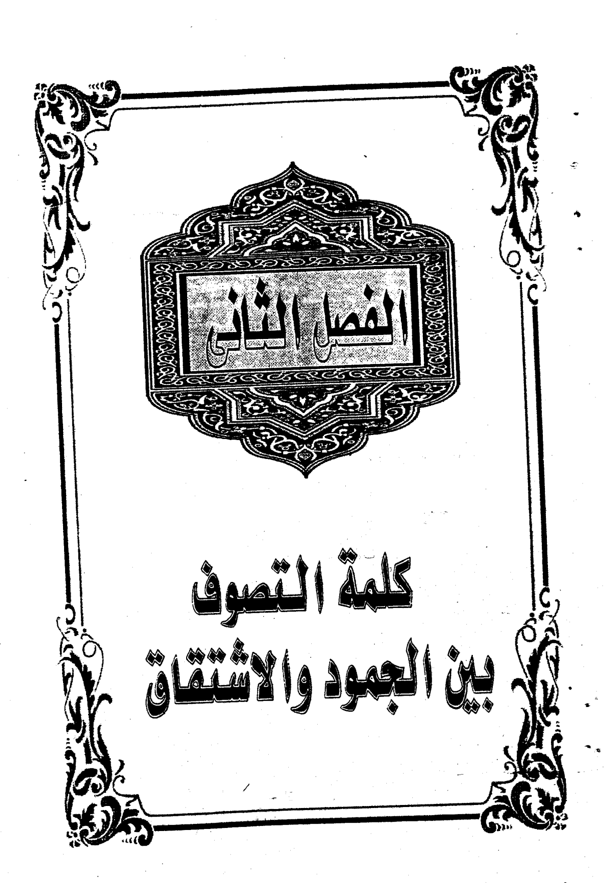
فى الشريعة[١]، وهو تعريف مطول لكنه يكشف عن رغبة القائل به[٢] فى الوصول إلى الله تعالى.

وبناء علـى مـا سـلف فقد تعـددت الآراء وتبـاينت الاتجاهـات حـول كلمـة التصوف، بحيث يمكن القول بأن لفظة التصوف شغلت الصوفية كما شغلت اللغويين على ما سلف الإلماح له.

---

(١) رينولد نيكولسون - فى التصوف الإسلامي وتاريخه ص٣٤ .

(٢) نسب هذا القول إلى الجنيد البغدادى، كما نسب إلى عبدالله بن خفيف الضبى المتوفى ٣٣١هـ كما ذكر الشعرانى فى طبقاته ج١ ص١٠٣ - ط مصر ١٣١٥هـ، وراجع فى التصوف الإسلامي وتاريخه ص٣٤.


الفصل الثانى
كلمة التصوف
بين الجمود والاشتقاق



شغلت لفظة التصوف – وما تزال – أذهان الكثيرين من الدارسين مسلمين ومستشرقين[١]، صوفية وفلاسفة، متكلمين ومحدثين، بجانب النحاة والصرفيين. بل ربما تعلق ببحثها فقهاء وأصوليون[٢]. وكل أدلى فيها بدلو وقال فيها برأى، قد يكون له سند قوى عند الدارسين أو ضعيف، وأمتد هذا التفكير فى الكلمة إلى كافة الاتجاهات التى راقت لأصحابها، ولم يقف ذلك البحث العلمى فى نفس الكلمة عند حد معين.

وكان مؤيدو التصوف أول الباحثين عن وجود سند شرعى لها، حتى يمكن إحالتها إليه، ويكون أدخل بها إلى لغة العرب[٣]، بينما راح الخصوم فى حركة جادة – يبحثون لها عن سند منقول من ديانات عفى عليها الزمن، أو ينسبونة وسلوكيات أصحابه التى تصدر عن مدعى التصوف إلى أفكار وضعية واتجاهات فكرية

---

(١) المستشرق: هو الذى يتجه إلى تراث الشرق لدراسته، مع أنه من أبوين غريبين، وظل على ثقافته العلمية وعقيدته القلبية، لكنه درس التراث الشرقى، بغرض النيل منه، أو بيان ما يظنه أعداء الإسلام عورات، وقليل من المستشرقين عرفوا بالإنصاف والحيدة أو الموضوعية فى دراسة التراث الشرقى، أما من أسلم منهم فلم يعد يطلق عليه لقب مستشرق؛ لأن نسب الإسلام أعلى من كل نسب، وشرف الانتساب إليه فوق كل شرف.

(٢) الفرق بين الفقيه والأصولى اعتبارى، وإلا فقد يكون الفقيه أصوليا أيضا، كالحال مع الإمام الشافعى فإنه صاحب مذهب فقهى فى الفروع وله مجهودات كثيرة فى الأصول ومنها كتابه الرسالة. ويجدر بى هنا التعريف بالإمام الشافعى، فهو: الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعى، يلتقى نسبه مع النبى ﷺ فى عبد مناف. ولد سنة ١٥٠هـ أخذ العلم عن مسلم بن خالد بمكة، وعن الإمام مالك بالمدينة، وقرأ عليه الموطأ حفظا فأعجبه قراءته وكان يستزيد، ورحل إلى العراق وأخذ فى الاشتغال بالعلم والمناظرة ونشر الحديث وإقامة السنة، ورحل إلى مصر بعد أن علا ذكره فى الآفاق، وابتكر كتبا لم يسبق إليها منها الرسالة فى أصول الفقه، وكتاب القسامة، وكتاب الجزية . توفى رحمه الله سنة ٢٠٤هـ » . راجع طبقات الشافعية للإمام تاج الدين السبكى ١٠٠/١ وما بعدها – طبعة دار المعارف – بيروت لبنان .

(٣) والأدلة على ذلك وجود المجهودات الكثيرة حول كون الكلمة مشتقة أو جامدة إلى غير ذلك من الوجوه.

فاسدة، وكل حاول بلوغ الغاية فى المسألة التى نيطت به، سواء أحاد عنها بعد ذلك، أم تخلفت منه[١]، ولم تقف معه.

والحق أن الآراء فى المسألة تشعبت، والأدلة مع أصحابها تساقطت. ومن بين أيديهم تفرقت، وربما كانت توجهاتهم والرغبة فى الإضافة إليها أو النقصان منها هى أحد الأسباب التى انتهت بهم إلى هذا الاختلاف الغريب الذى جارَ على لفظة التصوف – وحدها عند مقارنتها بغيرها – من الألفاظ التى تسمى بها العلوم المختلفة.

وهاك مجمل الآراء فى الكلمة :-

الرأى الأول: أنها لفظة مشتقة[٢]

ذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن لفظة التصوف من الألفاظ المشتقة فى لغة العرب، لكن من أى شيء اشتقت الكلمة؟ ثم ما هو الاشتقاق؟ وما المقصود بالاشتقاق فى التصوف؟

هذه وأمثالها أسئلة ترد على الخاطر، ويحاول تقديم الإجابة عليها. فما هو الاشتقاق أولا؟

والجواب:

يرى العلماء أن الاشتقاق هو: « رد لفظ إلى آخر ولو مجازا، لمناسبة بينهما فى المعنى والحروف الأصلية، ولابد فيه من تغيير، وقد يطرد كاسم الفاعل. وقد يختص كالقارورة »[٣]، وحينئذ يكون اشتقاقا خاصا، وليس اشتقاقا عاما.

وطبقا لهذا المعنى يكون اشتقاق لفظ التصوف راجعا إلى لفظ آخر، ولابد من وجود مناسبة بين اللفظين على وجه من الوجوه[٤]، التى يمكن الوصول إليها. إذن؛

---

(١) الشيخ محمد على الكابولى – التصوف ما له وما عليه ص٥١ ط أولى ١٣٣٩هـ.

(٢) مفهوم الاشتقاق المراد فى التصوف قريب من مفهومه الذى يجرى لدى علماء الصرف، وكذلك يجرى فى أعراف أهل البيان.

(٣) الشيخ: تاج الدين السبكى – جمع الجوامع ص١٣٥ – ضمن مجموع مهمات المتون – طبعة الحلبى.

(٤) الوجوه المرادة هنا هى وجه الحقيقة، أو وجه المجاز، يستوى فى ذلك الحقيقة اللغوية والشرعية والعقلية والعرفية، والمجاز العقلى والمرسل واللغوى إلى غير ذلك.

ما هو اللفظ الذى اشتق منه لفظ التصوف؟ وما هى المناسبة بين لفـظ التصـوف واللفظ المشتق منه؟

هذا ما سنحاول - إن شاء الله - إيضاحه فيما يلى:-

ذهب أصحاب هذا القول – بأنه مشتق – إلى وجود جهات كثيرة فى اشتقاق الكلمة، حتى قالوا: اختلف فى اشتقاق التصوف على أقوال كثيرة، منها ما هو حسن أو أحسن، وما هو مقبول والأكثر قبولا، ومنها ما هو شائع أو نادر إلى آخر الأشياء إلى تدعو التى التمايز، ويقبل بعضها أو يرد.

من هذه الأقوال:-

١- أنه مشتق من الصفاء:

والعلاقة بين التصوف والصفاء قائمة فى أن التصـوف مـداره علـى التصفيـة للباطن والظاهر[1]، فإذا تمت التصفية للنفس من الأكدار، وتفرغ القلب من الأعصـار، وابتعدت النفس عن الوقوع فى الأعذار وهرع القلب للواحد القهار، فقد حصـل صفـاء القلب ونقاء السريرة، وحكى بعضهم هذا الوجه شعرا فقال:

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا ∴ وكلـهم قـال قـولا غـير معـروف
ولست أمنـح هـذا الاسم غير فتـى ∴ صافى فصوفى حتى سمـى الصوفـى[2]

والصفاء الذى اشتقت منه لفظة التصوف يشمل صفـاء الأسـرار ونقـاء الآثـار، وتصفية القلب من الأكدار، وشغله فقط بالواحد القهار، حتى لا يكون هناك من شاغل أخر سواه، لما قيل: لا يجتمع حب الله وحب غيره فى قلب عبد أبدا[3]، فإذا دخل نور الله قلب العبد خرج حب غيره، ومع هذا يجعل الله الدنيـا خادمـة لذلـك العبـد يقول الله فى الحديث القدسي: « يا دنيا اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك»[4].

---

(١) الشيخ منصور حسن التبريزى – الصوفية الأوائل ص٧٢ ط١/١٣١٨هـ.

(٢) الشيخ أحمد بن عجيبة – الفتوحات الإلهية بشرح المباحث الأصلية ص٢٣.

(٣) الشيخ منصور حسن التبريزى – الصوفية الأوائل ص٧٢ ط١/١٣١٨هـ.

(٤) العلامة أبو نعيم الأصفهانى – حلية الأولياء ج٣ ص:١٩٤ عن الحسين بن عبد الرحمـن ابـن أبـي عباد عن محمد بن بشر عن جعفر بن محمد قال أوحى الله تعالى إلى الدنيا ...، وفى معناه: يا دنيـا من خدمنى فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه.

والصوفية هم الملتزمون هذا المنهج فلا تثريب عليهم أن هم اشتقوا من الصفاء كلمة التصوف، ثم انتسبوا إليه، حتى إن أحوالهم وصفاتهم انطبقت عليهم[١]. فهم أهل صفاء وتصوف معا، وهم أهل الله وخاصته.

۞ **ويذكر الكلاباذي**[٢] أن طائفة أطلق عليهم لفظ الصوفية، وأن هذا اللفظ غلب عليهم، وحل منهم محل الاسم، وأنهم سموا صوفية لصفاء أسرارهم، ونقاء آثارهم، ومنهم بشر بن الحارث[٣] الذى كان يقول: الصوفى من صفاء قلبه لله[٤]. فكأن الصوفى بعمله الطيب، ونقاء أسراره، وصفاء آثاره أقتبس التصوف له؛ حتى

---

(١) الأستاذ عبدالباسط صالح – التصوف الإسلامى ص٧٣ – طبعة أولى ١٩٦٥م كركوك.

(٢) الكلاباذي الحافظ الإمام أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسين البخاري – سمع الهيثم بن كليب الشاشي ومنه جعفر المستغفري، وهو أحفظ من كان بما وراء النهر في زمانه قال هو الحاكم حسن الحفاظ حسن المعرفة والفهم. متقن ثبت لم يخلف مثله بما وراء النهر حدث ببغداد في حياة الدارقطني وكان يثني عليه مات في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة عن خمس وثمانين سنة » [راجع العلامة عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل (المولود ٨٤٩هـ والمتوفى ٩١١هـ) – طبقات الحفاظ ج:١ ص:٤٠٧ رقم:٩٢١ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٣هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١]

(٣) هو « بشر بن الحارث الزاهد أبو نصر من أهل بغداد أصله من مرو يروى عن المعافى بن عمران وابن المبارك ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدى وعبد الله بن داود الخريبي روى عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي وأهل العراق وأخباره وشمائله في التقشف وخفي الورع أشهر من أن يحتاج إلى الاغراق في وصفها روى أحرفا يسيرة عن مولاه وأضرابهم وكان ثورى المذهب في الفقه والورع جميعا مات سنة تسع وعشرين ومائتين » [العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى ٣٥٤هـ – الثقات ج: ٨ ص: ١٤٣رقم: ١٢٦٥١ – دار الفكر ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٩ – تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، وراجع الجرح والتعديل ج: ٢ ص: ٣٥٦ رقم:١٣٥٤، وراجع أيضا: المقتنى في سرد الكنى ج:٢ ص:١١٢ رقم:٦١٩٤]

(٤) الكلاباذى – التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٨ .

يكون علامة عليه، ثم صار يعرف بها، كما لا تنطبق الكلمة على أحد سواد[1].
يستوى فى ذلك الأفراد والجماعة.

وسواء أكان الصوفية أهل صفاء، أم كانوا أهل تصوف؛ فإن الذى لا جدال
حوله هو أنهم قوم « صفت معاملتهم لله، فصفت لهم من الله عز وجل كرامته »[2]،
التى يعيش فى رحابها أولياؤه، ويعبر عنها – الكرامة – بالبشرى الحسنة لقوله
تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا
يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو
الفوز العظيم﴾[3].

❁ **يقول العلامة ابن كثير** : « يخبر تعالى أن أولياءهم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما
فسرهم بهم فكل من كان تقيا كان لله وليا فلا خوف عليهم أي فيما يستقبلونه
من أهوال الآخرة ولاهم يحزنون على ما وراءهم في الدنيا وقال عبد الله بن مسعود
وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله[4]، وعن ابن
عباس قال [قال رجل يا رسول الله من أولياء الله قال الذين إذا رؤوا ذكر
الله][5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن
من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم
قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور وهم على منابر من

---

(١) راجع للشيخ محمد خير الدين الزرقانى – دراسات حول التصوف والصوفية ص١١٢ – طبعة
الدار الصوفية ١٩٣٧م.

(٢) الكلاباذى – التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٩ .

(٣) سورة يونس – الآيات ٦٢/٦٤.

(٤) وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار ٣٦٢٦ حدثنا علي بن حرب الرازي حدثنا محمد بن
سعيد بن سابق حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري وهو القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد
بن جبير

(٥) مجمع الزوائد ج١٠ ص٧٨ ، حلية الأولياء ج١ ص٦ ، ج٧ ص٢٣١ .

نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون][1] .

فعن أبي مالك الأشعري قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا في الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها يفزع الناس ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون][2] ،

وعن أبي الدرداء[3] رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم [في قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له. بشرى المؤمنين في الحياة الدنيا][4] . وعن أبي الدرداء قال [أتاه رجل فقال ما تقول في قول الله لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال لقد سألت عن شيء ما سمعت

---

(١) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص٣٣٢ – ذكر وصف المتحابين في الله في القيامة عند حزن الناس وخوفهم في ذلك اليوم الحديث: ٥٧٣ ، مسند أبي يعلى ج ١٠ ص ٤٩٥ ، الحديث: ٦١١٠، رواه البزار – الحديث: ١١١٣٢ أيضا أبو داود – الحديث: ٣٥٢٧ من حديث جرير عن عمارة ابن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا أيضا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب والله أعلم .

(٢) الإمام أحمد – مسند أحمد – الحديث: ٥٣٤٣ .

(٣) أبو الدرداء : هو الصحابى الجليل ؛ عويمر أبو الدرداء مشهور بكنيته وباسمه جميعا واختلف في اسمه فقيل هو عامر وعويمر . أسلم يوم بدر وشهد أحدا وأبلى فيها قال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نعم الفارس عويمر وقال هو حكيم أمتي . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن زيد بن ثابت وعائشة وأبي أمامة وفضالة بن عبيد روى عنه ابنه بلال وزوجته أم الدرداء وأبو إدريس الخولاني وسويد بن غفلة وجبير بن نفير وزيد بن وهب وعلقمة بن قيس وآخرون قال أبو شهر عن سعيد بن عبدالعزيز مات أبو الدرداء وكعب الأحبار لسنتين بقيتا من خلافة عثمان وقال الواقدي وجماعة مات سنة اثنتين وثلاثين وقال بن عبدالبر إنه مات بعد صفين والأصح عند أصحاب الحديث أنه مات في خلافة عثمان. راجع الاصابة لابن حجر – العين بعدها الواو. رقم : ٦١٢١

(٤) الإمام أحمد – مسند أحمد بن حنبل – الحديث: ٦٤٤٥ .

أحدا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بشراهم في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وبشراهم في الآخرة الجنة][1].

وعن عبادة بن الصامت[2] أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله أرأيت قول الله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي أو قال أحد قبلك تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له[3]،

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة فما بشرى الدنيا قال الرؤيا

---

(١) الإمام أحمد – مسند أحمد ج٦ ص٤٤٧ – الحديث: ٢٧٥٦٦ .

(٢) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الإمام القدوة أبو الوليد الأنصاري أحد النقباء ليلة العقبة ومن أعيان البدريين سكن بيت المقدس، حدث عنه أبو أمامة الباهلي وأنس بن مالك وأبو مسلم الخولاني ....، وآخرون، وهو ممن جمع القرآن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أقواله: ألا تروني لا أقوم إلا رفدا ولا آكل إلا مالوق يعني لين وسخن وقد مات صاحبي منذ زمان يعني ذكره وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحل لي وإن لي ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتي الشيطان فيحركه على أنه لا سمع له ولا بصر، ومات رحمه الله بالرملة سنة أربع وثلاثين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة » [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٥ رقم:١]

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – ج٥ ص٣١٥ الحديث: ٢٢٧٤٠، وكذا رواه أبو داود الطيالسي ٥٨٣ عن عمران القطان عن يحيى بن أبي كثير به ورواه الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير فذكره ورواه علي بن المبارك عن يحيى عن أبي سلمة قال نبئنا عن عبادة بن الصامت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فذكره وقال ابن جرير حدثني أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحموسي عن حميد بن عبد الله المزني قال أتى رجل عبادة بن الصامت فقال آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال عبادة ما سألني عنها أحد قبلك سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك ما سألني عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في المنام أو ترى له .

الصالحة يراها العبد أو ترى له[١]. وهي جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة[٢]. وعن أبي ذر أنه قال [يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك عاجل بشرى المؤمن][٣]،

وعن عبد الله بن عمرو[٤] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لهم البشرى في الحياة الدنيا قال الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين

---

(١) ابن ماجه – سنن ابن ماجه ج: ٢ ص: ١٢٨٣ · الحديث:٣٨٩٨ . وموطأ مالك ج: ٢ ص: ٩٥٨ – الحديث:١٧١٧ ، ومسند أحمد ج٥ ص٣١٥ الحديث ٢٢٧٣٩،٢٢٧٩٢ ج٥ ص٣٢١ .

(٢) ففي صحيح مسلم ج٤ ص١٧٧٥ – الحديث : ٢٢٦٥ قال نافع « حسبت أن بن عمر قال جزء من سبعين جزءا من النبوة » ، وذكره ابن حبان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « الرؤيا جزء من سبعين جزء من النبوة » صحيح ابن حبان ج١٣ ص٤٠٩ – ذكر البيان بأن هذا العدد المذكور في خبر أنس بن مالك وعوف بن ملك لم يرد به النفي عما وراءه الحديث:٦٠٤٤ ، وذكره ابن حبان عن أبى رزين العقيلي « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا جزء من سبعين جزءا من النبوة والرؤيا معلقة برجل طير ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدث بها الا عالما أو ناصحا أو حبيبا » صحيح ابن حبان ج١٣ ص٤٢٠ – ذكر الزجر عن أن يقص المرء رؤيا الا على العالم أو الناصح له – الحديث: ٦٠٥٥

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم – الحديث: ٢٦٤٢ ، ومسند أحمد الحديث: ٥١٥٦ .

(٤) عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي كنيته أبو محمد عند الأكثر . روى عن النبي ﷺ كثيرا وعن عمر وأبي الدرداء ومعاذ وابن عوف وعن والده عمرو قال أبو نعيم حدث عنه من الصحابة بن عمر وأبو أمامة والمسور والسائب بن يزيد وأبو الطفيل وعدد وآخرون . وقال ابن سعد أسلم قبل أبيه ويقال لم يكن بين مولدهما إلا اثنتا عشرة سنة أخرجه البخاري عن الشعبي وجزم بن يونس بأن بينهما عشرين سنة.وفي البخاري والبغوي من طريق همام بن منبه عن أبي هريرة ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب . قال الواقدي مات بالشام سنة خمس وستين وهو يومئذ بن اثنتين وسبعين. الإصابة في تمييز الصحابة – (العلامة شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ) رقم: ٤٨٥٠ ص١٩٣/١٩٧ .

جزءا من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثا وليكبر ولا يخبر بها أحدا[١]. وعن أم كرز الكعبية[٢] سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت النبوة وبقيت المبشرات[٣].

وفي حديث البراء رضي الله عنه أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى "لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون"

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج: ٢ ص: ٢١٩ – الحديث: ٧٠٤٤ ، والحديث ٢٢١٩ وراجع مجمع الزوائد ج٧ ص١٧٥ ، وتحفة الأحوذى ج٦ ص٤٥٣ ، ج٧ ص٢٦٥ . وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب حدثني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لهم البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وقال أيضا ابن جرير حدثني محمد بن حاتم المؤدب حدثنا عمار بن محمد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة أنه قال الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من المبشرات هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الحسنة هي البشرى يراها المسلم أو ترى .

(٢) هي: أم كرز الكعبية الخزاعية المكية لها صحبة روت عن النبي، روى عنها سباع بن ثابت د س ق وطاووس بن كيسان س وعبد الله بن عباس وعروة بن الزبير وعطاء بن أبي رباح س وعمرو بن شعيب ق مرسل ومجاهد س ومحمد بن ثابت بن سباع ت وميسرة بن أبي حكيم وحبيبة بنت ميسرة د س روى لها الأربعة [راجع العلامة يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي المولود ٦٥٤ هـ والمتوفى ٧٤٢هـ– تهذيب الكمال ج٣٥ ص٣٨٠ رقم:٨٠٠١ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٣٥ – تحقيق د. بشار عواد معروف. وراجع تقريب التهذيب ج١ ص٧٥٨ رقم:٨٧٥٧]

(٣) العلامة الإمام محمد بن يزيد بن ماجة القزويني –سنن ابن ماجة : « باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له– الحديث رقم:٣٨٩٦، روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم

وقال تعالى "يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم" وقوله "لا تبديل لكلمات الله" أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ذلك هو الفوز العظيم »[1].

❁ **وفى تقديرى**: أن الصفاء وصف جميل لحق به الصوفية الأعلام، حتى عرفوا بالصفاء القلبى والنقاء الروحى، وصحة العقيدة مع سلامة العبادة وإخلاص النية، بل صار يمثل عاملا مهما فى دنيا الصوفى وأخرته، فالصفاء يعم الواحد منهم كافراد فى مجتمع واحد، ويشملهم جميعا كامة لها كيانها الخاص، أنهم أصحاب ولاية وكرامة عند الله تعالى، وفى ذات الوقت هم أصحاب أسرار وأنوار[2]، فاشتقاق التصوف من الصفاء أمر وارد، ولا تحيله قواعد اللغة – كما زُعم – لأنا لا نقول: إن انتساب التصوف إلى الصفاء وإنما نؤكد على اشتقاقه منه، والفرق بين الانتساب إليه والاشتقاق منه كبير لمن تأمل كلا منهما، أو كانت غايته الوصول للحق الذى شرعه الله تعالى؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها، لا يبالى أين جاءت، فعن أبي هريرة ﷺ قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »[3].

ويشهد لما ذهبنا إليه، من وصفهم بأنهم أهل الصفاء لله، من خلال عقيدة صحيحة، وإيمان كامل، وعبادة قائمة على أسس شرعية، كما أن شيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى[4] قد رجح هذا المنحى، وأن الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر.

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير ج:٢ ص:٤٢٣/٤٢٥ .

(٢) راجع كتابنا أوراق مطوية فى التصوف والصوفية ص١١٠ – الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٣) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج:٥ ص:٥١ – الحديث:٢٦٨٧، وأخرجه الإمام ابن ماجه – سنن ابن ماجه ج:٢ ص١٣٩٥ – باب الحكمة – الحديث:٤١٦٩ .

(٤) ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وسمع ابن أبي اليسر وابن عبد الدائم وعدة ، وعني بالحديث وخرج وانتقى وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد والأفراد ألف ثلاثمائة مجلدة وامتحن وأوذي مرارا مات في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. [راجع طبقات الحفاظ ج١ ص٥٢٠ – رقم: ١١٤٢]

وأن التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوى وأشباه ذلك[1]، فقد جمع - رحمه الله - بين التصوف كممارسة والصوفي كممارس فعلي مباشر في سلوكياته لما يعرفه، ومطبق لما يعتقده، وهذا شأن صوفية أهل الإسلام.

ومال ابن تيمية إلى أن الصوفي نال درجة الصديقين الذين هم أكمل الخلق بعد الأنبياء، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾[2].

❁ **يقول الإمام القرطبي** : « لما ذكر تعالى الأمر الذي لو فعله المنافقون حين وعظوا به وأنابوا إليه لأنعم عليهم، ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله. وهذه الآية تفسير قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم"[3]، وهي المراد في قوله عليه السلام عند موته (اللهم الرفيق الأعلى).

وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة)وكان في شكواه الذي مرض فيه أخذته بحة شديدة فسمعته يقول: (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) فعلمت أنه خير.

وقالت طائفة: إنما نزلت هذه الآية لما قال عبدالله بن زيد بن عبدربه الأنصاري - الذي أري الأذان[4] - : يا رسول الله، إذا مت ومتنا كنت في عليين لا نراك ولا نجتمع بك؛ وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الآية. ولأن هذا الصحابي قد مارس الصفاء علما وعملا، فقد أكرمه الله تعالى، حتى صار مستجاب الدعوة، ودليل ذلك أنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم قال: اللهم أعمني حتى لا أري شيئا بعده؛ فعمي مكانه[5].

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيميه - مجموع الفتاوى - التصوف - م١١/ص١٦ طبعة دار الرحمة .

(٢) سورة النساء - الآية ٦٩ .

(٣) سورة الفاتحة - الآيتان ٦/٧ .

(٤) رؤيا الأذان في كتب السنة النبوية المطهرة حيث ذكرت تفاصيل ذلك في باب الأذان.

(٥) ليس ذلك من الدعاء المحرم؛ لأن الداعي أيقن من ذاته عدم القدرة على صيانة نفسه عن الفتنة، فدعا الله أن يعمى بصره حتى لا يقع فيها.

وحكاه القشري فقال: اللهم أعمني فلا أرى شيئا بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي؛ فعمي مكانه. وحكى الثعلبي: أنها نزلت في ثوبان[1] مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقال له: (يا ثوبان ما غير لونك) فقال: يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع. غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك؛ لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك. وإن لم أدخل فحين ذلك لا أراك أبدا؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية[2]..

ذكره الواحدي عن الكلبي. وأسند عن مسروق قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا. فإنك إذا فارقتنا رفعت فرقنا. فأنزل الله تعالى: "ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين"[3].

وفي طاعة الله طاعة رسوله ولكنه ذكره تشريفا لقدره وتنويها باسمه صلى الله عليه وسلم وعلى آله. "فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم" أي هم معهم في دار

---

(١) ثوبان مولى رسول الله صحابي مشهور يقال إنه من العرب حكمي من حكم بن سعد خمير وقيل من السراد اشتراه ثم أعتقه رسول الله فخدمه إلى أن مات ثم تحول إلى الرملة ثم حمص ومات بها سنة أربع وخمسين قاله بن سعد وغيره وروى بن السكن من طريق يوسف بن عبد الحميد قال لقيت ثوبان فحدثني أن رسول الله دعا لأهله فقلت أنا من أهل البيت فقال في الثالثة نعم ما لم تقم على باب سده أو تأتي أميرا تسأله وروى أبو داود من طريق عاصم عن أبي العالية عن ثوبان قال قال رسول الله من يتكفل لي الا يسأل الناس واتكفل له بالجنة فقال ثوبان أنا فكان لا يسأل أحدا شيئا. [العلامة ابن حجر - الإصابة ج١ ص٤١٣ - الثاء بعدها الواو - رقم:٩٦٨ ، وراجع الكاشف ج١ ص٢٨٥ رقم: ٧٢١].

(٢) سورة النساء - من الآية ٦٩ .

(٣) العلماء يقولون العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ومعنى ذلك أن الآية يمكن أن تكون نزلت في عبدالله بن زيد وثوبان وغيرهما، بحيث تنطبق على كل من يشابههما في طاعة الله والرسول.

واحدة ونعيم واحد يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم، لا أنهم يساوونهم في الدرجة، فإنهم يتفاوتون لكنهم يتزاورون للاتباع في الدنيا والاقتداء. وكل من فيها قد رزق الرضا بحاله، وقد ذهب عنه اعتقاد أنه مفضول»[1]. وقال الله تعالى: ﴿"ونزعنا ما في صدورهم من غل "﴾[2]

۞ **وذهب شيخ الإسلام ابن تيميه** – رحمه الله – إلى أن : « الصوفى فى الحقيقة نوع من الصديقين »[3]، ومادام الأمر كذلك فإن التصوف هو فى الحقيقة الذى سلك بالصوفى طريق الصفاء، حتى نال درجة القرب الشديد من الله تعالى، وفى الحديث الشريف عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: « قال ﷺ قال من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه قالت عائشة أو بعض أزواجه أنا لنكره الموت قال ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»[4].

---

(١) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٢٧١ . والصديق فعيل، المبالغ في الصدق أو في التصديق. والصديق هو الذي يحقق بفعله ما يقول بلسانه. وقيل: هم فضلاء أتباع الأنبياء الذين يسبقونهم إلى التصديق كأبي بكر الصديق. وقد تقدم في البقرة اشتقاق الصديق ومعنى الشهيد. والمراد هنا بالشهداء عمر وعثمان وعلي، والصالحين سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وقيل "الشهداء" القتلى في سبيل الله. "والصالحين" صالحي أمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: واللفظ يعم كل صالح وشهيد، والله أعلم. والرفق لين الجانب. وسمي الصاحب رفيقا لارتفاقك بصحبته؛ ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض. ويجوز "وحسن أولئك رفقاء". قال الأخفش: "رفيقا "منصوب على الحال وهو بمعنى رفقاء؛ وقال: انتصب على التمييز فوحد لذلك؛ فكأن المعنى وحسن كل واحد منهم رفيقا. كما قال تعالى: "ثم نخرجكم طفلا "[الحج: ٥] أي نخرج كل واحد منكم طفلا. وقال تعالى: "ينظرون من طرف خفي "[الشورى:٤٥] وينظر معنى هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم: (خير الرفقاء أربعة) ولم يذكر الله تعالى هنا إلا أربعة فتأمله

(٢) سورة الأعراف – الآية ٤٣ .

(٣) شيخ الإسلام ابن تيميه الحرانى – التصوف – م١١/ص٢٧ .

(٤) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٥ ص:٢٣٨٦ – [٤١] باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه – الحديث : ٦١٤٢ عن أنس عن عبادة بن الصامت، وأخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:٤ ص:٢٠٦٥ [٥] باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه– الحديث: ٢٦٨٣، وأخرجه ابن حبان والترمذى والنسائى وأحمد والطبرانى .

أما من مال إلى أن اشتقاق التصوف من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة[1]، فهذا ما لا نسلم به؛ لأن فرضه قائم على الانتساب، وليس على الاشتقاق، واللغة قد تواجه صعوبة في انتساب التصوف إلى الصفاء، ولكنها تؤيد اشتقاقه منه، على ما سلف بيانه.

كما أنا نطالب بضرورة أن يوضع في الاعتبار الفوارق بين الألفاظ ودلالتها على معانيها مع ملاحظة ما استقر عليه العرف العلمي، من ضرورة بحث العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه، الذى قد يكون أحد أوجهه قائما على الاشتقاق أو النقل، أو النحت والاقتباس بحسب ما هو مشهور في كتب العربية[2]، ومعتصم بأسرارها.

كما أن المسألة المبحوثة ليست جملة ذات طلاسم لا تعرف المعانى التى تدور حولها مفرداتها، وإنما كل مفرداتها معروفة على ناحية من النواحى التى جرى حولها البحث العلمى ومازال يجرى، كما أنه من الثابت وجود معنى خاص لكل لفظ مفرد[3]، باعتبار أن الألفاظ أثواب المعانى، فما من لفظ إلا وله معنى، وربما تعددت معانيه. مع أنه اللفظ واحد، ففى الحديث الشريف عن أبي جحيفة قال « خرج إلينا عبد الله يوما وهو خاثر فقلنا مالك فقال ذهب صفو الدنيا فلم يبق ألا الكدر فالموت اليوم تحفة لكل مسلم »[4]. وبالتالى تكون التفرقة بين هذه المعانى ضرورة علمية: وهو الذى ننبه إليه ونلتمسه لدى إخواننا من أهل العلم، وليس النقلة الذين لا هم لهم سوى سرقة كتب الآخرين، ونسبتها إلى أنفسهم[5]. إذن اشتقاق التصوف من الصفاء ليس ببعيد أبدا.

---

(١) الإمام القشيرى - الرسالة القشيرية فى علم التصوف ص٢١٧ .

(٢) كثيرا ما طالبت بتحديد المصطلح ومازلت بل إن التحديد للمصطلح أمر مهم على الناحية العلمية والشرعية، ومن ثم فإنى أطالب به على وجه لا يمكن أن يحل غيره حتى يكون بديلا منه.

(٣) الأستاذ نصر الله محمد البرعي - الألفاظ العربية ودلالاتها ص١٥ .

(٤) الطبراني - المعجم الكبير ج٩ ص١٥٤ رقم: ٨٧٧٤ .

(٥) وليت هؤلاء يتذكروا ما قاله الشاعر الجاهلى طرفة بن العبد :

ولا أغير على الأشعار أسرقها ∴ غنيت عنها وشر الناس من سرقا

وإن أحسن بيت أنت قائله ∴ بيت يقال إذا أنشدته صدقا

[راجع الدكتورة نازلي إسماعيل حسين - فلسفة الحضارة ص١٥٢ - مكتبة سعيد رأفت - جامعة عين شمس]

ويعنون به أن التصوف كان يطلق في الأصل على الصف الأول، ثم نقل من الصف الأول إلى العلم المعروف والهيئة التي تسمى بها الزهاد والمتنسكون، وعليه فإن التصوف يكون التزام الصف الأول في العبادة والطاعة، ومن ثم كان الصوفية دائما في الصف الأول بين يدى الله عز وجل. لا يقصرون جهدا ولا يبالون بما يعتقدون ويعبدون غير وجه الله تعالى وجها[1].

وهم في الصف الأول من القائمين بين يدى الله بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه[2]. وهم في الصف الأول باعتبار الوصول إلى الله، فهم السابقون إليه، السائرون عليه، المقربون إلى ربهم، العارفون له حقوقه، القائمون بواجباتهم نحوه جل علاه.

بيد أنهم في كل صف أول نحو الله تعالى. إذ هم قد اشتغلوا بالعبادة، وإصلاح نفوسهم والسيطرة عليها والارتقاء بها، والاحتماء في جناب الله من كل ما سواه، وهم « المشتغلون بإصلاح القلوب والسرائر. وهم المقربون الغائبون عن رؤية أنفسهم، الباقون بشهود ربهم »[3]، القائمون على طاعته التزاما في حب، وقربا مع ود. وشكرا على كل حال.

بل صح القول فيهم: إنهم الملتزمون عبادته، الذين ربطوا أنفسهم على أبواب محبته، وشغلوا أنفسهم بالتسابق إلى طاعته ورضوانه. مع محاولة التكمل بكل ما يرضيه، والعمل الدائم نحو الهدف الأسمى والغاية النبيلة، وهى الاندماج مع التحقق بطاعة الله رب العالمين.

۞ **وفى تقديرى**: أن التصوف صفاء يشيع داخل صاحبه، ووقوف بالمرء بين يدي خالقه في كل الأوقات مع الأوامر والنواهى بنفس راضية وهمة عالية، فإذا كان التصوف مشتقا من الصف الأول على هذا المعنى، فما المانع وقد جاءت الشواهد العربية مؤيدة هذا الاشتقاق.

---

(١) الشيخ عبدالعظيم حسن الذكي – الصوفية رجال الله ص١٧ ط١٣٣٤/١هـ.

(٢) الكلاباذى – التعرف لمذهب أهل التصوف ص٣١، وراجع للإمام القشيري – الرسالة القشيرية ص٦٢ .

(٣) الإمام أحمد بن عجيبة – الفتوحات الإلهية ص٢٨١ . والرسالة القشيرية ص١١٥ .

بل إن المصادر العربية أكدت أن الصّوفى من ربط نفسه لخدمة ربه، وأبعدها عن معاصية، فكان فى الصف الأول من السائرين إليه جل شأنه، بل ما المانع أن يكون الصوفى هو نفسه ربيط طاعة الله، وقد أعلنها بنفسه وأعتنقها بقلبه، وجرت على جوارحه والتزم بها من غير مخالفة لها أو تكبر عليها، حتى كان سباقا إليها، فكان فى الصف الأول من أهل العبادة لله، الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى: ﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم﴾[1].

۞ **قال الإمام السيوطى** : « عن ابن عباس[2] رضي الله عنهما في قوله: ﴿والسابقون السابقون﴾ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى ومؤمن آل يس[3] سبق إلى عيسى وعلي بن أبي طالب[4] رضي الله عنه سبق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "السابقون يوم القيامة أربعة

---

(١) سورة الواقعة – الآيات ١٢/١٠ .

(٢) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم كنيته أبو العباس مات النبي صلى الله عليه وسلم وعبدالله بن عباس قد استوفى ثلاث عشرة ودخل في أربع عشرة وكان يصفر لحيته وكان يكنى أبا العباس. وكان قد قرأ المحكم علي عهده صلى الله عليه وسلم دعا له المصطفى صلى الله عليه وسلم بالفقه في دين الله وعلم تأويل كتابه وكان بحرا لا ينزف. مات بالطائف سنة ثمان وستين وهو ابن ثنتين وسبعين سنة. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن معاذ ، وعن عمر وميمونة وأم الفضل بنت الحارث وأبي هريرة والصعب بن جثامة وزيد بن أرقم في الحج وأم عبدالله بن الزبير أسماء ...، وروى عنه أبو جمرة وأبو زميل وسعيد بن جبير وأبو رجاء وأبو العالية الرياحي رفيع ومجاهد وعطاء بن رباح وأبو عثمان النهدي وأبو المتوكل الناجي وطاوس وسليمان بن يسار وكريب وأبو الشعثاء جابر بن زيد وابنه علي ومحمد بن عمرو بن عطاء... [راجع العلامة أحمد بن علي بن منجوية الأصبهاني أبو بكر المولود ٣٤٧هـ والمتوفى٤٢٨هـ – رجال صحيح مسلم ج١ ص٣٣٩ – رقم: ٧٣١ – دار المعرفة – بيروت]

(٣) قال تعالى: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ◦ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ◦ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ◦ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ◦ إني إذا لفي ضلال مبين ◦ إني آمنت بربكم فاسمعون ◦ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ◦ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ [سورة يس ٢٧/٢٠]

(٤) علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي أبو الحسن أول الناس إسلاما في قول كثير من أهل العلم. ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح فربى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك فقال له بسبب تأخيره له بالمدينة ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى وزوجه بنته فاطمة وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد ولما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه قال له أنت أخي ومناقبه كثيرة حتى قال الإمام أحمد لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي. روى عن النبي ﷺ كثيرا ، وروى عنه من الصحابة ولداه الحسن والحسين وابن مسعود وأبو موسى وابن عباس... وغيرهم، واشتهر بالفروسية والشجاعة والإقدام، وقتله غدرا ابن ملجم في رمضان عام ٤٠هـ. [راجع الإصابة العين بعدها اللام، رقم ٥٦٩٢ [ص: ٥٦٥/٥٦٦] – الاستيعاب لابن عبدالبر – تحقيق محمد البيجاوى – دار الجيل – بيروت ١٩٩٢م .

فأنا سابق العرب، وسلمان[١] سابق فارس، وبلال[٢] سابق الحبشة، وصهيب[٣] سابق الروم".وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ﴿السابقون السابقون أولئك المقربون﴾ أول من يدخل المسجد وآخر من يخرج منه."

وعن عثمان بن أبي سودة[٤] مولى عبادة بن الصامت قال: بلغنا في هذه الآية ﴿والسابقون السابقون﴾ أنهم السابقون إلى المساجد والخروج في سبيل الله.وعن ابن عباس ﴿والسابقون السابقون﴾ قال: من كل أمة.وقال ابن مردويه في قوله: ﴿السابقون

---

(١) سلمان الفارسي أبو عبد الله أصله من قرية بأصبهان وهو الذي يقال له سلمان الخير ومن زعم أنهما اثنان فقد وهم سكن الكوفة مات في خلافة علي رضي الله عنه بالمدائن سنة ست وثلاثين . [راجع الثقات ج: ٣ ص: ١٥٧ رقم: ٥٢٠ ، مشاهير علماء الأمصار ج: ١ ص: ٤٤ رقم: ٢٧٤ ، وراجع تقريب التهذيب ج١ ص٢٤٦ ، والكاشف ج١ ص٤٥١]

(٢) بلال بن رباح مؤذن رسول الله أعتقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ترب أبي بكر وكان له ولاؤه وكنيته أبو عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو عبد الكريم أمه حمامة قال لأبي بكر بعد موت النبي إن كنت أعتقتني لله فدعني أذهب حيث شئت وإن كنت أعتقتني لنفسك فأمسكني قال أبو بكر اذهب حيث شئت فذهب إلى الشام مؤثرا للجهاد على الأذان إلى أن مات سنة عشرين ويقال إن قبره بدمشق وسمعت أهل فلسطين يقولون إن قبره بعمواس وقد قيل إن قبره بداريا وامرأة بلال هند الخولانية وكان لبلال يوم مات بضع وستون سنة . [راجع العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى ٣٥٤ – مشاهير علماء الأمصار ج: ١ ص: ٥٠ رقم: ٣٢٣ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٥٩م – عدد الأجزاء ١ – تحقيق م. فلايشهمر ، الثقات ج: ٣ ص: ٢٨ رقم: ٩٥]

(٣) صهيب بن سنان بن مالك ويقال خالد بن عبد عمرو بن عقيل ويقال طفيل بن عامر بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس بن زيد مناة بن النمر بن قاسط النمري أبو يحيى وأمه من بني مالك بن عمرو بن تميم وهو الرومي قيل له ذلك لأن الروم سبوه صغيرا قال بن سعد وكان أبوه وعمه على الأبلة من جهة كسرى وكانت منازلهم على دجلة من جهة الموصل فنشأ صهيب بالروم فصار ألكن ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة فاشتراه عبدالله بن جدعان التميمي فأعتقه ويقال بل هرب من الروم فقدم مكة فحالف بن جدعان وروى بن سعد أنه أسلم هو وعمار ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم، وهاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر في تلك السنة فقدما في نصف ربيع الأول وشهد بدرا والمشاهد بعدها، ورواه بن عدي من حديث أنس والطبراني من حديث أم هانئ ومن حديث أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم السباق أربعة أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وبلال سابق الحبشة وسليمان سابق الفرس وروى بن عيينة في تفسيره وابن سعد من طريق منصور عن مجاهد أول من أظهر إسلامه سبعة فذكره فيهم. وروى عنه أولاده حبيب وحمزة وسعد وصالح وصيفي وعباد وعثمان ومحمد وحفيده زياد بن صيفي وروى عنه أيضا جابر الصحابي وسعيد بن المسيب وعبدالرحمن بن أبي ليلى وآخرون قال الواقدي مات صهيب في شوال سنة ثمان وثلاثين وهو بن سبعين. (راجع الإصابة لابن حجر – الصاد بعدها الهاء [ص:٤٤٨/٤٥٠]. رقم: ٤١٠٨ ، وراجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص١٨/٢١ رقم: ٤ .

(٤) عثمان بن أبي سودة المقدسي عن أبي الدرداء وأبي هريرة وعنه أخوه زياد وثور بن يزيد والأوزاعي وقال أدرك عبادة وهو مولاه [راجع للعلامة حمد بن أحمد أبو عبدالله الذهبي الدمشقي: الكاشف ج٢ ص٧ رقم: ٣٧٠٢]

السابقون﴾ قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون[١]، وحبيب النجار الذي ذكر في يس، وعلي بن أبي طالب، وكل رجل منهم سابق أمته، وعلي أفضلهم سبقا، وقال السيوطى: ﴿والسابقون السابقون﴾ هم مثل النبيين والصديقين والشهداء بالأعمال من الأولين والآخرين. ﴿أولئك المقربون﴾ قال: هم أقرب الناس من دار الرحمن من بطنان الجنة وبطنانها وسطها في جنات النعيم »[٢]، ونعم أجر العاملين، والصوفية هم من أسبق الناس إلى الصف الأول فى الطاعة لله رب العالمين.

كما أن أهل التصوف هم: « العصابة القليل عددها، العظيم عند الله قدرها وخطرها...، وطريقتهم هى طريقة أهل المنحة والفضل منهم، ولابد من معرفة أصولهم، حتى يميز بينهم وبين المتشبهين بهم، أو المتلبسين بلبسهم والمتسمين بأسمائهم، فلا يغلط ولا يأثم، لأن هذه العصابة أعنى الصوفية؛ هم أمناء الله جل وعز فى أرضه، وخزنة أسراره وعلمه »[٣]، ومت كان هذا شأنه فلأنه دائما يكون فى الصف الأول، من أهل الطاعة مع ما فيه من صفاء ونقاء وطهارة.

وعلى هذا فلا منازعة من اعتبار التصوف مشتقا على سبيل المجاز من الصف الأول، وهو فى هذه الحال لا يحتاج إضافة النسبة؛ لأن المنقول من لغة إلى أخرى يظل محتفظاً بأصله، على ما هو مدون فى كتب أهل الاختصاص، ويؤيد ذلك ما ذكره العلامة تاج الدين السبكي من أن: « الاشتقاق رد لفظ إلى آخر، ولو مجازاً لناسبة بينهما »[٤]، والمناسبة قائمة بين التصوف والصف الأول.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر - الآية ٢٨].

(٢) العلامة جلال الدين السيوطى - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور - طبعة دار الفكر بيروت الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٣) الطوسى - اللمع ص١٨ وما بعدها (بتصرف يسير) - تحقيق الدكتور: عبدالحليم محمود وآخر - دار الكتب ١٩٦٠م.

(٤) العلامة الشيخ زكريا عبدالسلام طاحون - الحقيقة والمجاز ص٢٧ .

❁ **وقد ذكر القشيري**[1] من أسباب تسمية القوم صوفية. وذكر الأقوال فيها، ومنها أنهم سموا صوفية، لأنهم في الصف الأول بين يدى الله عز وجل، بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم على الله بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه[2]، ولكنه زكى تسميتهم للبسهم الصوف، واعتبره الأليق والأقرب إلى التواضع، وهو حر في اختياره لقول من الأقوال، وترجيحه على غيره مادام الدليل عنده قد رجح، فالقاعدة قاضية بأن من لديه الدليل يكون قوله حجة على من لا دليل معه.

لكن أيهما أدعى للاعتناق: أن يكونوا صوفية لوقوفهم في الصف الأول بين يدى الله تعالى مستجمعين عقولهم وقلوبهم، أجسادهم ونواياهم، ظاهرهم وباطنهم، أم أن يكونوا قد تغطت أجسادهم بالصوف فقط؟!

❁ **في تقديري**: أن ارتداء الصوف أمر مشترك بين المستعملين له يمكن أن يقاسمهم فيه الفقهاء والمحدّثون، بل وأصحاب الفرق والمتكلمون، ناهيك عن كونه لباسا مشتركا يرتديه المسلمون والمشركون، وكل بني الإنسان مادام قد راق لهم أو تمكنوا منه[3]، فهل يمكن ترجيحه على غيره، واعتبار لبس الصوف هو الفيصل حتى تتم نسبتهم به؟! إني أرى غير ذلك، ولا أظن أني خالفت الحقيقة، أو باعدت نفسي عن المنهج العلمي.

وقد رجح القشيري مبدأ لبس الصوف، وقاس الأمرين معا وأنه «يقال صوفي نسبة إلى الصوف، كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم،

---

(١) القشيري : هو الإمام الزاهد القدوة الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي الصوفي المفسر صاحب الرسالة . ولد سنة ٣٧٥هـ كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة . صنف: (التفسير الكبير)، وهو من أجود التفاسير ، وصنف (الرسالة) في رجال الطريقة . توفي سنة ٤٦٥هـ . (سير أعلام النبلاء ج١٣ ص٥٦٤) .

(٢) الإمام القشيري - الرسالة القشيرية ص٦٢ . والكلاباذي - التعرف لمذهب أهل التصوف ص٣١ .

(٣) ذكر الشيخ خيري الإنطاكي أن رجال اللاهوت في العصور الوسطى كانوا يلبسون الصوف، ويسيرون حفاة، ويأكلون أوراق الشجر، ويعيشون في الآبار الجافة، فلبس الصوف ليس خاصا بأهل الإسلام، ومن ثم لا يعتبر دليلا على انتساب الصوفية إليه - [الإسلام دين الله ص٢٥].

والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد »[1].

وربما لا نجد سنداً قوياً يجعل لبس الصوف أمراً خاصاً بالصوفية، لأنه ما من نوع من الملابس إلاّ وقد وقعت الشركة فيه، فما بالك إذا كان هذا المشترك يعتد به الصالحون والزهاد، ويزكيه المتقشفون والعباد، لاشك أن غيرهم سوف يقوم بتقليدهم على أحسن تقدير، ويرتدى زي الصوف، وحينئذ لا تكون هناك قيمة من لبس الصوف إلاّ دفع البرد، والوقاية من الشرد، وليست هذه المسألة – لبس الصوف – من الميزات القوية حتى تصير علما على هؤلاء القوم، إلاّ بمرجح أخر، ربما وقف عليه غيرى.

وقد هاجم ابن تيميه هذا الرأى : « روى أبو الشيخ الأصبهانى بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قوما يتخيرون الصوف يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبى ﷺ يلبس القطن وغيره »[2].

إذن الأنسب فى الاشتقاق أن يرد لفظ التصوف إلى اللفظ الآخر بالمعنى المشترك المقبول على سبيل المناسبة لحالهم، وليس المشترك الذى يمكن التمسك به هو لبس الصوف لما سبق بيانه، ثم إن لبس الصوف عرض من الأعراض، ولا يمكن تقديم تعريف علمى مقبول أو نسبة صحيحة من خلال عوارض غير مشخصة على ما هو مشهور.

٢- مشتق من الصفة

وأعنى بالصفة هاهنا الحسن والبهاء، مع الاعتماد على الله تعالى، والقيام معه بكافة الواجبات التى شرعها جل شأنه، فكانت هذه صفتهم التى بها يتميزون عن غيرهم من صفاء القلوب، ونقاء السريرة، والوقوف فى الصف الأول مع أهل الطاعة والغفران، السابقون إلى الله تعالى بإحسان، وهى صفة ربما لا توجد فى غير هؤلاء، وطبقا لذلك عرفوا بالصوفية.

---

(١) الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ص٦٢ .

(٢) شيخ الإسلام ابن تيميه – مجموع الفتاوى – التصوف ص٧ .

وعلى هذا فإن أحوالهم تكون سابقة على وصفهم الذى نعتوا به، ومن ثم يصير الاشتقاق أمرا وصفيا نقل بعده إلى الاسمية، وهى الصفة التى كان عليها صحابة رسول الله ﷺ، فكم وصفهم القرآن الكريم بأنهم رحماء من أهل الركوع والسجود، رجاء الغفران من رب العالمين.

❁ قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

❁ **يقول صاحبا الجلالين**: « محمد رسول الله والذين معه هم أصحابه، أشداء غلاظ على الكفار لا يرحمونهم، وهم رحماء فيما بينهم خبر ثان أي متعاطفون متوادون كالوالد مع الولد تبصرهم ركعا سجدا يطلبون فضلا من الله ورضوانا علامتهم في وجوههم وهو نور وبياض يعرفون به في الآخرة وأنهم سجدوا في الدنيا، فكان ذلك من أثر السجود، وذلك صفتهم وقد ذكرت في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فراخه فآزره قوّاه وأعانه فاستغلظ فاستوى حتى قوي واستقام على سوقه وهى أصوله يعجب الزراع لحسنه مثل الصحابة رضي الله عنهم بذلك لأنهم بدأوا في قلة وضعف فكثروا وقووا على أحسن الوجوه ليغيظ بهم الكفار، أي شبهوا بذلك وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم الصحابة؛ لأنهم كلهم بالصفة المذكورة مغفرة وأجرا عظيما وهو الجنة »[2]، وكذلك ورد فى الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ « أصحابي كالنجوم فبأيهم إقتديتم إهتديتم »[3].

---

(١) سورة الفتح – الآية ٢٩ .

(٢) تفسير الجلالين ج١ ص: ٦٨٤ (بتصرف يسير).

(٣) العلامة: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت:١١٦٢هـ) – كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس – كشف الخفاء ج: ١ ص: ١٤٧ – رقم: ٣٨١ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٥هـ – الطبعة الرابعة – تحقيق: أحمد القلاش.

من ثم فإن الصوفى الحق لما لاح له نور ناصية التوحيد، والقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى، صابرا بين يدى الله، حاضرا شهيدا، يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى عليه السلام، حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بأنى أنا الله(١)، فقد أمسك نفسه على طائعة الله، وربطها عند باب أوامره وأبعدها عن نواهيه.

لقد صفوا قلوبهم من كل غش، وصفّوها من كل ما سوى الله، إنهم استمسكوا بوصية الرسول ﷺ لسيدنا أنس بن مالك(٢) رضي الله عنه الذى يروى أن رسول الله ﷺ قال: « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال لي يا بني ذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة »(٣).

فلا تثريب على دارس مثلي إذا قال: التصوف مشتق من الصفات الحسنة التى تحلى بها صحابة رسول الله ﷺ، اقتداء به ﷺ وسار عليها من بعدهم جمع من

---

(١) القشيرى – الرسالة القشيرية ص٢٨ .

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحد المكثرين من الرواية عنه صح عنه أنه قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا ابن عشر سنين وأن أمه أم سليم أتت به النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم فقالت له هذا أنس غلام يخدمك فقبله وأن النبي صلى الله عليه وسلم كناه أبا حمزة ببقلة كان يجتنبها ومازحه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ياذا الأذنين. ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين وكان فيه ريحان ويجيء منه ريح المسك وكانت إقامته بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ثم شهد الفتوح ثم قطن البصرة ومات بها قال علي بن المديني كان آخر الصحابة موتا بالبصرة. وعن أنس قال: جاءت بي أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام فقالت يا رسول الله أنس أدع الله له فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة قال قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة وقال جعفر أيضا عن ثابت كنت مع أنس فجاء قهرمانه فقال يا أبا حمزة عطشت أرضنا قال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية وصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب تلتئم قال ثم مطرت حتى ملأت كل شيء فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال انظر أين بلغت السماء فنظر فلم تعد أرضه الا يسيرا وذلك في الصيف. ومناقب أنس وفضائله كثيرة جدا. راجع الإصابة لابن حجر العسقلاني . باب الألف بعدها نون. ٢٧٧ – ص ١٢٨/١٢٧ .

(٣) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج:٥ ص:٤٦ – الحديث:٢٦٧٨، وراجع مجمع الزوائد ج١ ص٢٧١، والمعجم الأوسط ج٦ ص١٢٥، والمعجم الصغير ج٢ ص١٠٢، ومسند أبى يعلى ج٦ ص٣٠٩، والترغيب والترهيب ج٣ ص٣٨٤.

أهل الفضل والعلم والدين، فنسبوا إليها وعرفوا بالصوفية، كما صار التصوف علما على سلوكهم، ودليلا على جمعهم الذى انعقدوا تحت لوائه.

وقد أكد القشيرى هذا المعنى، وأكد أنه «صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك، لكونهم مجتمعين متآلفين، متصاحبين لله وفى الله»[1]، ولا عبرة بعدم موافقة اللغة لهذا الاتجاه على ما يقولون، لأنهم عمدوا إلى النسب، ولم ينظروا إلى الاشتقاق اللغوى بمعناه، الذى عناه أهل اللغة أنفسهم.

◈ **وربما تسألنى:** لماذا تطرق هذا الباب - باب التأكيد على أن الأمر متعلق بالاشتقاق لا بالنسب - بشدة، وتلح عليه باستمرار؟

❋ **والجواب:** أن الذى دفعنى لذلك هو تلمسهم ناحية الاشتقاق اللغوى وحدها، والاستئناس إليها على أنها وحدها التى يعول عليها، فحاولت التنبيه إلى أن الاشتقاق اللغوى لا يمنع وصف هؤلاء القوم بأنهم صوفية، كما لا يمنع من إطلاق اسم التصوف على أوصافهم، إنما الممتنع هو النسبة إلى التصوف على فرض القول به، والفرق بين الأمرين كبير، لأن الاشتقاق صحيح على بابه، ولكن النسب هو الذى تدور حوله بعض الصعوبات، وهم لم يستدلوا بالنسبة، وإنما استدلوا بالاشتقاق، فلذلك لزم التنويه مع التنبيه.

٤- مشتق من صوفة

يذكر مؤرخو التصوف وأصحاب السير، أن امرأة من أهل اليمن فى الجاهلية تخلفت عن قريناتها فى الحمل والولادة، فلما حملت ووضعت لم يعش لها ولد. ولما لم يعش لها ولد فقد أتت الكعبة للطواف بها، أملا فى أن تحمل ثم تلد ويعيش لها[2]، وكانت من عاداتهم فى الجاهلية - وفاضت مشاعرها إن حملت هذه المرة لتنذرنه للكعبة - ولم يكن نذر الأبناء فى الجاهلية عادة - فما أن عادت إلى ديار قومها حتى حملت، ومضت أيام حملها فوضعت وليدها، وكان الولد ذكرا.

بيد أنها حاولت الوفاء بنذرها حيث لم يكن لها من سبيل، إذ كان تردد الغلمان حول إقامتها ولعبهم حول الكعبة جعل ابنها يندس بينهم، فربما لم تتعرف

---

(١) الإمام القشيرى - الرسالة القشيرية ص٦٢.

(٢) الأستاذ محمد خان الدغرمى جانى - التصوف قبل الإسلام ص٧١ ط أولى ١٩٢٧م.

عليه إلا بصعوبة، وبخاصة أنها ظلت تتردد على الكعبة كل عام ومعها وليدها الذى كانت تصفه - أحيانا - بأنه ضحية الله(١) - و أحيانا أخرى بأنه ذبيحة الله(٢)، من ثم فقط علقت برأسه صوفة مما كانت تغزله، حتى يتميز ابنها عن باقى الغلمان فإذا غاب عنها، وفكرت فى البحث عنه يكون من السهل عليها التعرف عليه.

لكن تختلف الراويات فى اسم هذا الغلام اختلافا يسيرا، فمنهم من ينقل أن اسمه بشر بن أدّ بن طابخ(٣)، ومنهم من ينقل أن اسمه الغوث بن مر بن طابخة(٤)، ومنهم قائل إنه صوفة بن مراد بن أد بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون البيت(٥)، وسواء أكان اسمه الغوث أم بشر، فإن هذا الأمر وارد، لأنهما قد يكونان لشخص واحد، عرف لدى قوم باسم، ولدى آخرين باسم آخر، كالحال مع جد سيدنا محمد ﷺ عبدالمطلب، فقد سمي بعبد المطلب، كما عرف بشيبة الحمد(٦)، وكان تعدد الأسماء لدى العرب أمرا قائما، بل ما يزال ذلك عادة حتى وقتنا الحاضر، وبخاصة عند بعض الأسر الذين يخافون الحسد، فيتسمى الوليد باسمين أو ثلاثة، حتى لا يصاب الوليد بعين الحسود.

من ثم فلا مانع من القول بأن هذا الوليد تسمى فى ديار قومه بأحد الاسمين أو بأكثر وتسمى فى ديار القرشيين - حين كان يتردد على الكعبة صغيرا - بالاسم

---

(١) الشيخ حكمت الله مصطفى المتولى - التصوف الإسلامى ص٤٥ ط الأستانة ١٣٢٥هـ.

(٢) الأستاذ توفيق عبدالعاطى الخض - الحياة الروحية الإسلامية ص٣٧ ط مراكش ١٩٥٥م.

(٣) شيخ الإسلام ابن تيميه - التصوف ص٦.

(٤) شيخ الإسلام ابن الجوزى - تلبيس إبليس ص١٧٢، وابن تيميه صوفى معجب بسلوكياتهم، متمسك بأنه صوفى، محب للتصوفية، فهل بعد ذلك يمكن أن يتهم ابن تيميه بأنه خصم للصوفية؟!.

(٥) شيخ الإسلام ابن تيميه - علم السلوك ص٣٦٩.

(٦) العلامة ابن هشام - سيرة النبى، وراجع الروض الأنف للسهيلى، وكذلك تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور محمود زيادة.

الآخر، وما يزال الناس إلى عهد قريب يطلقون على الوليد الوحيد اسفين[1]، أو أكثر خشية الحسد، أو تعويضا عن الابن الذى فقدوه من قبل.

على أن الذى لا يمكن تجاهله هو وجود هذا الوليد فى الجاهلية، وأنه عاش فترة مديدة، وأنه أدام الطواف بالبيت، والتردد عليه، حتى كان أشبه ما يكون بالمطوفين فى النظام الحديث، وسواء أكان الرجل منحدرا من أصل لقبيلة يمنية، أم من أحد أفخاذ العرب القريبين من مكة[2]، فإن الذى نعنيه أنه ظل يتردد على الكعبة، والقيام بواجبات الطواف حولها، سواء أكانت معه أمه، أم مع أسرته التى كوّنها فيما بعد.

وتذكر الروايات أن هذا الوليد كان صغير الحجم، ذابل الجسم إذا قورن بغيره من القرناء، وأنه كان – فى صغره – قليل الطعام والشراب، حتى إن نحافة جسمه وذبول وجهه دعت أمه إلى وصفه بأنه ما هو إلا صوفة نتفت من جسم حيوان، فصارت نحيلة لا تقوى على مواجهة الأحداث، أو مقاومة الرياح[3].

بينما يذكر بعض المؤرخين أن الوليد كان طبيعيا فى نموه، وأنه كان جيد الصحة، لكن أمه كانت تخاف عليه الحسد، فإذا تعرض لها أحد بذكر وليدها أو الحديث عنه قالت: إن ابنى ما هو إلا صوفة، كأنها تقصد أن ابنها وحيد ليس له اخوة يقاومون عنه، ويحتمى بهم، كالصوفة الوحيدة التى لا تحميها أترابها، ثم غلبت تلك الصفة المصنوعة عليه، فكانوا ينادونه صوفة[4].

---

(١) وقد كان صاحب هذه السطور وحيد أسرته لمدة ست سنوات تقريبا، وكان له اسمان هما محمد ورشاد، وفى الأوراق الرسمية محمد، وفى أفواه الأقارب رشاد، بل ما تزال رشاد عالقة فى أذهان الأقارب الذين يقطنون بعيدا عن إقامتنا، بل وفى أقاربى محمد، نجيب، وهما اسمان لشخص واحد، ومن اخوتى فى الرضاعة محمد، سيد أحمد وهما لشخص واحد.

(٢) الفخذ فى الإنسان والحيوان ما فوق الركبة إلى الورك وفى العشيرة هو إحدى الفصائل التى تكون فى البطن الواحد من العشيرة وجمعه أفخاذ. [العلامة الزمخشرى – أساس البلاغة، وقطر المحيط، المعجم الوجيز باب الفاء ص٤٦٤]

(٣) العلامة الشيخ حكمت الله مصطفى المتولى – التصوف الإسلامى ص٥١ .

(٤) الشيخ طلبة محمد الثنيان – الصفة وأهلها ص٣٣ .

۞ **يقول العلامة ابن منظور** : « قال الجوهري: وصوفة أبو حي من مضر وهو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم. ابن سيده: و صوفة حي من تميم وكانوا يجيزون الحاج في الجاهلية من منى، فيكونون أول من يدفع. يقال في الحج: أجيزي صوفة، فإذا أجازت قيل: أجيزي خندف، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة، وهي الإفاضة؛ وفيهم يقول أوس بن مغراء السعدي:

ولا يريمون في التعريف موقفهم ∴ حتى يقال: أجيزوا آل صوفانا

قال ابن بري: وكانت الإجازة بالحج إليهم في الجاهلية، وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى يدفع بها صوفة، وكذلك لا ينفرون من منى حتى تنفر صوفة، فإذا أبطأت بهم قالوا: أجيزي صوفة؛ وقيل: صوفة قبيلة اجتمعت من أفناء قبائل. و صاف عني شره يصوف صوفا: عدل. »[1].

على أن ما يمكن الالتفات إليه هو وجود مثل هذا الرجل فى الجاهلية الذى لزم حالة واحدة استمر عليها طيلة عمره، وجاء بنوه من بعده وعلى نفس المنهج ساروا، وذكر المؤرخون أنه كان قوم فى الجاهلية يقال لهم صوفة، انقطعوا إلى الله عز وجل، وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية، وهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر بن أخى تميم بن مر[2].

وتذكر الآثار أيضا أن ولد الغوث كانت فيهم الإجازة بالناس من عرفة، وأنهم توارثوا هذه المسألة عن والدهم نفسه، وراحت تترى فى الأبناء والحفدة، وعرفوا جميعا بهذا الاسم[3]، وكان الحج وإجازة الناس من عرفة إلى منى، ومن منى إلى مكة

---

(١) العلامة جمال الدين أبى الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم حبقة بن منظور . ولد بالقاهرة وتوفى بها سنة (٦٣٠/٧١١هـ) و (١٢٣٢/١٣١١م) - لسان العرب ج:٩ ص: ٢٠٠ . وصاف السهم عن الهدف يصوف و يصيف: عدل عنه، وهو مذكور في الياء أيضا لأنها كلمة واوية ويائية؛ ومنه قولهم: صاف عني شر فلان، و أصاف الله عني شره

(٢) شيخ الإسلام ابن الجوزى - تلبيس إبليس ص١٧٢.

(٣) وهذا مما يدل على أن الصوفية سلوك قديم، يقوم على محاولة التقرب إلى الله تعالى، والارتباط بما شرعه الله جل شانه.

لصوفة، فلم تزل الإجازة فى عقب صوفة حتى أخذتها عدوان. فلم تـزل فـى عـدوان حتى أخذتها قريش[1].

بيد أنه سواء أكان صوفة اسما لشخص، أم لقبا لعائلة، فإن الـذى لا جـدال حوله هو أن صوفة من الألفاظ التى كانت مستعملة والألقـاب الجاريـة فـى الجاهليـة على أهل القرب والصفاء، وإنها كانت تقال لكل مـن ولى مـن أمـر البيـت الحـرام - شيئا[2] من غير أهله، أو قام بشيء من أمر المناسك[3]، وهو كذلك ربيط الكعبة لخدمة الله والقيام على واجبات أضيافه جل شأنه.

ولا ضير بعد ذلك أن يتخذ الصوفية - على وجه الخصوص - كلمة التصوف نسبة إلى صوفة المنفرد بالله بجـانب الكعبـة فيختصـون بـها، حـين تتعمـم المسـائل، وتضعف الروابط القبلية، وأن يكون صوفية الإسلام هم القبيلة الإسلامية الزاهدة مقابلة فى هذا لصوفة الجاهلية، القبيلة الجاهلية الزاهدة[4]، ولا شيء فى هذا؛ لأن الأصول ثابتة، والضوابط مرعية.

غير أن ابن تيمية يستبعد هذا الاشتقاق، ويهاجم هذا المنحى قائلا: هـذا وإن كان موافقا للنسب من جهـة اللفـظ، فإنـه ضعيـف؛ لأن هـؤلاء غـير مشـهورين، ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النسـاك إلى هؤلاء؛ لكان هـذا النسـب فـى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسـم الصوفـى لا يعـرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافـا إلى قبيلـة فـى الجاهليـة لا وجـود لهـا فـى الإسلام[5].

- وتابع ابن تيمية فى إنكار اشتقاق التصوف من صوفة الاسم المعروف فى الجاهليـة كثير من التوابع، وكلهم ركز على أنها قبيلة جاهلية، ولا يصـح لمسـلم الانتسـاب إليها، **وربما غاب عنهم أمران**:-

---

(١) شيخ الإسلام ابن الجوزى - تلبيس إبليس ص١٧٢.

(٢) الشيخ طلبة محمد الثنيان - الصُّفَّة وأهلها ص٣٧ .

(٣) شيخ الإسلام ابن الجوزى - تلبيس إبليس ص١٧٢.

(٤) الدكتور على سامى النشار - نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج٣ ص٤٠ ط٨.

(٥) شيخ الإسلام ابن تيميه - مجموع الفتاوى التصوف ص٦ .

☆ **الأول**: تأكيد الرسول ﷺ على أن كل أمر فى الجاهلية أقره الإسلام فهو له. وكل أمر من عادات الجاهلية نهى عنه الإسلام فهو منهى عنه، لقوله ﷺ فى حلف الفضول الجاهلى: عن طلحة بن عبد الله بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو ادعى به في الإسلام لأجبت »[1]، فلو كان كل فعل فى الجاهلية منبوذا ما امتدح الرسول الكريم الحلف الذى انعقد فى دار ابن جدعان.

وعن أبي هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شهدت حلفا إلا حلف قريش من حلف المطيبين وما أحب أن لي به حمر النعم، وأني كنت

---

(١) الإمام البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج:٦ ص:٣٦٧ – الحديث:١٢٨٥٩، وقال القتيبي فيما بلغني عنه وكان سبب الحلف أن قريشا كانت تتظالم بالحرم فقام عبد الله بن جدعان والزبير بن عبد المطلب فدعاهم إلى التحالف على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم فأجابهما بنو هاشم وبعض القبائل من قريش قال الشيخ قد سماهم بن إسحاق بن يسار قال بنو هاشم بن عبد مناف وبنو المطلب بن عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة قال القتيبي فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان فسموا ذلك الحلف حلف الفضول تشبها له بحلف كان بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي وللغريب من القاطن قام به رجال من جرهم يقال لهم الفضل بن الحارث والفضل بن وداعة والفضل بن فضالة فقيل حلف الفضول جمعا لأسماء هؤلاء قال غير القتيبي في أسماء هؤلاء فضل وفضال وفضيل وفضالة قال القتيبي والفضول جمع فضل كما يقال سعد وسعود وزيد وزيود والذي في حديث عبد الرحمن بن عوف حلف المطيبين، قال القتيبي أحسبه أراد حلف الفضول الحديث الآخر ولأن المطيبين هم الذي عقدوا حلف الفضول قال وأي فضل يكون في مثل التحالف الأول فيقول النبي صلى الله عليه وسلم ما أحب أن أنكثه وأن لي حمر النعم ولكنه أراد حلف الفضول الذي عقده المطيبون قال محمد بن نصر المروزي قال بعض أهل المعرفة بالسير وأيام الناس ان قوله في هذا الحديث حلف المطيبين غلط إنما هو حلف الفضول وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدرك حلف المطيبين لأن ذلك كان قبلها قبل أن يولد بزمان وأما السابقة التي ذكرها فيشبه أن يريد بها سابقة خديجة رضي الله عنها إلى الإسلام فإنها أول امرأة أسلمت . وراجع ابن كثير ج٢ ص٢٤٠، والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٧٨، وراجع كتابنا حلف الفضول عند العرب وأثره فى العصر الحديث.

ـعصته والمطيبون هاشم وأمية وزهرة ومخزوم »[١]. وصار هذا الأمر قاعدة عامة، ومادام الأمر لم يخالف شرعنا، فماذا فيه، هل قال أحد بالانتساب إليــه؟ وزعـم أنـه منطو ـحته، حتى يقع عليه الوصف بأنه متابع للجاهلين فى أمر من الأمور

الثانى: أن شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه يقر بنسبة التصوف إلى صوفة، ويبدو أنه راجع موقفه السابق، فلم يرق له، من ثم عاد عنه، وفى ذات الوقت حاول تَلَمُّس المخارج لصحة الانتساب إليه .

❁ **يقول ـ رحمه الله ـ** : « والنسبة فى الصوفيـة إلى الصـوف؛ لأنـه غـالب لبـاس الزهاد، وقد قيل هو نسبة إلى صوفة بن مراد بن أد بن طانجة قبيلـة مـن العـرب كان يجاورون حول البيت[٢]، ويذكر باقى الآراء، ثم يعقب عليـها بقولـه: لكـن التحقيق أن هذه النسب إنما أطلقت على طريـق الاشـتقاق الأكـبر والأوسـط، دون الاشتقاق الأصغر، كما قال أبو جعفر: إن العامة اسـم مشـتق مـن العمـى، فراعـوا الاشتراك فى الحروف دون الـترتيب، وهـو الاشـتقاق الأوسـط، أو الاشـتراك فـى جنس الحروف دون أعيانها وهو الأكبر، وعلى الأوسط قـول نحـاة الكوفـة الاسـم مشتق من السمة، وكذلك إذا قيل الصوفى من الصفا، وأما إذا قيل هو من الصفة أو الصف، فهو على الأكبر »[٣].

---

(١) الإمام البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج:٦ ص٣٦٦ – الحديث:١٢٨٥٨، وقال الشيخ لا أدري هذا التفسير من قول أبي هريرة أو من دونه قال الشيخ وبلغني أنه إنما قيل حلف المطيبـين لأنـهم غمسوا أيديهم في طيب يوم تحالفوا وتصافقوا بإيمانهم وذلك حين وقع التنازع بين عبد مناف وبني عبد الدار فيما كان بأيديهم من السقاية والحجابة والرفادة واللواء والندوة فكان بنـو أسـد بـن عبـد العزى في جماعة من قبائل قريش تبعا لبني عبد مناف فكان لهم بذلك شـرف وفضيلـة وصنيعـة في بني عبد مناف وقد سماهم محمد بن إسحاق بن يسار فقال المطيبون من قبائل قريش بنو عبد مناف هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل وبنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تيم وبنـو الحـارث بـن فهر خمس قبائل قال الشافعي وقال بعضهم هم حلف من الفضول .

(٢) لم تكن مجاورتهم للبيت إلا من باب الخدمة لله والعناية بأضيافـه، مـع الالـتزام الدقيـق لـلآداب التى توارثها أصحاب العقول الذكية والفطر النقية عن طريق ملة إبراهيم خليل الـرحمن.

(٣) شيخ الإسلام ابن تيميه – مجموع الفتاوى – علم السلوك – مجلد ١٠ ص٣٦٩ .

إذن رفض الانتساب إلى صوفة عنده قائم، أما أن يشتق منه لفظ التصوف، أو ينحت منه وصف الصوفى، فلا شيء فيه على ما سلف بيانه، سواء أكان على ناحية الاشتقاق الأكبر أم الأوسط أم الأصغر وقد كشف عنـه ابـن تيميـه، ممـا يؤكـد حـرص الرجل على امتداح التصوف والصوفية، كما أن الغاية لدى صوفة ومن كان على نهجه مـن أولاد ابـن مـر، هـى الطواف بـالبيت، وإجـازة الحجيج، والخدمـة لبيـت الله وأضيافه، فإذا قام بها مؤمن موحد فما العيب إذن؟ بل ما هـو الأمـر الغير مرغـوب؟ حتى يظن بفاعله السوء.

ثم من يدرينا فلعل التـاريخ قـد رحـل عنـا، وذهـب أولاد ابـن مـر - صوفـة اليمن - بما قدمت أيديهم، من احترام لشعائر الله، والقيام على واجباتهم الشـرعية، كما كان يفعل الحنفاء دون نظر لما يتعلـق بالدنيـا والآمـال فيـها، بدليـل أنـهم كـانوا ينفقون ما يملكون، حتى كانت الأعمال التى يقومون بها تذبـل أجسـادهم، وتضعـف أموالهم، فصاروا يشبهون الصوفة النحيلة التى لا يمكنها مقاومة مـا يتعـرض لـها إلا بعون من أترابها والقرينات، وحال الصوفية كحال الصوفة من هذه الناحية.

كما أن الاشتراك اللفظى وهو المادة اللغوية فى مادة ص و ف قائم بين صوفة، وبين صوفى وتصو[illegible]، وبالتالى فالاشتقاق هو الآخر ثابت، وإنكاره ليست تنهض مـع القائلين به حجة [illegible] أن تكون جدلا غير مؤد لنتيجة مقبولة.

❁ **يقول أبو نعيم**[1] « إن أخذ التصوف من الصوفة التى هى القبيلة المعروفة، فـلأن التصوف فيما [illegible] من حاله، ونعم من مآله، وأعطى من عقباه، وحفظ مـن حـظ دنياه، أحد أعـ[illegible]م الهدى. لعدولهم عن الموبئات واجتهادهم فى القربـات[2]. فلا مانع من أن تكـ[illegible]ن صوفة قد اشتق منها التصوف على اللفظ والمعنى معا.

وربما كان الزهاد قبـل الإسـلام صـورة راقيـة بعيـدة كـل البعـد عـن الاتجـاه الجاهلى، وهؤلاء [illegible]ماد كانوا موجوديـن فـى صـدر الإسـلام تدينـا أو منطقـا[3]. ولا

---

(١) هو : العلامة أحـ[illegible] بن عبدالله بن محمد الحافظ أبو نعيم الأصبهانى.

(٢) العلامة الحافظ أ[illegible] نعيم - حلية الأولياء ج١ ص١٨ .

(٣) الدكتور عبدالحلـ[illegible] محمود - المنقذ من الضلال ص٢٢٢ ط٢ .

نقصد أن صوفية الإسلام امتداد لزهاد الجاهلية، وإنما نميل إلى أن اشتقاق التصوف من ص و ف مقبول على الناحية التي سلفت.

٥- مشتق من صوفانة :

وهى نوع من البقليات التى تنمو فى الصحراء، قصبة الجسم، نحيلة الفروع والأغصان، والصوفانة بالضم بقلة زعباء قصيرة[١]. وهى فى كل حالاتها يغلب نموها فى الصحراء، وإن غرست فى غيرها نمت ببطء شديد، ثم هى لا تأخذ من غيرها، ولا تحمل عليه، تعيش كأنها منفردة، ولها عشب له زغب يشبه الصوف، والقائم على شرع الله المسك به حاله، كحالها من حيث العناية والانفراد مع الاستقلال.

يقول ابن منظور : « الصوفانة: بقلة معروفة وهي زغباء قصيرة، قال أبو حنيفة[٢]: ذكر أبو نصر أنه من الأحرار ولم يحله، وأخبرني معروفة رقبته و صوفها و صافها: هي زغبات فيها، وقيل: هي ما سال في نقرتها التهذيب: وتسمى

---

(١) العلامة الفيروز آبادى – القاموس المحيط – باب الفاء فصل الصاد وما يثالثهما ج٣ ص١٥٩ .

(٢) هو الإمام أبو حنيفة، وأسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي، فقيه العراق وأحد أئمة الإسلام، والسادة الأعلام، وأحد أركان العلماء وأحد الأئمة أصحاب المذاهب المتنوعة، وهو أقدمهم وفاة لأنه أدرك عصر الصحابة، ورأى أنس بن مالك قيل وغيره، وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة فالله أعلم، وروى عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحماد بن أبي سليمان وسلمه بن كهل وعامر الشعبي وعكرمة وعطاء وقتادة والزهرى ونافع مولى ابن عمر ويحيى بن سعيد الانصاري، وأبو اسحاق السبيعي وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان واسحاق بن يوسف الازرق وأسد بن عمر والقاضي، والحسن بن زياد اللؤلؤي وحمزة الزيات وداود الطائي وزفر وعبدالرزاق وأبو نعيم، ومحمد بن الحسن الشيباني، وهشيم ووكيع وأبو يوسف القاضي، وقيل في الشافعي رأيت رجلا لو كلمك في هذا السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته، وقال الشافعي من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن اسحاق ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان مرة، وكانت وفاته في رجب من هذه السنة أعني سنة خمسين ومائة، وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين وقال غيره سنة ثلاث وخمسين والصحيح الأول، وكان مولده في سنة ثمانين فتم له من العمر سبعون سنه وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام وقبره هناك رحمه الله . راجع البداية والنهاية ، للإمام ابن كثير – ذكر ترجمته . ، وراجع (معجم المؤلفين ١٠٤/١٣ ، الجواهر المضيئة ص٣٠/٢٦ .)

زغبات القفا صوفة القفا[١]»[٢].

ووجه المشاكلة بين الصوفانة والصوفية هو أنهم حملوا أنفسهم على الطاعة مع الورع والتقوى والصفاء، ولم يعتمدوا على أحد بعد الله تعالى، واكتفوا بالتأمل الدقيق فيما صنع الله، والاستمرار على توحيده وعبادته جل علاه.

۞ **يقول أبو نعيم**: « إن أخذ التصوف من الصوفانة: التى هى البقلة، فلاجتزاء القوم مما توحد الله عز وجل بصنعه، ومن به عليهم من غير تكلف بخلقه[٣]، فهم عباد الله، وهم أهل خاصته، وغايتهم الاستمرار فى طاعته.

إذن الاشتقاق العام يعطى جواز اشتقاق لفظ التصوف من الصوفانة، ووجه المشابهة قائم، ولا يعطى صحة الانتساب إليها، وفى ذات الوقت، فإن كل اعتراض يوجه إلى اشتقاق التصوف من الصوفانة وغيرها مدفوع متى كان على ناحية النسب، لا ما كان على جهة الاشتقاق العام.

كما أن مادة صوفانة لا تخرج عن الحروف الأولى، وهى ص و ف التى هى نفس المادة الحرفية الصوتية الأولى للتصوف والصوفى، والاشتقاق الخاص يؤيد ما ذهب إليه أبو نعيم، كما أن صاحب جمع الجوامع قد مال إليه، ولا مشاحة فى الاصطلاح إذا أمكن تطبيقه من غير ممانعة.

---

(١) قال ابن الأعرابي: خذ بصوفة قفاه، و بصوف قفاه وبقردته وبكردته. ويقال: أخذه بصوف رقبته وبطوف رقبتيه وبطاف رقبته وبظوف رقبته وبظاف رقبته وبقوف رقبته وبقاف رقبته أي بجلد رقبته؛ وقال أبو السميدع؛ وذلك إذا تبعه وظن أن لن يدركه فلحقه، أخذ برقبته أم لم يأخذ؛ وقال ابن دريد أي بشعره المتدلي في نقرة قفاه. [لسان العرب ج:٩ ص: ٢٠٠].

(٢) العلامة أبو الفضل جمال الدين بن منظور – لسان العرب ج:٩ ص: ٢٠٠ . وقال الفراء إذا أخذه بقفاه جمعاء، وقالوا أبو الغوث أي أخذه قهرا، قال: ويقال أيضا أعطاه بصوف رقبته كما يقال أعطاه برمته. وقال أبو عبيد: أعطاه مجانا ولم يأخذ ثمنا. و صوف الكرم: بدت نواميه بعد الصرام. والصوفة: كل من ولي شيئا من عمل البيت، وهم الصوفان

(٣) العلامة الحافظ أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء ج١ ص١٨ .

٦- مشتق من لبس الصوف

وهذا المعنى يتكرر لدى كثير من مؤرخى التصوف، وكأنه وحده فى الميدان العلمى، الذى يجب قبوله، بل الغالب الأعم يتركز عليه، رغم أن الصوف لم يكن ملبس الفقراء، وإنما كان ملبسا الأغنياء[1]، وليس الأم كذلك؛ لأن كل الآراء السالفة يصح قبولها على وجه من الوجوه التى سلفت الإشارة إليها، وذكر صاحب عوارف المعارف أن التصوف مشتق من لبس الصوف، ويعلل ذلك بقوله

فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوع، وستر العورة، والاستغراقهم فى أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها لشدة شغلهم بخدمة مولاهم وانصراف هممهم إلى أمر الآخرة[2]، وكأن لبس الصوف هو المظهر الشرعى فى الإعلان عن الزهد فى الدنيا، والانصراف للآخرة، مع أن لبس الصوف قد يكون لدى القادرين عليهم من بنى الإنسان جميعا، فاختصاص الصوفية به ليس هناك دليل عليه[3].

غير أن السهروردى ينتهى إلى القول: وهذا الاختيار يلائم، ويناسب من حيث الاشتقاق؛ لأنه يقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص ...، وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان البعد بحالهم[4]، ولست أدرى ما هى الدعوى التى نسب هؤلاء الأعلام إلى لبس الصوف كانوا أبعد عنها، لابد أن الشيخ رحمه الله كان يدفع اتهاما، فاستخدام الألفاظ الدالة على الزهد والتواضع.

وقد دعم هذا الرأى بمدعمات منها:-

---

(١) الشيخ محسن عبدالله الدوسرى – التصوف والصوفية ص٣١ ط جده ١٣٩٥هـ.

(٢) العلامة السهروردى –عوارف المعارف ص٦١.

(٣) الشيخ محسن عبدالله الدوسرى – التصوف والصوفية ص٣٤ ط جده ١٣٩٥هـ.

(٤) العلامة السهروردى –عوارف المعارف ص٦١.

[أ] **اشتهارهم بلبس الصوف**، لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى(١)؛ لأنه لا مجال للجدال فيه، وإلا كان المجادل فيه مكابراً.

[ب] **سموا صوفية للبسهم الصوف**، وهو أليق وأقرب إلى التواضع الذى هو سمة الصوفية؛ لأن من لبس الخشن وزهد فى اللين الرقيق، مفضلاً لبس الخشن فى الدنيا، حتى ينعم فى الآخرة، وذلك الشأن لم يكن إلا لأهل الله أصحاب العرفان بالمولى الكريم.

[ج] **أنهم لما آثروا الذبول والخمول**، والتواضع والانكسار، والتخفى والتوارى، وكانوا كالخرقة الملقاة، والصوفة التى لا يرغب فيها أحد، ولا يلتفت إليها ملتفت، فيقال: صوفى نسبة إلى الصوفة، فكأنهم بذلك ألقوا بأنفسهم فى حياض الطاعة حتى يفوزوا بالرضوان(٢).

[د] **لم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد(٣)**، من أول أمر الدعوة الإسلامية حتى يومنا هذا، إذ كان الصحابة الأوائل يلبسون الصوف، وجاء من بعدهم التابعون، فلبسوا الصوف أيضاً(٤).

ولم يسلم ابن تيميه بهذه الفكرة - اختصاصهم بلبس الصوف - وقرر أن لبس الصوف قاسم مشترك بينهم وبين غيرهم، كما ذكر أن محمد بن سيرين(٥) بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف فقال: إن قوما يتخيرون الصوف، يقولون إنهم متشبهون

---

(١) كان الإمام السهروردى يستخدم دليل الضرورة العقلية، وليس كذلك، بل يمكن القول بأنه استخدم دليل شاهد الحال وهو عندى أقرب.

(٢) الشيخ منصور محمد البتانونى - الصوفية أذواقهم ومعارفهم ص٣٣ .

(٣) العلامة السهروردى - عوارف المعارف ص٦١/٦٢ (بتصرف) .

(٤) الأستاذ نجيب الله عبدالباسط البدراوى - التصوف تاريخه ومصادره ص٨٢ ط أولى ١٩٥٧م.

(٥) هو الإمام شيخ الإسلام محمد بن سيرين أبو بكر مولى أنس بن مالك الأنصاري البصري حج زمن ابن الزبير، قال أنس بن سيرين ولد أخي محمد لسنتين بقيتا من خلافة عمر وفى رواية عثمان وولدت بعده بسنة قابلة، سمع أبا هريرة وعمران بن حصين وابن عباس وعدي بن حاتم وابن عمر وعبيدة السلماني وشريحا القاضي وأنس بن مالك وخلقا سواهم روى عنه قتادة وأيوب ويونس بن عبيد وابن عون وخالد وغيرهم [راجع العلامة الإمام محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المولود ١٩٤هـ المتوفى ٢٥٦هـ - التاريخ الصغير (الأوسط) ج: ١ ص: ٢٦٠ - رقم: ١٢٦٤ - دار الوعي ، مكتبة دار التراث - حلب ، القاهرة - ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م - الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ٢ - تحقيق محمود إبراهيم زايد ، سير أعلام النبلاء ج: ٤ ص: ٦٠٦/٦٢٠ رقم:٢٤٦، وراجع التاريخ الكبير ج١ ص٩٠ رقم: ٢٥١].

بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره[1]، إذن لبس الصوف – من وجهة نظر ابن تيميه – لا يمكن اشتقاق التصوف منه، والمشهور أنه إذا تعارضت الأدلة تساقطت، بل إذا وقعت في دائرة الاحتمال سقط بها الاستدلال.

لكن أبو نعيم يؤكد أن اشتقاق التصوف من الصوف يوافقه الاشتقاق العام، والظاهر من حال القوم، وأنه إذا أخذ – التصوف – من الصوف المعروف، فهو لاختيارهم لباس الصوف، إذ لا كلفة للآدميين في إتيانه وإنشائه، وأن النفوس الشاردة تذلل بلباس الصوف[2]، وهو تعليل مقبول على ناحية أبي نعيم، ومن يميل إلى رأيه، وهي محاولة لدعم ذات الفكرة القاضية بأن التصوف مشتق من لبس الصوف، ويبدو أنه كان يحكى تلك الفكرة، وليس مقتنعا لها، بدليل أنه قام بمحاولة أخرى انتهى منها إلى أن كل المفردات التي قيلت عن اشتقاق التصوف منها يمكن قبولها، حسب الاشتقاق العام، لا حسب النسبة التي وقف عندها أصحاب النقودات العنيفة[3]؛ والحق أن اختيار أبي نعيم كان موفقا، لكون الكلمة فعلاً يمكن قبسها من كافة المفردات التي أحاطت بها، أو سبقت الإشارة إليها، أو لحقت فيما بعد بها.

ووافق الكلاباذي القائلين بأنها مشتقة من الصوف، وأكد أن اشتقاقها من الصوف يفيد استقامة اللفظ، وصحة العبارة من حيث اللغة، وجميع المعاني كلها من التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عنها، وترك الأوطان ولزوم الأسفار[4]، وكما ذكرت فإن ابن تيمية ومن معه يرفضون هذا الرأي بأدلة صحت لديهم، والقشيري نفسه يؤكد

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيميه – مجموع الفتاوى التصوف ص٧ .

(٢) العلامة الحافظ أبو نعيم الأصبهاني– حلية الأولياء ج١ ص١٧ وما بعدها .

(٣) أغلب هذه الانتقادات جاءت من خصوم التصوف، ولذا؛ فقد كانت عنيفة، وهناك انتقادات من داخل الصوفية أنفسهم، كنوع من الإصلاح للمذهب الذي يتمسكون به، وهي فضيلة علمية ودينية.

(٤) العلامة الكلاباذي – التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٤ – تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود، طه عبدالباقي – طبعة الحلبي ١٣٨٠هـ.

أن القوم لم يختصوا بلبس الصوف[1] وحدهم، من ثم فإنـه يصح اشـتقاق الكلمـة مـن لبس الصوف كوجه من الأوجه التي تجيء فيه، وليس هو الوجه الوحيد في المسألة.

ويزعم بعض المتسرعين في البحث أن الدكتور عبدالحليم محمود يؤكد كونـها مشتقة من الصوف وحده، ولو أمعنوا النظر لتغيرت مواقفهم، ولكـن مـا الحيلـة وهـم يأتون العلم من الأبواب الخلفية، أو قفزا فوق أسوار الآخرين، عن طريق القبس منهم، أو النقل غير المقبول، إن لم تكن السرقة من مجـهودات غـيرهم، وتلك إمكانياتـهم، وربما حملوا أسماء رنانة. أو أمطرهم السذج بعبارات طنانة[2].وهاك رأى الشيخ لعلهم يتدبرون.

الدكتور عبدالحليم محمود - رحمه الله - من العقلاء القلائل[3]، فهو افترض أن رأى القائلين باشتقاقها من الصوف ربما يغلـب غـيره، ويسـلم بـه الخصـم. فـإذا انتهى إلى هذا الموقف كانت النتيجة التي ينتظرها كما هو معروف لدى المناطقة من أن تسليم الخصم بالمقدمات ولو كانت فاسدة[4]، يلزمه قبول نتائجها.

فالشيخ يقول - على سبيل الفرض - وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصـوف، لاحظ التعبير باذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف لم يقل أن الكلمة صحت نسبتها إلى الصوف، أو أنها مشتقة من الصوف أو أنه يدعم هذا الرأى القائل بأنـها مشـتقة مـن لبس الصوف وحده، يا من تنقلون متسرعين، اتقوا الله في العلم والعلماء العاملين.

---

(١) الإمـام القشـيري - الرسـالة القشـيرية ج٢ ص٢٥٠- تحقيـق دكتـور: عبدالحليم محمـود، طـه عبدالباقي ط١٩٦٦/١م.

(٢) وقد عبر عن التأفف من هؤلاء النقلة بـدون وعـي العلامـة الأخضـري فـي متنـه المعروف بالسـلم المنورق، وكذلك كان الحال مع صاحب إيضاح المبهم الشـيخ الدمنـهوري. [راجـع فـي ذلـك كتابنـا الغزاليات في التصديقات، وبخاصة الخاتمة].

(٣) ولد رحمه الله بكفر أبو أحمد مـن أعمـال بلبيـس بمحافظـة الشـرقية، وتلقـى تعليمـه فـي كتـاب القرية والتحق بالأزهر الشريف، تخرج فيه ثم سافر إلى باريس، فحصـل علـى الدكتـوراه. وعـاد للأزهر، فعين مدرسا بجامعته، وظل يرقى حتى صار شيخا للأزهـر، وانتقـل إلى رحمـة الله تعـالى عام ١٩٧٩م. ولمزيد من التفاصيل راجع له كتاب هذه حياتي والحمد لله .

(٤) لأن المناطقة يعرفون القياس المنطقي بأنه قول مؤلف من قضايا متى سلمت لـزم عنـها قـول آخـر. [راجع كتابنا الغزاليات في التصديقات].

يقول الشيخ: وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصفوف، فهى كلمة موفقة كل التوفيق، ولعل عناية المقادير هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع، إذ أنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف[1]، وليست بعيدة عنه، فإنها مع تعددها تتلاقى حول المفهوم الخاص للتصوف الإسلامى.

ومن هذه المعانى التى تشتق منها الكلمة ولها علاقة وثيقة بالتصوف - حسب رأيه - الصفاء، والصف الأول[2]، والصفة، والصفة الجميلة حتى سوفيا اليونانية التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص[3] عند أصحابها، إن كان مفهومهم عن الغيب هو المفهوم الشرعى الذى نعلمه نحن أهل الإسلام.

إذن رأى الشيخ هو نفسه رأى أبى نعيم[4]، وهو قريب منه جدا. إذ المورد هو نفس المورد الذى يبدو بوضوح لمن أمعن النظر عند كل منهما، وبعد عن النقل المتسرع المبتور، مع الرغبة العارمة فى ادعاء العلم.

---

(١) الدكتور عبدالحليم محمود - المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف ص٢٢٢ ط [illegible] كتب الحديثة ١٩٧٢م.

(٢) سبق عرض هذه الآراء، ويمكن الرجوع إليها فى مظانها من هذا الجزء .

(٣) الدكتور عبدالحليم محمود - المنقذ من الضلال مع أبحاث فى التصوف ص٢٢٢/٢٢٣.

(٤) الحافظ أبو نعيم الأصفهانى - حلية الأولياء ج١ ص١٧ وما بعدها.

٧- مشتق من صوفة القفا[1]

يذكر المؤرخون أن المرأة التى نذرت وليدها علقت برأسه صوفة من ناحية قفاه. حتى إذا راحت تبحث عنه بين الغلمان عرفته من مؤخرة رأسه عن طريق الصوفة التي علقت بقفاه، تمييزا له عن الأقران، وأبو نعيم يرى أن اشتقاق التصوف من صوفة القفا ليس ببعيد، بل هو أمر وارد تعضده أحوال الصوفية ومقاماتهم.

يقول: « إن أخذ – التصوف – من صوفة القفا: فمعناه أن المتصوف معطوف به إلى الحق، مصروف عن الخلق، لا يريد به – بالله – بدلا »[2].

ولاشك أن هذا المعنى مقبول، وإن كان فيه بعد فمرده إلى تصوير المعنى لا إلى إطلاق اللفظ، لأن العلماء لم يقيدوا الاشتقاق باللفظ وحده، أو بالمعنى وحده. وإنما أطلقوا مفهوم الاشتقاق حتى يقع باللفظ أو المعنى أو بهما معا، حتى لو كان بالمشاركة فى الحروف التى هى مادة الكلمة وعليها تقوم، كما أن صوفة القفا هى الشعرات النابتة فى مؤخره، فكأن الصوفى عطف به إلى الحق، وصرفه عن الخلق[3].

❁ ويذكر الدكتور النشار ما انتهى إليه أحد الباحثين[4] من أن « صوفة جاءت من الصوف الذى علق برأس الغوث، باعتباره ضحية الله أو حملا من هدى الكعبة، أو ضأن الله – وأن الباحث نفسه – تتبع فكرة ضأن الله فى التراث الإسلامى والجاهلى، ثم ربط تحليله لكلمة صوفة – باعتبارها تعنى ضأن الله – بفكرة الذبيح عند إبراهيم وإسماعيل وإسحاق »[5].

---

(١) قد تأتى صوفة القفا على سبيل الصنعة لها؛ كالحال مع أم الوليد الصغير التى فعلت ذلك فى الجاهلية، وقد تكون مخلوقة كأصحاب الشعرالكثيف، وهو أغم الوجه والقفا.

(٢) العلامة الحافظ أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء ج١ ص١٨ .

(٣) أبو الفرج ابن الجوزى – تلبيس إبليس ص١٧٣ .

(٤) الدكتور كامل الشيبي أحد البحاثة العراقيين – مجلة كلية الآداب العراقية ص١/٧ عام ١٩٦٢م.

(٥) الدكتور على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج٣ ص٤٠ – ط٨ دار المعارف بمصر.

• والدكتور يرضى هذه الفكرة، ويحكم عليها بأنها تتلاقى مع جانبين هما:

[١] اشتقاقها من الصوف ظاهريا، ويعنى بالظاهر ما عليه أهل اللغة من قولهم: تصوف إذا لبس الصوف، وتقمص إذا لبس القميص[١].

[٢] اشتقاقها من فكرة التضحية بالذات باطنيا.

يقول: « والفكرة ذكية بلا شك، وإن كانت تعود فى نهاية الأمر إلى اشتقاق الكلمة ظاهريا من الصوفى، وباطنيا من فكرة التضحية بالذات، وكلتاهما تتحقق فى التصوف »[٢]، من حيث إن الصوفى يهمل الدنيا، ويقبل على الآخرة، ويعيش باطنه عيشة خاصة تقوم - فى أرقى - مراحلها على حب الله تعالى والتعلق به، والتمسك بما عنده.

لكن فكرة ضأن الله، أو حَمَل الله، ليس لها أصل فى التراث الإسلامى، وإلا فليقل لنا أين عثر عليها؟ ربما توجد فكرة ضأن الله فى المسيحية، باعتبار أن المسيح يسوع - من وجهة نظرهم - ضحى به الإله الآب تكفيرا عن خطايا البشرية[٣]، لاعتبارات خاصة لا تنطبق إلا عليه، وهو فى ذات الوقت يصفونه بأنه حمل الله الوديع، الذى أسلم نفسه لقاتليه عن طيب نفس، وهم فى كل ما زعموا على غير صواب.

أما أن يكون هذا فى التراث الإسلامى فأمر لا وجود له، وهو غريب على الفكر الإسلامى، فإذا نسبه الدكتور النشار إلى التراث الإسلامى، فحرى به أن يدلنا على مصادره، وبخاصة أن الله تعالى نبه إلى خطورة هذا الفهم لو وقع. قال تعالى:
﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها

---

(١) ولكن هذا الاتجاه لا يجد ما يعضده لدى الصوفية أنفسهم. بل العكس من ذلك هو السائد عندهم.

(٢) الدكتور على سامى النشار - نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج٣ ص٤٠ - ط٨ دار المعارف بمصر.

(٣) يزعم أتباع المسيحية أن عيسى عليه السلام صلب وقتل تكفيرا عن خطيئة بنى البشر. حتى أطلقوا عليه لقب حمل الله الوديع، وضأن الله، بينما القرآن الكريم قد كشف زيفهم، وأبان باطلهم، وأن عيسى عليه السلام نجاه الله من بين أيدى خصومه من غير قتل أو صلب. قال تعالى: وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴾ [سورة النساء - من الآية ١٥٧].

لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾[1]، وكان الأولى مراجعة هذه الأفكار وردها إلى مواقعها من فكر أصحابها.

هكذا انتهى عرضنا لمسألة اشتقاق لفظة التصوف، وبان لنا الوجوه التى يمكن إحالته عليها متى قلنا إن وقوع الاشتقاق منها، وبينا أنها جميعا يمكن قبولها. لكن على نواح مختلفة، من حيث القرب والبعد، كما بينا أن اتجاه القوم فى رفضها قام على النسب، وليس على الاشتقاق، وأن – قاعدة النسب يجرى فيها بعض العسر، وبالتالى فى قبول هذه الأوجه، بينما الاشتقاق الخاص أو العام لا يوجد فيه أى نوع من العسر على ما مر بيانه، فلنرحل إلى ناحية أخرى غير الاشتقاق.

الرأى الثانى: أنها علم منقول

يرى البعض أن التصوف والصوفى علمان منقولان من الوصفية إلى العلمية، وأن الوصف فيهما سابق فى الوجود والاستعمال على الاسم، كما أنهما لم يصيرا للعلمية إلا بعد النقل والعدل على ما يقول به علماء الفن نفسه، مثل نقل كل فضيل من أفضل، ونعمان من أنعم، وابن مالك يقرر فى هذا الشأن أحكاما منها دخول حرف أل عليه مراعاة للأصل السابق له قبل النقل يقول:

وبعض الأعلام عليه دخلا ∴ للمح ما قد كان عنه نقلا
كالفضل والحارث والنعمان ∴ فذكر ذا وحذفه سيان
وقد يصير علما بالغلبة ∴ مضافا أو مصحوب أل كالعقبة[2]

◈ **لكن من صاحب الوصف الذى نقل إلى العلمية؟**

❊ **الجواب:** يذكر بكثرة لدى مؤرخى الصوفية، حيث يقص صاحب اللمع مثلا: أن الحسن البصرى قال: رأيت صوفيا فى الطواف أعطيته شيئا فلم يأخذه، وقال –

---

(١) سورة الحج – الآية ٣٧ . ويقول صاحبا الجلالين : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها أي يرفعان إليه ولكن يناله التقوى منكم أي يرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الإيمان كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه وبشر المحسنين أي الموحدين » [تفسير الجلالين ج:١ ص:٤٣٨].

(٢) ألفية ابن مالك – المعرف بأداة التعريف ص٣٢٤ – مجموعة مهمات المتون .

الصوفى – معه أربعة دوانيق، فيكفينى ما معى[1]. ومعنى هذا أن صوفيا هذا يحتمل أن يكون وصفا للرجل، ويحتمل أن يكون هو اسمه، ثم نقل من الوصف أو الاسم إلى أن صار علما على هذه الطائفة.

ونفس المعنى أكده أهل الإسلام والصوفية على الخصوص، حيث ذكر أنه قبل الإسلام بوقت غير قليل كان البيت يخلو من طائفيه، وأنه فى بعض الأحيان كان لا يدخل مكة من يطوف بالبيت، وأنه فى تلك الحال كان أهل مكة يتشوقون لطائف بالبيت يرقبونه بفرح وسرور، فكان يأتى إليهم رجل من بلد بعيد وكان هذا الرجل صوفيا، فيطوف بالبيت، فإذا أتم طوافه انصرف من غير أن يقيم بمكة أو يتاجر[2]، فعرف لدى الناس بالصلاح والفضل.

ويبدو أن آحاد الناس احتك به وتعامل معه، فعرف أن اسمه صوفى مثلا، فراح أهل الفضل والصلاح يقلدون هذا الرجل، حتى نسبوا إليه من خلال أعمالهم التى قاموا بها مقلدين له، ثم نقل هذا النسب إلى العلمية، فصار القوم صوفية، كأنهم امتداد لهذا الرجل فى الطواف بالبيت، وفعل الخير، والقيام بما فيه إصلاح وفضل[3].

وقد هرع بعض العجلى إلى الطعن فى انتساب صوفية الإسلام إلى هذا الصوفى الجاهلى، زاعمين تبرئه الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يكن موجودا قبل الإسلام بمعناه من ربط المرء نفسه لخدمة ربه، وليس موجودا بالشكل الذى هو عليه فى الإسلام، كما أن المعنى ليس هو المعنى، وإن كانت الغاية فيها نوع من التشابه.

من ثم فلا يطلق عليه اسم مبتدع؛ لأن الصحابة كانوا يعرفون الزهد والإخلاص، والتوجه نحو الله رب العالمين، ولم يكونوا قد تكونت منهم جماعة الفقهاء، ولا جماعة المفسرين، بل ولا جماعة المحدثين، رغم وجود فقهاء فيهم ومفسرون منهم، بجانب محدثين بينهم؛ لأنهم رأوا أن وصف الصحابى أعلى من كل

---

(١) أبو نصر السراج الطوسى – اللمع ص٤٢ .

(٢) الشيخ حمدان عبدالعاطى الدثرى – الصوفية الأوائل ص٨٧ .

(٣) أبو نصر السراج الطوسى – اللمع ص٤٢ وما بعدها بتصرف فى العبارة مع الاحتفاظ بالمعنى المقصود.

وصف أخر، وكونهم يعرفونه ولا يستخدمونه من باب الإطلاق على أنفسهم ير عنهم سمة الجهل به؛ لأن شرف الوصف بالصحابى هو الذى فاز بهم وظفروا هم به.

فأيهما أولى بالقبول بإ سادة أن يعرفوه، ولا يطلقوه على أنفسهم مفضلين وصف الصحية عليه، كالحال مع الفقهاء والمفسرين والمحدثين وغيرهم، أم يتصفوا به تاركين وصف صحبة رسول الله ﷺ الذين ذكرهم الله فى قرآنه وزكاهم الحديث الشريف فى قوله ﷺ : « أصحابي كالنجوم فبأيهم إقتديتم إهتديتم »[1]. وقوله ﷺ: «الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[2]، وقال ﷺ أيضا: « من حفظني في أصحابي ورد علي حوضي ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرني يوم القيامة إلا من بعيد »[3].

ولو كان التصوف بدعة محرمة على ناحية العقيدة أو الشريعة لحمل ابن تيمية عليه، ونال من الصوفية، لكن الرجل زكى الصوفية، وطعن على المنتسبين إليهم. فماذا نحن فاعلون مع من لا يقرؤون ؟!!

ومن غير المقبول أن يجعل دارس فاصلا بين رجال الصوفية وبين السلف الصالح، حتى لكأنهما فريقان، فريق الصوفية برجاله، وفريق السلف، ومن سار على

---

(١) العلامة: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت:١١٦٢هـ) – كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس – كشف الخفاء ج: ١ ص: ١٤٧ – رقم: ٣٨١ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٥هـ – الطبعة الرابعة – تحقيق: أحمد القلاش. وقال العجلوني: رواه البيهقي وأسنده الديلمي وعن ابن عباس بلفظ أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم إقتديتم إهتديتم .

(٢) العلامة الإمام: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (٢٠٩هـ/٢٧٩هـ) – الجامع الصحيح سنن الترمذي – ج: ٥ ص: ٦٩٦ الحديث رقم: ٣٨٦٢ (راويه عبدالله بن مغفل)– طبعة دار إحياء التراث العربي– بيروت – تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون .

(٣) العلامة سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (٢٦٠هـ/٣٦٠هـ) – المعجم الكبير – ج:١٢ ص: ٢٨٣ – الحديث: ١٣١٢٥ – مكتبة العلوم والحكم– الموصل١٤٠٤هـ–١٩٨٣م – ط الثانية – تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

نهجهم برجاله؛ لأن هذا من التصنيفات التى حاول غرضها المستشرقون حتى ينالوا من الإسلام رجالا وفكرا، بحيث يجد المسلم نفسه بين طرفين يتنازعانه: أحدهما صوفى والأخر سلفية، وقد وضعت جماعة المستشرقين حدا فاصلا بين الزهاد من رجال التصوف، وبين غيرهم ممن ساروا سيرة السلف[1] رضوان الله عليهم أجمعين.

والحق خلاف ذلك، بل هو نفسه قد اضطرب فى الحكم الذى سبق إصداره وتراجع عن سابق قوله، حتى انتهى إلى أن التصوف الإسلامى: وليد لحركة الإسلام ذاته[2]، وأنه نتيجة لازمة لفكرة الإسلام عن الله ...، وقد أحب هؤلاء القوم الله، ولكن خوفهم إياه كان أقوى وأشد، وقد أدى بهم هذا الحب إلى الاستسلام المطلق لإرادة الله[3].

على أن ما يمكن الالتفات إليه هو أن كلمة التصوف أو الصوفى لم يكن ينظر إليها أول الأمر على أنها وافدة، أو أنها خطر يجب الابتعاد عنه، بل العكس ظهرت الكلمة لدى المسلمين على أنها مفيدة للمدح فمتى وصف بها آحاد الناس فقد بلغ بين أقرانه المنزلة العالية[4]، حتى إن مؤرخى التصوف يذكرون أبا هاشم الكوفى[5] المعاصر

---

(١) رينولد ألن نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٣ – ترجمة أبو العلا عفيفى .

(٢) هذه التعبيرات من حركية الإسلام وخلافه مما يجرى على السنة المستشرقين، ومن معهم إنما يعبر عن ثقافاتهم الذاتية، ولا يعبر عن روح الإسلام.

(٣) نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٣ – ترجمة أبو العلا عفيفى .

(٤) الشيخ محمد سبع الثورى – دراسات فى التصوف الإسلامى ص١٧ .

(٥) هو القاسم بن كثير الخارفي الهمداني أبو هاشم الكوفي بياع السابري روى عن قيس الخارفي عس وأبي البختري الطائي روى عنه سفيان الثوري ومطرف بن طريف قال أبو حاتم صالح وقال النسائي ثقة وذكره بن حبان في كتاب الثقات روى له النسائي في مسند علي حديثا واحدا وقد وقع لنا بعلو عنه أخبرنا به أبو الفرج بن قدامة وأبو الحسن بن البخاري المقدسيان وأبو الغنائم بن علان وأحمد بن شيبان قالوا أخبرنا حنبل بن عبد الله قال أخبرنا أبو القاسم بن الحصين قال أخبرنا أبو علي بن المذهب قال أخبرنا أبو بكر بن مالك قال حدثنا عبد الله بن أحمد قال حدثني أبي قال حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن أبي هاشم القاسم بن كثير عن قيس الخارفي قال سمعت عليا يقول سبق رسول الله وصلى أبو بكر وثالث عمر ثم خطبتنا أو أصابتنا فتنة فما شاء الله قال عبد الله قال أبي قوله خطبتنا فتنة أراد أن يتواضع بذلك رواه عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن مهدي فوقع لنا بدلا عاليا ورواه من وجوه أخر عن سفيان. [راجع العلامة يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي المولود ٦٥٤ هـ والمتوفى ٧٤٢هـ– تهذيب الكمال ج:٢٣ ص:٤١٩ – رقم:٤٨١٥ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٣٥ – تحقيق د. بشار عواد معروف]

لسفيان الثورى[1]، وقد وصف أبو هاشم بها، وصار يمتدح بين الناس بهذه الصفة التى أضيفت إليه حتى غلبت على أسمه ،فصارت علما عليه ومن سار سيرته[2].

ولا تعجب مما مضى إذا علمنا: أن التصوف عندهم – الصوفية – رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم، والصبر والإخلاص والصدق، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة، التى تكسب المدائح فى الدنيا، والثواب فى الأخرى[3].

من ثم فلا يفزع القوم إذا انتهى أبو نعيم إلى أنه قد « أصبح اسم صوفة علما على من انفرد بخدمة الله »[4]، ومنه استفاد الصوفية هذا العلم المنقول، على ما مر ذكر طرف منه، مع الأخذ فى الاعتبار أن الصوفية الأعلام أهل الإسلام، لم يكونوا إلا ناقلين عن الله تعالى، ورسوله الكريم، لأن ذلك مما يناسب مقاماتهم الرفيعة، ومنازلهم العالية، وآمالهم التى تجرى نحو الله لا تنقطع عنه.

الرأى الثالث: أنها لقب على الصوفية

المعلوم فى لغة العرب هو أن العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

[١] **الاسم** : هو ما يسمى به صاحبه مباشرة، كمحمد، حازم، بدر الدين، هبة الله، نعمة الله، رحمة الله .

[٢] **الكنية** : ما كان مبتدئا بلفظ أب أو أم أو أخ أو أخت غالبا أب أو أم، كأبى عبدالله، وأم الخير، وأخت القوم وأخ الجهاد.

[٣] **اللقب**: ما أشعر بمدح كزين العابدين، أو ذم كأنف الناقة[5].

---

(١) سفيان الثورى : هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى – أبو عبدالله الكوفى . قال فيه النسائى هو أجل من أن يقال فيه ثقة. توفى سنة ١٦١ هـ . [تهذيب التهذيب جـ٤ ص٩٩، والجرح والتعديل جـ١ ص٥٥، والتقريب جـ٢ ص٣١١ .

(٢) نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٣ – ترجمة أبو العلا عفيفى .

(٣) العلامة الحافظ ابن الجوزى – تلبيس إبليس ص١٧٣.

(٤) العلامة الحافظ أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج١ ص١٨ .

(٥) الإمام ابن عقيل – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ص١٩ ومعها الحاشية.

❁ والإمام العمريطى يقول:

ثـانى المعـارف الشـهير بـالعلم ∴ كجعفـــر ومكـــة وكـــالحرم
وأم عمـــرو وأبـــى ســـعيد ∴ ونحـو كـهف الظلـم والرشـيد
فمـا أتـى منـه بـأم أو بـأب ∴ فكنيـة وغـيره اسـم أو لقـب
فمـا بمـدح أو بـذم مشـعر ∴ فلقـب والاسـم مـا لا يشـعر [1]

وما دمنا قد تعرضنا للتصوف باعتباره اسما مشتقا، كما تعرفنا عليه باعتباره علما منقولا، فقد حان الآن، نخلص إلى كونه لقبا على هذه الطائفة من المؤمنين. فهل يمكن اعتبار التصوف لقبا من الألقاب التى تشعر بالمدح أو الذم؟

اللقب هو ما أشعر بمدح أو ذم، وهو ما بمدح أو ذم مشعر، والتصوف لقب ممدوح باعتباره عملا قلبيا، يأخذ بالإنسان إلى طاعة مولاه، فلا ريب أنه من تلك الناحية لقب يفيد المدح، أما إذا ادعاه قوم تخالفت أفعالهم وأقوالهم ونياتهم مع تعاليم ربهم، فلا شك أنه يشعر بالقدح، ويكون الممدوح أو المقدوح فى هذه الناحية، هو الذى وافق شرع الله فيمدح، أو خالفه فيقدح.

❖ لكن هل قال أحد أن التصوف لقب على هذه الجماعة بحيث يفيد المدح؟

❁ يقول القشيرى: « والأظهر فيه أنه كاللقب، على هذه الجماعة، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعينهم إلى قياس لفظ أو اشتقاق »[2]. ويرجح أحد الباحثين ميل القشيرى إلى أن التصوف لقب فيقول: « إن رأى القشيرى الذى يتلخص فى أن الصوفية تشبه أن تكون لقبا على هذه الطائفة، قد أصاب فيه كل الإصابة، إذ هو يقطع الطريق على ما أثاره البعض من إشكالات لغوية »[3]، ربما كانت ظواهرها تؤدى ما ذهب إليه، أو لا تؤدى ذلك.

---

(١) الإمام شرف الدين يحيى العمريطى – نظم الأجرومية ص٣٠٦ – باب المعرفة والنكرة – مجموع مهمات المتون – مطبعة الحلبى ٤/١٣٦٩هـ.

(٢) الإمام عبدالكريم بن هوزان القشيرى – الرسالة القشيرية ج٢ ص٥٥٠ .

(٣) الدكتور محمد فوقى حجاج – التصوف الإسلامى والأخلاق ص٢٠ ط١/١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

والحق أن هذا الرأى ليس وليد اليوم، بل قاله ذات الباحث منذ فترة تجاوزت العشرين عاما[1]، وكم تمنيت أن يكون تدليله على إصابة القشيرى ليست قائمة لمجرد قطع الطريق على الإشكالات المثارة، وكم وددت لو واجه المشكلات المثارة، ووجه من النقودات إليها ما يقطعها بالكلية. وفى لغة العرب ألف مخرج.

كما لاحظت عدم التوجيه فى إفادة التصوف من هذا اللقب أو استفادته منه. أو بمعنى أخر: ما هى العلاقة بين لقب التصوف والصوفية؟ أو لماذا لقب هؤلاء بالصوفية؟ رغم أن العلاقة بين التصوف والصوفية أوثق من أن تحتاج إلى كونها لقبا فقط.

الرأى الرابع: أنها لفظة جامدة

ينسب للقشيرى القول بأن لفظة التصوف جامدة، لمجرد أنهم رأوا عبارة الرجل يقول فيها: « وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب »[2]، فنسبوا إليه القول بأنها جامدة، والحق خلاف ما ذهبوا إليه، فلم يقل إنها جامدة، وإنما قال ليس يشهد لها قياس ولا اشتقاق، والفرق بين الأمرين كبير.

فالرجل لم ينف كونها مشتقة، لكنه لم يجد الأدلة فقط على كونها تجرى على قياس أو تقع فى دائرة الاشتقاق، والمعلوم أن فقدان الدليل ليس شاهدا على عدم وجود المدلول، لكنهم تجرؤا على الرجل ونسبوا إليه أنه « قرر أن الكلمة جامدة، وأنها تجرى على غير قياس »[3].

---

(١) سبق نشر هذا الجزء فى كتاب قضايا هامة فى التصوف الإسلامى ص٢٢ – الدكتور محمد فوقى حجاج، دكتور: محمد مصطفى – مكتبة الأزهر – الطبعة الأولى.

(٢) الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ص٢١٦ – طبعة صبيح وبهامشها تحقيقات شيخ الإسلام زكريا الأنصارى.

(٣) الدكتور على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج٣ ص٣٨.

وفاتهم أن اللفظ يمكن أن يكون سماعيا بدل أن يكون قياسيا[1]، كما يكون جامدا ومتصرفا، ومشتقا أو غير مشتق، كما أن الجامد يشترط فيه عدم ملاحظة صفة. أما التصوف فقد لوحظت فيه الصفة[2]، بل هي قاسم مشترك في أغلب المعاني المقالة عليه، وبالتالى لا ينصرف تعبير القشيرى إلى أنها لفظة جامدة، وإنما ينصرف إلى أنه لم تقع لديه الأدلة والشواهد على أنها مشتقة، ولكنها ربما وقعت لغيره، على ناحية من لغة العرب الواسعة.

إذن القول بأنها جامدة لم يسلم من ناحية نسبة القول به للقشيرى، كما لم يسلم من ناحية البحث عنه فى المصادر العربية، بل أن الاشتقاق فى **الكلمة أظهر**، والذى يراجع أنواع الاشتقاق الثلاثة – الصغير والكبير والأكبر – يرى **أنها تقع فى** دائرتها جميعا من غير ممانعة على ناحية اللغة[3]، **وهى القاسم المشترك بين المعانى** المتداولة والاستعمال العام والخاص.

◈ **وربما تسألنى: هل غفل هؤلاء جميعا عن أن القشيرى لم يقل بأن الكلمة جامدة.** رغم تواترها فى مؤلفاتهم التى تحمل أسماء لامعة **وأخرى لها ذيوع وانتشار ؟**

✽ **والجواب:** أننا نعرف الرجال بالحق وليس العكس، كما أن **الذى نسب القول** إلى القشيرى هو واحد فقط، ثم نقلوا عنه لثقتهم فيه، وكان الأولى **الرجوع إلى** عبارة القشيرى نفسها، أضف إلى ذلك أن مؤلفات الصوفية الأوائل **لعبت** بها آياد أخرى[4]، كان غرضها خلط التصوف الحق بالمنتسب إليه وخلط **الصوفية** الأعلام بالمتصوفة خصوم الأنام، حتى تضيع المعالم الصحيحة للتصوف **الشرعى**[5].

---

(١) القياس هو ما له قاعدة ثابتة، يجيء عليها، أما السماعى فهو ما لا قاعدة له، وإنما يتعامل معه على منطوقه.

(٢) هناك فرق بين الاسم والصفة، وكون التصوف اسما أو صفة على ما هو قائم فى عرف أهل اللغة.

(٣) راجع الجواب الظريف عن السؤال فى فن التصريف ص١٩/١٨ .

(٤) الشيخ محمد سبع الثوري – دراسات فى التصوف الإسلامى ص٣٣ .

(٥) وهذا ما حدث بالفعل حيث ترى مؤلفات تحمل أسماء صوفية فيها خيال عارم يربو على معجزات الأنبياء جميعا يسمونها كرامات، بل أن بعضها يدعوا إلى الإقامة بالمقابر وآخر يدعو للسلطان الظالم بالنصر، ويطالب الناس عدم الخروج عليه، إلى أخر هذه الخيالات التى تدل على أن يدا طولى لعبت بهذا التراث الروحى فى مرحلة متقدمة.

وبالقياس: هل لو كانت الكلمة جامدة، ألم يكن بإمكان الطوسى والكلاباذى وغيرهما من مؤرخى التصوف، وأئمة الصوفية ذكر أنها جـامدة، بـدل الحديـث عـن اشتقاقها وأنواع هذا الاشتقاق وطرقه، والعلاقة بينـه وبين المعنـى الأصلى، وكلاهما سابق على القشيرى، بل ومن هؤلاء من كان حجة فى الحديث وعلوم اللغة؟

كما أن جمـهرة الدارسين علـى أن الكلمـة مشتقة – وإن تعـددت جـهات الاشتقاق ومعانيه – فهل ينهض زعـم زاعـم فـى مواجهـة آراء لهـا مكانتـها العلميـة ومنزلتها فى المصادر العربية، إنى أشد ميلا إلى أن الكلمة مشتقة من كافة المعانى على النحو الذى ذهب إليه أبو نعيم فى الحلية[1]، وانتهى إلى قريب منه ابن الجوزى[2]، ومال إلى أحدها الكلاباذى[3]، وزكى أخر الطوسى[4].

آراء مهجورة

هناك آراء مهجورة ربما نسبت لبعض المسـلمين وهـى ليسـت لهـم، أو أنـها وقعت منهم ثم صحفت بعدهم[5]، أو قام عليها أمر التحريف والتزوير بقصـد الإسـاءة لتراث المسلمين[6]، ولأن هذه الآراء لا تمثل قيمة فنية فى المسألة، فإن الإشارة إليـها تغنى عن تناولها والتركيز عليها، ولـذا سميتـها مـهجورة فـى مقابلـة الأخـرى التـى حازت القبول أو بعضه من هذه الآراء.

---

(١) الحافظ أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج١ ص١٧ .

(٢) العلامة ابن القيم – تلبيس أبليس ١٦٢ .

(٣) العلامة الكلاباذى – التعرف لمذهب أهل التصوف ص٥٠٠ .

(٤) نصير الدين الطوسي – اللمع ص٤ .

(٥) الشيخ محمود نور الدين الحووى – التصوف والمستشرقون ص١٧ .

(٦) الشيخ محمد سبع الثورى – دراسات فى التصوف الإسلامى.

١ـ رأى أبى الريحان البيرونى

حاول البيرونى إيجاد نوع من العلاقة بين التصوف الإسلامى والفلسفة من ناحية اللفظ، أو بين التصوف والفلسفة من ناحية المصطلح الفنى[١]، تلك جهة، ومن ناحية دلالة اللفظ على معانيه من ناحية أخرى، مما يدفعنا إلى فتح صفحات كتابه محاولين التعرف على أفكاره.

أـ اشتقاق على معنى الفلسفة

يرى البيرونى أن التصوف مأخوذ من Sofia والتى معناها الحكمة، وعليه فإن الصوفى هو الحكيم، والحكيم هو الصوفى لا فرق بين الأمرين، وعرف عند الهنود قبل لفظ سوفيا بمعنى الحكيم مرة، وبمعنى المسكين أخرى، وبمعنى محبى الحكمة ثالثة، وربما كان ميل البيرونى إلى اشتقاق الكلمة من صوفيا اليونانية مجرد ملاحظة وقعت له، حتى تصور وجود قواسم مشتركة بين الصوفية والهنود وقد بنى ذلك التوجه على مجرد الاشتراك فى بعض مطروحات الرأى، أو بعض مظاهر السلوك أو وسائله، كالخلوة مثلا أو الزهد[٢]، أو التقشف فى المأكل والتخشن فى الملبس، والتنعم بمظاهر الحياة التى يتفانى فى طلبها الكثيرون.

لكن هذه المشابهة لا تحسم المسألة لصالح الرأى القائل : إن التصوف مأخوذ من صوفيا اليونانية، بل تزيد المسألة غموضا وقلقا، وذلك لأن دراسة مقارنة الأديان تلزم صاحبها بضرورة البحث عن أوجه الاتفاق والاختلاف فى الظاهرة الدينية الموضوعة للمقارنة، حتى ولو كانت مجرد لفظ يستخدم على أنحاء متعددة، أو فكرة طارئة، أو مسمى بعينه، ولابد من بحث المصادر التى اعتمد عليها الطرفان حتى يمكن التعرف على الأصيل منها والدخيل[٣]، أو تميز صاحب الحق من مدعيه، وهذا

---

(١) المصطلح الفنى يوصل إلى معرفة العنوان الموضوعى، حيث إن التعرف عليه يحل مشكلة، ما تزال قائمة لدى الكثيرين من الدارسين.

(٢) أبو الريحان البيرونى – تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ج١ ص٢٤/٢٥ (بتصرف يسير فى العبارة).

(٣) العلامة الشيخ حكمت الله مصطفى المتولى – التصوف الإسلامى ص٥٧ .

ما لم يحدث مع البيرونى، ولم يحتط هو نفسه إليه، بل ربما نسب الرأى إليه مع أنه لم يقل به.

ب- اشتقاق على دلالة اللفظ

يذهب بعض الدارسين إلى أن رأى البيرونى يمثل فرضا لم تثبت صحته؛ لأن زعمه قبس كلمة التصوف من صوفيا يجره إلى قبول ترجمتها الحرفية، باعتبارها دالة اللفظ نفسه التى تؤدى فى النهاية إلى الجيمنو سوفيست، وأن هذه الكلمة عبارة عن اسم أطلقه اليونان على نوع من الهنود العراة كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان فى سياحة دائمة، يتأملون فى الله ويعيشون فيه[1]، دون أن يصرفهم صارف عن هذا الاتجاه الفنى الدقيق.

وطبقا لهذا المعنى القريب فلابد من قبول فكرة زائفة مؤداها: أن التصوف الإسلامى مرتبط بالبوذية خاصة، والأديان الهندية عامة[2]، ولا يعرف اشتقاق للكلمة بهذا المعنى، إنما الذى يمكن قوله هو نحت الكلمة وليس نقلها وهو هنا غير صحيح؛ لأن النحت اللغوى له شروط عديدة، أبرزها: معرفة المعنى الأصلى للكلمة فى لغة قومها، والمعنى الذى تنقل إليه فى اللغة الأخرى، وهذا لم يحدث، وإلا كان دورا ظاهرا وهو باطل.

كما يلزم عليه أن يعرف الصوفية معنى الجيمنو سوفيست أولا، ثم يتعرفوا على المكان الفارغ فى لغتهم ثانيا، ثم يطالبون بنحت اللفظ الأول ووضعه فى مكان الثانى، كما أن رأى البيرونى لا يجد سندا ولو شكليا يعتمد عليه، لتخالف اللغتين، وتباعد المعنيين للكلمتين فى لفظى تصوف وفلسفة، ولا اعتداد بالقول بأن: سوفيا اليونانية التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص[3]، يمكن قبس التصوف الإسلامى منها، بل ليس من الصواب قبول رأى البيرونى، ولذا سميته رأيا مهجورا، ومن ثم فإن رأى البيرونى لا اعتداد به. أما لماذا؟

فلما يلى :-

---

(١) الشيخ محمد سبع الثورى - دراسات فى التصوف الإسلامى ص٢٣ .

(٢) الدكتور على سامى النشار - نشأة الفكر الفلسفى ج٣ ص٤٦، ص٤٨ طبعة ٨.

(٣) الدكتور عبدالحليم محمود - المنقذ من الضلال ص٣٦ فى أبحاثه المتعلقة بالتصوف والمنشور مع المنقذ من الضلال - دار الكتب الحديثة.

☆ **أولا**: أن البيرونى ولع بالحديث عن الهنود وثقافاتـهم وسـلوكياتهم، حتـى كأنـه يؤرخ لهم، ويكتب عنهم، وانتهى به الطاف إلى القول بأن الصوفيـة فـى الإسـلام مالوا إلى القول بالتناسخ بين الدنيا والآخرة، حيث زعم أن الصوفيـة فـى الإسـلام يرون للدنيا نفسا نائمة، وللآخرة نفسا يقظى، وأن الحـق جـل عـلاه يحـل فـى الأماكن ذاتها كالسماء والعرش والكرسى[1]، ولكن حلـولا يتناسـب مـع ذاتـه، إذ ليس من المعقول أن يقع حلول، ولا يكون هناك حال ومحل.

وذكر أن بعضهم – الصوفية – يجيز ذلك فى دار الدنيا، حتى دعاه هـذا إلى القول بأنهم يركزون على مصطلح " الظهور الكلى "، ولم يخف الرجل تصوره من وجود نسب قوى بين الصوفية فـى الإسـلام وصوفيـة المسـيحية[2]، وزهـاد الهنـود، وانتهى إلى القول بأنهم جميعا يؤمنون بالحلول والاتحاد[3]، وهو تعميم غـير مقبـول؛ لأن صوفية الإسلام لا علاقة لهم بالحلول أو الاتحاد، وإنما نسب كـل واحـد منـهما إليهم، وهم عنه غير راضين.

وهذا فى حد ذاته يـؤدى بنـا إلى القـول بـأن البـيرونى فقـدت شـهادته أهـم مقوماتها، وهى الحيدة والموضوعية، بجانب صحة نسبة الآراء لأصحابها[4]، والتأكيد على مصادرها التى استقيت منها.

☆ **ثانيا**: أن رأى البيرونى ليس له دليل يعضده، غير بعض ملامح المشابهة الظـاهرة التى رددها بعض الباحثين من المسلمين والمستشرقين، لكـن ردهـا المحققـون مـن المسلمين وغيرها، فمن المسلمين جمع غفير على سبيل المثال الدكتور زكـى مبـارك الذى يرفض رأى البيرونى الذى يقوم على أن التصوف مشتق من سوفيا، وتسـاءل الرجل: لماذا لم يكن الأمر بخـلاف ذلـك، وأن كلمـة تصـوف العربيـة هـى التـى اقتبست منها كلمة سوفيا اليونانية، وليـس العكـس، وبخاصـة أن كلمـة تصـوف

---

(١) الشيخ عبدالعظيم حسن الذكى – الصوفية رجال الله ص٢٣ .

(٢) كثير من المسيحية يمارس نوعا من التصوف، يسمى عندهم المايستم أو الحياة الأبوية، ولهـم فـى ذلك رهبانية مبتدعة، وزهادة متكلفة.

(٣) أبو الريحان البيرونى – تحقيق ما للهند من مقولة ص٢٢/٢٩ .

(٤) لأن القول المرسل لا يمثل قيمة فنية فى مجال البحث العلمى، وإنمـا يعتـبر شـيئا مـن الحكايـة التى تشبع العوام، ويقبل عليها المقلدون.

وصوفية عرفتا عند العرب فى عصرهم الجاهلى، ولا يبعد أن تكون هذه الكلمة قد رحلت من بلاد العرب إلى بلاد اليونان،فكانت صوفى وتصوف عند العرب، وكانت سوفيا عند اليونان[١]، وهو رأى وجيه مقبول، بل أن تعليله له وجهة لا ممانعة فيها.

كذلك الدكتور عبدالحليم محمود يؤكد أن رأى البيرونى غير مقبول؛ لأن كلمة تصوف قد عرفت لدى العرب قبل عصر الترجمة، أى قبل أن تتداول ألسنتهم الكلمة. يقول: « ورأى البيرونى هذا على طرافته لا يستقيم لسبب بسيط، وهو أن التسمية بالصوفى كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية ...، مع أن الكلمة – التصوف – عرفت قبل ذلك بكثير، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى على ما يرى صاحب اللمع[٢]. إذن رأى البيرونى لا قيمة له من الناحية الفنية عند محققى أهل الإسلام، على ما سلفت الإشارة إليه.

ومن المستشرقين الأستاذ: نولدكه الذى رد فرض البيرونى، وجزم ببطلانه مستدلا بأن كلمة سيجما أو حرف س الإغريقى، قد قوبل دائما فى الترجمة العربية بحرف "س" لا بحرف "ص" ولم تشذ هذه عن القاعدة كلمة واحدة، فلو أن الصوفية نسبة إلى سوفيا، كما زعم البيرونى – لكتبت كلمة التصوف بالسين لا بالصاد[٣]. ولا يقال: إن السين تحل محلها الصاد، إذن فقد اتجاه البيرونى أخر فرصة لتدعيمه، أو قبوله.

زد على ذلك أنه لا يوجد دليل إيجابى واحد يرجح افتراض أن كلمة التصوف مشتقة من الأصل اليونانى سرفوس، فى حين أن نسبتها إلى الصوفى تؤيدها نصوص من أقوال الكتاب المسلمين أنفسهم[٤]، مما يؤكد عربية الكلمة لا يونانيتها، وصحة قبسها من اللغة العربية، لا نحتها من لغة أخرى، وهو نفس الغرض الذى دار فى حنايا البيرونى، من أنه لم يقف على دليل، كل ما فى الأمر أنه

---

(١) الدكتور : زكى مبارك – التصوف فى الأدب والأخلاق ج١ ص٦٦ وما بعدها– ط أولى ١٣٥٧هـ.

(٢) الدكتور: عبدالحليم محمود – المنقذ من الضلال ص٣١٤/٣١٥ .

(٣) الدكتور: محمد غلاب – التصوف المقارن ص٢٧ دار إحياء الكتب ١٩٥٦م.

(٤) أرنولد ألن نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٦٧ – ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى .

« لما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم »[1]، ولذا حكم
على رأى البيرونى بالتهافت والضعف.

٢. رأى جوزيف فون هامر

ذكر أن الصوفية ينسبون إلى الهنود القدماء المعروفين باسم الحكماء العراة، والكلمة ما هى إلا اسم أطلقه اليونان على بعض الهنود الذين كانوا يهيمون على وجوههم عراة، أو لابسين قليلا من الثياب، ويقضون أوقاتهم فى التأمل والتفكير فى الله، ومعنى الكلمة الحرفى: الحكماء العراة[2]، وعنهم أخذ الكثيرون الزهد والتقشف مع الخشونة فى أسباب الحياة.

ثم انتهى هامر إلى أن « الكلمتين العربيتين: صوفى وصافى؛ مشتقتان من نفس الأصل الذى اشتق منه الكلمتان اليونانيتان: سوفوس وساقيس »[3]، وظن بعض الباحثين أن لفون هامر من الاعتبارات ما يبرر اعتباره كلمة صوفى مرادفة لكلمة سوفوس[4]، ولست معه؛ لأن العلاقة بين تصوف والمفردات اللغوية العربية ثابتة، فلماذا نبحث عن تعليلات تحل بها المسألة.

كان الأجدر بهم أن يذكروا هذه المبررات، ثم يعملوا على مناقشتها ووضعها فى مكانها من البحث العلمى، وتلك طبيعة البحث الفنى الذى يقوم على الناحية الموضوعية، وليس التسليم بمقولة الخصم من حسن الظن، من ثم فإن التصوف والصوفى ألفاظ عربية، ولها دلالة فى مصادر العربية ولا عبرة بالمخالف؛ لأن الرأى إذا لم تسنده أدلة، فلا قيمة له، فما هى علاقة التصوف بأهل الصُّفَّة؟ ذلك ما سوف أبحثه فى الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

---

(١) البيرونى – تحقيق ما للهند من مقولة ص٢٤ – ط الهند.

(٢) الدكتور: أبو العلا عفيفى – هامش فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٦٧.

(٣) الدكتور: أبو العلا عفيفى – هامش فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٦٧.

(٤) الدكتور: أحمد طلعت غنام – أضواء على التصوف ص٢٧ – نشرة عالم الكتب ١٩٧٧م.



علاقة التصوف بأهل الصفة

تذكر المصادر المعتد بها أن جمعا من صحابة سيدنا رسول الله – من المهاجرين والأنصار – كانوا سراء، ولم تكن لهم بيوت يأوون إليها، ولا أن يعيشوا فيها، وهم فى ذات الوقت جملة من الرجال الذين أوقفوا حياتهم لخدمة دين الله رب العالمين، مع خاتم الأنبياء وسيد المرسلين. ، وصاروا فى الصف الأول من عباد الله. بل صاروا قادة لغيرهم فى التحول نحو طاعة الله وإخلاص العبادة له جل شأنه.

وكثيرا ما كانوا يترددون على المسجد النبوى، حتى يكونوا على مقربة من نداء الحق العلام، فى تنزيل القرآن الكريم[1]، والجهاد فى سبيل إعلاء دينه[2]، وحتى تتم لهم المؤاخاة[3]، أو تتحقق الأنظمة الأسرية، فقد كانت إقامتهم أول أمرهم بالمسجد، إنهم لا مال معهم ينفقون منه، ولا بيوت تخصهم حتى يقيموا بها، ولا زرع ولا ضرع ولا تجارة، إنهم قد فارقوا كل متع الحياة الدنيا، وانحازوا لجناب الحق، فهم طلقوا كل مظاهر الترف والنعيم، حتى يخلصوا لله رب العالمين من ثم رأى الرسول أن يقيم لهم بناء خاصا يجمعهم وأمثالهم.

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأحزاب – الآية ٢٤].

(٢) ففى الحديث الشريف عن ابن عباس قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » [الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج ٤ ص١٧٥ – [١٢] باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله – الحديث: ١٦٣٩، وأخرج الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٩٢ – الحديث رقم: ٢٤٣٠ بلفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أعين لا تمسها النار عين فقئت في سبيل الله وعين حرست في سبيل الله وعين بكت من خشية الله] ، وراجع مجمع الزوائدج٥ ص٢٨٧، ومسند الامام أحمد ج٤ ص١٣٤، ومسند أبى يعلى ج٧ ص٣٠٧، المعجم الكبير للطبرانى ج١٩ ص٤١٩ ، والترغيب والترهيب ج٢ ص١٥٨، ج٤ ص١١٣ ، وتحفة الأحوذى ج٥ ص٢٢١ ، ج٦ ص٤٩٤ ، وحلية الأولياء ج٥ ص١٨٠ ، ص٢٠٩].

(٣) المؤاخاة فى السكنى والمعيشة لا المؤاخاة فى العقيدة؛ لأن المؤاخاة فى الدين ثابتة لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات – الآية ١٠]

ففي الحديث الشريف : « عن عبد الرحمن بن أبي بكر[1]، أن أصحاب الصفة كانوا ناسا فقراء من أهل الإسلام وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مرة من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثلاثة ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس بسادس، وإن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق نبي الله صلى الله عليه وسلم بعشرة وأبو بكر بثلاثة قال فهو وأنا وأبي وأمي ولا أدري هل قال امرأتي وخادم بين بيتنا وبيت أبي بكر قال وإن أبا بكر تعشى عند النبي صلى الله عليه وسلم ثم لبث حتى صليت العشاء ثم رجع فلبث حتى نعس رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله قالت له امرأته ما حبسك عن أضيافك أو قالت ضيفك قال أو ما عشيتهم قالت أبوا حتى تجيء قد عرضوا عليهم فغلبوهم قال فذهبت أنا فاختبأت وقال يا غنثر فجدع وسب وقال كلوا لا هنيئا وقال والله لا أطعمه أبدا قال فأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعنا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر قال لامرأته يا أخت بني فراس ما هذا قالت لا وقرة عيني لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرار فأكل منها أبو بكر وقال إنما كان ذلك من الشيطان يعني يمينه ثم أكل منها لقمة ثم حملها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحت عنده قال وكان بيننا وبين قوم عقد فمضى الأجل فعرفنا اثنا عشر رجلا مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل إلا أنه بعث معهم فأكلوا منها أجمعون »[2].

---

(١) هو « عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق شقيق أم المؤمنين عائشة، حضر بدرا مع المشركين ثم إنه أسلم وهاجر قبيل الفتح وأما جده أبو قحافة فتأخر إسلامه إلى يوم الفتح، وكان هذا أسن أولاد الصديق وكان من الرماة المذكورين والشجعان قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم. له أحاديث نحو الثمانية اتفق الشيخان على ثلاثة منها ، روى عنه ابناه عبد الله وحفصة وابن أخيه القاسم بن محمد وأبو عثمان النهدي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعمرو بن أوس الثقفي وابن أبي مليكة وآخرون، وهو الذي أمره النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أن يعمر أخته عائشة من التنعيم، توفي في سنة ثلاث وخمسين » [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٧١ – رقم:٩٢]

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:٣ ص:١٦٢٧ – باب فضل قراءة القرآن فى الصلاة وتعلمه – رقم: ٢٠٥٧، وأخرجه الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:١ ص:٢١٦/٢١٧– باب السمر مع الضيف والأهل – رقم:٥٧٧ .

فما هى الصفة ومكانها واسمها؟

أ- الصفة

عبارة عن مكان بالمدينة المنورة أقامه الرسول ﷺ فى شمالى مسجد رسول الله ﷺ، يأوى إليها المؤمن ممن لا أهل له بالمدينة. وهو من حديثى عهد بالإسلام أو زيارة المدينة المنورة، ولم يكن يقيم بها ناس معينون على الدوام، بل يذهب قوم ويجيء آخرون[1]، وكانوا أغلب الأحوال يصل عددهم إلى أربعمائة رجل، ممن لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر[2] يأوون إليهم، ويتقاسمون أسباب الحياة معهم.

ب- مكانها

أما مكانها فقد كان بالمدينة المنورة وهو الرأى الصحيح الذى عليه أهل العلم، ولم يكن بمكة أبدا. أما لماذا؟ فلأن الصفة وأهلها لم يعرفوا إلاً بعد الهجرة، حيث بدأت مسألة المهاجرين الذين ذكرهم الله فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[3].

❁ **يقول الإمام القرطبى** : « أي الفيء والغنائم للفقراء المهاجرين، وقيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء، ولكن يكون للفقراء، وقيل: هو بيان لقوله "ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" فلما ذكروا بأصنافهم قيل: المال لهؤلاء؛ لأنهم فقراء ومهاجرون وقد أخرجوا من ديارهم، فهم أحق الناس به.

وقيل: ولكن الله يسلط رسله على من يشاء للفقراء المهاجرين؛ لكيلا يكون المال دولة للأغنياء من بني الدنيا، وقيل: والله شديد العقاب للمهاجرين أي شديد

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيميه مجموع الفتاوى – التصوف ص٧١ ، وذهب أحد الباحثين إلى أن أهل الصفة هم جماعة من الزهاد والفقراء الغرباء من المهاجرين. وكانوا فيما يقرب سبعين شخصا؛ ولأنه لم يكن لهم مسكن أو مال أو ولد، فقد سكنوا فى صفة المسجد النبوى. [راجع الدكتور فيصل بدير عون – دراسات فى التصوف الإسلامى والفلسفة ص٣٧/٣٨ – الناشر مكتبة الحرية بالقاهرة.

(٢) العلامة عبدالكريم بن هوزان القشيرى – الرسالة القشيرية ص٦٢ .

(٣) سورة الحشر – الآية ٨ .

العقاب للكفار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجلهم ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدم ذكرهم في قوله تعالى ولذي القربى واليتامى[1] والمهاجرون من هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حبا فيه ونصرة له قال قتادة هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبا لله ولرسوله حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ماله دثار غيرها.

وقال عبدالرحمن بن أبزى[2] وسعيد بن جبير كان ناس من المهاجرين ليس لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحج عليها ويغزو فنسبهم الله إلى الفقر رجعل لهم سهما في الزكاة ومعنى أخرجوا من ديارهم حيث أخرجهم كفار مكة بعد أن أحوجوهم إلى الخروج وكانوا مائة رجل يطلبون "فضلا من الله" مما يقع من غنيمة في الدنيا ورضوانا في الآخرة وهو مرضاة ربهم وينصرون الله ورسوله في الجهاد في سبيل الله

"أولئك هم الصادقون" في فعلهم ذلك وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بالجابية فقال من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله تعالى جعلني له خازنا وقاسما ألا واني باد بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فمعطيهن ثم المهاجرين الأولين أنا وأصحابي أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا »[3].

كما ظهر إيثار الأنصار، وحبهم إخوانهم المهاجرين حتى ملك هذا الحب زمام قلوبهم، وسيطر على مناحى أفئدتهم، وشغل كافة أنحائهم، وذكرهم الله تعالى مادحا سلوكياتهم التى قاموا عليها فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن

---

(١) وقيل هو عطف على ما مضى ولم يأت بواو العطف كقولك هذا المال لزيد لبكر لفلان لفلان.
[تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٠]

(٢) عبدالرحمن بن أبزى مولى خزاعة كوفي أدرك النبي صلى الله عليه وسلم و صلى خلفه، روى عن عمار بن ياسر في الوضوء، روى عنه ابنه سعيد بن عبدالرحمن [راجع رجال مسلم ج: ١ ص: ٤٠٣ - رقم: ٨٩٥]

(٣) العلامة القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - ج: ١٨ ص: ٢٠/١٩ .

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

❁ **يقول ابن كثير** : « يقول الله تعالى مبينا حال الفقراء المستحقين لمال الفيء
الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا أي خرجوا من أنهم
ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه وينصرون الله ورسوله أولئك هم من
الصادقون(٢)، أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين ثم هم
قال تعالى مادحا للأنصار ومبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع ثم
الحاجة فقال تعالى والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أي سكنوا دار الهجرة مع
من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، قال عمر وأوصي الخليفة بعدي الهجرة
بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم وأوصيه بالأنصار بعدي
خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل أن يقبل محسنهم وأن يعفوا عن بالأنصار
مسيئهم](٣).

وقوله تعالى يحبون من هاجر إليهم أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون
المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، عن أنس قال [قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا
مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير لقد كفونا المؤونة
وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله قال ألا ما أثنيتم عليهم
ودعوتم الله لهم](٤).

---

(١) سورة الحشر – الآية ٩ .

(٢) ذلك شأن أهل الله صدقوا مع الله فجازاهم الله بصدقهم، وجعل منزلتهم مع النبيين والشهداء والصديقين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء – الآية ٦٩]

(٣) الإمام البخارى صحيح البخاري ج٤ ص١٨٥٤ – [٣٦٥] باب والذين تبوؤوا الدار والإيمان – الحديث: ٤٦٠٦ ، ج١ ص٤٦٩ – الحديث: ١٣٢٨، ج٣ ص١٣٥٣ – [٨] باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه – الحديث: ٣٤٩٧.

(٤) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٣ ص٢٠٠ – الحديث: ١٣٠٩٧ .

وروى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ حين خرج معه إلى الوليد قال دعا النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار أن يقطع لهم البحرين قالوا لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال أما لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال لا فقالوا أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة قالوا سمعنا وأطعنا ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا حيث لا يجدون في أنفسهم حسدا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف مع التقدم في الذكر والرتبة قال الحسن البصري ولا يجدون في صدورهم حاجة يعني الحسد مما أوتوا، وقال قتادة يعني فيما أعطى إخوانهم[2].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال [كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقالته، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال إني لاحيت[3] أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الأيام الثلاثة فعلت قال نعم.

قال أنس فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبد الله غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرات يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي بك فلم أرك تعمل كبير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما هو إلا ما رأيت فلما وليت دعاني فقال ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي

---

(١) الإمام البخاري – صحيح البخاري – الحديث: ٣٧٩٤ .

(٢) الإمام البخاري – صحيح البخاري – الحديث: ٢٣٢٥.

(٣) الملاحاة هي الجدل الذي يقع بين طرفين فأكثر كل يريد الغلبة ويلح على ذلك.

لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق][1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك قالوا وما ذاك يا رسول الله قال هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر فقالوا نعم يا رسول الله وقوله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في الحديث النبوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [أفضل الصدقة جهد المقل][2] وهذا المقام أعلى من حال الذين وصفهم الله بقوله تعالى ويطعمون الطعام على حبه وقوله وآتى المال على حبه فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به وهؤلاء آثروا على

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٣ ص١٦٦ – الحديث: ١٢٧٢٠، وأخرجه الهيثمى فى الزوائد ج٨ ص٨٧، وروى النسائي في اليوم والليلة فى سننه – الحديث: ٨٦٣ عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر به وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

(٢) العلامة أبو حاتم ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٨ ص١٣٤ – ذكر البيان بأن من أفضل الصدقة إخراج المقل بعض ما عنده – الحديث: ٣٣٤٦ بلفظ عن أبي هريرة أنه قال « يا رسول الله أي الصدقة أفضل قال جهد المقل وابدأ بمن تعول » وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص٥٧٤ – الحديث: ١٥٠٩ ، وأخرجه البيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٤ ص١٨٠ – [١٢٤] باب ما ورد في جهد المقل – الحديث: ٧٥٦١ ، وأخرجه ابن خزيمة – صحيح ابن خزيمة ج٤ ص٩٩ – [١٤٠] باب ذكر الدليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما فضل صدقة المقل ... الحديث: ٢٤٤٤ ، وأخرج النسائي – سنن النسائي (المجتبى) ج٥ ص٥٨ – [٤٩] باب جهد المقل الحديث: ٢٥٢٦ بلفظ عن عبد الله بن حبشي الخثعمي « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأعمال أفضل قال إيمان لا شك فيه وجهاد لا غلول فيه وحجة مبرورة قيل فأي الصلاة أفضل قال طول القنوت قيل فأي الصدقة أفضل قال جهد المقل قيل فأي الهجرة أفضل قال من هجر ما حرم الله عز وجل قيل فأي الجهاد أفضل قال من جاهد المشركين بماله ونفسه قيل فأي القتل أشرف قال من أهريق دمه وعقر جواده ».

أنفسهم مع خصاصتهم إلى ما أنفقوه ومن هذا تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم [ما أبقيت لأهلك فقال رضي الله عنه أبقيت لهم الله ورسوله][1].

والصوفية يقتدون بأهل الله، فلا ترى الواحد منهم يدخر لنفسه، وإنما يعمل على الادخار الأخروي، إن الدنيا ليست ذات قيمة بالنسبة له، ولكن الآخرة هى الباقية، فحرصه عليها أعلى مقاما، وأكثر أهمية. قال ابن القيم – رحمه الله –: « من أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجوء إلى الله تعالى، والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده، وبره وغناه وحمده، فالعارف سائر إلى الله تعالى، بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذى فقد أحد جناحيه »[2]، فعطفهم على إخوانهم من أهل الإسلام، إنما هو تلبية لنداء داخلى قائم فى الاقتداء برسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء.

وقد كان الصحابة والتابعون يباشرون ذلك كأنهم جميعا من أهل الصفة، أو أنهم فى دار الدنيا غرباء، ومن أمثلة ذلك الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثخن أحوج ما يكون إلى الماء

---

(١) الإمام الترمذى سنن الترمذي ج٥ ص٦١٤ – [١٦] باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما – الحديث: ٣٦٧٥ بلفظ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال « سمعت عمر بن الخطاب يقول أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالا فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما قال فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قلت مثله وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك قال بقيت لهم الله ورسوله قلت والله لا أسبقه إلى شيء أبدا » وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص٥٧٤ – الحديث ١٥١٠، وأخرجه الدارمي – سنن الدارمي ج١ ص٤٨٠ – [٢٦] باب الرجل يتصدق بجميع ما عنده الحديث: ١٦٦٠، وأخرجه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٤ ص١٨٠ – الحديث: ٧٥٦٣، وذكره أبونعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج١ ص٣٢.

(٢) الشيخ عبدالعزيز المحمد السلمان – موارد الظمآن لدروس الزمان ج١ ص٣٨٠ – الطبعة الحادية عشر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم[١].

عن أبي هريرة [قال أتى رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخريه شيئا فقالت والله ما عندي إلا قوت الصبية قال فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقد عجب الله عز وجل أو ضحك من فلان وفلانة وأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة][٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش

---

(١) ذهب بعض العلماء إلى أنهم عشرة وذهب بعض آخر إلى أنهم سبعة، ويبدو أنها تعددت مرات والعدد المتفاوت دال عليه [راجع للشيخ نجم الدين حسن الكاوندى – أهل الإيثار ص٧٥].

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري – الحديث قم: ٤٨٨٩ ، الحديث رقم: ٣٧٩٨ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم – الحديث: ٢٠٥٤ ، وأخرجه النسائي – السنن الكبرى – الحديث: ١١٥٨٢ وأخرجه الترمذى – سنن الترمذي – الحديث: ٣٣٠٤ من طرق عن فضيل بن غزوان به نحوه وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه وقوله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح قال أحمد فى مسنده – الحديث: ٣٣٢٣ حدثنا عبد الرزاق أخبرنا داود بن قيس الفراء عن عبيد الله بن مقسم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه – الحديث: ٢٥٧٨ فرواه عن القعنبي عن داود بن قيس به. الإمام البخارى – صحيح البخاري – الحديث قم: ٤٨٨٩ ، الحديث رقم: ٣٧٩٨ ، وأخرجه مسلم و– صحيح مسلم – الحديث: ٢٠٥٤ ، وأخرجه النسائي – السنن الكبرى – الحديث: ١١٥٨٢ وأخرجه الترمذى – سنن الترمذي – الحديث: ٣٣٠٤ من طرق عن فضيل بن غزوان به نحوه وفي رواية لمسلم تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه وقوله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح قال أحمد فى مسنده – الحديث: ٣٣٢٣ حدثنا عبد الرزاق أخبرنا داود بن قيس الفراء عن عبيد الله بن مقسم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه – الحديث: ٢٥٧٨ فرواه عن القعنبي عن داود بن قيس به.

وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالفجور ففجروا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا][1]. وعن أبي هريرة [أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا][2].

وكما كان الإيثار طابعا فيهم وخصلة ثابتة لديهم، فإن الشح لم يكن له طريقا إلى نفوسهم، ففي الأثر عن الأسود بن هلال[3] قال: [جاء رجل إلى عبد الله فقال يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت فقال له عبد الله وما ذاك قال سمعت الله يقول ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئا فقال عبد الله ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن إنما الشح الذي

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد – الحديث رقم: ٢١٥٩ والعلامة أبو داود – سنن أبي داود – الحديث: ١٦٩٨ من طريق شعبة والنسائي كبرى تحفة٨٦٢٨ من طريق الأعمش كلاهما عن عمرو بن مرة به .

(٢) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج٨ ص٤٣ – ذكر نفي اجتماع الإيمان والشح عن قلب المسلم الحديث: ٣٢٥١ ، وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٨٢ – الحديث: ٢٣٩٥ ، وأخرجه البيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص١٦١ – الحديث: ١٨٢٨٩ ، وأخرجه النسائي – سنن النسائي (المجتبى) ج٦ ص١٣ [٨] باب من عمل في سبيل الله على قدمه – الحديث: ٣١١٠ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج٢ ص٢٥٦ – الحديث: ٧٤٧٤ . وروى الترمذي بلفظ « عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » [الإمام الترمذي – سنن الترمذي ج٤ ص١٧١ –[٨] باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله الحديث: ١٦٣٣].

(٣) الأسود بن هلال : هو أبو سلام المحاربي الكوفي من كبراء التابعين أدرك أيام الجاهلية. وقد حدث عن عمر ومعاذ وابن مسعود وأبي هريرة وما هو بالمكثر ، حدث عنه أشعث بن أبي الشعثاء وأبو إسحاق السبيعي وأبو حصين عثمان بن عاصم وجماعة. وثقة يحيى بن معين ، توفي سنة أربع وثمانين. [راجع سير أعلام النبلاء ج٤ ص ٢٥٧ – رقم: ٩٤].

ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل](1).

وعن أبي الهياج الأسدي(2) قال كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك فقلت له فقال إني إذا وقيت شح نفسي، لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله، وعن أنس بن مالك [عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال برئ من الشح من أدى الزكاة. وقرى الضيف، وأعطى في النائبة](3)»(4).

◈ من ثم فلا اعتداد بمن قال: إن الصفة وأهلها كانوا بسكة و أنهم كانوا لا يجدون ما يكفيهم من تكافل المسلمين. أما لماذا؟

❃ **فلما يلي:ـ**

☆ **أولاً**: أن الدعوة الإسلامية فى مكة المكرمة كانت أول أمرها سراً. وكانت فى أفراد قلائل، لا تكاد تخرج كثيرا عن الأقربين. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

---

(1) العلامة أبو بكر بن أبي شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٥ ص٣٣٢ - رقم: ٢٦٦١١ .

(2) هو « حيان بن حصين أبو الهياج الأسدي الكوفي والد منصور بن حيان وجرير بن حيان روى عن علي بن أبي طالب م د ت س وعن علي بن ربيعة الوالبي عنه وعن عمار بن ياسر وعمر بن الخطاب روى عنه ابنه جرير بن حيان عس وشقيق بن سلمة أبو وائل الأسدي م د ت س وعامر الشعبي وابنه منصور بن حيان الأسدي ذكره بن حبان في كتاب الثقات روى له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي » [راجع العلامة يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي المولود ٦٥٤ هـ والمتوفى ٧٤٢هـ– تهذيب الكمال ج: ٧ ص: ٤٧١ رقم: ١٥٧٥ م د ت س – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٣٥ – تحقيق د. بشار عواد معروف. وراجع التاريخ الكبير ج ٣ ص ٥٣ رقم: ٢٠٣، وراجع رجال مسلم ج١ ص١٦٦، ج٢ ص٤٠٥].

(3) العلامة الطبرانى – المعجم الكبير ج٤ ص١٨٨ – – الحديث :٤٠٩٦ رواه خالد بن زيد الأنصاري ، وأخرج الطبرانى فى المعجم الصغير ج١ ص٩٤ –الحديث قم: ١٢٦ بلفظ عن جابر « عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه فقد بريء من الشح من أدى زكاة ماله طيبة بها نفسه وقرى الضيف وأعطى في النوائب » ، وأخرجه الهيثمى – مجمع الزوائد ج٣ ص٦٨ .

(4) الإمام ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج: ٤ ص: ٣٣٨/٣٤٠ .

الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[1]، ولم يلجأ الرسول ﷺ لإعلان الجهر بها إلا فى مراحلها المتأخرة بمكة بعد أن أنزل الله ﷻ على رسوله الكريم قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[2]، قال صاحبا الجلالين: « فاصدع يا محمد بما تؤمر به أي اجهر به وأمضه وأعرض عن المشركين، وكان هذا قبل الأمر بالجهاد »[3]، فلما جاء الأمر بالجهاد، كان من المناسب مقابلة الحسنة بأمثالها، ومقابلة السيئة بمثلها فقط.

من ثم لم يكن هناك العدد الذى يبلغ أربعمائة رجل من المؤمنين بالله رب العالمين من الفقراء فى مكة، حتى يقال: إن الصفة وجدت بمكة[4]، كما أن الهجرة الأولى والثانية للحبشة لم يزد عدد المهاجرين فيها عن مائتى نفس من الذكور والإناث والأطفال المؤمنين، وبالتالى فلم تكن الصفة وأهلها بمكة أبدا.

☆ **ثانيا**: الثابت من الروايات المعتبرة هو وجود دار الأرقم بن أبى الأرقم[5] – بمكة – وهى التى كان يلتقى فيها الرسول ﷺ بأصحابه سراً، حيث يجلس فيها مستخفيا

---

(١) سورة الشعراء – الآيتان ٢١٤/٢١٥ .

(٢) سورة الحجر – الآية ٩٤ .

(٣) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٣٤٥ .

(٤) ممن ذهب إلى أنها كانت بمكة الأستاذ عبدالعاطي أبو الحسن، راجع له ذكريات الإسلام الأولى ص٩١ ط١/١٩٢١م، وأظن أنه قد وقع له تصحيف فى عبارة وقف عليها، ثم نقلها، ويبدو أنها فكرة قديمة؛ لأن شيخ الإسلام ابن تيمية هاجم كون أهل الصفة وجدوا بمكة. [راجع كتابنا أوراق مطوية فى التصوف والصوفية].

(٥) الأرقم بن أبي الأرقم وكان اسمه عبد مناف بن أسد بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم يكنى أبا عبدالله قال بن السكن أمة تماضر بنت حذيم السهمية ويقال بنت عبدالحارث الخزاعية كان من السابقين الأولين قيل أسلم بعد عشرة وقال البخاري له صحبة وذكره بن إسحاق وموسى بن عقبة فيمن شهد بدرا وروى الحاكم في ترجمته في المستدرك أنه أسلم سابع سبعة وكانت داره على الصفا وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس فيها في الإسلام وذكر قصة طويلة لهذه الدار وأن الأرقم حبسها وأن أحفاده بعد ذلك باعوها لأبي جعفر المنصور ورواه بن منده من طريق أقوى من طريق الحاكم وهي عن عبدالله بن عثمان بن الأرقم عن جده وكان بدريا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره التي عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلا مسلمين وكان آخرهم اسلاما عمر فلما تكاملوا أربعين رجلا خرجوا ، وقد أوقف داره على المسلمين، كما أوصى الأرقم أن يصلي عليه سعد بن أبي وقاص توفي في خلافة معاوية سنة خمس وخمسين ، وهو ابن خمس وثمانين سنة وصلى عليه سعد بن أبي وقاص، وكان قد أقطعه النبي صلى الله عليه وسلم دارا بالمدينة.[راجع الإصابة لابن حجر – باب الألف بعدها راء٧٣ [ص:٤٢/٤٤] (بتصرف يسير)].

من قريش، يدعو الناس فيها للإسلام ويبلغهم دين الله إليهم، ويعرفهم أوامره ونواهيه، كما يعمل على تثبيت العقيدة فى نفوسهم. وما كانوا إلاّ أفرادا قلائل، لا يجاوزون فى كل لقاء أصابع اليدين معا، وقد ظلوا على ذلك الحال، حتى أسلم عمر بن الخطاب ﷺ حتى تكامل عدَّة من أسلم أربعين رجلا[1]، ولو كانوا بهذه الكثرة التى عليها أهل الصفة لقاتلوا قريشا فى دارها مهما كانت أسلحتهم[2].

☆ **ثالثا**: الروايات المقبولة تؤكد أن أهل الصفة كان فيهم سيدنا أبو هريرة ﷺ، والبراء بن مالك[3] ووابصة بن معبد[4]، وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين. ولم يكن لبعضهم وجود بمكة أصلا، بل منهم من لم يدخل الإسلام إلاّ بالمدينة المنورة طابت برسول الله ﷺ، ولو كانوا من أهل مكة لكان لهم أهل، إن لم يكونوا من الأرقاء.

---

(١) الدكتور محمد بن علوى بن عباس المالكى - فى رحاب البيت الحرام ص٢٧١ ط٣/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٢) ذهب إلى هذا الرأى جمع من الباحثين. [راجع على سبيل المثال: الدعوة الإسلامية فى مكة للشيخ محمد محفوظ قطب، والفكر الإسلامى رؤية واقعية للأستاذ عبدالعاطى حمدان، والدعوة الإسلامية فى مكة للشيخ محمد التهامى نصر الدين].

(٣) هو البراء بن مالك بن النضر النجاري الخزرجي وهو أخو أنس بن مالك من صالحي الأنصار ومتقشفيهم قال النبي رب أشعث اغبر ذي طمرين لا يوبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك خرج البراء غازيا فلقي زحفا من المشركين بناحية السوس فقاتلهم فيمن معه من المسلمين فقالوا يا براء ان رسول الله قال لو اقسمت على الله لأبرك فاقسم على ربك فقال اقسمت عليك يا رب لما منحتنا اكتافهم فمنحوا اكتافهم وقتل البراء شهيدا وذلك سنة ثلاث وعشرين. [راجع مشاهير علماء الأمصار ج١ ص١٣ - رقم:٣٧ ، وراجع التاريخ الكبير ج٢ ص١١٧ - رقم:١٨٨٧]

(٤) هو « وابصة بن معبد الصحابي رضي الله عنه هو أبو سالم وقيل أبو الشعثاء وقيل أبو سعيد وابصة بن معبد بن مالك بن عبيد الأسدي من أسد خزيمة كذا قاله ابن عبد البر وقال ابن مندة وأبو نعيم وابصة بن معبد بن عتبة بن الحارث بن مالك بن الحارث بن بشير بن كعب بن سعد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي أسلم سنة تسع سكن الكوفة ثم تحول فأقام بالرقة إلى أن توفي بها، وله أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا رآه يصلي خلف الصف وحده أن يعيد الصلاة. [العلامة أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام - تهذيب الأسماء واللغات ج٢ ص٤٣٩ - رقم:٦٦١ - دار الفكر - بيروت ١٩٩٦م - الطبعة الأولى - الأجزاء ١ ، وراجع الاستيعاب ج٤ ص١٥٦٣ - رقم:٢٧٣٧ ، والإصابة ج٦ ص٥٩٠ - حرف الواو الأول الواو بعدها الألف قم:٩٠٩١].

ومما يدل على أن أبا هريرة كان من أهل الصفة التى كانت بالمدينة ما روى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: « إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث أبي هريرة ،إن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق بالأسواق وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني فأشهد إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم وكنت امرأ مسكينا من مساكين الصفة أعي حين ينسون وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث يحدثه إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول فبسطت نمرة عني حتى إذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته جمعتها إلى صدري فما نسيت من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك من شيء »[1].

وفى الحديث الشريف :« عن أنس رضي الله عنه قال قدم رهط من عكل على النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في الصفة فاجتووا المدينة فقالوا يا رسول الله أبغنا رِسْلاً فقال ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوها فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحوا وسمنوا وقتلوا الراعي واستاقوا الذود فأتى النبي صلى الله عليه وسلم الصريخ فبعث الطلب في آثارهم فما ترجل النهار حتى أتي بهم فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم ثم ألقوا في الحرة يستسقون فما سقوا حتى ماتوا قال أبو قلابة سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله »[2]، فهم بغاة تدافعوا إلى أهل الصفة، وليسوا منهم، وقد كشف الله أمرهم، وفضح أسرارهم، وهم فى ذات الوقت من قطاع الطرق، الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٢ ص: ٧٢١ – [٣٩] كتاب البيوع – [١] باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ... الآية ﴾ – الحديث: ١٩٤٢ .

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٤٩٥ –[٩٠] كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة – [٢] باب لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا – الحديث: ٦٤١٩ .

الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١]، إذن هم لم يكونوا من أهل الصفة، وإنما حاولوا الاستفادة من الخدمات التى كفلها الإسلام للفقراء والمحتاجين، ومنهم أهل الصفة.

☆ **رابعاً**: أن أهل الصفة كانوا خليطا من ذكور المهاجرين والأنصار، فلو كانت الصفة وأهلها بمكة لما جاز إطلاق المهاجرين عليهم، وما صح أن يسموا بالأنصار، لأن لفظى المهاجرين والأنصار نقليان، لقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، من ثم بان لنا أن الصفة وأهلها لم يكونا إلاّ بالمدينة المنورة[٣] نورها الله برسول الله ﷺ.

وفى الحديث الشريف : « عن طلحة بن عمرو[٤] قال كان الرجل إذا قدم المدينة فكان له بها يعني عريف[٥] نزل على عريفه فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة قال فكنت فيمن نزل الصفة قال فرافقت رجلا فكان يجري علينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم مد من تمر بين رجلين فسلم ذات يوم من الصلاة فناداه رجل منا فقال يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا قال فمال النبي صلى الله

---

(١) سورة المائدة – الآية ٣٣ .

(٢) سورة التوبة – الآية ١١٧ .

(٣) سميت يثرب، كما سميت طيبة.

(٤) هو « طلحة بن عمرو النصري له صحبة ورواية وكان من أهل الصفة وقد قيل فيه طلحة بن عبد الله الطبري وقيل فيه أبو طلحة بن عمر وحديثه عند أبي حرب بن أبي الأسود قابن بن حبان سكن البصرة حديثه عند أهلها » [راجع العلامة محمد بن علي بن الحسن أبو المحاسن الحسيني المولود ٧١٥هـ المتوفى ٧٦٥هـ – الإكمال في ذكر من له رواية في مسند الإمام أحمد من الرجال ج: ١ ص: ٢١٣ – رقم: ٣٩٩ – جامعة الدراسات الإسلامية – كراتشي – ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م – عدد الأجزاء ١ – تحقيق د. عبدالمعطي أمين قلعجي ، وراجع تعجيل المنفعة ج١ ص١٩٩ رقم: ٤٩٢ ، و الإصابة ج٣ ص٥٣٤ – رقم: ٤٢٧٤].

(٥) يعنى أحد معارفه أو أقاربه، حتى ولو كان ذلك بالإجارة التى كانت سائدة فى جزيرة العرب، فالنزول على المعارف عادة قديمة عند العرب قبل الإسلام. وفى صدره إلى يومنا هذا.

عليه وسلم إلى منبره فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ما لقي من قومه قال حتى مكثت أنا وصاحبي [illegible] عشر يوما ما لنا طعام إلا البرير والبرير ثمر الأراك فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم طعامهم التمر فواسونا فيه والله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكموه ولكن لعلكم تدركون زمانا أو من أدركه منكم يلبسون فيه مثل أستار الكعبة ويغدى عليهم ويراح بالجفان »[1]، فهذا من الأدلة النقلية على أن الصفة وأهلها كانوا بالمدينة المنورة، ولم يكونوا بمكة المكرمة.

أما القائلون – بأنها كانت بمكة – محتجين بأن عبدالله ابن أم مكتوم ﷺ[2] – كان من أهل الصفة، وقد أعرض عنه الرسول ﷺ وأنزل الله على رسوله سورة عبس بمكة، توجيها له ﷺ، كما أن سؤال ابن أم مكتوم وتردده على الرسول كان بمكة، وهو في ذات الوقت من أهل الصفة[3].

فإن هذا لا يصح اعتباره دليلاً على أن الصفة وأهلها كانوا بمكة؛ باعتبار أن نزول السورة في مكة لا يعارض وجود ابن أم مكتوم في أهل الصفة؛ لأنه كان ضمن المهاجرين، ولم يكن له أهل بالمدينة ولا بيت، وإلاَّ فهل كان وحشي بن حرب قد أسلم حين كان بمكة، وهل غزوة أحد كانت هي الأخرى بمكة؟ إن هذا لم يقل به

---

(١) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج:١٥ ص:٧٧ – ذكر الإخبار عن وصف البعض الآخر من سعة الدنيا على المسلمين – رقم: ٦٦٨٤، وذكره السهروردي في عوارف المعارف ص١٠٢ .والجفان جمع جفنة، وهي القصعة الواسعة الكبيرة، التي تحمل فيها ألوان الطعام المختلفة.

(٢) هو « عبد الله بن أم مكتوم الأعمى القرشي وهو عبد الله بن عمرو بن شريح بن قيس بن زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي بن غالب قدم المدينة بعد بدر بيسير فنزل دار مخرمة بن نوفل ومن قال هو عبد الله بن زائدة فقد نسبه إلى جد جده زائدة وكان اسمه الحصين فسماه النبي عبد الله ومنهم من زعم أن اسم بن أم مكتوم عمرو وأم مكتوم هي أمه واسمها عاتكة من بني مخزوم قدم المدينة مهاجرا بعد بدر بسنتين فذهب بصره وكان النبي يستخلفه على المدينة ليصلي بالناس في عامة غزواته وشهد القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع ثم رجع إلى المدينة ومات بها في خلافة عمر بن الخطاب ، [راجع الثقات ج٣ ص٢١٤ – رقم: ٧١٠، و مشاهير علماء الأمصار ج١ ص١٦ رقم:٥٣، والتاريخ الكبير ج٥ ص٧ – رقم:١٢، والجرح والتعديل ج٥ ص٧٩ – رقم:٣٧٢].

(٣) الشيخ طلبة محمد الثنيان – الصفة وأهلها ص٢٣ (بحث منشور بمجلة المعرفة السورية ١٩٥٤م)

أحد ممن يعتد بعلمهم أبداً[1]، من ثم لزم ترك الجدل، والتزام المصادر الصحيحة. فإن مخالف الضرورة العقلية لا يعتبر من العقلاء.

٢- اسمها

يقول المعجم الوجيز: الصفة مكان مظلل فى مسجد المدينة كان يأوى إليه فقراء المهاجرين، ويرعاهم الرسول ﷺ وهم أهل الصفة[2]. وبالتالى فإن الصفة علم على هذا المكان المحدد الذى يتردد عليه مجموعة من أهل الإسلام لهم ظروف خاصة.

◈ **لكن لماذا سميت صفة ؟**

❊ **الجواب**: ما ذكرته المعاجم العربية من أن مادة ص ف ف يشتق منها الصف الأول مع الانتظام والدقة والاستقامة، للدفاع عن أنفسهم من هجمات غيرهم. حتى ولو كانت أحد هواجس النفس ونزعاتها.

وعلى هذا تكون تسمية الصفة من باب تسمية الشيء بما يؤدى فيه أو يؤول إليه[3]، وتكون الصفة: هى المكان الذى يكون أصحابه فى الصف الأول من العقيدة الصحيحة، والعبادة الحقة مع الانتظام والدقة والاستقامة. والاستمرار فى مجاهدة النفس، ومدافعة أعدائها، حتى ولو كانوا من داخلها. أو كرغبة من رغباتها، أو نزعة من نزعاتها.

وطبقا لهذا فإنه لا يستبعد اشتقاق اسم التصوف من الصفة إطلاقاً، لوجود العلاقة المتقاربة بين المعنى الاشتقاقى لمادة ص ف ف والمعنى المقصود من كلمة التصوف لدى الصوفية أنفسهم، ولا ابعد عن الحقيقة إن قلت بأن الصفة يحسن قبس التصوف منها على سبيل الاشتقاق اللغوى.

ولكن المستبعد أن تقع النسبة بين التصوف والصفة، ونحن لا نمارى فى هذه المسألة، إنما نميل إلى أن الاشتقاق اللغوى لا يستبعد أن تكون الصفة هى المعنى المحورى، الذى انعكس على أعمال القلب الصالحة، واستمراء صاحبها القيام بها على النحو البين فى مؤلفات الصوفية أعلام الهدى.

---

(١) لا عبرة بالمخالف؛ لأنه لم يقم سند مقبول على تلك التى يزعمونها.

(٢) المعجم الوجيز – مادة (ص ف ف) – ص ٣٣٦ .

(٣) الشيخ طلبة محمد الثنيان – الصفة وأهلها ص ٣٧

٤ أهل الصفة وسماتهم

قال الفراء[1]: « أهل الصفة هم أخلاط من الناس من قبائل شتى، وقد يمكن أن يكون مع كل واحد منهم وَفْضَةٌ »[2]. فهم فقراء الصحابة من المهاجرين والأنصار، الذين لم تكن لهم أسر يقومون معها، ولا بيوت يقطنون بها، ولم يكونوا وحدهم خيار الصحابة، بل كانوا من جملة الصحابة[3] رضوان الله عليهم أجمعين.

وأما سماتهم فمنها:-

[١] أنهم فقراء لا مأوى لهم ولا بيت، بجانب أنهم من أهل الإيمان بالله رب العالمين وفى دار الإسلام، جمعهم صحيح العقيدة، والرغبة فى سلامة العبادة، والأمل فى النجاة من النار يوم لقاء الله فى دار القرار.

[٢] أنهم كانوا مجتمعين متآلفين، متصاحبين لله وفى الله[4]، وفى الحديث الشريف: « عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمون تكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم يرد مشدهم على مضعفهم ومتسرعهم على قاعدهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده »[5].

---

(١) الفراء : هو يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي مولى بني أسد أبو زكريا المعروف بالفراء، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو، من أهم مؤلفاته : المقصور والممدود، المعاني، المذكر والمؤنث وغيرها . ولد سنة ١٤٤هـ/٧٦١م، وتوفى سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م . راجع الأعلام للزركلى جـ٨ ص١٤٦ .

(٢) العلامة ابن سلام – الغريب – ج١ ص١٢٥ .

(٣) شيخ الإسلام ابن تيميه – مجموع الفتاوى – التصوف ص٧١ .

(٤) العلامة السهروردى – عواف المعارف ص٦٢ .

(٥) العلامة البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٨ ص٢٩ – الحديث: ١٥٦٩١، وأخرج الإمام أحمد – مسند أحمد بن حنبل – ج١ ص١٢٢ – الحديث: ٩٩١، بلفظ « عن على رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمنون تكافأ دماؤهم وهم يد علي من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم ألا لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده » وروى النسائى وأحمد وغيرهم « عن قيس بن عبادة قال دخلت أنا والأشتر على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الجمل فقلت هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدا دون العامة فقال لا إلا هذا وأخرج من قراب سيفه فإذا فيها المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده » وزاد النسائى « من أحدث حدثا فعلى نفسه أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » [الإمام النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٨ ص١٩ – [١٠] باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس – الحديث: ٤٧٣٤ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج١ ص١١٩ – الحديث: ٩٥٩ ، وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص١٥٣ – الحديث: الحديث: ٢٦٢٣، وأخرجه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٨ ص١٩٣ – الحديث: ١٦٥٩٠]

[٣] أنهم كانوا أعظم الناس صبرا وقتالاً وجهاداً، ولقد قتل منهم في يوم واحد – يوم بئر معونة – سبعون، حتى وجد عليهم النبى ﷺ موجدة عظيمة، وقنت شهراً على الذين قتلوهم[1]، لأنهم كانوا يمثلون الرصيد البشري المتحكم في إبلاغ دعوة الله تعالى،ولأن فيهم سفارة . وبينهم وبين رسول الله ﷺ مودة وإعارة.

[٤] أخبر عنهم رسول الله ﷺ أن بهم تتقى المكاره، وتسد بهم الثغور[2]، وأنهم أول الناس ورودا على الحوض، وأنهم الشعث رءوسا. الدنس ثيابا، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا تفتح لهم أبواب الملوك[3]. وكأن الله تعالى أدخر لهم ذلك فى الدار الآخرة.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله قالوا الله ورسوله أعلم قال أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون الذين تسد بهم الثغور ويتقي بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا ان نأتي هؤلاء فنسلم عليهم[4]. قال انهم كانوا عبادا يعبدوني لا يشركون بي شيئا، وتسد بهم الثغور، ويتقي بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[5].

---

(١) ابن تيمية – التصوف ص٨٠ .

(٢) الثغور جمع مفرده ثغر، ويعرف بأنه الموضع الذى يخاف أن يأتى منه هجوم العدو، وسميت المدينة على شاطئ البحر ثغرا. [قطر المحيط – باب الثاء، والمعجم الوجيز باب الثاء ص٨٤]

(٣) ابن تيمية – التصوف ص٨٠ .

(٤) ليس هذا من باب السؤال، وإنما من باب الاستعلام من الملك العلام جل جلاله عن منزلة هؤلاء، وهو المناسب لمقام الملائكة، لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء – الآيات ٢٦/٢٨]

(٥) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٢ ص:١٦٨ – رقم: ٦٥٧٠، وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ج:١٠ ص٢٥٩، وراجع الترغيب والترهيب ج٤ ص٦٢ رقم:٤٨١٢ .

[٥] أنهم خاصة رسول الله ﷺ، إذ كانوا يقضون معظم أوقاتهم فى قراءة القرآن الكريم وتدبره، وفى الذكر والتفكر، وكانوا من خاصة الرسول ﷺ الذين يترددون عليه ولا يمتنعون من الدخول إليه، وكان ﷺ يجرى عليهم أرزاقهم[١]، حسب تيسير الله تعالى له، فكأنه أنشأ التأمين والمعاشات، وإعالة المحتاجين، واضعا الأسس التى يقوم عليها المجتمع المسلم فى ارقى صوره وأعلى مظاهره.

[٦] هم الذين يعيشون فى زهد وتقشف، وكان عليهم جباب الصوف، ولم يكن عندهم غيرها[٢]، إذ لم يكن لديهم ما ل يشترون به ملابسهم، وإنما كانت تأتيهم من الهبات والصدقات، وأحيانا أخرى تأتيهم من الزكوات.

ففى الأثر عن أبي هريرة قال: « كنت في سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها في أعناقهم فمنها ما يبلغ الساق ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته »[٣]. وذكر ابن حبان فى صحيحه « عن أبي هريرة قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصفة ما على أحد منهم رداء إلا إزار أو كساء متوشحا به قد عقده خلفه »[٤]، ومن كان ذلك شأنه، فإن عمدته هو التوكل على الله تعالى، وتصفية الباطن والظاهر له جل شأنه.

[٧] هم الذين لم يكن لهم شيء يرجعون إليه، فهم لا يرجعون إلى زرع، ولا إلى ضرع، ولا إلى تجارة، وكانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار[٥]، وبالليل يشتغلون بالعبادة، وتعلم القرآن الكريم وتلاوته[٦]، ومن كان ذلك شأنه فحرى به

---

(١) الدكتور على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج٣ ص٨٣ ط٨ دار المعارف.
(٢) العلامة أبو نعيم الأصفهاني – حلية الأولياء ج١ ص٣٢٨ .
(٣) العلامة ابن خزيمة – صحيح ابن خزيمة ج١ ص٣٧٥ – باب عقد الإزار على العاتقين إذا صلى المصلي في إزار واحد ضيق – رقم: ٧٦٤
(٤) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص: ٤٥٧ – ذكر الإخبار عن وصف أصحاب الصفة رقم: ٦٨٢ .
(٥) رضخ الشيء بالشيء معناه ضربه به حتى انكسر، وكان هؤلاء من العاملين، لا من العاطلين، إذ كان الواحد منهم يحتطب ثم يبيع حطبه لطالبه، ثم يضع حصيلة ما باع به بين يدى القائم على الصفة، وكذلك كانوا يفعلون بالنوى، حتى يكون سهل العرض للبيع، بحيث يستخدمه أصحاب الدواب فى علفها، وبالتالى فكل واحد من أهل الصفة مادام قادرا على القيام بنوع ما من العمل؛ فإنه يقوم به خير قيام.
(٦) العلامة السهروردى – عوارف المعارف ص٦٢/٦٣ .

أن يكون فى معية الله، ومعية رسول الله ﷺ. وذلك هو الصفاء عينه، بجانب الزهد العملى الكامل.

[٨] هم الذين بشرهم رسول الله ﷺ بقوله : « أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه[١]، فإنه من رفقائي يوم القيامة »[٢]، إلى غير ذلك من السمات الكثيرة التى يصعب تناولها على سبيل الحصر، إنهم من أصحاب رسول الله ﷺ وما أعظمها صحبة، وهى مفخرة ما بعدها مفخرة، وهل بعد الانتساب لله جل شأنه ورسوله ﷺ انتساب ؟!

عددهم

لا يمكن النظر إلى أصحاب الصفة من حيث العدد على سبيل الاستقراء التام[٣]؛ لأن تلك مسألة ربما بدت صعبة لدى مؤرخى التصوف، ولذا رأينا الدراسات حولهم تتردد فى ذكر العدد الذى كان يقيم بالصفة على سبيل الحسم والقطع.

نذكر طرفا منها على النحو التالى:-

أ- العلامة السهروردى[٤] : « أنهم كانوا نحوا من أربعمائة رجل، لم تكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر جمعوا أنفسهم فى المسجد »[٥]، ولم يقدم لنا صاحب

---

(١) لأن الرضا بالأقدار من علامات الإيمان الصحيح، لقوله جل شأنه في الحديث القدسي « عن أبي هند الداري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس ربا سواي » [العلامة الطبرانى – المعجم الكبير ج٢٢ ص٣٢٠ – الحديث:٨٠٧، وأخرجه العلامة الهيثمى – مجمع الزوائد – ج٧ ص٢٠٧ ، وأبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج٥ ص٤٥].

(٢) العلامة السهروردى – عوارف المعارف ص٦٤ .

(٣) يعرف الاستقراء التام بأنه تتبع الجزئيات واحدة واحدة، حتى يمكن الوصول إلى حكم كلى عام يشملها جميعا. [راجع كتابنا: النديم فى المنطق القديم].

(٤) شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي ابن أخي الشيخ أبي النجيب قدم بغداد بعد وفاة أبي الوقت فسمع من جماعة منهم أبو المظفر هبة الله بن أحمد بنمحمد الشبلي ومن أبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان وأبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر وأبي بكر أحمد بن المقرب الصوفي في جماعة آخرين وصحب عمه الشيخ أبا النجيب والشيخ عبد القادر الجيلي وانحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد ورأى غيرهم من الشيوخ وانقطع عن الناس ولازم الخلوة والمجاهدة حتى صار شيخ العراق في وقته يرجع إلى فضل وإيثار ومروة تامة وأوراد دائمة على كبر سنه ووعظ الناس مدة ببغداد وغيرها فما أخذ عليه شيء مما يكره من قول ولا حركة سئل عن مولده فقال في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة » [راجع العلامة محمد بن عبد الغني البغدادي أبو بكر المولود ٥٧٩هـ ، المتوفى ٦٢٩هـ – تكملة الإكمال ج: ٣ ص٥٥٥ – رقم: ٣٧٠٤ – جامعة أم القرى – مكة المكرمة ١٤١٠هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٥ – تحقيق د. عبد القيوم عبد ريب النبي]

(٥) العلامة الشهروردى – عوارف المعارف ص٦٢.

الرأى مدعماته فيما ذهب إليه، ولا الأدلة التى تعضده، من ثم كان رأيه فى تلك الناحية مرسلاً.

◄◄ **ب- شيخ الإسلام ابن تيمية**: يقول « وأما عددهم فقد جمع أبو عبدالرحمن السلمى[1]، تاريخهم وهم نحو من ستمائة أو سبعمائة أو نحو ذلك. ولم يكونوا مجتمعين فى وقت واحد، بل كان فى شمال المسجد صفة يأوى إليها فقراء المهاجرين، فمن تأهل منهم أو سافر، أو خرج غازيا خرج منها. وقد يكون فى الوقت الواحد فيها السبعون أو أقل أو أكثر. ومنهم سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأبو هريرة، وخبيب وسلمان وغيرهم »[2]. وبالتالى فحصرهم ليس يقينيا متى تعلق الحصر بعدد معين.

ويبدو أن هذا الرأى أقرب قبولاً، لأن لغة الحسم فيه قائمة على ترصد للمسألة، ورصد المواقف القائمة، وهو الأقرب للواقع، لأنهم لم يكونوا عالة وأصحاب عاهات، حتى يظلوا على حال واحدة من الثبات، كما يمكن فهمه من الرأى الأول، بل كانوا أصحاب قوة وقتال، ورغبة فى العمل مع الدقة والاجتهاد والغرض الذى يمكن قبوله هو أنهم كانوا يزيدون وينقصون طبقا للظروف التى تفرض نفسها عليهم فى بعض الأحيان.

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمي: مقرئ الكوفة الإمام العلم عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي من أولاد الصحابة مولده في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن وجوده ومهر فيه وعرض على عثمان فيما بلغنا وعلى علي وابن مسعود وحدث عن عمر وعثمان وطائفة قال أبو عمرو الداني أخذ القراء عرضا عن عثمان وعلي وزيد وأبي وابن مسعود. وأخذ عنه القرآن عاصم بن أبي النجود ويحيى بن وثاب وعطاء بن السائب وعبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ومحمد بن أبي أيوب والشعبي وإسماعيل بن أبي خالد وعرض عليه الحسن والحسين رضي الله عنهما وحدث عنه عاصم وأبو إسحاق وعلقمة بن مرثد وعطاء بن السائب وعدد كثير روى حسين الجعفي عن محمد بن أبان عن علقمة بن مرثد أن أبا عبد الرحمن السلمي تعلم القرآن من عثمان وعرض على علي. وكان أبوه عبد الرحمن السلمي يقرئ الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة. وقال سعد بن عبيدة أقرأ أبو عبد الرحمن في خلافة عثمان وإلى أن توفي في زمن الحجاج. وقيل مات سنة ثلاث وسبعين » [سير أعلام النبلاء ج: ٤ ص: ٢٦٧ رقم: ٩٧].

(٢) شيخ الإسلام ابن تيميه – التصوف ص٨١

والدليل أن رسول الله ﷺ كان يجرى الأرزاق عليهم، وأحيانا أخرى يفرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع واحد ثلاثة، ومع الأخر أربعة، وكان سعد بن معاذ ﷺ يحمل إلى بيته منهم ثمانية يطعمهم »[1]، ويقوم على خدمتهم، فإذا أفرغوا من ذلك، عادوا إلى الصفة، حتى يكونوا على استعداد لتلبية أمر الله بالجهاد، وغيره من الأمور المتعلقة بالدعوة الإسلامية، وقد اعتبروا المثال الأول للمتحررين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولا يفرحوا إلاّ بما أيدوا به من العقبى[2]، وكانت عيشتهم فيها الزهد، بجانب التقشف، يقضون أوقاتهم فى قراءة القرآن الكريم وتدبره، والاستماع إليه والتمتع بما يقصه عليهم من عقيدة وشريعة ومعاملات.

ففى الحديث الشريف : « عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن أصحاب الصفة كانوا ناسا فقراء وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مرة من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثلاثة ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس بسادس[3]، وإن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق نبي الله صلى الله عليه وسلم بعشرة وأبو بكر بثلاثة قال فهو وأنا وأبي وأمي ولا أدري هل قال وامرأتي وخادم بين بيتنا وبيت أبي بكر قال وإن أبا بكر تعشى عند النبي صلى الله عليه وسلم[4]، ثم لبث حتى صليت العشاء ثم رجع فلبث حتى نعس رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله قالت له امرأته ما حبسك عن أضيافك أو قالت ضيفك قال أو ما عشيتهم قالت أبوا حتى تجيء قد عرضوا عليهم فغلبوهم قال فذهبت أنا فاختبأت وقال يا غنثر فجدع وسب وقال كلوا لا هنيئا وقال والله لا أطعمه أبدا[5]، قال فأيم الله ما كنا

---

(١) العلامة السهروردى – عوارف المعارف ص٦٣ .

(٢) الدكتور على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج٣ ص٨٢ .

(٣) لقد كان ذلك حسب طاقة كل مسلم وقدرته على استضافة إخوانه ممن ليست لهم دور أو أرزاق، ولا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها.

(٤) كان الصديق يقوم بخدمة هؤلاء العشرة الذين استضافهم رسول الله فى بيته، وذلك من الأدب العالى، والصفاء الروحى المتميز عند صحابة رسول الله، ومنهم الصديق ﷺ .

(٥) لأن الأضياف كانت فيهم القناعة، فرغم أنهم جياع ولا شيء عندهم إلاّ أنهم رفضوا تناول الطعام، حتى يجيء صاحب الدار الذى استضافهم، فقسم الصديق من باب العتب عليهم؛ لأنهم لم يأكلوا.

نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها قال حتى شبعنا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر قال لامرأته يا أخت بني فراس ما هذا قالت لا وقرة عيني لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرار قال فأكل منها أبو بكر وقال إنما كان ذلك من الشيطان يعني يمينه ثم أكل منها لقمة[1]. ثم حملها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحت عنده قال وكان بيننا وبين قوم عقد فمضى الأجل فعرفنا اثنا عشر رجلا مع كل رجل منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل إلا أنه بعث معهم فأكلوا منها أجمعون »[2].

وذكر المؤرخون للتصوف الإسلامي عن عدد أهل الصفة الكثير. منها أن عددهم لا يمكن التحقق منه على سبيل التأكيد والحسم، لكنهم فى الأغلب الأعم كانوا يترددون فيما بين هذه الأعداد التى أشار إليها الرأى الثانى. وربما يدعمه ما ذكره المؤرخون فى التصوف من أن أبا هريرة ﷺ قال « كنت في سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها في أعناقهم فمنها ما يبلغ الساق ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته »[3].

ومما لا شك فيه هو أن أهل الصفة كانوا من أهل العلم بالله والعرفان عنه جل شأنه، كما كانوا من أهل الورع والفضل، فى نفس الوقت فقد كان بين الصفة والتصوف علاقة قوية، وامتداد لا يمكن تجاهله، ولا مانع من أن يكون التصوف مشتقا من الصفة على النحو الذى سلف بيانه، وقد ذكر السهروردى أن المعنى صحيح، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين، متصاحبين لله، وفى الله كأصحاب الصفة[4]، والمشابهة قائمة فلا يصح إنكارها.

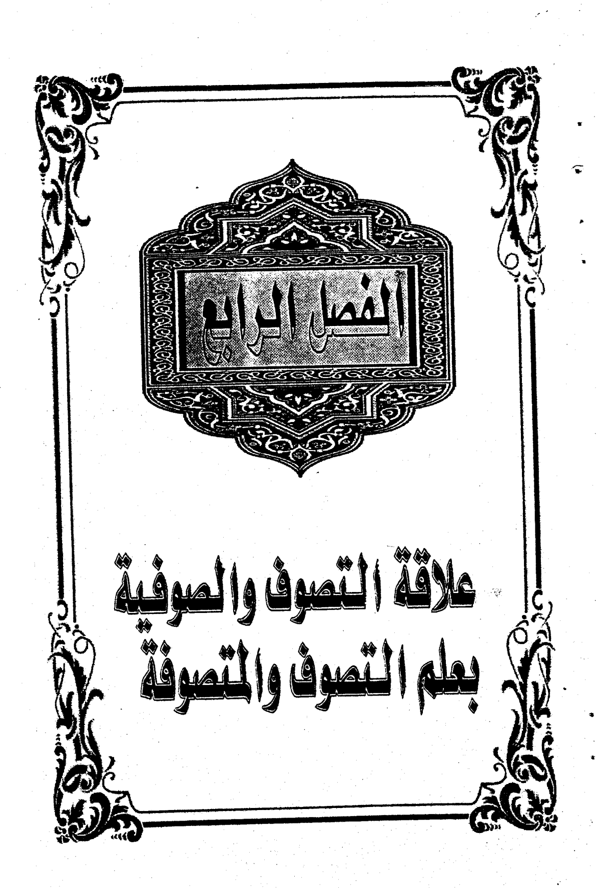
---

(١) هذه اللقمة للتبرك، ولذا جاء الحديث فى فضائل أبى بكر الصديق من قوله ﷺ : « ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه » [العلامة العجلونى – كشف الخفاء ج: ٢ ص: ٢٤٨ الحديث رقم: ٢٢٢٨].

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٣ ص: ١٦٢٧ – باب فضل قراءة القرآن فى الصلاة وتعلمه – رقم: ٢٠٥٧، وأخرجه الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ١ ص: ٢١٦ – باب السمر مع الضيف والأهل – رقم: ٥٧٧ .

(٣) العلامة ابن خزيمة – صحيح ابن خزيمة ج١ ص٣٧٥ – باب عقد الإزار على العاتقين إذا صلى المصلي في إزار واحد ضيق – رقم: ٧٦٤، وراجع عوارف المعارف ص٦٤ .

(٤) العلامة السهروردى – عوارف المعارف ص٦٢ .



الفصل الرابع

علاقة التصوف والصوفية
بعلم التصوف والمتصوفة

عرف التصوف بأنه تجريد القلب لله تعالى، واحتقاره ما سواه[١]، بحيث لا يكون العبد مشغولاً إلاّ بالله تعالى فى نومه ويقظته ليله ونهاره، تفكيره ونيتـه، عملـه وقوله، فإذا نجح العبد فى بلوغ تلك الغاية، فقد تحقق بالتصوف وهو ذات الحقيقـة التى تعبر عن السائر فى طريق الوصول إلى الله تعالى[٢].

ومن ثـم ذهـب العلامـة الجرجـانى إلى أن التصـوف مذهـب كلـه جـد، فـلا يخلطونه بشيء من الهزل[٣]، وهذا التعريف مما حكاه الجرجانى لاما يعتقده، بدليل أنه ينقل عن ابن عربى أن التصوف هو الوقوف مـع الآداب الشـرعية ظـاهرا وباطنـا، وهى الأخلاق الإلهية، كما يقال التصوف إتيان المكارم من الأخلاق، وتجنب سفـافها للتحلى بالصفات الإلهية[٤]، التى شرعها الله تعالى، فهو قائم فـى الجـد، وأصحابـه على الاجتهاد يسيرون.

ثم يقول الجرجانى: « وعندنا أن التصوف هو الاتصاف بأخلاق العبودية الخالصة لله رب العالمين، وهو الصحيح فإنه أتم وأكمل التعريفات »[٥]. ويعرفه الطوسي[٦]

---

(١) هذا التعريف للإمام السيوطى نسبته إليه – الدكتورة فاطمة محجوب – الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية – المجلد التاسع ص٤٦٤ – طبعة دار الغد العربى بمصر ١٩٩٢م .

(٢) الشيخ محمود أحمد رسلان – التصوف والسلوك ص٩٧ ط٢ دار مبروك ١٣٨٥هـ

(٣) العلامة السيد الشريف الجرجانى – التعريفات ص٨٨ .

(٤) لأن من تحلى بكريم الخلال وتمسك بعظيم الصفات، فقد بلغ درجة القرب من الله تعالى.

(٥) السيد الشريف الجرجانى – رسالة فى اصطلاحات الصوفية الـواردة فـى الفتوحـات المكيـة لابـن عربى ص٢٤٤ .

(٦) الطوسي هو الحافظ أبو علي الحسن بن علي بن نصر الخراساني. سمع الزبير بن بكار ومحمد بن بشار . ومنه الحاكم أبو أحمد وقال تكلموا في روايته الأنساب للزبير وكان يعرف بكردش وقال الخليلي له تصانيف تدل على معرفته قلت منها الأحكام على نمط جامع الترمذي مات سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة. [راجع طبقات الحفاظ ج: ١ ص: ٣٣٢ رقم:٧٥١]

بأنه: «تصفية القلوب من الأكدار، واستعمال الخلق مع الخليقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة»[1].

وبالتالى فإن الله تعالى قد يكشف للعارف وهو نائم فى فراشه من السر، ويفيض عليه من النور ما لا يكشفه للقائم فى صلاته، وإذا استيقظ فى العارف عين قلبه نامت عين جسده، لأن العارف لا يرى سوى الحق جل علاه[2]، ولأن الجد هو التزام ما شرع الله تعالى، فإن الهزل هو الانشغال بغير المشروع من قبل الله تعالى، حتى قيل: إن التصوف هو تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله تعالى على الحقيقة، واتباع رسول الله ﷺ فى الشريعة[3].

أصول طريق التصوف

☜ **بناء على ما سلف؛ فإن التصوف يقوم فى طريقه[4] على أصول ترجع إلى خمسة:**

☆ **الأول:** تقوى الله تعالى فى السر والعلانية، وتحقيق ذلك يكون بالورع[5] والاستقامة.

☆ **الثانى:** اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة فى الأقوال والأفعال والأحوال، ويتم ذلك بالتحفظ وحسن الخلق، فإذا لم يكن مع السالك التزام النقل

---

(١) الإمام الطوسى – اللمع ص٤٧ – تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود وأخر ط/١٩٦٠م.

(٢) الدكتورة فاطمة محجوب – الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ج٩ ص٤٦٥ – طبعة دار الفكر العربى.

(٣) العلامة الحافظ – تذكرة الأولياء وصفوة الأصفياء ج١ ص٢٣٤ والمؤلف لها هو العلامة أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهانى حافظ مؤرخ من الثقات فى الحفظ والرواية من تصانيفه: حلية الأولياء، ومعرفة الصحابة. توفى سنة ٤٣٠هـ. [راجع الأعلام ج١ ص١٥٠]

(٤) طريق التصوف غير أصول التعرف على التصوف، وهما غير المعاملات التى يقوم عليها التصوف، وسوف أعرض لذلك إن شاء الله تعالى.

(٥) الورع هو اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع فى المحرمات، وقيل هو ملازمة الأعمال الجليلة، التى ترضى رب العالمين. [راجع التعريفات ص٢٢٤/٢٢٥] ويقول العلامة الرازى: «الورع بكسر الراء هو التقي وقد وَرِعَ يرع رِعَةً بكسر الراء في الثلاثة و تَوَرَّعَ من كذا أي تحرّج وورّعه تَوْريعاً أي كفه وفي حديث عمر رضي الله تعالى عنه وَرِّع اللص ولا تَرَاعه أي إذا رأيته في منزلك فاكففه وادفعه ولا تنتظر ما يكون منه» [راجع مختار الصحاح ج: ١ ص: ٢٩٨].

المنزل، والتحفظ من حسن الخلق؛ فإن أمره يضطرب، وطريقه ينقطع[1]، وأسره يقع له التبدل.

☆ **الثالث**: الإعراض عن الخلق في الإقبال والأدبار، وتحقيق ذلك بالصبر والتوكل على الله تعالى، مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله تعالى للعباد، فإن الأخذ بالأسباب هو التسليم بالنقل المنزل، ثم الرضا بالأقدار؛ لأنه ميزان القبول للقواعد الإسلامية.

☆ **الرابع**: الرضى من الله تعالى فى القليل والكثير، وتحقيق ذلك كله لا يكون إلا بالقناعة والتفويض إلى الله عز وجل مع الجد والاجتهاد، ففى الحديث الشريف « عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلّم من يعمل بهن فقال أبو هريرة فقلت أنا يا رسول الله فأخذ بيدي فعد خمسا وقال اتق المحارم تكن أعبد الناس،وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا،وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما،ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب »[2].

☆ **الخامس**: الرجوع إلى الله تعالى فى السراء والضراء، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[3]، ويتم ذلك بالشكر لله فى السراء والالتجاء إليه وحده فى الضراء[4].

ولاشك أن أصول طريق التصوف الخمسة إنما تخصه وحده، ولا تنطبق على الصوفى أو علم التصوف؛ لأن التصوف تجريد نفس الصوفى وتصفية قلبه لله جل شأنه، فإن تمكن منها عبد من عبيد الله تعالى؛ ارتقى درجة فصار من عباد الله المخلصين بدل أن كان من عبيده الذين يتأرجح أمرهم بين الإقبال على الله تعالى طاعة

---

(١) الشيخ حسن محمود صبحى الطويل – معالم الالتزام بدين الإسلام ص١١٢ .

(٢) الإمام محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي المولود ٢٠٩هـ ، المتوفى ٢٧٩هـ – الجامع الصحيح سنن الترمذي ج٤ ص٥٥١ – [٢] باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس الحديث: ٢٣٠٥، دار إحياء التراث العربي – بيروت – عدد الأجزاء ٥ – تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج٢ ص٣١٠ الحديث: ٨٠٨١ ، والطبراني – المعجم الأوسط ج٧ ص١٢٥ الحديث: ٧٠٥٤، وأبو يعلى – مسند أبي يعلى ج١١ ص١١٣ – الحديث: ٦٢٤٠، والمنذرى – الترغيب والترهيب ج٣ ص١٧١ رقم: ٣٥٣٨، وراجع تحفة الأحوذى ج٦ ص٤٨٦ ، حلية الأولياء ج٦ ص٢٩٥ ، كشف الخفاء ج١ ص٤٤ ، ج٢ ص١٣٩

(٣) سورة إبراهيم – من الآية ٧ .

(٤) الدكتورة فاطمة محجوب – الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ج٩ ص٤٦٥ (بتصرف).

له، والتزاماً بأوامره، وبين إقبال العبد على غير الله أيا كان الغير، باعتبار أن ذلك من سمات العبيد، وليس من سمات العباد، والفرق بين العبيد والعباد واسع لمن تأمله.

من ثم فإن العباد هم الذين اختارهم الله ليكونوا أهلا لتلقى رحماته. قال تعالى عن الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[1].

۞ **يقول العلامة الزمخشري**: « أخبر الله تعالى عنهم أنهم عباد، والعبودية تنافى الولادة، إلاّ أنهم مكرمون، أى مقربون مفضلون على سائر العباد، لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم، فذلك هو الذى غرّ منهم من زعم أنهم أولادى تعاليت عن ذلك علواً كبيراً. ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ أى أنهم يتبعون قوله. ولا يقولون شيئا حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله. ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ أى لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون مما قدموا وأخروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه، فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم، ويراعون أحوالهم ويعمرون أوقاتهم، ومن تحفظهم أنهم لا يجرءون أن يشفعوا إلاّ لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة فى ازدياد الثواب والتعظيم »[2].

۞ **ويقول العلامة الطبرى**: « يقول تعالى ذكره يعلم ما بين أيدي ملائكته ما لم يبلغوه ما هو وما هم فيه قائلون وعاملون وما خلفهم يقول وما مضى من قبل اليوم مما

---

(١) سورة الأنبياء – الآيات ٢٦/٢٨. وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص – الآيات ٤١/٤٤].

(٢) الإمام / أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى ٥٢٨هـ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ج٣ ص٩ .

خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم لا يخفى عليه من ذلك شيء »[1].

۞ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾[2].

۞ **يقول صاحبا الجلالين:** « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي أصحاب القوى في العبادة والأبصار البصائر في الدين وفي قراءة عبدنا وإبراهيم بيان له. إنا أخلصناهم بخالصة هي ذكرى الدار الآخرة أي ذكرها والعمل لها وفي قراءة بالإضافة وهي للبيان. وإنهم عندنا لمن المصطفين المختارين الأخيار[3]. واذكر إسماعيل واليسع وهو نبي واللام زائدة وذا الكفل اختلف في نبوته قيل كفل مائة نبي فروا إليه من القتل، وكلهم من الأخيار جمع خير بالتثقيل. هذا ذكر لهم بالثناء الجميل هنا وإن للمتقين الشاملين لهم لحسن مآب مرجع في الآخرة. وجنات عدن بيان لحسن مآب مفتحة لهم الأبواب منها. متكئين فيها على الأرائك يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف حابسات العين على أزواجهن أتراب أسنانهن واحدة وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة جمع

---

(١) العلامة محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر المولود فى ٢٢٤هـ، والمتوفى فى ٣١٠هـ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن المشهور بتفسير الطبري ج:١٧ ص:١٦ – دار الفكر بيروت ١٤٠٥هـ – عدد الأجزاء ٣٠

(٢) سورة ص – الآيات ٥٤/٤٥ .

(٣) الأخيار جمع مفرده خيّر بتشديد الياء، والخير كثير إتيان الخيرات وتحصيلها والقيام عليها.

ترب. هذا المذكور ما يوعدون بالغيبة وبالخطاب التفاتا ليوم الحساب أي لأجله. إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ولا انقطاع.»[1].

ولا أذهب بعيدا إذا قلت إن التصوف يمثل سلوكا شخصيا فرديا يقوم به الإنسان الفرد ذاته بإرادته الحرة من غير إكراه له أو ضغط عليه، فهو سلوك خاص، وعمل ذاتي يكمن فى سيطرة القلب على الحواس وتوجيه ذلك كله إلى حيث الالتزام بما أمر الله تعالى على وجه الكمال بقدر الطاقة الإنسانية فى أعلى درجاتها، بحيث لا يبقى للمرء بعدها شيء لم يفعله فى هذا الاتجاه.

ويؤكد العلامة الهجويرى على أن التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد الله تعالى[2]، ومادام الأمر كذلك، فإن التصوف مسألة ذاتية نفسية. ولا يمكن أن تكون غير ذلك طالما قامت على الأصول والأسس الإسلامية، ويقرر أبو بكر الشبلى أن التصوف هو ضبط القوى، ومراعاة الأنفاس[3]، حتى لا تكون قائمة إلا فيما يرضى رب الناس.

لا شك أن التصوف يتعلق بالداخل والباطن الذاتى للإنسان نفسه، ولا تكون الظواهر الخارجية إلا بعضا من المعبرات الشكلية عن الطابع الداخلى الذى يسم سلوكيات الفرد بسمة خاصة تقوم على القواعد والأسس الشرعية[4]، حتى تكون هى الحاكم على صحة تلك السلوكيات من الناحية الشرعية.

---

(١) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٦٠٣ – دار الحديث – القاهرة – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١ .

(٢) العلامة الإمام الهجويرى – كشف المحجوب ص٣٣٣ .

(٣) وبالتالى تسقط مزاعم خصوم الصوفية الذين يذهبون إلى أن الصوفية لا يقومون على أسس شرعية، وإنما يقومون على خيالات وهمية، أو شطحات وجدانية أو رؤى مشيحية. [راجع للدكتور محمد توفيق عبدالله. الصوفية والبدع ص١٧ – طبعة دار حيدر ١٩٦٧م] وهو فى أغلب ما ذكره يمثل المتصوفة، ولا يمثل الصوفية، والفرق بينهما كبير لمن تأمله.

(٤) المستشرق نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٣٨ – ترجمة د: أبو العلا عفيفى .

أصول القواعد الشرعية عند الصوفية

من تتبع صوفية الإسلام الأوائل يجد ذلك واضحا، حيث أقاموا أنفسهم أمام الله على الأسس الشرعية، وجعلوا لذلك أصولاً خمسة هي:-

☆ **الأول: علو الهمة في طاعة الله**؛ لأن من علت همته في جهاد نفسه أمام الله تعالى؛ ارتفعت رتبته عند الله تعالى. قال تعـالى: ﴿ " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ " ﴾(١).

يقول الإمام القرطبي : « لما وصف الله الكفار وصف المؤمنين أيضا. "ونهر" يعـني أنهار الماء والخمر والعسل واللبن؛ قاله ابن جريج. ووحد النهر لأنه رأس الآيـة. ثم الواحد قد ينبئ عن الجميع. وقيل: في "نـهر" في ضيـاء وسعة ومنه النـهار لضيائه، ومنه أنهرت الجرح؛ **قال الشاعر**:

ملكت بها كفـي فأنـهرت فتقها ⁂ يرى قائم من دونها ما وراءها

وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة "ونهر" بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم؛ كسحاب وسحب. قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

إن تـلـك ليليـا فـإني نـــهر ⁂ متى أرى الصبـح فـلا أنتظــر

أي صاحب النهار. وقال آخر:

لولا الثريدان هلكنا بالضمر ⁂ ثريـد ليـل وثريــد بالنــهر

"في مقعد صدق" أي مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة "عنـد مليـك مقتدر" أي يقدر على ما يشاء. و"عند" ها هنا عندية القربـة والزلفـة والمكانـة والرتبـة والكرامة والمنزلة. قال الصادق: مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصـدق.

---

(١) سورة القمر الآيتـان ٥٥/٥٤ . وقـال تعـالى فى سـورة القلـم : ﴿ " إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ " ﴾(سورة القلم الآية ٣٤ .)، وقال تعالى فـى سـورة المرسـلات : ﴿ " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " ﴾(سورة المرسلات الآيات ٤٤/٤١ .)، وقـال تعـالى فـى سـورة النبـأ : ﴿ " إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا " ﴾(سورة النبأ الآيات ٣٦/٣١ .)

وقرأ عثمان البتي "في مقاعد صدق" بالجمع ؛ والمقاعد مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها. قال عبدالله بن بريدة: إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى، فيقرؤون القران على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضة بقدر أعمالهم، فلا تقر أعينهم بشيء قط كما تقر بذلك، ولم يسمعوا شيئا أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد.

وقال خالد بن معدان[1]: بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون: يا أولياء الله انطلقوا؛ فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنة. فيقولون: إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا؛ فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر "في مقعد صدق عند مليك مقتدر »[2]،

---

(١) هو : « خالد بن معدان ابن ابي كرب الإمام شيخ أهل الشام أبو عبد الله الكلاعي الحمصي، حدث عن خلق من الصحابة وأكثر ذلك مرسل روى عن ثوبان وأبي أمامة الباهلي ومعاوية وأبي هريرة والمقدام بن معدي كرب وابن عمر وعتبة بن عبد وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن بسر المازني وذي مخبر ابن أخي النجاشي وجبير بن نفير...وغيرهم، وأرسل عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعائشة وعبادة بن الصامت وأبي عبيدة بن الجراح وغيره، و روى عنه محمد بن إبراهيم التيمي وحسان بن عطية وعامر بن جشيب وفضيل بن فضالة وثور بن يزيد والأحوص بن حكيم وبحير بن سعد وصفوان بن عمرو...وغيرهم، وهو معدود في أئمة الفقه وثقه ابن سعد والعجلي ويعقوب بن شيبة وابن خراش والنسائي، وعنه أنه قال: قال لو كان الموت علما يستبق إليه ما سبقني إليه أحد إلا أن يسبقني رجل بفضل قوة. وقال أيضا: قال لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقر حاقر، ومات رحمه الله سنة ثلاث ومئة » [راجع سير أعلام النبلاء ج٤ ص٥٣٦ رقم:٢١٦].

(٢) الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج١٧/ص١٤٩ .

☆ **الثاني : حفظ الحرمة التي أمر بها الله**، فمن حفظ حرمة الله تعالى؛ حفظ الله حرمته ، ومن حفظ الله حرمته لم يخذله أو يخزه أبداً ، ففي الحديث القدسي: «عبدى: خلقت الأشياء لك وخلقتك لى فلا تنشغل بما لك عني»[١].

☆ **الثالث: حسن الخدمة فيما شرع الله جل جلاله**؛ لأن من حسنت خدمته في طاعة الله تعالى وجبت كرامته من الله تعالى. باعتبار أن من والى الله بالطاعات، فإن الله تعالى يواليه بالكرامات. وهو معنى الولاية التى تعرف بأنها قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه؛ لأنها من الولى[٢]، وهو القرب، كما أن الولى لله هو العارف بالله تعالى، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته[٣]. دائم المراقبة لله، المتحقق بمقام الإحسان.

☆ **الرابع : نفوذ العزيمة واستمرارها دافعة للمؤمن فى طاعة الله تعالى**؛ باعتبار أن من نفذت عزيمته فى طاعة الله تعالى نفوذاً لا يرد، فقد دامت هدايته من الله تعالى[٤]، وفى الحديث القدسي : «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها

---

(١) الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية باب العين، والنفحات السلفية فى الأحاديث القدسية باب العين ص١٣٥ ط صبيح.

(٢) العلامة السيد الشريف الجرجاني – التعريفات – باب الواو ص٢٢٦، كما تعرف الولاية فى لسان الشرع بأنها تنفيذ القول على الغير شاء الغير أو أبى. كما تعرف فى العتق بأنها قرابة حكمية حاصلة من العتق، أو من الموالاة نفس المصدر أما الولاء فهو ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص في ملكه أو سبب عقد الموالاة [نفس المصدر ص٢٢٧/٢٢٨] .

(٣) الإمام محمد بن على الشوكاني – قطر الولى على حديث الولى ص٢٣٧، تحقيق الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال – طبعة دار الكتب الحديثة ١٩٧٩م .

(٤) الدكتورة فاطمة محجوب – الموسوعة الذهبية فى العلوم الإسلامية ج٩ ص٣١٤.

ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»»[١].

☆ **الخامس : تعظيم النعمة التى أنعم الله بها على عبده**، وذلك بشكره جل شأنه عليها، فمن شكر الله عز وجل زاده الله من فضله. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢]، والمعنى «لئن شكرتم نعمتي بالتوحيد والطاعة لأزيدنكم، ولئن كفرتم فجحدتم النعمة بالكفر والمعصية لأعذبنكم دل عليه إن عذابي لشديد »[٣].

أسس المنهج الروحى فى التعاملات الصوفية

ولما كان التصوف هو السلوك القلبى والممارسة العملية لما شرعه الله تعالى فقد رسم الصوفية لأنفسهم خطا واضحاً ومنهجا يعتمدون عليهما فى بلوغ تلك الغاية، بحيث يستطيع من سار عليهما التخلص من هيمنة العواطف والرغبات والمشاعر الذاتية، حتى إذا سار فى طريق التصوف أمكنه أن يجد العون فيبلغ المأمن، وتتحقق النجاة.

ويقوم هذا المنهج الروحى فى المعاملات الصوفية على ما يلى:

[أ] **طلب العلم الإلهى للقيام بالأوامر الإلهية** أداء فيما طلب الله فيه الأداء، وانتهاء فيما أمر الله عنه الانتهاء، ومن ثم فإن زعم البعض – من خصوم الصوفية – أنهم لا

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٣٨٤ – باب التواضع الحديث:٦١٣٧، ورواه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج:٢ ص:٥٨ – ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله في أحواله عند قيامه بإتيان المأمورات وانزعاجه عن جميع المزجورات – رقم:٣٤٧، ورواه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج:٣ ص:٣٤٦ – باب الخروج من المظالم والتقرب إلى الله تعالى بالصدقة ونوافل الخير رجاء الإجابة– رقم:٦١٨٨، ج١٠ ص:٢١٩ – رقم:٢٠٧٦٩، وراجع فى كتب الشروح فتح البارى ج١١ ص٣٤٤، ص٣٤٧، وتحفة الأحوذى ج١٠ ص٩٧، وشرح النووى على صحيح مسلم ج١٥ ص١٥١، وحلية الأولياء ج١ ص٤، ج١٠ ص٨٢، ص٩٩ .

(٢) سورة إبراهيم – من الآية ٧ .

(٣) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٣٣٠ .

يقومون على قواعد علمية[١] أمر مرفوض، وقول لا يقوم على سند مقبول. بل العكس هو الصحيح، بمعنى أن الصوفية يقيدون حركاتهم وسكناتهم بالعلم الإلهي، وبخاصة ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة.

ثم إن التصوف الإسلامى لابد فيه من التزام قلبى. واتجاه عقلى. وإنضباط فكرى، وسلوك علمى، ولا يكون ذلك إلا من خلال العلم الذى شرعه الله تعالى. ففى الحديث الشريف: « من عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم »[٢]. ومن لم يعمل بما علم تاه فيما يعلم. ولم يفعل فيما يعمل .

وفى الأثر عن علي بن أبى طالب ﷺ قال: « يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا فيباهي بعضهم بعضا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه ان يجلس إلى غيره ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله »[٣]. وعن عبدالواحد بن زيد قال: « كان يقال من عمل بما علم فتح الله له ما لا يعلم »[٤].

---

(١) راجع الصوفية والبدع ص١٨ وما بعدها .

(٢) العلامة العجلونى - كشف الخفاء ج:٢ ص:٣٤٧ رقم: ٢٥٤٢ وقال: رواه أبو نعيم عن أنس. وروى العجلونى أيضا بكتابه كشف الخفاء ج:٢ ص:٢٨٧ رقم:٢٣٤٦ « من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا » وتعقب الشيخ القاري الحديث فقال: لم يوجد له أصل كما في المختصر ومعناه صحيح مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم.

(٣) العلامة عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي (المولود ١٨١هـ، والمتوفى ٢٥٥هـ)- سنن الدارمي ج:١ ص:١١٨ - رقم: ٣٨٢ - دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ٢ - تحقيق فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي. والدارمى هو عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى السمرقندى أبو محمد. من حفاظ الحديث. ولد سنة ١٨٢هـ/٧٩٧م. كان فاضلا مفسراً فقيها، أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند، وله مصنفات عديدة منها: (المسند) فى الحديث، و (الجامع الصحيح) ويسمى سنن الدارمى. توفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م. (الأعلام ج٤ ص٩٥).

(٤) الحافظ أبو نعيم الأصبهانى - حلية الأولياء ج:٦ ص:١٦٣ .

[ب] **صحبة المشايخ الأعلام والإخوان الكرام للتبصر بما شـرع الله علما وعملاً**؛ لأن العلم يحتاج التلقى والمدارسة. مادام علما نظريا كسبيا، فإذا استمر العبد فى هذا الطريق من الطاعة لله والالتزام بما شرع الله تعالى، والعمل على وفق ما يرضى مولاه، فإنه يتحول من العلم النظرى الكسبى إلى العلم اللدنى الوهبى[1]، قال تعالى عن موسى عليه السلام مع غلامه والعبد الصالح: : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا . فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[2].

---

(١) العلم اللدنى : ويسمى أيضا العلم الوهبى؛ لأنه يأتى للإنسان بعد اكتمال عقله من غير أسباب تباشر، ولا وسائل تحصل، وربما هو المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة الآية ٢٨٢ . (راجع فى هذا الشأن : التعريفات للعلامة الجرجانى ص١٣٦).

(٢) سورة الكهف - الآيات ٦٤/٦٦ . ثم إن العلم ينقسم إلى قسمين:

الأول : العلم القديم وهو علم الله تعالى القائم بذاته جل شأنه وهو صفة أزلية قديمة بها انكشاف جميع المعلومات، فهو علم إحاطة وانكشاف، ومن ثم لا يشبهه شيء من علوم غيره؛ لأنه المنفرد جل شأنه.

الثانى: العلم الحادث : وهو يتنوع إلى ١- البديهى وهو ما لا يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بوجود الإنسان نفسه، رأس الكل أعظم من الجزء، وأن الأب من له ابن إلى غير ذلك مما هو بدهى، وسمى بذلك لنسبته إلى البداهة. ٢- الضرورى: وهو ما لا يحتاج فيه إلى تقديم مقدمة كالعلم الحاصل بالحواس الخمس على سبيل القطع . ٣- الاستدلالى: وهو الذى يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بثبوت الصانع وحدوث العالم، وما كان من هذا القبيل. [راجع التعريفات ١٣٦] وأرجعه البعض إلى نوعين: الأول:- البديهى وهو الذى لا يحتاج إلى بذل مجهود عقلى، ولا يحتاج إلى نظر وكسب. والثانى الكسبى وهو الذى يحصل بالأسباب التى تباشر بجانب النظر والاستدلال على ما ذهب إليه المناطقة. [راجع فى ذلك الشأن كتابنا : الغزاليات فى منطق التصورات أثناء الحديث عن أقسام العلم باعتبار البديهى والكسبى].

❁ **يقول الإمام الفخر الرازي**[1]: « إن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر. حيث إنه جعل نفسه تبعا له؛ لأنه قال : (هل أتبعك)، واستأذن فى إثبات هذه التبعية. فكأنه قال: هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعا لك؟ وهذه مبالغة عظيمة فى التواضع، وقوله تعالى : ﴿ على أن تعلمنى ﴾، وهذا إقرار له على نفسه بالجهل. وعلى أستاذه بالعلم، وقوله: ﴿ مما علمت ﴾ وصيغة من للتبعيض. فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضا مشعر بالتواضع، كأنه يقول: لا أطلب منك أن تجعلنى مساويا فى العلم لك، بل أطلب منك أن تعطينى جزءاً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله»[2]. على سبيل الترفق به، والإحسان له.

وروى الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله قال: « إنه بينما موسى، عليه السلام، في قومه يذكرهم بأيام الله. (وأيام الله نعماؤه وبلاؤه). إذ قال: ما أعلم في الأرض رجلا خيرا أو أعلم مني. قال فأوحى الله إليه. إني أعلم بالخير منه. أو عند من هو. إن في الأرض رجلا هو أعلم منك. قال: يا رب! فدلني عليه. قال فقيل له:

---

(١) الفخر الرازى هو صاحب التفسير والتصانيف ويعرف بابن خطيب الري واسمه محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري أبو المعالي وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي ويقال له ابن خطيب الري أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتي مصنف منها التفسير الكبير والمطالب العالية والمباحث الشرقية، والأربعين وله أصول الفقه والمحصول وغيره وصنف ترجمه الشافعي في مجلد مفيد وفيه غرائب لا يوافق عليها وينسب إليه أشياء عجيبة . ولد رحمه الله سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وقد كان معظما عند ملوك خوارزم وغيرهم وبنيت له مدارس كثيرة في بلدان شتى. وقد وقع بينه وبين الكرامية في أوقات خصومات وكان يبغضهم ويبغضونه ويبالغون في الحط عليه ويبالغ هو أيضا في ذمهم، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه سما فمات ففرحوا بموته . وكانت وفاته في ذي الحجة سنة ٦٠٦هـ، ولا كلام في فضله ولا فيما كان يتعاطاه . راجع البداية والنهاية لابن كثير – ترجمة الفخر الرازى – ٣٧٧/١٠. وراجع الإمام فخر الدين الرازى – حياته وآثاره – للدكتور على محمد حسن العماوى – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص٥٠٦ سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م – مؤسسة دار التحرير للنشر والطبع .

(٢) العلامة الفخر الرازى – مفاتيح الغيب – جـ١٠ ص٦٥٢/٦٥٣ بتصرف .

تزود حوتا مالحا. فإنه حيث تفقد الحوت. قال فانطلق هو وفتاه حتى انتهيا إلى الصخرة. فعمي عليه. فانطلق وترك فتاه. فاضطرب الحوت في الماء. فجعل لا يلتئم عليه. صار مثل الكوة. قال فقال فتاه: ألا ألحق نبي الله فأخبره؟ قال فنسي. فلما تجاوزا قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا[1]. قال ولم يصبهم نصب حتى تجاوزا. قال فتذكر قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت. وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره. واتخذ سبيله في البحر عجبا. قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا[2]. فأراه مكان الحوت. قال: ههنا وصف لي. قال فذهب يلتمس فإذا هو بالخضر مسجى ثوبا، مستلقيا على القفا. أو قال على حلاوة القفا. قال: السلام عليكم. فكشف الثوب عن وجهه قال: وعليكم السلام. من أنت؟ قال: موسى. قال: ومن موسى؟ قال: موسى بني إسرائيل. قال: مجيء ما جاء بك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا. قال: إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا شيء أمرت به أن أفعله إذا رأيته لم تصبر قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال انتحى عليها قال له موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا فانطلقا حتى إذا لقيا غلمانا يلعبون قال فانطلق إلى أحدهم بادي الرأي فقتله فذعر عندها موسى عليه السلام ذعرة منكرة قال أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا المكان رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا ولو صبر لرأى العجب قال وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه رحمة الله علينا وعلى أخي كذا رحمة الله علينا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجالس ف استطعما أهلها فأبو أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك وأخذ بثوبه قال سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أما السفينة

---

(١) سورة الكهف – من الآية ٦٢ .

(٢) سورة الكهف – الآيتان ٦٣/٦٤ .

فكانت لمساكين يعملون في البحر إلى آخر الآية فإذا جاء الذي يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها فأصلحوها بخشبة وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرا وكان أبواه قد عطفا عليه فلو أنه أدرك أرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته إلى آخر الآية»»[1].

من ثم فإن اهتمام الصوفية بالتلقى عن المشايخ ليس فيه استعباد الشيخ للمريد على ما ذهب إليه الخصوم[2]، إنما فيه تلقى المريد العلم الصحيح عن شيخه ؛ لأن علم المواهب ليس كعلم المكاسب، وإذا حاول إنسان أن يجعل العلم اللدنى الوهبى كالعلم الكسبى، فقد أخطأ طريق الحق الذى شرعه الله تعالى، وجاء ذكر قصصه فى القرآن الكريم مع نبى الله موسى الكليم والعبد الصالح الذى أتاه الله العلم اللدنى[3]، وكلما أمض العبد فى التأصل واستغرقه التفكير الجاد بجانب الأخذ عن العلماء العاملين بالكتاب والسنة النبوية، ومقارنة الإخوان ومن أهل الطاعة والغفران، فإن الله تعالى يفيض عليه من أنواره، ويفتح له من خزائن أسراره.

ﷻ قال تعالى : ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون﴾[4]،

---

(١) صحيح مسلم – باب من فضائل الخضر، عليه السلام. في الحديث رقم: ١٧٢ – (٢٣٨٠). ١٧٠ – (٢٣٨٠) – ج٤ ص١٨٥٠/١٨٥١.

(٢) الأستاذ راجى بن محمد الخراج – التصوف الدخيل ص٣٥٠ .

(٣) الشيخ محمد عبدالحميد الزحلوق – التصوف الإسلامى ودفع شبهات الخصوم ص٢٢ – ط٢ – الدار النعمانية ١٣٣٥هـ.

(٤) سورة الزخرف – الآيات ٦٧/٧٣ .

❁ **يقول صاحبا الجلالين** : « الاخلاء على المعصية في الدنيا يوم القيامة بعضهم لبعض عدو إلا المتقين المتحابين في الله على طاعته فإنهم أصدقاء ويقال لهم: يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا نعت لعبادي بآياتنا القرآن وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم وزوجاتكم تحبرون تسرون وتكرمون. يطاف عليهم بصحاف هى قصاع من ذهب وأكواب جمع كوب وهو إناء لا عروة له ليشرب الشارب من حيث شاء وفيها ما تشتهيه الأنفس تلذذا وتلذ الأعين نظرا وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها أي بعضها تأكلون وكل ما يؤكل يخلف بدله »[1]، من أنعم الله تعالى؛ لأن نعيمها دائم لا ينقطع، وثمار الجنة لا تنتهى أبدا، لما هو معروف من أن النعيم لأهل الجنة مقيم على الدوام.

[ج] **ترك الرخص والتأويلات للتحفظ**؛ لأن فى الأخذ بالرخص نوعا من الشفقة على النفس[2]، وربما جرها ذلك إلى الإهمال فى بعض الواجبات المشروعة، أو الوقوع فى دائرة التأويلات للنصوص الشرعية، فتجر معها تأويلات أخرى للأحكام والفرائض الشرعية، وبالتالى يتحقق الإهمال فى الأداء، وذلك ليس من شأن الصوفية[3]، بل ولا يوافق طبيعة التصوف الإسلامى، التى تقوم على ممارسة السلوك العلمى والعملى للأفكار الصوفية الإسلامية فروضها والنوافل بلا تفرقة أو إهمال.

[د] **ضبط الأوقات بالأدوار**؛ لأن ملازمة الذكر لله، وحضور مجالس الذكر مع الشيوخ والأقران من أهل الله يجعلهم فى حفظ من الشيطان. قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي

---

(١) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٦٥٤.

(٢) الأخذ بالرخص مبدأ إسلامي، ففى الحديث الشريف : « عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » [العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج: ٢ ص: ٦٩ – ذكر الإخبار عما يستحب للمرء من قبول ما رخص له بترك التحمل على النفس ما لا تطيق من الطاعات – رقم: ٣٥٤] والصوفية لا ينكرونه، ولكنهم يرون الأخذ بالعزيمة يضاعف الأجر. [راجع للشيخ نصر الدين محمد الطويل – مع الله ص٧١].

(٣) الشيخ محمد عطا الله يعقوب – ألا بذكر الله تطمئن القلوب ص٩٥ ط أولى ١٩٢١م.

أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1]، وفى الحديث الشريف ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم، إلاّ حفتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[3]. ويقول تعالى فى الحديث القدسى: « عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ هم خير منهم وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »[4].

ثم إن الورد فى الأصل اللغوى معناه النصيب المقدر من قراءة القرآن الكريم، أو ممارسة الذكر، حيث يقدره الإنسان نفسه، ويداوم على القيام به[5]، طيلة عمره، ابتغاء مرضاة الله رب العالمين، حتى يصير ذلك الورد واجبا على الدوام يمارسه الصوفى ليلا ونهاراً، سواء أكان فى العمل أم فى الحقل، وسواء أكان موظفا فى المصنع أم عاملاً فى المزرعة، المهم ان ذلك الورد لا ينقطع عن ممارسته الصوفى، فيصير ذلك الورد واجبا بالنسبة له، وجوب التكاليف الشرعية من باب أن الاستمرار فى القربات يدفع الأحزان، وينقذ من الكبوات، ويفرج عن المرء ضيق الكربات،

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٥٢ .

(٢) أخرجه مسلم – كتاب الذكر والدعاء – باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر – جـ١٧ ص٢١ بشرح النووى .

(٣) سورة الرعد – الآية ٢٨ .

(٤) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٦٩٤– رقم: ٦٩٧٠، ورواه مسلم – صحيح مسلم ج: ٤ ص٢٠٦١ – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – [١] باب الحث على ذكر الله تعالى – رقم: ٢٦٧٥ .

(٥) العلامة ابن منظور – لسان العرب – باب الواو، ومعجم مقاييس اللغة – ابن فارس – باب الواو وفصل الراء.

وكيف لا وقد كان صلى الله عليه وسلم يستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة وألف مرة[1]. وكان يتوب إلى الله فى اليوم ألف مرة[2]، وكان التسبيح والذكر قاعدة ثابتة فى حياة الرسول ﷺ .

[د] **اتهام النفس فى كل شيء للخروج من الهوى والسلامة من العطب**[3]؛ لأن من أنس بحسن أحول نفسه ربما أغراه ذلك فوقع فى التقصير. كما وقع فيه الذين زعموا سقوط التكاليف الشرعية عنهم، بدعوى أنهم صاموا كثيرا، وصلوا كثيرا، وذكروا كثيرا، وكذلك الأمر بالنسبة للحج، ومادام أمرهم قد غلب غيرهم فما عليهم إلا الانقطاع عن القيام بالتكاليف الشرعية حتى يتساوى معهم غيرهم[4]، وهذا الزعم باطل؛ لأن الله ﷻ جعل التكاليف الشرعية مقرونة بأوقاتها من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[5].

۞ **قال العلامة السيوطى** : « قيل في قوله تعالى: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتبا موقوتا﴾ إن للصلاة وقتا كوقت الحج. وقبل: منجما، كلما مضى نجم جاء نجم آخر. يقول: كلما مضى وقت جاء وقت آخر. وعن ابن عباس قال: [قال

---

(١) ففى الحديث الشريف عن أبي بردة عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٤ ص: ٢٠٧٥ – [١٢] باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه الحديث:٢٧٠٢]

(٢) ففى الحديث الشريف عن الأغر وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحدث بن عمر قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٤ ص: ٢٠٧٥ – [١٢] باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه الحديث:٢٧٠٢ برواية عن الأولى وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج ٤ ص٢٦١ – حديث رجل من المهاجرين رضي الله عنه – الحديث: ١٨٣٢٠]

(٣) الإمام يحيى بن شرف النووى – المقاصد فى بيان ما يجب معرفته من العقيدة والعبادة وأصول التصوف ص٨٤/٨٥ وقد أخذت منه هذه الرءوس الخمسة طبعة دار الإيمان بدمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٤) راجع فى ذلك كتابنا: أوراق مطوية فى التصوف والصوفية ص٤٧٢، وفى الطبعة الأولى ص٣٨٢ – طبعة أل بسيوني ١٩٩٩م.

(٥) سورة النساء – من الآية ١٠٣ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمني جبريل عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس وكانت قدر الشراك، وصلى بي العصر حين كان ظل كل شيء مثله، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم وصلىّ بي العشاء حين غاب الشفق، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، وصلى بي من الغد الظهر حين كان ظل كل شيء مثله. وصلى بي العصر حين كان ظل كل شيء مثليه، وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء ثلث الليل. وصلى بي الفجر فأسفر، ثم التفت إلي فقال: يا محمد هذا الوقت وقت النبيين قبلك. الوقت ما بين هذين الوقتين][1]، فالمحافظة على الصلاة التى شرعها الله فى أوقاتها التى فرضها الله تعالى، هو سلوك أهل الله علماء التصوف الإسلامى الأعلام.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن للصلاة أولا وآخرا، وإن أول وقت الظهر حين تزول الشمس، وإن آخر وقتها حين يدخل وقت العصر، وإن أول وقت العصر حين يدخل وقت العصر، وإن آخر وقتها حين تصفر الشمس، وإن أول وقت المغرب حين تغرب الشمس، وإن آخر وقتها حين يغيب الشفق، وإن أول وقت العشاء الآخرة حين يغيب الشفق، وإن آخر وقتها حين ينتصف الليل، وإن أول وقت الفجر حين يطلع الفجر، وإن آخر وقتها حين تطلع الشمس][2] »[3].

---

(١) الإمام الترمذى - سنن الترمذي ج:١ ص٢٧٨ - [٢] كتاب أبواب الصلاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -[١١٣] باب ما جاء في مواقيت الصلاة عن النبي صلى الله عليه وسلم - رقم:١٤٩، صحيح ابن خزيمة ج:١ ص:١٦٨ - رقم: ٣٢٥، سنن البيهقي الكبرى ج:١ ص:٣٦٤ رقم: ١٥٨٣، مصنف عبد الرزاق ج١ ص:٥٣١ باب المواقيت - رقم: ٢٠٢٨، مسند أحمد ج: ١ ص: ٣٣٣ رقم: ٣٠٨١

(٢) الإمام النسائى - سنن النسائي (المجتبى) ج: ١ ص: ٢٤٦ - [٢] باب أول وقت الظهر - رقم:٤٩٥، مسند أحمد ج: ٢ ص: ٢٣٢ - رقم: ٧١٧٢، مصنف ابن أبي شيبة ج: ١ ص: ٢٨١ رقم: ٣٢٢٢، سنن الدارقطني ج: ١ ص: ٢٦٢ رقم: ٢٢ .

(٣) العلامة جلال الدين السيوطى - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور - الطبعة الثانية - طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

مما سبق اتضح أن للتصوف تعريفات خاصة بـه، ولـه كذلـك طرائـق توصـل إليه، وفوق ذلك فإن له منهجا يجرى معه، سواء أكان فى القضايا التي يتناولها. أم فى النتائج العملية السلوكية التى تعتصم بأرحام الأفكـار حتـى تعـبر عنـها، وبالتـالى فالتصوف الإسلامى الذى هو يقوم على الممارسة الشرعية له سماته الخاصة، وهى فى مجملها تؤكد أن التصوف الإسلامى غير علم التصوف الإسلامى، وغير الصوفى أيضـا وغير المتصوفة، وذلك مما يحتاج بعض البيان فـى كـل مـن علـم التصـوف والصوفيـة والمتصوفة أيضا.

ثانيا: علم التصوف الإسلامى

عرف الدارسون علم التصوف الإسلامى بتعريفات عديدة ترجع فى أغلبها إلى الأصول الشرعية التى قامت عليها فى نفوس الدارسين له، أو الممارسين للتصوف.

من أبرز تلك التعريفات ما يلى :-

[١] أنه علم يعرف به كيفية ترقى أهل الكمال من النوع الإنسانى فى مدارج سعادتهم، والأمور العارضة لهم فى درجاتهم بقدر الطاقة البشرية[١]، حتى يكون هذا الكمـال البشرى دافعا لأصحابه فى التشبيه بالله جـل عـلاه. باعتبـار أن رب العـزة جـل شأنه يقول فى الحديث القدسي: « عبدى أطعنى تكن عبداً ربانيـا تقول للشيء كن فيكون »[٢].

[٢] كما يعرفه بأنه عبارة عن أصول يعرف بها صلاح القلـوب، وسـائر الحـواس، لأن التصوف أوله علم، وأوسطه عمل، وأخره موهبـة، ومقصـده صـلاح القلـب وسـائر الحواس[٣]، ومادام قـد عـرف بأنـه علـم فلابـد أن لـه حـدوداً ومقدمـات ونتـائج وخواتيم ومنهج يقوم فيه، ومتى أمكن تعلم قواعده، ومعرفة أصوله، أمكن للمسلم القيام به على الوجه الأمثل، متى كانت غايته التزام الحق. ومقصده التمسك بما شرع الله لعباده فى الدنيا، حتى يفوزوا برضوان الله تعالى فى الآخرة.

---

(١) حاجى خليفة – كشف الظنون عن أسامى العلوم والفنون ج١ ص٤١٤، وراجع للعلامة صديق بن حسن القنوجى أبجد العلوم ج٢ ص١٩٦ وما بعدها ففيها تفاصيل يحتاجها من يطلبها.

(٢) الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية – باب العين .

(٣) شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري – الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الإنسانية ص١٠ – الطبعة العامة ١٩٧٦م.

وبناء علي ما سلف؛ فإن علم التصوف الإسلامى يقوم على التعبير عن المعانى التى لا يدركها إلا من غاب عن ذاته، فكبح جماح نفسه، وتغلب على شهوات بدنه. فكل من يريد الوصول لهذه الدرجة عليه أن يجتهد فى العبادة بالعيان دون أن يطلب ذلك بالبنان؛ لأن للتصوف طورا فوق طور العقل المادى.

ولما كان التصوف الإسلامى حقيقة واقعية على النحو الذى سبق ذكره؛ فإن علم التصوف هو الآخر حقيقة واقعية علمية معاً؛ لأنه أصول فاضت أنوارها على روح الصوفى، بحيث تدفعه إلى الترقى المستمر فى مجال المعرفة بالله رب العالمين، وحال الصوفية هو التمسك الدائم بأهداب التصوف، وممارسة قضاياه علما وعملا، وأن ذلك التمسك لم ينقطع عنهم كما لم ينقطعوا عن ممارسته حتى يفارق الواحد منهم الدنيا راحلاً للآخرة فيذكر الإمام أبو محمد الهروى(١) أنه مكث عند الإمام الشبلي(٢) فى الليلة التى مات فيها الشبلى، فكان الشبلى يتحدث مع رب العزة جل شأنه ويقول كلاماً عظيما، ويقول:

---

(١) هو عبدالله بن عروة الحافظ المجود أبو محمد الهروي (صاحب الأقضية) سمع أبا سعيد الأشج والحسن بن عرفة مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. [راجع طبقات الحفاظ ج: ١ ص: ٣٣٢ رقم: ٧٥٠].

(٢) الشبلى هو: « أبو بكر الشبلي الصوفي دلف بن جعفر ويقال دلف بن جحدر ويقال هو جعفر بن يونس، ذلك وهكذا كان مكتوبا على قبره ببغداد، وكان من أهل أشروسنة بها قرية يقال لها شبلية أصله منها وكان خاله أمير الأمراء بالإسكندرية قال السلمي كان الشبلي مولده بسر من رأى وكان حاجب الموفق وكان أبوه حاجب الحجاب وكان الموفق جعل لطعمته دماوند ثم لما أقعد الموفق وكان ولي العهد من قبل أبيه حضر الشبلي يوما مجلس خير النساج وتاب فيه ورجع إلى دماوند وقال أنا كنت صاحب الموفق وكان ولاني بلدتكم هذه فاجعلون في حل فجعلوه في حل وجهدوا أن يقبل منهم شيئا فأبى وصار بعد ذلك واحد زمانه حالا ونفسا، وكان زاهدا فقيرا، فعن أبي سعيد قال قال رسول الله لبلال ألق الله فقيرا ولا تلقاه غنيا قال يا رسول الله كيف لي بذلك قال ما سئلت فلا تمنع وما رزقت فلا تخبأ قال يا رسول الله كيف لي بذاك قال هو ذاك وإلا فالنار، ومن أقواله: ذكرتك لا أني نسيتك لمحة وأيسر ما في الذكر ذكر لساني وكنت بلا وجد أموت من الهوى وهام علي القلب بالخفقان فلما أراني الوجد أنك حاضري شهدتك موجودا بكل مكان فخاطبت موجودا بغير تكلم ولاحظت معلوما بغير عيان أخبرنا احمد بن علي المحتسب قال سمعت أبا الفرج محمد بن عبيد الشاعر المعروف بالبارد يقول سمعت الشبلي ينشد ليس تخلوا جوارحي منك وقتا هي مشغولة بحمل هواك ليس يجري على لساني شيء علم الله ذا سوى ذكراك وتمثلت حيث كنت بعيني فهي إن غبت أو حضرت تراك، وقوله ذكر الله على الصفاء ينسي العبد مرارة البلاء، وسئل الى ماذا تستريح قلوب المحبين والمشتاقين فقال الى سرورهم عن أجره وقد اشتاقوا اليه وأنشد أسر بمهلكي فيه لأني أسر بما يسر الألف جدا ولو سئلت عظامي عن بلاها لأنكرت البلا وسمعت جحدا ولو أخرجت من سقمي لنادي لهيب الشوق بي يسأله ردا، وسئل أيضا فقيل له: ما الفرق بين رق العبودية ورق المحبة فقال كما بين عبد إذا أعتق صار حرا وعبد كلما اعتبق ازداد رقا ثم أنشأ يقول لتحشرن عظامي بعد إذا بليت يوم الحساب وفيها حبكم علق، وسئل عن التصوف فقال التصوف ترويح القلوب بمراوح الصفاء وتجليل الخواطر بارديه الوفاء والتخلق بالسخاء والبشر في اللقاء، وكان يقول: على بعدك ما يصبر من عادته القرب ولا يقوى على حبك من تيمه الحب فان لم ترك العين فقد يبصرك القلب، ومن أقواله: كتبت الحديث عشرين سنة وجالست الفقهاء عشرين سنة، مات الشبلي في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة قال غيره مات يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة ويقال: إنه مات في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة والأول أصح » [راجع العلامة أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي - المولود ٣٩٣، المتوفى ٤٦٣هـ تاريخ بغداد ج: ١٤ ص: ٣٨٩/٣٩٥ - رقم: ٧٧٠٨ - دار الكتب العلمية - بيروت - عدد الأجزاء ١٤] .

كـل بيـت أنـت سـاكنه ⁖ غـير محتـاج إلى السـرج
وجـهك المـأمول حجتنـا ⁖ يـوم يـأتى الناس بـالحجج[١]

من ثم فإن علم التصوف الإسلامى يقوم على أصول صحيحة ودعائم ثابتة. وهذا مما يدفع عنه مزاعم خصومه القائلين بأن التصوف غير منضبط فى أصوله وقواعده، أو أنه خبطة عشوائية أو ضربة عمياء أو زوره ليلاء، أو أن الصوفية وقع فيهم الجهل، فلا حيلة لهم إلاّ به، ولا راحة إلاّ فيه، والأمر على العكس من ذلك تماماً عند الصوفية[٢]، الذين تقوم سلوكياتهم على النقل المنزل – القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة – وما صح عن الصحابة الأجلاء التابعين النجلاء. وأهل العلم الورعين الأتقياء، لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٣]،

۞ **ويقرر السهروردي**: « أن التصوف أوله علم، وأوسطه عمل. وأخره موهبة من الله سبحانه تعالى »[٤]، ومن ثم فإن التصوف لا يقوم إلاّ على العلم بالله جل علاه. وما أنزل على ألسنة رسله. وجاءت به كتبه. وبناء عليه صار علم التصوف بمثابة المدرسة الملتزمة جانبا تربوياً سليماً، تقوم مناهجه على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة، والعلم سلاح الصوفية، ولما كان علم التصوف بحاجة إلى الصبر أثناء تلقيه واكتسابه، فقد أعلن الصوفية أن التصوف وهو الصبر تحت مجارى الأقدار، والتعلم على يد الملك الجبار، وقطع البوادى[٥] والقفار[٦]. والتوجه لله أناء والليل وأطراف النهار[٧]، بغية إرضاء الواحد الغفار.

ولاشك أنه متى تمكن التصوف من صاحبه علما وممارسة، حتى صار خلة له فإنه يطبعه بطابع ربانى على كل ناحية؛ لأن التصوف أخلاق تراعى. وآداب تلتزم

---

(١) الإمام عبدالكريم القشيرى – الرسالة القشيرية ص٢٣٥ وبالهامس تقريرات شيخ الإسلام زكريا الأنصارى – طبعة محمد على صبيح .
(٢) راجع كتابنا: أوراق مطوية فى التصوف والصوفية من ص٥٠ ط١ مؤسسة الشروق ١٩٩٧م.
(٣) سورة فاطر – من الآية ٢٨ .
(٤) العلامة السهروردي – عواف المعارف ص٤٣ .
(٥) البوادى جمع بادية وتعرف بأنها الفضاء الواسع الذى يوجد فيه المرعى والماء، والبداوة هى الحياة فى البادية. ويغلب على أهلها التنقل والترحال . [معجم مقاييس اللغة – باب الباء].
(٦) القفار جمع مفرده قفر وهو المكان الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا بشر. ولا يصلح للمرعى؛ لأنه لا يوجد فيه كلأ وبالتالى فتكون الحياة فيه قاسية، بل شديدة القسوة والصعوبة معا. [المنجد فى اللغة والأعلام والآداب – باب القاف ...]
(٧) الدكتور قاسم غنى – تاريخ التصوف الإسلامى ص٢٨ .

فى كل لحظة من عمر المؤمن، وكل طرفة عين، بل إن كل حركة تصدر عنه، وسكنة تتوارى فيه تنعكس على نفس صاحبها فتطبعها بطابعها الأخلاقى العام، بحيث يصير المؤمن صفاء فى نفسه، وعامل صفاء فقال فيمن يحيط به[١]، بل إنه يصير كالبدر المنير فى الليلة الظلماء، أو كالشمس الوضاءة بين الكواكب العتماء.

ولما كان العلم لدى الصوفية يسبق المجاهدة، فقد أعلنوا عن أمر غاية فى الأهمية، وهو إذا نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء، ويسير من غير سفينة على وجه الماء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ حدود الله تعالى[٢]، فإن وجدتموه يقفز فوقها أو لا يعبأ بأحكامها، فإنما هو شيطان قد سخره شيطانه وانخدعت به من الإنس شياطين[٣]، وليس ذلك بمنطبق على أحد من أولياء الله الصالحين أبدا.

ونظراً لأن علم التصوف علم نظرى، فقد نظر إليه غير الصوفية نظرة خاصة، إلاّ أنه يمكن اعتباره بالنسبة للصوفية - علما معياريا- ودليل ذلك ما روى عن أبى حفص ﷺ أنه قال : « من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يفهم خاطره، فلا تعدوه فى ديوان الرجال »[٤]، وإنما يعد فى زمرة أهل الهوى أصحاب اللهو، القائمين فى النسيان، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[٥].

---

(١) الدكتور عبدالفتاح عبدالله بركه - فى التصوف والأخلاق ص٥٥ - طبعة عالم الفكر الثالثة ١٩٨٢م

(٢) الإمام أبو الفرج بن الجوزى البغدادى - تلبيس إبليس ص١٧٨ ونسب هذا القول إلى الشيخ طيفور البسطامى قال: سمعت موسى بن عيسى يقول: قال لى أبى، قال أبو زيد ... ثم ذكر القول وحكى قريبا منه منسوبا للإمام الغزالى .

(٣) الشيخ محيى الدين محمود الكابولى - التصوف الإسلامى ج١ ص٨٧ - ط١٣٨٥/١هـ .

(٤) العلامة أبو نعيم الأصفهانى - حلية الأولياء ج١ ص٢٣٠ .

(٥) سورة طه - الآيات ١٢٤/١٢٦ .

۞ **يقول العلامة ابن كثير** : « ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ فخالف أمري وما أنزلته على رسولي، حتى أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة. قال ابن عباس ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ يعنى شقاء ولا ينقطع وعنه: إن قوماً ضلالاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معشيته فذلك الضنك. وقال الضحّاك: هو العمل السيء والرزق الخبيث. وروى سفيان عن عيينة، عن أبي سعيد في قوله ﴿معيشة ضنكا﴾ قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه »[١]؛ لأنه أهمل ما شرع الله تعالى فاستحق العقاب؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وفى الحديث الشريف « عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أو صبية فقال لو كان نجا أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي »[٢]. وعن نافع قال أتينا صفية بنت أبي عبيد فحدثتنا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن كنت لأرى لو أن أحدا أعفي من ضغطة القبر لعفي سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة »[٣]. وعن ابن عمر « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه »[٤].

۞ **وقال العلامة السندى** : « قوله ضمة القبر وضغطته بفتح الضاد المعجمة عصره وزحمته قيل والمراد التقاء جانبيه على جسد الميت قال النسفي يقال أن ضمة القبر إنما أصلها أنها أمهم ومنها خلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة فلما ردوا إليها

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص١٦٩ .

(٢) العلامة الطبراني – المعجم الأوسط ج٣ ص١٤٦ – الحديث: ٢٧٥٣، المعجم الكبير ج٤ ص٢١ الحديث: ٣٨٥٨، وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ج٣ ص٤٧

(٣) العلامة الحافظ نور الدين الهيثمي – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٣ ص٤٧ .

(٤) الإمام النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٤ ص١٠٠ – [١١٣] باب ضمة القبر وضغطته الحديث: ٢٠٥٥ .

ضمتهم ضمة الوالدة غاب عنها ولدها ثم قدم عليها فمن كان لله مطيعا ضمته برأفة ورفق ومن كان عاصيا ضمته بعنف سخطا منها عليه لربها قوله »[1].

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "عذاب الكافر في قبره. والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة »[2].

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ قال: "المعيشة الضنك الذي قال الله إنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة". وقوله: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ « قال مجاهد والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد أن يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً كما قال تعالى: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم﴾ الآية، ولهذا يقول: ﴿رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا﴾؟ أي في الدنيا ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وتناسيتها وأعرضت عنها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك، ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى »[3]. فعن سعد بن عبادة قال « سمعت غير مرة ولا مرتين يقول قال رسول

---

(١) العلامة نور الدين بن عبدالهادي أبو الحسن السندي المتوفى ١١٣٨هـ – حاشية السندي على النسائي – ج٤ ص١٠٠ – مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب١٤٠٦هـ/١٩٨٦م – الطبعة الثانية – عدد الأجزاء ٨ – تحقيق عبدالفتاح أبو غدة .

(٢) العلامة أبو حاتم ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٧ ص٣٩٢ – ذكر الإخبار عن وصف التنين الذي يسلط على الكافر في قبره – الحديث:٣١٢٢ ، وراجع الترغيب والترهيب ج٤ ص١٩٣ – الحديث:٥٣٩٠.

(٣) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص١٦٩ .

الله صلى الله عليه وسلم ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلول لا يفكه من ذلك الغل إلا العدل وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم »[1].

ومن ينكر علم التصوف فهو الجاهل به، أو الجاهل له، وقديما قيل:

علم التصوف علم ليس يعرفه ∴ إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده ∴ وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف[2]

لكن ما هو منهج علم التصوف ؟

والجواب : أنه منهج قلبي وجداني سلوكي، أو بعبارة أخرى هو منهج تقريرى فيما يعرضه، نقدى فيما يتجه إليه، تحليلى فيما ينتهى إليه من نتائج، وصفى تاريخى فيما يقف عليه من مذاهب ونظريات، أو يتعرض له من مدارس وآداب وأخلاقيات، إنه مسألة قلبية تظهر أثارها على الجوارح فى الأعمال[3]، باعتبار أنها التى تصدق القلب فى اعتقاداته أو تكذبه من خلالها، كما أن الإيمان ما هو إلاّ تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والأبدان.

ولما كان التصوف ممارسة عملية وقلبية ذاتية لحملة من الآداب بعينها؛ فإن تقديم منهج متكامل عنه من الناحية العلمية، يعتبر أمراً صعبا، وذلك لأن الصوفية كثرة، وأذواقهم[4] والمواجيد ليست واحدة[5]، فقد يحدث للواحد انجذابا لا يحدث

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٥ ص٢٨٥ – الحديث:٢٢٥١٦ .

(٢) العلامة شمس الدين محمد الإنطاكي – من معالم التصوف الإسلامى ص٤٥ – الطبعة الثالثة ١٣٣٥هـ .

(٣) الدكتور عبدالفتاح عبدالله بركة – فى التصوف الإسلامى ص٥٨ .

(٤) الأذواق جمع ذوق، وهو حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر فى أثر الفن أو الأدب، ويطبق فى الروحانيات على شكل واسع، ولذلك عرف الصوفية بأنهم أصحاب أذواق خاصة. [العلامة محمد شمس الدين الدهلوى – مصطلحات صوفية ص٥٧ – ط٢ الدال النعمانية ١٣٣٥هـ] .

(٥) يعرف الموجد بأنه حالة تمثلها جملة من الظواهر لدى الإنسان نفسه تقابل الفكر والنزوع، فلا هو بالقائم على قاعدة يمكن ضبطها، ولا هو بالأخذ فى تقنين النتائج المترتبة عليه، ولذا كان الصوفية أصحاب مواجيد يعبرون عنها دون أن يتمكن أحد من تكذيبهم فيها. [الشيخ شمس الدين برهان الرحمن الدهلوى – الصوفية اعتقاداً وممارسة ص٣٣ – طبعة الدهلوى ١٣٠٥هـ]

لأخر ذلك الانجذاب، وقد يرى الواحد منهم فى يقظته أو منامه ما لا يراه الأخر وهى الرؤيا الصادقة، فعن أبى هريرة قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة »[1].

وقال ﷺ أيضا: « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ. ثُمَّ قَالَ: أَلاَ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ »[2]. وعَنْ أُمِّ كُرْزٍ الْكَعْبِيَّةِ، قَالَتْ: « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ (ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ »[3]. بل ربما يقرن أحدهم أمرا لم يكن للأخر عرفان به، ومن ثم يصعب تقديم تعريف كامل لمنهج علم التصوف، وإن أمكن تقديم

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٦ ص:٢٥٦٤ – [٥] باب المبشرات – الحديث: ٦٥٨٩). والمراد بـ[(لم يبق) أي بعد نبوته صلى الله عليه وسلم. (إلاَّ المبشرات) المبشرات: جمع مبشرة من التبشير، وهو إدخال السرور والفرح على المبشر. والمراد أن الوحي ينقطع بموته صلى الله عليه وسلم، ولا يبقى ما يعلم منه ما سيكون إلا الرؤيا].

(٢) راجع [الإمام السندى – حاشية السندي على النسائي- - باب تعظيم الرب في الركوع – الحديث رقم:١٠٣٩ - (رواه ابْنِ عَبَّاسٍ) . قال السندي: [قوله: (من مبشرات النبوة) أي مما يظهر للنبي من المبشرات حالة النبوة وهي بكسر الشين ما اشتمل على الخبر السار من وحي وإلهام ورؤيا ونحوها ولا يخفى أن الإلهام للأولياء أيضا باق فكأن المراد لم يبق في الغالب إلا الرؤيا الصالحة (يراها المسلم) أي المبشر بها أو يراها غيره لأجله (فعظموا الخ) أي اللائق به تعظيم الرب فهو أولى من الدعاء وإن كان الدعاء جائزا أيضا فلا ينافي أنه كان يقول في ركوعه اللهم اغفر لي (فاجتهدوا في الدعاء) أي أنه محل لاجتهاد الدعاء وأن الاجتهاد فيه جائز بلا ترك أولوية وكذلك التسبيح فإنه محل له أيضا »قمن« بكسر ميم وفتحها أي جدير وخليق قيل: بفتح الميم مصدر وبكسرها صفة »

(٣) الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجة : باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له- الحديث رقم:٣٨٩٦ .

تعريف ما عن ذلك العلم(١)، وكلها تجيء على ناحية تقريبيـة، يجـرى فيـها الرسـم الناقص، حيث يكون التعريف بالخاصة.

❖ وربما تسألنى دليلاً على ما أدعيه؟

✲ وهاك الدليل:ـ

[١] **ذهب الجنيد**(٢) إلى أن علم التصوف علم باطن قاصر على الخواص؛ لأنه يقوم علـى محبة الله تعالى، ومحبة الله سر من الأسرار، وليس من السـهل الخـوف فيـه(٣)، وبالتالى فكل علم باطن قاصر على الخواص هو ذاته علم التصـوف الإسـلامى، وإن لم يكن ذلك واردا على أفهام الصوفية أنفسهم، بل يمكن حمل ذلك التعريف على التصوف أيضا، بناء على ما ذهب إليه نيكولسون من أن ذا النون كان يقـول: إن التصوف علم باطن قاصر على الخواص(٤)، فما ذهب إليه الجنيد غير ما ذهب إليه ذو النون، وهو من الأدلة على أن التصوف وعلم التصـوف يصعـب تقديـم تعريـف حدى لأى منهما.

[٢] **ذهب سعيد بـن العربـى** إلى: أن علـم التصـوف هـو علـم ممارسـة طـرح النفس فـى العبودية، والوقوع فى إرضاء رب البريـة، والخـروج مـن دائـرة الطينـة البشـرية، وكيفية النظر للحق البارئ بالكليـة(٥)، ومـن ثـم فكـل علـم فيـه ممارسـة طبيعيـة

---

(١) هذا مما ذهب إليه الكثـيرون مـن أهـل العلـم. [راجـع علـى سـبيل المثـال: مـن معـالم التصـوف الإسـلامى للعلامة شمس الدين محمد الإنطاكي .

(٢) الجنيد : هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندى ثم البغدادى القواريرى الخـزاز؛ لأنـه كـان يعمل بالخز وهو شيخ الصوفية . ولد سنة نيف وعشرين ومائتين. قيل عنه أنه سمع الكثير وشاهد الصالحين وأهل المعرفة ورزق الذكاء وصواب الجواب، لم ير فى زمانه مثلـه فـى عفـة وعـزوف عـن الدنيا قال أحد معاصريه: ما رأيت عيناى فى مثله، الكتبة يحضرون مجلسـه لألفاظـه، والشـعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيـه، وهـو أول متكلـم فـى التوحيـد ببغـداد وعـدة العلمـاء شـيخ مذهـب التصوف لضبط مذهبه على قواعد الكتاب والسنة. توفى سنة ٢٩٨هـ. [راجـع سـير أعـلام النبـلاء ج١١ ص١٥٣، والأعلام للزركلى ج٢ ص١٣٧].

(٣) العلامة عبدالخالق الوردانى – التصوف الإسلامى ص١٢٣٩/٧١هـ.

(٤) رينولد ألن نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٨ .

(٥) الشيخ نصر الدين محمد الطويل – التصوف والصوفية ص٤٢ ط١٣٠٨/٢هـ.

لتهذيب النفس البشرية والتغلب على نزعاتها، وكبح جماح شهواتها هو المؤدى إلى رضوان رب البرية، حتى يكون فى ذلك النعيم فى الدنيا والآخرة.

وهو تعريف قريب من تعاريف التصوف أيضا، حيث ذكر فريد الدين العطار: أن جعفر الخلدي المتوفى ٣٤٨هـ من كبار الصوفية كان يعرف التصوف بأنه طرح النفس فى العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية[١].

فهذا يدل على ما سبق القول به، ومازلت أؤكد عليه وهو أن تعريف التصوف أو علم التصوف على ناحية حدية قد يكون أمراً صعباً بالنسبة لى على الأقل، باعتبار أن كلا منهما يقوم فى أغلبه على الأذواق والمواجيد التى يسميها خصوم التصوف شطحات صوفية[٢]، لكن هذه الأذواق وتلك المواجيد تقوم لدى الصوفية على أسس يقينية وممارسة عملية، وحياة إيجابية، كم مارسوها فأدت بهم إلى النتائج التى انتهوا إليها، ورأوا الخير فيها نفسيا وبدنيا وعقلياً فى الدنيا والآخرة.

[٣] ـ ذهب الشيخ النعمانى إلى أن علم التصوف هو دراسة الظواهر السلوكية التى تقوم على ناحية وجدانية، فيها الإيمان بالغيب مع وضع قواعد يمكن ضبطها وتطبيقها فى مجال السلوك الإنسانى، بغية الوصول إلى رضوان الله تعالى، حتى يكون العبد ربانيا[٣]، ومادام هذا العلم يقوم على دراسة الظواهر السلوكية الوجدانية. فقد أمكن تعريفه على طريق الممارسة، فتكون الممارسة وجدانية، أما التعبير عنها فإنه يكون علما معيارياً يمكن الأخذ به عند الآخرين.

[٤] ذهب محقق الرسالة القشيرية إلى أن علم التصوف علم معيارى له قواعده وموضوعه وغايته، فموضوعة التزكية والتصفية، وتعمير الباطن والظاهر، وغايته: نيل السعادة الأبدية، ومسائله ما يذكر فى كتبه من المقاصد(٤) العليا نحو رضوان الله تعالى، وهى خطوة جديدة فى تقعيد علم التصوف، ووضع قواعد ثابتة لأصوله، وكيفية ممارسته، بحيث يخرج من الطور الذاتى الشخصى فى ممارس التصوف إلى

---

(١) رينولد ألن نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٣٨ .

(٢) العلامة الشيخ عبدالخالق الوردانى – التصوف الإسلامى ص٨٢ .

(٣) الرسالة القشيرية – هامش ص١٣/١٢ بتصرف يسير .

(٤) الشيخ على محمد عبدالمهيمن الزاوى – التصوف والصوفية ص٥٣ ط الثانية باكستان ١٣٨٧هـ .

الطور العام، حتى يكون طريقا يمكن ارتياده لكل مسلم يريد أن يزيد من قدر الصفاء في نفسه، آخذا بالكتاب والسنة النبوية، مهتديا بفعل الصحابة الكرام، ففي الحديث الشريف : « أصحابي كالنجوم فبأيهم إقتديتم إهتديتم »[١].

وقال ﷺ أيضا: « (النَّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ. فَإِذَا ذَهَبَتِ النَّجُومِ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ. وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي. فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ. وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي. فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أتى أمتي ما يوعدون) »[٢].

وقوله ﷺ : «الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[٣].

وعن عمر بن الخطاب بالجابية قال: « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا مثل مقامي فيكم فقال احفظوني في أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل وما يستشهد ويحلف وما يستحلف »[٤].

---

(١) العلامة: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت:١١٦٢هـ) – كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس – كشف الخفاء ج: ١ ص: ١٤٧ – رقم: ٣٨١.

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم باب بيان أن بقاء النبيّ صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة. في الحديث رقم (٢٥٣١). وذكره الإمام النووى فى شرح مسلم فى الحديث رقم: ٢٠٧ م٨ ص٢٩٨ دار الفجر للتراث القاهرة، وأخرجه الإمام: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت: ٣٥٤) – صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان – ج:١٦ ص: ٢٣٤ – باب فضل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم – الحديث رقم:٧٢٤٩ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٣م – ط الثانية – تحقيق شعيب الأرنؤوط.

(٣) العلامة الإمام: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (٢٠٩هـ/٢٧٩هـ) – الجامع الصحيح سنن الترمذي – ج: ٥ ص: ٦٩٦ الحديث رقم: ٣٨٦٢ (راويه عبدالله بن مغفل)– طبعة دار إحياء التراث العربي– بيروت – تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون .

(٤) الإمام محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (٢٠٧هـ/٢٧٥هـ) – سنن ابن ماجه – سنن ابن ماجه ج:٢ ص٧٩١ – الحديث: ٢٣٦٣ –دار الفكر–بيروت – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والمستدرك على الصحيحين ج:١ ص:١٩٩ – الحديث:٣٩٠، وراجع المعجم الأوسط ج٢ ص٣٠، ج٧ص١٩٣

وعن سالم عن أبيه: « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حفظني في أصحابي ورد علي حوضي ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرني يوم القيامة إلا من بعيد »[١]،

[٥] **عرفه الشيخ الزاوى** بأنه علم يقوم على مجموعة من المبادئ والآداب الإسلامية التى يمارسها أهل الصفاء الإلهى فى مجتمعاتهم وخلواتهم. بحيث لا يكون غرضهم من ذلك إلا رضوان الله مهما قال عنهم الآخرون[٢]. فشهادة الخصوم إن كان فيها قدح رفضت، وإن كان فيها شيء من المدح الموضوعي قبلت. وقديما قيل: الفضل ما شهدت به الأعداء، فمهما قال خصوم التصوف والصوفية، فإن أقوالهم لا تخرج عن كونها تنفيسات عن بعض ما تكنه صدورهم.

۞ **وفى تقديرى**: أن هذا التعريف قد نظر إلى النتائج التى انتبى إليها الصوفية من الناحية السلوكية، ثم سجلوها لتكون قواعد لمن يجيء بعدهم حتى يرتاد الطريق الصحيح، دون أن يقع فى طرق معوجة، لأن الطريق الصحيح إلى الله تعالى واحد يدعو إليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة. رفعل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وعلى نفس المنهج سار التابعون وأهل الصفاء بالله رب العالمين[٣]، إلى يومنا هذا، بل سيظل ذلك ديدنهم مادام أمر الإسلام قائما.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٤)، قال ابن كثير: « عن ابن عباس في قوله ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وفي قوله أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ونحو هذا في القرآن قال أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن

---

(١) العلامة سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (٢٦٠هـ/٣٦٠هـ) - المعجم الكبير - ج:١٢ ص: ٢٨٣ - الحديث: ١٣١٢٥ - مكتبة العلوم والحكم- الموصل١٤٠٤هـ-١٩٨٣م - ط الثانية - تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

(٢) الشيخ محمد بن على النعمانى - تبصرة العارفين ص٧٢ - ط الدار النعمانية ١٣٠٨هـ.

(٣) العلامة الشيخ عبدالخالق الوردانى - التصوف الإسلامى ص٩٥ .

(٤) سورة الأنعام - الآية ١٥٣ .

الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله تعالى ››[١].

وعن جابر بن عبد الله[٢] قال ‹‹ كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطا وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله ثم تلا هذه الآية وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله الآية ››[٣]. وعن ابن مسعود قال ‹‹ خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو له ثم قرأ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله الآية كلها ››[٤].

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج١ ص١٩٠ طبعة دار الحديث.

(٢) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي يكنى أبا عبدالله وأبا عبدالرحمن وأبا محمد أقوال أحد المكثرين عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من الصحابة وله ولأبيه صحبة وفي الصحيح عنه أنه كان مع من شهد العقبة. روى مسلم من طريق عن أبي الزبير أنه سمع جابرا يقول غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة قال جابر لم أشهد بدرا ولا أحدا منعني أبي فلما قتل لم أتخلف، وعن جابر قال استغفر لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمل خمسا وعشرين مرة أخرجه أحمد وغيره عن أبي الزبير عنه. وقال قتادة قال كان آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موتا بالمدينة جابر، حيث سنة أربع وسبعين، ويقال: إنه عاش أربعا وتسعين سنة. راجع الإصابة لابن حجر – وجدت في: الجيم بعدها الألف.. في الفصل: ١٠٢٧[ص:٤٣٤]

(٣) الإمام محمد بن ماجة القزويني – سنن ابن ماجه ج١ ص٦ – [١] باب اتباع سنة رسول الله ﷺ .الحديث:١١، وورى أحمد في مسنده بلفظ عن جابر قال ‹‹ كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطا هكذا أمامه فقال هذا سبيل الله عز وجل وخطين عن يمينه وخطين عن شماله قال هذ: سبيل الشيطان ثم وضع يده في الخط الأسود ثم تلا هذه الآية وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ›› [مسند أحمد ج٣ ص٣٩٧ – الحديث:١٥٣١٢].

(٤) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج١ ص١٨١ – ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبع السبل دون لزوم الطريق الذي هو الصراط المستقيم الحديث:٧، وأخرجه الدارمي – سنن الدارمي ج١ ص٧٨ – الحديث:٢٠٢، وأحمد – مسند أحمد ج١ ص٤٣٥ – الحديث:٤١٤٢، وروى الحاكم بلفظ عن عبد الله قال ‹‹ خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا وخط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطا ثم قال هذا صراط ربك مستقيما وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبع السبل فتفرق بكم عن سبيله ›› [الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٢٦١ الحديث: ٢٩٣٨، وأخرجه ابن منصور – سنن سعيد بن منصور ج٥ ص١١٢ – الآية ١٥٣ قوله عز وجل وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ...– الحديث: ٩٣٥]

وعن عبد الله بن عمر[١] « سأل عبد الله عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه وطرفه في الجنة »[٢]. وعن النواس بن سمعان[٣] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولاتفرجوا وداع يدعو من فرق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الآبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم

---

(١) عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوى أبوه الصحابى الجليل خليفة المسلمين الثانى عمر بن الخطاب ﷺ ، وأمه زينب بنت مظعون الجمحية . ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما جزم به الزبير بن بكار قال هاجر وهو بن عشر سنين وكذا قال الواقدي حيث قال مات سنة أربع وثمانين وقال بن منده كان بن إحدى عشرة ونصف ونقل الهيثم بن عدي عن مالك أنه مات وله سبع وثمانون سنه فعلى هذا كان له في الهجره ثلاث عشرة وقد ثبت عنه أنه كان له يوم بدر ثلاث عشرة وبدر كانت في السنة الثانية وأسلم مع أبيه وهاجر وعرض على النبي صلى الله عليه وسلم ببدر فاستصغره ثم بأحد فكذلك ثم بالخندق فأجازه وهو يومئذ بن خمس عشرة سنه - راجع الإصابة فى تمييز الصحابة - (العلامة شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ) ، فما ورد عن اسم عبدالله رقم ٤٨٣٧ .

(٢) العلامة الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج١ ص١٩١ طبعة دار الحديث.

(٣) النواس بن سمعان الكلابي ويقال الأنصاري له صحبة ويقول من ينسبه النواس بن سمعان بن خالد بن عبد الله بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة روى عن النبي، روى عنه جبير بن نفير الحضرمي وأبو إدريس الخولاني ، قال أبو عمر بن عبد البر يقال إن أباه سمعان بن خالد وفد على النبي فدعا له رسول الله وأعطاه نعليه فقبلهما رسول الله وزوجه أخته فلما دخلت على النبي تعوذت منه فتركها وهي الكلابية روى له البخاري في الأدب والباقون. [راجع تهذيب الكمال ج٣٠ ص٣٧ - من اسمه نواس ونوح - رقم:٦٤٨٦، رجال مسلم ج٢ ص٢٩٦ رقم:١٧٣٠]

الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم ››[1].

وقوله تعالى فاتبعوه ولاتتبعوا السبل ‹‹ إنما وحد سبيله لأن الحق واحد ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها. قال تعالى ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[2] ››[3].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال ‹‹ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يبايعني على هذه الآيات ثم قرأ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾[4]، حتى ختم الآيات الثلاث فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص شيئا أدركه الله بها في الدنيا كانت عقوبته ومن أخر إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ››[5].

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٤ ص١٨٢ – الحديث: ١٧٦٧١ ، وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٤٤ – الحديث: ٢٤٥ ، وأخرج الترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص١٤٤ – [٤٥] كتاب الأمثال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] باب ما جاء في مثل الله لعباده – الحديث: ٢٨٥٩ بلفظ عن النواس بن سمعان الكلابي قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه » وبنفس اللفظ رواه أحمد – مسند أحمد ج٤ ص١٨٣ – الحديث: ١٧٦٧٣ ، وأخرجه المنذرى – الترغيب والترهيب ج٣ ص١٧١ – الحديث: ٣٥٣٦

(٢) سورة البقرة – الآية ٢٥٧ .

(٣) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٢ ص١٩٢ .

(٤) سورة الأنعام – من الآية ١٥١ .

(٥) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٣٤٨ – الحديث: ٣٢٤٠ .

وقال صاحبا الجلالين: « وأن هذا الذي وصيتكم به صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الطرق المخالفة له فتفرق فيه تميل بكم عن سبيل دينه ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[2].

يقول الحافظ ابن كثير: « لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى وهذا صراط ربك مستقيما أي هذا الدين الذي شرعناه لك يامحمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم، عن علي في نعت القرآن هو صراط الله المستقيم وحبل الله المتين وهو الذكر الحكيم »[3].

فعن الحرث قال « مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث قال وقد فعلوها قلت نعم قال أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور »[4].

---

(١) العالمان الجلال المحلي، والجلال السيوطي – تفسير الجلالين ج: ١ ص: ١٩٠ ط١ دار الحديث – القاهرة (بدون).

(٢) سورة الأنعام – الآية ١٢٦ .

(٣) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٢ ص: ١٧٦/١٧٧.

(٤) الإمام الترمذي – سنن الترمذي ج٥ ص١٧٢ – [١٤] باب ما جاء في فضل القرآن – الحديث: ٢٩٠٦، وأخرجه الدارمي – سنن الدارمي ج٢ ص٥٢٦ – الحديث: ٣٣٣١ ، مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص١٢٥ – الحديث: ٣٠٠٠٧ .

وعن معاذ بن جبل[1] قال « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الفتن فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب يا رسول الله فما المخرج منها فقال كتاب الله فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم من تركه من جبار قصمه الله ومن تتبع الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم هو الذي لما سمعته الجن قالت إنا سمعنا قرآنا عجبا هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه كثرة الرد »[2].

" قد فصلنا الآيات " « أي وضحناها وبيناها وفسرناها لقوم يذكرون أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله لهم دار السلام وهي الجنة عند ربهم أي يوم القيامة وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم فكما سلموا من آفات الاعوجاج »[3].

[٦] **عرفه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري بأنه** « علم تعرف به أحوال تزكية النفس وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية »[4]، وهو على هذا علم مراقبة للنفس الإنسانية المسلمة القائمة على شرع الله، حتى تتحقق بمقام الإحسان وفى الحديث الشريف: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا

---

(١) معاذ بن جبل أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي سلمى شهد بدرا مع النبي توفى وهو بن ثمان وعشرين سنة، نزل الشام، له صحبة، روى عنه عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن العباس وعبد الله بن أبى أوفى وأنس بن مالك ... وغيرهم. [راجع الجرح والتعديل ج٨ ص٢٤٤ – باب تسمية من روى عنه العلم ممن يسمى معاذ رقم:١١١٠]

(٢) العلامة الطبرانى – المعجم الكبير ج٢٠ ص٨٤ رقم:١٦٠ .

(٣) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٢ ص: ١٧٧/١٧٦، وفى الحديث الشريف : « عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما وخط عن يمينه وشماله ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »(الإمام أحمد بن حنبل – مسند الإمام أحمد – الحديث رقم: ١٤٦٥ ، والحديث سبق تخريجه).

(٤) شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصارى – هوامش الأنصارى على الرسالة القشيرية ص١٢ – ط١ محمد على صبيح .

تراه فإنه يراك »[1]، حيث تركوا فلا تقع فى شيء تلام عليه، وهى النفس المطمئنة التى تنعم برضوان الله تعالى. قال جل شأنه فى حقها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2].

۞ **قال العلامة ابن عاشور**: « والمطمئنة: اسم فاعل من اطمأن، إذا كان هادئا غير مضطرب ولا منزعج، فيجوز أن يكون من سكون النفس بالتصديق، لما جاء به

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:١ ص٣٩ – الحديث رقم: ٩ وهذا جزء من حديث طويل رواه أبو هريرة وعمر رضى الله عنه ونصه . عن أبى هريرة قال: « قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله ما الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر قال يا رسول الله ما الإسلام قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال يا رسول الله ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك قال يا رسول الله متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها وإذا تطاول رعاء البهم في البنيان فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير قال ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ردوا علي الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم ».
وراجع أيضا صحيح مسلم ج: ١ ص: ٤٠ – الحديث: ١٠ وأخرجه البخارى فى صحيحه ج١ ص٢٧، ج٤ ص١٧٩٣، وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه ج٤ص٥، وابن حبان ج١ ص٣٩١. ص٣٩٨، ومسند أبى عوانة١ ج٤ ص١٩٤، وسنن الترمذى ج٥ ص٦، ومجمع الزوائد ج١ ص٣٨. وسنن البيهقى الكبرى ج١٠ ص٢٠٣، وسنن النسائى ج٨ ص٩٩، ص١٠٢، وسنن ابن ماجه ج ص٢٤، ٢٥، ومصنف ابن أبى شيبة ج٥ ص١٥٧، ومسند أحمد ج١ ص٥١، ٣١٩، وج٢ ص١٠٧، ص٤٢٦، والمعجم الكبير ج١٢ ص٤٣٠، ج٢٠ ص١٦٥ .

(٢) سورة الفجر – الآيات ٢٧/٣٠ .

القرآن الكريم دون تردد ولا اضطراب بال، فيكون ثناء على هذه النفس، ويجوز أن يكون من هدوء النفس بدون خوف ولا فتنة فى الآخرة »[١].

۞ **وذكر الإمام القرطبى**: « والنفس المطمئنة: الساكنة الموقنة، أيقنت أن الله ربها؛ فأخبتت لذلك[٢]، قال ابن عباس: وأى النفس المطمئنة بثواب الله، وعنه المؤمنة، وقال الحسن: المؤمنة الموقنة، وعن مجاهد أيضا الراضية بقضاء الله التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، وقيل: التى عملت على يقين بما وعد الله فى كتابه. وقال ابن كيسان[٣] : المطمئنة هنا المخلصة. وقال ابن عطاء[٤]: العارفة التى لا تصير عنها طرفة عين. وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى. بيانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٥]. وقيل المطمئنة بالإيمان المصدقة بالبعث والثواب. وقال ابن زيد[٦]: المطمئنة؛ لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع »[٧].

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير – ج٣٠ ص٣٤٢ ، وهو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكين بتونس، من أشهر مؤلفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية، وتفسير التحرير والتنوير. توفى سنة ١٣٩٣هـ. (الأعلام للزركلى جـ٦ ص١٦٤) .

(٢) نسب هذا القول إلى العلامة مجاهد ومن يشاركه فى الرأى.

(٣) ابن كيسان : هو الحسن بن أحمد بن كيسان الحربى المعمر الثقة النحوى، وثقة بعض الأئمة. توفى فى شوال سنة ٣٥٨هـ. سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٢٧٤ .

(٤) ابن عطاء : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهيل بن عطاء، الزاهد العابد البغدادى . قيل كان له فى كل يوم ختمة، وبقى فى ختمة مفردة بضع عشرة سنة يتفهم ويتدبر. توفى فى ذى القعدة سنة ٣٢٩هـ. سير أعلام النبلاء ج١١ ص٢٨٢ .

(٥) سورة الرعد – الآية ٢٨ .

(٦) ابن زيد : هو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العمرى المدنى، صاحب قرآن وتفسير. توفى سنة ١٨٢هـ. سير أعلام النبلاء ج٧ ص٥٨١ .

(٧) الجامع لأحكام القرآن – القرطبى – ج١٠ ص٧١٤٨ .

❁ **وقال الإمام ابن القيم**[١]: « تسمى النفس بالنفس المطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب سائر ما سواه، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده، تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به ويبصر به، ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذى أنزله الله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ »[٢].

ثم هو علم تصفية الأخلاق وتنقيتها، حتى لا يكون فيها شيء من الحقد أو الحسد فقط، بل ولا يقترب شيء منها مما تجرى به وساوس النفس البشرية، بحيث يسيء إلى الأخلاق الراقية، ففى الحديث الشريف: عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون »[٣]، وعن عبد الله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من

---

(١) ابن قيم الجوزية: هو أبو عبدالله شمس محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعى الدمشقى. من أركان الإصلاح الإسلامى، وأحد كبار العلماء، مولده ووفاته بدمشق. ولد سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م، وتوفى سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م. تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان حسن الخلق محبوبا عند الناس، له تصانيف كثيرة من أشهرها: الروح، الفوائد، طب القلوب، أعلام الموقعين، زاد المعاد، وغيرها. الأعلام للزركلى ٥٦/٦.

(٢) كتاب: الروح للعلامة ابن القيم ص٢٩٢، والآية من سورة الرعد – الآية ٢٨.

(٣) الإمام محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي المولود فى ٢٠٩هـ والمتوفى فى٢٧٩هـ – الجامع الصحيح سنن الترمذي ج:٤ ص:٣٧٠ – ٧١ باب ما جاء في معالي الأخلاق – رقم:٢٠١٨ – دار إحياء التراث العربي بيروت – عدد الأجزاء ٥ – تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.

خياركم أحاسنكم أخلاقا »[١]، وعن أبى هريرة قال « سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول خيركم أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا »[٢]،

وفوق ذلك فإن تعمير الظاهر والباطن لا يكون إلاَّ بممارسة التعاليم الإلهية الإسلامية من عقيدة وعبادة ومعاملات، فالصوفى يعمر ظاهره بالتواضع، حتى لا يرى فيه الكر أبدا، كما أنه دائما مستضيئ الوجه؛ لأن الصلاة نور فى وجه المصلى، ونور فى قلبه، ففى الحديث الشريف: عن أبي مالك الأشعري قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها »[٣].

ولاشك أنه متى زكت النفس الإنسانية بشرع الله تعالى، وتم تصفية الأخلاق من كل شائبة وعمر ظاهر المرء وباطنه بأنوار الله جل شأنه، وكان الغرض من ذلك كله بلوغ الغاية فى نيل السعادة الأبدية فى الأخرة، فإن الله تعالى يجبر العبد ويقبله من نزغات الشياطين وعثراتهم، بل ويجعله ينتصر عليهم، حتى إن الشياطين لتهرب من

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٢٤٥ – الحديث: ٥٦٨٨، وصحيح مسلم ج: ٤ ص: ١٨١٠ – الحديث٢٣٢١ .

(٢) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١ ص: ٢٩٣ – ذكر البيان بأن من خيار الناس من حسن خلقه في فقهه– الحديث: ٩١ .

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ١ ص: ٢٠٣ – كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء – الحديث: ٢٢٣. والحديث ورد ذكره فى مسند أبى عوانه١ ج١ ص١٨٩، ومسند أبى عوانة ٢ ج١ ص٢٢٣، سنن الدرامى ج١ ص١٧٤، سنن البيهقى الكبرى ج١ ص٤٢، مصنف بن أبى شيبة ج١ ص١٤، ج٦ ص١٧١، مسند أحمد ج٥ ص٣٤٢، المعجم الكبير للطبرانى ج٣ ص٢٨٤، الترغيب والترهيب ج١ ص١٥١، ج٢ ص٢٧٨، وتحفة الأحوذى ج٩ ص٣٤٩، حاشية السندى ج٥ ص٥، كشف الخفاء للعجلونى ج٢ ص٥٨ .

مواجهتهم. مثال ذلك عمر الفاروق ﷺ فقد قال رسول الله فيه « يا بن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك »[١]،

وما ذلك إلاَّ لأن الله جل شأنه استجاب لدعاء الفاروق عمر بن الخطاب، كما استجاب من قبل لدعاء سيدنا محمد ﷺ في قوله ﷺ: « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين »[٢]، فكان الذى أعز الله الإسلام به هو سيدنا عمر بن الخطاب، الذى عمر ظاهره بالإيمان، وعمر باطنه بتقوى الله والإخلاص، وكان الفاروق عمر رحمة يسوقها الله للطائعين، وعذابا يرسله الله على العاصين، وكان غرض الفاروق نيل رضوان الله تعالى، وقد تحقق له ذلك كله بفضل الله جل شأنه.

[٧] **عرفه الشيخ الأموى بأنه** علم يعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر، وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها، وتطهيرها من الصفات المذمومة والرذائل والنجاسات المعنوية التى ورد الشرع باجتنابها والاتصاف بالصفات المحمودة، وهى الصفات التى طلب الشرع الشريف تحصيلها، وكيفية السلوك مع السير نحو الله تعالى والفرار إليه[٣].

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٣ ص:١٣٤٧ – الحديث: ٣٤٨٠، وهذا جزء من حديث طويل نصه : عن سعد بن أبي وقاص قال: « استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر أضحك الله سنك يا رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب فقال عمر فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله ثم قال عمر يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إيها يا بن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك » وذكر الحديث فى صحيح البخارى أيضا ج٥ ص٢٢٥٩، وصحيح ابن حبان ج١٥ ص٣١٦، ومسند احمدج١ ص١٨٢، ومسند أبى يعلى ج٢ ص١٣٢، وكشف الخفاء ج٢ ص٤٩١ .

(٢) العلامة العجلونى – كشف الخفاء ومزيل الالباس ج١ ص٢١١ .

(٣) العلامة عماد الدين الأموى – حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب بهامش قوت القلوب ج١ ص٢٦ – المطبعة الميمنية بالقاهرة .

● **وفى تقديرى**: أن علم التصوف هو عبارة عن طريق صحيح، يرسم كيفية ممارسة المسلم لمجموعة الآداب والقيم الإسلامية على ناحية يرتبط فيها القلب مع الوجدان، والعقل مع الجنان، ارتباط الإسلام بالإيمان، حتى لا تكون هناك أدنى نسبة فى حصول المسلم على طرائق القبول من الله تعالى، وبالتالى فهو علم ممارسة، ومنهج عملى لكيفية بلوغ الغاية فى حياة روحية قوامها رضوان الله تعالى انطلاقا من النصوص الشرعية التى جاء بها خير البرية سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ.

ثالثا: الصوفية

نهص أهل العلم بالحديث المتواصل عن الصوفية، بعضه يتعلق بملامح الصوفية، والبعض الأخر بالتعريف بهم، والبعض الثالث يتعلق بالطرائق التى يمكن أن يعرفوا بها، وقدموا فى سبيل بيان ذلك مجهودات كبيرة.

وحسبى أن التقط بعضها على النحو التالى:-

[١] **ذهب العلامة الهجويري** إلى أن الصوفى هو الذى يملك ولا يملك(١)، وذلك أن الصوفى الحق يقر بأن الله تعالى إنما أعطاه الحياة الدنيا ليكون وديعة فيها، حتى إذا جاء دور الرحيل إلى الآخرة سعد العبد بالانتقال إليها، متحققا بقول النبى محمد ﷺ: « قال من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه أنا لنكره الموت قال ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما

---

(١) تكررت هذه العبارة على ألسنة الكثير من الصوفية، وبالتالى صارت كالقواعد الثابتة فلا يمنع ذلك من نسبتها للهجويرى والقشيرى والكلاباذى والجنيد وغيرهم، ولهذا نبهت حتى لا يقع باحث متسرع فى الحكم على الهجويري أو غيره بأنه نقل ولم يشر لما هو معروف من أن التعاريف الاصطلاحية تصير قاعدة يأخذ بها كل من تتوافق مع اتجاهاته العلمية مادامت العلاقة بينهما قائمة. [راجع للسراج الطوسي - اللمع ص٤٥، والرسالة القشيرية ج١ ص١٣٣٤، مع أن العبارة منسوبة فيهما لسمنون.

أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله، وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»[1].

فالصوفى لا يملك من حطام الدنيا ما يشغله عن ذكر الله تعالى، والقيام بما افترضه عليه جل شأنه، وإنما يرى فى ذلك طريقا لاستمرار علاقته بالله تعالى، فهو من هذه الناحية لا يملك، ثم إنه لا يكون عبداً لأحد سوى الله عز وجل، حتى يكون مالكا له مدبراً شئون أمره لما هو معروف من أن العبد إذا انشغل بالأعراض الزائلة ضاعت منه معالم الوصول للأسس الباقية، فمن أحب المال وتعلق به؛ كان المال هو المالك له؛ لأن العبد سيحاول تنمية ذلك المال، واستمرار المحافظة عليه، وتلمس أسباب الزيادة فيه، وحينئذ يصير العبد مملوكاً لذلك المال، يستوى فيه ذلك أنواعه جميعها.

فمن يعمل فى الذهب مثلاً؛ فإنه يبذل جهده للإتقان فيه حبا للصنعة[2]، ورغبة فى بيع الكثير منه، حتى يحول ذلك الذهب إلى عقارات أو مقومات مالية[3]، أو متقومات عينية[4]، أو المساهمة في شركات ومصانع استخراج الذهب وتصنيعه، وحينئذ يكون وقت هذا العبد مملوكاً للذهب الذى يعمل به، حتى إذا ملك أمره أنساه عبادة الله على ناحية مثلى، كما شغله عن القيام بأداء ما افترضه الله عليه، وبالتالى يصير معلوكاً للذهب لا مالكاً له.

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٥ ص:٢٣٨٦ – [٤١] باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه – الحديث : ٦١٤٢ عن أنس عن عبادة بن الصامت، وأخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:٤ ص:٢٠٦٥ [٥] باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه– الحديث: ٢٦٨٣، وأخرجه ابن حبان والترمذى والنسائى وأحمد والطبرانى .

(٢) كما يتم ذلك فى مصانع الذهب التى تستخرجه، والورش التى تصنعه، وتعده من كافة الأوجه حتى يكون معدا للتداول عن طريق التجار المشهورين ومحلات الصاغة.

(٣) كالأسهم والمستندات والحسابات البنكية الجارية والتوفيرية والأصول المتداولة على هذه الناحية، ويعرفها أصحاب الاقتصاد .

(٤) كالحال فى شراء الأراضى الزراعية والأخرى المعدة للبناء، وشراء أجزاء من المستشفيات الخاصة والشركات التى تحرص على توفير المكاسب لأصحابها.

ومن يعمل بتجارة الأوراق المالية[1]. فإنه ينشغل بها نقد إليها حتى يميز بين السليم فيها والمزيف وتعريفا بها، ومتابعة للأسعار التى تجرى فى بورصة الأوراق المالية، بخصوص كل نوع منها، ومتى انشغل بها، فقد ملكت عليه أمره، واستولت على قلبه، بل صارت هى الشغل الشاغل له، وبالتالى يصير مملوكاً لها رغم أنه مالكها المتصرف فيها، وهو المراد من قول الصوفية: إن الصوفى لا يملك ولا يملك، بل إن من ملكته مشاعر الغضب على أحد من خلق الله؛ فإنه يصير عبداً مملوكاً لها، ومثله لا يكون صوفياً، لأن التصوف صفاء قلب، ونقاء سريرة أو سلامة وجدان بعد سلامة عقيدة وحجة عبادة، واستقامة أخلاق حسب رضوان الله جل شأنه

[٢] **يذكر القشيري**: أن الصوفى هو من اختاره الله لنفسه فصافاه، وعن رغبات نفسه براه، ولم يرده إلى تعمل وتكلف[2]، فكأن لفظ صوفى قد جاء على زنة عوفى، ومعناه عافاه الله، وجاء على زنة كوفى، ومعناه كافاه الله، وجوزى فجازاه الله ففعل الله تعالى ظاهر على اسم الصوفى من غير مانعة.

ومن ثم قالوا: إن الصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة، بل للأحوال الموجودة، فهو ابن وقته سائر فى الأشياء بإرادة الله تعالى، لا بإرادة نفسه، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر، ولا فى صورة غنى، وإنما يرى الفضيلة فيما يوفقه الحق فيه[3]، وهو معنى تصفية الإنسان لله حتى يصطفيه مولاه.

ولما كان الصوفية أصحاب أحوال، فإنهم يلزمون أنفسهم أبواب العلوم والمعارف، مبتدئين بأسباب العلم وحفظ مسائله، ومجالسة العلماء، واتباع آداب الفضلاء، وللصوفية شيوخ أجلاء علماء فضلاء يأخذون عنهم، ويسلكون معهم طرائق الخير حتى يسلموا من الحيرة والفتنة، فإن لم يكن معهم من يدلهم على طريق

---

(١) مثل مكاتب الصرافة التى تعمل فى مبادلة الأوراق النقدية كالدولار واليورو والاسترليني والريال والدينار وغيرها مما يجرى تبادله فى أسواق الصرافة وينال القبول من المتداولين له.

(٢) الإمام القشيرى - الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٦ - تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف - مطبعة حسان بالقاهرة ١٩٧٤م.

(٣) الإمام أبو حفص بن محمد السهروردى - عوارف المعارف ص٥٦ بتصرف فى العبارة - طبعة الدار القومية بالقاهرة ١٩٧٣م.

الوصول، وكيفية السير فيه ويؤنسهم أثناء الانطلاق عليه، فإن الواحد منهم يتردد خيفة الوقوع في الفتنة.

بل ذكر أهل الاختصاص أن أهل الصفاء إذا لم يكن معهم في سيرهم من يعرفهم كيفية السفر، ويؤنسهم وحشة الطريق، خيف عليهم الرجوع والهلاك، وكم من سالك للطريق لم يجد معه من يؤنسه، فكانت النهاية هي ارتداده إلى طريق لا يوصل إلى الله تعالى، وقيل لبعضهم أن فلانا قد رجع فقال ما أراه قد رجع إلاَّ من وحشة الطريق وقلة سالك به[1]، حتى يؤنسه أثناء سيره فيه، ويأخذ بيديه إلى ما ينجيه

كما أن التصوف سلوك والصوفي هو الممارس لذلك السلوك، فإذا كان التصوف هو صمت في تفكير، وانعزال في تدبير، وزهد في الموجودات، واهتمام بالواجد، فإن الصوفية هم خاصة الله من خلقه، وخلاصته من عباده المختارين في أرضه. حيث طهر أسرارهم ونور أفكارهم، فهم الداعون إلى بابه حقا، الواقفون عليه، لا يبالون اعتراض جاهل أو عالم، ولا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، فعلى قدر وجود الخشية من الله تعالى في القلب يكون العلم بالله[2]، وكلما نقص ذلك القدر تلاشت الخشية. فالعلاقة بين الخشية لله والعلم بالله قائمة على الاطراد والانعكاس.

[٣] **يذهب الشيخ الأموي** إلى أن الصوفية هم الذين ورثوا علوم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، واقتفوا آثارهم، وسلكوا طريقهم، حيث رفضوا الإقبال على الدنيا وفرغوا عنها، واجتهدوا في مجاهدة أنفسهم، وكابدوا الرياضات، وصبروا على مشاق الطريق حتى وصلوا إلى مقصودهم، وظفروا بالقرب من معبودهم جل شأنه. وخصوا بعلوم عالية، وأحوال شريفة ومقامات رفيعة[3]، حتى جرت عليهم الكرامات. وصارت فيهم الولاية والفراسة ومعالم الاجتهادات، ميزهم الله بحبه فأحبوه، وخصهم بأنوار رحماته فلم يحادوه، ونضرا الله وجوههم، فانطلقوا للخير والحب الإلهي فعرفوه ومارسوه.

---

(١) الشيخ أبو عبدالرحمن السلمي – طبقات الصوفية ص٢٧١ – تحقيق د: نور الدين شريبة – مطبعة المدني – القاهرة ١٩٧٦م.

(٢) الشيخ محمد الحامدي – الإنسان والاسلام ص١٧ .

٣) العلامة عماد الدين الأموي – حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب ج١ ص٢٦٤ .

ويـــ ـخفى أن الصوفية قد تحققوا بالعبودية لله، وتفردوا بمحبة الوحدا
له جل علاه، وتمسكوا بالانغماس فـي معرفـة الصفـات الإلهيـة التـي تخـص الإ
ومنهم المجتبـ ـفيهم الزاهد، ومعهم العابد الخـائف، وكلـهم راج صـابر راض بـ
قسم الله، متوكل عليه، لا يرجو سـواه. يقول الإمـام القشـيرى[1] : « منـهم مجتـهد
وزاهد، وعابد وخائف وراج، وصابر وراض ومتوكل ومحب وفان وواجد. ولهم أحوال
يكثر تعدادها »[2].

[٤] ذهب العلامة بندار الشيرازي إلى « أن الصوفى هو من اختاره الله لنفسه فصافاه، وعن شهوات نفسه براه، ولم يرده إلى العمل وتكلف بدعوى »[3]، وإنما بادله المولى وبدله وعن أحوال نفسه أماته وغيره، فلم يعد يرى فى الوجود إلاَّ الله. وا ينظر فى الكون نظرة يبتغى بها النظر إلى سواه. فصار الوجود والموجود عنده شي. واحد.

ولا يغربن عن ذى بال أن الصوفية مهما تعددت تعريفاتهم، فإن ذلك لا يقدم حصرا لذات التعريفات بقدر ما يقدم صورة للحياة الروحية فى الإسلام، ويكشف عن وجود رغبة دفينة فى التعرف على التصوف الإسلامى الذين عرف بهم وتميزوا بـه، وذلك كله مما يؤكد أن مهمة إيجاد تعريف واحد يجمع كـل الصوفيـة تعتـبر مسـألة صعبة جداً، لما سبق نقول به من أن التصوف والصوفية حالات ذاتية فتعريفـات كـل منهما واقعة فى هذا الاتجاه.

---

(١) القشيرى : هو الإمام الزاهد القدوة الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيرى الخرساني النيسابورى الشافعي الصوفى المفسر صاحب الرسالة . ولد سـنة ٣٧٥هـ كـان علامة فى الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة . صنف: (التفسير الكبير)، وهو من أجود التفاسير. وصنف (الرسالة) فى رجال الطريقة . توفى سـنة ٤٦٥هـ . (سير أعلام النبلاء ج١٣ ص٥٦٤) .

(٢) الإمام أبو القاسم بن هوازن القشيرى – الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٧ – تحقيـق الدكتـور عبدالحليم محمود، ومحمود بن الشريف – مطبعة حسان – القاهرة – ١٩٧٤م.

(٣) الشيخ محمود عبدالكريم – نظرات فى التصوف الإسلامى التعريف والنشأة ص٣٥ – طبعة دار الملكية ١٩٢٢م وهو قريب من تعريف القشيرى – راجع الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٦ .

أضف إلى ما سبق أن الصوفية لم يعرفوا بأنفسهم كما لم يقدموا تجاربهم الذاتية فى صورة واضحة؛ لأنهم دائما يتمسكون بعبارتهم الشهيرة أخشى إن أفصح ما فضح، كما أخشى أن أبوح فتقف فى وجهى الصروح[1]، وغرضهم من ذلك أن الصوفى تظل تشغله الذات الإلهية حتى ينصرف عن كل شيء إلا الله جل علاه. فإذا استمر ذلك الحال يطاوعه استبد به حتى صار هو المقام الذى لا يتزحزح عنه. فإذا أتته الأنوار الإلهية، وراحت تلقى عليه من الفيوضات الربانية، فإنه يتمسك بها، ويخشى أن يحدث أحدا عنها؛ لأن لذتها قد غلبت عليه وحده، وهو لا يريد أن يقاسمه أحدا تلك اللذة، كالحال مع نبى الله موسى، فإنه لما رجع من ميقات رب، وبعد أن كلمه مولاه، حجب سمعه عن الناس، حتى لا يسمع كلاما غير كلام الله. لما لكلام الله من لذة لا يمكن أن تدانيها لذة.

كما أنه من شدة حبه للذات الإلهية؛ فإنه يخشى الإفصاح عن التنزلات الإلهية التى تأتيه حتى لا تصرفه تلك المظاهر الحكوية عن استمرار القيام بنفس الورد، فإنه إذا انشغل بذلك الإفصاح توقفت مصادر التكرمات الإلهية عن مجيئها إليه؛ لأن انقطاعها عنه قد يكون بسبب انشغاله بمكانتها، فتحل الحكاية محل التنزل، وتقوم الرواية مقام الدرامة، وذلك ما لا يحمده الصوفى؛ لأن أهم شاغل له هو الذات الأقدس جل علاه[2].

۞ **وفى تقديرى:** أن الصوفى قد عرف بالعديد من التعريفات بعضها راجع لملاحظة التطورات التى تلاحق هؤلاء القوم، وبعضها مرده إلى القوم أنفسهم، والبعض الآخر راجع إلى خصوم التصوف والصوفية معاً، وبعضها الأخير قائم فى تصورات أتباع الصوفية الذين تعلقوا بهم إلى الحد الذى أنساهم أحوال أنفسهم، كما أنساهم تناول تلك القضايا فى شيء من الحيدة والموضوعية[3]، ولكل وجهة هو موليها، ولكن الاستباق إلى الخيرات هو شأن أهل الإسلام على الدوام.

---

(١) الشيخ طوقان فرغان المتهم – التصوف حركة واعية ص٢١ – دار وجدى بالدولة العثمانية ١٣٠٨هـ

(٢) الشيخ محمود عبدالكريم – نظرات فى التصوف الإسلامى التعريف والنشأة ص٤١ .

(٣) الملاحظ أن خصوم التصوف والصوفية دائما يتصيدون الأخطاء ويتعمدون الإساءة للتصوف والصوفية. وكأن هؤلاء الخصوم قد أنابهم الله تعالى عنه فى الحكم على اعتقادات الآخرين، ومن ثم تجد عبارات هؤلاء الخصوم قاسية وفيها أحكام لا تليق بمسلم، حتى تصدر عنه، وعلى العكس من ذلك نجد الصوفية لا يردون السيئة بمثلها، وإنما يتمسكون بقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة الشورى – من الآية ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التغابن ١٤].

إذن الصوفي هو من ملك نفسه فباعها لربه، واختاره مولاه فصافاه، حتى أورثه علم الأنبياء، وأجرى على يديه ما خالف به العادات، فجاء دليلا على حسن الاعتقادات، وسلامة العبادات وإخلاص القلب والقسمات، وأنه الممارس للتصوف السالك به طريق الحق المبتعد عن الغوايات، فهو في كل أحواله مع الله جل شأنه مبدع الكائنات، وفي كل مقاماته منتصب لله واهب الملكات، بارئ الأرض والسماوات.

وكأني بالصوفي تحقق بقوله الله تعالى لموسى الكليم: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[1].

❁ **يقول الإمام القرطبي** : « قوله تعالى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري فيه سبع مسائل. أذكر منها:

☆ **المسألة الأولى** :اختلف في تأويل قوله لذكري فقيل يحتمل أن يكون المعنى أقم الصلاة لتذكرني فيها[2]، ويحتمل أن يكون المعنى لأذكرك بالمدح في عليين بها[3]، وقيل المعنى أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى الله تعالى وقيام بين يديه[4]، وعلى هذا فالصلاة هي الذكر وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا في قوله "فاسعوا إلى ذكر الله"[5]، وقيل المراد ...

---

(١) سورة طه – الآية ١٤ .

(٢) مع ملاحظة نفس العلية فإن أفعال الله تعالى غير معللة بعلة راجعة لله تعالى، ومع ذلك فغيها علل وفوائد راجعة للعباد أنفسهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٨٣].

(٣) قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة المطففين – الآيات ٢١/١٨]

(٤) ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ١ ص: ٣٥٠ – [٤٢] باب ما يقال في الركوع والسجود الحديث: ٤٨٢].

(٥) سورة الجمعة – من الآية ٩ .

نسيت فتذكرت فصل كما في الخبر فليصلها إذا ذكرها أي لا تسقط الصلاة بالنسيان.

☆ **المسألة الثانية**: روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل قال: أقم الصلاة لذكري[١].

وعن أنس بن مالك قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال كفارتها أن يصليها إذا ذكرها[٢]، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها فقوله فليصلها إذا ذكرها دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل كثرت الصلاة أو قلت وهو مذهب عامة العلماء

وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمها قضاء قلت أمر الله تعالى بإقامة الصلاة ونص على أوقات معينة فقال أقم الصلاة لدلوك[٣] الشمس الآية وغيرها من الآي ومن أقام الليل ما أمر بإقامته بالنهار أو بالعكس لم يكن فعله مطابقا لما أمر به ولا ثواب له على فعله وهو عاص[٤]، وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات

---

(١) الطبراني – المعجم الأوسط ج٦ ص١٨٢ الحديث: ٦١٢٩، صحيح ابن خزيمة ج٢ ص١٠٠ – [٤٠٧] باب الناسي لصلاة الفريضة يذكرها بعد ذهاب وقتها – الحديث: ٩٩٨.

(٢) الإمام النسائي – سنن النسائي (المجتبى) ج١ ص٢٩٣ – [٥٣] باب فيمن نام عن صلاة الحديث: ٦١٤، مسند أحمد ج٣ ص٢١٦ – الحديث: ١٣٢٨٥، صحيح ابن خزيمة ج٢ ص٩٦ – الحديث: ٩٩١

(٣) يقول العلامة الرازي: «دَلَكَ الشيء من باب نصر و دَلَكَتِ الشمس زالت وبابه دخل ومنه قوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقيل دُلُوكُها غروبها و الدَّلُوكُ بالفتح ما يدلك به من طيب وغيره و تَدَلَّك الرجل دلك جسده عند الاغتسال» [مختار الصحاح ج: ١ ص: ٨٧]، «دلُوكُها: غروبها . تقول العرب دَلَكَتْ براحِ . دلكت الشمس: إذا زالت، وإذا غابت، قيل: لأن الناظر إليها يدلك عينه» [الفائق ج١ ص٤٣٦]

(٤) لأن الله تعالى أمرنا بإقامة الصلاة في أوقاتها، التي حددها جل شأنه في الصلوات الخمس المفروضة، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا.

وقته ولولا قوله عليه الصلاة والسلام من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها.

- ❖ وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء، لأن القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول، فأما من ترك الصلاة متعمدا فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه وإن كان عاصيا، والفرق بين المتعمد والناسي والنائم حط المأثم فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون.

والحجة للجمهور قائمة قوله في وجوه تعالى أقيموا الصلاة ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها وهو أمر يقتضي الوجوب[1]:

- ❖ **الثاني** : ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي للصلاة مع أنهما غير مأثومين[2] فالعامد أولى
- ❖ **الثالث** : قوله ﷺ من نام عن صلاة أو نسيها والنسيان الترك قال الله تعالى ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[3]، ﴿ ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾[4]، سواء أكان مع ذهول أم لم يكن لأن الله تعالى لا ينسى وإنما معناه تركهم، لأن النسيان بالنسبة لله تعالى يمكن أن يكون معناه الترك من ذلك قوله تعالى: "ما ننسخ من آية أو ننساها" أي نتركها وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره قال الله تعالى من

---

(١) راجع السلسبيل فى معرفة الدليل ، وزاد المستقنع للشيخ إبراهيم البليهى، وكذلك الدين الخالص للشيخ السبكى .

(٢) للحديث الشريف « قوله ﷺ : رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل »(الإمام أبو داود – سنن أبى داود ج٤ ص ١٣١ – كتاب الحدود – باب فى المجنون يسرق أو يصيب حداً – تحقيق صدقى محمد جميل – دار الفكر ١٩٩٤م) ورواه النسائى بلفظ: « رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، والصبى حتى يحلم، والنائم حتى يستيقظ» (الحديث أخرجه النسائى فى كتاب الطلاق – باب من لا يقع طلاقه – جـ٦ ص١٥٦، وأبو داود فى كتاب الحدود باب: فى المجنون يسرق أو يصيب حدا رقم: ٤٤٠٢، الترمذى: كتاب الحدود – باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، حديث رقم ١٤٢٣، وقال حسن غريب).

(٣) سورة التوبة – من الآية ٦٧ .

(٤) سورة الحشر – من الآية ١٩ .

ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي[1] وهو تعالى لا ينسى وإنما معناه علمت فكذلك يكون معنى قوله إذا ذكرها أي علمها

❖ **الرابع**: فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها وهي مما يسقطها الابراء كان في ديون الله تعالى ألا يصح فيها الابراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه[2]،

❖ **الخامس**: اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بغير عذر لوجب قضاؤه[3]، فكذلك الصلاة فإن قيل فقد روى عن مالك من ترك الصلاة متعمدا لا يقضي أبدا فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود أو يكون كلاما خرج على التغليظ[4].

كما روي عن ابن مسعود وعلي أن من أفطر في رمضان عامدا لم يكفره صيام الدهر وإن صامه ومع هذا فلابد مَن توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء أو اتباعه بالتوبة ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أفطر يوما من رمضان متعمدا لم يجزه صيام الدهر وإن صامه[5].

---

(١) ففى الحديث الشريف عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [illegible] وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في [illegible] ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ هم خير منهم وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا وإن [illegible] إلي ذراعا تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرول » [الإمام مسلم – صحيح مسلم [illegible] – [٤٨] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – [١] باب الحث على ذكر الله تعالى الحديث: ٢٦٧٥].

(٢) والمقايسة قائمة فى الشاهد والغائب، بل العقل يق بأن ما فرضه الله لا يسقط إلاَّ بشرع من الله تعالى.

(٣) لقوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة – من الآية ١٨٤]

(٤) ولا يحمل كلام الإمام مالك على إهمال الشرائع، وإنما على أن الإمام مالكا يرى القضاء لها غير كاف.

(٥) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٢ ص٦٨٣ – [٢٩] باب إذا جامع في رمضان الحديث :١٨٣٢، والترغيب والترهيب ج٢ ص٦٥ الحديث :١٥٠٩.

وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ، وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح وفي بعضها قضاء اليوم والحمد لله تعالى

☆ **المسألة الثالثة** : قوله عليه الصلاة والسلام من نام عن صلاة أو نسيها فالحديث يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ والمراد بالرفع الغرب وهذا نص في البداءة بالفائتة قبل الحاضرة ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيق[1] غير ممتد في الأشهر عندنا وعند الشافعي فعن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى فأمر بالأذان بلالا فقام فأذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ثم أقام فصلى المغرب ثم أقام فصلى العشاء[2].

وبهذا استدل العلماء على أن من فاتته صلاة قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها في وقت واحد واختلفوا إذا ذكر فائتة في مضيق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال:

- **القول الأول** : يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة وبه قال مالك والليث والزهري وغيرهم كما قدمناه.
- **القول الثاني** : يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعي وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهب من أصحابنا.
- **القول الثالث** : يتخير فيقدم أيتهما شاء وبه قال أشهب وجه الأول كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة قاله القاضي عياض واختلفوا في مقدار اليسير فعن مالك الخمس فدون وقد قيل الأربع فدون لحديث جابر ولم يختلف المذهب أن الست كثير السادسة وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به يتمادى مع الامام حتى يكمل

---

(١) الوقت الموسع هو الذى يكفى لأداء الفرض مع زيادة، أما الوقت الضيق فهو الذى يكفى لأداء الفض فقط، أو لأداء جزء الفرض. [راجع الأحكام فى الأحكام لابن حزم، والأحكام فى أصول الأحكام للآمدي]

(٢) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج١ ص٣٣٧ – [١٣٢] باب ما جاء في الرجل تفوته الصلوات بأيتهن يبدأ – الحديث: ١٧٩.

صلاته والأصل، فعن ابن عمر قال [إذا نسي أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصل الصلاة التي نسي ثم ليعد صلاته التي صلى الإمام][1].

ثم اختلفوا فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل يصلي التي ذكر ثم يصلي التي صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين وذكر الخرقي عن أحمد بن حنبل أنه قال من ذكر صلاة وهو في أخرى فإنه يتمها ويقضي المذكورة[2]، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت واسعا فإن خشي خروج الوقت وهو فيها اعتقد ألا يعيدها وقد أجزأته ويقضي التي عليه[3]، وقال مالك من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلى منها ركعتين سلم من ركعتيه فإن كان إماما انهدمت عليه وعلى من خلفه[4]، وبطلت هذا هو الظاهر من مذهب مالك وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك لأن قوله فيمن ذكر صلاة في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلم ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلم وصارت نافلة غير فاسدة ولو انهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى السابعة.

فعن أبي قتادة قال ((خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غدا فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد قال أبو قتادة فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير حتى إبهار الليل وأنا

---

(١) الإمام مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي المولود ٩٣هـ والمتوفى ١٧٩هـ – موطأ مالك [١] كتاب وقوت الصلاة [١] باب وقوت الصلاة – ج١ ص١٦٨ – الحديث: ٤٠٦ – دار إحياء التراث العربي – مصر عدد الأجزاء ٢ – تحقيقمحمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) وهو مقتضى الحديث من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها، لأنه لا يضمن سلامة صحته. ومن ثم فإن التعجيل بالقضاء يعتبر ضرورة شرعية.

(٣) هذا متعلق بانشغال المصلى بالفائتة، لأنه لو ظل أخذا فى الانشغال فربما ظن أن التى قام بها منشغلا باطلة، وليس الأمر كذلك أبدا.

(٤) راجع أوضح المسالك فى فقه الإمام مالك فهناك أراء عديدة، واستدلالات كثيرة بجانب وجوه تحمل عليها.

إلى جنبه قال فنعس رسول الله صلى الله عليه وسلم فمال على راحلته فأتيته فدعمته
من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته قال ثم سار حتى تهور الليل مال عن
راحلته قال فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته قال ثم سار حتى إذا
كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين حتى كاد ينجفل فأتيته
فدعمته فرفع رأسه فقال من هذا قلت أبو قتادة قال متى كان هذا مسيرك مني قلت ما
زال هذا مسيري منذ الليلة قال حفظك الله بما حفظت به نبيه ثم قال هل ترانا نخفى
على الناس ثم قال هل ترى من أحد قلت هذا راكب ثم قلت هذا راكب آخر حتى
اجتمعنا فكنا سبعة ركب قال فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطريق
فوضع رأسه ثم قال احفظوا علينا صلاتنا فكان أول من استيقظ رسول الله صلى الله
عليه وسلم والشمس في ظهره قال فقمنا فزعين ثم قال اركبوا فركبنا فسرنا حتى إذا
ارتفعت الشمس نزل ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء، قال فتوضأ منها
وضوءا دون وضوء قال وبقي فيها شيء من ماء ثم قال لأبي قتادة احفظ علينا ميضأتك
فسيكون لها نبأ ثم أذن بلال بالصلاة فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين
ثم صلى الغداة فصنع كما كان يصنع كل يوم قال وركب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وركبنا معه قال فجعل بعضنا يهمس إلى بعض ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في
صلاتنا ثم قال أما لكم في أسوة ثم قال أما إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من
لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه
لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها ثم قال ما ترون الناس صنعوا قال ثم قال أصبح
الناس فقدوا نبيهم فقال أبو بكر وعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدكم لم يكن
ليخلفكم وقال الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيديكم فإن يطيعوا أبا
بكر وعمر يرشدوا قال فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمي كل شيء وهم يقولون
يا رسول الله هلكنا عطشنا فقال لا هلك عليكم ثم قال أطلقوا لي غمري قال ودعا
بالميضأة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب وأبو قتادة يسقيهم فلم يعد أن
رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنوا
الملأ كلكم سيروى قال ففعلوا فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب وأسقيهم
حتى ما بقي غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم صب رسول الله
لى الله عليه وسلم فقال لي اشرب فقلت لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله قال إن
، القوم آخرهم شربا قال فشربت وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

ـى الناس الماء جامين رواء، قال فقال عبد الله بن رباح إني لأحدث هذا الحديث في ـجد الجامع إذ قال عمران بن حصين انظر أيها الفتى كيف تحدث فإني أحد ـ تلك الليلة قال قلت فأنت أعلم بالحديث فقال ممن أنت قلت من الأنصار قال حد.. فأنتم أعلم بحديثكم قال فحدثت القوم فقال عمران لقد شهدت تلك الليلة وما شعرت أن أحدا حفظه كما حفظته »[1]، فظاهره يقتضي إعادة القضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتي ويعضد هذا الظاهر من حديث عمران بن حصين وذكر القصة وقال في آخرها فمن أدرك منكم صلاة الغداة من غد صالحا فليقض معها مثلها[2]، وهذا ليس على ظاهره ولا تعاد غير مرة واحدة .

فعن عمران بن حصين[3] قال سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة[4]، أو قال في سرية فلما كان وقت السحر عرسنا فما استيقظنا حتى أيقظنا حر الشمس فجعل الرجل منا يثب فزعا دهشا فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس فقضى القوم حوائجهم ثم أمر بلالا فأذن

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٤٧٢/٤٧٣ – الحديث: ٦٨١ .

(٢) العلامة محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب – عون المعبود شرح سنن أبي داود ج٢ ص٧٩ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ الطبعة الثانية – عدد الأجزاء ١٠ وقال: فمن أدرك منكم صلاة الغداة أي الصبح من غد صالحا أي في وقتها المعتاد فليقض أي الصلاة الفائتة أيضا معها أي مع الصلاة الحاضرة مثلها أي مثل الصلاة الفجر الحاضرة ثم يقضي ثانيا الصلاة الفائتة بالأمس.

(٣) عمران بن حصين ابن عبيد بن خلف القدوة الإمام صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو نجيد الخزاعي، أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت سنة سبع وله عدة أحاديث، وولي قضاء البصرة وكان عمر بعثه إلى أهل البصرة ليفقههم فكان الحسن يحلف ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران بن الحصين، حدث عنه مطرف بن عبد الله بن الشخير وأبو رجاء العطاردي وزهدم الجرمي... وعدة. وقيل: ما قدم البصرة أحد يفضل على عمران بن حصين، وقال قتادة بلغني أن عمران قال وددت أني رماد تذروني الرياح. توفي عمران سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنه، مسنده مئة وثمانون حديثا. [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٥٠٨ – رقم: ١٠٥].

(٤) الغزوة هى التى يكون فيها الرسول ﷺ، أما السرية فهى التى تكون بتوجيه من النبى ﷺ لا يكون أحد أفراد هنا أثناء قيام أفرادها بواجبهم. [راجع العرب وظهور الإسلام للدكتور محمود زيادة].

فصلينا ركعتين ثم أمرنا فأقام فصلينا الغداة فقلنا يا نبي الله ألا نقضيها لوقتها من الغد فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم[1]، وقال الخطابي لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا »[2].

غير أن الصوفي يتحقق على الدوام بتوحيد الملك العلام؛ لأنه ربط نفسه به على الدوام، وقد عبر عن ذلك الشيخ ابن عجيبة حين قال: الصوفي هو من صفت أحواله ولم يبق فيه كدر أصلا؛ لأنه لا يرى في الدارين[3] سوى الله، ولا يشهد مع الحق سواه، قد سخر له كل شيء، ولم يسخر هو لشيء، يأخذ النصيب من كل شيء، ولم يأخذ منه النصيب أى شيء[4]، إنه مخلوق لربه، خاضع لسلطان مولاه، مسخر لطاعة الإله جل علاه، ومثله في بنى الإنسان قليل. قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[5]. قال ابن كثير: « هذا إخبار عن الواقع »[6].

والذى تطمئن إليه النفس أن هناك علاقة وطيدة بين التصوف وعلم التصوف والصوفية تقوم تلك العلاقة على أن التصوف ممارسة الآداب الإسلامية على النحو الذى شرعه الله تعالى، وعلم التصوف هو الطريقة التى تعلم الممارسة لتلك الآداب الإسلامية على ناحية شرعية، أما الصوفي فهو الذى يمارس التصوف، ويحرص عليه من خلال الطريقة الشرعية المعينة على إنجاح تلك الممارسة المشروعة من قبل الله تعالى طبقا لما فهمه كل منهم على ناحية النقل المنزل - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة - الذى قاده إليه عالم جليل، وشيخ مقدم فى الورع والعلم والدين.

---

(١) العلامة - البيهقي سنن البيهقي الكبرى ج٢ ص٢١٧ - الحديث: ٢٩٩٤ ، وأخرجه الدار قطني - سنن الدارقطني ج١ ص٣٨٥ [٥٩] باب الحث على صلاة الجماعة والأمر بها الحديث: ١١.

(٢) العلامة القرطبي - الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي ج: ١١ ص: ١٨١/١٧٧ .

(٣) هما الدار الفانية، ودار الآخرة الباقية، والصوفي الحق يقدم الباقية، ولا يهتم كثيرا بالفانية.

(٤) الإمام ابن عجيبة - الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ص٧ .

(٥) سورة سبأ الآية ١٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ج: ٣ ص: ٥٣٠

إذن الصوفى عالم بالله عامل بما يأمره به مولاه، مقيم على ما شرع الله. لا يعرف الجهل إليه طريقا على سبيل الممارسة له أو التعامل مع الموسومين به لقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير** : « قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله خذ العفو يعني خذ ماعفي لك من أموالهم وما أتوك به من شيء فخذه وكان هذا قبل أن تنزل فى سورة التوبة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات[2]، وعن ابن عباس خذ العفو انفق الفضل، وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم خذ العفو معناه أمره الله تعالى بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ثم أمره بالغلظة عليهم[3]، وقال غير واحد من أهل العلم خذ العفو معناه من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تحسس وقال هشام بن عروة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس[4]، وفي رواية قال خذ ماعفى لك من أخلاقهم، وعن ابن الزبير خذ العفو قال من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ماصحبتهم.

عن أبي هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وادخله الجنة برحمته قالوا ما هن يا نبي الله بأبي انت

---

(١) سورة الأعراف – الآية ١٩٩ .

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة – الآية ٦٠].

(٣) هذا القول اختيار الإمام ابن جرير وهو صاحب اتجاه فى التفسير بالمأثور، وهو « محمد بن جرير الطبري الإمام المفسر أبو جعفر شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الباهرة توفي سنة عشر وثلاث مائة ثقة صادق » [العلامة إبراهيم بن محمد بن سبط ابن العجمي أبو الوفا الحلبي الطرابلسي المولود ٧٥٣هـ المتوفى ٨٤١هـ – الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث ج١ ص٢٢١ رقم: ٦٣٤ – عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية – بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١ – تحقيق صبحي السامرائي].

(٤) وفى الحديث : « عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق» [مصنف ابن أبي شيبة ج٥ ص٢١٢ – الحديث : ٢٥٣٣٣].

وأمي قال تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عن من ظلمك قال فـاذا فعلت هذا فما لي يا نبي الله قال يدخلك الله الجنة][1].

وعن عقبة بن عامر[2] قال لقيت رسول الله صلى الله عليـه وسلم فابتدأتـه فأخذت بيده قال فقلت يا رسول الله ما نجـاة المؤمـن قـال يـا عقبـة احـرس لسـانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك قال ثـم لقيـني رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم فابتدأني فأخذ بيدي فقال يا عقبة بن عـامر ألا أعلمـك خـير ثـلاث سـور أنزلـت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم قال قلت بلى جعلني الله فداك قال فأقرأني قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم قال يا عقبة لا تنساهن ولا تبيت ليلة حتى تقرأهن قال فما نسيتهن من منذ قال لا تنساهن وما بت ليلة قـط حتى أقرأهن قال عقبة ثم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسـلم فابتدأتـه فـأخذت بيده فقلت يا رسول الله أخبرني بفواضل الأسـال فقال يا عقبة: صل من قطعك وأعط من حرمك واعرض عمن ظلمك ››[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن بن حذيفة[4]، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس[5]، ومكان مـن النفـر الذيـن يدنيـهم عمـر وكـان القـراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه قـال سأسـتأذن لـك عليـه قـال ابـن عبـاس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فدخل عليه قال هي يـا ابـن الخطـاب فـو الله مـا

---

(١) الطبراني – المعجم الأوسط ج٥ ص١٩٦ – الحديث: ٥٠٦٤.

(٢) عقبة بن عامر الجهني: الإمام المقرى أبو عبس ويقال أبو حماد ويقال أبو عمرو ويقال أبو عامر ويقال أبو الأسد المصري صاحب النبي ﷺ حدث عنه أبو الخير مرثد اليزني وجبير بن نفير وسعيد بن المسيب وأبـو إدريس الخولاني...وخلق سواهم، وكان عالما مقرئا فصيحـا فقيـها فرضيـا شـاعرا كبـير الشـأن، وكـان مـن أحسن الناس صوتا بالقرآن، وعنه أنه قال: خرجت من الشام يـوم الجمعـة ودخلـت المدينـة يـوم الجمعـة فقال لي عمر هل نزعت خفيك قلت لا قال أصبت السنة، وقال عقبـة خـرج علينـا رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم ونحن في الصفة وكنت من أصحاب الصفة وكان عقبة من الرماة المذكورين. مات رحمـه الله سـنة ثمـان وخمسين، له في مسند بقي خمسة وخمسون حديثا. [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٦٧ – رقم: ٩٠]

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٤ ص١٤٨ – الحديث: ١٧٣٧٢.

(٤) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى يكنى أبا مالك أسلم بعد الفتح وقيـل قبـل الفتـح وشـهد الفتـح مسلما وهو من المؤلفة قلوبهم وكان من الأعراب الجفاة [راجع الاستيعاب ج٣ ص١٢٤٩ قم: ٢٠٥٥]

(٥) الحر بن قيس بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري بن أخي عيينة بن حصن ذكره بن السكن في الصحابـة. وعن أبي وجزة السلمي قال لما قفل رسول الله من غزوة تبوك أتاه وفد بني فـزارة بضعـة عشـر رجـلا فيـهم خارجة بن حصن والحارث بن قيس بن أخي عيينة بـن حصـن وهـو أصغرهـم. [راجع الإصابـة ج٢ ص٥٨ رقم: ١٦٩٤].

تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل[١].

وعن عبد الله بن نافع[٢] أن سالم بن عبد الله بن عمر[٣] مر على عير لأهل الشام وفيها جرس فقال إن هذا منهي عنه فقالوا نحن أعلم بهذا منك إنما يكره الجلجل الكبير فأما مثل هذا فلا بأس به فسكت سالم وقال وأعرض عن الجاهلين.

وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمرا لنبيه صلى الله

---

(١) الإمام البخارى - صحيح البخاري ج٤ ص١٧٠٢ - [١٣٩] باب خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين العرف المعروف - الحديث: ٤٣٦٦، وأخرجه أيضا ج٦ ص٢٦٥٧ - الحديث: ٦٨٥٦، والمراد بـ: [ش (النفر) الأشخاص. (يدنيهم) يقربهم إليه في مجلسه. (القراء) الذين يقرؤون القرآن ويحفظونه ويفقهونه. (ومشاورته) يشاورهم في الأمور. (كهولا) جمع كهل وهو الذي علاه الشيب، وقيل هو من جاوز الثلاثين. (هم به) أن يعاقبه. وفي نسخة (هم أن يوقع به) أي العقوبة. (خذ العفو) اليسير، وتلبس بالسهولة من غير تشديد. (بالعرف) المستحسن من الأفعال. (أعرض عن الجاهلين) لا تقابلهم بفعلهم. /الأعراف: ١٩٩/. (ما جاوزها) لم يتعد العمل بها. (وقافا) أي إذا سمع آياته التزم أحكامه ووقف عندها ولم يتعدها].

(٢) عبد الله بن نافع من ولد الزبير بن العوام القرشي المديني سمع مالك بن أنس كنيته أبو بكر أحاديثه معروفة قال هارون بن محمد مات سنة عشرين ومائتين. [راجع التاريخ الكبير ج٥ ص٢١٣ - رقم: ٦٨٨]

(٣) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عمر القرشي العدوي ، مدني تابعي ثقة حدثني أبي عبد الله قال كان عبد الله بن عمر يقبل ابنه سالما ويقول شيخ يقبل شيخا ويقول إني أحبك حبين حب الإسلام وحب القرابة قال يحيى بن معين سمع منه محمد بن عمرو، قال الحسن بن واقع عن ضمرة بن ربيعة مات سنة ست ومائة. [راجع العلامة أحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي المولود ١٨٢هـ، المتوفى ٢٦١هـ - معرفة الثقات ج: ١ ص: ٣٨٣ رقم: ٥٤١ - مكتبة الدار - المدينة المنورة - ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ٢ - تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي، وراجع التاريخ الكبير ج٤ ص١١٥ رقم: ٢١٥٥]

عليه وسلم؛ فإنه تأديب لخلقه، باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب، وعن قتادة في قوله "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" قال: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ودله عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسكبه في بيتين فيهما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما ∴ أمرت وأعرض عن الجاهلينْ
ولِنْ في الكلام لكل الأنام ∴ فمستحسن من ذوي الجاه لينْ

وقال بعض العلماء: الناس رجلان فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر في جهله؛ فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده ››[1]. كما قال تعالى ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾[2].

كما أن الصوفى لا يخلد إلى الدنيا على سبيل الاطمئنان إليها، والطمع فيها أو الفزع عن فواتها، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ‹‹ أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" وكان بن عمر يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك ››[3].

ومع ذلك فالصوفى لا ينخلع عن الدنيا حتى يكون عالة على غيره ويلجأ الكسل، وإنما هو عنصر فعال مهم فى توجيه الحياة، لأنه يأخذ فيها نصيبه المشروع

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير ج:٢ ص: ٢٧٩/٢٧.

(٢) سورة المؤمنون – الآيات ٩٦/٩٨ .

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٥ ص:٢٣٥٨ – [٣] باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل– الحديث: ٦٠٥٣، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه ج٢ ص٤٧١، والترمذى فى سننه ج٤ ص٥٦٧، ج٥ ص٤٠٢، والبيهقى فى السنن الكبرى ج٣ ص٣٦٩، وابن ماجه فى سننه ج٢ ص١٤٧٨، وابن أبى شيبة فى مصنفه ج٧ ص٧٥، واحمد فى مسنده ج٢ ص٢٤، والطبرانى فى المعجم الصغير ج١ ص٥٩، والمعجم الكبير ج٧ ص٤٠، ج١٢ ص٣٩٨، ٤١٧ .

بلا أدنى تردد، لكن بغير طمع فيه، أو تعلق به، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

۞ **يقول الإمام الشيخ محمد عبده**[2] : « أوامر الحنيفية إن كانت تخطف العبد إلى ربه، وتملأ قلبه من رهبة، وتفعم أمله من رغبة، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تجشمه في ترك الملذات ما فوق العادة »[3].

ثم إن الصوفي ينظر للآخرة على أنها ماثلة أمامه مبتدئة بالموت، ثم القبر ثم نعيم القبر أو عذابه، ثم البعث والنشر والحشر فالحساب، ثم الميزان والجنة والنار والبقاء السرمدي في أي منهما لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[4].

۞ **يقول صاحبا الجلالين** : « فأما الذين شقوا في علمه تعالى ففي النار لهم فيها زفير وهو صوت شديد وشهيق وهو صوت ضعيف. خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض أي مدة دوامهما في الدنيا إلا غير ما شاء ربك من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له والمعنى خالدين فيها أبدا إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا بفتح السين وضمها ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا غير

---

(١) سورة القصص – الآية ٧٧ .

(٢) هو الشيخ الأستاذ الإمام محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني – مفتي الديار المصرية، من كبار رجال الإصلاح والتجديد. ولد بمصر، ونشأ في محلة نصر، توفي سنة ١٩٠٥م . راجع الأعلام للزركلي جـ٦ ص٢٥٢ .

(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية – الشيخ / محمد عبده ص ٧٠ – ط محمد على صبيح وأولاده – ١٣٧٣هـ .

(٤) سورة هود – الآيات ١٠٦/١٠٨ .

ما شاء ربك كما تقدم ودل عليه فيهم قوله عطاء غير مجذوذ ومعناه غير مقطوع وما تقدم من التأويل هو الذي ظهر وهو خال من التكلف»[١].

وفوق ذلك فالصوفي دائما يقف من نفسه موقف المؤدب لها، المهذب لمشاعرها وأحاسيسها، المنسق لكل ما فيها من رغبات وآمال، إنه يتذكر دائما قول الرسول: « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني »[٢]، وعن عمر بن الخطاب قال في خطبته: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا يخفى منكم خافية »[٣].

أضف إلى ما سبق أن الصوفي لا يحمل هما ليومه ولا غده، إنه على يقين من أن الأرزاق كلها بيد الله، وما عليه إلا العمل المشروع مع الإعتداد به، والتزام بما أمر في الشرع الشريف، آخذا بحديث رسول الله الذى يقول فيه: « أيها الناس إنه ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به وليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله فانه لا ينال ما عنده إلا بطاعته »[٤].

---

(١) العلامة جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى - تفسير الجلالين ج١ ص٣٠٠.

(٢) الإمام الترمذى - سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٦٣٨ - الحديث: ٢٤٥٩ - طبعة دار إحياء التراث العربى - بيروت (بدون) - تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون. عن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال الترمذى هذا حديث حسن، وقال ومعنى قوله من دان نفسه يقول حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ويروى عن عمر بن الخطاب قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا ويروى عن ميمون بن مهران قال لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه.

(٣) العلامة ابن أبى شيبة - مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص٩٦ رقم: ٣٤٤٥٩ عن وكيع عن جعفر بن برقان عن رجل لم يكن يسميه.

(٤) العلامة أبو عبدالله بن محمد بن أبى شيبة الكوفى - مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص: ٧٩ - رقم: ٣٤٣٣٢ عن عبدالله بن مسعود، وأخرج الحافظ نور الدين الهيثمى فى مجمع الزوائد ج: ٤ ص: ٧١ عن حذيفه، وراجع الترغيب والترهيب ج: ٢ ص٣٣٩ - رقم: ٢٦٣١، كشف الخفاء ج١ ص: ١٥٥- رقم: ٣٩٩ عن أبى أمامة، وحلية الأولياء ج١٠ ص٢٧، وأخرج العجلونى عن جابر عن رسول الله ﷺ قال: « ان روح القدس نفث في روعي ا لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » [العلامة العجلونى - كشف الخفاء ج١ ص٢٦٨ قم: ٧٠٧].

بناء على ما سبق اتضح أن هناك علاقة وثيقة بين التصوف والصوفى وعلم التصوف، وأنها تطرد على الدوام فما من صوفى إلا وهو ملتزم علم التصوف في منهجه وقواعده وقضاياه، وهو فى ذات الوقت ممسك بالتصوف على الناحية السلوكية، أو على معنى أخر هو سالك طريق التصوف؛ بغية الوصول إلى رضوان الله جل علاه.

رابعا : المتصوف

سلف الحديث عن كل من التصوف وعلم التصوف والصوفية، وبيان العلاقة التى تربط بينها جميعا، لكن التصوف يختلف عن الصوفى.

* **وبالتالى عرفوا المتصوف** بأنه الذى يمارس أفعالاً ويعتقد أقوالاً لم يقم عليها دليل شرعى، ويدعو إلى ممارستها على أوسع نطاق، فصار بما يفعله قرين كثير من أتباع إبليس، وأتباع المنجمين والسحرة والكهان ممن ينتسب إلى الفقر، وكثير ممن ينتسب إلى العلم يأتون بما يزعمونه من هذه الخوارق التى يوهمون بها الناس ويشبهون بمعجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، ومرادهم من ذلك أكل أموال الناس بالباطل، فينتج معه الصد عن سبيل الله حتى إن بعض أنواعها يعتقد فيه من يدعى أنه من العلم الموروث عن الأنبياء من علم الأسماء وهو من الجبت والطاغوت[1].

والمتصوفة بناء على ذلك يقيمون العديد من العلاقات الدنيوية بينهم وبين رغباتهم التى يحرصون عليها، وليس ذلك شأن الصوفى؛ لأن التصوف عند الصوفى هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة[2]، سوى علاقة العبودية لله، حتى قال الصوفى

---

(١) الشيخ عبدالرحمن بن قاسم العاصمي القحطانى - الدرر السنية فى الأجوبة النجدية - المجلد الأول كتاب العقائد ص٤١ -الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ط٣/١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(٢) العلامة ابن نصر السراج - اللمع ص٤٥ - تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود والاستاذ عبدالباقى سرور - طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٠م.

قديما: « كفانى فخراً أن أكون لك عبداً، وكفانى عزاً وشرفا أن تكون لى ربا »[1]؛ لأن هذه الغاية يسعى إليها الصوفى بكل ما أمكنه، أما التصوف فإنه يقيم علاقته بالله على سبيل المنفعة فإن تحققت له مآربه بقى على حاله من دعواه، وإلا فالتبدل طريقه الذى لا يحيد عنه، ومن ثم فإنه ينطبق عليه قول الله جل شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[2].

❁ **يقول صاحبا الجلالين:** « ومن الناس من يعبد الله على حرف أي شك في عبادته شبه بالحال على حرف. جبل في عدم ثباته فإن أصابه خير من صحة وسلامة في نفسه وماله اطمأن به وإن أصابته فتنة من محنة وسقم في نفسه وماله انقلب على وجهه راجعا إلى الكفر فخسر الدنيا بفوات ما أمله منها كما خسر الآخرة بالكفر ذلك هو الخسران المبين، حيث يدعو ويعبد من دون الله والأصنام وغيرها ما لا يضره إن لم يعبده وما لا ينفعه إن عبده ذلك الدعاء والضلال البعيد عن الحق. يدعو لمن ضره بعبادته أقرب من نفعه إن نفع بتخيله، لبئس المولى وهو الناصر ولبئس العشير الصاحب هو وقد أعقب الله ذكر الشاك بالخسران بذكر المؤمنين بالثواب »[3].

كما التصوف هو الذى تغلبه نزعاته، وتسيطر عليه نزواته، فيتكلم عن الله بما لا يعرف، وينسب لنفسه ما لم يقع، وبه يطيل عنقه فى الهواء، ويرفع رأسه للسماء، حتى يلتزم به التزاماً لا ينفصل عنه[4]، ومادام كذلك فهو منسوب للتصوف وليس صوفيا أبداً، بل وذلك الانتساب منه غير مقبول عند الصوفية.

---

(١) الشيخ بدوى محمد عبدالعظيم – الصوفية الأوائل ص٧٣ – طبعة أولى ١٣٢٨هـ.

(٢) سورة الحج – الآيات ١٣/١١ .

(٣) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٤٣٤

(٤) العلامة خير الدين عثمان أفندى – الصوفية والمتصوفة ص٤١ – طبعة الدار النعمانية ١٨١١هـ.

لأن الصوفى كالأرض يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالقطر يسقى كل شيء[١]، وليس المتصوف كذلك باعتبار أن المتصوف يحرص على ملذاته الذاتية، أو مطالبه الدنيوية، ويجد فى طلبها مهما كانت المبررات. أما الصوفى فهو متمسك بالفقر والافتقار إلى الله الواحد القهار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار، ثم هو – الصوفى – متمسك بترك حظوظ النفس كلها، ليكون فى معية الله وحده، باعتبار أن التصوف ترك كل حظ من حظوظ النفس[٢]، بغية أن نتحول من أمارة بالسوء[٣]، إلى لوامة[٤]، ثم تنتهى إلى المطمئنة[٥].

۞ **يقول الإمام الفخر الرازى:** « إن النفس لأمارة بالسوء، ميالة إلى القبائح، راغبة فى المعصية »[٦]، ويقول الإمام ابن القيم –: « وأما النفس الأمارة فهى المذمومة، فإنها التى تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها، إلاَّ ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلاَّ بتوفيق الله له، كما قال تعالى مخبرا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٧]، وكان النبى ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة: [الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له][٨].

---

(١) العلامة أبو حفص السهروردي – عوارف المعارف – ص٥٨ – طبعة الدار القومية – القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) العلامة أبو الرحمن السلمى – طبقات الصوفية ص١٣٣ – تحقيق دكتور: نور الدين شريبة .

(٣) قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة يوسف – الآية ٥٣].

(٤) قال تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة – الآيتان ٢/١]

(٥) يقول تعالى :﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [سورة الفجر – الآيات ٣٠/٢٧]

(٦) الإمام الفخر الرازى – مفاتيح الغيب – ج٩ ص٨٠ .

(٧) سورة يوسف – الآية ٥٣ .

(٨) الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجه باب خطبة النكاح – الحديث رقم: ١٨٩٢ عن عبد الله بن مسعود. وعن ابن عباس بنفس الباب فى الحديث رقم : ١٨٩٣.

فالشر كامن فى النفس، وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلى الله بين العبد ونفسه، هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه؛ نجاه من ذلك كله. فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه نعم المولى ونعم النصير. وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين، الأمارة واللوامة وأكرمه بالمطمئنة، فهى نفس واحدة، تكون أمارة ثم لوامة ثم مطمئنة، وهى غاية كمالها وصلاحها »[1].

❁ **ويقول الإمام ابن القيم**:« وأما النفس اللوامة، وهى التى أقسم بها سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[2]، فاختلف فيها:-

فقالت طائفة: هى التى لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم، وهو التردد، فهى كثيرة التقلب والتلون، وهى من أعظم آيات الله، فإنها مخلوقة من مخلوقاته، تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة، فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتلطف وتكثف، وتنيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتتقى، وتفجر إلى أضعاف أضعاف. ذلك من حالاتها وتلونها فهى تتلون فى كل وقت ألوانا كثيرة.

وقالت طائفة: اللفظ مأخوذ من اللوم، ثم اختلفوا، فقالت فرقة: هى نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة. قال الحسن البصرى: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائما يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام. وقال غيره: هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب، ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته.

وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين، فإن كل أحد يلوم نفسه برا كان أو فاجرا، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله، وترك طاعته والشقى لا يلومها، إلا على فوات حظها وهواها. وقالت فرقة أخرى: هذا اللوم يوم القيامة فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئا على إساءته، وإن كان محسنا على تقصيره. وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافى بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتباره سميت لوامة،

---

(١) العلامة ابن القيم – كتاب الروح – ص٣٠٠ .

(٢) سورة القيامة – الآيتان ٢/١ .

ولكن اللوم نوعان: لوامــة ملُومـة، وهـى النفـس الجاهلـة الظالـة، التـى يلومـها الله وملائكته. ولوامة غير ملومة، وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعـة الله مع بذله جهده، فهذه غير ملومة، واشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها، ولم تلم نفسها، ولم تحتمل فى الله مـلام اللـوَّام، فهى التى يلومها الله عز وجل »[1].

❊ المتصوف هو الذى يأتى المنكر ويبيح ممارسة المحظور ويترك الواجب، ثـم يدعـى أنه ولى الله، وقد سقطت عنه التكـاليف الشـرعية. يقـول أحـد البـاحثين: « إن المتصوفة هم الذين يأتون المنكرات، ويبيحون المحظـورات، ويـتركون الواجبـات، ويعدون أنفسهم من أهل الولاية أصحـاب الكرامـات، ومـا هـم إلاّ سـحرة أخـوان الشياطين أتباع المشعوذين »[2]، الذين يقع عليهم غضب الله رب العالمين.

❊ **ويقرر السهروردى** أن التصوف بالنسـبة إلى الصوفـى كـالتزهد بالنسـبة للزاهـد[3]، فالعلاقة بينهما قائمة فى مجرد الإدعاء الذى يدعيه المتصوفة، وليس له حقيقة أو صحة انتساب، ومثل ذلك يكون مرفوضا على الناحية الشرعية مهما كان لـه مـن قبول على بعض النواحى الشكلية، باعتبار أن الاتحاد فى الأشـكال الخارجيـة لا يعطى الدليل على توافقهما فى الأصول التى يقومان عليها.

❊ **يقرر الشيخ الأموري**: « أن المتصوف هو من يحاكي الصوفية فـى زيـهم وكلامـهم ومسكنهم وزهدهم، ولكنه لا يصبر صبرهم، ولا يشـكر شـكرهم، وإذا ابتلـى فإنـه يعلن الجزع، حرصه على الدنيا، وهمه بلوغ أعلى المراتب فيها، وغايته أن يذكره الناس بما لم يفعل من أوجه الخير، فهو على طريق الضلال يسير »[4]، وكأن الله

---

(١) كتاب الروح – العلامة ابن القيم – ص٢٩٨/٢٩٩ .

(٢) الأستاذ إحسان إلهى ظهير – التصوف المنشأ والمصادر ص٢٦٧ – طبعـة إدارة ترجمـان السـنة – باكستان ١٩٨٦م.

(٣) الإمام السهروردى – عوارف المعارف ص٦٦ – طبعة القاهرة .

(٤) العلامة الشيخ نجم الدين على الأموري – التصوف والمتصوفـة الأصـول والغايـات ص٣٤ – طبعـة الدار اليمنية ١٣١٨هـ.

تعالى قال فيه وأمثاله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

۞ **يقول ابن كثير** : « يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : "من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها، لم يزده الله إلاّ قلة، ففي الحديث الشريف : عن عائشة [أن امرأة قالت يا رسول الله أقول إن زوجي أعطاني ما لم يعطني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور][٢].

وقد روي أن مروان قال لبوابة: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعين! ! فقال ابن عباس: ما لكم وهذه، وإنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون * لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية، وقال ابن عباس: سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه[٣].

عن أبي سعيد الخدري[٤]: أن رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه،

---

(١) سورة آل عمران – الآية ١٨٨ .

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص٢٠٠١ – [١٠٥] باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة – الحديث رقم: ٤٩٢١، وأخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٣ ص١٦٨١ [٣٥] باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط – الحديث: ٢١٢٩.

(٣) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص٢٣٣ – الحديث: ٣٠١٤ ، وأخرجه الطبرانى – المعجم الكبير ج١٠ ص٣٠٠ – الحديث: ١٠٧٣٠.

(٤) أبو سعيد الخدرى : هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو سعيد الخدري مشهور بكنيته استصغر بأحد واستشهد أبوه بها وغزا هو ما بعدها روى عن النبي ﷺ الكثير وروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم روى عنه من الصحابة ابن عباس وابن عمر وجابر ومحمود بن لبيد وأبو أمامة بن سهل وأبو الطفيل ومن كبار التابعين ابن المسيب وأبو عثمان النهدي وطارق بن شهاب وعبيد بن عمير وممن بعدهم عطاء وعياض بن عبدالله بن أبي سرح وبشر بن سعيد ومجاهد ...وآخرون وهو مكثر من الحديث. وكان من أفقه أحداث الصحابة ومن أفاضل الصحابة، وحفظ حديثا كثيرا وروى الهيثم بن كليب في مسنده من طريق عبدالمهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال بايعت النبي صلى الله عليه وسلم أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو سعيد الخدري وسادس على ألاّ تأخذنا في الله لومة لائم فاستقال السادس وقيل مات سنة أربع وسبعين. راجع الإصابة لابن حجر – في: ذكر من اسمه سعد ساكن العين. في الفصل: ٣١٩٨[ص:٧٨]

وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزل: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية[١]،

وعن ثابت بن قيس الأنصاري[٢] قال: [قلت يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت، قال: لِمَ؟ قال: نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل وأجدني أحب الحمد، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة" فقال: بلى، يا رسول الله، فعاش حميداً وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب][٣]. وقوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب، بل لا بد لهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم ﴾ »[٤].

* **ويذهب الشيخ البنجابى** إلى أن المتصوف هو الحريص على الدنيا، المدعى للتقوى، المتصنع للزهد، الواقف على شفا جرف العابد لله على حرف، والمتصوف عالة على الصوفية، فهو لا علم له كعلومهم، ولا أدب فيه مثل آدابهم، ولا يمنعه هواه

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٦٦٤ – [٧٤] باب لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا – الحديث: ٤٢٩١ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢١٤٢ – الحديث:٢٧٧٧ ، وأخرجه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٣٦، وذكره عبدالرزاق – مصنف عبدالرزاق ج٥ ص٤٤٢.

(٢) ثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري كنيته أبو محمد وكان خطيب الأنصار وقائلهم وقد قال النبي نعم الرجل ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة في عهد أبى بكر الصديق رضه وكان أبو بكر قد أمره على الأنصار في ذلك الجيش وأمر خالد بن الوليد بن المغيرة على قريش وكان جماع الأمر الى خالد رضه. [راجع مشاهير علماء الأمصار ج١ ص١٤ – رقم:٤١، والتاريخ الكبير ج٢ ص١٦٧ – رقم:٢٠٨١].

(٣) العلامة الحافظ نور الدين الهيثمى – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٩ ص٣٢١ – باب ما جاء في ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه .

(٤) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج١ ص ٤٤٨ .

من معاداة مولاه[١]، فهو وإن عايش الصوفية وتكلم كلامهم، وتزهد زهدهم، إلاّ أ ليس واحدا منهم، إنه دخيل عليهم، ولذا فهو أحد الأسباب التى تنبنى عنيـ خصوماتهم، وبخاصة من الذين لم يفرقوا بين الصوفية والمتصوفة.

وقديما قيل:

فساد كبير عالم متهتك ⁖ وأفسد منه جاهل متنسكٌ
هما فتنة للعالمين كبيرة ⁖ لمن بهما فى دينه يتمسكُ[٢]

وفى تقديرى: أن المتصوف دخيل على أهل الصفا، ولا علاقة له بأى من التصوف أو علم التصوف أو الصوفية، إنه نبت شيطانى فلا علم عنده بما تقوم عليه الأصول الشرعية التى يتمسك بها الصوفية من مقام الإحسان، وحال الزهد أو مقام التقوى، وحال التوكل على الله تعالى، إنه أشبه بالدمية التى يصنعها من أتقنوا القيام بأدوار المهرجين وأعمال الأرجوزات يتحرك متى كانت حركة شهواته، فهو غير تقى، ولا زاهد، وإنما يمثل دور التقوى والتزهد[٣].

ونقل العلامة القشيرى أن بندار بن الحسين الشيرازي سئل عن الفرق بين الصوفى والمتصوف، فقدم تفرقة دقيقة بينهما، حيث قال: الصوفى من اختاره الله

---

(١) الشيخ عصام الدين مصطفى البكرى البنجالى – أولياء الله ص٧٢ – طبعة الدار الأهلية بالديار العثمانية .

(٢) الإمام الشوكانى – قطر اولى على حديث الولى ص٤٨٨ – تحقيق الدكتور إبراهيم هلال .

(٣) لاشك أن تلك الصفات إنما تكشف واقعا قائما وحقيقة ثابتة. هى إن المتصوف جاهل بأحكام الشرعى الإلهى، وإلا ما قام بهذه الأمور على الناحية الشكلية ناسيا أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وأن تلك الأعمال المزيفة لا يمكنها أن تخدع سوى الأغرار. ففى الحديث الشريف: « عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [صحيح مسلم ج: ٤ ص: ١٩٨٧ – باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله – الحديث: ٢٥٦٤ – الحديث: ٢٥٦٤، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج:٢ ص:١١٩ – ذكر الإخبار بأن على المرء تعهد قلبه وعمله دون تعهده نفسه وماله، وأخرجه ابن ماجه – سنن ابن ماجه ج:٢ ص:١٣٨٨ الحديث:٤١٤٣، وأحمد فى مسنده ج:٢ ص٢٨٤ – الحديث: ٧٨١٤، وحلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ج٧ ص١٢٤ .

لنفسه فصافاه، وعن نفسه براه، ولم يرده إلى تعمل وتكلف، فالصوفى على زنة عوفى أى عافاه الله، وكوفى أى كافاه الله، وجوزى أى جازاه الله، ففعل الله تعالى ظاهر على أسمه[1]، وذلك كله من سمات الصوفى الذى اختاره الله لعبادته واصطفاه.

أما المتصوف فهو المزاحم على المراتب الدنيوية، المتقاتل عليها مع تكلف[2]، وكمون رغبة فى الدنيا[3]؛ لأنها غرضه لها يسعى، وعليها يقاتل، أما فى الآخرة فإنه لا ينظر إليها إلاَّ نظرة المستبعد لها، الذى يرفض قيامها. ويزكى نفسه على غيره. فهو فى كل ما يعمل إنما يتزلف الآخرين ويعمل على خداعهم، ويزاحم أهل العلم بالله رب العالمين، إن وجد خيرا هجم عليه، وإن وجد ابتلاء جزع منه، وإن وقع فى أمر شرعى بحث عن حيلة تخرجه مما أحاط به أو وقع فيه، فهو لا علاقة له بالله تعالى وولايته، إنما علاقته بهواه وشيطانه مولاه. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4].

۞ **قال صاحب الكشاف**: « شبه الله عز وجل من يتبعون أهواءهم بالأنعام، فإن قلت كيف جعلوا أضل من الأنعام؟ قال: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتهتدى لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم. ولا

---

(١) الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٦ .

(٢) ومادام مزاحما على أمر لا علم له به، ولا يمكنه القيام بواجباته الشرعية، فإنه يكون مـ دوا عليه. ولذا فهو يتكلف الأعمال التى يقوم بها ويقلد غيره تقليداً باطلاً. ومن ذلك سؤال الإمارة. مع أن الرسول ﷺ حذر منها، فقال: « إنكم ستحرصون على الامارة وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » [ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٠ ص٣٣٤ – ذكر ما يكون متعقب الإمارة في القيامة إذا حرص عليها في الدنيا – الحديث: ٤٤٨٢]. وأخرج الطبراني فى الأوسط « عن ابي هريرة قال شريك ٢٤٣ ب لا ادري رفعه ام لا قال الامارة اولها ندامة واوسطها غرامة وآخرها عذاب يوم القيامة » [المعجم الأوسط ج٥ ص٣٧٩ – رقم: ٥٦١٦]

(٣) الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ج١ ص١٨٦ .

(٤) سورة الفرقان – الآيتان ٤٣/٤٤ .

يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان، الذى هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم النافع، ولا يتقون العقاب الذى هو أشد الضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذى هو الشرع الهنى والعذب الروى »[1].

❁ **وقال الطاهر بن عاشور:** « ووجه كونهم أضل من الأنعام، أن الأنعام لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها فى مهاوى الشقاء الأبدى، لأن لها إلهاماً تتفصى به عن المهالك، كالتردى فى الجبال، والسقوط من الهوات، هذا إذا حمل التفضيل فى الضلال على التفضيل فى جنسه، وهو الأظهر، وإن حمل على التفضيل فى كيفية الضلال ومقارنته، كان وجهه أن الأنعام قد خلق إدراكها محدودا، لا يتجاوز ما خلقت لأجله، فنقصان انتفاعها بمشاعرها ليس عن تقصير منها، فلا تكون بمحل الملامة، وأما أهل الضلالة فإنهم حجزوا أنفسهم عن مدراكاتهم بتقصير منهم وإعراض عن النظر، واستدلال فهم أضل سبيلاً من الأنعام »[2].

ونفس التفرقة ذكرها العلامة الحلاج[3]، حيث قال: « من أشار إليه فهو متصوف ثم قال فالأول لا يزال يفرق بين الرب والعبد، والثانى قد اتحد بالذات

---

(١) العلامة الزمخشرى تفسير الكشاف – ج٣ ص٩٤ .

(٢) العلامة الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير جـ٩ ص١٨٤ .

(٣) الحسين بن منصور الحلاج يكنى أبا مغيث وقيل أبا عبد الله وكان جده مجوس اسمه محمي من أهل بيضاء فارس نشأ الحسين بواسط وقيل بشستر وقدم بغداد فخالط الصوفية وصحب من مشيختهم الجنيد بن محمد وأبا الحسين النوري وعمرو المكي والصوفية وقيل فيه: عالم رباني، وكان حسن عبارة وحلاوة منطق وشعر على طريقة التصوف، ولد بالبيضاء في موضع يقال له الطور ونشأ بتستر وتلمذ لسهل بن عبد الله التستري سنتين ثم صعد إلى بغداد ، تزوج بنت أبي يعقوب الأقطع. وقصد الهند خراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان وماصين ودعا الخلق الى الله تعالى وصنف لهم كتبا. ومن أقواله أنه قال: عليك بنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك عن الحق، كن مع الحق بحكم ما أوجب، وقال أيضا: علم الأولين والآخرين مرجعه إلى أربع كلمات حب الجليل وبغض القليل واتباع التنزيل وخوف التحويل. مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة » [راجع للعلامة الخطيب البغدادى – تاريخ بغداد ج٨ ص١١٢ – رقم: ٤٢٣٢]

الإلهية، حتى صار يتكلم عنها وباسمها »[١]، فالمتصوف أعماله علنية غرضه الإشارة إليه، فهو يحاول إرضاء العبد لا إرضاء الرب، كمن يعرض نفسه على الناخبين بغية الفوز بمقعد فى البرلمان، أو مجلس الشورى، ومن ثم فهو يعد هؤلاء الناخبين بالمن والسلوى، ويتظاهر أمامهم بالورع والتقوى، فيصلى معهم بالمسجد، وربما اعتلى المنبر فخطب الجمعة، وقد يكون بارعاً فى التمثيل حتى يبكى السذج من الذين استمعوا له، فإذا ظفر بالفوز وجلس على المقعد الذى بحث عنه؛ نسى أوجه الخير التى وعد ناخبيه بها، كما تناسى مظاهر الطاعة والتقوى التى كان قد أعلن عنها، مادام أمره قد تحقق، وكلما عادت الانتخابات عاد هو نفس السيرة مخادعاً البسطاء، ساخراً من نفسه ومن الأذكياء[٢]، وهى سمة فيه لا تنفصل عنه، وكأنى والمثل القائل:

صلى وصام لأمركان يطلبه ∴ فلما قضى لا صلى ولا صام

على كل فإن المتصوف مهما علا ذكره، وانتشر بين الناس أمره، فإن أعماله تفضحه وسلوكياته تدل عليه، وما يتفوه به من عبارات تكون قائمة فيه، وما يذكره على أنه علم يعانده صحيح الخبر ويكذبه سليم الأثر، من ذلك أن متصوفاً كان يأخذ العظم الذى يفضل عن اللحم من الحيوان المأكول وغيره ثم يضربهما بعضها مع البعض الآخر، ويقول: أهكذا يكون به الاستنجاء والاستبراء وكأنه بفعله هذا ينكر ما شرعه الله، ويتعجب منه[٣]، بل أنه كان يفترض على الحكمة التى جعلها الله فى ذلك.

---

(١) الدكتور عبدالرحمن بدوى - تاريخ التصوف الإسلامى ص١٤ - وكالة المطبوعات بالكويت، وذكر أن ما سينبون قد أورد هذه التفرقة على لسان الحلاج فى الفصول الحلاجية التى ألحقها ماسينيون فى كتابه بحث فى نشأة المصطلح الفنى للتصوف الإسلامى ص٤٤٠ ط باريس ١٩٥٤م.

(٢) لأنه على يقين من أن الناس فيهم أذكياء وهم كاشفون أمره، لكنه يغالط نفسه، ويتمسك بجاهل المحيطين به من هذا النوع بغية تحقيق أماله التى يطمع فيها وأحلامه التى يجرى خلفها. وهو فى كل ذلك كاذب على الله وعلى الناس، وسوف تحيق به اللعنة فى الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ﴾ [سورة الرعد - الآية ١٤].

(٣) الشيخ بدوى محمد عبدالعظيم - الصوفية الأوائل ص١١٢.

وقد ذكر الفقهاء أن الاستجمار[١] باليابس يجوز إذا حصل بـه الانقاء، سواء أكان ذلك اليابس من جنس الأرض كحجر ومدر[٢]، وما حرق من الطين كالآجر[٣] شريطة أن تحصل به الطهارة، وألا يكون مطعوما به، أو كتب فيه بحروف نحو الحروف، وألا يكون نقداً؛ لأنه محترم، فلا يصح الاستنجاء به، وألا يكون عظما أو روثا، فإن كان عظيما أو روثا حرم الاستنجاء به؛ لأن العظم الذى ذكر اسم الله عليه

---

(١) الاستجمار: هو « التَّمَسُّح بالأحجار ومنه الحديث : "إذا توضَّأت فاستَنْثر وإذا استَجْمرت فأوتِر" أي تمسَّح بوِتْر من الحجارة والحجارة الصغار يقال لها الجِمار وبه سُمّيت جِمار مكة ويقال جمّرنا تجميراً إذا رمينا الجِمار وهيّ الحَصى » [راجع الغريب لابن قتيبة ج: ١ ص: ٦٠]، و الاستنجاء: « التَّمَسُّح بالأحجار وأصلُه من النَّجْوة وهو ارتفاع من الأرض وكان الرجل إ أراد قضاء حاجته تَستَّر بَنجْوَة فقالوا ذَهَب يتغوَّط إذا أتى الغائط وهو المُطْمئن من الأرض لتَقضاء الحاجة ثم سُمّيَ الحَدَثُ نَجْواً واشتق منه قد استنجى إذا مَسَحَ موضعه أو غَسَله » [الغريب لابن قتيبة ج:١ ص١٥٩/١٦٠].

(٢) [م د ر] المَدَرةُ بفتحتين واحدة المَدَر والعرب تُسمي القرية مَدَرَةً. [راجع مختار الصحاح ج١ ص٢٥٨] . وقيل: « مدر: فيه أحَبُّ إليَّ من أن يكونَ لي أهلُ الوَبَر والمَدَر يريد بأهل المَدَر أهلَ القُرَى والأمصار واحدتها مَدَرَة هـ ومنه حديث أبي ذر أما إنّ العُمْرة من مَدَركم أي من بَلدكم ومَدَرَة الرجل بَلدَته يقول من أراد العُمرة ابتدأ لها سَفَرا جديدا من مَنْزله غير سفرِ الحج وهذا على الفَضيلة لا الوُجوب هـ ومنه حديث جابر فانطلق هو وجبَّار بن صَخْر فنَزَعا في الحَوض سَجْلا أو سَجْلَين ثم مَدَرَاه أي طَيَّناه وأصْلَحاه بالمَدَر وهو الطِّين المُتَماسِك لئلا يُخْرُجَ منه الماء ومنه حديث عُمر وطلحة في الإحْرام إنما هو مَدَرٌ أي مَصْبوغ بالمَدر وقد تكرر في الحديث هـ وفي حديث الخليل عليه السلام يَتتفِت إلى أبيه فإذا هو ضِبْعانٌ أمْدَرُ هو المُنْتَفِخ الجنْبَين العظيمُ البطن وقيل الذي تَترَّب جَنْباه من المَدَر وقيل الكثير الرجيع الذي لا يَقدِر على حبْسه مدره في حديث شدّاد بن أوس إذْ أقبل شيخٌ من بني عامر هو مِدْرَهُ قومه » [النهاية في غريب الحديث ج: ٤ ص: ٣٠٩] .

(٣) الآجُرُّ: « الطوب الذي يبنى به وهو لفظ فارسي معرب » [راجع مختار الصحاح ج١ ص: ٣]، وقال صاحب لسان العرب: « الآجُرَّة : الطُّوبَةُ، شامية أو رومية، قال ثعلب، قال أبو عمرو: لو أمْكَنْتُ من نَفْسِي ما تَركُوا لي طُوَبَةً، يعني آجرة. الجوهري: و الطُّوبُ الآجر. بلغة أهل مصر، و الطُّوبَةُ الآجُرَّة، ذكرها الشافعي. قال ابن شميل: فلان لا آجُرَّة له ولا طُوبَة؛ قال: الآجر الطين » [راجع لسان العرب لابن منظور – ج١ ص: ٥٦٢/٥٦٣] .

طعام مؤمني الجن، والروث طعام دوابهم[1]، فعن عامر قال: « سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن قال فقال علقمة أنا سألت عن عبدالله بن مسعود فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن قال لا ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال آتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد، فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم »[2].

وعلق الإمام النووى على الحديث فقال بعض العلماء: إن العظم الذى ذكر اسم الله عليه يكون لمؤمنيهم، أما غيرهم فقد جاء فى حديث أخر أن طعامهم مما لم يذكر اسم الله عليه[3]، ولكن المتصوف لما كان من غير أهل العلم فقد تعجب من الحديث وتأبى على الحكم الشرعى، فكان ذلك منه دليلا على أنه متصوف؛ وليس صوفيا؛ لأن الصوفى لا ينكر حكما شرعياً، ولا يزيف فى حكم شرعى، باعتبار أن عمدة الصوفى هو الالتزام بما شرع الله جل علاه فى كتابه وعلى ألسنة رسله.

---

(١) الشيخ مختار بن محمد أمجيمدات الباسكنى الشنقيطى المالكى – التاج الأغر فى شرح نظم نضار المختصر فى الفقه المالكى ج١ ص٧٠ – دائرة القضاء الشرعى – أبو ظبى – الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:١ ص:٣٣٢ – رقم: ٤٥٠، وأخرجه ابن خزيمة – صحيح ابن خزيمة ج:١ ص٤٤ – باب ذكر العلة التي من أجلها زجر عن الاستنجاء بالعظام والروث – رقم:٨٢، والترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص:٣٨٢ – رقم: ٣٢٥٨.

(٣) الشيخ مختار بن محمد أمجيمدات الباسكنى الشنقيطى المالكى – التاج الأغر فى شرح نظم نضار المختصر فى الفقه المالكى ج١ ص٧١ – دائرة القضاء الشرعى – أبو ظبى – الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

أضف إلى ما سبق أن المتصوف مشغول بالخلق عن الخالق، ملازم لمصالحه الذاتية ورغباته الشخصية، يجرى خلفها أينما تكون، لا ينظر فى حل أسبابها أو حرمتها، غير عابئ بما تجيء به الأحكام الشرعية مادامت فى غير مطامعه الذاتية، وبالتالى فهو يتأول فيها بكل ما أمكنه، ولذا فإنى أقرر أن المتصوفة هم العدو اللدود للتصوف والصوفية وعلم التصوف أيضا، إنهم يمثلون الصديق الغر الجاهل، والعدو المتمرس فى العداوة لكل من التصوف والصوفية معا، ولذا كانت الانتقادات العنيفة كلها توجه عليهم مباشرة، كما أن كافة أنواع الخروج على الشرع الحنيف والمخالفات لم تقع إلا منهم[1]، أما الصوفية الأعلام فهم من ذلك كله براء.

كذلك فإن المتصوف يتجرأ على الأحكام الشرعية متى كان ذلك يحقق مصلحة شخصية لذاته، ولو كانت قليلة من ذلك أن امرأة توفى عنها زوجها، وكان أحد هؤلاء المتصوفة مولعا بها فأفتاها بعدم الاحتداد مدة العدة، حتى لا يتأثر جمالها[2]، مع أن القاعدة الشرعية هى لزوم الاحتداد مدة العدة كل متوفى عنها زوجها فى نكاح صحيح[3]، وقال بوجوب الأحداد على المتوفى عنها زوجها الأئمة الثلاثة وجمهور العلماء.

وقد استدلوا بحديث أم عطية[4] « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، ولا تلبس ثوبا

---

(١) راجع كتابنا : أوراق مطوية فى التصوف والصوفية ص٢٤٨ – الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

(٢) الأستاذ : بهى الدين بن محمد الطويل – الصوفية والمتصوفة ص٥٣ – ط أولى ١٣٣٧هـ.

(٣) العلامة الشيخ محمود زين الدين – زاد المستقنع ج٣ ص٥٦ .

(٤) أم عطية الأنصارية: اسمها نسيبة بنت الحارث وقيل نسيبة بنت كعب، من فقهاء الصحابة لها عدة أحاديث، وهي التي غسلت بنت النبي صلى الله عليه وسلم زينب . حدث عنها محمد بن سيرين وأخته حفصة بنت سيرين وأم شراحيل وعلي بن الأقمر وعبد الملك بن عمير وإسماعيل بن عبد الرحمن وعدة عاشت إلى حدود سنة سبعين، وهي القائلة: نهينا عن اتباع الجنازة ولم يعزم علينا حديثها مخرج في الكتب الستة » [راجع سير أعلام النبلاء ج: ٢ ص: ٣١٨ – رقم: ٥٩] . وقال صاحب الثقات: « اسمها نسيبة بنت كعب المازنية وهى أم عمارة وهى والدة عبد الله بن زيد بن عاصم المازني روى عنه بن سيرين وأهل البصرة »[راجع الثقات ج٣ ص٤٢٣ رقم: ١٣٩١].

مصبوغا إلا ثوب عصب ولا تكتحل ولا تمس طيبا إلا إذا طهرت نبذة من قسط أو أظفار ››[1].

ثم إن الأحداد هو اجتناب ما يدعو إلى جماعها، ويرغب فى النظر إليها من الزينة والطيب، وهو قول الجمهور واختيار ابن القيم[2]، لحديث أم سلمة رضى الله عنها قالت: ‹‹ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب ولا المشقة ولا الحلي ولا تختضب ولا تكتحل ››[3]،

وعنها أيضا أنها قالت: ‹‹ إن امرأة توفي عنها زوجها فخشوا على عينيها فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنوه في الكحل فقال لا تكتحل قد كانت إحداكن تمكث في شر أحلاسها[4]، أو شر بيتها فإذا كان حول فمر كلب رمت ببعرة فلا حتى تمضي أربعة أشهر وعشر وسمعت زينب بنت أم سلمة[5] تحدث عن أم حبيبة[6] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يحل لامرأة مسلمة تؤمن بالله واليوم

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٢ ص: ١١٢٧ – الحديث:٩٣٨ .

(٢) الشيخ صالح بن إبراهيم البليهى – السلسبيل فى معرفة الدليل ج٣ ص٥٦ – الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ الشركة المصرية للطباعة والنشر.

(٣) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج١٠ ص١٤٤ – ذكر الزجر عن أن تلبس المعتدة الحلي أو تختضب الحديث: ٤٣٠٦ .

(٤) أحلاسها: جمع حلس وهو الثوب أو الكساء الرقيق .

(٥) زينب بنت أم سلمة: كان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب وهي بنت أبي سلمة بن عبدالأسد المخزومي واسم أبي سلمة عبدالله بن عبدالأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم واسم أم سلمة هند، روت عن أمها ام سلمة في الوضوء والطلاق والأحكام والأدب والطب وأم حبيبة بنت أبي سفيان في النكاح والطلاق والفتن وعائشة في النكاح وزينب بنت جحش في الطلاق وحبيبة في الفتن، وروى عنها أبو سلمة بن عبدالرحمن وعروة بن الزبير وحميد بن نافع وابنيها أبو عبيدة بن عبدالله بن زمعة ومحمد بن عمرو بن عطاء. [رجال مسلم ج٢ ص٤١٩ – رقم:٢٢٢٧].

(٦) أم حبيبة أم المؤمنين: السيدة المحجبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، مسندها خمسة وستون حديثا، وهي من بنات عم الرسول صلى الله عليه وسلم ليس في أزواجه من هي أقرب نسبا إليه منها، عقد له صلى الله عليه وسلم بالحبشة وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مئة دينار وجهزها باشياء سنة ست، روى عنها معاوية وعنبسة وعبدالله ابن عتبة وعروة بن الزبير...، وآخرون، ماتت سنة ثنتين وأربعين وأم حبيبة أمها صفية بنت أبي العاص بن أمية » [سير أعلام النبلاء ج٢ ص٢١٨ رقم:٢٣، وراجع الثقات ج٣ ص١٣١ رقم:٤٤٣].

الآخر أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرا »[1]. وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوجها »[2].

ومع ذلك فإن هذا المتصوف لا يرعوى ولا يحفل بحل أو حرمة في مطعم أو مشرب، في مال أو ولد، متى حقق ذلك مصالحه الذاتية، وفوق ذلك فإنه قد يلبس الخرقة إذا كانت تحقق له بين الناس العطف وتجعلهم يغدقون عليه بعض المال، ويلبس أفخر الثياب متى كان ذلك يحقق له بين الناس ذيوع الشهرة وعلو المقام، أنه الأقرب شبها بالممثلين والأراجوزات يلبسون لكل موقف ملبسا تملكتهم الدنيا فخضعو لزخارفها، وانصرفت عنهم الآخرة، فلم يحاولوا العمل لها. وفي الحديث القدسي يقول رب العزة جل شأنه: « يا دنيا أن اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك »[3].

۞ **والذى يغلب عندى**: هو أن المتصوف لا علاقة له بالتصوف أو الصوفية أو علم التصوف، وإنما هو دخيل على كل واحد منهم.

۞ **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية**: « إن المتصوفة المنتسبين إلى الصوفية منهم ظالم لنفسه، عاص لربه، وقد انتسبت إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم[4]، لأن مخالفاتهم للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أكثر من أن تحصى.

۞ **ويذكر ابن عجيبة** إلى أن المتصوفة هم الذين عدوا قلة المبالاة أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وترك الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادة، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميادين الغفلات، وركنوا إلى

---

(١) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج:٥ ص٢٠٤٣ – [٤٥] باب الكحل للحادة – الحديث:٥٠٢٥، وأخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص١١٢٥ – كتاب الطلاق، باب: وجوب الإحداد في عدة الوفاة – الحديث:١٤٨٦ .

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٢ ص: ١١٢٧ – الحديث:١٤٩١ .

(٣) العلامة أبو نعيم الأصفهاني – حلية الأولياء ج٣ ص:١٩٤ عن الحسين بن عبد الرحمن ابن أبي عباد عن محمد بن بشر عن جعفر بن محمد قال أوحى الله تعالى إلى الدنيا...

(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية – مجموع الفتاوى التصوف – المجلد ١١ ص١٨ .

إتباع الشهوات وقلة المبالاة[1]، لأنهم عبدوا الدنيا ولم يعبدوا خالقها، فعاشوا فى خدمتها وماتوا فى طاعتها، فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

كما يجب التنبيه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة[2] والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين ينتسبون إلى التصوف وهو منهم براء، فهم يسمون أنفسهم بالمتصوفة ويأتون أعمالا ومخاريق شيطانية، كدخول النار. وضرب أنفسهم بالسلاح والإمساك بالثعابين، والإخبار بالغيب[3]، وما هؤلاء إلاّ صورة من الخداع والتمويه، يما يجعل أصحابها بعيدين عن شرع الله، وهو الذى نوهت إليه ونبهت عليه[4]، والله خير الشاهدين.

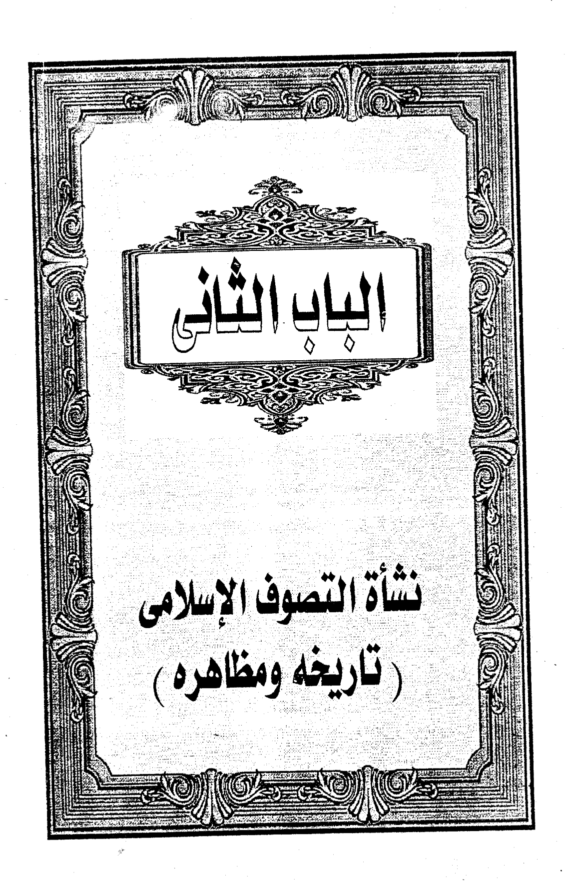
---

(١) الإمام أحمد بن عجيبة الحسينى – الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص١٣ – طبعة عالم الفكر .

(٢) قال ابن منظور: « دجل : الدُّجَيْل و الدُّجالة: القَطِران. والدَّجْل: شدَّة طَلْي الجَرب بالقَطِران. ودَجَل البعيرَ: طَلاه به، و دَجَل الشيءَ غَطَّاه. و دِجْلة: اسم نهر، من ذلك لأنها غطَّت الأرض بمائها حين فاضت، ودَجَل الرجُل وسَرَج، وهو دَجَّال: كَذَب. وهو من ذلك لأن الكذب تغطية، وبينهم دَوْجَلة وهَوْجَلة ودَوجَرَة وسَرْوَجة: وهو كلام يُتناقل وناس مختلفون. والدَّاجل: المُمَوِّه الكَذَّاب، وبه سمّي الدَّجَّال. و الدَّجَّال: هو المسيح الكذاب، وإنما دَجْلُه سِحْره وكَذِبُه. والمسيح الدَّجَّال رجل من يَهُود يخرج في آخر هذه الأُمَّة، سمَي بذلك لأنه يَدْجُل الحَقَّ بالباطل، وقيل: بل لأنه يُغَطِّي الأَرض بكثرة جموعه، وقيل: لأنه يُغَطِّي على الناس بكفره، وقيل: لأنه يدَّعي الربوبية، سمي بذلك لكذبه، وكل هذه المعاني متقارب. وكل كَذَّاب دَجَّال، وجمعه دَجَّالون، وقيل: سُمِّي بذلك لأنه يستر الحق بكذبه. و الدَّجَّال و الدَّجَّالة: الرُّفقة العظيمة. ورُفْقة دَجَّالة: عظيمة تُغَطِّي الأَرض بكثرة أهلها، ويقال: دَجَل إذا لَبَّس ومَوَّه. و دَجَل الرجلُ المرأةَ ودَجاها إذا جامعها، وهو الدَّجْلُ والدَّجْوُ » [لسان العرب ج:١١ ص:٢٣٦]، وقيل: « دجل : أي خَدَّاع وأصل الدَّجل الخَلطْ، وبه سمي مسيح الضَّلالة لخَطْه الحقَّ بالباطل » [الفائق ج:١ ص:٤١٢].

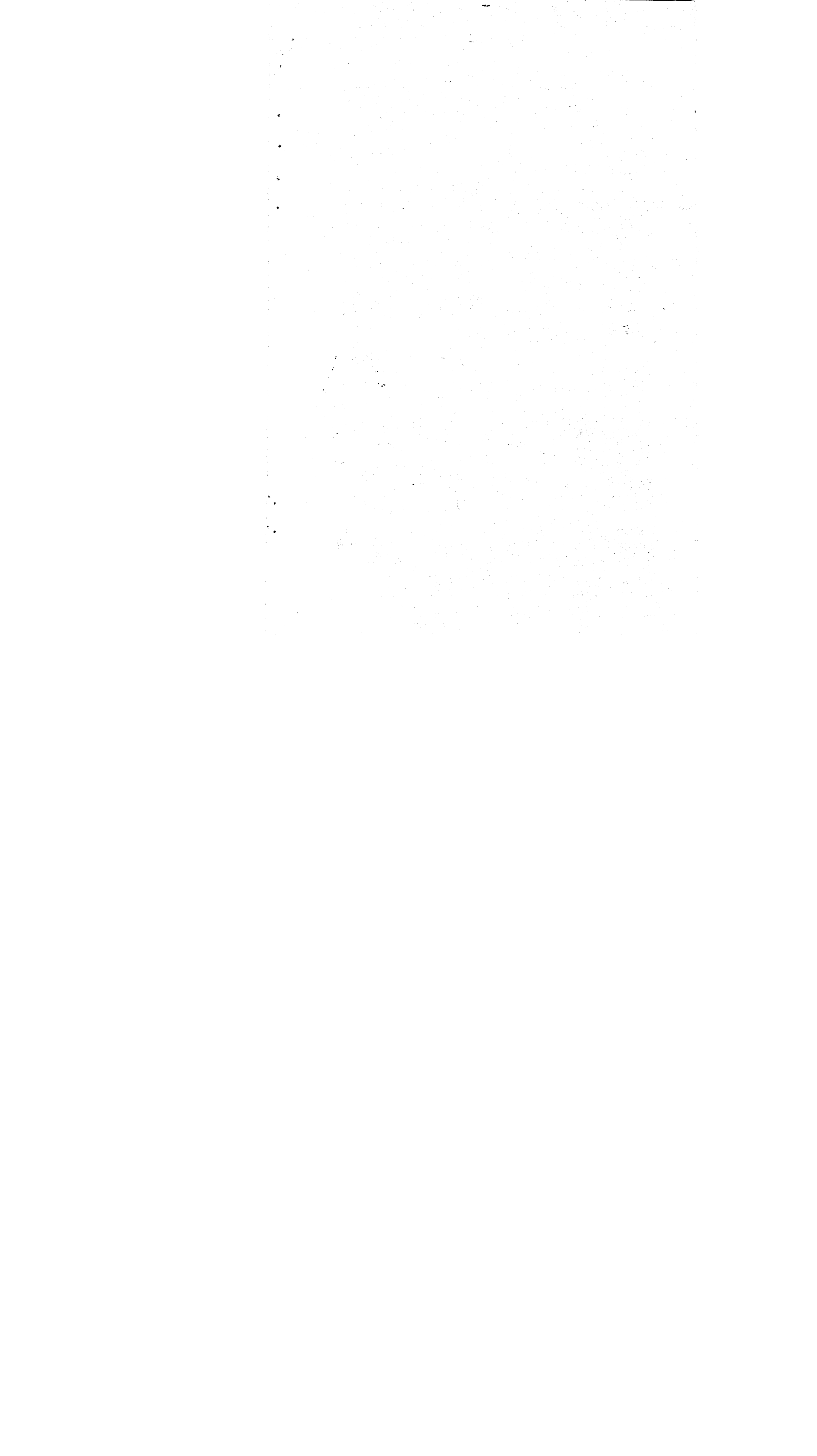
(٣) الدكتور محمد خليل هراس – شرح العقيدة الواسطية ص١٢٦ – ط٤ مطبوعات الجامعة الإسلامية.

(٤) راجع فى هذا بالتفصيل كتابنا: أوراق مطوية فى التصوف والصوفية ص٢٤١/٢٦٨ .



الباب الثانى

نشأة التصوف الإسلامى
(تاريخه ومظاهره)



تمهيد

خلق الله الإنسان وفيه جانب مادى مرئى يتكون منه جسمه، جوارحه، عظامه، شحمه، لحمه، أعصابه، مخه، وبالجملة من شعره إلى أظافره[١]. وهذا الجانب المادى يتعلق بغذائه ودوائه ومعيشته، وما يحفظ عليه أنماط حياته وهو المادة أيضا، وبالتالى فكل ما كان من المادة أصله ففيها المحافظة على استمراره، وقد أمتن الله تعالى على الإنسان بخلق من هذه الناحية فى آيات كثيرة من ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[٢].

❁ **يقول ابن كثير** : « هذا تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه[٣]، وقوله تعالى خلق من ماء دافق يعني المني يخرج دفقا من الرجل ومن المرأة فيتولد منهما الولد بإذن الله عز وجل[٤]، ولهذا قال يخرج من بين الصلب والترائب أعنى صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها، وعن ابن عباس رضى الله عنهما يخرج من بين الصلب والترائب صلب الرجل وترائب المرأة ماء أصفر رقيق فلا يكون الولد إلا منهما[٥].

---

(١) الدكتور جون أشتابك – الطب الجسدى ص١٣ ترجمة هناء موسى – طبعة الدار الثقافية بالعراق ١٩٦١م

(٢) سورة الطارق – الآيات ٥/٧ .

(٣) سورة الروم – من الآية ٢٧ .

(٤) أما نوع الولد فإنه يأتى من الحيوان المنوى المذكر، فيكون من الذكر، ذكرا، والمؤنث فيكون أنثى بإذن الله تعالى ، وكله من الوهب الإلهى. قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ◦ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [سورة الشورى – الآيتان ٤٩/٥٠]

(٥) وعن ابن عباس يخرج من بين الصلب والترائب قال هذه الترائب ووضع يده على صدره وقال الضحاك وعطية عن ابن عباس تريبة المرأة موضع القلادة وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الترائب بين ثدييها وعن مجاهد الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر وعنه أيضا الترائب أسفل من التراقي وقال سفيان الثوري فوق الثديين وعن سعيد بن جبير الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل وعن الضحاك الترائب بين الثديين والرجلين والعينين.[الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ٤٩٩].

وعن معمر بن أبي حبيبة المدني[١] أنه بلغه في قول الله عز وجل يخرج من بين الصلب والترائب قال هو عصارة القلب من هناك يكون الولد وعن قتادة يخرج من بين الصلب والترائب من بين صلبه ونحره ››[٢].

---

(١) معمر بن أبي حبيبة ويقال حيية بيائين مثناتين من تحت روى عن عبيد الله بن عدي بن الخيار وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن رفاعة بن رافع وروى عنه يزيد بن أبي حبيب وبكير بن عبد الله بن الاشج والليث بن سعد قال عثمان بن سعيد الدارمي عن بن معين ثقة وقال أبو سعيد بن يونس هو مولى معمر بن عبد الله العدوي ويقال عن يحيى بن معين هو مولى لابنه صفوان وذكره بن حبان في الثقات له عند الترمذي حديثه عن بن المسيب عن عمر في الصوم في السفر . [راجع تهذيب التهذيب ج١٠ ص٢١٨ – من اسمه معمر رقم:٤٤٠، وراجع التاريخ الكبير ج: ٧ ص: ٣٧٧ – رقم:١٦٢٢، الكاشف ج٢ ص٢٨٢ رقم:٥٥٦٦ ، وتهذيب الكمال – ج٢٨ ص٣٠٢ – من اسمه معمر رقم: ٦١٠٣].

(٢) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ٤٩٩ .


الفصل الأول
علاقة الروح بالبدن
وغذاء كل منهما

بين الله تعالى أن حفظ جسم الإنسان يكون بطعامه المادى، مما تنبت الأرض بفضل الله تعالى، وما ينزل من السماء؛ لأن به حفظ جسمه.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(١).

يقول الشيخ محمد عبده : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ،الذى يقيم بنيته ، ويجد به لذته ، ويحفظ به منته ، ماذا صنعنا في إحداثه ؟ ... ثُمَّ قال : وذكر الحدائق بوصفها ، لبيان أن النعمة فيما تشتمل عليه الحدائق ، بجملتها لا في ثمرة خاصة ، فمنها ما ينتفع به للإحراق(٢)، ومنه ما تأكله الحيوانات(٣)، وتخصيص الفاكهة بالذكر؛ لأنها مما يتمتع به »(٤).

كما بين سبحانه وتعالى أن وسائل المعيشة من فضل الله تعالى، لا من صنع الإنسان، سواء أكان ذلك مما تخرجه الأرض أم مما تنزله السماء، وفيه بقاء لجسم الإنسان من ناحية الوسائل والأسباب التى جعلها الله تعالى.

قال جل شأنه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا

---

(١) سورة عبس – الآيات ٣٢/٢٤ .

(٢) وهو الذى يكون من الجذور غير المأكولة، كالحال مع الأخشاب التى لا تصلح إلاَّ لإحراقها، حتى تتم التدفئة بها، أو تقع بها منافع لا يمكن تحصيلها.

(٣) كالنبات الأخضر المأكول للحيوان، وعليه تغذيته به، كالبرسيم وخلافه، أو يستفيد به الإنسان فى تغذية الحيوان وصناعات أخرى كالتبن وأمثاله.

(٤) تفسير القرآن الكريم – للشيخ محمد عبده ص١٨ – تفسير جزء عم مطابع الشعب .

تشكرون * أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين *فسبح باسم ربك العظيم ﴾[١].

۞ **يقول الإمام الطبرى:** « أفرأيتم أيها الناس الحرث الذي تحرثونه أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون أى أأنتم تصيرونه زرعا، أم نحن نجعله كذلك، وعن أبى هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت قال أبو هريرة ألم تسمع الى قول الله تبارك وتعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون][٢].

ثم قال تعالى "لو نشآء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون"، والمعنى لو نشاء جعلنا ذلك الزرع الذي زرعناه حطاما هشيما لا ينتفع به في

---

(١) سورة الواقعة – الآيات ٦٣/٧٤ .

(٢) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٣ ص٣٠ – ذكر الزجر عن قول المرء لما حرث زرعت – الحديث:٥٧٢٣ ، وأخرجه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٦ ص١٣٨ – [٧] باب ما يستحب من حفظ المنطق في الزرع الحديث:١١٥٣٢، وأخرج الحاكم وغيره عن حجر بن قيس المدري قال « بت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسمعته وهو يصلي من الليل يقرأ فمر بهذه الآيةأفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون قال بل أنت يا رب ثلاثا ثم قرأأفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون قال بل أنت يا رب بل أنت يا رب بل أنت يا رب ثم قرأأفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون قال بل أنت يا رب ثلاثا ثم قرأأفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون قال بل أنت يا رب ثلاثا » [الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٥١٨ – [٥٧] تفسير سورة الواقعة – رقم:٣٧٨٠، وأخرجه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٢ ص٣١١ – رقم:٣٥١٠ ، وعبدالرزاق – مصنف عبد الرزاق ج٢ ص٤٥٢ رقم:٤٠٥٢]، واخرج البيهقى عن مجاهد « قال لا تقل زرعت ولكن قل حرثت فإن الله هو الزارع » [سنن البيهقي الكبرى ج٦ ص١٣٨– [٧] باب ما يستحب من حفظ المنطق في الزرع رقم:١١٥٣١]

مطعم وغذاء، فظلتم تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم من المصيبة باحتراقه وهلاكه، وعن ابن عباس قال فظلتم تفكهون أى تعجبون[١].

وذهب آخرون إلى أن قوله تعالى "فظلتم تفكهون" معناه تلاومون بينكم في تفريطكم في طاعة ربكم جل ثناؤه حتى نالكم بما نالكم من إهلاك زرعكم، وهو مروى عن عكرمة قال في قوله تعالى فظلتم تفكهون يقول تلاومون[٢].

وقال غيرهما بل معنى ذلك فظلتم تندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجب لكم عقوبته حتى نالكم في زرعكم ما نالكم[٣]، فعن الحسن أنه قال: فظلتم تتفكهون أى تندمون، وعن قتادة فظلتم تفكهون قال تندمون وقال فريق رابع: بل معنى ذلك فظلتم تعجبون، قال ابن زيد في قوله تعالى فظلتم تفكهون أى تعجبون حين صنع بحرثكم ما صنع به، وقرأ قول الله عز وجل إنا لمغرمون بل نحن محرمون[٤]، وقرأ قول الله وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين قال هؤلاء ناعمين وقرأ قول الله جل ثناؤه فأخرجناهم من جنات وعيون[٥]، ورجح الطبرى من الأقوال قول من قال معنى فظلتم فأقمتم تعجبون مما نزل بزرعكم وأصله من التفكه بالحديث إذا حدث الرجل الرجل بالحديث يعجب منه ويلهى به فكذلك ذلك، وكأن معنى الكلام فأقمتم تتعجبون يعجب بعضكم بعضا مما نزل بكم[٦].

---

(١) وإلى هذا المعنى ذهب الكثيرون « فعن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد فظلتم تفكهون قال تعجبون، وعن قتادة فظلتم تفكهون قال تعجبون » [العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج ٢٧ ص: ٢٠٣].

(٢) وقد جاء هذا المعنى عن عكرمة بأكثر من طرق. [راجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٢٧ ص٢٠١].

(٣) والقولان الأخيران فيهما كثير من التقارب فى المعنى.

(٤) سورة القلم – الآيتان ٦٦/٦٧.

(٥) سورة الشعراء – الآية ٥٧ .

(٦) وقوله إنا لمغرمون اختلف أهل التأويل في معناه فقال بعضهم إنا لمولع بنا، وعن عكرمة في قول الله تعالى ذكره إنا لمغرمون قال إنا لمولع بنا، وقال مجاهد في قوله إنا لمغرمون أي لمولع بنا، وقال آخرون بل معنى ذلك إنا لمعذبون، وعن قتادة إنا لمغرمون أي معذبون وقال آخرون بل معنى ذلك إنا لملقون للشر، وعن مجاهد إنا لمغرمون قال ملقون للشر، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معناه إنا لمعذبون وذلك أن الغرام عند العرب العذاب.[العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٢٧ ص٢٠٣].

وقوله "بل نحن محرومون" يعني بذلك تعالى ذكره أنهم يقولون ما هلك زرعنا وأصبنا به من أجل إنا لمغرمون ولكنا قوم محرومون يقول إنهم غير مجدودين ليس لهم جد، وعن مجاهد قال بل نحن محرومون قال حورفنا فحرمنا.

وقوله تعالى "أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون"، يقول تعالى ذكره أفرأيتم أيها الناس الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من السحاب فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم[1]، وعن مجاهد في قوله من المزن قال السحاب، وعن قتادة قوله أأنتم أنزلتموه من المزن أي من السحاب.

وعن ابن عباس في قوله "أنزلتموه من المزن" قال المزن السماء والسحاب. وكلها صحيحة على أصول اللغة والأثر، ويقع التحدى بها جميعاً، والأخبار بها يأتي غالبا على سبيل الإنكار، لأن شكر النعمة يجعل الله تعالى يزيد فيها، أما كفر النعمة فإنه يجعل يجعلها ترتد فى وجوه أصحابها. قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

يقول تعالى ذكره لو نشاء جعلنا ذلك الماء الذي أنزلناه لكم من المزن ملحا وهو الأجاج والأجاج من الماء ما اشتدت ملوحته لو نشاء فعلنا ذلك به فلم تنتفعوا به في شرب ولا غرس ولا زرع[3]، فهلا تشكرون ربكم على إعطائه ما أعطاكم من الماء العذب لشربكم ومنافعكم وصلاح معايشكم وتركه أن يجعله أجاجا لا تنتفعون به[4].

وفى قوله تعالى "أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين"، يقول: أفرأيتم أيها الناس النار التي تستخرجون من

---

(١) وهذا الكلام ليس للحكاية، وإنما للتحدى والإنكار عليهم؛ لأنهم لا يذكرون الخالق بالنعم، التى أنعمها عليهم.

(٢) سورة إبراهيم – الآية ٧ .

(٣) وهذا يدل على أن المشيئة فعل إجبار، ليس فيها شيء من الاختيار. [راجع فى ذلك كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى فى الفرق بين المشيئة والإرادة].

(٤) وفى ذكر هذه النعم على سبيل التعداد المتوالى فائدة عظيمة، لكل من يوفقه الله تعالى إلى الصواب، أما من ضل وغوى فلا شأن له، ولا عبرة به.

زندكم أأنتم أنشأتم شجرتها بإ حداثكم شجرتها واختراعكم أصلها أم نحن المنشئون أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه، نحن جعلناها تذكرة أى جعلنا النار تذكرة لكم تذكرون بها نار جهنم فتعتبرون وتتعظون بما سيكون فيها، وعن قتادة قوله أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة للنار الكبرى »[1].

ففى الحديث النبوى الشريف: عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التي يوقد بن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها »[2]، وعن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ضرب بماء البحر ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد »[3]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ولولا أنها غمست في الماء مرتين ما استمتعتم بها وأيم الله إن كانت لكافية وإنها لتدعو الله أو تستجير الله أن لا يعيدها في النار أبدا »[4].

واختلف أهل التأويل في معنى المقوين فقال بعضهم هم المسافرون ودليل ذلك عن علي عن ابن عباس في قوله للمقوين قال للمسافرين[5]. وقال آخرون عني بالمقوين المستمتعون بها، ودليل ذلك ما حكى عن مجاهد قال ومتاعا للمقوين للمستمتعين المسافر والحاضر.

---

(١) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٢٧ ص٢٠٢.

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢١٨٤ – [١٢] باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين– الحديث:٢٨٤٣، وأخرجه الترمذى – سنن الترمذي ج٤ ص٧٠٩ – [٧] باب ما جاء أن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم– الحديث: ٢٥٨٩.

(٣) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص٥٠٤ – ذكر العلة التي من اجلها صار الناس ينتفعون بهذه النار التي عندهم – الحديث:٧٤٦٣ .

(٤) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص٦٣٥ – الحديث:٨٧٥٣ .

(٥) وعن ابن عباس قوله ومتاعا للمقوين قال يعني المسافرين. وقال قتادة ومتاعا للمقوين قال للمرمل المسافر. وعن قتادة في قوله للمقوين قال للمسافرين.[العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٢٧ ص: ٢٠٣].

❁ **قال الطبرى** : « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال عـني بذلك للمسافر الذي لازاد معه ولا شيء له وأصله من قولهم أقوت الدار إذا خلت من أهلها وسكانها كما قال الشاعر :

أقـوى وأقفـر مـن نعــم وغيرهــا ∴ هـوج الريـاح بـهابي الــترب مــوار

يعني بقوله أقوى خلا من سكانه وقد يكون المقوي ذا الفرس القوي وذا المـال الكثير في غير هذا الموضع، وقوله: ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فسبح يا محمد بذكر ربك العظيم وأسمائه»[1].

من ثم فإن ما كان في الإنسان أصله من المادة، فقد جعل الله بقاءه بذات المادة، كما جعل حمايته وصيانته وراحته بها، وفيها أيضا، وذلك مما لا ينكره من لديه إلمام بالنصوص الشرعية الإلهية، يستوى فى ذلك بدء الأنسـال أو استمرارها. قـال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[2].

❁ **يقول الإمام القرطبى** فى معنى الآية : « الإنسان هنا هو آدم عليه الصلاة والسلام؛ لأنه استل من الطين ويجيء الضمير في قوله ثم جعلناه عائدا على ابن آدم، وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر فإن المعنى لايصلح إلا له نظير ذلك قوله تعالى حتـى تـوارت بالحجـاب[3]، وقيل المراد بالسلالة ابن آدم والسلالة على هذا المعنى هى صفوة الماء يعني المني[4].

---

(١) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٢٧ ص: ٢٠٣ .

(٢) سورة المؤمنون – الآيات ١٢/١٤ .

(٣) سورة ص – الآية ٣٢ .

(٤) والسلالة فعالة من السل وهو استخراج الشيء من الشيء يقال سللت الشعر من العجين والسيف من الغمد فانسل ومنه قوله فسلي ثيابي من ثيابك تنسل فالنطفة سلالة والوليد سليل وسلالة عنى به الماء يسل من الظهر سلا.

وهو منسل من الأصل، وهو آدم الذى هو من طين خالص فأما ولده فهو من طين ومني حسبما جاء في أول سورة الأنعام[١]، وقال الكلبي السلالة الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعك فالذي يخرج هو السلالة. الثانية: قوله تعالى: ﴿ نطفة ﴾ والثالثة قوله تعالى: " ثم أنشأناه خلقا آخر ". وقد جاء في الخلق الآخر أقوال:

☆ **الأول**: أنه نفخ الروح فيه بعد أن كان جمادا[٢].

☆ **الثانى** أنه فرقة نبات شعره وخروج الأسنان ونبات الشعر وكمال شبابه[٣]. والصحيح: أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى ان يموت[٤].

الرابعة: قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين يروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر الآية إلى قوله خلقا آخر قال فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت [٥]، ويروى أنه قال ذلك معاذ بن جبل وروي أنه قال ذلك عبد الله بن أبي سرح، وبهذا السبب ارتد وقال آتي بمثل ما يأتي محمد وفيه نزل ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[٦]، وقوله تعالى تبارك الله أحسن الخالقين أتقن الصانعين يقال لمن صنع شيئا خلقه[٧].

---

(١) قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام – الآية ٢].

(٢) وإليه ذهب ابن عباس والشعبى وأبو عاليه والضحاك وابن زيد ومن وافقهم الراى.

(٣) وإليه ذهب ابن عباس فى قوله أخر عنه، وكذلك قتادة والضحاك ومجاهد ومن إلى مثل رأيهم ذهب.

(٤) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – ج١٢ ص١١٠ .

(٥) وهذا من باب توارد الخواطر وتواترها مع الوحي الإلهى، فكلما كانت النفوس سليمة لله، والعقول متجهة نحوه جل شأنه، فإن قدرة أصحابها على التخليق فى العالم الأعلى تكون عالية.

(٦) سورة الأنعام – لا ية ٩٢ .

(٧) وهذا لا يجوز إلاَّ على سبيل اللغة، أما المعنى فلا يصح؛ لأن الخالق واحد هو الله رب العالمين.

وذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس وإنما يضاف الخلق إلى الله تعالى وقال ابن جريج وإنما قال أحسن الخالقين لأنه تعالى قد أذن لعيسى عليه السلام أن يخلق، واضطرب بعضهم في ذلك ولاتنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم.

قال ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا الله أعلم فقال عمر ما تقول ياابن عباس فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى خلق السموات سبعا، والأرضين سبعا، وخلق آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأراها في ليلة سبع وعشرين فقال عمر رضي الله عنه أعجزتم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه [١].

فأراد ابن عباس خلق آدم من سبع بهذه الآية[٢]، وبقوله وجعل رزقه في سبع قوله فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا[٣]، السبع منها لابن آدم والأب للأنعام والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء، وقيل القضب البقول لأنها

---

(١) وهذا جزء من حديث يرويه ابن عباس، ونصه عن ابن عباس قال « كان عمر يدعوني مع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لي لا تكلم حتى يتكلموا قال فدعاهم فسألهم عن ليلة القدر فقال أرأيتم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوها في العشر الأواخر أي ليلة ترونها قال فقال بعضهم ليلة إحدى وقال بعضهم ليلة ثلاث وقال آخر خمس وأنا ساكت قال فقال ما لك لا تتكلم قال قلت إن أذنت لي يا أمير المؤمنين تكلمت قال فقال ما أرسلت إليك إلا لتتكلم قال فقلت أحدثكم برأيي قال عن ذلك نسألك قال فقلت السبع رأيت الله عز وجل ذكر سبع سماوات ومن الأرض سبعا وخلق الإنسان من سبع ونبت الأرض سبع قال فقال هذا أخبرتني ما أعلم أرأيت ما لا أعلم ما هو قولك نبت الأرض سبع قال فقلت إن الله يقول ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا إلى قوله وفاكهة وأبا والأب نبت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس قال فقال عمر أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه بعد إني والله ما أرى القول إلا كما قلت وقال قد كنت أمرتك أن لا تكلم حتى يتكلموا وإني آمرك أن تتكلم معهم » [العلامة محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري المولود ٢٢٣هـ المتوفى ٣١١هـ – صحيح ابن خزيمة ج٣ ص٣٢٢ – [٢١٢] باب الأمر بالتماس ليلة القدر وطلبها في العشر الأواخر من رمضان بلفظ مجمل غير مفسر الحديث: ٢١٧٢ – المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م – عدد الأجزاء ٤ – تحقيق د. محمد مصطفى الأعظم، وأخرجه الحاكم المستدرك على الصحيحين ج١ ص٦٠٤ – الحديث ١٥٩٧ . ج٣ ص٦٢١ رقم: ٦٢٩٧، والبيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٤ ص٣١٣ – رقم: ٨٣٤٢].

(٢) وهي مراحل متعلقة بالكائن الإنساني ومراحله على الرأى الصحيح .

(٣) سورة عبس – الآيات ٣١/٢٧ .

تقضب فهي رزق ابن آدم وقيل القضب والأب للأنعام والست الباقية لابن آدم والسابعة هي للأنعام إذ هي من أعظم رزق »[١].

وهذا الجانب المادى فى الإنسان إذا انتهت صلاحيته وقع عليه الغناء جزئيا المتمثل فى موت بعض الخلايا، أو كليا وهو عجز أجزاء الجسم كلها عن القيام بواجباتها على النحو الذى خلقها الله تعالى للقيام به، فيقع الموت الكلى الذى يمثل انفصال الروح عن الجسم(٢).

كما بين سبحانه الله تعالى أنه قد خلق الإنسان وفيه جانب غير مادى، قد يرى بأثاره، وقد تختفى بعض أثاره على العوام فلا يدركها أحد إلاَّ الخواص، من هذا الجانب الروح والعقل والضمير والوجدان والمشاعر الرقيقة، كالحب والحزن والفرح، فإنها جميعا غير مرئية؛ لأنها ليست مادية[٣]، وإنما قد تظهر بعض أثارها على بعض بنى الإنسان الذين لديهم القدرة على إبراز ذلك الجانب، كما قد تختفى بعض أثارها لدى بعض أخر ممن لديهم القدرة على ذلك.

وهذا الجانب غير المادى يحتاج إلى ما يتغذى به، ويعمل على صيانته واستمرار حياته، ولا يكون إلاَّ من قبيله أيضا، فكما لا يمكن تغذية أجزاء الجسم المادى بالروحانى، فكذلك لا يمكن تغذية الروحانى بالمادى، فالطعام والشراب إذا وجد بالحق بالمعدة فإنهما يملأنها ويغنيانها عن طلب المزيد من الطعام، حتى تفرغ من هضم ما بها، لكنهما لا يشبعان القلب المحب المتعلق بمحبوبة إلى حد العشق له، والهيام به، ولذا قالوا: إذا كانت تغذية الأجسام بالطعام والشراب؛ فإن تغذية العقول بالمعارف والفنون[٤].

---

(١) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٢ ص: ١١١/١٠٩ .

(٢) راجع فى ذلك كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى – فصل علاقة الموت بالغيب ففيه تفاصيل كثيرة .

(٣) الدكتور رءوف عبيد مطول الإنسان روح لا جسد ج١ ص١٣٧ .

(٤) الدكتور جون اشتابك – الطب الجسدى ص٢١ .

وقد نبه إلى وجود هذا الجانب غير المادى فى الإنسان القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المطهرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

◉ **قال الحافظ ابن كثير**: « الأفئدة هى العقول التى مركزها القلب على الصحيح، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها »[٢]، وذهب البعض إلى أن العقول مركزها الدماغ، ولكنه رأى ضعيف.

◉ **وقال العلامة الألوسى**: « فى تقديمهما – أى السمع والبصر – على الأفئدة المشار بها إلى العقل، لتقدم الظاهر على الباطن، أو لأن لهما مدخلاً فى إدراكه فى الجملة، بل هما من خدمه، والخدم تتقدم بين يدى السادة، وكثير من السنن أمر بتقديمها على فروض العبادات »[٣]، وربما كان ذلك لحكمة لا يعلمها إلا الله، وتفويض معرفة الحقيقة فيها إلى الله أسلم.

◉ **قال الإمام الفخر الرازى**: « واعلم أن ذكرها هاهنا تنبيهاً على دقيقة لطيفة، كأنه تعالى قال: أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من هذه القوى الشريفة، لكنكم ضيعتموها، فلم تقبلوا ما سمعتموه، ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأملتم فى عاقبة ما عقلتموه، فكأنكم ضيعتم هذه النعم، وأفسدتم هذه المواهب. فلهذا قال: ﴿ قليلا ما

---

(١) سورة النحل – الآية ٧٨ .

(٢) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٧٩ ، وج٢ ص٥٨٠ (طبعة دار الفكر – بيروت ١٤٠١هـ).

(٣) العلامة الألوسى – روح المعانى والسبع المثانى– جـ١٤ ص٢٠٢ – طبعة دار الفكر، والألوسى هو شهاب الدين السيد محمود أفندى الألوسى. ولد سنة ١٢١٧هـ فى جانب الكرخ من بغداد، كان محدثاً ومفسراً وأصوليا فقيهاً، اشتغل بالتدريس والتأليف، وترأس المذهب الحنفى. توفى سنة ١٢٧٠هـ . (التفسير والمفسرون) ط الذهبى جـ١ ص٣٥٢ – دار الكتب الحديثة مصر – الطبعة الثانية .

تشكرون ﴾ وذلك لأن شكر الله تعالى هو أن تُصرف هذه النعمة إلى وجه يرضاه، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل، لا إلى طلب مرضاته، فأنتم ما شكرتم نعمه البتة »[1].

من ثم فقد دلت الآية، على أن المعارف الإنسانية، لا تأتي من الطعام والشراب. وإنما تأتي من مصادر وحيية جاء بها النقل المنزل[2]، أو من مصادر عقلية خلقها الله تعالى في الإنسان لتقوم بهذا الدور المعرفي[3]، ومن مصادر حسية ظاهرية كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس[4].

ثم إن هذا الجانب غير المادى فى الإنسان هو الروحانى، باعتبار أن الإنسان روح ومادة، وكما يحرص الإنسان على جزئه المادى ويعنى به، فإنه من باب أولى يحرص على الجزء الروحانى، ويزيد في العناية به؛ لأن الأصل فى الإنسان هو الروحانى، بدليل أن الله تعالى فى الأزل خلق الأرواح أولا، وجعلها عنده فى عالم الذر، وأخذ عليها العهد بتوحيده وعبادته. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[5].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير** : « يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا

---

(١) العلامة الفخر الرازى - مفاتيح الغيب - جـ١٥ ص٦٣٧ .

(٢) راجع كتابنا: عبدالخطيب وآراؤه الفلسفية، وكذلك كتابنا منهج السلف بين الغزالى وديكارت، وكذلك للدكتور مصطفى غلوش: البعد الرابع فى نظرية المعرفة، حيث أكد على ضرورة اعتبار المصدر الوحيى أرقى المصادر المعرفية، ونحن أيضا نؤكد على ذلك، ونتمسك به.

(٣) وهذا الاتجاه يظهر بوضوح فى كتابات مفكرى المسلمين؛ لأن العقل حجة الله على عباده، وبالتالى فمعارقة طالما كانت فى حدود إمكانياته، فإنها تقبل أما إذا تجاوزت الإمكانيات فانها ترد. وراجع كتابنا: نظرية المعرفة عن ابن رشد.

(٤) الحواس الظاهرة هى الخمسة السالفة الذكر، ويذهب البعض إلى أن الحواس الباطنة هى الأخرى خمسة. راجع الإشارات والتنبيهات للشيخ الرئيس ابن سينا.

(٥) سورة الأعراف - الآية ١٧٢ .

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١]، وبالتالى فالله تعالى أخذ الميثاق من بني آدم على توحيده وعبادته »[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وفي رواية على هذه الملة فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء [٣].

وعن عياض بن حمار[٤] قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم [٥].

وعن الأسود بن سريع[٦] من بني سعد قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال ما بال أقوام يتناولون الذرية فقال رجل يا رسول الله أليسوا

---

(١) سورة الروم – الآية ٣٠ .

(٢) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٢ ص٢٦٢ .

(٣) الإمام البخارى – صحيح الإمام البخارى – الحديث رقم: خ ١٣٥٩ ، وأخرجه الإمام مسلم – صحيح الإمام مسلم – الحديث: ٢٦٥٨.

(٤) هو « عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم المجاشعي الدارمي له صحبة، وهو من متقشفة الصحابة، سكن البصرة حديثه عند أهلها وكان حليفا لأبي سفيان بن حرب. [راجع الثقات ج٣ ص٣٠٨ رقم:١٠٠٣، و التاريخ الكبير ج٧ ص١٩ رقم:٨٦]

(٥) الإمام مسلم – صحيح مسلم ٢٨٦٥ .

(٦) هو « الأسود بن سريع من بني مرة بن عبيد السعدي التميمي أبو عبد الله قال لنا مسلم عن السري بن يحيى، غزا مع النبي أربع غزوات يعد في البصريين، وروى مسلم عن الأسود وكان شاعرا أول من قص في هذا المسجد محمد بن يحيى سمعت أحمد بن حنبل يقول الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة بن حصين بن نزال بن مرة مات سنة ثنتين وأربعين وقال علي قتل أيام الجمل » [راجع التاريخ الكبير ج١ ص٤٤٥ رقم: ١٤٢٥].

أبناء المشركين فقال إن خياركم أبناء المشركين ألا إنـها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها][1].

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وفي بعضها الإستشهاد عليهم بأن الله ربهم.

من ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي][2].

عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [أخذ الله الميثاق من ظهر آدم فأخرج من صلبه ذرية ذراها فنثرهم نثرا بين يديه كالذر ثم كلمهم فقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون][3].

وعن جرير قال مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فإن ابني مجلس ومسؤول ففعلت به الذي

---

(١) الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص١٣٣ – الحديث: ٢٥٦٦. وذكره الهيثمى فى الزوائد – ج٩ ص٧٧ ، والبيهقى فى سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص١٣٠ – [١٠٨] باب الولد تبع لأبويه حتى يعرب عنه اللسان الحديث: ١٨١١٤.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج: ٣ ص: ١٢٧ – الحديث: ١٢٣١١، وروى مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢١٦٠ – [١٠] باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا – الحديث: ٢٨٠٥ بلفظ عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذابا لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديا بها فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك أحسبه قال ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك.

(٣) الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص٨٠ – رقم: ٧٥ .

أمر فلما فرغت قلت يرحمك الله عما يسئل ابنك من يسأله إياه قال يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم[١].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة، فهذه الطرق كلها مما تقوى بعضها.

وسئل عمر بن الخطاب عن هذه الآية وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال [إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار][٢]،

وعن أبي هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك

---

(١) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٢/٢٦٣

(٢) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص٢٦٦ – الحديث: ٣٠٧٥ ، وأخرجه الإمام مالك – موطأ مالك ج٢ ص٨٩٨ – [٤٦] كتاب القدر [١] باب النهى عن القول بالقدر – الحديث: ١٥٩٣، والإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج١ ص٤٤ – الحديث: ٣١١ . والعلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٤ ص٣٧ – ذكر إخراج الله جل وعلا من ظهر آدم ذريته وإعلامه إياه أنه خالقها للجنة والنار – الحديث: ٦١٦٦، والحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٥٩٤ – الحديث: ٤٠٠١.

فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص مابين عينيه قال أي رب من هذا قال هـذا رجـل مـن آخـر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمـره قـال ستين سـنة قـال أي رب قـد وهبت له من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملـك المـوت [illegible] من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطـها ابنـك داود قـال فجحـد آدم فجحـدت ذريتـه ونسـي آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت، فرأى فيهم القوي والضعيف والغني والفقير والمبتلى قال يا رب ألا سويت بينهم قال أردت أن أشكر][1]،

وعن أبي هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله بإذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يـا آدم اذهـب الى أولئك الملائكة؛إلى ملأ منهم جلوس فسلم عليهم/فقـال السـلام عليكـم فقـالوا وعليكـم السـلام ورحمة الله،ثم رجع إلى ربه،فقال هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم،وقال الله جـل وعـلا ويـداه مقبوضتان اختر أيهما شئت،فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة،ثم بسطهما فإذا فيهما آدم وذريته،فقال أي رب ما هؤلاء فقال هؤلاء ذريتك.فإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه،فإذا فيهم رجل اضوؤهم أو من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعين سنة،قـال يـا رب ما هذا قال هذا ابنك داود،وقد كتب الله عمره أربعين سنة،قال أي رب زده في عمره قال ذاك الذي كتبت له قال فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة،قال أنت وذاك اسكن الجنة فسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط منها،وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قـد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنـك داود منـها سـتين سـنة فجحـد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته فيومئذ أمر بالكتاب والشهود][2].

---

(١) ابن أبى يعلى – مسند أبي يعلى ج١١ ص٢٦٣ – الحديث: ٦٣٧٧ .

(٢) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص٢٦٧ – الحديث ٣٠٧٦ ، وأخرجه ابن حبـان – صحيـح ابـن حبـان ج١٤ ص٤٠ – ذكر خبر أوهم عالما من الناس أنه يضاد خبر عمر بن الخطاب رضي الله عنـه الـذي ذكرنـاه – الحديث: ٦١٦٧.

وعن هشام بن حكيم[1] رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أتبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار،فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة،وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار.

وعن أبي أمامة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم قالوا بلى قال يا أصحاب الشمال قالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم قالوا بلى ثم خلط بينهم فقال قائل له يارب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم ردهم في صلب آدم][2].

وعن أُبيّ بن كعب في قوله تعالى وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم الآيات قال فجمعهم له يومئذ جميعا ماهو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق،وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم،قالوا بلى الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع،والأرضين السبع،وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري،ولا رب غيري،ولا تشركوا بي شيئا، وإني سأرسل إليكم رسلا يذكروكم عهدي وميثاقي،وأنزل عليكم كتبي،قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لارب لنا غيرك،ولا إله لنا غيرك،فأقروا له يومئذ بالطاعة،ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك،فقال يارب لو سويت بين عبادك قال إني أحببت أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور،وخصوا بميثاق آخر من الرسالة

---

(١) هو « هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي شامي له صحبة روى عنه عروة بن الزبير وقتادة البصري حديث الزبيدي في القدر سمعت أبي يقول ذلك قال أبو محمد روى عنه جبير بن نفير، وكان يقيم بالمدينة ويخرج إلى الشام غازيا فحديثه عند أهل المصرين ومات بالمدينة » [راجع الجرح والتعديل ج٩ ص٥٣ – رقم:٢٢٦ ، ومشاهير علماء الأمصار ج١ ص٢٨ رقم:١٣٤ ، والتاريخ الكبير ج٨ ص١٩١ – باب هشام – رقم:٢٦٦٤].

(٢) الإمام الطبراني – المعجم الكبير ج٨ ص٢٤٢ – الحديث: ٧٩٤٣ .

والنبوة فهو الذي يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1]. وهو الذي يقول ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، ومن ذلك قال هذا ﴿ نذير من النذر الأولى ﴾[3]، ومن ذلك ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾[4].

فهذه الأحاديث والآثار دالة كلها على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وهو القاسم المشترك بينهما[5]، فدل الأمر على أن توحيد

---

(١) سورة الأحزاب – الآية ٧ .

(٢) سورة الروم – الآية ٣٠ .

(٣) سورة النجم – الآية ٥٦ .

(٤) سورة الأعراف – الآية ١٠٢.

(٥) يقول ابن كثير: ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية البصري عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال وإذ أخذ ربك من بني آدم ولم يقل من آدم من ظهورهم ولم يقل من ظهره ذرياتهم أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن كقوله تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الأرض وقال ويجعلكم خلفاء الأرض وقال كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين، ثم قال وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقال الشهادة تارة تكون بالقول كقوله قالوا شهدنا على أنفسنا الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مسجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى وإنه على ذلك لشهيد كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال كقوله وآتاكم من كل ما سألتموه قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فإن قيل إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كاف في وجوده فالجواب ان المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ماجاءتهم به الرسل من هذا وغيره وهذا جعل حجة مستقلة عليهم. [تفسير القرآن العظيم – ج٢/٢٦٥]

الله تعالى وعبادته هو الفطرة التي فطر الناس عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال أن تقولوا أي لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا أي التوحيد غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا»[1].

كما أن حركة الروح أعلى بكثير من حركات البدن كلها بدليل أن الإنسان قد يكون فى مكان محبوساً بجسده، لكن روحه تتجول فى أماكن بعيدة، وتتعلق بآمال لا حصر لها. مثال ذلك: من يعد نفسه لأداء فريضة الحج للمرة الثانية أو ما بعدها؛ فإنه يكون جسده فى بيته ببلده الذى يقيم به لكن عقله وروحه ومشاعره تنطلق إلى الأماكن المقدسة فى رحلة تذكر متواصل لتلك الأماكن التى أمكنه الوقوف عليها يوما ما فى المرة السابقة، وبالتالى يزداد تعلقه بها، ويكثر اشتياقه إليها، بل ربما فاضت دموعه - رغما عنه - وهو فى حالة التذكر هذه.

من ثم فقد ذهب العلماء إلى أن الإنسان فى منامه ينطلق بروحه إلى عوالم تعجز عن الوصول إليها أجزاؤه البدنية كلها[2]، إن روحه تنطلق به وعقله هو الأخر يسرع إلى آماله التى يبحث عنها، وربما سمحت مشاعره لخياله أن يصورها متحققة - فى الخيال فقط - فتعود نفسه من تلك الرحلة راضية، حتى إنه ليقضى نهار يومه فى ذلك الأمل، فتراه فى سعادة غامرة وفرح عارم، وسرور يملأ عليه باقى يومه أو يمتد معه إلى ما بعد ذلك.

ولا شك أن التعلق بالملأ الأعلى سمة من سمات الروح الإنسانى، كما أن محاولة إرضاء الله ﷻ طابع فى الذى صافاه الله واصطفاه؛ لأنه يرى الحياة مهما طالت قصيرة، ومهما استقرت فإنها ستزول، ومهما حلت فحتما سيأتي اليوم الذى تتغير فيه، حتى قيل عن الدنيا: « إنها متى حَلَت أوْحَلت[3]، وإذا كست أوْكَست[4]، وإذا دنت أَوْدَنت[5]، وكم

---

(١) الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٢٦٥ .

(٢) الشيخ منصور محمد عبدالباقي - الروح والعوالم العلوية ص٥٣ ط١/١٩٣٧م.

(٣) وغرضهم أوقعت المتعلق فيها بالوحل، حتى إنه لا يستطيع الخروج من الطين الذى خاض فيه، وهو حال طلاب الدنيا الذين يعبدونها بعقولهم وعواطفهم، فتشغلهم عن كل ما سوى الله، ثم تستذلهم فلا يفيقون من ألاعيبها إلا بالموت، ثم يحاسبهم الله على ما قصروا فى جانب، وفى الحديث القدسي يقول رب العالمين جل شأنه: « يا دنيا أن اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك»(العلامة أبو نعيم الأصفهاني - حلية الأولياء ج٣ ص:١٩٤).

(٤) أوكست يعنى أوقعت صاحبها فى الخسارة؛ لأن الوكس هو النقص والخسارة مع الغبن، وفى القاموس وكس الشيء وكسا نقصه، والوكس فى التجارة هو البيع بالخسارة - (باب السين فصل الواو)- وغرضهم من ذلك أن الدنيا إذا كست أحدا من الناس فإنما تكسوه بما فيه الهلاك له. حيث يغتر به ثم تسحبه منه، فيقع له الخسران على كل ناحية.

(٥) غرضهم من أودنت أن طالب الدنيا إذا غره مظهرها واستجاب لألاعيبها؛ فإنها تنسحب منه بعد أن تغريه بمظاهرها الخادعة، وإذا حاول أن ينال منها؛ لم يجد إلا بعداً شديداً، حيث إنها تدبر عنه، وتدير ظهره لها فلا يجد من حبه لها إلا التعب والمشقة.

من ملك ارتفعت له علامات، فلما علا مات »[1]، واستمرار الحياة على ما يهوى المرء أمر محال، لما قيل: دوام الحال من المحال، والله عز وجل قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2].

۞ **يقول العلامة الطبري :** « يعني تعالى ذكره بقوله وتلك الأيام نداولها بين الناس أيام بدر[3] وأحد، ويعني بقوله نداولها بين الناس نجعلها دولا بين الناس مصرفة بين المسلمين والمشركين، وذلك أن الله عز وجل أدال [illegible]ـين من المشركين ببدر فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين وأدال المشركين من المسلمين بأحد فقتلوا منهم سبعين سوى من جرحوا منهم »[4].

---

(١) الشيخ عبدالعاطى محمد نصر الله – الزهد فى الإسلام ص٤١ ط أولى بالدار الميمنية ١٣١٨هـ.

(٢) سورة آل عمران – الآية ١٤٠ .

(٣) يقول الشيخ رشيد رضا : « كانت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة في شهر رمضان في السابع عشرة على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة (يناير سنة ٦٢٤ م) وكان سببها قتل عمرو الحضرمي واقبال أبي سفيان بن حرب من الشام في عير لقريش عظيمة وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهري وعمرو بن العاص. فلما سمع بها رسول الله ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموال فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم لأنهم ظنوا أن الرسول لا يلقى حربا. وكان أبو سفيان قد سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريده فحذر واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالا وبعثه إلى مكة يستنفر قريشا ويخبرهم الخبر فسار وألقى فيهم النفير فخرجوا مسرعين ومن تخلف أرسل مكانه آخر ولم يتخلف أحد من أشراف مكة إلا أبو لهب وبعث مكانه العاص بن هشام نظير أجر قدره ٤٠,٠٠٠ درهم وكان السبب في خروجهم حماية العير وانقاذها. [الشيخ محمد رشيد رضا – محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم – طبعة دار المنار الثانية ١٩٨٥م].

(٤) العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٤ ص١٠٣، وذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سنان قال ثنا أبو بكر الحنفي عن عباد عن الحسن وتلك الأيام نداولها بين الناس قال جعل الله الأيام دولا أدال الكفار يوم أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال قتادة: قوله وتلك الأيام نداولها بين الناس إنه والله لولا الدول ما أوذي المؤمنون ولكن قد يدال للكافر من المؤمن ويبتلى المؤمن بالكافر ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ويعلم الصادق من الكاذب.وعن الربيع قوله وتلك الأيام نداولها بين الناس فأظهر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين يوم بدر وأظهر عليهم عدوهم يوم أحد. وقد يدال الكافر من المؤمن ويبتلى المؤمن بالكافر ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ويعلم الصادق من الكاذب وأما من ابتلي منهم من المسلمين يوم أحد فكان عقوبة بمعصيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن البراء رضي الله عنه قال [لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله وقال لا تبرحوا إن رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا،فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن على سوقهن قد بدت خلاخلهن،فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا،فأبوا فلما أبوا صرفت وجوههم فأصيب سبعون قتيلا،وأشرف أبو سفيان فقال أفي القوم محمد فقال لا تجيبوه فقال أفي القوم بن أبي قحافة قال لا تجيبوه فقال أفي القوم بن الخطاب فقال إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال كذبت يا عدو الله،أبقى الله عليك ما يخزيك قال أبو سفيان أعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجيبوه قالوا ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم،فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجيبوه قالوا ما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان يوم بيوم بدر،والحرب سجال وتجدون مثلة لما آمر بها ولم تسؤني][1].

وقوله "وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء" قال فإن المسلمين كانوا يسألون ربهم ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيرا،ونلتمس فيه الشهادة،فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء،وعن قتادة في قوله وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء فكرم الله أولياءه بالشهادة بأيدي عدوهم ثم تصير جواصل الأمور وعواقبها لأهل طاعة الله[2]، وأما قوله والله لا يحب الظالمين فإنه يعني به الذين ظلموا أنفسهم بمعصيتهم ربهم

---

(١) الإمام البخارى - صحيح البخاري ج٤ ص١٤٨٦ - الحديث ٣٨١٧، وأخرجه ابن حبان - صحيح ابن حبان ج١١ ص٤٠ - الحديث: ذكر ما يستحب للإمام أن يوصي بعض الجيش إذا سواهم للكمين بما يجب عليهم علمه واستعماله - الحديث: ٤٧٣٨، وعن ابن جريج عن ابن عباس في قوله وتلك الأيام نداولها بين الناس فإنه أدال على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وعن سلمة عن ابن إسحاق وتلك الأيام نداوله بين الناس أي نصرفها للناس للبلاء والتمحيص، وعن ابن عون عن محمد في قول الله وتلك الأيام نداولها بين الناس قال يعني الأمراء.

(٢) وقال ابن جريج وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء قال قال ابن عباس كانوا يسألون الشهادة فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء، فعن الحسين بن الفرج قال سمعت أبا معاذ قال أخبرنا عبيد بن سليمان قال سمعت الضحاك يقول في قوله وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء كان المسلمون يسألون ربهم أن يريهم يوما كيوم بدر يبلون فيه خيرا ويرزقون فيه الشهادة ويرزقون الجنة والحياة والرزق فلقي المسلمون يوم أحد فاتخذ الله منهم شهداء وهم الذين ذكرهم الله عز وجل فقال ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات الآية. [العلامة الطبرى - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٤ ص١٠٦].

والله لا يحب الظالمين أي المنافقين الذي يظهرون بألسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرة على المعصية »[1].

في نفس الوقت فإن المرء المسلم الكامل متى نظر مأرب السعادة؛ وجدها تقع في أمرين:

* **الأول** : أمر الآخرة: لأنها الأبقى متى قورنت بالدنيا، والأعلى ثم الأفضل والأشمل، بجانب الأوفى. قال تعالى: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[2].

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – : « المتاع ما يتمتع به وينتفع كالفأس والقدر والقصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه. قاله أكثر المفسرين. وقال الحسن : متاع الحياة الدنيا كخضرة نبات، ولُعبَ البنات لا حاصل له. وقال قتادة: وهي متاع متروك توشك أن تضمحل أهلها، فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع في طاعة الله سبحانه وتعالى ما استطاع »[3]. ثم إن السعادة المتعلقة بالآخرة إنما تشمل الجسم والروح معاً، فهي لذلك سعادة كاملة.

* **الثاني**: أمر الدنيا وهي القليلة الزائلة مهما امتدت، القصيرة مهما طالت، بجانب أنها غير مأمونة؛ لأن التبدل فيها قائم والأعراض داخلها لا تنقطع، وبالتالي فالسعادة القائمة فيها والمتعلقة بها إنما تكون للجسم فقط لا للروح، بدليل أن الرغبات الجسدية كلها تنقضي فور تحقيقها، ولا تستمر إلا وقتا قليلاً، ثم تزول تلك السعادة وتنقضي ذات اللذات بانقضاء وقتها، ولا تستمر بعده مهما حاول المرء تذكرها، أو استرجاع صورتها التي وقعت فيها[4]، وكل سعادة بدنية إنما هي ناقصة؛ لأنها تجعل الروح خادما لها،

---

(١) العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٤ ص:١٠٣/١٠٧ .

(٢) سورة التوبة – الآية ٣٨ .

(٣) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – ج٣ ص١٥٤٤ .

(٤) فمن أكل طعاما لذيذاً سعد به وقت أكله له فقط، فإن تلك السعادة تنقضي بمجرد مغادرة فضلات الطعام من الفم إلى المعدة، حتى قيل: لذة الفم بما فيه، ومن وطأ امرأته التي يحبها فإن سعادته تنقضي بمجرد إفراغ شهوة فرجه. وكل ما كان من لذة البطن والفرج فإنه ينقضي فور الانتهاء منها، مهما كانت صورتها مسعدة وجميلة؛ لأنها وقتية .

وكل سعادة روحية إذا جاءت على وجه مشروع فإنها تستمر وتبقى[1]، لأنها تجعل الجسد هو الخادم لها، وقد أيقن الأنبياء والمرسلون أن للنفس الإنسانية معارج قدسية، وأن الروح البشرية تعلو على الدوام للصعود نحو الملأ الأعلى، وأنها لا تنقطع عن ذلك الترحال المتواصل، وكلما أكثرت النفس الإنسانية من ذلك، كلما ازدادت صفاء ونقاء واصطفاء، حتى يصير الجسد عبداً لها يأتمر بأمرها، ويسعى لخدمتها، وحينئذ يعلو الإنسان فوق الملائكة، لما هو معلوم من أن الإنسان إذا تغلبت نفسه على نوازعه الجسدية صارت أعضاؤه منقادة إليها فلا يصدر عنه إلاَّ الخير[2]، أما إذا تغلبت شهواته الجسدية على قدراته النفسية؛ فإنه يصير عبدا لشهواته الجسدية، ولا يصدر عنه إلا الشر.

وقديما قيل :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ∴ أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ∴ فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وكن على الدهر معوانا لدى أمل ∴ يرجو نداك فإن الحر معوان
واشدد يديك بحبل الله معتصما ∴ فإنه الركن إن خانتك أركان
إذا جفاك خل كنت تألفه ∴ فاطلب سواه فكل الناس إخوان[3]

كما قيل:

صن النفس واحملها على ما يزينها ∴ تعش سالما والقول فيك جميل
ولا ترين الناس إلاَّ تجملا ∴ نبابك دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد ∴ عسى نكبات الدهر عنك تزول
يعز غنى النفس وإن قل ماله ∴ ويغنى غنى المال وهو ذليل

---

(١) راجع كتابنا: السعادة في الفكر الإنساني حيث تعرضت لبيان ذلك بقدر ما أعانني الله تعالى، وأرجوك أن تسأل الله لى السلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وما ذلك على الله بعزيز.

(٢) وحينئذ يكون كالملائكة؛ لأنهم لا يصدر عنهم إلاَّ الخير فقط. لقوله تعالى ﴿بل عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء - الآيات ٢٦/٢٨]

(٣) الشيخ محمد عثمان الدابوني - من شعر الصوفية ص٧٥ ط١٩٤٣/٢م، وقد نسب الأبيات إلى الإمام الشافعي رضى الله عنه.

ولا خـير فـى ود امـرء متلــون ∴ إذا الريـح مـالت مـال حيث تميــل
جواد إذا استغنيث عــن أخـذ مالـه ∴ وعند احتمـال الفقـر عنـك بخيـل
ومـا اكـثر الإخـوان حـين تعدهــم ∴ ولكنـــهم فـى النائبـات قليـــل[1]

ومن جملة الأبيات السابقة، اتضح أن عناية الإنسان بالجانب المادى يجب أن تكون فى حدود ما يحفظه، بحيث يؤدى وظيفته المنوطة به على أن يكون ذلك من خلال ما شرع الله تعالى، أما عنايته بالجانب الروحى فإنها تكون أشد والحرص عليه أهـم، والتمكـن منـه ضرورة شرعية؛ لأن عليه مدار الهداية أو الضلال، ولعل ذلك مما يستشهد له بقول الله تعالى امتنانا على بنى الإنسان. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2].

❁ **يقول العلامة الطبرى :** « يقول تعالى ذكره ألم نجعل لهذا القائل-أهلكت مالا لبدا-عينين يبصر بهما حجج الله عليه، ولسانا يعبر به عن نفسه بما أراد، وشفتين نعمـة منـا بذلـك عليه. قال قتادة قوله ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين نعم من الله متظاهرة يقررك بها كيما تشكره.

وقوله وهديناه النجدين[3] هما الطريقان، واختلف أهل التأويل في معنـى ذلـك فقـال بعضهم عني بذلك نجد الخير ونجد الشر كمـا قـال ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[4]، وقيل: وهديناه النجدين قال الخير والشر، وعـن ابـن عبـاس قـال وهدينـاه النجدين هما طريق الهدى والضلالة، وقال رسول الله هما نجدان نجد خير، ونجد شـر فمـا جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»[5].

---

(١) الشيخ فتحى عبدالعظيم الجزولى – التربية الروحية للصوفية ص٢٩ – طبعـة أم درمـان ١٩٥٧م ، ونسـب الأبيات إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

(٢) سورة البلد – الآيات ١٠/٨ .

(٣) النجد فى اللغة هو الطريق الأخذ فى الارتفاع كلما سـرت عليـه، فـهو كـالطريق الموصـل إلى كوبـرى مـن بدايته يكون قريبا من الأرض، وكلما سرت عليه ناحية القمة ارتفع بك عن الأرض.

(٤) سورة الإنسان – الآية ٣ .

(٥) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج:٣٠ ص: ٢٠٠/١٩٩

فالله تعالى جعل العينين كما جعـل اللسـان والشـفتين، وإذا كـانت العينان لهما أجفان فإن الشفتين بينهما اللسان، وذلك كله من العناية بالجانب المادى فى الإنسان حتى يكون فى أحسن تقويم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

أما الجانب الروحى فجاء فى قوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ فالهداية لا تعلق لها بالجانب المادى، وإنما تعلقها بالجانب الروحانى العقلى والقلبى، كما أن الإضلال لا يكـون بالجانب المادى، وإنما يكون بالناحية العقلية القلبية الروحية أيضا. قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

❁ **يقول العلامة ابن كثير** فى معنى الآية : « ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فييسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[3] الآية وقال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[4]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به[5].

وعن ابن عمر أنه قال ، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال يا رسول الله أي المؤمنين أفضل قال

(١) سورة التين – الآية ٤ .

(٢) سورة الأنعام – الآية ١٢٥ .

(٣) سورة الزمر – الآية ٢٢ .

(٤) سورة الحجرات – الآية ٧ .

(٥) وإلى هذا الرأى ذهب الكثيرون، وله ظواهر عديدة تجعله أكثر وضوحا.

أحسنهم خلقا قال فأي المؤمنين أكيس •قال أكثرهم للموت ذكرا،وأحسنهم لما بعده استعدادا أولئك الأكياس [١].

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الإيمان إذا دخل القلب انفسح له القلب وانشرح،وذكر هذه الآية فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام قالوا يا رسول الله وهل لذلك من آية يعرف بها قال نعم الانابة إلى دار الخلود،والتجافي عن دار الغرور،والاستعداد للموت قبل الموت [٢].

---

(١) الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٤٢٣ – الحديث: ٤٢٥٩، وأخرجه الطبراني – المعجم الأوسط ج٥ ص٦١ – الحديث: ٤٦٧١ ، والحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص٥٨٣ – الحديث: ٨٦٢٣ وزاد « ثم سكت الرجل وأقبل عليه النبي ﷺ فقال يا معشر المهاجرين خمس إن إبتليتم بهن ونزل فيكم أعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم من غيرهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم ثم أمر عبد الرحمن بن عوف يتجهز لسرية بعثه عليها وأصبح عبد الرحمن قد أعتم بعمامة من كرابيس سوداء فأدناه النبي صلى الله عليه وسلم ثم نقضه وعممه بعمامة بيضاء وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحو ذلك وقال هكذا يا بن عوف اعتم فإنه أعرب وأحسن ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا أن يدفع إليه اللواء فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال خذ بن عوف فاغزوا جميعا في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبيه صلى الله عليه وسلم وسلم هذا ».

(٢) العلامة ابن أبي شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص٧٦ – الحديث: ٣٤٣١٤، وعن عبد الله بن المسور قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام قالوا يا رسول الله ماهذا الشرح قال نور يقذف في القلب قالوا يا رسول الله فهل لذلك إمارة تعرف قال نعم قالوا وما هي قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت. وعن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا فهل لذلك علامة يعرف بها قال الإنابة إلى دار الخلود والتنحي عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل لقاء الموت] وعن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام قالوا يا رسول الله وكيف يشرح صدره قال يدخل فيه النور فينفسح قالوا وهل لذلك علامة يا رسول الله قال التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإستعداد للموت قبل أن ينزل الموت فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا[١] ﴾، وهو الذي لا يتسع لشئ من الهدى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه،وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر رضي الله عنه كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير[٢].

وعن ابن عباس قال يجعل الله عليه الإسلام ضيقا والإسلام واسع،وذلك حين يقول ما جعل عليكم في الدين من حرج يقول ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق، وعن أبي جريج قال: يجعله ضيقا حرجا بلا إله إلا الله حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه، وكان ابن عباس يقول كأنما يصعد في السماء فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير وهذا ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه وطاقته، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله، لأن الرجس صورة الشيطان، بل إن الرجس هو كل ما لا خير فيه حتى يدخل صاحبه أشد العذاب ››[٣].

---

(١) في لفظ ضيقا وحرجا قراءات، حيث قرئ لفظ ضيقا بفتح الضاد وتسكين الياء والأكثرون ضيقا بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهين وقرأ بعضهم حرجا بفتح الحاء وكسر الراء قيل بمعنى أثم قاله السدي وقيل بمعنى القراءة الأخرى حرجا بفتح الحاء والراء.

(٢) وهذا التشبيه وإن كان فيه تشبيه المعقول بالمحسوس، فإنه قصد به بيان أن قلب الضال لا يصل إليه الخير مهما كثر أهله.

(٣) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٢ ص١٧٥ .

ومن الأدلة على أن الجانب الروحى فى الإنسان يبقى مع ".. حتى بعد الانتقال إلى الدار الآخرة قوله ﷺ: « ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله إلي روحي حتى أرد عليه »[1]، وذكر الشهاب الخفاجى أن الأنبياء والشهداء أحياء، وحياة الأنبياء أقوى، وإذا لم يسلط عليهم الأرض فهم كالنائمين، والنائم لا يسمع ولا ينطق حتى ينتبه »[2].

فمعنى الحديث: « أنه ﷺ إذا صلى عليه أحد من أهل الإسلام فإنه ﷺ يستيقظ من النوم، فالمراد برد الروح هو الإرسال الذى فى قوله تعالى ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[3]، لا أن روحه ﷺ تقبض قبض الممات، ثم تنفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها »[4].

ومما يدل على أن الروح أطول عمرا وأكثر حركة، وأسرع انطلاقا وأبعد تأثيراً من البدن ما روى عن عبدالرحمن بن سمرة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني رأيت البارحة عجبا،رأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك،ورأيت رجلا من أمتي قد سلط عليه عذاب القبر فجاءته صلاته فاستنقذته من ذلك ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه منهم،ورأيت رجلا من أمتي يلهث من العطش فجاءه صيام رمضان فسقاه،ورأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمة،ومن خلفه ظلمة،وعن يمينه ظلمة،وعن شماله ظلمة،ومن فوقه ظلمة،ومن تحته ظلمة فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة،ورأيت رجلا من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بر والديه فرده عنه، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته

---

(١) العلامة الطبرانى – المعجم الأوسط ج:٩ ص١٣٠ – الحديث رقم:٩٣٢٩ عن أبي هريرة ، وراجع للعلامة العجلونى: كشف الخفاء ج٢ ص:٢٥٣ الحديث:٢٢٤٧ .

(٢) وكلام الشهاب الخفاجى من جعله الصلاة على الرسول ﷺ هى الموقظة له من النوم غير مسلم له، بل تعقبه الكثيرون من أهل الكشف، وأكدوا أن ما ذهب إليه الشهاب الخفاجى يعبر عن وجهة نظره، ولا دليل عليه، وراجع لأبى عبدالله الترمذى نوادر الأصول .

(٣) سورة الزمر – من الآية ٤٢ .

(٤) الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى – رد المتشابه إلى المحكم ص٢٢٥ – تعليق الشيخ عبدالرحمن حسن محمود – طبعة عالم الفكر ١٩٨٨م، وراجع أنباه الأذكياء للعلامة السيوطى.

صلة الرحم فقالت إن هذا كان واصلا لرحمه فكلمهم وكلموه وصار معهم، ورأيت رجلا من أمتي يأتي النبيين وهم حِلَق حِلَق، كلما مر على حلقة طرد، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأجلسه إلى جنبي، ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهج النار عن وجهه فجاءته صدقته فصارت ظلا على رأسه وسترا عن وجهه،ورأيت رجلا من أمتي جاءته زبانية العذاب فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من ذلك،ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله فأخرجته من النار،ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته إلى شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته في يمينه،ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه فجاء إقراضه فثقل ميزانه،ورأيت رجلا من أمتي يرعد كما ترعد الزعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته،ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط مرة ويجثو مرة ويتعلق مرة فجاءته صلاته علي فأخذت بيده فأقامته على الصراط حتى جاوز، ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله فأخذت بيده فأدخلته الجنة »[1].

أضف إلى ما سبق أن الجانب الروحانى فى الإنسان هو الأساس الذى تقوم عليه التكاليف الشرعية؛ لأن الميت ليست عليه تكاليف شرعية، كما أن النائم والمجنون والصبى ليست عليهم تكاليف شرعية، حتى تزول عنهم تلك العلل، لقوله ﷺ « رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل »[2].

ومن المعروف أن من سلف ذكرهم – النائم، والمجنون، الصبى، الميت – ما تزال الجوانب المادية فيهم باقية، ومع ذلك فلم يحسب لهم الشرع حسبانا فى الخطاب

---

(١) العلامة علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى ٨٠٧ هـ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج:٧ ص: ١٧٩/١٨٠ – دار الريان للتراث ،دار الكتاب العربي – القاهرة ، بيروت – ١٤٠٧هـ – عدد الأجزاء ١٠ .

(٢) الإمام أبو داود – سنن أبى داود ج٤ ص ١٣١ – كتاب الحدود – باب فى المجنون يسرق أو يصيب حداً – تحقيق صدقى محمد جميل – دار الفكر ١٩٩٤م) ورواه النسائى بلفظ: « رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، والصبى حتى يحلم، والنائم حتى يستيقظ» (الحديث أخرجه النسائى فى كتاب الطلاق – باب من لا يقع طلاقه – جـ٦ ص١٥٦، وأبو داود فى كتاب الحدود باب: فى المجنون يسرق أو يصيب حدا رقم: ٤٤٠٢، الترمذى: كتاب الحدود – باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، حديث رقم ١٤٢٣، وقال حسن غريب).

الشرعى[1]؛ لأن الجانب المادى فى الإنسان أحدَ الوسائل المساعدة لإتمام الأفعال، وليس هو الأصل فى إتيانها لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصـ[illegible] امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

۞ **يقول أحد الباحثين:** « إكمال العقل أول مقتضيات التكليف، وأعظمها أهمية للإنسان المكلف؛ لأنه يجب فيمن لزمه شيء أن يعرف ما لزمه، وأن يفصل بينه وبين غيره، بل أن يعرف وجه وجوبه، وما اختص به من صفاته؛ وذلك ليصح منه أن يفعله، أما إذا لم يعلم ذلك أولم يتمكن من معرفته، فإيجاب التكليف عليه بمنزلة إيجاب مالا يقدر عليه، ولما افتقد الصبى والمجنون العقل، الذى وجوده شرط فى التكليف، فقد قبح أن يكلف أصلاً؛ لأن تكليفهما ما لا يعرفانه بمنزلة تكليف ما لا يطاق»[3].

ولا يقال: إن شهادة الحواس على المرء ثابتة، فكيف لا تكون الحواس صاحبة أمر فى التكاليف الشرعية، لأنا نقول: إن شهادة الحواس ستكون فى الدار الآخرة كدليل على قدرة الله تعالى فى إنطاق الجمادات حتى تنطق على صاحبها بأوضح الشهادة، لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[4].

۞ **يقول صاحبا الجلالين:** « تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون من قول وفعل عند القيامة، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق يجازيهم جزاءه الواجب عليهم

---

(١) راجع كتابنا: الخطاب بين الأصولين ودعاة الحداثة ص١٧ وما بعدها – ط١/٢٠٠١م – آل بسيونى

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج١ ص:٣ – [١] كتاب بدء الوحي – [١] باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج:٢ ص١١٣ – [٣] باب الإخلاص وأعمال السر – رقم:٣٨٨ ، والبيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج:١ ص:٤١ – [٤٠] باب النية في الطهارة الحكمية – رقم:١٨١

(٣) الدكتور أحمد محمود حلمى – الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى – العقليون والزكيون أو النظر والعمل – ص٦٧ طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م.

(٤) سورة النور – الآيتان ٢٤/٢٥ .

ويعلمون أن الله هو الحق المبين حيث حقق لهم جزاءه الذي كانوا يشكّون فيه ومنهم عبد الله بن أبي بن سلول »[1].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْؤُولا﴾[2]. قال الإمام القرطبى – رحمه الله – : « أى يُسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع »[3].

۞ **وقال الشيخ عبدالكريم الخطيب**[4]: « فى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْؤُولا﴾. إشارة إلى أن الإنسان سيسأل عن تلك الجوارح، وهذه القوى التى أمده الله بها؛ ليتعرف إلى الحق والخير، فإن هو عطلها أو وجهها إلى وجوه الشر والفساد، كان مسئولاً عنها، محاسباً على تفريطه، أو إفراطه »[5].

۞ وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ

---

(١) تفسير الجلالين ج١ ص: ٤٦٠ .

(٢) سورة الإسراء – الآية ٣٦ .

(٣) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – جـ٦ ص٣٨٧٥ .

(٤) هو عبدالكريم محمود يونس أحمد حسن الخطيب ، ولد بقرية الصوامعة غرب التابعة لمركز طهطا بمدينة جرجا بمحافظة سوهاج فى مايو ١٩١٠م وعمل مدرسا بوزارة المعارف العمومية ثم سكرتيراً لوزير وزير الأوقاف على عبدالرازق، ثم أستاذاً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وبلغت مؤلفاته ٤٣ مؤلف منها التفسير القرآنى للقرآن، القصص القرآنى من العالم المنظور وغير المنظور، المرأة فى الإسلام، اليهود فى القرآن، المهدى المنتظر ومن ينتظرونه ...الخ . توفى رحمه الله فى نوفمبر ١٩٨٦م . راجع عبدالكريم الخطيب وآراؤه الكلامية – الدكتور محمد حسينى موسى محمد الغزلى (رسالة ماجستير بجامعة عين شمس) ص١٠/٣١. (وراجع عبدالكريم الخطيب والثقافة الإسلامية - الأستاذ السيد أبو ضيف المدنى ص١٢/١٤ طبعة دار الفكر العربى بمصر ، ومجلة الدعوة ١١ نوفمبر ١٩٨٦) .

(٥) الأستاذ عبدالكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن – جـ١٥ ص٤٨٨ – طبعة دار الفكر.

عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

۞ **يقول الإمام القرطبي** : « قوله تعالى حتى إذا ما جاءوا يوم القيامة شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقال الكفار لجلودهم لم شهدتم علينا وإنما كنا نجادل عنكم قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، فإنها لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل وهو خلقكم أول مرة أي ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطفا فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء وقيل وهو خلقكم أول مرة ابتداء كلام من الله وإليه ترجعون »[2].

وعن أنس بن مالك قال ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بُعْدا لَكُنّ وسُحْقا فعنكن أناضل [3].

عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة قالوا لا قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما قال فيلقى العبد فيقول أي ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى قال فيقول أفظننت أنك ملاقيَّ فيقول لا فيقول فإني

---

(١) سورة فصلت – الآيات ٢٠/٢٣ .

(٢) الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج١٥ ص٣٥٠ .

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٨٠ – الحديث: ٢٩٦٩ ، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص٣٥٨ – ذكر الإخبار بأن أعضاء المرء في القيامة تشهد عليه بما عمل في الدنيا – الحديث: ٧٣٥٨.

أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول أي ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى أي رب فيقول أفظننت أنك ملاقيّ فيقول لا فيقول فإني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع فيقول ههنا إذا قال ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه أنطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه][1].

وفى قوله تعالى "وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة، وعن ابن مسعود قال [اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قريشيان أو ثقفي وقريشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم فقال أحدهم أترون الله يسمع ما نقول فقال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]][3].

---

(١) الإمام مسلم - صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٧٩ - الحديث: ٢٩٦٨ .

(٢) سورة فصلت - الآية ٢٢ .

(٣) الإمام البخارى - صحيح البخاري ج٤ ص١٨١٨ - [٣٠٢] باب قوله وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون - رقم: ٤٥٣٨ ، وأخرجه مسلم - صحيح مسلم ج٤ ص٢١٤١ - رقم: ٢٧٧٥ ، وابن حبان - صحيح ابن حبان ج٢ ص١١٦/١١٧، والترمذى - سنن الترمذى ج٥ ص٣٧٥ . وعن أبي معمر عن عبد الله قال « إني لمستتر بجدار الكعبة إذا أتا برجلين كثير شحوم بطونهما قليل فقه قلوبهما فقال أحدهما لصاحبه أترى الله يسمع ما نقول قال فقال صاحبه إذا رفعنا سمع وإذا خفضنا لم يسمع قال فقال الآخر له إن كان يسمع إذا رفعنا فإنه يسمع إذا خفضنا قال فذكرت ذلك لرسول الله فنزلت هذه الآية وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولأبصاركم إلى قوله ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ». [العلامة أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار المولد ٢١٥هـ والمتوفى ٢٩٢هـ - البحر الزخار - ج٥ ص١٩٩ - الحديث: ١٧٩٨- مؤسسة علوم القرآن ، مكتبة العلوم والحكم - بيروت ، المدينة ١٤٠٩هـ - الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ١٠ - تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله].

قال الثعلبي والثقفي عبد ياليل وختناه ربيعة وصفوان بن أمية ومعنى تستترون تستخفون في قول أكثر العلماء أي ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عمله فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية وقيل الاستتار بمعنى الاقتداء أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة[1].

وعن قتادة قال: وما كنتم تستترون أي تظنون أن يشهد عليكم سمعكم بأن يقول سمعكم الحق وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصي ولا أبصاركم فتقول رأيت آيات الله وما اعتبرت ونظرت فيما لا يجوز ولا جلودكم تقدم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم، روي بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم قال: إنكم تدعون يوم القيامة مقدمة أفواهكم بفدام فأول ما يبين عن الإنسان فخذه وكفه[2].

---

(١) والمعروف أن العاقل متى أدرك أنه إن وقع في الخطأ حوسب، فإنه يقلع عن ذلك فوراً.

(٢) الإمام الطبراني – المعجم الكبير ج١٩ ص٤٠٧ – الحديث:٩٦٩ بلفظ عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت والله ما جئتك حتى حلفت بعدد أصابعي هذه أن لا أتبعك ولا أتبع دينك وإني أتيت امرءا لا أعقل شيئا إلا ما علمني الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وإني أسألك بالله بم بعثك ربك إلينا قال اجلس ثم قال بالإسلام فقلت وما آية الإسلام قال تشهد أن لا إله إلا الله وان ومحمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتفارق الشرك وإن كل مسلم على مسلم محرم أخوان نصيران لا يقبل الله من مشرك أشرك من بعد إسلامه عملا وإن ربي داعي وسائلي هل بلغت عباده فليبلغ شاهدكم غائبكم وإنكم تدعون مفدم على أفواهكم بالفدام فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكفه فقلت يا رسول الله وهذا ديننا قال نعم فإنما تحشرون على وجوهكم وعلى أقدامكم وركبانا » ، وأخرج الحاكم وغيره عن « حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تجيؤون يوم القيامة على أفواهكم الفدام فأول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه » [أخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٤٧٧ – الحديث:٣٦٤٥ ، وأحمد – مسند أحمد ج٥ ص٣ – الحديث: ٢٠٠٣٨، والطبراني – المعجم الكبير ج١٩ ص٤٢٤ – الحديث:١٠٣١]

قال عبدالله بن عبد الأعلى الشامي فأحسن

العمر ينقص والذنوب تزيد ∴ وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد ∴ رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهي ∴ تقليلها وعن الممات يحيد

وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه يابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا ويقول الليل مثل ذلك [1]، بل وتشهد على الإنسان كل من الأرض والليالي والأيام والمال وقال محمد بن بشير فأحسن:

مضى أمسك الأدنى شهيدا معدلا ∴ ويومك هذا بالفعال شهيد
إن تك بالأمس اقترفت إساءة ∴ فثن بإحسان وأنت حميد
ولا ترجع فعل الخير منك إلى غد ∴ لعل غدا يأتي وأنت فقيد

وقوله تعالى وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم أي أهلككم فأوردكم النار قال قتادة الظن هنا بمعنى العلم وقال النبي صلى الله عليه وسلم . لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله[2]، فإن قوما أساءوا الظن بربهم فأهلكهم فذلك قوله وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم [3].

---

(١) العلامة أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء – ج٢ ص ٣٠٣ .

(٢) قال ابن القيم : « قال الخطابي إنما يحسن الظن بالله من حسن عمله فكأنه قال أحسنوا أعمالكم يحسن ظنكم بالله فمن ساء عمله ساء ظنه وقد يكون أيضا حسن الظن بالله من ناحية جهة الرجاء وتأميل العفو. وقال الرافعي في تاريخ قزوين يجوز أن يريد به الترغيب في التوبة والخروج من المظالم فإنه إذا فعل ذلك حسن ظنه ورجا الرحمة وقال النووي في شرح المهذب معنى تحسين الظن بالله تعالى أن يظن أن الله تعالى يرحمه ويرجو ذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله تعالى وعفوه وما وعد به أهل التوحيد وما سيبدلهم من الرحمة يوم القيامة كما قال سبحانه وتعالى في الحديث الصحيح أنا عند ظن عبدي بي هذا هو الصواب في معنى الحديث وهو الذي قاله جمهور العلماء » [العلامة ابن القيم – عون المعبود ج٨ ص٢٦٥]

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٣ ص٣٩٠ – الحديث: ١٥٢٣٤ عن جابر ، وأخرج الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٠٥ – [١٩] باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت – الحديث: ٢٨٧٧، ج٤ ص٢٢٠٦ – الحديث: ٢٨٧٧ بلفظ عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » ، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص٤٠٤ – ذكر حث المصطفى صلى الله عليه وسلم على حسن الظن بمعبودهم جل وعلا – الحديث: ٣٨ ، والبيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٣ ص٣٧٧ – [٧] باب المريض يحسن ظنه بالله عز وجل ويرجو رحمته – الحديث: ٦٣٥٨، وابن ماجه – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٩٥ – الحديث: ٤١٦٧ ، والطبراني – المعجم الأوسط ج٢ ص١٦٥ – الحديث: ١٥٩٠، وأحمد – مسند أحمد ج٣ ص٣٣٤ – الحديث: ١٤٦٢٠ ، وأبو يعلى – مسند أبي يعلى ج٤ ص٤٥ الحديث: ٢٠٥٣ .

وقال الحسن البصري إن قوما ما ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ويقول أحدهم إني أحسن الظن بربي وكذب ولو أحسن الظن لأحسن العمل وتلا قول الله تعالى وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين

وكثر الحديث عن هذا الجانب فى الفكر الإسلامى، فقال قتادة: من استطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل فإن الظن اثنان ظن ينجي وظن يردي-وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصي ولا يتوبون ويتكلمون على المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ثم قرأ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين قوله تعالى فإن يصبروا فالنار مثوى لهم أي فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم، وإن يستعتبوا في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم فما هم من المعتبين[1]، وقيل المعنى فإن يصبروا في النار أو يجزعوا فالنار مثوى لهم أي لا محيص لهم عنها ودل على الجزع قوله وإن يستعتبوا لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه.

قال النابغة :

فإن أك مظلوما فبعد ظلمته .·. وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

أي مثلك من قبل الصلح والمراجعة إذا سئل قال الخليل العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، فالمعنى وإن يستعتبوا أي طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار وفي التفاسير وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين وقرأ عبيد وأبو العالية وإن يُستَعتَبوا بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول فما هم من المعتبين بكسر التاء على إن أقالهم الله وردهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم في علم الله من الشقاء قال الله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه[2].

إذن الجانب الروحانى فى الإنسان هو الذى عليه الموارد فى الدنيا والآخرة، ولما كان الأمر كذلك فإن العناية به أو المحافظة عليه، والحرص على إشباعه واستمرار إمداده بما هو في حاجة إليه أمر شرعى منذ خلق الله الكائنات الأولى إذ ليس من المعقول أن يخلق الله الإنسان وفيه هذان الجانبان، ثم يخلق وسائل تغذية الجانب المادى ولا يخلق تغذية الجانب

(١) لأنهم ارتكبوا المعاصي بقدر ما تمكنوا، ولم يرتدعوا، فاليوم لا يلتفت إليهم، بل عقابهم لا يبتعد عنهم.
(٢) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن المشهور ج١٥ ص٣٥٠/٣٥٤ .

الروحانى. فحكمة الله البالغة أعلى من كل هذه التصورات الذهنية الساذجة، بل الحق أن الله تعالى جعل الجانبين – المادى والروحى – فى الإنسان يجدان فى وسائل حفظهما واستمرار حياتهما طبقا لحكمة إلهية قادرة مقتدرة.

وأية ذلك: أن الجانب المادى كلما شعر الإنسان بحاجته إلى ما يشبعه دنا منه وتعلق به، محاولاً ضبط تلك الاحتياجات على المنظومة الشرعية. إن كان من أهل الشرع، وبالتالى تكون متطلباته فى الحدود التى لا جور فيها على شيء من حقوق الآخرين، باعتبار أنه واحد فى جماعة، وليس هو كل الجماعة. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

۞ **يقول العلامة الطبرى**: «يقول تعالى ذكره أيها القوم إن الله هو الذي لا تنبغي الألوهية إلا له فهو الذي أنعم عليكم هذه النعم التي بينها لكم في هذه الآيات وهو أنه سخر لكم البحر لتجري السفن فيه بأمره لمعايشكم وتصرفكم في البلاد لطلب فضله فيها ولتشكروا ربكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه، حيث سخر لكم ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم وما في الأرض من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن لمنافعكم ومصالحكم جميعا منه، وجميع جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم نعم عليكم من الله أنعم بها عليكم وفضل منه تفضل به عليكم فإياه فاحمدوا لا غيره لأنه لم يشركه في إنعام هذه النعم عليكم شريك بل تفرد بإنعامها عليكم وجميعها منه ومن نعمه فلا تجعلوا له في شكركم له شريكا بل أفردوه بالشكر والعبادة وأخلصوا له الألوهية فإنه لا إله لكم سواه»[2].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه يقول كل شيء هو من الله وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه فذلك جميعا منه[3]، ولا ينازعه فيه المنازعون واستيقن أنه كذلك.

---

(١) سورة الجاثية – الآية ١٣ .

(٢) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٢٥ ص: ١٤٣ .

(٣) ومادام ذلك كله من أنعمه جل شأنه، فمن المناسب أن تتوجه العقول والنوفس والقولب إليه وحده بالاعتقاد الصحيح والعبادة السليمة.

وقوله: " إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" إن في تسخير الله لكم ما أنبأكم أيها الناس أنه سخره لكم في هاتين الآيتين لآيات وعلامات ودلالات على أنه لا إله غيره الذي أنعم عليكم هذه النعم وسخر لكم هذه الأشياء التي لا يقدر على تسخيرها غيره لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه وأدلته فيعتبرون بها ويتعظون إذا تدبروها وفكروا فيها ... الأمر على أن هذا الجانب ليس مهملا، ولكن لابد من ضبطه وتنظيمه، واستعماله في حدود ما شرع الله تعالى .

كما أن الجانب الروحاني يتغذى بالتأمل المستمر في ملكوت الله تعالى علويه وسفليه، بقدر ما يتاح له من تأمل وتفكر، ففي ذلك نوع من الإشباع لتلك الملكة، وتغذية لذات الجانب، يدل على ذلك قوله ﷺ : « تفكروا في آلآء الله ولاتتفكروا في الله »[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يكفر بالله جهرا وذلك عند كلامهم في ربهم »[٣].

وعن عبدالله بن سلام ﷺ[٤] « قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيم تتفكرون قالوا

---

(١) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٢٥ ص: ١٤٣ .

(٢) الإمام الطبراني – المعجم الأوسط ج:٦ ص٢٥٠ – رقم: ٦٣١٩ عن سالم عن ابن عمر ، وأخرجه الهيثمي – مجمع الزوائد ج:١ ص٨١ – باب في التفكر في الله تعالى والكلام.

(٣) العلامة الطبراني – المعجم الأوسط ج٤ ص١٥٠ – الحديث:٣٨٤٣ العلامة ، وأخرجه الهيثمي – مجمع الزوائد ج١ ص٨١ – باب في التفكر في الله تعالى والكلام .

(٤) هو « عبد الله بن سلام ابن الحارث الإمام الحبر المشهود له بالجنة أبو الحارث الإسرائيلي حليف الأنصار من خواص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حدث عنه أبو هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن معقل...، وآخرون، وهو ممن شهد فتح بيت المقدس ، وعن إسلامه يقول أنس إن عبد الله بن سلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه إلى المدينة فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول ما يأكل أهل الجنة ومن أين يشبه الولد أباه وأمه، فقال: أخبرني بهن جبريل آنفا قال ذاك عدو اليهود من الملائكة قال إما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب وأما أول ما يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت وأما الشبه فإذا سبق ماء الرجل نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة نزع إليها قال أشهد أنك رسول الله . وقال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي بهتوني فأرسل إليهم فسلهم عني. فأرسل إليهم فقال: أي رجل ابن سلام فيكم قالوا حبرنا وعالمنا وابن عالمنا قال أرأيتم إن أسلم تسلمون قالوا أعاذه الله من ذلك قال فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وجاهلنا وابن جاهلنا فقال يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بهت، وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه عاشر عشرة في الجنة، ومات ابن سلام ﷺ في سنة ثلاث وأربعين بالمدينة » [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤١٣/٤٢٦ – رقم:٨٤]

نتفكر في الله قال لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله فإن ربنا خلق ملكا قدماه في الأرض السابعة السفلى ورأسه قد جاوز السماء العليا ما بين قدميه الى ركبتيه مسيرة ستمائة عام وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام والخالق أعظم من المخلوق »[١].

وعن عبدالله بن سلام ﷺ أيضا « أنه صلى الله عليه وسلم خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم تتفكرون فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن لهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها أو بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله لم يعصوا طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان عنهم قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم هم قال لا يدرون خلق آدم أم لا »[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم خرج على سحابه فقال ما جمعكم فقالوا اجتمعنا نذكر ربنا ونتفكر في عظمته فقال تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره »[٣].

بل جاء الأثر أيضا على المقارنة بين أداء الجانب المادى والجانب الروحانى وبين أن أثار الروحانى أعلى بكثير من أثار المادى، ففى الأثر : « عن العلاء عن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة »[٤]. وعن حبيب بن عبدالله « أن رجلا أتى أبا الدرداء وهو يريد الغزو فقال يا أبا الدرداء أوصني فقال اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء وإذا أشرفت على

---

(١) العلامة أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج:٦ ص:٦٧ .

(٢) العجلونى – كشف الخفاء ج:١ ص:٣٧١ – رقم ١٠٠٤ .

(٣) العلامة العجلونى كشف الخفاء ج: ١ ص: ٣٧١ – رقم ١٠٠٥ . وقال: الحديث وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعا .

(٤) العلامة ابن أبي شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص١٩٠ – رقم: ٣٥٢٢٣ ، وذكره أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء ج:١ ص٢٠٩ عن أبي الدرداء .

شيء من الدنيا فانظر إلى ما يصير »[١]. وعن ابن عباس قال: « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة »[٢].

وهذا التفكير طبيعة الصوفية، الذين تقوم حياتهم على الكفاح المـ [illegible] ينشأ عن الصراع بين الميول أو العواطف والنزعات، التى لا توافق المبادئ الأخلاقية وبين القيم الروحية السامية، التى يصبو المتصوف إلى تحقيقها، وأساس المجاهدة هو قمع هذه الميول والنزعات، وهذا القمع يكون شعوريا إراديا[٣]، ممثلا للجانب الروحانى الإنسانى فى ذات كل إنسان.

ولما كان الجانب الروحانى هو الأعلى قدرا، والأكثر انتشارا، والأوسع أثرا، فقد كان الصفاء لله من أبرز علامات الصوفية، وبهذا نفهم أن أمر الله لنبيه محمد ﷺ أن يقرأ على أبى بن كعب ﷺ[٤]، فى قوله ﷺ : « لأبي إن الله أمرني أن أقرأ عليك قال آلله سماني لك قال الله سماك لي قال فجعل أبي يبكي »[٥]. وكان ﷺ يقول: « أقرؤكم أبي »[٦].

---

(١) العلامة أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج:١ ص:٢٠٩.

(٢) العجلونى كشف الخفاء ج:١ ص:٣٧٠ رقم:١٠٠٤ .

(٣) الدكتورة فردوس أبو المعاطي المرسي الجابري – التجربة الصوفية وعلم النفس الديني ص٣٠ – مؤتمر وحدة الدراسات الإنسانية بآداب عين شمس ١٩٩٩م.

(٤) هو: « أبي بن كعب أبو المنذر من بني عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري يقال شهد بدرا مع رسول الله مدني قال أبو داود حدثنا شعبة عن حبيب بن الزبير مولى لبني هلال سمع عبد الله بن أبي الهذيل عن عبد الرحمن بن أبزى عن عبد الله بن خباب بن الأرت عن أبي عن النبي قال الدجال عينه خضراء حدثني محمد بن يوسف قال ثنا سفيان عن أسلم المنقري عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قلت لأبي لما وقع الناس في أمر عثمان أبا المنذر حدثني عبيد الله بن يعيش قال ثنا محمد بن بشر عن طلحة بن يحيى عن أبي بردة قال عمر لأبي يا أبا الطفيل قال أبو عبد الله وله بن يقال له الطفيل » [راجع التاريخ الكبير ج٢ ص٣٩ رقم: ١٦١٥]

(٥) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:١ ص:٥٥٠ – [٣٩] باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه– رقم:٧٩٩ عن أنس بن مالك .

(٦) راجع تحفة الأحوذي ج:٤ ص:١٤٥ ولذا قيل أبي بن كعب سيد القراء ، وراجع حاشية السندى – ج٢ ص٧٥ – رقم٧٧٧ .

يقول ابن عربى : « مع العلم بـأن أبيا ﷺ لم يكـن أحفـظ الصحابـة للقـرآن، و
أفصحهم فى القراءة، ولا أفقههم فى أحكامه، ولكـن لعلـه كـان عنـد قـراءة القـرآن الكري
أصغاهم مراقبة لتلاوة النبى ﷺ، وكذلك كان يقرؤه ويغيب بذلك عن قراءة نفسه، حتى كأنه
يسمعه من النبى ﷺ، ومما يدل على ذلك أن السورة التى أمر بقراءتها هـى "لم يكـن الذيـن
كفروا"[1] وهى مشتملة على قوله تعـالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا
مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[2]، فكان أبى إذا قرأها صغى بأذن قلبـه إلى روح النبـوة يتلو
عليه ذلك، فأراد الله أن يحقق له فى عالم الشهادة من تلاوة النبى ﷺ ما كان يشهده فى
عالم الغيب »[3].

وعن مسروق قال : ذكر عبد الله بن مسعود عند عبد الله بن عمرو فقال ذاك رجل
أزال أحبه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقـول خـذوا القـرآن مـن أربعـة من عبد الله

---

(١) روى الإمام البخارى عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليـه وسـلم لأبـي « إن الله أمرني أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب قال وسماني قال نعم فبكى » [الإمام البخاري – صحيح البخاري ج:٣ ص:١٣٨٥ – [٤٦] باب مناقب أبـي بـن كعـب رضـي الله عنـه الحديـث: ٣٥٩٨] وروى أيضا عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : « قال النبي صلى الله عليه وسـلم لأبـي إن الله أمرنـي أن أقرأ عليك القرآن قال أبي آلله سماني لك قال الله سماك لي فجعل أبي يبكي قال قتادة فأنبئت أنه قـرأ عليـه لم يكن الذين كفروا مـن أهـل الكتـاب » [صحيح البخـاري ج: ٤ ص: ١٨٩٦ – الحديث ٤٦٧٦، والإمام الترمذى – سنن الترمذي ج:٥ ص:٦٦٥ – الحديث:٣٧٩٢]. وعن أبـي بـن كعـب أن رسـول الله صلـى الله عليه وسلم قال له « إن الله أمرني أن أقرأ عليك فقرأ عليه لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب فقرأ فيـها إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية من يعمل خيرا فلن يكفره وقرأ عليه ولـو أن لابن آدم واديا من مال لأبتغي إليه ثانيا ولـو كـان لـه ثانيـا لأبتغـي إليـه ثالثـا ولا يمـلأ جـوف ابـن إلا التراب ويتوب الله على من تاب » [الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج: ٥ ص: ٦٦٥ – الحديث:٣٧٩٣]

(٢) سورة البينة – الآيات ٣/١ .

(٣) الشيخ الأكبر محيى بن عربى – رد المتشابه إلى المحكم ص١٣١/١٣٠ .

ابن مسعود[١] فبدأ به وسالم مولى أبي حذيفة[٢] ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب »[٣].

---

(١) عبدالله بن مسعود بن غافل بمعجمة وفاء بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل الهذلي أبو عبدالرحمن حليف بني زهرة وكان أبوه [illegible] الحارث بن زهرة أمه أم عبدالله بنت ود بن سواءة أسلمت وأصحبت أحد السابقين الأولين أسلم قديما وهاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد بعدها ولازم النبي صلى الله عليه وسلم وكان صاحب نعليه وحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم بالكثير وعن عمر وسعد بن معاذ وروى عنه ابناه عبدالرحمن وأبو عبيدة وابن أخيه عبدالله بن عتبة وامرأته زينب الثقفية ومن الصحابة العبادلة أبو موسى وأبو رافع وأبو شريح وأبو سعيد وجابر وأنس وأبو جحيفة وأبو أمامة وأبو الطفيل ومن التابعين علقمة وأبو الأسود ومسروق والربيع بن خثيم وشريح القاضي وآخرون، وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين الزبير وبعد الهجرة بينه وبين سعد بن معاذ وقال له في أول الإسلام إنك لغلام معلم. وهو أول من جهر بالقرآن بمكة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن يقرا القرآن غضا كما نزل فليقرأ على قراءة بن أم عبد. ومن أخباره بعد النبي صلى الله عليه وسلم أنه شهد فتوح الشام وسيره عمر إلى الكوفة ليعلمهم أمور دينهم . وعن وفاته: قال البخاري مات قبل قتل عمر وقال أبو نعيم وغيره مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وقيل مات سنة ثلاث وقيل مات بالكوفة والأول أثبت . (راجع الإصابة فى تمييز الصحابة – [العلامة شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ]– الفصل رقم: ٤٩٥٧ ص ٢٣٥/٢٣٣ (باختصار).

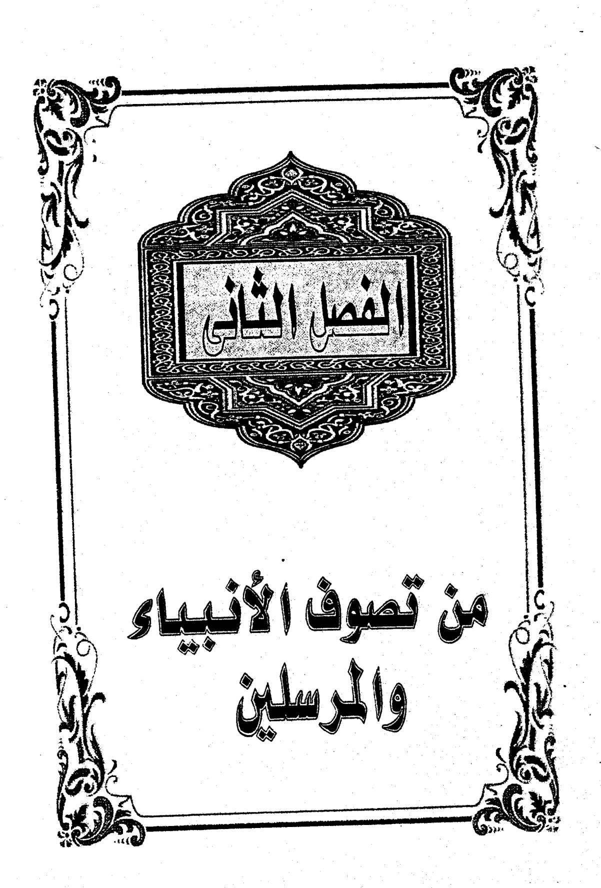
(٢) هو : « سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أحد السابقين الأولين قال البخاري مولاته امرأة من الأنصار وقال بن حبان يقال لها ليلى ويقال ثبيتة بنت يعار وكانت امرأة أبي حذيفة وبهذا جزم بن سعد، وكان أبو حذيفة قد تبناه كما تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فكان أبو حذيفة يرى أنه ابنه فأنكحه ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة فلما انزل الله " ادعوهم لآبائهم " رد كل أحد تبنى ابنا من أولئك إلى أبيه ومن لم يعرف أبوه رد إلى مواليه [أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري عن عروة بهذا وفيه قصة إرضاعه] وروى البخاري من حديث بن عمر كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين في مسجد قباء فيهم أبو بكر وعمر. وكان أكثرهم قرانا. وقصته في الرضاع مشهورة فعند مسلم من طريق القاسم عن عائشة أن سالما كان مع أبي حذيفة فأتت سهلة بنت سهيل بن عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن سالما بلغ ما يبلغ الرجال وإنه يدخل علي وأظن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا فقال أرضعيه تحرمي عليه الحديث وعن ابن سابط أن عائشة احتبست على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما حبسك قالت سمعت قارئا يقرأ فذكرت من حسن قراءته فأخذ رداءه وخرج فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة فقال الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك [وأخرجه أحمد عن بن نمير عن حنظلة وابن ماجة والحاكم في المستدرك من طريق الوليد بن مسلم] وروى ابن المبارك فيه أن لواء المهاجرين كان مع سالم فقيل له في ذلك فقال بئس حامل القرآن أنا يعني أن فررت فقطعت يمينه فأخذ بيساره فقطعت فاعتنقه إلى أن صرع فقال لأصحابه ما فعل أبو حذيفة يعني مولاه قيل قتل قال فأضجعوني بجنبه فأرسل عمر ميراثه إلى معتقته ثبيتة فقالت إنما أعتقته سائبة فجعله في بيت المال وذكر بن سعد أن عمر أعطى ميراثه لأمه فقال كليه » [ابن حجر – الإصابة ج:٣ ص:١٣ – ذكر من اسمه سالم – رقم:٣٠٥٤]

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٣ ص:١٣٨٥ – [٤٦] باب مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه الحديث: ٣٥٩٧

وهذا إنما يدل على أن الجانب الروحانى فى الإنســان أعلـى مـن الجـانب المـادى، وأكثر رقيا، وأعظم منزلة، كما يؤكد على أن هذا الجانب يتمثل فيه الصفاء الإيمانى أصدق تمثيل، وعلى ناحيته يجيء التصوف[1] المشروع المقبول عند الله تعالى علما وعملا وسلوكاً.

---

(١) الملاحظ أن التصوف بالمعنى العام قاعدة يشترك فيها الإنس كافة بل والجن والملائكة أيضا. لكن الجن والإنس من باب المجاهدة للنفس حتى تبلغ أعلى مراتب الخير. أما مع الملائكة فإنهم مجبولون عليه من أصل الخلقة.



من تصوف الأنبياء والمرسلين

الدارس الذى يحاول التعرف على تاريخ التصوف أو عوامل نشأته ومظاهره، متى رجع إلى الماضى المنقول عن الصادق المعصوم ﷺ، فإن النتائج يمكن أن تجيء متوافقة مع الأصول العامة التى نبه إليها الشرع الشريف فى القرآن الكريم والسـ[illegible] المطهرة الصحيحة.

وذلك يستلزم الحديث عن كل من:

١- التصوف قبل الأمة الخاتمة .

٢- التصوف فى صدر الإسلام.

الأمر الأول: التصوف قبل الأمة الخاتمة

متى أخذ فى الاعتبار أن التصوف هو صفاء القلب، ونقاء السريرة، وسلامة الوجدان مع تسليم الأمر لله رب العالمين[1]، فإن الصوفية يكون لهم وجود فى الماضى قبل الأمة الخاتمة.

بحيث يمكن إبراز بعض ذلك فى حدود ما يلى:

أ- عند الملائكة[2]

هم أجسام لطيفة نورانية أقدرهم الله على التشكل بالأشكال الحسنة غالبا[3]، مسكن غالبيتهم السماء، ومنهم من يسكنون الأرض. ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا خناثى، ولا يوصفون

---

(١) راجع كتابنا: أوراق مطوية فى التصوف والصوفية ص١٥٣، وكتابنا: أنسام حيية فى الأفكار الصوفية ص٢٩.

(٢) وردت مادة الكلمة م ل ك فى القرآن الكريم ست ومائتين مرة. [راجع للشيخ محمد فؤاد عبدالباقى - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٦٧٣/٦٧٦ - مكتبة الغزالى بدمشق].

(٣) وقد وردت آثار تفيد بأن الله تعالى أقدرهم على التشكل بالأشكال الحسنة لأهل الإحسان والقاسية بالنسبة لأهل الضلال، كالحال مع أبى جهل الذى تشكل له جبريل فى سورة سبع ضار مرة، وفى صورة بعير مرة، وكل تصور منهما كان فيه دفع عدوان أبى جهل عن رسول الله ﷺ . [راجع للعلامة القرطبى - الأعلام بما دين النصارى من الفساد والأوهام - حيث ذكر القرطبى تلك التصورات على وجه التفصيل].

بشيء من ذلك[١]، مكلفون من أصل الخلقة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون، ولا ينامون، يطيعون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون[٢]، لا يهرمون ولا يشيبون، ولا يمرضون، وإنما حالهم واحدة على نحو ما خلقهم لله تعالى[٣].

قال الناظم :

والملك الذي بلا أب وأم ∴ لا أكل لا شرب ولا نوم لهم

وقال الشيخ نووي الشافعي: « يجب على كل مكلف أن يعتقد بأن الملائكة عليهم السلام خلقهم الله تعالى من غير واسطة أب ولا أم فليسوا رجالا ولا نساء ولا خناثى، ومن اعتقد ذكورتهم كان مبتدعا فاسقا، وفي كفره قولان، ومن اعتقد أنوثتهم كان كافرا بالإجماع لأن الذكورة أشرف من الأنوثة، وقد بين الله تعالى كفر من اعتقدوا أنوثة الملائكة بقوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾[٤].

يقول العلامة ابن كثير : « ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾، أى اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ أى شاهدوه، وقد خلقهم الله إناثا، ﴿ستكتب شهادتهم﴾، أى بذلك. ﴿ويسألون﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد »[٥].

---

(١) وقد رد القرآن الكريم على من وصفوهم بالأنوثة وبين أنهم فى ذلك قد كذبوا على الله. قال جل شأنه: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ [سورة الزخرف – الآية ١٩].

(٢) هذا التعريف أمكننى جمعه من جملة التعاريف الكثيرة التى تحدثت عن الملائكة، ولطالب المزيد الرجوع إلى كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى. فقد تعرضت فيه لذكر العديد من التعريفات للملائكة وناقشتها من الوجوه التى أعاننى الله تعالى عليها.

(٣) الشيخ محمد عبدالعاطى الدينورى – علم العقيدة الإسلامية ص٩٧ .

(٤) سورة الزخرف – الآية ١٩ .

(٥) الشيخ محمد على الصابونى – تفسير ابن كثير– م٣ ص٢٨٧ – طبعة دار الصابونى ١٩٨٨م .

۞ **ويقول الأستاذ حسن أيوب:** « وأما المنع من وصفهم بالذكورة، فسببه أن الله تعالى لم يصفهم بذلك، فمن وصفهم بالذكورة فهو الكاذب المفترى، ولا يجوز أيضا وصفهم بالأنوثة، وإنما يجب الاعتقاد بأنهم لا يتزوجون ولا يتناسلون، ومن الافتراء على الله تعالى القول بأنهم يأكلون، أو يشربون، إلى غير ذلك من الأمور؛ لأنهم غيب لا يعلمه إلا الله، ولا يجوز أن نصفهم إلا بما وصفهم به الله جل علاه، لا نزيد عليه أو ننقص منه »[1].

۞ **ويقول العلامة الباجورى:** « فإن الملائكة ليس من طبيعتهم التناكح والتناسل؛ لأن الله تعالى جعل منهم سفراءه فيما أخبروا به، فلا يقع لهم التناكح ولا التوالد »[2]، ويقول أحد الباحثين: « كما أن التناكح والتناسل ينتجان عن الشهوة، والله ﷻ قد جرد الملائكة من تلك الشهوة، حيث قال الله لهم: كونوا على تلك الهيئة، فكانوا عليها »[3]. فلم يقع فيهم توالد، ولا كانت بينهم شهوة.

وأولى بالكفر من اعتقد خنوثتهم لمزيد التنقيص، وهم غير الجن لا رجال ولا نساء، لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون ولا يتناكحون، ولا يتوالدون ولا تكتب أعمالهم؛ لأنهم الكتّاب، ولا يحاسبون؛ لأنهم الحُسّاب، ولا توزن أعمالهم؛ لأنهم لا سيئات لهم، ويحشرون مع الجن والإنس، يشفعون فى عصاة بنى آدم، ويراهم المؤمنون فى الجنة، ويدخلون الجنة، ويتناولون النعمة فيها بما شاء الله لهم[4]. ومتى عرفنا أن الأحوال عند الصوفية مواهب من الله تعالى، وأنها تنزل بوارد إلهى[5]، أدركنا أن ذلك قد اتصف به الملائكة من غير استثناء.

---

(١) الأستاذ حسن أيوب – تبسيط العقائد الإسلامية ص١٨٢/١٨٣ – ط٧ دار التراث العربى بالقاهرة ١٩٨٦م .

(٢) شيخ الإسلام العلامة إبراهيم الباجورى، حاشية الباجورى على السنوسية وبهامشها تقرير العلامة الأنبابى ص٦٠.

(٣) الدكتور أحمد أبو السعادات وآخرين – البراهين الواضحة فى العقائد والأخلاق الإسلامية ص٧/٨ .

(٤) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام ص١٥/١٦ – طبعة الحلبى ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

(٥) الدكتور عبدالفتاح عبدالله بركة – التصوف والأخلاق ص١٤٤ .

۞ وآية ذلك ما قصه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾(١).

۞ **قال العلامة الحافظ ابن كثير:** « اقصص يا محمد على قومك ذلك الذى كان في الماضي البعيد، حين أعلم ربك الملائكة، أنه جاعل في الأرض خليفة، يخلف بعضهم بعضا، قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وأن هذا الخليفة سيكون وأنساله من طين من صلصال، من حمأ مسنون، وأن الله تعالى أعلم الملائكة بعلم خاص، أن هذا الصنف هو المتصل بالناس، وقد تقع فيهم المظالم، فيحتاجون إلى من يردهم عن المحارم، فسأل الملائكة رب العالمين على سبيل الاستفهام والاستعلام والاستكشاف، قائلين: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، إنك أنت العليم الحكيم وكل ما تفعل هو ذات الحكمة، لكنها غائبة عنا، ونحن نسألك اللطف في تعريفنا بها »(٢).

إذن الملائكة لم يكونوا على علم بالغاية من خلق الله تعالى لآدم عليه السلام، فلما بان لهم أن الله تعالى علم آدم ﷺ من الأسماء أكثر مما علموه كجنس للملائكة وقفوا جميعا عند حالي ومقامي الشكر والرجاء.

۞ يصور القرآن الكريم ذلك الموقف في قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة – الآيتان ٣٠ /٣١ ، ويقول العلامة الخطيب الشربيني : « الخليفة هو من يخلف غيره، وينوب عنه، وكأن الله يقول: إني جاعله بدلا منكم، والمراد به آدم؛ لأنه خليفة في أرض الله » [السراج المنير ج١ ص٤٣].

(٢) الشيخ محمد على الصابوني – مختصر تفسير ابن كثيرج١ ص٤٩ .

(٣) سورة البقرة – الآيتان ٣١/٣٠ .

۞ **قال العلامة القرطبى:** « قال الله يا آدم أنبئهم بأسمائهم وأعلمهم بها، ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه، وقد كان ذلك تنبيها على فضله وعلو شأنه فحصلت له رتبة الجلال والعظمة، بعد أن حصل له الاختصاص بالعلم من الله رب العالمين »[1]، فصار من هذه الناحية متمايزا عن غيره دون أن يرجع ذلك إلى ذات آدم ﷺ إنما هو راجع لاختصاص الله عز وجل .

۞ **ويقول أحد الباحثين** : « إن الملائكة قد أعلنوا أن ما أخبرهم به آدم هو مما لم يعلمهم به الله، ولم ينسبوا العلم لأنفسهم، حتى يكون علمهم كسبيا. فى نفس الوقت فإن الملائكة يعلمون التعرف على الأشياء واكتشاف سنن الكون بالتلقى المباشر عن الله تعالى »[2]، وذلك حالهم التى خلقهم الله تعالى عليها.

فالملائكة الأطهار سفرة كرام بررة، حافظون لأوامر الله، عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون. قل تعالى: ﴿بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾[3].

۞ **يقول العلامة الزمخشرى:** « أخبر الله تعالى عنهم أنهم عباد، والعبودية تنافى الولادة، إلا أنهم مكرمون، أى مقربون مفضلون على سائر العباد، لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم، فذلك هو الذى غر منهم من زعم أنهم أولادى تعاليت عن ذلك علوا كبيرا. ﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ أى أنهم يتبعون قوله، ولا يقولون شيئا حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله. ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ أى لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به، وجميع ما يأتون ويذرون مما قدموا وأخروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه، فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم، ويراعون أحوالهم ويعمرون أوقاتهم، ومن تحفظهم أنهم لا يجرءون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة فى ازدياد الثواب والتعظيم »[4].

---

(١) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج١ ص٣٣١/٣٣٢ .

(٢) الدكتور عمر سليمان الأشقر – عالم الملائكة الأبرار ص٢٢٢ .

(٣) سورة الأنبياء – الآيات ٢٦/٢٨ .

(٤) العلامة الزمخشرى – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ج٣ ص٩ .

ويقول صاحبا الجلالين: « قوله ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ ما عملوا وما هم عاملون ولا يشفعون إلا لمن ارتضى تعالى أن يشفع له وهم من خشيته تعالى مشفقون خائفون »[1].

وفي نفس الوقت ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[2].

يقول العلامة الطبرى: « ما أمرهم به ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ يقول: وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم »[3]. ويقول الشيخ الصابوني: « أى لا يعصون أمر الله بحال من الأحوال، وينفذون الأوامر بدون إهمال ولا تأخير »[4].

وكلما أمعن الناظر الفكر، وبذل المجهود في استعمال العقل؛ أمكنه الوصول إلى أن الصفاء الذى وصف به الملائكة يعلو بهم على الدوام، وذلك أنهم في دوام القرب من الله تعالى، بدليل أنهم في العبادة قائمون، وفي التسبيح والذكر مستمرون.

قال تعالى ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾[5].

يقول العلامة البيضاوى[6] : « "وترى الملائكة حافين" محدقين. "من حول العرش" على كل ناحية. "يسبحون بحمد ربهم" متلبسين بحمده، والمعنى ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذا به؛ وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق، ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أى بين الخلق بإدخال بعضهم النار، وبعضهم الجنة، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم. ﴿ وقيل

---

(١) الإمامان جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطى - تفسير الجلالين ج١ ص:٤٢٢ .

(٢) سورة التحريم - الآية ٦ .

(٣) العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هجرية - جامع البيان عن تأويل آي القرآن - ص٢٦٦٩٦ - مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٥٤م .

(٤) الشيخ محمد على الصابونى - صفوة التفاسير ج١٨ ص١٥٧٤ - مكتبة الغزالى - دمشق .

(٥) سورة الزمر - الآية ٧٥ .

(٦) البيضاوي: الإمام القاضي أبو الفتح عبد الله بن محمد بن محمد بن البيضاوي الفارسي البغدادي الحنفي أخو قاضي القضاة أبي القاسم الزينبي لأمه، سمع أبا جعفر بن المسلمة وأبا الغنائم بن المأمون وأبا محمد الصريفيني وطائفة، وعنه السمعاني وابن عساكر وابن الجوزي والكندي وآخرون. قال السمعاني شيخ صالح متواضع متحر في قضائه الخير متثبت توفي في نصف جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وخمس مئة (سير أعلام النبلاء ج: ٢٠ ص: ١٨٢ رقم: ١١٧) .

الحمد لله رب العالمين ﴾ أى على ما قضى بينة بالحق والقائلون هم المؤمنون من المقضى بينهم أو الملائكة، وطى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم »[1].

أجل الملائكة أجسام نورانية لطيفة بأرواح قادرون على التشكل بأشكال مختلفة فى أشكال حسنة، شأنهم الطاعة، ومسكنهم السماوات غالبا، ومنهم من يسكن الأرض، صادقون فيما أخبروا عن الله ﷻ، يسبحون بالليل والنهار، ولا ينقطعون عنها، ولا يعصون الله فى الأمور التى أمرهم بها، ويفعلون الأمر الذى يؤمرون به، ويموتون بالنفخة الأولى، إلا حملة العرش والرؤساء الأربعة، فانهم يموتون بعدها، وأما قبلها فلا يموت منهم أحد، لكن لا يلزمنا معرفة حقيقة جنسهم، ولا من أى شيء خلقوا، ويجب الإيمان بأنهم بالغون فى الكثرة إلى حد لا يعلمه إلا الله تعالى على الإجمال، إلا من ورد تعينه باسمه المخصوص أو نوعه، فيجب الإيمان بهم تفصيلا[2].

وماداموا أجساما، فإن هناك أعمالا تصدر عنهم، وماداموا قد أقدرهم الله على التشكل بالأشكال المختلفة، فإن الحركات التى يقومون بها يقع فيها الالتزام التام، محاطا بالطاعة الكاملة، مما يؤكد أنهم فى صفاء لا ينقطع، واستمرار بذل المجهود فى إرضاء الإله المعبود، ومن كان ذلك شأنه فهو الصوفى الذى عرف حقوق الله فالتزم، وذاق حب الله تعالى فاندفع إليه وتمسك به.

◈ **وربما يتساءل المرء: هل الملائكة وحدهم الذين لا أب لهم ولا أم، وهم بذلك يتمايزون؟**

❊ **والجواب:** أن الله تعالى خلق آدم ﷺ بلا أب ولا أم، لأن الله تعالى خلقه من تراب. قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ❊ الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾[3].

وكذلك الولدان المخلدون بالجنة الذين هم خلق جميل فى رؤيتهم سرور؛ لأنهم كاللؤلؤ المغرّق، وهم مرد لا شعر على وجوههم على صورة أولاد الدنيا، لا يشيبون، ولذلك يسمون والدانا مخلدون، لا يخطر بقلب أحد منهم فاحشة، لا أب لهم ولا أم، وإنما هم خلق

---

(١) العلامة البيضاوى – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٥ ص٨٠/٨١ تحقيق الشيخ عبدالقادر عرفات – دار الفكر بيروت ١٩٩٦م.

(٢) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام ص١٦ .

(٣) سورة آل عمران – الآيتان ٥٩/٦٠ .

جديد متمايز، وظيفتهم خدمة أهل الجنة، وإدخال السرور عليهم. قال تعالى: ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾[1].

قال الإمام الطبرى : « عن مجاهد ﴿مخلدون﴾ قال: لا يموتون. وقال آخرون: عني بذلك أنهم مقرطون مسورون. والذي هو أولى بالصواب في ذلك قول من قال معناه: إنهم لا يتغيرون، ولا يموتون، لأن ذلك أظهر معنييه، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد، وإنما هو مفعل من الخلد. »[2]، وبالتالى فالولدان الذين يخدمون أهل الجنة، لا أب لهم ولا أم. وقد خلقهم الله تعالى لخدمة أهل الجنة على ما جاء به النقل المنزل.

وقال العلامة البيضاوى : « ﴿ماء معين ﴾ طاهر جار ، ووصف ماءها بذلك ، يقصد آية سورة المؤمنون ؛ لأنه الجامع لأسباب التنزه ، وطيب المكان »[3]. أما عن المراد بقوله تعالى : ﴿ وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ قال القرطبى: « قال الضحاك والسدى : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كاس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا إناء وقدح . وقال الزجاج : ﴿ بكأس من معين ﴾ أى من خمر ، تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض »[4].

والمراد بقوله تعالى : ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ . قال الإمام الطبرى: « لا تصدع رءوسهم ، وقوله ﴿ لا ينزفون ﴾ قرئ بالكسر على معنى لا ينفد شرابهم والمعنى لا تنزف عقولهم »[5].

---

(١) سورة الواقعة – الآيات ١٥/١٧. وذكر آنية الشرب (الأكواب ، والأباريق ، والكؤوس) ؛ « والكوب بالضم كوز لا عروة له ، أولا خرطوم له – جمع أكواب »(مختار القاموس ص٥٣٩).

(٢) العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١١/٢٧/١٠٠ .

(٣) العلامة البيضاوى – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/٣٣٥.

(٤) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ٥٧١٦/٨.

(٥) الإمام الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١١/٢٧/١٠١ .

وقال تعالى: : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾[١]. قال صاحبا الجلالين: « ويطوف عليهم للخدمة غلمان أرقاء لهم كأنهم فى الحسن واللطافة لؤلؤ مكنون مصون في الصدف لأنه فيها أحسن منه في غيرها »[٢].

وأيضا الحور العين وهن نساء خلقهم الله تعالى بقدرته من نور لا أب لهم ولا أم، ينكحهن المؤمنون فى الآخرة، لم يطمثهن إنس ولا جان. وكلما أصابوهن وجدوهن أبكارا، جمالهن عجيب، كأنهن الياقوت فى صفائهن، واللؤلؤ فى بياضهن، يرى مخ ساقهن من وراء لحمهن وعظمهن وجلدهن، كما يرى الشراب الأحمر من الزجاج الأخضر واللون الأحمر من الزجاج الأبيض، ولو أن شعرة من شعورهن طلعت إلى الأرض لأضاءت لأهل الأرض، وعليهن سبعون حلة، رءوسهم مكللة بالدر، مرصعة بالياقوت الأحمر، وسميت بالحور العين لأن أعينهم أشتد بياضها كما اشتد سواد سوادها[٣]، على مقتضى أحكام اللغة.

ﷻ قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

۞ **يقول العلامة ابن القيم** : « الحور جمع حوراء ، وهى المرأة الشابة الجميلة البيضاء ، شديدة سواد العين ، وقيل التى يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون ، والعين جمع عيناء ، وهى العظيمة العين من النساء ، والصحيح ؛ إن العين اللائى جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة »[٥].

---

(١) سورة الطور – الآية ٢٤ .

(٢) تفسير الجلالين ج١ ص: ٦٩٨ .

(٣) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام ص١٦. راجع هذا الكتاب ففيه خير كبير، وبخاصة ما يتعلق بقواعد الإيمان من الغيبيات الدينية، كما أنه قد عنى ببيان الكثير من السمعيات ذاكراً المصادر التى استقى منها مادته العلمية، رحم الله الجميع وأكرمنا بصحبة الأبرار وشفاعة النبى المختار فى دار القرار.

(٤) سورة الواقعة – الآيات ٢٢/٢٤ .

(٥) العلامة ابن القيم – حادى الأرواح – ٢٠٠/٢٠١ .

وربما كانت هناك مخلوقات أخرى عاقلة تجيء فى الدنيا أو الأخرة، لا أب لها ولا أم، ولكن البحث العلمى الدينى قد يكون توصل إلى بعضها، ولم نعرفه نحن، أو لم يصل إلينا، والله عز وجل أخفى ذلك عنا لحكمة يعلمها جل شأنه، لما هو معروف من أن الله تعالى يخاطبنا بما تستوعبه عقولنا، ويكلفنا بما تتمكن منه طاقتنا، وبالتالى فالبحث عند معرفتها أمر ممكن مادامت قد جاءت الإشارة إليه، أما إذا كان الله تعالى قد سكت عنه فإن البحث فى أمره يجب أن يتوقف؛ حتى لا يضل المرء أو يشقى.

لقوله ﷺ : « إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها وترك أشياء غير نسيان رحمة لكم فلا تبحثوا عنها »[1]، ومن ثم فالباحثون فى الأمور التى تركها الله تعالى رحمة بعباده، إنما يمثل لونا من الخروج على ما شرع الله تعالى.

وعن أبى ثعلبة الخشنى[2] أن النبى ﷺ قال: «إن الله حد حدودا فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء فى غير نسيان رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها»[3].

---

(١) العلامة المتقى الهندى – كنز العمال – الباب الثاني: في الاعتصام بالكتاب والسنة – الحديث رقم: ٩٨٠ – وذكره العلامة أبو نعيم الصفهانى – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج٩ ص١٧ دار الكتب العلمية – بيروت .

(٢) أبو ثعلبة الخشني صحابي مشهور معروف بكنيته واختلف في اسمه اختلافا كثيرا .وسكن أبو ثعلبة الشام وقيل حمص روى عنه أبو إدريس الخولاني وأبو أمية الشعباني وأبو أسماء الرحبي وسعيد بن المسيب وجبير بن نفير وأبو قلابة ومكحول وآخرون ومنهم من لم يدركه قال بن البرقي تبعا لابن الكلبي كان ممن بايع تحت الشجرة وضرب له بسهمه في خيبر وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه فأسلموا وأخرج بن سعد بسند له إلى محجن بن وهب قال قدم أبو ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى خيبر فأسلم وخرج معه فشهدها ثم قدم بعد ذلك سبعة نفر من قومه فأسلموا ونزلوا عليه قال أبو الحسن بن سميع بلغني أنه كان أقدم إسلاما من أبي هريرة وعاش بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقاتل بصفين مع أحد الفريقين ومات في أول خلافة معاوية كذا قال والمعروف خلافه وقال أبو علي الخولاني كان ينزل داريا وأخرج بن عساكر في ترجمته من طريق محفوظ بن علقمة عن ابن عائذ قال قال ناشرة بن سمي ما رأينا أصدق حديثا من أبي ثعلبة لقد صدقنا حديثه في أفنية الأودية قال علي وكان لا يأتي عليه ليلة إلا خرج ينظر إلى الأسماء فينظر كيف هي ثم يرجع فيسجد وعن أبي الزاهرية قال قال أبو ثعلبة إني لأرجو الله ألا يخنقني كما أراكم تخنقون عند الموت قال فبينما هو يصلي في جوف الليل قبض وهو ساجد فرأت ابنته في النوم أن أباها قد مات فاستيقظت فزعة فنادت أين أبي فقيل لها في مصلاه فنادته فلم يجبها فأتته فوجدته ساجدا فأنبهته فحركته فسقط ميتا قال أبو عبيد وابن سعد وخليفة بن خياط وهارون الحمال وأبو حسان الزيادي مات سنة خمس وسبعين. راجع الإصابة لابن جحر العسقلانى – القسم الأول [من ذكر له صحبة، وبيان ذلك]. الفصل: ٩٦٥٨ ص٥٨/٦٠ .

(٣) الإمام الشوكانى – فتح القدير ج٢ ص١٢٠ .

وعن أبى الدرداء عن النبى قال: « - إن الله عز وجل افترض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن كثير من غير نسيان فلا تكلفوها رحمة لكم فاقبلوها »[1].

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها. وحد حدودا فلا تقربوها (تتعدوها) وحرم محارم فلا تنتهكوها. وسكت عن كثير من غير نسيان فلا تكلفوها، رحمة من الله فاقبلوها، ألا إن القدر خيره وشره، ضره ونفعه إلى الله، ليس إلى العبد تفويض ولا مشيئة »[2].

والذى أميل إليه هو أن الملائكة قد اصطفاهم الله تعالى خلقا متمايزا فى أصله عن كل من الإنس والجن لقوله ﷺ فى الحديث الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها « خلقت الملائكة من نور. وخلق الجان من مارج من نار. وخلق آدم مما وصف لكم.»[3].

كما أنه تعالى ميزهم بالصفاء والنقاء فقلوبهم متجهة نحو الله فقط. وعقولهم مسبحة لله على الدوام. حركتهم تسبيح، وذكر وصفاء، وسكونهم شكر لله وحب له وخوف منه ورجاء. حال الشكر عندهم ينازع مقام الصبر. وحال التوكل على الله فيهم يؤاخيه مقام الفقر لله رب العالمين، ومن ثم فهم من وجهة نظرى صفاء فى صفاء، وخوف فى رجاء. فإذا سايرهم صوفية الإنس فى ذلك فلا تثريب عليهم؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم، وشبيه الملائكة فى الطاعة والعبادة والقرب من الله تعالى لهو من أهل النعيم والرضوان، وأصحاب الجنان والغفران، وما ذلك على الله تعالى بعزيز.

آدم عليه السلام

ﷻ أخبر القرآن الكريم أن آدم هو أب البشر أجمعين. قال تعالى: ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[4].

---

(١) العلامة المتقى الهندى فى كنز العمال - الباب الثاني: في الاعتصام بالكتاب والسنة - الحديث رقم: ٩٨١

(٢) العلامة المتقى الهندى فى كنز العمال - الباب الثاني: في الاعتصام بالكتاب والسنة - الحديث رقم: ١٦٥٦ - عن أبى الدرداء .

(٣) الإمام مسلم - صحيح مسلم - باب في أحاديث متفرقة - الحديث رقم: ٦٠ - (٢٩٩٦) وذكره الإمام النووى فى الحديث رقم ٦٠ فى شرحه لصحيح مسلم وعلق على الحديث قائلا: [قوله صلى الله عليه وسلم: (وخلق الجان من مارج من نار) الجان الجن والمارج اللهب المختلط بسواد النار] . وأخرجه أحمد بمسنده ج١٧ ص٥٣٩ حديث رقم: ٢٥٠٧٢ - طبعة دار الحديث - القاهرة ١٩٩٥م.

(٤) سورة ص - الآيتان ٧٢/٧١.

۞ **قال العلامة الزمخشري:** « إني خالق بشرا ولم يكّن الملائكة قد عرفوا البشـر، ولا عـهدوا به، قيل: فالله عز وجل قد أخبرهم بقوله: إني خالق مما صنعته، وسيكون كـذا وكـذا، ولكنه حين حكاه عليهم اقتصر على الاسم فقط، فإذا سويته وأتممت خلقه وعدلته نفخت فيه من روحي وأحييته، وجعلته حساسا متنفسا، فقعوا لــه مجتمعين حولـه فـي وقـت واحد للاجتماع به، مقدمين له التحية، ساجدين لله رب العالمين، ولا يتخلف عن ذلـك منكم أحد، فسجدوا عن أخرهم ما بقي منهم واحد، إلا كان ساجدا، فـإن قلـت: كيـف ساغ السجود لغير الله؟[١]، والجواب: أن الذى لا يسوغ هو السجود لغير الله علـى وجـه العبادة، أما علىَ وجه التكرمة والتبجيل، فلا يأباه العقل، إلا أن يخبر الله عز وجل بما فيه من مفسـدة فينهى عنه »[٢].

۞ وقال أيضا: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون﴾[٣].

۞ **يقول العلامة السيوطى:** « عن ابن عباس رضي الله عنهما قـال: خلـق الله الإنسـان مـن ثـلاث: مـن طـين لازب، وصلصـال، وحمـأ مسـنون. فـالطين الـلازب، الـلازم الجيـد. والصلصال المرقق، الذي يصنع منه الفخار. والحمأ المسنون، الطين فيه الحمأة. وفي قوله: ﴿ من صلصال ﴾ قال: الصلصال، الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنـها فتيبـس، ثم تصير مثل الخزف الرقاق. وقيل: الصلصال، هو التراب اليابس الذي يبل بعد يبسـه. أو هو طين خلط برمل. وقال قتادة رضي الله عنه قال: الصلصال، التراب اليـابس الـذي يسمع له صلصلة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال: الصلصال، الطين تعصره بيـدك

---

(١) علماء اللغة يقررون أن لفظ السجود يأتى على معان كثيرة، ويقرر أهل الشريعة أيضا أن السجود أنواع:-

الأول: سجود العبادة، وهو لا يكون إلا لله رب العالمين، كالحال فى الصلوات وغيرها مما يجـيء فيـه السـجود على سبيل العبادة.

الثانى: ما يجيء على سبيل الإمارة بإظهار التجلة والاحترام، كما يقع بين أهل الفضل ومعارفهم.

الثالث: ما يرد فى المحتوى اللغوى، ويقع بين علمائه على أنه مفرد من مفـردات اللغـة، يتعـاملون معـه فـى لفظه ومعناه بالنسبة لهم.

(٢) العلامة الزمخشرى – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ج٣ ص٣٤٣ .

(٣) سورة الحجر – الآية ٢٦ .

فيخرج الماء من بين أصابعك. وفي قوله: ﴿ من حمأ مسنون ﴾ قال ابن عباس : من طين رطب، أو من طين منتن. وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلق آدم من أديم الأرض، فألقي على الأرض حتى صار طينا لازبا، وهو الطين الملتزق، ثم ترك حتى صار حمأ مسنونا وهو المنتن، ثم خلقه الله بيده فكان أربعين يوما مصورا، حتى يبس فصار صلصالا كالفخار إذا ضرب عليه صلصل. فذلك الصلصال والفخار مثل ذلك والله أعلم »[1].

ﷻ وأن آدم هذا قد خلقه الله من طين. قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[2].

ولما كان آدم من مادة وروح وسلوكيات الروح فى ارتفاع وانخفاض، فى هداية وضلال، فى تقدم وتدهور، فإن اتجاهات الإنسان الروحية قد تجعله غير قادر على كشف الغيوب، وحينئذ قد يقع فى الخطأ رغم اجتهاده - حتى لا يقع فيه - ولكنها طبيعته البشرية، فإذا وقع المرء - بعد الاجتهاد - فى الخطأ فإن باب التوبة مفتوح متى كانت دائرة صفاته متجهة نحو الله تعالى، ولذا فإن مشاعره الذاتية سوف تنطلق به إلى هذا الاتجاه[3]، وكلما أمكنه السير فى الاتجاه الصحيح، فإنه يكون على طريق التصوف الإلهى يسير.

وآية ذلك أن آدم عليه السلام لما اجتهد فى أمر الشجرة[4] التى نهاه الله تعالى عن الأكل

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطي - الدر المنثور في التفسير بالمأثور. طبعة دار الفكر، ط١٤٠٣/٢هـ/ ١٩٨٣م.
(٢) سورة المؤمنون - الآيات ١٢/١٤ .
(٣) الأستاذ ذكي محمد الذاكي - النفس البشرية واتجاهاتها ص١٣ .
(٤) قال ابن عطية : « إن الله لما أراد النهى عن أكل الشجرة؛ نهى عنه بلفظة تقتضى الأكل مما يدعو إليه، وهو القرب »(المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - تحقيق الأستاذ / عبدالسلام عبدالشافى (١٢٦/١) - دار الكتب العلمية .). وعن ماهية الشجرة المنهى عنها قال صاحب البحر المحيط : « قيل هى الكرم؛ ولذلك حرمت علينا الخمر، وقيل هى السنبلة، وقيل التين، وقيل الكافور، وقيل شجرة العلم عليها من كل لون من أكل منها علم الخير والشر، وقيل شجرة الخلد تأكل منها الملائكة، وقيل شجرة من أكل منها أحدث، وقيل شجرة لم يعلمنا الله ما هى، وهذا هو الأظهر »(البحر المحيط (١٥٨/١) - دار الفكر]

منها، حيث ظن أن الله تعالى قد نهاه عن ذات الشجرة[1] في ذات المكان فقط، ولم ينهه جل شأنه عن نوعها ككل، فلما ابتعد عن الشجرة التي وقع النهي أمامها، ظن أنها وحدها التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، فلما وقف على شجرة أخرى بعيدة عن التي نهى عنها، أكل منها مع أنهما من نوع واحد[2]. فاجتهاده يثاب به، ولا يعاقب عليه. لقوله ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة ﷺ : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران اثنان وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد »[3] أجر على اجتهاده، وأجر على إصابته وجه الحق فيه.

وروى الشيخان عن عمرو بن العاص[4] « أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر »[5].

---

(١) قال تعالى : ﴿ " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" ﴾(سورة البقرة الآية ٣٥) يقول صاحب البحر المحيط : « في قوله ﴿ ولا تقربا ﴾ مبالغة في النهي عن قربان الشيء أكد من النهي عن الشيء. وإن كان المعنى لا تقربا هذه الشجرة بالأكل »(تفسير البحر المحيط (١٥٨/١) . ويقول العلامة الطاهر بن عاشور : « الفاء عاطفة على قوله ﴿ ولا تقربا ﴾ وحقها إفادة التعقيب. فيكون التعقيب عرفيا؛ لأن وقوع الإزلال مجاز في الإخراج بكرة، والمراد منه الهبوط من الجنة مكرهين »(التحرير والتنوير - الأستاذ الطاهر بن عاشور (٤٣٤/١)

(٢) الشيخ عبدالعظيم محمود البسنى - آدم عليه السلام ص٤١ - ط أولى ١٣٤٨هـ.

(٣) العلامة أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائيني المولود في ٣١٦هـ - مسند أبي عوانة١ ج:٤ ص:١٦٨ الحديث: ٦٣٩٧ - دار المعرفة - بيروت ١٩٩٨م - الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ٥ - تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، وراجع العلامة أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي المولود ٦٣١هـ والمتوفى ٦٧٦هـ - شرح النووي على صحيح مسلم ج:١١ ص:٩١، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩٢هـ - الطبعة الثانية - عدد الأجزاء ١٨ وقال النووي: « وهذا دليل على أنه وكل بعض الأحكام إلى اجتهاد العلماء جعل لهم الأجر على الاجتهاد ».

(٤) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بالتصغير بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي أمير مصر يكنى أبا عبدالله وأبا محمد أمه النابغة من بني عنزة بفتح المهملة والنون أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان وقيل بين الحديبية وخيبر . ولما أسلم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته وولاه غزاة ذات السلاسل وأمده بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح ثم استعمله على عمان فمات وهو أميرها ثم كان من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام في زمن عمر وهو الذي افتتح قنسرين وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية وولاه عمر فلسطين. وكان الشعبي يقول دهاة العرب في الإسلام أربعة فعد منهم عمرا وقال فأما عمرو فللمعضلات. وقد روى عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث روى عنه ولداه عبدالله ومحمد وقيس بن أبي حازم وأبو سلمة بن عبدالرحمن وأبو قيس مولى عمرو وعبدالرحمن بن شماسة وأبو عثمان النهدي وقبيصة بن ذؤيب وآخرون. سار في جيش جهزه معاوية إلى مصر فوليها لمعاوية من صفر سنة ثمان وثلاثين إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين على الصحيح الذي جزم به بن يونس وغيره من المتقنين وقيل قبلها بسنة. وقيل: توفي وهو بن تسعين سنة قلت قد عاش بعد عمر عشرين سنة وقال العجلي عاش تسعا وتسعين سنة وكان عمر عمر ثلاثاً وستين. رجع الإصابة لابن حجر - ذكر من اسمه عمرو بفتح العين وسكون الميم - رقم:٥٨٨٦ [ص:٦٥١/٦٥٣] باختصار

(٥) الإمام البخاري - صحيح البخاري ج:٦ ص٢٦٧٦ - [٢١] باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ - الحديث:٦٩١٩ ، وأخرجه الإمام مسلم - صحيح مسلم ج:٣ ص:١٣٤٢ - [٦] باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ الحديث: ١٧١٦، وأخرجه الإمام الترمذي - سنن الترمذي ج:٣ ص:٦١٥ - [٢] باب ما جاء في القاضي يصيب ويخطيء الحديث:١٣٢٦، والإمام النسائي - سنن النسائي (المجتبى) ج٨ ص:٢٢٣ - [٣] باب الإصابة في الحكم - الحديث:٥٣٨١ ، والأمام محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه - سنن ابن ماجه ج:٢ ص٧٧٦ - [٣] باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق - الحديث:٢٣١٤، وابن حبان - صحيح ابن حبان ج:١١ ص:٤٤٥ - ذكر إعطاء الله جل وعلا الحاكم المجتهد لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في حكمه أجرين إذا أصاب فيه - الحديث:٥٠٦٠ ، والبيهقي - سنن البيهقي الكبرى ج:١٠ ص:١١٩ - الحديث:٢٠١٥٥.

وعن عبد الله بن عمرو[١] قال: « جاء رجلان يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص اقض بينهما قال وأنت هـهنا يا رسول الله قال نعم ؟ قال على أى شيء أقضي قال إن اجتهدت فأصبت لك عشرة أجور وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد »[٢].

وأخرج أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: « إن خصمين اختصما إلى عمرو بن العاص فقضى بينهما فسخط المقضي عليه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قضى القاضي فاجتهد فأصاب فله عشرة أجور وإذا اجتهد فاخطأ كان له أجر أو أجران »[٣].

وآدم عليه السلام اجتهد فى الحكم، ورغم أنه أخطأ فى النتيجة، إلا أنه أثيب بالاجتهاد[٤]، مما يؤكد على أن شرع الله تعالى يفتح أبواب الاجتهاد أمام العقول البشرية

---

(١) هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي كنيته أبو محمد عند الأكثر . روى عن النبي ﷺ كثيرا وعن عمر وأبي الدرداء ومعاذ وابن عوف وعن والده عمرو قال أبو نعيم حدث عنه من الصحابة بن عمر وأبو أمامة والمسور والسائب بن يزيد وأبو الطفيل وعدد وآخرون . وقال ابن سعد أسلم قبل أبيه ويقال لم يكن بين مولدهما إلا اثنتا عشرة سنة أخرجه البخاري عن الشعبي وجزم بن يونس بأن بينهما عشرين سنة.وفي البخاري والبغوي من طريق همام بن منبه عن أبي هريرة ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب . قال الواقدي مات بالشام سنة خمس وستين وهو يومئذ بن اثنتين وسبعين. الإصابة فى تمييز الصحابة – (العلامة شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ) رقم: ٤٨٥٠ ص ١٩٣/١٩٧ .

(٢) العلامة علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي المولود ٣٠٦هـ، المتوفى ٣٨٥هـ – سنن الدار قطني ج:٤ ص:٢٠٣ – [٢٥] كتاب في الأقضية والأحكام وغير ذلك – الحديث:١ – دار المعرفة – بيروت – ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م – عدد الأجزاء ٤ – تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني .

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج:٢ ص:١٨٧ – الحديث:٦٧٥٥ .

(٤) راجع للدكتور: محمد بن فتح الله بدران – العقيدة والفطرة ص٧٧ ، وراجع للأستاذ البهى الخولى – آدم عليه السلام خلافته وفلسفة تقويمه – مكتبة وهبة بالقاهرة.

على أوسع نطاق، مادام ذلك فى حدود ما شرع الله تعالى، ويحقق لأفراد المجتمع مصالح هم فى حاجة مستمرة إليها.

ثم إن آدم ﷺ لما وقع فى الخطأ – مع أنه كان يقصد الاجتهاد، وسمى خطأ من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين – سارع إلى الاعتراف بأنهما ظلما أنفسهما، ولجأ إلى مقام التوبة من غير إبطاء، أو تأخير. قال تعالى على لسان آدم وحواء: ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[1].

❁ **قال الشيخ محمد عبده**: « : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾. تاب آدم بذلك وأناب إلى ربه ﴿ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى قبل توبته وعاد عليه بفضله ورحمته »[2].

ولما كان مقام التوبة والخوف قد غلب كل منهما على آدم وحواء، وانطلق الأمر بهما إلى مقام الخوف والرجاء، فإن الله تعالى لم يردهما خائبين، لعلمه تعالى صدق التوبة منهما، فألهمهما الله تعالى ما لم يكن لهما بحسبان، وهو ما يعرف عند الصوفية بالحال. قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[3] .

❁ **يقول العلامة ابن كثير** : « قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[4]. وعن رجل من بني تميم قال: أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه قال علم شأن الحج »[5].

---

(١) سورة الأعراف – الآية ٢٣ .

(٢) الإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ج١ ص٢٧٩ .

(٣) سورة البقرة – الآية ٣٧.

(٤) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ١ ص: ٨٣ .

(٥) سورة الأعراف – الآية ٢٣ .

وعن عبيد بن عمير[١] أنه قال: قال آدم يا رب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبته على قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعته من قِبَلِ نفسي قال بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك قال فكما كتبته علي فاغفر لي قال فذلك قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه [٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال أي رب ألم تخلقني بيدك قال بلى قال أي رب ألم تنفخ في من روحك قال بلى قال أي رب ألم تسكني جنتك قال بلى قال أي رب ألم تسبق رحمتك غضبك قال بلى قال أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة قال بلى قال فهو قوله فتلقى آدم من ربه كلمات [٣].

وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آدم عليه السلام أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة قال نعم فذلك قوله فتلقى آدم من ربه كلمات [٤].

وعن أبي العالية في قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال إن آدم لما أصاب الخطيئة قال أرأيت يارب إن تبت وأصلحت قال الله إذا أدخلك الجنة فهي الكلمات ومن الكلمات أيضا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين [٥].

---

(١) هو « عبيد بن عمير أبو عاصم الليثي وهو بن قتادة قاص أهل مكة سمع عمر وابن عمر سمع منه عطاء وعمرو بن دينار قال فضل بن مساور حدثنا أبو عوانة عن سليمان عن مجاهد عن عبيد بن عمير عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي قال أعطيت خمسا لم يعط أحد قبلي فذكر الحديث وقال حفص بن عمر عن عبد العزيز بن مسلم عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن بن عباس رضي الله عنهما عن النبي وقال آدم وغيره عن شعبة عن واصل الأحدب عن مجاهد عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي قال محمد أبو يحيى عن علي رضي الله عنه حكى بن جريج أن عبد الله بن عبيد لم يسمع من أبيه شيئا ولا يذكره قال مات عبيد بن عمير قبل بن عمر » [راجع التاريخ الكبير ج٥ ص٤٥٥ رقم:١٤٧٩].

(٢) العلامة أبو نعيم الأصبهاني – حلية ا ج٢ ص٢٧٣ . لأولياء

(٣) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٥٩٤ – الحديث:٤٠٠٢.

(٤) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج:١ ص:٨٣ .

(٥) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج:١ ص:٨٣ .

وعن عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية[1] قال: الكلمات التي تلقى آدم من ربه اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني وأنت خير الراحمين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم [2].

وعن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال الكلمات اللهم لا إله إلا انت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الغافرين اللهم لا إله إلا انت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب علي انك

---

(١) هو : « عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صدوق من الثالثة أرسل حديثا مات على رأس المائة، روى عن أبيه وثوبان وعنه محمد بن قيس القاص المدني وعبد الله بن عبد الرحمن أبو طوالة وأبو حازم المدني وأبو أمية عبد الكريم بن أبي المخارق وغيرهم، وقيل إنه خلا لعبد الملك بن مروان فلما مات عبد الملك بن مروان و تصدع الناس عن قبره وقف عليه فقال أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك و توعدني فأخافك أصبحت و ليس معك من ملكك غير ثوبيك وليس لك منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين، ثم انكفأ إلى أهله و اجتهد في العبادة حتى صار كأنه شن بال فدخل عليه بعض أهله فعاتبه في نفسه و إضراره فقال للقائل أسألك عن شيء تصدقني عنه قال نعم قال أخبرني عن حالتك التي أنت عليها أترضاها للموت قال اللهم لا قال أفعزمت على انتقال منها إلى غيرها قال ما انتصحت رأيي في ذلك قال أفتأمن من أن يأتيك الموت على حالك التي أنت عليها قال اللهم لا قال حال ما أقام عليها عاقل ثم انكفأ إلى مصلاه روى عبد الرحمن عن ثوبان » [راجع صفوة الصفوة – ج٤ ص٢١٤ – رقم:٧٤٧، تقريب التهذيب ج١ ص٣٥٣ رقم:٤٠٤٤ ، تهذيب التهذيب ج٦ ص٢٦٨ رقم:٥٨٤، التاريخ الكبير ج٥ ص٣٦٤ رقم:١١٥٤، والكاشف ج١ ص٦٤٩ . وتهذيب الكمال ج١٨ ص١٤].

(٢) العلامة ابن أبى شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص٣١ – [١٩] الكلمات التى تلقى آدم من ربه – الحديث: ٢٩٢٥١ . وعن أنس أيضا رضي الله عنه « في قوله عز وجل فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم قال قال سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت [illegible] فاغفر لي إنك خير الغافرين لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني [illegible] رحم الراحمين لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتب علي إنك [illegible] حيم » [العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج٢ ص٣١١ – رقم:٢٥١١].

أنت التواب الرحيم وقوله تعالى إنه هو التواب الرحيم أنه الذى يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله تعالى: ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾[1]، وقوله ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾[2]، الآية وقوله ومن تاب وعمل صالحا وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده لا إله إلا هو التواب الرحيم [3].

ﷻ وقال تعالى: ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾[4].

قال الإمام الفخر الرازى : « قوله تعالى : ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾، نهج قول آدم عليه السلام ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾. والمراد أحد وجهين. إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه، وإن لم يكن هناك ذنب قط، أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب »[5].

ولما كانت الأحوال مواهب من الله تعالى، وأنها أمور روحية، تعترض طريق السالك، ثم لا تلبث أن تزول وهى تنزل عليه بوارد من الله تعالى، فقد وهبها الله تعالى لآدم عليه السلام منحة من الله تعالى. قال جل شأنه: ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾[6]، فلو لم يقع له الاجتباء الإلهى ما حصلت له التوبة، وما وقع عليه بلوغ طريق الخير، ومعرفة كيفية الوصول إليه.

---

(١) سورة التوبة – الآية ١٠٤ .

(٢) سورة النساء – الآية ١١٠ .

(٣) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج:١ ص:٨٣ .

(٤) سورة القصص – الآيتان ١٦/١٥ .

(٥) العلامة الفخر الرازى – مفاتيح الغيب ج١٢ ص٢٦١ .

(٦) سورة طه – الآية ١٢٢ .

◉ **يقول العلامة الطبري** : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى بمعنى اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوع إلى ما يرضى عنه والعمل بطاعته وهو توبته التي تابها عليه. ثم هداه الله تعالى للتوبة فوفقه لها »[1]، حتى صار من أهلها الذين تميزوا بالقبول من الرحمن الرحيم.

ولما كانت المقامات مكاسب وهى أيضا المنزلة التى يحل بها السالك حتى يتوصل إلى غاية جهده، فقد أعتبرها الصوفية من باب المكاسب التى يقوم بأسبابها العبد تاركا النتائج عند الله تعالى. يقول العلامة القشيرى: « المقام هو ما يتحقق العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف »[2]. وهو الذى حصل مع آدم عليه السلام.

ويقرر فريق من الصوفية أن المقامات تنحصر فى سبعة أو عشرة، بينما يراها البعض الآخر لا تنحصر فى عدد معين؛ لأن السالكين كثير، وكل منهم عبر عن المقام الذى وقف عليه، وأطلق عليه الاسم الذى رآه مناسبا لذات المقام.

ودليل ذلك:-

[أ] **أن الإمام الطوسى عدها سبعة مقامات** هى: « ١- التوبة. ٢- الورع. ٣- الزهد. ٤- الفقر. ٥- الصبر. ٦- التوكل. ٧- الرضا »[3].

[ب] **أن الإمام السهروردى عدها عشرة**:- « ١- التوبة. ٢- الورع. ٣- الزهد. ٤- الفقر. ٥- الصبر. ٦- التوكل. ٧- الرضا. ٨- الشكر. ٩- الخوف. ١٠ الرجاء »[4]، بينما اعتبرها البعض غير منحصرة، فبلغت عنده سبعة عشر، وعند غيره أكثر من ذلك، مما يرجح القول بأنها غير منحصرة فى عدد معين.

وسوف أعرض لبيان ذلك فى موضع آخر، لكن مما ألفت الانتباه إليه هو أن آدم عليه السلام وأمنا حواء قد غلبت عليهما الأحوال، ثم تقلبا فى المقامات، وظلا يتنقلان من مقام

---

(١) العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج:١٦ ص٢٢٤ .

(٢) الإمام القشيرى – الرسالة القشيرية ص٩٨ .

(٣) العلامة الطوسى – اللمع ص٦٥ .

(٤) العلامة السهروردى – عوارف المعارف ص٢٣٨ وما بعدها.

إلى أخر. حتى وقع الاجتباء عليهما من الله تعالى. ولا يعقل أن يجتبى الله تعالى من ليس خالصا له، أو غير كامل الصفاء بالنسبة لله رب العالمين.

فالآيات القرآنية ذكرت أن الله تعالى اجتبى آدم حتى صار مستعدا لتقبل الأنوار الإلهية، بل صار فى وضع يسمح له بالاستعداد التام لقبولها، وأن الكلمات التى علمه الله تعالى إياها فى قوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[1]. كانت الطريق الذى سار آدم عليه، حتى بلغ غايته.

وأنه كان فى كل مرحلة من مراحل ذلك الطريق يرتقى مقاما بعد أخر، ويجاهد فى سبيل ذلك بكل ما أمكنه، بدليل أنه لما وقع له العتاب من الله تعالى لأكله من الشجرة متمثلا فى الموقف الذى تلا ذلك العتاب فى قوله تعالى: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾[2]، فإنهما لجأ إلى الله تعالى ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

◉ **يقول العلامة الطبرى**: «يقول تعالى ذكره ونادى آدم وحواء ربهما ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين يقول قد أبان عداوته لكما بترك السجود لآدم حسدا وبغيا،

وعن ابن عباس قال لما أكل آدم من الشجرة قيل له لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها قال حواء أمرتني قال فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها. قال فرنت حواء عند ذلك فقيل لها الرنة عليك، وعلى ولدك»[3].

وفيها العقاب الواضح، ثم قال جل شأنه: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[4]. يقول الدكتور محمد الطيب النجار:

---

(١) سورة البقرة – الآية ٣٧.

(٢) سورة الأعراف – الآية ٢٢ .

(٣) العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٨ ص: ١٤٤/١٤٣ .

(٤) سورة البقرة – الآية ٣٦ .

« وكأنما أراد الله آدم وحواء أن يريا الجنة بما فيها من نعيم، ثم ينزلان إلى الأرض بما فيها من شقاء وبلاء، حتى يتبين لهما أثر المعصية فى شقاء الإنسان وبلائه، ونتيجة الطاعة فى سعادته وهنائه »[1].

وفيها العقاب الصريح، لكن آدم عليه السلام أسرع إلى الاعتراف، وتغلب على نزعات النفس الداخلية، التى قد تدفع صاحبها احيانا إلى القنوط من رحمة، أو تسوق إلى التمادى فى الخطأ، اعتمادا على أن رحمة الله واسعة، وأن عقابه لاحق لرحمته، لكن آدم عليه السلام لم يستجب لشيء من ذلك، وإنما انطلق إلى مقام التوبة﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[2].

❁ **وفى تقديرى:** أن آدم عليه السلام يمثل صورة راقية للتصوف الإنسانى فى مراحله الأولى التى ترضى الله رب العالمين، وإن لم يكن اسم التصوف قد عرف على الناحية الاصطلاحية، إلا أن آدم عليه السلام تحقق بالصفاء الروحى، والنقاء القلبى، والاعتراف الدائم بأن النفس قد تدفع إلى ظلم صاحبها، لكنه متى سارع بالتوبة إلى الله والرجوع عن الخطأ، والانطلاق نحو الصواب؛ فإن الله تعالى يتقبل منه، وربما اجتباه، وعن الخطأ أبعده، وللصواب هداه.

سيدنا نوح عليه السلام نجي الغرق[3]، وثالث الأنبياء[4]

قص علينا القرآن الكريم أن نوحا عليه السلام كان على قائمة أهل الصفاء، وأن نوازعه الشخصية حين حاولت الاندفاع به إلى أمر غير مقبول، لم يسر فى طريقها، وإنما تغلب عليها وانتصر، واعتذر إلى الله تعالى عما جرى فى نفسه، أو انطلق به لسانه.

---

(١) تاريخ الأنبياء فى ضوء القرآن والسنة – الدكتور / محمد الطيب النجار ص٥٢ – دار الطباعة المحمدية بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

(٢) سورة الأعراف – الآية ٢٣ .

(٣) قال تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ۝ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾ [سورة الشعراء – الآيتان ١٢٠/١١٩] ولذا فإنه يسمى نوح نجى الغرق. [راجع للشيخ منصور محمد القليوبى: نوح عليه السلام ص٧ ط أولى ١٣٣٥هـ]

(٤) هو ثالث الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى فى بنى البشر، إذ كان الأول هو آدم عليه السلام، وكان الثانى إدريس عليه السلام وهو جد أبى نوح، أما الثالث فهو نوح عليه السلام، والرابع هود، والخامس صالح، والسادس إبراهيم عليه السلام. [راجع للشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص١٤]

۞ قال تعالى: : ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها[1] إن ربي لغفور رحيم * وهي تجري بهم في موج[2] كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾[3].

۞ **قال العلامة ابن كثير:** « يقول تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها أي بسم الله يكون مرساها على وجه الماء وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها وقرأ أبو رجاء العطاردي بسم الله مجريها ومرسيها وقال الله تعالى ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين﴾[4].

ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى ﴿ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[5].

---

(١) قال الضحاك: « إذا أراد جرى السفينة قال: بسم الله مجراها فتجرى، وإذا أراد وقوفها قال بسم الله مرساها فتقف »(العلامة أثير الدين عبدالله محمد بن يوسف البرهان الأندلسى الغرناطى – روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى – ج٥ ص٧٥٤ – ط٢ دار إحياء التراث العربى ١٤١٩هـ/١٩٩٠م).

(٢) قال صاحب تفسير الأساس: « الموج: هو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بسبب الرياح الشديدة، شبه كل موجه منه بالجبل فى تراكمها وارتفاعها »(الأستاذ سعيد حوى – الأساس فى التفسير – ج٥ ص١١٢ ط٢ ١٤٠٩هـ/١٩٨٦م دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع).

(٣) سورة هود – الآية ٤١/٤٣ .

(٤) سورة المؤمنون – الآيتان ٢٨/٢٩ .

(٥) سورة الزخرف – الآيتان ١٢/١٣ .

وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه.

فعن الحسين بن علي[1] قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا أن يقولوا بسم الله الملك، وما قدروا الله حق قدره، بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم][2] .

وقوله إن ربي لغفور رحيم مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾[3]، وقال ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين رحمته وانتقامه.

وقوله وهي تجري بهم في موج كالجبال أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رءوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا وقيل بثمانين ميلا وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾[5]، وقال تعالى ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾[6].

---

(١) هو : « الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو عبد الله المدني سبط رسول الله وريحانته حفظ عنه استشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة، له صحبة روى عنه ابنه علي بن الحسين وابنته فاطمة بنت الحسين » .[راجع تقريب التهذيب ج١ ص١٦٧ رقم:١٣٣٤، والجرح والتعديل ج٣ ص٥٥ رقم:٢٤٩].

(٢) العلامة أبو يعلى – مسند أبي يعلى ج١٢ ص١٥٢ – الحديث: ٦٧٨١ ، وأخرجه الهيثمي – مجمع الزوائد ج١٠ ص١٣٢ – باب ما يقول إذا ركب البحر.

(٣) سورة الأعراف – من الآية ١٦٧ .

(٤) سورة الرعد – من الآية ٦ .

(٥) سورة الحاقة – الآيتان ١٢/١١ .

(٦) سورة القمر – الآيات ١٥/١٣ .

وقوله ونادى نوح ابنه الرابع واسمه يام وكان كافرا دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون قال هذا الابن العاق: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، حيث اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق فقال له أبوه نوح عليه السلام لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم فليس شيء يعصم اليوم من أمر الله[1]. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين»[2].

❁ **يقول العلامة البيضاوى:** « ونادى نوح ابنه كنعان، وكان فى معزل عزل فيه نفسه عن ابنه، وكان الولد فى معزل عن دين أبيه؛ لأن العزل هو البعد، يا بنى اركب معنا فى السفينة، ولا تكن مع الكافرين فى الدين والانعزال. ﴿ قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء ﴾ حتى لا يغرقنى. ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم ﴾ لأن الوحيد هو الله تعالى. ﴿ وحال بينهما الموج ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل، ﴿ فكان من المغرقين ﴾ وصار من المهلكين بالماء »[3].

لكن نوحا عليه السلام قد نادى على ولده، حيث كان الأب يأمل فى هداية ولده، من خلال دعوته للإيمان بالله رب العالمين، حتى يكون مع الناجين، لكن الابن أبى، وعن طريق الحق غوى. ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ ولاشك أن هذا الابن قد اعتصم بمخلوق جماد هو الجبل، ولم يعتصم بالله الذى خلق الجبل، فكانت نهاية الابن الشارد الموت غرقا. قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

وبعد أن رست السفينة على الجودى[4]، وخرج نوح ومن أمن بالله معه إلى الحياة العادية بعيداً عن حماية الفلك، تغلبت على نوح عليه السلام نوازعه الشخصية، وتدفقت ينابيع

---

(١) قيل إن عاصما بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو. [تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٤٤٨]

(٢) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٢ ص:٤٤٧/٤٤٨ .

(٣) العلامة البيضاوى – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص٢٥١ .

(٤) قال مجاهد: "الجودي جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو إلى الله عز وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام". وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل وقال بعضهم هو الطور. [العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٢ ص:٤٤٨] ، ويقول السيوطي : « قال: إن الجودي من جبال الجنة. فلما أن كان يوم عاشوراء استوت السفينة عليه وقال الله: يا أرض ابلعي ماءك بلغة الحبشة. ويا سماء أقلعي أي أمسكي بلغة الحبشة. فابتلعت الأرض ماءها وارتفع ماء السماء حتى بلغ عنان السماء رجاء أن يعود إلى مكانه، فأوحى الله إليه: أن أرجع فإنك رجس وغضب. فرجع الماء فملح وحم وتردد فأصاب الناس منه الأذى، فأرسل الله الريح فجمعه في مواضع البحار فصار زعاما مالحا لا ينتفع به، وتطلع نوح فنظر فإذا الشمس قد طلعت وبدا له اليد من السماء. وكانت ذلك آية ما بينه وبين ربه عز وجل أمان من الغرق، واليد القوس الذي يسمونه قوس قزح. ونهي أن يقال له قوس قزح لأن قزح شيطان وهو قوس الله، وزعموا أنه كان يمتد وتروسهم قبل ذلك في السماء. فلما جعله الله تعالى أمانا لأهل الأرض من الغرق نزع الله الوتر والسهم » [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور – طبعة دار الفكر الثانية – بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م]

الأبوة الحانية، فتذكر ابنه الذى مات غرقا، ومن ثمّ سأل الله لهذا الأبن النجاة فى الآخرة، حتى لا يقع فى العذاب الأليم أبد الآبدين، وكانت أمنية تراوده عن نفسها، وتجرى بين أعطاف أماله، فنادى ربه: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[1].

◉ **يقول العلامة السيوطى**: «عن الحسن قال ﴿ونادى نوح ربه قال رب إن ابني من أهلي﴾ وإنك قد وعدتني أن تنجي لي أهلي وإن ابني من أهلي. »[2]، فهو لا يحتج على الله تعالى، وإنما يسأل الله تعالى سؤال رجاء والحاح، على ما هى عادة أهل النجاة والصلاح، الذين هم السابقون فى الفلاح.

◉ **يقول الإمام القرطبى**: «قوله تعالى ونادى نوح ربه أي دعاه فقال رب إن ابني من أهلي أي من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق، وإن وعدك الحق يعني الصدق وقال علماؤنا وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله وأهلك وترك قوله إلا من سبق عليه القول فلما كان عنده من أهله قال رب إن ابني من أهلي يدل على ذلك قوله ولاتكن مع الكافرين أي لاتكن ممن لست منهم لأنه كان عنده مؤمنا في ظنه ولم يك نوح يقول لربه إن ابني من أهلي إلا وذلك عنده كذلك إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ثم يسأل الله في إنجاء بعضهم وكان ابنه يسر الكفر ويظهر الإيمان فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب أي علمت من حال ابنك مالم تعلمه أنت وقال الحسن كان منافقا ولذلك استحل نوح أن يناديه وعنه أيضا كان ابن امرأته دليله قراءة علي ونادى نوح ابنها وأنت أحكم الحاكمين على قوم بالنجاة وعلى قوم بالغرق»[3].

أجل لم يكن نبى الله نوحا يطمع فى نجاة ولده فى دار الدنيا وقد هلك، ولكنه كان يطمع فقط فى إنجاء ابنه فى الآخرة، باعتبار أنه من أهل نوح الذين انتسبوا إليه، لكن الله تعالى عاتب نوحا فى ذلك، وبين له أن هذا الأبن لم يكن من أهلك الناجين، لأن الأنساب

---

(١) سورة هود - الآية ٤٥

(٢) العلامة جلال الدين السيوطى - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور - الطبعة الثانية - دار الفكر - بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٣) الإمام القرطبى - الجامع لأحكام القرآن ج: ٩ ص: ٤٥ .

ساقطة، إلا نسب الطاعة إلى الله. فهو وحده الباقي. ثم إن عمل هذا الابن ليس مقبولا عند الله. وبالتالى فهو ليس من العاملين عملا صالحا. حتى يكون من أهل نوح. باعتبار أن أهل نوح على الحقيقة هم الذين أمنوا بالله مع نوح عليه السلام وقدموا الأعمال الصالحة. لقوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾[1].

۞ **يقول العلامة الطبرى** : « اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى فإذا نفخ في الصور من النفختين أيتهما عني بها فقال بعضهم عني بها النفخة الأولى، مستدلا بما ذكر عن سعيد بن جبير أن رجلا أتى ابن عباس رضى الله عنهما فقال سمعت الله يقول فلا أنساب بينهم يومئذ..الآية وقال في آية أخرى وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فذلك في النفخة الأولى فلا يبقى على الأرض شيء فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. فإنهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون »[2]. وأما قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. فذكر السدى أن هذا النفخ يقع فى النفخة الأولى من قوله تعالى "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" قال في النفخة الأولى.

فإذا نفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ يتواصلون بها ولا يتساءلون ولا يتزاورون فيتساءلون عن أحوالهم وأنسابهم. وقال آخرون بل عني بذلك النفخة الثانية، ذكر من قال ذلك عن زاذان يقول أتيت ابن مسعود وقد اجتمع الناس إليه في داره فلم أقدر على مجلس فقلت يا أبا عبد الرحمن من أجل أني رجل من العجم تحقرني قال ادن قال فدنوت فلم يكن بيني وبينه جليس فقال يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأولين والآخرين وينادي مناد ألا إن هذا فلان ابن

---

(١) سورة المؤمنون – الآيات ١٠١/١٠٣ .

(٢) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٨ ص:٥٤ ، وعن ابن عباس قوله فلا أنساب بينهم يومئذ وعلا يتساءلون فذلك حين ينفخ في الصور فلا حي يبقى إلا الله، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية.

فلان فمن كان له حق قِبله فليأت إلى حقه قال فتفرح المرأة يومئذ أن يكون لها حق على ابنها أو على أبيها أو على أخيها أو على زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون[١].

وعن حجاج فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون قال لا يسأل أحد يومئذ بنسب شيئا ولا يتساءلون ولا يمت إليه برحم، وعن قتادة قال ليس شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعافه مخافة أن يذوب له عليه شيء، ثم قرأ ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[٢]،

وعن أنس بن مالك ﷺ قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقى الخلائق يوم القيامة فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم علي [٣].

وعن صهيب ﷺ قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل الله موازيننا ويبيض

---

(١) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٨ ص: ٥٤، وعن ابن مسعود قال: يؤخذ العبد أو الأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي مناد ثم ذكر نحوه وزاد فيه فيقول الرب تبارك وتعالى للعبد أعط هؤلاء حقوقهم فيقول أي رب فنيت الدنيا فمن أين أعطيهم فيقول للملائكة خذوا من أعماله الصالحة وأعطوا لكل إنسان بقدر طلبته فإن كان له فضل مثقال حبة من خردل ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ، ثم تلا ابن مسعود إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما وإن كان عبدا شقيا قالت الملائكة ربنا فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته وصكوا له صكا إلى النار.

(٢) سورة عبس – الآيات ٣٤/٣٧ .

(٣) العلامة الطبراني – المعجم الأوسط ج٥ ص٢٢٢ – الحديث: ٥١٤٤ ، وأخرجه الهيثمي – مجمع الزوائد ج١٠ ص٣٥٦.

وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم][1]،

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حِمَماً فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل أو قال حمية السيل وقال النبي صلى الله عليه وسلم ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية][2].

ويقول تعالى ذكره فمن ثقلت موازينه موازين حسناته وخفت موازين سيئاته فأولئك هم المفلحون يعني الخالدون في جنات النعيم ومن خفت موازين حسناته فرجحت بها موازين سيئاته فأولئك الذين خسروا أنفسهم يقول غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله في جهنم خالدون يقول هم في نار جهنم »[3].

ﷻ قال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[4].

---

(١) العلامة أبو حاتم ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص٤٧١ – ذكر البيان بأن رؤية المؤمنين ربهم في المعاد من الزيادة التي وعد الله جل وعلا عباده على الحسنى التي يعطيهم إياها – الحديث: ٧٤٤١، وأخرجه ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج١ ص٦٧ – الحديث: ١٨٧ ، والطبراني – المعجم الأوسط ج١ ص٢٣٠ الحديث: ٧٥٦ ، المعجم الكبير ج٨ ص٣٩ الحديث: ٧٣١٤ وأخرج ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص٤٨٥ – ذكر الاخبار بأن أهل الجنة يخلدون فيها إذ الموت غير موجود في الجنة الحديث: ٧٤٤٩ عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة خلود ولا موت فيها ويا أهل النار خلود لا موت فيه » .

(٢) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٥ ص٢٤٠٠ – الحديث: ٦١٩٢ .

(٣) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٨ ص: ٥٥/٥٤ .

(٤) سورة هود – الآية ٤٦ .

۞ **يقول العلامة السيوطى :** « وعن ابن عباس قال: ما بغت امرأة نبي قط[1]، وقوله ﴿إنه ليس من أهلك﴾ يقول: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. وقيل: إن نساء الأنبياء لا يزنين ، وقوله: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ يقول: مسألتك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك[2].

وعن الفضيل بن عياض رضي الله عنه[3] قال: بلغني أن نوحا عليه السلام لما سأل ربه فقال: يا رب إن ابني من أهلي. فأوحى الله إليه. يا نوح إن سؤالك إياي أن ابني من أهلي عمل غير صالح ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ قال: فبلغني أن نوحا عليه السلام بكى على قول الله ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ أربعين عاما »[4].

---

(١) وفي هذا رد على كل من يزعم أن قوله تعالى "فخانتهما" أنها خيانة فراش؛ لأن هذا قول من لا يوثق بعلمه. ولا دينه؛ لأن الله تعالى منع ذلك عن نساء الأنبياء.

(٢) وقال قتادة في الآية قال: إنه لما نهاه أن يرجعه في أحد كان العمل غير صالح مراجعة ربه في قراءة عبد الله ﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ وعن غير قتادة: كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان. وقال قتادة: خالف نوحا في النية والعمل. وقال ابن جرير: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ يقال: سؤالك عما ليس لك به علم.وقال الضحاك رضي الله عنه ﴿إنه عمل غير صالح﴾ قال: كان عمله كفرا بالله.وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه. أنه قرأ "عمل غير صالح" قال: معصية نبي الله.وقال مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ قال: بين الله لنوح عليه السلام أنه ليس بابنه.

(٣) هو : « الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي أبو علي الزاهد – أحد العباد. روى عن الأعمش ومنصور وجعفر الصادق وسليمان التيمي وحميد الطويل ويحيى الأنصاري وخلق. وعنه الشافعي والسفيانان وابن المبارك ويحيى القطان وبشر الحافي والسري السقطي وخلق. قال ابن سعد كان ثقة نبيلا فاضلا عابدا ورعا كثير الحديث مات بمكة في أول سنة سبع وثمانين ومائة » [راجع العلامة عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل المولود ٨٤٩هـ المتوفى ٩١١هـ – طبقات الحفاظ ج:١ ص:١١٠ – الطبقة السادسة – رقم: ٢٢٠ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٣هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١]

(٤) العلامة جلال الدين السيوطى – الدر المنثور فى التفسير بالمأثور – الطبعة الثانية – دار الفكر – بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وهذه الموعظة فيها مزيد بيان لمنزلة نوح عليه السلام[1]. وإلا ما كان الرد المناسب هو قوله تعالى "إني أعظك" وذلك لأنها التي يجيء مع مقام النبوة.

وخيانة امرأة نوح كانت في الدين لا في الفراش، دليل ذلك أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون وذلك أنها قالت له أما ينصرك ربك فقال لها نعم قالت فمتى قال إذا فار التنور فخرجت تقول لقومها يا قوم والله إنه لمجنون ويزعم أنه لا ينصره ربه إلا أن يفور هذا التنور فهذه خيانتها[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت « كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص أن ابن وليدة زمعة مني فاقبضه قالت فلما كان عام الفتح أخذه سعد بن أبي وقاص وقال ابن أخي قد عهد إلي فيه فقام عبد بن زمعة فقال أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه فتساوقا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سعد يا رسول الله ابن أخي كان قد عهد إلي فيه فقال عبد بن زمعة أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لك يا عبد بن زمعة ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم الولد للفراش وللعاهر الحجر ثم قال لسودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم احتجبي منه لما رى من شبهه بعتبة فما رآها حتى لقي الله »[3].

---

(١) قال القرطبي : « قوله تعالى قال يانوح إنه ليس من أهلك أي ليس من أهلك الذين وعدتهم أن أنجيهم قاله سعيد بن جبير وقال الجمهور ليس من أهل دينك ولا ولايتك. وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من حكم النسب إنه عمل غير صالح قرأ ابن عباس إنه عمل غير صالح أي من الكفر والتكذيب واختاره أبو عبيد وقرأ الباقون عمل أي ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف قاله الزجاج وغيره قال ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار أي ذات إقبال وإدبار وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد ويجوز أن تكون الهاء للسؤال أي إن سؤالك إياي أن أنجيه عمل غير صالح قاله قتادة وقال الحسن معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ابنه وكان لغيره رشدة » [العلامة القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج:٩ ص:٤٦].

٢) العلامة القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج:٩ ص:٤٦/٤٧ .

٣) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٢ ص٧٢٤ – [٣] باب تفسير المشبهات – الحديث:١٩٤٨، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص١٠٨٠ – [١٠] باب الولد للفراش وتوقي الشبهات – الحديث:١٤٥٧.

فنوح عليه السلام عوتب من قبل الله تعالى عتابا شديدا؛ لأنه طمع فى مجرد احتساب هذا الولد من أهله الناجين معه فى الآخرة من أهل النجاة؛ لأن الله تعالى لا يغفر لمشرك أبدا. قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾[1].

❁ **يقول الحافظ ابن كثير** : « أخبر تعالى أنه لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده؛ لأن عاقبة الشرك بالله عدم الغفران فى شيء أخر أبدا »[2].

ولعل ذلك ما روى عن عائشة قالت [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدواوين عند الله ثلاثة ديوان لا يعبأ الله به شيئا،وديوان لا يترك الله منه شيئا،وديوان لا يغفره الله أما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله،قال الله عز وجل إن الله لا يغفر أن يشرك به الآية وقال إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة،وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله،من صوم يوم تركه أو صلاة فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء،وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا القصاص لا محالة][3].

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [الظلم ثلاثة فظلم لا يغفره الله،وظلم يغفره الله،وظلم لا يترك الله منه شيئا،فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك وقال إن الشرك لظلم عظيم[4]، وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض][5].

---

(١) سورة النساء – الآية ٤٨ .

(٢) الإمام الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج١ ص٥٠٩ .

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٦ ص٢٤٠ – الحديث: ٢٦٠٧٣ ، وأخرجه الهيثمى – مجمع الزوائد – ج١٠ ص٣٤٨.

(٤) سورة لقمان – من الآية ١٣ .

(٥) العلامة سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي المتوفى ٢٠٤هـ – مسند أبي داود الطيالسي – ج١ ص٢٨٢ – الحديث: ٢١٠٩ – دار المعرفة ببيروت (بدون) – عدد الأجزاء ١ ، وأخرجه الهيثمى فى الزوائد ج١٠ ص٣٤٨. وعن أبي إدريس قال سمعت معاوية يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا. [أخرجه أحمد – مسند أحمد الحديث ٦٩٩].

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال _ إن الله يقول يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان منك يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لقيتك بقرابها مغفرة[1].

وعن أبي ذر ﷺ قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق ثلاثا ثم قال في الرابعة على رغم أنف أبي ذر "" فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول وإن رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول وإن رغم أنف أبي ذر[2]،

وعن أبي ذر قال خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده وليس معه إنسان قال فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد قال فجعلت أمشي في ظل القمر فالتفت فرآني فقال من هذا فقلت أبو ذر جعلني الله فداك قال يا أبا ذر تعال قال فمشيت معه ساعة فقال لي إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا

---

(١) الإمام النسائي – سنن النسائي – الحديث: ٧٨١ ، وأخرجه أحمد بن حنبل – مسند أحمد – الحديث: ٥١٥٤.

(٢) العلامة أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائيني – مسند أبي عوانة ١ ج١ ص٢٨ – الحديث: ٣٦ – طبعة دار المعرفة – بيروت الأولى.وأحاله إلى أحمد في المسند – الحديث: ٥١٦٦ . وعن أبي ذر قال كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرة المدينة عشاء ونحن ننظر إلى أحد فقال يا أبا ذر قلت لبيك يا رسول الله قال ما أحب أن لي أحدا ذاك عندي ذهبا أمسى ثالثة وعندي منه دينار إلا دينارا أرصده يعني لدين إلا أن أقول به في عباد الله وهكذا فحثا عن يمينه وعن يساره وبين يديه قال ثم مشينا فقال يا أبا ذر إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا فحثا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره قال ثم مشينا فقال يا أبا ذر كما أنت حتى آتيك قال فانطلق حتى توارى عني قال فسمعت لغطا فقلت لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض له قال فهممت أن أتبعه قال فذكرت قوله لا تبرح حتى آتيك فانتظرته حتى جاء فذكرت له الذي سمعت فقال ذاك جبريل أتاني فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق. [الإمام البخاري – صحيح البخاري – الحديث: ٥٨٢٧، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم – الحديث: ٩٤ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد بن حنبل – الحديث ٥١٥٢].

فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا قال فمشيت معه ساعة فقال لي اجلس ههنا فأجلسني في قاع حوله حجارة فقال لي أجلس ههنا حتى أرجع إليك قال فانطلق في الحرة حتى لا أراه فلبث عني حتى إذا طال اللبث ثم إني سمعته وهو مقبل وهو يقول وإن زنى وإن سرق قال فلما جاء لم أصبر حتى قلت يا نبي الله جعلني الله فداك من تكلم في جانب الحرة فإني سمعت أحدا يرجع إليك قال ذلك جبريل عرض لي جانب الحرة فقال بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت يا جبريل وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وإن سرق وإن زنى قال نعم قلت وإن سرق وإن زنى قال نعم وإن شرب الخمر (1).

وعن جابر قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما الموجبتان قال من مات لا يشرك بالله شيئا وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا وجبت له النار (2).

وعن أسامة بن سلمان(3) أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب قيل يا رسول الله

---

(1) الإمام البخاري – صحيح البخاري – الحديث: ٢٣٨٨ . والحديث: ٦٤٤٣، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم – الحديث: ٩٤. والحديث: ٩٩١، وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئا إلا حلت لها المغفرة إن شاء الله عذبها وإن شاء غفر لها إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

(2) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٩٤ – [٤٠] باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار – الحديث: ٩٢ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج٣ ص٣٩١ – الحديث: ١٥٢٣٧ ، والبيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٧ ص٤٤ – [٨] باب قوله تعالى "لئن أشركت ليحبطن عملك" – الحديث: ١٣٠٧٥.

(3) حز : « أسامة بن سلمان النخعي شامي روى عن أبي ذر وابن مسعود وعنه عمر بن نعيم العنسي وغيره ذكره ابن حبان في الثقات، ولم يذكر البخاري ولا بن أبي حاتم فيه جرحا ولم يذكروا له راويا غير عمر ولكن قال بن عساكر قيل روى عنه مكحول أيضا وهو وهم وانما جاءت الرواية عنه من طريق الوليد بن مسلم عن بن ثوبان عن مكحول عنه عن أبي ذر وخالفة الهيثم بن جميل فرواه عن بن ثوبان عن مكحول عن عمر بن نعيم عن أسامة وكذلك قال زيد بن الحباب وعلي بن عياش وعاصم بن علي وعلي بن الجعد كلهم عن بن ثوبان ثم ساق الأسانيد عنهم بذلك قلت وهو عند احمد عن سليمان بن داود وعن زيد بن الحباب وعن علي بن عياش وعصام بن خالد كلهم عن بن ثوبان كذلك » [راجع تعجيل المنفعة ج١ ص٢٧ رقم: ٣٣، التاريخ الكبير ج٢ ص٢١ قم: ١٥٥٦، الثقات ج٤ ص٤٥ رقم: ١٧٦٢].

ما الحجاب قال أن تموت النفس مشركة [1].

وكان أبو أيوب الأنصاري يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم إليهم فقال لهم إن ربكم عز وجل خيرني بين سبعين ألف يدخلون الجنة عفوا بغير حساب وبين الخبيئة عنده لأمتي فقال بعض أصحابه يا رسول الله أيخبأ ذلك ربك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وهو يكبر فقال إن ربي زادني مع كل ألف سبعين ألفا والخبيئة عنده قال أبو رهم يا أبا أيوب وما تظن خبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكله الناس بأفواههم فقالوا وما أنت وخبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو أيوب دعوا الرجل عنكم أخبركم عن خبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أظن بل كالمستيقن إن خبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله مصدقا لسانه قلبه أدخله الجنة [2].

وعن ضمضم بن جوس اليماني[3]. قال دخلت مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بشيخ مصفر رأسه براق الثنايا معه رجل أدعج جميل الوجه شاب فقال الشيخ يا

---

(١) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج: ٤ ص: ٢٨٦ – الحديث: ٧٦٦٠ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج: ٥ ص: ١٧٤ – الحديث: ٢١٥٦٢ ، وأخرجه البزار – مسند البزار ج٩ ص٤٤٣ – الحديث: ٤٠٥٥ ، وعن أنس قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما تركت حاجة ولاذا حاجة إلا قد أتيت قال أليس تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثلاث مرات قال نعم قال فإن ذلك يأتي على ذلك كله.[الحافظ أبو يعلى – مسند أبي يعلى – الحديث: ٣٤٣٣]

(٢) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٥ ص٤١٣ – الحديث: ٢٣٥٥٢ ، وأخرجه الهيثمي في الزوائد ج١٠ ص٣٧٥ ، ص٤٠٦ .وعن أبي أيوب الأنصاري عن أبي أيوب قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام قال وما دينه قال يصلي ويوحد الله تعالى قال استوهب منه دينه فإن أبي فابتعه منه فطلب الرجل ذاك منه فأبى عليه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال وجدته شحيحا على دينه قال فنزلت إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

(٣) هو « ضمضم بن جوس الهفاني يماني تابعي ثقة، سمع أبا هريرة وعبد الله بن حنظلة روى عنه يحيى بن أبي كثير وعكرمة بن عمار . [راجع التاريخ الكبير ج٤ ص٣٣٧ – باب ضمضم – رقم: ٣٠٤٦، معرفة الثقات – ج١ ص٤٧٤ رقم: ٧٨٤].

يمامي تعال لا تقولن لرجل أبدا لا يغفر الله لك والله لا يدخلك الله الجنة ابدا قلت ومن أنت يرحمك الله قال أنا أبو هريرة. قلت إن هذهالكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله أو لخادمه إذا غضب عليها قال: فلا تقلها إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان رجلان من بني إسرائيل متواخيين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر مذنب فأبصر المجتهد المذنب على ذنب فقال له اقصر فقال له خلني وربي قال وكان يعد ذلك عليه ويقول خلني وربي حتى وجده يوما على ذنب فاستعظمه فقال ويحك أقصر قال خلني وربي أبعثت علي رقيبا فقال والله لا يغفر الله لك أبدا أو قال لا يدخلك الله الجنة أبدا فبعث إليهما ملك فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده جل وعلا فقال ربنا للمجتهد أكنت، عالما أم كنت قادرا على ما في يدي أم تحظر رحمتي على عبدي اذهب الى الجنة يريد المذنبوقال للآخر اذهبوا به الى النار فوالذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته [(١)].

عن ابن عمر قال: كنا لا نشك في من أوجب الله له النار في الكتاب حتى نزلت علينا هذه الآية إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، قال فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله عز وجل، وعن ابن عمر قال _ كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا صلى الله عليه وسلم يقرأ إن الله لا يغفر أن يشرك

---

(١) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج١٣ ص٢٠ – ذكر وصف هذين الرجلين اللذين قال أحدهما لصاحبه ما قال – الحديث:٥٧١٢ ، وأخرجه الإمام أحمد – مسند أحمد ج٢ ص٣٢٣ – الحديث:٨٢٧٥، وعن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قال الله عز وجل من علم اني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئا » [العلامة أبو داود – سنن أبى داود – الحديث:٤٩٠١ ، والعلامة الطبراني – المعجم الكبير – الحديث:١١١١٦١٥]، وعن أنس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجزه له ومن توعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار » [الحافظ أبو بكر البزار – مسند البزار – الحديث: د٣٢٣ مسند أبي يعلى – الحديث:٣٣١٦] وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا نشك في قاتل النفس وآكل مال اليتيم وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت هذه الآية إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لما يشاء فأمسك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهادة.

به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا ورجونا لهم [١].

وعن عبدالله بن عمر أنه قال لما نزلت يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إلى آخر الآية قام رجل فقال والشرك بالله يا نبي الله فكره ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد إفترى إثما عظيما. ولا شك أن ذلك كله مشروط بالتوبة لمن قدر عليها، فمن تاب من أي ذنب وقد تكرر منه تاب الله عليه. ولهذا قال جل شأنه قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا[٢] بشرط التوبة ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه ولا يصح ذلك من القادر على التوبة، ولم يتب كبرا على الله؛ لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء أي وإن لم يتب صاحبه عجزا عنها فهذه أرجى من تلك»[٣]، وقوله ومن يشرك بالله فقد إفترى إثما عظيما كقوله إن الشرك لظلم عظيم.

وعن عبد الله بن مسعود قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت له إن ذلك لعظيم قال قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال قلت ثم أي قال ثم أن تزاني حليلة جارك »[٤].

---

(١) العلامة الطبراني المعجم الأوسط ج٦ ص١٠٦ – رقم:٥٩٤٢ ، وأخرجه أبو يعلى – مسند أبي يعلى ج١٠ ص١٨٥ – رقم:٥٨١٣.

(٢) سورة الزمر – الآية ٥٣ .

(٣) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج:١ ص:٥٠٩/٥١٢ .

(٤) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٦٢٦ – [٥] باب قوله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون – الحديث: ٤٢٠٧، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٩٠ – [٣٧] باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده – الحديث: ٨٦

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة[1] عن أبيه قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قول الزور وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[2].

هنا يسرع نبى الله نوح إلى مقام التوبة والافتقار إلى الله تعالى، حتى يلوذ به فى كثير من الورع مع الصبر، بجانب التوكل على الله تعالى وحده، والاستعانة به، ثم الرضا عما قسمه جل علاه وقضاه، أو جرى به قضاؤه، ونفذه قدره، ويعلن نوح الاستعاذ بالله من سؤال ما لا علم له به أو الإلحاق فيه؛ لأن ذلك مقام التائبين، وحال المسبحين.

فى نفس الوقت؛ فإن نبى الله الكريم يعلن أن النجاة بيد الله، والهلاك فى اتباع الشيطان. فمن غفر الله له ورحمه فلا شك أنه من الناجين، العارفين حق ربهم، المتوكلين عليه. ورحمة الله واسعة، تشمل من تاب لله وأناب، وعن أطماع نفسه وشهواتها غاب.

﴿ قال تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾[3].

(١) هو « عبد الرحمن بن أبي بكرة نفيع بن الحارث ويقال اسم أبيه مسروح الثقفي أبو بحر، ولد في خلافة عمر سنة أربع عشرة فكان أول من ولد بالبصرة، سمع علي بن أبي طالب وأباه وعبد الله بن عمرو. روى عنه محمد بن سيرين وعبد الملك بن عمير وأبو بشر وعلي ابن زيد بن جدعان وخالد الحذاء وقتادة وابن عون وآخرون. توفي سنة ست وتسعين » [سير اعلام النبلاء ج٤ ص٤١١ قم: ١٦١].

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٢ ص٩٣٩ – [١٠] باب ما قيل فى شهادة الزور – الحديث: ٢٥١١، ج٥ ص٢٢٢٩ – [٦] باب عقوق الوالدين من الكبائر قاله عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم الحديث: ٥٦٣١، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٩١ – [٣٨] باب بيان الكبائر وأكبرها – الحديث: ٨٧ .

(٣) سورة الأنعام – الآية ٥٤ .

◉ **يقول صاحبا الجلالين:** « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل لهم سلام عليكم قضى ربكم على نفسه الرحمة إنه من عمل منكم سوءا بجهالة من حيث ارتكبه ثم تاب ورجع من بعد عمله عنه وأصلح عمله فإنه جل علاه غفور له رحيم به وبالتالى تكون المغفرة له »[1].

من ثم كان نوح عليه السلام يرفع أكف الضراعة لله رب العالمين، راجيا منه تعالى المغفرة والرحمة، حتى لا يكون من الهالكين، لما هو معروف أن أتباع الشيطان يقعون فى الخسران. أما أتباع الرحمن فهم من أهل الجنان. نلمح ذلك فى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

◉ **يقول الطبرى :** « يقول الله تعالى ذكره مخبرا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إليه من زلته في مسألته التي سألها ربه في ابنه قال رب إني أعوذ بك وأستجير أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم مما قد استأثرت بعلمه. وطويت علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك، أكن من الخاسرين، الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا »[3].

هنا يصطفى الله نوحا، ويجعله فى مأمن من العوادى هو ومن اتبعه فى دين الله تعالى، حتى إنه ومن معه يجعلهم الله تعالى فى سلام دائم، وبركات لا تنقطع، أما الذين خالفوا فهم فى الهلاك واقعون. قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

◉ **يقول ابن جرير الطبرى :** « يقول تعالى ذكره يا نوح اهبط من الفلك إلى الأرض بسلام وأمن منا أنت ومن معك من إهلاكنا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وعلى قرون تجيء من ذرية من معك من ولدك فهؤلاء المؤمنون من ذرية نوح الذين سبقت لهم من الله

---

(١) الإمامان جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطى – تفسير الجلالين ج: ١ ص: ١٧٠ .

(٢) سورة هود – الآية ٤٧ .

(٣) الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٢ ص: ٥٤ .

(٤) سورة هود – الآية ٤٨ .

من ذرية من معك من ولدك فهؤلاء المؤمنون من ذرية نوح الذين سبقت لهم من الله السعادة. وبارك عليهم قبل أن يخلقهم في بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم، ثم أخبر تعالى ذكره نوحا عما هو فاعل بأهل الشقاء من ذريته فقال وأمم وقرون وجماعة سنمتعهم في الحياة الدنيا بأن توسع نرزقهم فيها وما يتمتعون به إلى أن يبلغوا آجالهم، ثم يمسهم منا عذاب أليم حيث نذيقهم إذا وردوا علينا عذابا مؤلما موجعا »[1].

وإذا كان نبى الله نوحا عليه السلام قد مكث فى قومه عمرا مديداً يدعوهم لعبادة الله الواحد القهار[2]. فلم يستيجبوا له. بل استمروا فى عنادهم وبغيهم[3]. مما دفعه إلى الدعاء بالهلاك على كل الكافرين، فقد كان عليه أن يواجه عنفهم معه بالدعاء عليهم، لأن ضلالهم لا ينقطع وأثار هذا البهتان قد تستمر، وهم فى كل ما فعلوا على غير صواب.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[4].

---

(١) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج:١٢ ص:٥٤ .

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت – الآيتان ١٥/١٤].

(٣) قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلا نذير مبين ﴿١١٥﴾ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴿١١٦﴾ قال رب إن قومي كذبون ﴿١١٧﴾ فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين ﴿١١٨﴾ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ﴿١١٩﴾ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴿١٢٠﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٢١﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [سورة الشعراء – الآيات ١٢٢/١٠٥]

(٤) سورة نوح – الآيتان ٢٧/٢٦ .

❁ **يقول العلامة ابن كثير** : « لا تترك على الأرض منهم أحدا يعيش فى البوادى، ولا واحدا ممن يسكن الدار، إنك إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك الذين تخلفهم بعدهم، ثم إن هؤلاء لا يلدون إلا فاجرا فى الأعمال. كافر القلب »[1].

وفى غمرة الأحداث المتلاحقة والعنف الذى يوجهه هؤلاء السفهاء إلى نبى الله الكريم، فإنه يعود إلى داخله الممتلئ بالأنوار الإلهية. فيستجير بالله. ويلوذ إليه. متقدما للأمام من مقام التوبة إلى الورع، ثم الزهد مع الرضا والتوكل على الخالق العظيم جل شأنه. فتنطلق جوانحه بهذا الصفاء الربانى والتسليم الوجدانى. والدعاء القائم على الرجاء. مع الخوف من تبدل الأحوال، وهى السمة التى يتميز بها أهل الصفاء. قال جل شأنه: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾[2].

وهو دعاء يمكن لأهل الصفاء أن يستمروا عليه؛ لأن ذلك هو أمر الله القائم فى ضرورة مصاحبة الأخيار، والابتعاد عن الأشرار. فعن أبي سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي [3].

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – م٤ ج٨ ص١٣٠ .

(٢) سورة نوح – الآية ٢٨ .

(٣) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص٣١٤ – [١٣] باب الصحبة والمجالسة – ذكر الأمر للمرء أن لا يصحب إلا الصالحين ولا ينفق إلا عليهم – الحديث: ٥٥٤ ، ج٢ ص٣٢٠ – ذكر الاستحباب للمرء أن يؤثر بطعامه وصحبته الأتقياء وأهل الفضل – الحديث: ٥٦٠ ، وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص١٤٣ الحديث: ٧١٦٩ ، والترمذى سنن الترمذي ج٤ ص٦٠٠ – [٥٥] باب ما جاء في صحبة المؤمن – الحديث: ٢٣٩٥ ، وأبو داود – سنن أبى داود – الحديث: ٤٨٣٢ ، والدارمي – سنن الدارمي ج٢ ص١٤٠ – [٢٣] باب من كره أن يطعم طعامه إلا الأتقياء – الحديث: ٢٠٥٧، والطبرانى – المعجم الأوسط ج٣ ص٢٧٧ – الحديث: ٣١٣٦ ، وأبو يعلى – مسند أبي يعلى ج٢ ص٤٨٤ – الحديث: ١٣١٥ ، وذكره العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج٤ ص١٥ ، والعلامة ابن القيم فى عون المعبود ج١٣ ص١٢٣، والعلامة أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج١ ص١٦٤، ج٧ ص٤٧ .
وأخرج الطبرانى بلفظ عن عائشة قالت قال « رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل بيتك إلا تقي ٤ ولا تولي معروفك إلا مؤمنا » [المعجم الأوسط ج٨ ص٢١٥ – الحديث: رقم: ٨٤٤٠].

وأن يكون المسلم محبا لإخوانه من المؤمنين والمؤمنات، حيث كان دعاء نبى الله نوح ﷺ رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين والمؤمنات، فهو دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة وقوله تعالى ولا تزد الظالمين إلا تبارا إلا هلاكا، وخسارا في الدنيا والآخرة[1].

◈ **والذى أميل إليه**: أن نوحا – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم – كان قد اصطفى من قبل الله تعالى فى الأزل، وجرى به قضاء الله جل شأنه، لقوله تعالى: ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾[2]، وأنه ظل على متابعة القيام بمقتضيات ذلك الاصطفاء الإلهى، وأنه ظل ينتقل من مقام إلى مقام على سبيل الترقي لم ينقطع عن ذلك حتى لقى الله جل شأنه، وكلما أنعم المرء النظر فيما قصه القرآن الكريم علينا بشأن أنبياء الله، يجد أن إسلام الوجه لله وتصفية القلب مما سواه، والتعلق بما عنده جل شأنه كان سمة بارزة فيهم، ومن أمن بالله تعالى معهم، وظل على عهد الوفاء مع الله فلا عجب. إذن من القول بأن التصوف بالمعنى العام كان سمة سيدنا نوح ﷺ كما كان سمة لآدم أبى البشر ﷺ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

◈ **لا يقال: إن نوحا وآدم كانا أنبياء فلا يطلق على أى منهما أنه كان من الصوفية؟**

✲ **والجواب**: أن الصوفى الذى أقصده هو الصوفى بالمعنى العام الذى يقوم على صفاء القلب، وسلامة الوجدان، وتصفية العقل، وإسلام الوجه لله رب العالمين، لا المعنى الاصطلاحى للتصوف، وإلا فإن التصوف بالمعنى الاصطلاحى حديث عهد قبل النبوة الخاتمة بقليل، وإن كانت معرفة العرب الجاهليين به على ناحية اصطلاحية خاصة بهم، لا على المعنى الذى قصده الصوفية فى الإسلام بالتصوف على الناحية التعريفية الاصطلاحية، والفرق بينهما كبير.

---

(١) الإمام الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ٤٢٨/٤٢٩ .

(٢) سورة ص – الآية ٤٧ .

خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام نجي النار[١]، وسادس الأنبياء[٢]

عاش خليل الرحمن على الوفاء بين قوم نبعت فيهم الخيانة، وتجسدت فيهم اعتقادات الأوثان، وشاعت بين أفرادهم عبادة الأصنام، التى كانوا يجعلونها بديلا عن الله. ولكنه لم يعبأ بتلك الوثنيات، ولم يصرفه عن بغضها صناعة والده لهذه المعبودات[٣]، فراح إلى قومه يعرفهم بأن معبوداتهم لا تنفع أحدا إن قصدها لمنفعة. كما لا تضر أحدا إن لم يتوجه بالعبادة إليها؛ لأنها لا تسمع من يدعوها، ولا تدفع الأذى عن نفسها، ومن يعبدها فإنما يعبد الشيطان، ويخاصم الرحمن.

ولم يقف إبراهيم الخليل عن دعوة قومه تاركا والده، وإنما ابتدأ بوالده. قال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون﴾[٤].

فالحوار الذى تم بين نبى الله إبراهيم خليل الرحمن وبين الآخرين كان يقوم على الضرورة العقلية، ولذا؛ ابتدأه بالسؤال القائم على الاستفهام الإنكارى. ما تعبدون؟! وهو سؤال يوجه إلى العقول التى يمكنها أن تفكر.

---

(١) يقال عليه نجي الإحراق بالنار، كما يقال عليه نجي نار النمرود بن كنعان؛ لأن الله تعالى أنجاه من تلك النيران التى أشعلها له القوم الكافرون بقيادة نمرود بن كنعان، وهناك فى إشعال النيران أقوال أخرى.
[راجع للشيخ طلعت بن حكمت الله الإنطاكى - إبراهيم أبو الأنبياء ص١٥٣ - ط أولى ١٣١٧هـ - طبعة الدار العمرية.

(٢) الشيخ محمد نووى الشافعى - نور الظلام ص١٤، حيث يقول: وسادسهم إبراهيم، وسابعهم لوط. وثامنهم إسماعيل بن إبراهيم من هاجر، وتاسعهم إسحاق بن إبراهيم من سارة، وعاشرهم يعقوب بن إسحاق. وحادى عشرهم يوسف بن يعقوب. وثانى عشرهم أيوب بن أموص.

(٣) إذ كان أبوه يعيش على صناعتها، حيث يصنعها، ثم يقوم ببيعها، كما يفعل باعة التماثيل، الذين يأكلون من عائد بيعها، وهم فى كل ذلك خاسرون.

(٤) سورة الشعراء - الآيات ٦٩/٧٣ .

فكان الجواب الذى نطقت به ألسنتهم: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، وهنا تـأتى المفارقة العجيبة، حين يقف إنسان عاقل يناجي وثنا أو صنما صنعه إنسان مثله لا يتكلم ولا يسمع ولا يدفع، فهل هذا مم تقبله العقول؟ أم أنها انعدمت فى نفـوس أصحابـها، فصـاروا موتى لا يفرقون بين الواحد الأحد الحي القيوم الذى يستحق العبادة، وبين المخلوق المصنـوع الذى لا يسمع ولا يعقل.

سألهم نبى الله إبراهيم خليل الرحمن بالمنطق العقلى عن الأصنام التى يعبدونها: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضـرون، وهـذا مـن الاسـتفهام التوبيخـى؛ لأنـهم فعلا يمارسـون تلك العبادة الباطلة، مع يقينهم بأنها أصنام لا تسمع كما لا تضر ولا تنفـع، فأين إذا العقول؟ ومن ثم لجاؤا إلى الإحالة على التقليد الباطل[1]، الذى لا دليل معه: ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾[2]، من عبادة لهذه الأصنام المصنوعة، والأوثان النصوبة، التى شب الصغير وقد رأى الكبير يعبدها، كما أن المرأة والرجل يشتركان فى هذا التقليد.

۞ **يقول الحافظ ابن كثير**: « يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا مـن ذلـك وإنمـا رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون »[3] إلى عبادتها من غير أن يخرجوا ولـو مرة واحدة إلى دائرة التفكير فى حقيقة ما إليه بالعبادة يتجهون.

---

(١) التقليد عند العلماء نوعان:

الأول: تقليد ممدوح: وهو تقليد العلمـاء، وأصحـاب المذاهـب الفقهيـة التى قامت على أسـس شـرعية، كالحال مع الأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة، وهى المذاهب المشهورة عند أهل السنة والجماعـة، أو الجعفرية والزيدية والإمامية والإباضية عند الشيعة، وهذا التقليد ممدوح؛ لأنه تقليد العالم بدليلـه الذى استقر عنده، فخرج المقلد له من مجرد التقليد إلى النظر المؤدى يصاحبه سيقين.

الثانى: تقليد مذموم: وهو تقليد العوام، ومن ليس لهـم علـم بالتشـريع الشـريف، إنمـا يتجاسـرون على القول فيه دون أن تكون لديهم الملكات القادرة على فهم نصوصـه ومراميـه، كما لم تكـن لديـهم القـدرة على الخروج من الإشكالات اليسيرة التى تعترض طريقهم. كالحال مـع القائلين بقـدم العـالم الذاتـى، والمنكرين ما ثبـت مـن الديـن بـالضرورة. [راجـع فـى هـذا الشـأن كتابنـا أوراق مطويـة فـى التصـوف والصوفية، فقد عرضت النوعين، ورأى شيخ الإسلام ابن تيمية فى المسألة].

(٢) سورة الشعراء – الآية ٧٤.

(٣) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٣٣١.

ولاشك أن هربهم عن مواجهة الحقائق لم يكن لصالحهم. وأن تقليدهم للأباء الأقدمين ما كان إلا نوعا من التعمية على العقول. والتغليف المزدوج للبصائر والأبصار. ولذا كان رد خليل الرحمن عليهم بقوله: ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون﴾[1].

۞ **يقول الإمام القرطبى** : « أتريدون إفكا وهو أسوأ الكذب. الذي لا يثبت ويضطرب آلهة دون الله تعبدون ويجوز أن يكون بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين »[2] مضطربين فى أفكاركم، غير مستقيمة تصرفاتكم، ولا مقبولة من عباداتكم، لأنها لا تقوم على ناحية مشروعة من جهة الله تعالى، وإنما قامت على التقليد الأعمى.

ولما أيقن أن بصائرهم قد غلبها العمى، وأحاط بها الظلام من كل جانب. وأن الشياطين قد أخذت بهم على كل ناحية تحزبوا منها فى قوله تعالى: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾[3]. لجأ إلى أبيه وأزاد فى النصح له، بغية دفعه إلى الهدى. بدل انخراطه فى الضلال. فإن

---

(١) سورة الصافات – الآية ٨٦ .

(٢) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٥ ص: ٩٢ .

(٣) سورة الأعراف – الآية ١٧ . ويقول الحافظ ابن كثير : « عن ابن عباس ثم لآتينهم من بين أيديهم أشككهم في آخرتهم ومن خلفهم أرغبهم في دنياهم وعن أيمانهم أشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي، قال ابن عباس: أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم وأما من خلفهم فأمر آخرتهم وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لابعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها آتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وعن ابن عباس ولاتجد أكثرهم شاكرين قال موحدين وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ ولهذا ورد في الحديث الإستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها. وعن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي تفرد به البزار وحسنه وعن عبد الله بن عمر يقول [لم يكن رسول الله صلى الله عليه يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي] (الإمام أبو داود – سنن أبى داود الحديث : ٥٠٧٤ . والإمام النسائي – سنن النسائي – الحديث: ٨٢٨٢ والإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجة – الحديث: ٣٨٧١ . والعلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان – الحديث: ٩٦١ والمستدرك على الصحيحين للحاكم – الحديث: ١٥١٧ من حديث عباده بن مسلم به وقال الحاكم صحيح الإسناد . وقال وكيع [من تحتي يعني الخسف] » [الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٢ ص: ٢٠٥]

الشيطان يكيد لابن آدم بكل ما أمكنه[1]، وإبراهيم يخشى على أبيه منه، أمسك خليل الرحمن بأبيه وراح ينصح له ويجتهد فى نصحه، وهو نصح الابن البار للأب الكافر.

ﷻ قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك

---

(١) يقول العلامة المناوى: « إن كيد الشيطان يجري من ابن آدم وفيه مجرى الدم في العروق المشتملة على جميع البدن. قال القاضي وهو لا يحس بجريه كالدم في الأعضاء ووجه الشبه شدة الاتصال فهو كناية عن تمكنه من الوسوسة أو ظرف ليجري ومن الإنسان حال منه أي يجري مجرى الدم كائنا من الإنسان أو بدل بعض من الإنسان أي يجري في الإنسان حيث يجري فيه الدم. وقال الطيبي عدى يجري بمن على تضمنه معنى التمكن أي يتمكن من الإنسان في جريانه في عروقه مجرى الدم وقوله مجرى الدم يجوز كونه مصدرا ميميا وكونه اسم مكان وعلى الأول فهو تشبيه شبه كيد الشيطان وجريان وسوسته في الإنسان بجريان دمه وعروقه وجميع أعضائه والمعنى أنه يتمكن من إغوائه وإضلاله تمكنا تاما ويتصرف فيه تصرفا لا مزيد عليه وعلى الثاني يجوز كونه حقيقة فإنه تعالى قادر على أن يخلق أجساما لطيفة تسري في بدن الإنسان به سريان الدم فيه فإن الشياطين مخلوقة من نار السموم والإنسان من صلصال وحمإ مسنون والصلصال فيه نارية وبه يتمكن من الجري في أعضائه بدليل خبر البخاري الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس ويجوز كونه مجازا يعني أن كيد الشيطان ووسوسته تجري في الإنسان حيث يجري منه الدم من عروقه والشيطان إنما يستحوذ على النفوس وينفث وساوسه في قلوب الأخيار بواسطة النفس الأمارة بالسوء ومركبها الدم ومنشأ قواها منه فعلاجه سد المجاري بالجوع والصوم لأنه يقمع الهوى والشهوات التي هي أسلحة الشيطان وقال ابن الكمال هذا تمثيل وتصوير أراد تقرير أن للشيطان قوة التأثير في السرائر فإن كان متفردا منكرا في الظاهر فإليه رغبة روحانية في الباطن بتحريكه تنبعث القوى الشهوانية في المواطن، ومن لم يتنبه لحسن هذا التمثيل ضل في رد ذلك المقال وأضل حيث قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. وهذا دليل على بطلان ما يقال: إن الشيطان يدخل في بدن الآدمي ويخالطه لأنه إذا أمكنه ذلك لكان ما يذكره في باب المبالغة أحق أما إنه ضل فلأنه لم يدر أن الكلام المذكور مأخوذ من مشكاة النبوة مصبوب في قالب التمثيل والغرض منه بيان أن الشيطان منفور محذور منه في الظاهر مطبوع متبوع في الباطن والغرض من التمثيل المنقول عنه بيان كمال اهتمامه في أمر الإغواء وتصوير قوة استيلائه على ابن آدم من جميع الجهات وكل من التمثيلين على أبلغ نظام وأحسن وجه من الانطباق على مقتضى التمام وأما أنه أضل فلأن الفخر الرازي ذلك الإمام الهمام نقله عنه نقل قبول حيث قال قال القاضي هذا القول من إبليس كالدلالة على بطلان ما يقال إنه يدخل في بدن الآدمي. وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهمة واجب وجوب إنفاء التهمة الذنوب في مواقعها ووجود الشياطين وهم مردة الجن وقد نطق القرآن العظيم به وإنما خالف فيه الفلاسفة الضالون ومن اقتفى فيه أثرهم كالمعتزلة عن أنس بن مالك عن صفية بنت حيي النضرية أم المؤمنين من ذرية هارون عليه السلام وهذا قاله وقد انطلق معها فمر به رجلان من الأنصار فدعاهما فقال إنها صفية قالا سبحان الله فذكره قال الغزالي فانظر كيف أشفق على دينهما فحرسهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق التحرز من التهم حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول مثلي لا يظن به إلا خيرا إعجابا منه بنفسه فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعين الرضى بعضهم وبعين السخط بعضهم فيجب التحرز عن تهمة الأشرار » [العلامة عبد الرؤوف المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير ج:٢ ص:٣٥٨ – المكتبة التجارية الكبرى – مصر ١٣٥٦هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٦].

صراطا سويا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾[1].

❁ **يقول صاحب الظلال**[2]: « بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب، وذلك شأن الإيمان مع الكفر، وشأن القلب الذى هذبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر. ولم يغضب إبراهيم الحليم. ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه. ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾. سلام عليك فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد. سأدعو الله أن يغفر لك، فلا يعاقبك بالاستمرار فى الضلال. وتولى الشيطان بل يرحمك فيرزقك الهدى »[3]، ولكن الأب رفض كل نصح، وأغلق قلبه عن كل رجاء، وأصر على الاستمرار فى الوقوع بأحضان الشيطان.

على أن ذلك لم يصرف إبراهيم الخليل عن استمراره فى دعوتهم إلى الله تعالى، مبينا لهم صفات الإله الواحد القهار ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين[4] * الذي خلقني فهو

---

(١) سورة مريم ٤١/٤٨ .

(٢) هو الشهيد المرحوم سيد بن قطب المفكر الإسلامى المصرى . ولد بأسيوط سنة ١٩٠٦م، وتخرج من كلية دار العلوم، ومن أشهر مؤلفات: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، وفى ظلال القرآن، توفى سنة ١٩٦٦م . (الإعلام للزركلى جـ٣ ص١٧٤) .

(٣) الشهيد سيد قطب فى ظلال القرآن ج٤ ص٢٣١٢ .

(٤) يقول العلامة الطبرى « عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » . [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٣ ص: ٧٩]

يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾(١)،

۞ **يقول العلامة الطبري:** « يقول تعالى ذكره قال إبراهيم لقومه أفرأيتم أيها القوم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون من الذين كان إبراهيم يخاطبهم وهم الأولون قبلهم ممن كان على مثل ما كان عليه الذين كلمهم إبراهيم من عبادة الأصنام فإنهم عدو لي إلا رب العالمين.

◈ **يقول قائل وكيف يوصف الخشب والحديد والنحاس بعداوة ابن آدم؟**

❊ **والجواب:** معنى ذلك إنهم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة كما قال جل ثناؤه: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾(٢)، ومعنى الكلام أفرأيتم كل معبود لكم ولآبائكم فإني منه بريء، لا أعبد إلا رب العالمين »(٣)، فهو وحده الذى خلقنى وإلى الخير يهدينى، وهو الذى أمرى كله بيده وحده، وهو الذى يهدينى للصواب من القول والعمل ويسددني للرشاد والذي هو يطعمني ويسقين، حيث يغدوني بالطعام والشراب ويرزقني الأرزاق وإذا مرضت فهو يشفين فإذا سقم جسمي، واعتل فهو يبرئه ويعافيه؛ لأنه وحده الذى يملك ذلك كله. وفيه تسليم لله تعالى وخضوع له، وانقياد إليه جل علاه.

ثم إنه جل شأنه الذي يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين فربى هذا الذي بيده نفعي وضري وله القدرة والسلطان وله الدنيا والآخرة لا الذي لا يسمع إذا دعي ولا ينفع ولا يضر، وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه في أنه لا تصلح الألوهة ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه

---

(١) سورة الشعراء – الآيات ٧٧/٨٢.

(٢) سورة مريم – الآيتان ٨١/٨٢.

(٣) الإمام الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٩ ص: ٨٤.

الأفعال لا لمن لا يطيق نفعا ولا ضرا[١]، وقيل إن إبراهيم صلوات الله عليه عني بقوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين والذي أرجو أن يغفر لي قولي إني سقيم وقولي بل فعله كبيرهم هذا، « ويعني بقوله "يوم الدين" يوم الحساب الذى هو يوم المجازاة »[٢].

فلما أدرك القوم الكافرون أن خليل الرحمن غير مبتعد عن القيام بواجبه فى الدعوة إلى الله تعالى قرروا مواجهة السلم بالحرب. والحجة بالعنف. ﴿قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين﴾[٣]. وقد ظنوا أن الذى يطفئ نيرانهم التى أشعلها الشيطان فى صدورهم هو تحريق داعى الله بالنار المشتعلة من كل ناحية ناسين أن عناية الله لن تترك خليله لهم ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾[٤].

❁ **يقول الإمام القرطبى**: « لما انقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم، وانتصروا إلى طريق الغشم والغلبة، وقالوا حرقوه روى أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس أي من باديتها[٥]، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وانصروا آلهتكم بتحريق إبراهيم لأنه يسبها ويعيبها[٦]. وجاء من الخبر أن نمرود بنى صرحا طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا، وجمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا، ويقال: إن إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذ فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين ضجة واحدة قائلين: ربنا إبراهيم ليس في

---

(١) والعقلاء متى نظروا فى الحجج التى ساقها خليل الرحمن، وجدوها قاطعة فى الدلالة على الحق جل علاه.

(٢) العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٩ ص: ٨٥ .

(٣) سورة الصافات – الآيتان ٩٧/٩٨ .

(٤) سورة الأنبياء – الآية ٦٨ .

(٥) مال إلى هذا القول ابن عمر ومجاهد وابن جريج، ويقال اسمه هيزر. وكلها أقوال ذكر فيها أيضا أن القائل حرقوه وانصروا ألهتكم هو ملكهم نمرود بن كنعان.

(٦) وهكذا يعلن السفيه دائما أنه وحده العاقل، بينما غيره لا عقل له. وما ذلك إلا لأنه سفيه لا يدرى ماذا يصنع.

الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك فأذن لنا في نصرته فقال الله تعالى إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن الماء[1]، وهو في الهواء فقال يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء فقال لا حاجة لي إليكم وأتاه ملك الريح فقال لو شئت طيرت النار فقال لا ثم رفع رأسه إلى السماء فقال اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل[2].

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك قال ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال يا إبراهيم ألك حاجة قال أما إليك فلا فقال جبريل فاسأل ربك فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي [3] »[4]، ولا شك أن استعمال العنف إنما يعبر عن عجز الكافرين فى مواجهة خليل الرحمن.

وهى حيلة العاجز أعمى البصيرة،الذى يلجأ إلى العنف مع المسالمين، والترويع مع الآمنين، والعمل فى الظلام كالخفافيش، متناسيا أن عين الله جل علاه لا يغيب عنها شيء فى الأرض ولا فى السماء، ولا فى غير الأرض والسماء.

وقديما قيل:-

إذا العناية لاحظتك عيونها ∴ نم فالمخاوف كلهن أمان

---

(١) وهو ميكائيل الذى وكله الله تعالى بالأمطار، فهو قادر بإذن الله على إطفاء أى نار.

(٢) يقول العجلونى : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم أن إبراهيم عليه السلام قال حسبي الله ونعم الوكيل حين قال له خازن المياه لما أراد النمرود إلقاءه في النار: إن أردت أخمدت النار، وأتاه خازن الريح فقال له: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل » [العلامة العجلونى - كشف الخفاء ج١ ص٤٢٨]

(٣) العلامة العجلونى - كشف الخفاء ج١ ص٤٢٧ - الحديث:١١٣٦.

(٤) الإمام القرطبى - الجامع لأحكام القرآن ج: ١١ ص: ٣٠٣

فأرادوا الكيد له، وأراد الله أن يرتد كيدهم عليهم، وهم أرادوا هزيمته، حتى يكون من الأسفلين، وأراد رب العالمين نصرته، حتى يظل فوق الكافرين بفضل اكرم الأكرمين.

۞ قال تعالى: ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين * ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1].

۞ **يقول القرطبي** : « الله تعالى قال يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم قال بعض العلماء جعل الله فيها بردا يرفع حرها وحرا يرفع بردها فصارت سلاما عليه قال أبو العالية ولو لم يقل بردا وسلاما لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل على إبراهيم لكان بردها باقيا على الأبد وذكر بعض العلماء أن الله تعالى أنزل زربية[2] من الجنة فبسطها في الجحيم وأنزل الله ملائكة جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة، وقال علي وابن عباس لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت، قال السدي وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره، ويطرح ثمرته، وقال كعب وقتادة لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب

---

(١) سورة الأنبياء – الآيات ٧٣/٦٩ .

(٢) يقول ابن منظور : [والزربية حظيرة الغنم من خشب تقول زربت الغنم أزربها زربا وهو من الزرب الذي هو المدخل انزرب في الزرب انزرابا إذا دخل فيه الزرب والزريبة بئر يحتفرها الصائد يكمن فيها للصيد ....، والزرابي البسط؛ وقيل كل ما بسط واتكئ عليه، وقيل هي الطنافس؛ وفي الصحاح النمارق والواحد من كل ذلك زربية بفتح الزاي وسكون الراء عن ابن الأعرابي الزجاج في قوله تعالى وزرابي مبثوثة ؛ الزرابي البسط وقال الفراء هي الطنافس لها خمل رقيق وروي عن المؤرج أنه قال في قوله تعالى: زرابي مبثوثة" قال زرابي النبت إذا اصفر واحمر وفيه خضرة وقد ازرب فلما رأوا الألوان في البسط والفرش شبهوها بزرابي النبت وكذلك العبقري من الثياب والفرش وفي حديث بني العنبر فأخذوا زربية أمي فأمر بها فردت الزربية الطنفسة وقيل البساط ذو الخمل وتكسر زايها وتفتح وتضم وجمعها زرابي » [لسان العرب ج١ ص٤٤٧]

من النار، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلي، وقال إبراهيم الخليل ما كنت أياما قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار وقال كعب وقتادة والزهري ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة »[١].

قوله تعالى: "وأرادوا به كيدا" أي أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به فجعلناهم الأخسرين في أعمالهم ورددنا مكرهم عليهم اضعف خلقه وهو البعوض فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح أكلت لحومهم وشربت دماءهم ووقعت واحدة في منخرة فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه، وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمرزبة من حديد، فأقام بهذا نحوا من اربعمائة سنة قوله تعالى: ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الارض التي باركنا فيها للعالمين﴾[٢]، يريد نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق وكان ابراهيم عليه السلام عمه قاله ابن عباس وقيل لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ولأنها معادن الأنبياء، والبركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح وقال ابن عباس الأرض المباركة مكة وقيل بيت المقدس ثم يتفرق في الأرض ونحوه عن كعب الأحبار[٣]، وقيل الأرض المباركة مصر قوله تعالى ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة أي زيادة؛ لأنه دعا في إسحق و زيد في يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة أي زيادة على ما سأل إذ قال ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾[٤]، ويقال لولد الولد نافلة لأنه زيادة على الولد وكلا جعلنا صالحين أي وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله

---

(١) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ١١ ص: ٣٠٤ ، « وألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة وقال ابن جريج ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست وعشرين سنة ذكر الأول الثعلبي والثاني الماوردي فالله أعلم وقال الكلبي بردت نيران الأرض جميعا فما أنضجت كراعا فرآه نمرود من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل فقال نعم الرب ربك لأقربن له أربعة آلاف » [الجامع لأحكام القرآن ج١١/ص٣٠٤]

(٢) سورة الأنبياء – الآية ٧١ .

(٣) أود الالتفات إلى ضرورة التفرقة بين ما ينقل عن أهل الكتاب على أنه من ثقافتهم التى لهم قبل الإسلام، وبين ما يرونه عن سيدنا رسول الله ﷺ ففى ذلك خير كبير.

(٤) سورة الصافات – الآية ١٠٠ .

وجعلهم صالحين . يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم وبخلق القدرة على الطاعة ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى[١]، قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا أي رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي فكأنه قال يهتدون بكتابنا وقيل المعنى يهدون الناس الى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق ودعائهم الى التوحيد وأوحينا إليهم فعل الخيرات أي أن يفعلوا الطاعات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين مطيعين »[٢].

❁ ويقول العلامة المناوى : «أنه لما ألقي إبراهيم في النار جأرت عامة الخليقة إلى ربها فقالوا يا رب خليلك يلقى في النار فأذن لنا أن نطفى ، عنه قال هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره وأنا ربه ليس له رب غيري فإن استغاثكم فأغيثوه [illegible] فدعوه فجاء ملك القطر فقال يا رب خليلك يلقى في النار فأذن لي أن أطفي ء النار [illegible] فقال هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره وأنا ربه [illegible] له رب غيري فإن [illegible] فأغثه وإلا فدعه فلما ألقي فيها دعا ربه فقال الله عز وجل يا نار كوني بردا وسلاماً عليه فبردت يوما على أهل المشرق والمغرب فلم ينضج فيها [illegible]، وقيل عارضه جبريل وهو في الهوى ابتلاء من الله عز وجل فقال هل من حاجة فقال أما إليك فلا حسبي من سؤالي علمه بحالي فتولى الله نصرته بنفسه ولم يكله إلى أحد من خلقه »[٣].

ومن يلاحظ الاتجاهات العامة لخليل الرحمن أبى الأنبياء، يرى الصفاء والتسليم لله هو طريقه ، والصبر أحد الوسائل إلى ذلك الطريق ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾[٤]، وهى مقامات ثابتة لدى الصوفية الذين استفادوا ذلك من النقل المنزل، وسنة الحبيب الهادى

---

(١) راجع فى المسألة الفعل الإنسانى بين المتكلمين والأخلاقيين والفلاسفة المسلمين، للباحثة سنير عبدالرحمن عبده (رسالة ماجستير) بكلية البنات الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٢م .

(٢) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٢ ص: ٣٠٥/٣٠٤ .

(٣) العلامة المناوى – فيض القدير ج:٥ ص:٢٩٩ .

(٤) سورة هود – الآية ٧٥ .

البشير سيدنا محمد الخاتم ﷺ من حيث أنزل الله عليه الإلزام بالاستمرار في التقوى. ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما﴾[١].

❁ **يقول العلامة الطبري:** « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يا أيها النبي اتق الله بطاعته وأداء فرائضه وواجب حقوقه عليك والانتهاء عن محارمه وانتهاك حدوده ولا تطع الكافرين الذين يقولون لك اطرد عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك حتى نجالسك والمنافقين الذين يظهرون لك الإيمان بالله والنصيحة لك وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالا فلا تقبل منهم رأيا ولا تستشرهم مستنصحا بهم فإنهم لك أعداء إن الله كان عليما حكيما يقول إن الله ذو علم بما تضمره نفوسهم وما الذي يقصدون في إظهارهم لك النصيحة مع الذي ينطوون لك عليه حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك ودينك وغير ذلك من تدبير جميع خلقه »[٢].

فخليل الرحمن لما أنجاه الله من كيد الكفار، وفجر الفجار ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾[٤]، لم يكن ذلك تهربا من أعباء الدعوة التى كلفه الله تعالى بها، وإنما كان إعلانا عن داخل نقى فيه الصفاء. والوفاء لله رب العالمين، بدليل أنه كان قد وعد أباه بالاستغفار له[٥]، ولا يمكن أن يكون هاربا من مواجهة الحقائق، ثم يستغفر لأحد، وإنما كان الوفاء للدعوة هو سمته، وكذلك الوفاء لما وعد به من استغفار لأبيه.

---

(١) سورة الأحزاب - الآية ١ .

(٢) العلامة ابن جرير الطبرى - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٢١ ص: ١١٧ .

(٣) سورة الصافات - الآية ٩٩ . يقول العلامة ابن كثير : « يقول تعالى مخبرنا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنه بعدما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين » [العلامة الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ١٥].

(٤) سورة العنكبوت - الآية ٢٦ .

(٥) فى قوله تعالى: ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا﴾ [سورة مريم - الآية ٤٧]

فلما نهاه الله عن ذلك الاستغفار، أقلع عنه وتبرأ من نسبه إليه. قال تعالى: : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾[1].

❁ **يقول الحافظ ابن كثير**: « قوله تعالى: ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه؛ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه »[2]. **وفيه جواز الخروج عن الوعد إذا كان في أمر محرم، أو فيه شبهة؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.**

فعن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك »[3].

❁ **يقول العلامة القرطبي** : « وفي استغفار إبراهيم لأبيه المشرك مسائل:

☆ **المسألة الأولى**: روى النسائي وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال [سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت أتستغفر لهما وهما مشركان فقال أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له نزلت وما

---

(١) سورة التوبة – الآية ١١٤ .

(٢) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣٤٨ .

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص٧٠٣ – الحديث: ١٠١٥ ، وأخرجه الترمذي – سنن الترمذي ج٥ ص٢٢٠ الحديث: ٢٩٨٩ ، والبيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٣ ص٣٤٦ – [٩٨] باب الخروج من المظالم والتقرب إلى الله تعالى بالصدقة ونوافل الخير رجاء الإجابة – الحديث: ١٨٧ ، وأحمد – مسند أحمد ج٢ ص٣٢٨ – الحديث: ٨٣٣٠

كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه][1] فإن ذلك لم يكن إلا من عدة[2].

وقال ابن عباس: كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد فلما مات على الكفر علم أنه عدو الله فترك الدعاء له فالكناية في قوله إياه ترجع إلى إبراهيم والواعد أبوه وقيل الواعد إبراهيم أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له فلما مات مشركا تبرأ منه ودل على هذا الوعد قوله سأستغفر لك ربي[3]، قال القاضي أبو بكر بن العربي: تعلق النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى سأستغفر لك ربي فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا.

☆ **المسألة الثانية**: ظاهر حالة المرء عند الموت يحكم عليه بها، فإن مات على الإيمان حكم له به. وإن مات على الكفر حكم له به، وربك أعلم بباطن حاله، بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له العباس: يا رسول الله هل نفعت عمك بشيء قال نعم وهذه شفاعة في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار[4].

---

(١) الإمام النسائي – سنن النسائي (المجتبى) ج٤ ص٩١ – الحديث: ٢٠٣٦، وأخرج الترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص٢٨١ – الحديث: ٣١٠١، وأخرج الحاكم بلفظ « عن علي رضي الله عنه قال سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت لا تستغفر لأبويك وهما مشركان فقال أليس قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » [المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٣٦٥ الحديث: ٣٢٨٩].

(٢) كأنها خصوصية في الوفاء بالوعد مع الأب المشرك فلما نهاه الله عن ذلك انتهى، وبالتالى لا تكون تلك الخصوصية قائمة.

(٣) ولا يبعد أن يكون ذلك من إبراهيم كنوع من الدفع به إلى معاودة أمره، والرجوع عن الأصنام وعبادتها، فربما استجاب الرجل الكافر لابنه خليل الرحمن.

(٤) راجع للعلامة القرطبى التذكرة فى أحوال الموتى وشئون الآخرة ففيه تفاصيل كثيرة.

☆ **المسألة الثالثة**: قوله تعالى إن إبراهيم لآواه حليم اختلف العلماء في الأواه على خمسة عشر قولا(١).

قال الشاعر:

فأوه لذكراهــا إذا مـــا ذكرتــــها ∴ ومــن بُعْــدِ أرض بيننـــا وسمـــاء(٢)

---

(١) الأول أنه الدعاء الذي يكثر الدعاء قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير الثاني أنه الرحيم بعباد الله قاله الحسن وقتادة وروي عن ابن مسعود والأول أصح إسنادا عن ابن مسعود قاله النحاس الثالث أنه الموقن قاله عطاء وعكرمة ورواه أبو ظبيان عن ابن عباس الرابع أنه المؤمن بلغة الحبشة قاله ابن عباس أيضا الخامس أنه المسبح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة قاله الكلبي وسعيد ابن المسيب السادس أنه الكثر الذكر لله تعالى قاله عقبة بن عامر وذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يكثر ذكر ذكر الله ويسبح فقال إنه لأواه السابع أنه الذي يكثر تلاوة القرآن وهذا مروي عن ابن عباس قلت وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها الثامن أنه المتأوه قاله أبو ذر وكان إبراهيم عليه السلام يقول آه من النار قبل ألا تنفع آه وقال أبو ذر كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول في دعائه أوه أوه فشكاه أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال دعه فإنه أواه فخرجت ذات ليلة فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح التاسع أنه الفقيه قاله مجاهد والنخعي العاشر أنه المتضرع الخاشع رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال أنس تكلمت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم بشيء كرهه فنهاها عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعوها فإنها أواهة قيل يا رسول الله وما الأواهة قال الخاشعة الحادي عشر أنه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها قاله أبو أيوب الثاني عشر أنه الكثير التأوه من الذنوب قاله الفراء الثالث عشر أنه المعلم للخير قاله سعيد ابن جبير الرابع عشر أنه الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يسمى الأواه لشفقته ورأفته الخامس عشر أنه الراجع عن كل ما يكره الله تعالى قاله عطاء وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء قال كعب كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تأوه قال الجوهري قولهم عند الشكاية أوه من كذا ساكنة الواو إنما هو توجع. [الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج٨ ص٢٧٥].

(٢) وربما قلبوا الواو ألفا فقالوا آه من كذا وربما شددوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء فقالوا أوه من كذا وربما حذفوا مع التشديد الهاء فقالوا أو من كذا بلا مد وبعضهم يقول آوه بالمد والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء لتطويل الصوت بالشكاية وربما ادخلوا فيها التاء فقالوا أوتاه يمد ولا يمد وقد أوه الرجل تأويها تأوه وتأوها إذا قال أوه والاسم منه الآهة بالمد. [الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج٨ ص٢٧٦].

وقال المثقب العبدي:

إذا مــا قمــت أرحلــها بليلــي ∴ تــأوه آهــة الرجــل الحزيــن

والحليم الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى وقيل الـذي لم يعاقب أحدا قط إلا في الله ولم ينتصر لأحد إلا لله وكان إبراهيم عليه السلام كذلك وكـان إذا قام يصلي سمع وجيب قلبه على ميلين »[1].

والذى تطمئن إليه النفس: أن خليل الرحمن مع أنه نبى كريم، وصاحب منزلة عظمى، وقربى من رب العالمين، إلا أنه أسرع بالدخول إلى مقام الرجـاء، يدلنا على ذلك قوله تعـالى: ﴿رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق[2] في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[3].

يقول الحافظ ابن كثير: « وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربـه حكما وهو العلم واللب السليم، وألحقني بالصالحين أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الاحتضار [اللهم في الرفيق الأعلى قالها ثلاثا][4]،

وعن عائشة قالت: . إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته دخل علـي

---

(١) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج:٨ ص: ٢٧٦/٢٧٤ .

(٢) يقول أبو نعيم الأصبهانى : « قال كعب لا يضركم أن تسألوا عن العبد ماله عند الله بعد وفاته إلا أن تنظروا ما يورث فان ورث لسان صدق فالذي له عند ربه خير مما يورث وإن ورث لسان سوء فالذي له عند ربه شر مما يورث والأعمال [illegible] خير وشر والمرء حيث وضع نفسه ومع قرينه إن أحب الصالحين جعله الله معهم وإن أحب الأشرار جعله الله معهم أنتم شهداء الله على سائر الأمم وجعل نبيكم صلى الله عليه وسلم شاهدا عليكم ثم تلا وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » [حلية الأولياء ج٦ ص٣ – دار الكتاب العربى – بيروت ط٤/١٤٠٥هـ]

(٣) سورة الشعراء – الآيات ٨٩/٨٣ .

(٤) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٦١٣ الحديث: ٤١٧٣ .

عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك فقلت آخذه لك فأشار برأسه أن نعم فتناولته فاشتد عليه وقلت ألينه لك فأشار برأسه أن نعم فلينته فأمره وبين يديه ركوة أو علبة يشك عمر فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول لا إله إلا الله إن للموت سكرات ثم نصب يده فجعل يقول اللهم في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده](١).

وفي الدعاء الصالح عن عبيد بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه قال [كان يوم أحد انكفأ المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استووا حتى أثني على ربي فصاروا خلفه صفوفا فقال اللهم لك الحمد كله،اللهم لا مانع لما بسطت،ولا باسط لما قبضت،ولا هادي لمن أضللت،ولا مضل لمن هديت،ولا معطي لما منعت،ولا مانع لما أعطيت،ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت،اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك،اللهم إني أسألك النعيم يوم القيامة،والأمن يوم الخوف،اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا،وشر ما منعتنا ،اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا،وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان،واجعلنا من الراشدين اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ، ولا مفتونين،اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك إله الحق](٢)،

وقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين أي واجعل لي ذكرا جميلا بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير كما قال تعالى "وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين"(٣)، قال مجاهد وقتادة واجعل لي لسان صدق في الآخرين يعني الثناء الحسن، قال ليث بن أبي سليم: كقوله تعالى وآتيناه في الدنيا حسنة الآية كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة وقوله تعالى واجعلني من ورثة جنة النعيم أي أنعم على في الدنيا ببقاء الذكر

---

(١) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٤ ص١٦١٦ – الحديث:٤١٨٤ .

(٢) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص٦٨٦ – الحديث:١٨٦٨ ، ج٣ ص٢٦ ، الحديث:٤٣٠٨، وأخرجه البزار – مسند البزار ج٩ ص١٧٥ – حديث رفاعة بن رافع – الحديث: ٣٧٢٤ ، وأحمد – مسند أحمد ج٣ ص٤٢٤ – الحديث: ١٥٥٣١ ، والطبراني – المعجم الكبير ج٥ ص٤٧ – الحديث: ٤٥٤٩.

(٣) سورة الصافات – الآيات ١٠٨/١١٠ .

الجميل بعدي وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم وقوله واغفر لأبي الآية ، كان هذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه إلى قوله إن إبراهيم لأواه حليم وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إلى قوله وما أملك لك من الله من شيء وقوله ولا تخزني يوم يبعثون أي أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم »[1].

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة [2]. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى إبراهيم أباه فيقول يارب أنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى أني حرمت الجنة على الكافرين [3]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصيني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار [4].

وقوله يوم لا ينفع مال ولا بنون أي لا يقي المرء من عذاب الله وماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ولا بنون أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعا ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له والتبرى من الشرك وأهله ولهذا قال إلا من أتى الله بقلب سليم، أي سالم من الدنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص٣٣٩ .

(٢) الإمام البخارى - صحيح البخاري ج: ٤ ص: ١٧٨٧ [٢٥٩] باب ولا تخزني يوم يبعثون – الحديث: ٤٤٩٠ .

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٤ ص: ١٧٨٧ [٢٥٩] باب ولا تخزني يوم يبعثون – الحديث: ٤٤٩١ .

(٤) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٣ ص١٢٢٣ – الحديث: ٣١٧٢ .

ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وقال ابن عباس: إ. من أتى الله بقلب سليم حيي أن يشهد أن لا إله إلا الله وقال مجاهد والحسن وغيرهما بقلب سليم يعني من الشرك وقال سعيد بن المسيب القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض قال تعالى في قلوبهم مرض، والقلب السليم هو السالم من البدعة المطمئن إلى السنة »[1].

ولما رزق الله تعالى إبراهيم عليه السلام الذرية بعد تقدم في السن، وبشره رب العالمين بالأبناء والأحفاد[2]، صعد إلى مقام الشكر يعلن عنه في سعة من الصدر وثقة كاملة في الله رب العالمين. ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء﴾[3].

۞ **يقول الطبري** : « يقول الحمد لله الذي رزقني على كبر من السن ولدى إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع دعائي الذي أدعوه به وقولي "اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام"[4]، وغير ذلك من دعائي ودعاء غيري وجميع ما نطق به ناطق لا يخفى عليه منه شيء، وهو يجيب دعاء من دعاه حيث قد بشر إبراهيم بعد سبع عشرة ومئة سنة »[5].

كما لم يقف رجاؤه عند حد معين، وإنما استمر فيه إلى أبعد مدى، وكذلك استمر في الشكر لله على ما أنعم، وكان الصبر حليفه، والخوف من الله رفيقه، والتوكل على الله تعالى وسيلته ورضوان الله غايته، حتى صار الخليل أمة. قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا

---

(١) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٣٣٩ .

(٢) قال تعالى: قال تعالى في سورة هود :﴿ " وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ٥ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ٥ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد" ﴾ [سورة هود الآيات ٧١/٧٣]

(٣) سورة إبراهيم – الآية ٣٩ .

(٤) سورة إبراهيم – الآية ٣٥ .

(٥) ابن جرير الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج١٣ ص٢٣٥ .

لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[1]، لأن الشرك ظلم عظيم، والأنبياء المرسلون لا يقعون فيه أبدا، وكذلك لا يكون الشرك على أية ناحية، واقعا من أهل الصفاء والعرفان بالله رب العالمين.

❁ **قال الإمام القرطبي** : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا دعا عليه السلام مشركي العرب إلى ملة إبراهيم إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عزهم، والأمة الرجل الجامع للخير محامله، وعن مالك قال بلغني أن عبد الله بن مسعود قال يرحم الله معاذا كان أمة قانتا فقيل له يا أبا عبد الرحمن إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام فقال ابن مسعود إن الأمة الذي يعلم الناس الخير، وإن القانت هو المطيع، شاكرا لأنعمه جل علاه اختاره وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة قيل الولد الطيب والثناء الحسن والنبوة وقيل الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام في التشهد وقيل إنه ما من أهل دين إلا وهم يتولونه مع بقاء ضيافته وزيارة قبره وكل ذلك أعطاه الله وزاده صلى الله عليه وسلم وإنه في الآخرة لمن الصالحين ومعهم، لأنه كان في الدنيا مع الصالحين، فيكون في الآخرة معهم أيضا.

قال ابن عمر أمر باتباعه في مناسك الحج كما علم إبراهيم جبريل عليهما السلام وقال الطبري أمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام، وقيل أمر باتباعه في جميع ملته إلا ما أمر بتركه، والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع لقوله تعالى: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[2]، وفي الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام وقد أمر بالاقتداء بهم فقال تعالى: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾[3]. وقال:

---

(١) سورة النحل – الآيات ١٢٠/١٢٣ .

(٢) سورة المائدة – من الآية ٤٨ .

(٣) سورة الأنعام – الآية ٩٠ .

﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[١]، وذلك كله مما ورد به لسان الشرع »[٢]،على ما هو مبين فى مواطنه.

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: « هل تدري ما الأمة وما القانت فقلت الله أعلم فقال الأمة الذي يعلم الخير والقانت المطيع لله وللرسول وكان معاذ يعلم الناس الخير ومطيعا لله ولرسوله »[٣].

من ثم فقد كان دعاؤه: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[٤]. يقول صاحبا الجلالين: « رب اجعلني مقيم الصلاة و اجعل من ذريتي من يقيمها وأتى بمن إعلام الله تعالى له أن منهم كفارا ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي، قال هذا قبل أن يتبين له عداوتهما لله عز وجل وقيل أسلمت أمه وقرئ والدي مفردا وولدي وللمؤمنين يوم يثبت الحساب »[٥].

أضف إلى ما سبق أن خليل الرحمن جعله الله أمة واحدة، وجعل الأنبياء من بعده فى ذريته، واتخذه خليلا[٦]، وأعلى ذكره فى العالمين. حيث استجاب لرجائه ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[٧]، « ربنا إني أسكنت من ذريتي أي بعضها وهو إسماعيل مع أمه هاجر بواد غير ذي زرع هو مكة عند بيتك المحرم الذي كان قبل الطوفان ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة قلوبا من الناس تهوي إليهم وتميل نحوهم وتحن إليهم قال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لحنت إليه فارس والروم والناس كلهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون وقد فعل بنقل الطائف إليه »[٨].

---

(١) سورة النحل – الآية ١٢٣ .

(٢) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج١٠ ص١٩٧/١٩٩.

(٣) أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء ج١ ص٢٣٠.

(٤) سورة إبراهيم – الآيتان ٤٠/٤١ .

(٥) الإمامان جلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى – تفسير الجلالين ج١ ص٣٣٦ .

(٦) قال تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ [سورة النساء – من الآية ١٢٥]

(٧) سورة إبراهيم – الآية ٣٧ .

(٨) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٣٣٥ .

فهل بعد ذلك يمكن القول بأن خليل الرحمن كان صوفيا صافاه الله واصطفاه، أم أن ذلك يعتبر قولا عاريا عن الدليل. كما يزعم من يتعجلون إصدار الأحكام، ويتسرعون في اصطياد نتائج لم تدر بخلد أصحابها على ناحينه. أظنك قد توا فقتني في أن الصفاء سمة الأنبياء والمرسلين من قِبَل الله رب العالمين.

نبى الله أيوب عليه السلام[1] ثانى عشر الأنبياء من بنى البشر[2]

الصحة نعمة تستوجب على العبد المؤمن الشكر، حتى تستمر الصحة وتبقى العافية لقوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾[3]. وكذلك

---

(١) فى نبى الله أيوب . يقول الإمام القرطبى – رحمه الله – : « قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿ "وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر" ﴾ والثانية: ﴿ "أني مسني الشيطان بنصب وعذاب" ﴾. وأما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: (بينما أيوب يغتسل إذ خر عليه جراد من ذهب. فجعل أيوب عليه السلام يحثو في ثوبه. فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى. قال عليه السلام : بلى يا رب. ولكن لا غنى بى عن بركتك) (أخرجه البخارى – كتاب الغسل – باب من اغتسل عريانا – حديث رقم: ٢٧٩). وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره. أم على أى لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على الثبات ؛ فأعرض عن سطورها بصرك. وأصمم عن سماعها أذنيك. فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا »(الجامع لأحكام القرآن ج٨ ص٥٦٥٤).

ويروى الحافظ نور الدين الهيثمي في الزوائد – باب ذكر نبي الله أيوب عليه السلام ص.٣٨٢ في الحديث رقم: ١٣٨٠٠– عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "إن نبي الله أيوب كان في بلائه ثماني عشرة سنة. فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان إليه. فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب ذنبا ما أذنبه أحد. قال صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف الله عنه. فلما راحا إليه. لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. قال أيوب: ما أدري ما تقول. إلا أن الله يعلم [أني] كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته. فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ. فلما كان ذات يوم أبطأ عليها. وأوحي إلى أيوب في مكانه أن ﴿ أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فاستبطأته فتلقته ينتظروا. وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك. هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أحدا أشبه به مذ كان صحيحا منك. قال: فإني أنا هو. وكان له أندران: أندر القمح وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح فرغت فيه الذهب حتى فاض. وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض" » وعزاه إلى أبى يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.

(٢) هو أيوب بن رزاح بن روم بن عيص بن إسحاق عليه السلام وثالث عشرهم شعيب خطيب الأنبياء، ورابع عشرهم هارون بن عمران. وخامس عشرهم موسى بن عمران، وسادس عشرهم يسع بن أقطوب بن العجوز، وسابع عشرهم ذو الكفل. وثامن عشرهم داود بن أيشالوم – راجع نور الظلام ص١٤ .

(٣) سورة إبراهيم – الآية ٧ .

المرض ، فإنه نعمة تستوجب الصبر، ومتى كان العبد علـى صفاء مع خالقه العظيم جل علاه، فإنه ينظر إلى المرض على أنه نوع من الابتلاء، حتى يزن العبد تقواه لمولاه. لقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلـ[illegible] أخباركم﴾[1]. وفي الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل. [illegible] على حسب دينه. فإن كان في دينه صلابة؛ زيد له من البلاء »[2]، وهي لحكمة يعلمها الله تعالى. والابتلاء نعمة عظمى، لا ينال منزلتها إلا من صبر عليها، وأحتسب أمره فيها لله تعالى.

قال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾[3]. قال صاحب المنار « أي ولنمتحنكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء وغيرهم من المصائب البشرية المعتادة في المعايش. وأكد هذا بصيغة القسم. لتوطين الأنفس عليه. فعلمهم به أن مجرد الانتساب إلى الإيمان. لا يقتضي سعة الرزق. وقوة السلطان. وانتفاء المخاوف والأحزان، بل يجرى ذلك بسنن الله تعالى في الخلق. كما أن من سنن الخلق وقوع المصائب بأسبابها. وإنما المؤمن الموفق من يستفيد من مجاري الأقدار. إذ يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والأخطار. ومن لم تعلمه الحوادث. وتهذبه الكوارث. فهو جاهل بهدى الدين، متبع غير سبيل المؤمنين »[4].

ثم إن لله تعالى في ابتلاءاته حكما يعلمها هو، ولا نعلمها نحن، فكثير من الناس متى قدرت له الصحة، فإنه قد ينقلب من الطاعة إلى المعصية، ومن الإيمان إلى الكفران. ومن مساعدة أهل الحاجة إلى محاربتهم، حتى تكون صحته وبالا عليه، بل إنها تنسيه تماما قدرة القادر جل علاه، فيقول في نفسه ما قاله فرعون مصر قديما، وحكاه القرآن الكريم عنه.

---

(١) سورة محمد – الآية ٣١ .

(٢) الإمام الترمذي – سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في الصبر على البلاء – حديث رقم: ٢٣٩٨ بلفظ : « أي الناس أشد بلاء؟ قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » وقال الترمذي حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجة في الفتن – باب الصبر على البلاء رقم ٤٠٢٣ .

(٣) سورة البقرة – الآية ١٥٥ .

(٤) الشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ شيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ج٢ ص٣٩ .

قال تعالى: ﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾[1].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير** – رحمه الله – « يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه. إنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾؟ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وزروع وأنهار ماء ﴿ أفلا تبصرون ﴾؟ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك؟ يعني موسى وأتباعه فقراء ضعفاء »[2]، وهو ومن على شاكلته أغنياء أقوياء، وفي نفس الوقت فإن الأغنياء هم الكافرون السفهاء.

فكانت حجة هذا الفرعون وما أتاه الله جل شأنه من سلطان مدعاة لإذلال الآخرين، فاستعمل كل الوسائل المحرمة، ولم يخف من سلطان الله جل علاه. قال تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[3] في الأرض، الذين عتوا في الأرض وأفسدوا فيها بكل ما وسعهم من فساد.

۞ **يقول العلامة الطاهر ابن عاشور**: « وصورت عظمة فرعون في الدنيا بقوله ﴿ علا في الأرض ﴾ لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو من أكبر العبر، ومعنى العلو هنا الكبر، وهو المذموم من العلو المعنوي كالذي في قوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾[4]. ومعناه أن يستشعر نفسه عاليا على موضع غيره ليس يساويه أحد، فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره غير محقوق لحق دين أو شريعة، أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في

---

(١) سورة الزخرف – الآية ٥١ .

(٢) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٢٩ .

(٣) سورة القصص – الآية ٣ .

(٤) سورة القصص – الآية ٨٣ .

تصرفاته برعى صلاح وتجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدده شهوته وإرضاء هواه »[1].

ولم يقف بفرعون أمر صحته عند هذا الحد، بل أدخل نفسه في [illegible] متكافئة مع نبى الله موسى الكليم، حيث عرض مظاهر القوة فى جسمه، ومظاهر السلامة فى بعض أعضائه، ومظاهر الضعف أو النقصان – حسب تصوراته – فى نبى الله موسى بن عمران. حتى انتهى إلى أنه لم يمكن نبى الله موسى الكليم من إبلاغ دعوة الله إلى الناس. قال جل شأنه في معرض بيان هذا الغرور الفرعونى ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾[2].

۞ **قال الحافظ ابن كثير** – رحمه الله – : « يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذبا بينا واضحا، فهو قد وصف موسى بأنه مهين حقير ضعيف، لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿ ولا يكاد يبين ﴾يعني لا يكاد يفصح عن كلامه عيي، ومع ذلك فهو لا يكاد يفهم. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير[3]. وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما الذى حمله على هذا القول الكاذب الكفر والعناد، فهو ينظر إلى موسى

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير ج٢٠ ص١٦ .

(٢) سورة الزخرف – الآية ٥٢ .

(٣) ذكرت كتب السير أن موسى ﷺ لما التقطه آل فرعون من اليم وهو رضيع، فلما وجده فرعون فى داره؛ هم بقتله؛ لأنه قد اتخذ قراره بقتل كل الأطفال من العبرانيين على الخصوص، بعد أن أبلغه الكهنة أن هلاكه سيكون على أيدى أحدهم عندما يكبر، لكن امرأته احتالت عليه، وقالت ضع هذا الرضيع فى امتحان، فإن ميز فاقتله، فأمر فرعون بجمرة وتمرة، ثم وضعتا بين يدى موسى وهو رضيع، وقالوا: إن ميز بين الجمرة والتمرة، فأخذ التمرة وترك الجمرة فاقتلوه، فألقى الله فى قلب الرضيع الميل إلى الجمرة، فالتقطها وإلى فمه أدخلها، فلسعت لسانه، وظلت اللسعة باقية بآثارها فى فمه، ففرح فرعون؛ لأن الرضيع لم يميز وتركه من غير قتل. [الشيخ عبدالحميد محمد أبو طالب – نظرات فى قصص القرآن ص٢٥٢]. ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾ [سورة القصص – الآية ٣٤].

بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء، في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب، وقول فرعون عن موسى: ﴿ مهين ﴾كذب بل فرعون هو المهين الحقير، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد، وقوله: ﴿ ولا يكاد يبين ﴾افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله[1]، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله: ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾[2]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء من أثارها، فإن موسى لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا. وإنما أراد الترويج على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء »[3]، وكان من جراء ذلك أن أخذ بهم إلى النار. قال تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾[4]، وقال تعالى: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾[5].

كما أن المال هو الآخر نعمة تستوجب الشكر، حتى تقع الزيادة فى ذات المال، بجانب زيادة الثواب فى أوجه إنفاقه، لقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[6].

۞ **يقول الإمام الفخر الرازى** - رحمه الله - : « قوله تعالى ﴿ وما أنفقتم **من شيء فهو يخلفه** ﴾ يحقق معنى قوله ﷺ : [**ما من يوم** يصبح العباد فيه إلا وملكان **ينزلان، يقول**

---

(١) قال تعالى: ﴿واحلل عقدة من لساني • يفقهوا قولي﴾ [سورة طه - الآيتان ٢٧/٢٨].

(٢) سورة طه - الآية ٣٦ .

(٣) الإمام الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم- ج٤ص١٣٠ .

(٤) سورة الزخرف - الآية ٥٤ .

(٥) سورة هود - الآيتان ٩٨/٩٩ .

(٦) سورة سبأ - الآية ٣٩ .

أحدهما: اللهم أعطى كل منفق خلفا، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكا تلفا][1]. فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل وهو الخلف. فيحصل البدل، ومن لم ينفق، فالزوال لازم للمال، ولم يأت بما يستحق عليه من البدل. فيفوت من غير خلف وهو التلف »[2].

ويقول القرطبى: « هذه إشارة إلى الخلف فى الدنيا بمثل المنفق ... إذا كانت النفقة فى طاعة الله، وقد لا يكون الخلف فى الدنيا. فيكون كالدعاء، سواء اكان فى الإجابة أم التفكير أو الادخار، والادخار ههنا مثله فى الأجر »[3].

ومتى كان جامع المال قد أجرى فيه أوجه الحلال، فإن الله تعالى يزيده ويبارك له فيه، قل ذلك المال أو كثر، وحينئذ يقع لصاحبه الأجر العظيم من الله تعالى لقوله جل شأنه ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[4].

يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة. لأن فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة »[5]. وكلما كان الأجر من الله تعالى، فإن المضاعفة فيه تكون قائمة على أوجه الزيادة كلها.

يقول الشيخ الشعراوى: « هذه الآية تعالج قضية الشح فى النفس الإنسانية. فقد يكون عند الإنسان شيء زائد، وتشح به نفسه ويبخل، فيخاف أن ينفق منه فينقضى هذا

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخارى – كتاب الزكاة – باب قوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ حديث رقم ١٤٤٢ .

(٢) الإمام الفخر الرازى – مفاتيح الغيب – ج١٣ ص٨ .

(٣) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – ج٨ ص٥٣٨٩ .

(٤) سورة البقرة – الآية ٢٦١/٢٦٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم– ج١ ص٣١٦ (باختصار) .

الشيء. وهنا نقول لك: إنها قضية إيمانية: أنفق؛ لأنه سبحانه سيزيدك، والحق سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التى تزرعها. أنت تضع الحبة الواحدة فى الأرض، فهل تعطيك حبة واحدة لا أنها تعطى حبوبا كثيرة؟ فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه، أفلا يضاعف لك ذلك العطاء الذى خلقها ؟ وإذا كان بعض من خلق الله يضاعف لك فما بالك بالله جل وعلا؟ »[1]، فمن وثق أن الزيادة من الله تعالى، صح إيمانه؛ لأنه الخالق العظيم، ومن زعم أن الزيادة من الأرض فقد أضاع إيمانه، لأنها جماد مخلوق غير عاقل، لا يميز بين الزيادة أو النقصان.

ولما كان جمع المال من حلال، وإنفاقه فى حلال، يجزى الله به القائمين عليه الجزاء الأوفى، ومنه الجنة العظيمة الشأن، ما داموا من أهل الصفاء لله والعرفان به، فقد دفعهم إلى المسارعة فيه، حتى يتسابق أهل الرضوان فى بلوغ مقامات الغفران، ويرزقوا بنعمة الله تعالى، ونعم أجر العاملين.

﴿ قال تعالى: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾[2]، والمسارعة إلى وسيلة المغفرة وأسبابها هو نوع من المسابقة إليها[3]، فالعبرة بمن يفوز فيهما، حتى يظفر برضوان الله تعالى.

۞ **يقول صاحبا الجلالين:** « بادروا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أي كعرضهما لو وصلت إحداهما بالأخرى وسعتهما أعدت للمتقين الله بعمل الطاعات وترك المعاصي الذين ينفقون في طاعة الله في السراء والضراء فى اليسر والعسر، والكاظمين الغيظ الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه، والعافين عن الناس ممن ظلمهم التاركين عقوبتهم

---

(١) تفسير الشعراوي – عدد ١٥ ص١١٦٠.

(٢) سورة آل عمران – الآيتان ١٣٦/١٣٣.

(٣) قال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [سورة الحديد – الآية ٢١].

والله يحب المحسنين بهذه الأفعال حتى إنه يثيبهم، والذين إذا فعلوا ذنبا قبيحا كالزنا أو ظلموا أنفسهم بما دونه كالقُبلة فى غير حلال ذكروا وعيد الله فاستغفروا لذنوبهم ومن لا يغفر الذنوب إلا الله ؟! ولم يداوموا على ما فعلوا بل أقلعوا عنه وهم يعلمون أن الذي أتوه معصية أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها إذا دخلوها ونعم أجر العاملين بالطاعة فقد حصل لهم هذا الأجر »[1].

أما إذا وقف المال بصاحبه عند تزكية نفسه والتعالى به على خلق الله تعالى. زاعما أنه مال أوتيه لتفوقه فى ملَكة من الملكات على غيره. فإن المال ينقلب عليه نقمة بدل أن كان عند غيره نعمة، ويكون الفقر أفضل بالنسبة له من الغنى لو علم ما فى الغيب، وأن هذا المال قد يطغيه، وآية ذلك أن قارون أتاه الله المال الوفير. لكنه لم يشكر نعمة الله تعالى عليه. وإنما زعم أن هذا المال أؤتيه لملكة فيه. فكانت النتيجة أن الله تعالى خسف به وماله كله الأرض. فلم ينفعه ماله، ولم يدفع عن نفسه وماله ما أوقعه الله بهما من الخسف فى الأرض[2].

قال تعالى ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى[3] عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندي أولم

---

(١) الإمامان جلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى - تفسير الجلالين ج١ ص٨٥ .

(٢) يراجع فى ذلك كتابنا: قصص الغابرين ص١٨٧، وكذلك الشعوبية فى العهد القديم وموقف القرآن الكريم منها (رسالة ماجستير) بإشرافنا - إعداد شبانه محمد إسماعيل شبانه ٢٠٠٢م.

(٣) ذكر الإمام الفخر الرازى عدة وجوه فى المراد ببغى قارون .منها: « الأول : أنه بغى بسبب ماله وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يدع لهم حق الإيمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله. الثانى أنه من الظلم: قيل ملكة فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم. الثالث : قال القفال: بغى عليهم أى طلب الفضل عليهم، وأن يكونوا تحت يده. الرابع : قال الضحاك طغى عليهم واستطال، فلم يوفقهم فى أمر. الخامس: قال ابن عباس : تجبر وتكبر وسخط عليهم » (مفاتيح الغيب - ج١٢ ص٣١٦/٣١٧).

يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم[1] * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين[2] * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا

---

(١) يقول الشيخ أحمد المراغي: « أى فخرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة. وتجمل بعسكر من مركب وخدم وحشم مريدا بذلك التعالى على الناس، وإظهار العظمة، وذلك من الصفات البغيضة والافتخار الممقوت والخيلاء المذمومة لدى عقلاء الناس من جراء أنها تقوض كيان المجتمع، وتفسد نفسه، وتفرق شمل الأمة، وتقسمها طبقات، وفى ذلك تخاذل وطمع العدو فى احتلال ناصيتها. وفى هذا تحذير لنا أيما تحذير، فيكثر ممن يظهرون النعم، إنما يريدون التعالى والتفاخر، وكم ممن يقيم من الزينات أو يصنع الولائم لعرس أو مأتم لا يريد بذلك إلا إظهار ثرائه وسعة ماله بين عشيرته وبنى جلدته، فيكون قارون زمانه، وتكون عاقبته الخسف لما أوتيه من مال، ويذهب الله ثراءه، ويجعله عبرة لمن يعتبر. فالكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالى ليس وبالهما فى الآخرة فحسب، بل يحصل شؤمهما في الدنيا قبل الآخرة كما حصل لكثير من المسلمين اليوم » (تفسير المراغى ج٢٠ ص٩٨ .)

(٢) قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : « لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت فى الصحيح عن البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه [أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض يوم القيامة](أخرجه البخارى – كتاب أحاديث الأنبياء – حديث رقم ٣٤٨٥ ، وأخرجه مسلم – كتاب اللباس – باب تحريم التبختر فى المشي – ج١٣ ص٦٤ (نووى) .). »(تفسير القرآن العظيم– ج٣ ص٤٠٠

لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون [١]* تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين﴾[٢].

أما نبـى الله أيـوب عليه السلام فقد رزقـه الله الصحـة العظيمـة والمـال الوفـير، والأسـرة الكبيرة، فشكر لله أنعمه، وظل قائمـا علـى ذلـك المقام مـن الشـكر، مـع اسـتمرار الخـوف والرجاء. ثم أراد الله جل شأنه أن يرفع درجته أعلى مما هو فيه فـابتلاه الله بـالمرض وقلـة المال، وفقدان الذرية، فصبر أيوب على ذلك محتسـبا عنـد الله رب العـالمين الأجـــر مصفيـا نفسـه من كل الشواغل، ومخليا قلبه إلا من ذكر أحكم الحـاكمين. فامتدحـه الله فـى قرآنـه الكريم بقوله جل شأنه: ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾[٣].

فحين تبدلت أحواله من الصحة للمرض، ومن الغنى للفقـر، ومـن كـثرة الذريـة إلى فقدانها[٤]، لم يقل سـوى ما حكاه القرآن الكريم عنه.

---

(١) يقول العلامة ابن عاشور : « ومعنى الآية أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة، ومن خفى تصرفات الله تعالى فى خلقه وعلموا وجوب الرضـى بما قدر للناس من الرزق » [التحرير والتنوير ج٢٠ ص١٨٨]

(٢) سورة القصص – الآيات ٨٣/٧٦ .

(٣) سورة ص – الآية ٤١ .

(٤) حذار من أن يقع فى ذهنك الخلط بين نبى الله أيوب عليه السلام الذى ابتلى فصـبر، ثـم ابتلـى فشـكر، وبـين ما يردده القصـاص وأصحـاب الأسـاطير عـن قصـة أيـوب المصـرى الذى بـاعت زوجـه ناعســه شـعرها لتعـالج زوجها – ابن عمها – أيوب، وكانت تحمله على رأسها فى مكتـل والدود يتناثر من فمه وعينيـه وأجـزاء جسمه، فإن ما ذكر من الأساطير عن أيوب المصرى لا يمكن أبدا نسبته إلى نبى الله أيوب عليه السلام؛ لأن الله تعالى إنما يختار الأنبياء من أكمل الناس خلقا وخلقا، ويستحيل عليـهم أن يوصفوا بمـا يـؤدى إلى نفـرة النـاس عنهم من الخلال الذميمة أو الأوصاف القبيحة، أو يقلـل مـن إقبـال النـاس عليـهم كـالأمراض المعديـة، أو المنفرة، فإن ذلك لا تصح نسبته إلى واحد من أنبياء الله أبدا؛ لأن مقام الأنبياء أعلى المقامات، وسـوف أكتب في بيان ذلك إن شاء الله تعالى كتابا مستقلا حتى يظهر الفرق للقصاص والغافلين بين نبى الله أيـوب الكريـم وبين القصة الأسطورية التى نسجتها خيالات مصرية فى وقت مـن الأوقـات، سـائلا الله جـل شـأنه العـون والسداد.

قال تعالى : ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني[1] الضر وأنت أرحم الراحمين﴾[2]. وهو بهذا لا يقدم نفسه لله عن طريق الشكوى وحاشا لمقام الأصفياء أن يقع منهم ذلك، وإنما يقدم حال نفسه لربه فى أنه ضعيف، ويخاف التبدل، وأنه بحاجة إلى العون والمدد، واستمرار النظر الكريم إليه من رب العالمين، إذن هو فى مقام الصبر مقيم، وعلى درب الفقر سائر. وفى نفس الوقت يقف على التوكل ينشد رضوان الله جل شأنه، لأن ذلك شأن الأصفياء الذين علاقتهم بالله تمثل نوعا من الخصوصية فعن وهب بن منبه[3] قال « وجدت فى التوراة أربعة أسطر متواليات. إحداها من قرأ كتاب الله تعالى فظن أن لن يغفر الله له،

---

(١) يقول العلامة الطاهر بن عاشور : « وظاهر إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان، أن الشيطان مس أيوب بهما، أى أصابه بهما حقيقة، مع أن النصب والعذاب هما الماسان أيوب. ففى سورة الأنبياء : ﴿ أنى مسنى الضر ﴾ فأسند المس إلى الضر، والضر هو النصب والعذاب. وترددت أفهام المفسرين فى معنى إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان، فإن الشيطان لا تأثير له فى بنى آدم بغير الوسوسة كما هو مقرر من مكرر آيات القرآن الكريم، وليس النصب والعذاب من الوسوسة، ولا من آثارها. وتأولوا ذلك على أقوال تتجاوز العشرة فى أكثرها سماحة، وكلها مبنى على حملهم الباء فى قوله: ﴿ بنصب ﴾ على أنها باء لتعديه فعل (مسنى) أو باء الآلة، مثل اضربه بالعصا، أو يؤول النصب والعذاب إلى معنى المفعول الثانى من باب أعطى. [التحرير والتنوير ج٣ ص٢٦٩]

(٢) سورة الأنبياء – الآية ٨٣ .

(٣) وهب بن منبه : « ابن كامل بن سيج بن ذي كبار وهو الأسوار الإمام العلامة الأخباري القصصي أبو عبد الله الأبناوي اليماني الذماري الصنعاني أخو همام بن منبه ومعقل بن منبه وغيلان بن منبه. مولده في زمن عثمان سنة أربع وثلاثين ورحل وحج . وأخذ عن ابن عباس وأبي هريرة إن صح وأبي سعيد والنعمان بشير وجابر وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص على خلاف فيه وطاووس .حدث عنه ولداه عبد الله وعبد الرحمن وعمرو بن دينار وسماك بن الفضل وعوف الأعرابي وعاصم بن رجاء بن حيوة ويزيد بن يزيد بن جابر وعبد الله بن عثمان بن خثيم وإسرائيل أبو موسى وهمام بن نافع أبو عبد الرزاق والمغيرة بن حكيم والمنذر بن النعمان وابن أخيه عقيل بن معقل وابن أخيه عبد الصمد بن معقل وسبطه إدريس بن سنان وصالح ابن عبيد وعبد الكريم بن حوران وعبد الملك بن خلج وداود بن قيس وعمران بن هربذ أبو الهذيل وعمران بن خالد الصنعانيون وخلق سواهم. مات سنة أربع عشرة ومئة » [سير أعلام النبلاء ج٤ ص٥٤٤ – رقم: ٢١٩]

فهو من المستهزئين بآيات الله. والثانى: من تواضع لِغَنِيّ لغناه، فقد ذهب ثلثا دينه. والثالث: من حزن على ما فاته سخط قضاء ربه. والرابع: من شكا مصيبته فإنما يشكو ربه »[1].

۞ **قال الشيخ الطاهر بن عاشور**: « والوجه عندى: أن تحمل الباء فى قوله " مسنى الشيطان بنصب وعذاب" على معنى السببية، بجعل النصب والعذاب مسببين لمس الشيطان إياه، أى مسنى بوسواس سببه نصب وعذاب، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النصب والعذاب عنده، ويلقى إليه أنه لم يكن مستحقا لذلك العذاب ليلقى فى نفس أيوب سوء الظن بالله، أو السخط من ذلك. أو تحمل الباء على الصاحبة أى مسنى بوسوسة مصاحبة لضر وعذاب. ففى قول أيوب (أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) كناية لطيفة عن طلب لطف الله به، ورفع النصب والعذاب عنه بأنهما صارا مدخلا للشيطان إلى نفسه، فطلب العصمة من ذلك»[2]. على نحو قول يوسف، عليه السلام: ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾[3].

إذن لم يقل نبى الله أيوب مسنى الضر فارفع عنى فيكون شاكيا ربه؛ لأن هذا لا يناسب مقام النبوة، ولا مقام أهل الصفوة، وإنما قال وأنت أرحم الراحمين، وهى عبارة كريمة تحمل تسليم الأمر لله، والاستعانة به، بجانب شكره جل شأنه، على كل ما يأتى به قضاؤه والتوكل عليه، وإعلان الفقر إليه، والخوف منه بجانب رجاء رحمته، وذلك كله مما يعلن أن نبى الله أيوب قد صافاه الله واصطفاه، وعن نفسه ونزعاتها أخلاه، ولربه جل علاه اجتباه، بل إن الله تعالى استجاب دعاءه وحقق رجاءه.

- حيث جاءه الفتح الربانى والصفح الرحمانى، وشغله الجمال الإلهى، فأعاد إليه ما كان قد سلبه عنه، لكن مع زيادتين:

---

(١) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام ج٢١ ط الحلبى ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

(٢) العلامة الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير ج٢٣ ص٢٧٠ .

(٣) سورة يوسف – من الآية ٣٣

الأولى: زيادة فى أجره من الله تعالى. وعطاء الله لا ينقطع. قال تعالى : : ﴿ فاستجبنا له ﴾[1].

الثانية: زيادة صحته وماله وولده.

قال تعالى: ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾[2]. فاستجابة الله لخلجات نبى الله أيوب كانت على كافة النواحى التى أصيب منها، وحفظ النواصى التى لم يقع له إصابة فيها، لكن مع زيادة فى الثواب، وزيادة فى الأعواض. قال تعالى: ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾[3].

يقول الشيخ عبدالكريم الخطيب: « وفى التعبير بالهبة عن عودة أهله وغير أهله إليه فى قوله تعالى ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم﴾، إشارة إلى أن هذا التحول فى حال أيوب من تلك العزلة الموحشة بينه وبين أهله وغير أهله إلى إقبال القريب والبعيد عليه وتوددهم له – إنما كان هبة من هبات الله له، ورحمة من رحماته على هذا العبد الذى ابتلى هذا الابتلاء العظيم، فصبر راضيا بأمر الله ﷻ فيه ..، والله ﷻ يقول: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[4]، وفى ذلك ذكرى وموعظة لأولى الألباب الذين يأخذون العبر من الأحداث التى تمر بهم أو بالناس من حولهم »[5].

وهل بعد شرف العبودية لله تعالى شرف، تحدث الله عنه بإضافته إلى ذاته القدسية "عبدنا أيوب"، كما تحدث جل شأنه عن الوهب الذى وقع له بالإضافة إلى الفاعل المختار جل علاه. "ووهبنا له". ثم زكاه بأنه صابر أواب، فامتدحه الله جل شأنه، وهل بعد شرف العبودية لله. وشرف الوهب من الله. وشرف تزكية النفس من جهة المولى الوهاب، وسمو

---

[1]) سورة الأنبياء – الآية ٨٤ .

[2]) سورة الأنبياء – الآية ٨٤ .

[3]) سورة ص – الآية ٤٣ .

[4]) سورة الزمر – من الآية ١٠ .

[5]) الأستاذ عبدالكريم الخطيب – التفسير القرآنى للقرآن – ج٢٣ ص١٠٩٧ .

العبادة، وحسن الاعتقاد من ناحية الله شرف؟! لقد اجتمع فى نبى الله أيوب الحياء، والجود والزهد والخوف والورع، بجانب التواضع والشفقة وحسن الصحبة لما يبتلى الله به[1].

لاشك أن نبى الله أيوبا قد دخل مقامات المجاهدة مع النفس، واستطاع هزيمة الشيطان فى كل موقعة تلاقيا فيها ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾[2]. وخرج من ذلك كله أكثر صفاء، وأجلى نفسا، وأطيب فؤادا، وأسلم قيادا، فتنقل من مقام إلى مقام، وأعانه الله بالأحوال حالا بعد حال، وهى ملامح أهل الصفاء والعرفان، أهل الإيمان والإحسان، أهل الجنة والنعيم والرضوان، فاحشرنا يا مولانا معهم ولا تحرمنا أجرهم.

كما أن من علامات صدق الإيمان، وصحة الاعتقاد الرضا بما قسمه الله جل علاه، فعن وهب بن منبه قال: « مكتوب فى التوراة: يا ابن آدم لا تخف من سلطان مادام سلطانى باقيا – سلطانى باقى – لا ينفد أبدا، يا ابن آدم خلقتك لعبادتى، فلا تلعب، يا ابن آدم لا تخف فوات الرزق مادامت خزائنى مملوءة وخزائنى لا تنفذ أبدا، يا ابن آدم خلقت السماوات والأرض، ولم أدعى بخلقهن يعينى رغيف واحد أسوقه إليك فى كل حين. يا ابن آدم كما لا أطالبك بعمل غد فلا تطالبنى برزق غد، يا ابن آدم لى عليك فريضة، ولك على الله رزق، فإن خالفتنى فى فريضتى لم أخالفك فى رزقك، على ما كان منك. يا ابن آدم إن رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك، وإن لم ترض بما قسمته لك؛ سلطت عليك الدنيا حتى تركض فيها كركض الوحوش فى البرية، وعزتى وجلالى لا ينالك منها إلا ما

---

(١) الشيخ محمود محمد الزعفرانى – من أخلاق الأنبياء ص١٢١، وهذا المقام هو المعبر عنه لدى الصوفية بالصبر والرضى، فإن الخير كله كما يكون فى الصبر يكون أيضا فى الرضا. [راجع للدكتورة فردوس أبو المعاطى الجابرى – التجربة الصوفية ودورها فى حوار الأديان ص١٣ – المؤتمر الدولى الخامس للفلسفة الإسلامية وحوار الحضارات].

(٢) سورة ص – الآية ٤١.

قسمته لك، وأنت عندى مذموم »[1]، فما قضاه الله تعالى وجب التصديق به والتسليم له؛ لأن ذلك جزء العقيدة الإسلامية الصحيحة[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال « إن الله يقول يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل أملأ يديك شغلا ولا أسد فقرك »[3]. وعن أبي سنان ﷺ قال: « يقول الله عز وجل يا دنيا مري[4] على المؤمن ليصبر عليك فيجزى. ولا تحلوي له فتفتنيه، يا ابن آدم تفرغ لعبادتي املأ قلبك غنى وأسد فاقتك، وإلا تفعل ملأت قلبك شغلا ولا أسد لك فاقة »[5].

---

(١) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص٢١ .

(٢) ففى الحديث الشريف عمر بن الخطاب قال « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن إمارتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٣٦– [١] كتاب الإيمان –[١] باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان – الحديث:٨]

(٣) العلامة أبو بكر محمد بن أبى شيبة الكوفى – مصنف ابن أبي شيبة ج:٧ ص:١٢٦ – [٢١] كلام أبي هريرة رضي الله عنه رقم: ٣٤٦٩٩

(٤) يعنى كونى مرة المذاق، حتى لا يتعلق قلب المؤمن بالدنيا الفانية ؛لأنها إذا حلت أوحلت، وكلما كانت مرة فن المؤمن يفر منها إلى الآخرة.

(٥) العلامة أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج:٥ ص:٩٢ .

ومن يتابع الصوفية الأعلام من أهل الإسلام، يرى أنهم من معين النبوة يأخذون. والى الحضرة الإلهية يتوجهون، وعلى ربهم الخالق العظيم يتوكلون. يتوبون إليه وحده ويستغفرون، وعن محارم الله كلها يتورعون، بل ربما تركوا الحلال مخافة الوقوع في الشبهات التى قد تدفع إلى الوقوع فى المحرمات، كما أنهم زاهدون فيما عند الله. متمسكون بكل ما عند الله. ففى الحديث الشريف عن سهل بن سعد رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم وعظ رجلا فقال ازهد في الدنيا يحبك الله عز وجل وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس »[1].

كما أن الصوفية الأعلام هم أهل الله وخاصته، فيهم الفقر إلى الله. والغنى عن كل ما سواه ، والصبر على المكاره، حتي أنها تكون بالنسبة لهم من النعم الإلهية.

حكى الأصمعى[2]: « أنه التقى بأعرابى صلب القوام والرأى على قاعود له ومعه سيفه ، فقال الأعرابى للأصمعي: من أى البلاد أنت؟ قال أنا من أصمع. قال الأعرابى: أنت الأصمعى إذن. قال: نعم أنا هو، فقال الأعرابى من أين أتيت؟ قال الأصمعي: من بلاد يتلى فيها كلام الله. فقال الأعرابي: وهل لله كلام يتلوه البشر؟ قال الأصمعي: نعم. فقال

---

(١) الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج: ٤ ص: ٣٤٨ – رقم: ٧٨٧٣ وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والعلامة الطبراني – المعجم الكبير ج:٦ ص:١٩٣ رقم:٥٩٧٢. وروى المنذرى بنفظ وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس »(العلامة عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد المولود ٥٨١هـ والمتوفى ٦٥٦هـ – الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج٤ ص٧٤ رقم: ٤٨٥٥ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٧هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٤ – تحقيق إبراهيم شمس الدين.).

(٢) هو : « عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعي البصري سمع بن عون وشعبة يقال بن علي بن أصمع الباهلي مات سنة ست عشر ومائتين » [التاريخ الكبير ج:٥ ص:٤٢٨ رقم:١٣٩٣، وراجع لسان الميزان ج٥ ص٢٢٦، وميزان الإعتدال في نقد الرجال١ ج: ٤ ص: ٤٠٨ رقم:٥٢٤٥ ٣٨٩٨ت وقال هو أحد الأخباريين والأئمة الصدوقين ، وراجع الكاشف ج:١ ص٦٦٨ رقم:٣٤٧٣ وقال : هو اللغوي الأخباري عن بن عون وأبي عمرو بن العلاء وعنه عمر بن شبة وابن واره وأبو حاتم صدوق] ولطالب المزيد عنه يراجع تاريخ بغداد ج:١٠ ص:٤١٠ رقم: ٥٥٧٦ .

الأعرابى: اقرأ عليَّ من كلام الله. فقرأ عليه من أول سورة الذاريات حتى وصل قوله تعالى ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[1]. فقال الأعرابى حسبى. فقلت عقلت ما قرأت.

ثم نزل عن قاعوده وقال للأصمعي: أعنى، فعمد الأعرابى إلى قاعوده فذبحه، ثم وزع لحمه على الفقراء، وأهل الحاجة، ثم كسر سيفه وانصرف وهو يقول: صدق الله العظيم فى كتابه الكريم: ورزقكم فى السماء وما توعدون، حتى مرت سنون قليلة، ثم ذهب الأصمعى لأداء فريضة الحج، فإذا به يلتقى بالأعرابى وقد نحل جسمه واصفر لونه، ثم أخذه الأعرابى إلى ناحية من المسجد الحرام وسأله يا أصمعى اقرأ عليَّ من كلام الله فقرأ الأصمعى عليه من أول سورة الذاريات حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل

---

(١) سورة الذاريات – الآية ٢٢ . يقول القرطبى : « قوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون قال سعيد بن جبير والضحاك الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق وقال سعيد بن جبير كل عين قائمة فإنها من الثلج وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وقال أهل المعاني وفي السماء رزقكم معناه وفي المطر رزقكم سمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم ∴ رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان يعني وعلى رب السماء رزقكم نظيره وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها وقال سفيان الثوري وفي السماء رزقكم أي عند الله في السماء رزقكم وقيل المعنى وفي السماء تقدير رزقكم وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب وعن سفيان قال قرأ واصل الأحدب وفي السماء رزقكم فقال ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو في الثالثة بدوخلة رطب وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الله بالموت بينهما، وأقسم عليه بأنه لحق ثم أكده بقوله مثل ما أنكم تنطقون وخص النطق من بين سائر الحواس لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه كالذي يرى في المرآة واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها والدوي والطنين في الأذن والنطق سالم من ذلك ولا يعترض بالصدى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مشوب بما يشكل به وقال بعض الحكماء كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره » [الجامع لأحكام القرآن ج:١٧ ص:٤٢/٤١] وقصة الأصمعى مع الأعرابى حكاه القرطبى كاملة فى تفسيره ج١٧ ص٤٢ .

ما أنكم تنطقون﴾[١]، فانطلق الأعرابى وهو يقول يا سبحان الله من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمن »[٢].

۞ **وزاد القرطبى** « فقالها الأعرابى ثلاثا وخرجت بها نفسه وقال يزيد بن مرثد إن رجلا جاع بمكان ليس فيه شيء فقال اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني به فشبع وروي من غير طعام ولا شراب وعن عن أبي الدرداء قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله][٣].

وعن حبة وسواء ابنى خالد قالا [دخلنا على النبي ﷺ وهو يعالج شيئا فأعناه عليه فقال لا تيأسا من الرزق ما تهززت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله عز وجل][٤]. وروي أن قوما من الأعراب زرعوا زرعا فأصابته جائحة فحزنوا لأجله فخرجت عليهم أعرابية فقالت مالي أراكم قد نكستم رءوسكم وضاقت صدوركم وهو ربنا والعالم بنا رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرة في البحر راسية ∴ صماً ململمة ملسا نواحيها
رزق لنفس يراها الله لانفلقت ∴ حتى تؤدي إليها كل ما فيها
أو كان بين طباق السبع مسلكها ∴ لسهل الله في المرقى مراقيها
حتى تنال الذي في اللوح خط لها ∴ إن لم تنله وإلا سوف يأتيها»[٥]

---

(١) سورة الذاريات – الآية ٢٣ .

(٢) الشيخ محمد نصر الله الحبشي – التصوف العملى ص١٥١ ط أولى ١٣٣٥هـ .

(٣) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٨ ص٣١ – ذكر الإخبار عما يجب على المرء من قلة الجد في طلب رزقه بما لا يحل – الحديث: ٣٢٣٨، وأخرجه العجلوني – كشف الخفاء ج١ ص٢٦٦ – الحديث: ٧٠٥ ، وأخرجه الهيثمى فى الزوائد – ج٤ ص٧٢ ، والمنذرى فى الترغيب والترهيب ج٢ ص٣٤٠، وأبو نعيم فى حلية الأولياء ج٦ ص٨٦

(٤) الإمام محمد يزيد بن ماجة القزوينى – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٩٤ – [١٤] باب التوكل واليقين – الحديث: ٤١٦٥، وأخرجه الطبرانى – المعجم الكبير ج٤ ص٧ – الحديث: ، ٣٤٨٠ ، ج٧ ص١٣٧ الحديث: ٦٦١٠ .

(٥) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج:١٧ ص:٤٢/٤٣ .

ولأن الصوفية يقررون أن التصوف هو الإخلاص لله تعالى فإن له ثلاثة درجات:-

☆ **الأولى**: أن تعبد الله، وتعمل ما كلفك به لا طمعا فى الثواب، ولا هربا من العقاب، بل لكونه إلهك وأنت عبده. وهى أعلى درجات الإخلاص .

☆ **الثانية**: أن تعبد الله وتعمل بطاعته جل شأنه طلبا للثواب، وخوفا من العقاب، أو طمعا فى الجنة وخوفا من النار. وهى الدرجة الوسطى.

☆ **الثالثة**: أن تعبده جل شأنه لتتشرف بعبادته. وتنسب إليه تعالى، فيقال هذا عابد وسائل. أو تعمل لتحصيل الدنيا، كما إذا قرأت سورة الواقعة للغنى ونحوه وهو أدناها[1].

والصوفية يذهبون إلى أن العمل والعبادة للرياء والسمعة حرام؛ لفقدهما الإخلاص الذى لابد منه، حتى يكون العبد ذاكى الموقف بالنسبة لله رب العالمين. قال الفضيل بن عياض: « ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك. والإخلاص أن يعافيك الله تعالى منهما »[2]، وهو النهج الذى يسير عليه الصوفية الأعلام، جمع الله أهل الإسلام على الخير. وأبعد عنهم كل شرك .

نبى الله داود عليه السلام ثامن عشر الأنبياء[3]

منح الله نبيه داود منحا عديدة، لا كسبا من داود عليه السلام لِملَكة فيه، وإنما رحمة من

---

(١) الشيخ منصور محمد اليمنى - الطريق إلى الله ص٣٧ ط٢/١٣١٨هـ - الدار اليمانية بالديار العثمانية .

(٢) العارف بالله الشيخ عبدالمهيمن سند الله الشامى - الإخلاص لله ص٢٣ - ط الثالثة ١٣٣٥هـ.

(٣) هو داود بن أبشالوم وتاسع عشرهم سليمان بن داود، وعشروهم إلياس بن أخى موسى، والحادى والعشرون يونس بن متى الذى أنجاه الله من الغم، والثانى والعشرون زكريا بن أذن، والثالث والعشرون يحيى بن زكريا، والرابع والعشرون عيسى ابن مريم، والخامس والعشرون سيدنا محمد ﷺ ، والأنبياء الذين تجب معرفتهم تفصيلا قد جاء بهم الناظم على الترتيب فقال:

هم آدم إدريس نوح هود مع ∴ صالح وإبراهيم كل متبع
لوط وإسماعيل وإسحق كذا ∴ يعقوب يوسف وأيوب اقتدى
شعيب هارون وموسى واليسع ∴ ذو الكفل داود سليمان اتبع
إلياس يونس زكريا يحيى ∴ عيسى وطه خاتم دع غيا

راجع الشيخ أحمد المرزوقى المالكى - منظومة عقيدة العوام بهامش نور الظلام ص١٤ .

الله تعالى[1]، ومن تلك المنح الإلهية العلم به والحكمة. قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[2].

قال صاحب الظلال: « ﴿ولقد آتينا داوود وسليمان عِلْماً﴾، قبل أن تنتهى الآيـة يجـيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيـم، والحمـد الله الـذى فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين، فتبرز قيمة العلم، وعظمـة المنـة مـن الله علـى العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين،

ولا يذكر هنا نوع العلـم وموضوعـه، لأن جنـس العلـم هـو المقصـود بـالإبراز لإظـهار الإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مبعدا لصاحبه عن الله، ولا منسيا له إياه، وهو بعض من مننه وعطاياه،

والعلم الذى يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره، وعن هدفه، ولا يثمـر سعادة لصاحبه ولا للناس، وإنما يثمـر الشـقاء والخـوف والقلـق والدمـار. لأنـه انقطـع عـن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضل طريقه إلى الله »[3].

ثم منحه الله تعالى الحكمة، فصار العلم والحكمة من أنعم الله على داود عليه السلام. وإن كانت القواسم المشتركة، فيهما استمرت قائمة يقاسمه فيها أيضا إبنـه نبـى الله سـليمان بـن داود عليهما وعلى كل الأنبياء والمرسلين الصلاة والسلام.

---

(١) الذى عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن النبـوة منحـة مـن الله تعـالى ليسـت باسـتحقاق مـن النبـى ولا بمجهود منه، وإنما هى اختيار من الله تعالى، وتوظيف ذات الشخص ليكون مبلغا عـن الله تعـالى، ومـن ثـم فإن الله تعالى يهيئ ذلك الشخص للقيام بما اختاره جل شأنه على سبيل الاصطفاء الإلهـى لـه. قـال تعـالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير﴾ [سورة الحج – الآية ٧٥] .

(٢) سورة النمل – الآية ١٥ .

(٣) الإمام سيد قطب – ظلال القرآن – جـ٥ ص٢٦٣٣ .

ﷺ قال تعالى: ﴿وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾[1].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير**: « قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود كان ذلك الحرث كرما قد تدلت عناقيده، فأفسدته فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان غير هذا يانبي الله قال وما ذاك قال تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله ففهمناها سليمان[2].

وعن ابن عباس قال قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب فقال لهم سليمان كيف قضى بينكم فأخبروه فقال لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضي بينهم قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له أولادها وألبابها وسلاؤها ومنافعها ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها[3].

---

(١) سورة الأنبياء - الآيات ٨٠/٧٨ .

(٢) عن مسروق قال الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم إنما كان كرما فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودا من عنب إلا أكلته فأتوا داود فأعطاهم رقابها فقال سليمان لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم. [الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج٣ ص١٨٧]

(٣) قال ابن كثير « جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما أن شياه هذا قطعت غزلا لي فقال شريح نهارا أم ليلا فإن كان نهارا فقد برئ صاحب الشياه وإن كان ليلا ضمن ثم قرأ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث الآية وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد [الإمام أحمد - مسند أحمد - الحديث: ٤٢٩٥ وأبو داود - سنن أبي داود - الحديث: ٣٥٧ وابن ماجه - سنن ابن ماجه - الحديث: ٢٣٣٢] أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الحوائط حفظها بالنهار وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلم » [الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج٣ ص١٨٧]

وعن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى فقال ما يبكيك قال يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار،ورجل مال به الهوى فهو في النار،ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة،فقال الحسن البصري إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال الله تعالى وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال يعني الحسن إن الله إتخذ على الحكام ثلاثا،لا يشتروا به ثمنا قليلا،ولا يتبعوا فيه الهوى،ولا يخشوا فيه أحدا ثم تلا : : ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[1]، وقال: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[2]، وقال: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون﴾[3]،أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف وأما من سواهم فلهم شأن أخر، فعن عمرو بن العاص« أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر »[4].

---

(١) سورة ص – الآية ٢٦ .

(٢) سورة المائدة – من الآية ٤٤ .

(٣) سورة البقرة – من الآية ٤١ .

(٤) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٦ ص٢٦٧٦ – [٢١] باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ – الحديث:٦٩١٩ ، وأخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:٣ ص:١٣٤٢ – [٦] باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ الحديث: ١٧١٦، وأخرجه الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج:٣ ص:٦١٥ – [٢] باب ما جاء في القاضي يصيب ويخطيء الحديث:١٣٢٦، والإمام النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٨ ص:٢٢٣ – [٣] باب الإصابة في الحكم – الحديث:٥٣٨١ ، والأمام محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجه – سنن ابن ماجه ج:٢ ص٧٧٦ – [٣] باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق – الحديث:٢٣١٤، وابن حبان – صحيح ابن حبان ج:١١ ص:٤٤٥ – ذكر إعطاء الله جل وعلا الحاكم المجتهد لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في حكمه أجرين إذا أصاب فيه – الحديث:٥٠٦٠ ، والبيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج:١٠ ص:١١٩ – الحديث:٢٠١٥٥.

فهذا الحديث يرد نصا ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار والله أعلم، وعن ابن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة [١].

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال هاتوا السكين أشقه بينكما فقالت الصغرى يرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى [٢].

وعن ابن عباس قال: إن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤوسائهم، فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود عليه السلام، أنها مكنت من نفسها كلبا لها قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشية ذلك اليوم، جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله، فانتصب حاكما وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبا، فقال سليمان فرقوا بينهم، فسألوا أولهم ما كان لون الكلب فقال أسود فعزله، واستدعى الآخر فسأله عن لونه فقال أحمر، وقال الآخر أغبش، وقال الآخر أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم. فحكى ذلك لداود عليه السلام فاستدعى، من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب. فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم [٣].

---

(١) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٣ ص٦١٣ – الحديث: ١٣٢٢ . وأخرجه ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص٧٧٦ – [٣] باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق – الحديث: ٢٣١٥. وأخرج الحاكم بلفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة وقاض عرف الحق فجار متعمدا فهو في النار وقاض قضى بغير علم فهو في النار] العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص١٠١ – الحديث: ٧٠١٢ .

(٢) الإمام البخاري – صحيح البخارى – الحديث: ٣٤٢٦ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم – الحديث: ١٧٢٠ . وأخرجه النصائي – سنن النسائي – كتاب القضاء – باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق – الحديث: ٨٢٣٦ ، وأحمد فى مسنده – الحديث: ٢٣٢٢ .

(٣) راجع القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تأريخه.

وقوله وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير الآية وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويبا ولهذا لما مر النبي صلى الله عليه وسلم على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جدا فوقف واستمع لقراءته وقال لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود قال يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا [1].

وقال أبو عثمان النهدي[2] [ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود][3].

وعن أبى هريرة ﷺ [ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع قراءة أبي موسى الأشعري فقال قد اوتى هذا من مزامير آل داود قال أبو سلمة وكان عمر بن الخطاب رضي

---

(١) الإمام ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص١٧٠ – ذكر قول أبي موسى للمصطفى صلى الله عليه وسلم ان لو علم مكانه لحبر له – الحديث:٧١٩٧ بلفظ عن أبى موسى قال استمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءتي من الليل فلما أصبحت قال يا أبا موسى استمعت قراءتك الليلة لقد اوتيت مزمارا من مزامير آل داود قلت يا رسول الله لو علمت مكانك لحبرت لك تحبيرا.

(٢) أبو عثمان النهدي : « الإمام الحجة شيخ الوقت عبد الرحمن بن مل وقيل ابن ملي ابن عمرو بن عدي البصري مخضرم معمر أدرك الجاهلية والإسلام وغزا في خلافة عمر وبعدها غزوات، روى عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وبلال وسعد ابن أبي وقاص وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان .... وطائفة سواهم، وروى عنه قتادة وعاصم الأحول وحميد الطويل وسليمان التيمي وأيوب السختياني وداود بن أبي هند وخالد الحذاء وعمران بن حدير، أصله كوفي وتحول إلى البصرة وكانت هجرته من أرض قومه وقت استخلاف عمر وكان من سادة العلماء العاملين، وعنه أنه قال: أدركت النبي صلى الله عليه وسلم وأديت إليه ثلاث صدقات ولم ألقه وغزوت على عهد عمر وشهدت اليرموك والقادسية وجلولاء وتستر ونهاوند وأذربيجان ومهران ورست، وعن معتمر عن أبيه قال إني لأحسب أبا عثمان كان لايصيب دنيا كان ليلة قائما ونهاره صائما وإن كان ليصلي حتى يغشى عليه. ومات رحمه الله سنة مئة » [راجع سير أعلام النبلاء ج٤ ص١٧٥ رقم:٦٧].

(٣) روى البخارى ومسلم بلفظ عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم [قال له يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود] الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٩٢٥ – [٣١] باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن – الحديث:٤٧٦١، وأخرجه مسلم صحيح مسلم ج١ ص٥٤٦ – الحديث: ٧٩٣ ، وابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص١٦٧ – ذكر إعطاء الله جل وعلا أبا موسى من مزامير آل داود – الحديث:٧١٩٥

الله عنه يقول لأبي موسى وهو جالس في المجلس يا أبا موسى ذَكِّرنا ربنا فيقرأُ عنده أبو موسى وهو جالس في المجلس ويتلاحن][1].

وقوله ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾[2]. ، يعني صنعة الدروع، وكانت الدروع قبله صفائح وهو أول من سردها حلقا كما قال تعالى: : ﴿وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾[3]، أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ولهذا قال لتحصنكم من بأسكم يعني في القتال فهل أنتم شاكرون نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه ذلك من أجلكم »[4].

ومع أن الله تعالى قد منح نبى الله داود الملك إلا أنه كان بجانب ذلك يأكل من عمل يديه، فعن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[5]. عن طريق الصنعة التى علمه الله إياها، بعد إلانة الحديد له. قال تعالى: ﴿وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾[6].

---

(١) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص١٦٨ – ذكر الخبر المدحض قول من زعم ان الزهرى لم يسمع هذا الخبر الا من عمرة الحديث: ٧١٩٦ .

(٢) سورة الأنبياء – الآية ٨٠ .

(٣) سورة سبأ – الآيتان ١١/١٠ .

(٤) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٣ ص: ١٨٨/١٨٧ .

(٥) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:٢ ص:٧٣٠ – الحديث رقم: ١٩٦٦ وروى البخارى فى الحديث رقم: ١٩٦٧ عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده ».

(٦) سورة سبأ – الآيتان ١١/١٠ .

۞ **يقول العلامة الطبرى** : « وقوله وألنا له الحديد فكان في يده كالطين المبلـول، يصرفـه في يده كيف يشاء بغير إدخال نار ولا ضرب بحديد، وكان يسويها بيده ولا يدخلها نارا ولا يضربها بحديدة، وقوله أن اعمل سابغات يقول وعهدنا إليه أن اعمل سابغات وهي التوام الكوامل من الدروع، واعمل يادداود أنت وآلك بطاعة الله إني بما تعملون بصير يقول جل ثناؤه إني بما تعمل أنت وأتباعك ذو بصر لا يخفى عليّ منه شيء وأنا مجازيك وإياهم على جميع ذلك »[١]، وذلك كله من تعليم الله له، وإفاضة أسباب ذلك عليه[٢]، وإذا منح الله فلا شيء فوقه.

فكانت صنعتـه أحد وسائل اكتساب العيش الطيب، الذى يبرز صاحبه فوق الآخرين، عندما يقع بينهم أمر الكسب الحلال، ومع ذلك فقد كان يصوم يوما ويفطر يوما، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما »[٣].

إذن نبى الله داود كان يقر بأن عبوديته لله قوامها استمرار الصفـاء النفسي والقلبي والوجداني، مع تسليم الوجه لله رب العالمين، دليل ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن استمرار الشكر لله رب العالمين، وقد شاركه الإيمان النقي والصفاء الكامل لله رب العالمين، وكذلك كان ولده نبى الله سليمان. قال تعالى: ﴿ وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[٤].

وفى إطار الفيوضات الإلهية، واستمرار توارد النعم الربانية على نبى الله داود، جاءته المنح العلمية، ففى الحديث القدسي « عبدى أطعنى تكن عبدا ربانيا تقول للشيء كن

---

(١) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٢٢ ص: ٦٨/٦٦ .

(٢) راجع كتابنا: المدخل لداسة الحكمة الإسلامية، فقد تعرضت فيه لبيان ذلك بشيء من التفصيل.

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج:١ ص٣٨٠ – [٧] باب من نام عند السحر الحديث رقم: ١٠٧٩، وأخرجه مسلم صحيح مسلم ج:٢ ص:٨١٦ – الحديث : ١١٥٩ .(عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما)

(٤) سورة النمل – الآية ١٥ .

فيكون »[1]، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته »[2].

بيد أن نتائج ذلك الاصطفاء الربانى قد برزت معالمه فى قوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد ۝ أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾[3]. وقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ۝ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾[4]. إذن صارت أفعال الله التى يجريها على يد نبى الله داود كأنها طوع إرادته هو أو أنها تجيئه برغبة منه، مع أنها مسخرة لخدمته، ويجريها الله تعالى على يديه، بل اعتبر الإمام أحمد بن حنبل أن إلانة الحديد لنبى الله داود إنما كانت من مظاهر حب لله له، حيث كانت إلانة الحديد بين يديه يصنع منه الدروع الخفيفة والسيوف[5]، وما يلزم للقتال دفاعا عن النفس والعرض بعد الدين والعقيدة.

---

(١) العلامة الشيخ محمد أبو البركات الأسنوى – الأحاديث القدسية جمع وتحقيق – باب العين ص١١٧ .

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٣٨٤ – باب التواضع – الحديث: ٦١٣٧ ، وعن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ هم خير منهم وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٤ ص: ٢٠٦١ – [٤٨] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – [١] باب الحث على ذكر الله تعالى الحديث: ٢٦٧٥ –وأخرجه البخارى – صحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٦٩٤ رقم: ٦٩٧٠]

(٣) سورة سبأ – الآيتان ١٠/١١ .

(٤) سورة الأنبياء – الآيتان ٧٩/٨٠ .

(٥) الإمام أحمد بن حنبل – الزهد ص٤٤ – دراسة وتحقيق محمد السعيد بسيونى زغلول – ط أولى – دار الكتاب العربى ١٩٨٦م.

أضف إلى ما سبق أن الله جل شأنه أراد ابتلاء داود حتى يرتفع درجة فوق درجة النبوة التى هو عليها، ألا وهى درجة القرب والسبق إلى الحجاب، وهى حال تلتزم صاحبها حتى يظل على الاستغفار لله دائما، وفى حالة الإنابة إليه قائما، وهى تأتى هبة من الله تعالى، وهو أحد الوجوه التى يمكن التعرف عليها من قوله تعالى: ﴿ وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ۝ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾[1].

۞ **قال صاحبا الجلالين** : « وظن داود على سبيل التيقن أنما فتناه أوقعناه في فتنة وبلية فاستغفر ربه وخر راكعا أي ساجدا وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى زيادة خير في الدنيا وحسن مآب ومرجع في الآخرة »[2]، وكان داود صاحب صوت جميل، دائما يسبح بحمد الله ، ويشكره على جميع نعمه، بل كان يذهب إلى الصحراء، حيث الطبيعة الجميلة الخلابة، فكانت ذرات الجبال تتصل بذبذبات صوته، وهو يسبح، وأيضا الطيور والوحوش وصخور الجبال، فكان داود عليه السلام يملك نفسا تستطيع أن تمتزج امتزاجا صوفيا بغيرها من نفوس الكائنات[3].

ويبدو لى أن نبى الله داود قد صفى نفسه تماما لله رب العالمين، فتحققت عبوديته لله تعالى فى أبرز مظاهرها، إنه يأكل من عمل يديه، ويصوم يوما ويفطر يوما، وتجرى الخوارق على يديه تفضلا من الله تعالى، وهو دائم الخوف من الله، والتعلق بما عنده جل شأنه، واستعظام أى شيء يصدر عنه، ربما يباعد بينه وبين رضوان الله جل علاه، فإذا روعيت مقامات الصوفية؛ وجدنا أن نبى الله داود تتمثل فيه كل تلك المقامات ويزيد عليها.

فهو فى خوف دائم من الله تعالى، وشكر مستمر له جل علاه، وتوكل عليه ورجاء فيما عنده، ودائم التوبة له، مع ورع لا يتناسب إلا مع أمثاله، وزهد فيما هو من العوارض الزائلة، وتمسك بما هو من الباقيات الصالحات، فالفقر لا يكون إلا إلى الله وحده، والغنى لا

---

(١) سورة ص – الآيتان ٢٤/٢٥ .

(٢) الإمامان جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطي – تفسير الجلالين ج١ ص٦٠١ .

(٣) الأستاذ أحمد بهجت – قصص الأنبياء ص٢٦٤، وانظر أيضا للدكتورة فردوس للجابرى – التجربة الصوفية ودورها فى حوار الأديان ص٢.

يكون إلا من عند الله بفضله. لقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله و الله هو الغني الحميد﴾(١).

لقد كان داود عليه السلام صوفيا من النموذج الثانى. حيث إن تجربته الصوفية ابتدأت منذ كان راعيا صغيرا، حيث طلب داود الصغير من طالوت القائد الكبير أن يسمح له بمبارزة جالوت الظالم الجبار، ولكن طالوت رفض لصغر سن داود، غير أن إصرار داود دفع طالوت حتى أجابه لطلبه، وما كان ذلك عن جرأة من داود الراعى الصغير، وإنما كان لأنه يعلم أن الله تعالى هو مصدر القوة الحقيقية فى هـذه الدنيـا، وبإيمانه القوى هذا صار داود الراعى الصغير أقوى من جالوت الظالم الجبار(٢).

---

(١) سورة فاطر – الآية ١٥ .

(٢) الإمام أحمد بن حنبل – الزهد ص ٤٧، وراجع فى تفسير الفخر الرازى – الآيات من قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنآئنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ٥ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ٥ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لاية لكم إن كنتم مؤمنين ٥ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ٥ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ٥ فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [سورة البقرة – الآيات ٢٥١/٢٤٦]

فلما جاء وقت المبارزة كان داود متوكلا على الله تعالى. فلم تكن لديه وسائل مدمرة فتاكة، وإنما كان يحمل عصاه، وخمسة أحجار ومقلاعه[1]. وهى نبلة يستخدمها الرعاة، وتقدم جالوت بالسلاح والدروع[2]، وسَخِر جالوت من داود وأهانه، وضحك من فقره وضعفه. فوضع داود حجرا فى مقلاعه ثم طوح به فى الهواء، وأطلق الحجر معتمدا على الله تعالى. فإذا بالرياح – التى كانت صديقة لداود؛ لأنه يحب الله – تحمل الحجر نحو جبهة جالوت فيصيبه الحجر ويقتله، ويسقط جالوت الجبار بحجر داود الراعى الطيب، فيتقدم داود ويأخذ سيفه وتبدأ الحرب بين الجيشين، ثم لا تلبث أن تنتهى بانتصار طالوت وجيشه بمن فيهم داود[3]، وينهزم جيش جالوت بما فيهم من القوة والبأس.

والمعلوم أن داود عليه السلام قد أتاه الله المال الكثير، والخير الوفير، بجانب تكليفه بأعباء النبوة، ومع ذلك لم يلتفت إلى ما يتلفت إليه غيره من الانشغال بما فيه كفاية نفسه أو تنمية ما لديه من أموال تفى بحاجاته الطبيعية، وإنما لجأ إلى مباشرة العمل اليدوى، حتى يكفى نفسه ومن يعول، بل وينفق على من عجز عن الكسب، وهو فى ذلك كله لا يبتغى إلا رضوان الله جل شأنه، وهو الحال الذى يمكن وصف الصوفية الأعلام به، وتاريخ الإسلام شاهد على ما قدمناه، فهل بعد ذلك يطمع متعجل فى القفز فوق النتائج، ثم يزعم أن التصوف الإسلامى السنى بدعة؟! وهم قد اقتدوا بالنبى الخاتم الذى جعله الله رحمة للعالمين فى قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[4]. ثم إن الله تعالى بعد أن ذكر ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[5].

---

(١) المقلاع بالكسر: هو الذي يوضع فيه الحجر ويرمى به الطير. [راجع مختار الصحاح ج١ ص٢٢٩، ولسان العرب ج٤ ص٢٥٠]

(٢) الدرع: لبوس الحديد، تذكر وتؤنث، حكى اللحياني: درع سابغة و درع سابغ، قال أبو الأخرز: مقلصا بالدرع ذي التغضن، يمشي العرضنى في الحديد المتقن والجمع في القليل أدرع و أدراع، وفي الكثير دروع. [راجع للعلامة ابن منظور – لسان العرب ج: ٨ ص: ٨١]

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – الزهد ص٤٩، ويمكن متابعة باقى صفحات الكتاب.

(٤) سورة الأنبياء – الآية ١٠٧ .

(٥) سورة الأنعام – الآية ٨٢ .

❁ **يقول الحافظ ابن كثير** : « الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة »[(١)].

وروى البخارى عن عبد الله قال [لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أينا لم يظلم فأنزل الله إن الشرك لظلم عظيم][(٢)].

وروى الشيخان وغيرهم [عن عبد الله قال لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم][(٣)].

وعن جرير بن عبد الله[(٤)] قال [خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هذا

---

(١) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٢ ص: ١٥٥/١٥٣ .

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج١ ص٢١ – [٢٢] باب ظلم دون ظلم – الحديث:٣٢ .

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخياري ج٦ ص٢٥٣٥ – [٩٢] كتاب استتابة المرتدين المعاندين وقتالهم [١] باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة – الحديث:٦٥٢٠ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج١ ص١١٤ – [٥٦] باب صدق الإيمان وإخلاصه – الحديث:١٢٤ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج١ ص٤٤٤ – الحديث: ٤٢٤٠

(٤) جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن حشم بن عوف الأمير النبيل الجميل أبو عمرو وقيل أبو عبد الله البجلي القسري وقسر من قحطان من أعيان الصحابة، حدث عنه أنس وقيس بن أبي حازم وأبو وائل والشعبي وهمام ابن حارث وأولاده الأربعة .... وحفيده أبو زرعة وغيرهم. وبايع النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم، فعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال قدم جرير البجلي المدينة في رمضان سنة عشر ومعه من قومه خمسون ومئة فقال رسول الله ، يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن فطلع جرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا، قال ابن الكلبي مات سنة أربع وخمسين. ومسند جرير نحو من مئة حديث بالمكرر اتفق له الشيخان على ثمانية أحاديث وانفرد البخاري بحديثين ومسلم بستة » [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٥٣٠/٥٣٧ رقم:١٠٨].

الراكب إياكم يريد قال فانتهى الرجل إلينا فسلم فرددنا عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من أين أقبلت قال من أهلي وولدى وعشيرتي قال فأين تريد قال أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فقد أصبته،قال يا رسول الله علمني ما الإيمان،قال تشهد أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله،وتقيم الصلاة،وتؤتى الزكاة،وتصوم رمضان،وتحج البيت،قال قد أقررت قال ثم ان بعيره دخلت يده في شبكة جرذان فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بالرجل قال فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة فأقعداه فقالا يا رسول الله قبض الرجل قال فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أما رأيتما إعراضي عن الرجلين فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة فعلمت انه مات جائعا،ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا والله من الذين قال الله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون،قال ثم قال دونكم أخاكم قال فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه إلى القبر،قال فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس على شفير القبر قال فقال ألحدوا ولا تشقوا فان اللحد لنا والشق لغيرنا][1].

وعن إبراهيم التيمي[2] [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فلم يجبهم بشيء حتى جاء رجل فأسلم فلم يمكث إلا قليلا حتى جاهد في سبيل الله عز وجل فقتل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا منهم][3].

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٤ ص٣٥٩ – حديث: ١٩١٩٩، وأخرجه الهيثمي في الزوائد – ج١ ص٤١.

(٢) إبراهيم التيمي بن يزيد بن شريك أبو أسماء الكوفي من العباد مات سنة اثنتين وتسعين ولم يبلغ أربعين [راجع طبقات الحفاظ ج١ ص٣٦ رقم:٦٧]

(٣) العلامة سعيد بن منصور – سنن سعيد بن منصور ج٥ ص٣٠ – الآية ٨٢ قوله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون – الحديث: ٨٨٥

وعن أبي داود عن عبد الله بن سخبرة[1] قال [قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أُعطي فشكر،ومُنع فصبر،وظُلم فاستغفر،وظَلم فغفر،وسكت فقالوا يا رسول الله ماله قال أولئك لهم الأمن وهم مهتدون][2].

وقد ذكر الله جملة من الأنبياء والمرسلين في قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ۝ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ۝ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ۝ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾[3].ليبين أنهم جميعا من أهل الصفاء لله. مع العرفان له، والتوكل عليه.

❁ **يقول القرطبي** : « في الآية إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة، وأنهم لما قالوا له أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لسبك إياها، قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم فيغضب الكبير فيخبلكم، نرفع درجات من نشاء بالعلم والفهم والإمانة والملك»[4].

ثم قال جل شأنه : ﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾[5]. يقول القرطبي : « هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم قال مجاهد خلصناهم لنا، اختيارا منا هداية واصطفاء»[6].

---

(١) عبد الله بن سخبرة الأزدي ويقال الأسدي أسد شنوءة أبو معمر الكوفي سمع خبابا وعن عمر رضي الله عنهما روى عنه إبراهيم النخعي وعمارة بن عمير وعنه أنه قال سمعت بن مسعود رضي الله عنه يقول علمني النبي التشهد كما يعلمني السورة من القرآن. [التاريخ الكبير – ج٥ ص٩٧ رقم:٢٨٠]

(٢) العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج٤ ص١٤٠ – الحديث:٥١٥١ ، وأخرجه الحافظ نور الدين الهيثمي – مجمع الزوائد – ج١٠ ص٢٨٤ .

(٣) سورة الأنعام – الآيات ٨٣/٨٦ .

(٤) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ٧ ص: ٣٠ .

(٥) سورة الأنعام الآية ٨٧ .

(٦) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ٧ ص: ٣٣ .

بيد أن الله جل شأنه أخبر نبينا الخاتم ﷺ بأن هؤلاء الأنبياء قد اجتباهم الله فصاروا خاصين له وهداهم إلى الصراط المستقيم، ولو أن واحدا منهم قصر، لحبط عمله وبين سبحانه وتعالى أنهم اهتدوا حتى صار هديهم قدوة. قال تعالى : ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ۞ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ۞ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾[1].

◉ **يقول ابن كثير** : « إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كقوله تعالى: ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾[2]، وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله تعالى: ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[5].

وقوله تعالى "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة" أي انعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفا بالخليقة فإن يكفر بها أي بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على هذه الأشياء الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة[6]، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم، ومليين وكتابيين، فقد وكلنا بها قوما آخرين أي المهاجرين والأنصار واتباعهم إلى يوم القيامة

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٨٨/٩٠ .

(٢) سورة الزمر – الآية ٦٥ .

(٣) سورة الزخرف – الآية ٨١ .

(٤) سورة الأنبياء – الآية ١٧ .

(٥) سورة الزمر – الآية ٤ .

(٦) مال إلى هذا التخصيص الإمام ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والضحاك وقتادة والسدي.

ليسو بها بكافرين لا يجحدون منها شيئا ولايردون منها حرفا واحدا، بل يؤمنـون بجميعـها محكمها ومتشابهها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه »[١].

ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم "أولئك" يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه الذين هدى الله جعلهم من أهل الهدى لا غيرهم فبهداهم اقتده واتبع[٢]، وإذا كان ذلك أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به[٣].

وعن ابن عباس قال « نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم ممن أمر أن يقتدى بهم وقوله تعالى قل لا أسألكم عليه أجرا أي لا أطلب منكم على إبلاغي إيـاكم هـذا القرآن أجـرة، ولا أريد منكم شيئا إن هو إلا ذكر للعالمين أي يتذكرون به فيرشدوا مـن العمـى إلى الهـدى ومـن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان »[٤].

وأحسب أن من يطعن على التصوف الإسلامى سواء أكان فى التسمية أم فى المصـدر الذى قام عليه، قد جانبه الصواب، وأنه تعجل النتائج وابتسار الغايات على وجـه أو أنه نظر إلى سلوكيات المتصوفة المنتسبين للصوفية، أو الدخلاء عليـهم، الذيـن لا يملكـون شيئا من المعارف الإلهية، ولم يرتقوا المقامات، كما لم تفض عليهم الأحوال الإلهية، ومثله لا يكون حكمه مقبولا؛ لأن الصوفية الأعلام قد سبقهم أنبياء الله والمرسـلون فـى هـذا الطريـق، وسوف أعرض لذلك فى حياة سيدنا محمد ﷺ الخاتم فى الفصل التالى، إن شاء الله تعالى.

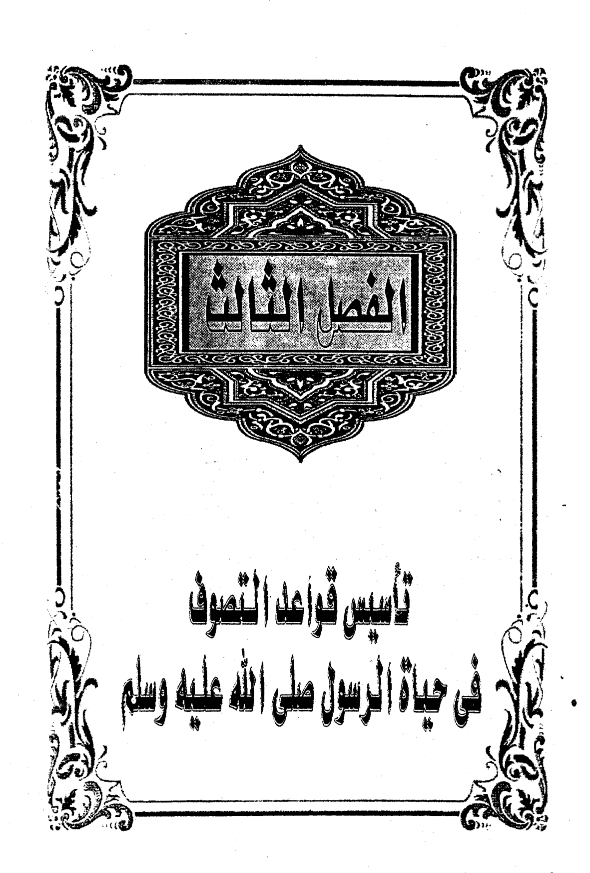
---

(١) الإمام الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج:٢ ص: ١٥٦ .

(٢) لأن الاقتداء بأهل الله صورة من صور الالتزام بشرع الله تعالى .

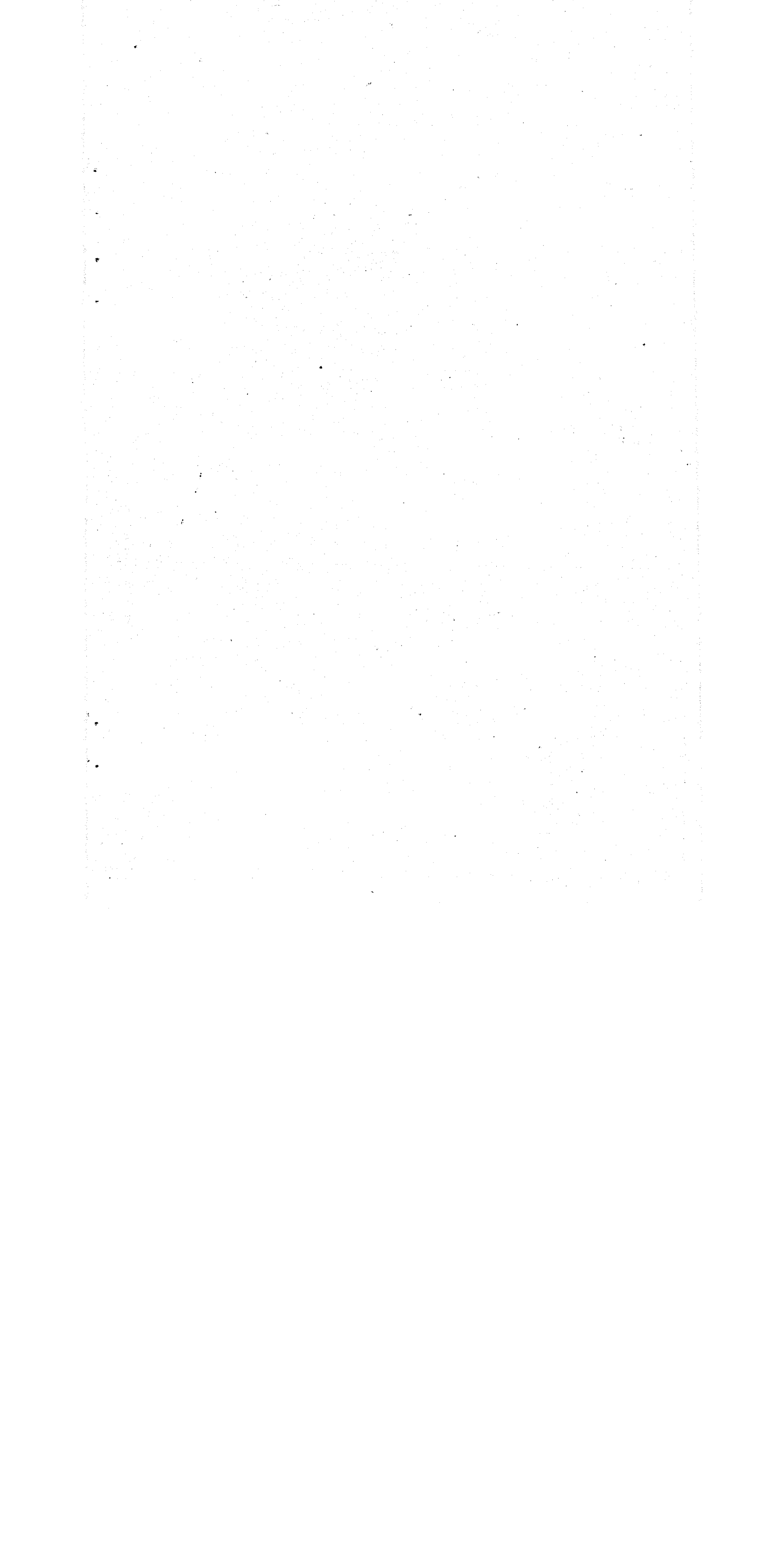
(٣) والله عز وجل بين ذلك في قوله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسـول اللـه أسـوة حسـنة لمن كـان يرجـو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [سورة الأحزاب – الآية ٢١].

(٤) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج:٢ ص١٥٧ .



الفصل الثالث

تأسيس قواعد التصوف
فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم



سبق الحديث عن بعض ملامح الصفاء الروحانى، والتخلية القلبية من كل ما سوى الله عز وجل وهو مفهوم التصوف فى الإسلام عن جملة الأنبياء والمرسلين[1]، وهو مفهوم التصوف الإسلامى، ولما كان الله تعالى قد أمر سيدنا محمداً أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2]، فقد دل الأمر على أن سيدنا محمداً ﷺ سيكون حاله كالذى مر ذكره عند من ألمحت إليهم من أنبياء الله ورسله الذين كان الحديث عنهم بمثابة تمهيد أو تقدمة لدراسة التصوف على الناحية العلمية والعملية فى حياة الرسول الخاتم – سيدنا محمد ﷺ – أما لماذا؟

فلأمور:

❊ **الأول: بيان أن الأنبياء هم الصفوة من خلق الله** ﴿كلا هدينا واجتبينا﴾ وأنهم الذين قد أختارهم الله من بين هذه الخلائق لحكمة يعلمها هو جل شأنه، فهو الخالق القادر الفاعل المختار. قال تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3]، وهو جل شأنه وعز كماله ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[4].

◉ **قال العلامة الطبرى**: « لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال رغير ذلك من حكمه فيهم لأنهم خلقه وعبيده وجميعهم في ملكه وسلطانه والحكم حكمه والقضاء قضاؤه لا شيء فوقه يسأله عما يفعل فيقول له لِمَ فعلت ولِمَ لَمْ تفعل وهم يسئلون يقول جل ثناؤه وجميع من في السماوات والأرض من عباده مسؤولون عن أفعالهم ومحاسبون على

---

(١) كل الأنبياء والمرسلين كانوا على الصفاء الروحانى، والنقاء الوجدانى، والتسليم الربانى، ولكنى ألتقط بعضا منهم على أمل أن يعيننى الله تعالى، حتى أكتب دراسة كاملة عن كل الأنبياء والمرسلين الخمسة والعشرين فى كتاب مستقل وما ذلك على الله بعزيز.

(٢) سورة الأحقاف – الآية ٩ .

(٣) سورة القصص – الآية ٦٨ .

(٤) سورة الأنبياء – الآية ٢٣ .

أعمالهم وهو الذي يسألهم عن ذلك ويحاسبهم عليه لأنه فوقهم ومالكهم وهم في سلطانه »[١].

وكان قتادة يقول: « لا يسئل عما يفعل بعباده وهم يسئلون عن أعمالهم؛ لأنه خالقهم فهو الذى يسألهم، وهم مخلوقون له، فلا يتوجهون عليه بالسؤال » [٢]، وكان ابن جريج يقول: « لا يسئل الخالق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن عملهم[٣]، وعن عبيد قال سمعت الضحاك يقول: لا يسئل الخالق عما يقضي في خلقه والخلق سؤولون عن أعمالهم »[٤].

❊ **الثاني : بيان أن الصفاء القلبي والنفسي الذي تميز به الأنبياء والمرسلون** يجيء من جنسه صفاء الأولياء، وأهل العرفان بالله رب العالمين؛ لأن الأنبياء ما تمايزوا عن سائر الخلائق إلاَّ بما اختصهم الله به، وهو الوحي والرسالة وما يستلزم ذلك من حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من الوقوع في المعاصي قصداً، أو التلبس بمنهى عنه شرعا، أما باقي الصفات البشرية فهم والناس سواء، مع كمالاتهم في كل ما فيه كمال بشرى.

۞ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٥].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير** : « يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم إنما أنا بشر مثلكم فمن زعم أنه كاذب فليأت بمثل ما جئت به فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما

---

(١) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج١٧ ص١٤ .

(٢) الشيخ محب الدين عبدالعاطى الجمل – نظرات فى العقيدة الإسلامية ص١٨٧ .

(٣) لأن سؤال الخالق فيه إنقاص من إرادته، وحد من قدرته، ومحاولة مرفوضة تقوم على مساواته بخليقته، وذلك محال في حق الله تعالى.

(٤) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج١٧ ص١٥ .

(٥) سورة الكهف – الآية ١١٠ .

سألتم من قصة أصحاب الكهف[1]، وخبر ذي القرنين[2]، مما هو مطابق في نفس الأمر لولا ما أطلعني الله عليه وإنما أخبركم أنما إلهكم الذي أدعوكم إلى عبادته إله واحد لا شريك له فمن كان يرجو لقاء ربه ويفوز بثوابه وجزائه الصالح فليعمل عملا صالحا موافقا لشرع الله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، لأن العمل المتقبل لا بد أن يكون خالصا لله صوابا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم »[3].

ولأن الصوفية لايبتغون بعملهم إلا الله، فإن الله تعالى يدفع الضر عنهم، أما غيرهم فإنهم يعملون بغية ثناء الناس، وفى الحديث الشريف عن ابن عباس قال: رجل يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد

---

(١) راجع القصة فى تفسير الخازن، أو تفسير الفخر الرازى أو الطبرى والقرطبى، ففيها تفاصيل كثيرة، وراجع الرسالات الكبرى للأستاذة سنية قراعة – طبع المكتب الدولى للصحافة والنشر.

(٢) وردت قصته فى سورة الكهف . قال تعالى: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ◦ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا ◦ فأتبع سببا ◦ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ◦ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ◦ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ◦ ثم أتبع سببا ◦ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ◦ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ◦ ثم أتبع سببا ◦ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ◦ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ◦ قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ◦ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ◦ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ◦ قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا﴾ [سورة الكهف ٨٣/٩٨]

(٣) الإمام الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص١٠٩ .

عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزلت هذه الآية فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا[1].

ومثل الإخلاص في العقيدة يأتي الإخلاص في العبادة، حيث جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال أنبئني عما أسألك عنه أرأيت رجلا يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج ويبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، فقال عبادة ليس له شيء إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن كان له معي شرك فهو له كله لا حاجة لي فيه [2].

وعن أبي سعيد الخدري قال كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا فكثر المحتسبون وأهل النوب فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه النجوى ألم أنهكم عن النجوى قال فقلنا تُبْنا إلى الله أي نبي الله إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا منه فقال ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي قال قلنا بلى قال الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان الرجل [3].

وعن شهر بن حوشب[4] قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت فأخذ يميني بشماله وشمال أبي الدرداء بيمينه فخرج يمشي

---

(١) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص٣٦٦ – الحديث: ٧٩٣٩ ، ج٢ ص١٢٢ الحديث: ٢٥٢٧ ، وأخرجه العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج١ ص٣١ – الحديث: ٣٢ ، ج: ٢ ص: ١٩٥ الحديث: ٢٠٧٨.

(٢) العلامة الحافظ بن أبي شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص١٤٠ – رقم: ٣٤٨١١ .

(٣) الإمام أحمد – مسند أحمد ج٣ ص٣٠ – الحديث: ١١٢٧٠، وأخرجه الهيثمي في الزوائد – ج١ ص٣١٥ . ج٩ ج٢٢ .

(٤) شهر بن حوشب : « أبو سعيد الأشعري الشامي مولى الصحابية أسماء بنت يزيد الأنصارية كان من كبار علماء التابعين ، حدث عن مولاته أسماء وعن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وعبد الله بن عمرو وأم سلمة وأبي سعيد الخدري وعدة وقرأ القرآن على ابن عباس ويرسل عن بلال وأبي ذر وسلمان وطائفة. وحدث عنه قتادة ومعاوية بن قرة والحكم بن عتيبة وأبو بشر جعفر.... وخلق سواهم. وعن حنظلة عن شهر قال عرضت القرآن على ابن عباس سبع مرات . وعن ابن أبي نهيك قال قرأت القرآن على ابن عباس وابن عمر وجماعة فما رأيت أحدا أقرأ من شهر بن حوشب . وكان مولده في خلافة عثمان رضي الله عنه وطلب العلم بعد الخمسين في أيام معاوية. ومات سنة إحدى عشرة ومئة . [راجع سير أعلام النبلاء ج٤ ص٣٧٢ – رقم١٥١].

بيننا ونحن نتناجى والله أعلم بما نتناجى به فقال عبادة بن الصامت إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين يعني من وسط قراء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبدأه وأحل حلاله وحرم حرامه ونزله عند منازله لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت[1]،

قال فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس[2] وعوف بن مالك[3] رضى الله عنهما، فجلسا إلينا فقال شداد إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: أنا أخاف عليكم من الشهوة الخفية والشرك.

فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء اللهم غفرا ألم يكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب قال:

---

(١) هذا يدل على أن سيدنا عبادة بن الصامت كان من أهل المكاشفة، وأنه تمتع بالفراسة الإيمانية. كما تمتع بالكرامة الإلهية.

(٢) شداد بن أوس ابن ثابت بن المنذر بن حرام أبو يعلى وأبو عبد الرحمن الأنصاري النجاري الخزرجيّ أحد بني مغالة وهم بنو عمرو بن مالك ابن النجار، وهو ابن أخي حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، من فضلاء الصحابة وعلمائهم نزل بيت المقدس، حدث عنه ابنه يعلى وأبو إدريس الخولاني وأبو أسماء الرحبي وأبو الأشعث الصنعاني وعبد الرحمن بن غنم وجبير بن نفير وكثير بن مرة وبشير بن كعب وآخرون. سكن الشام ومات ببيت المقدس سنة ثمان وخمسين في ولاية معاوية بن أبي سفيان » [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٦٠ رقم ٨٩ ، والثقات ج٣ ص١٨٥ رقم: ٦٢١ ، و مشاهير علماء الأمصار ج١ ص٥٠ رقم: ٣٢٥].

(٣) عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني ، ممن شهد فتح مكة وله جماعة أحاديث . وفي كنيته أقوال أبو عبد الرحمن وقيل أبو عبد الله وأبو محمد وأبو عمرو وأبو حماد، وكان من نبلاء الصحابة. حدث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولاني وماتا قبله بمدة وجبير ابن نفير وأبو إدريس الخولاني وراشد بن سعد ويزيد بن الأصم وشريح بن عبيد والشعبي وسالم أبو النضر وسليم بن عامر وشداد أبو عمار. مات رحمه الله سنة ثلاث وسبعين. [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٨٧ – رقم: ١٠١]

أما الشهوات الخفية فقد عرفتموها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها[١]، فما هذا الشرك الذي تخوفنا ياشداد ؟

فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلي لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق[٢]، أترون أنه قد أشرك قالوا نعم والله إن من صلى لرجل أو صام أو تصدق له لقد أشرك.

فقال شداد: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من صلى يرائي فقد أشرك،ومن صام يرائي فقد أشرك،ومن تصدق يرائي فقد أشرك قال عوف بن مالك فعند ذلك أفلا يعمد الله إلى ما أبتغي به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به[٣].

فقال شداد عند ذلك: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي من أشرك بي شيئا فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني][٤].

(١) قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [سورة آل عمران – الآية ١٤]

(٢) وهذه المظاهر بادية في أهل الرياء، الذين لا عمل لهم إلاَّ بغرض إرضاء الناس، فلا مكان له عند رب الناس.

(٣) كأنه يريد التعرف على ما إذا كان العمل الذى فيه الرياء يحبط الذى لم يكن فيه رياء أم لا يحبطه، وبالتالى عرف أن العمل متى وقع فيه شيء من الرياء، فقد أذهب به كله؛ لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلاَّ ما كان خالصا لوجهه الكريم.

(٤) الإمام أحمد – مسند أحمد ج٤ ص١٢٥ – الحديث:١٧١٨٠ ، وأخرجه العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج١ ص٣٥ – الحديث:٥٣ ، وأخرجه الهيثمى فى الزوائد ج١٠ ص٢٢١ . وأخرج العجلونى بلفظ « قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه (رواه أبو نعيم وابن ماجة عن أبي هريرة وهو عند مالك) ولفظه يقول الله تعالى من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا أغنى الأغنياء عن الشركة زاد ابن ماجة بعد قوله فهو له كله وأنا منه برئ » [كشف الخفاء ج٢ ص١٣٢ الحديث: ١٨٩٥]

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى فقيل له ما يبكيك قال شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبكاني سمعت رسول الله يقول أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية قلت يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك قال نعم أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكن يراؤن بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه [1].

وعن محمود بن لبيد[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم أذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فأنظروا هل

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٤ ص١٢٣ – الحديث: ١٧١٦١ ، وأخرجه الطبراني – المعجم الكبير ج٧ ص٢٨٤ – الحديث: ٧١٤٤، والمعجم الأوسط ج٤ ص٢٨٤ – الحديث: ٤٢١٣ وأخرج الطيالسي « عن شداد بن أوس قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول من صلى مرائيا فقد اشرك ومن صام مرائيا فقد اشرك ومن تصدق مرائيا فقد اشرك قال عوف بن مالك أفلا يعمد الله الى ما كان له من ذلك فيقبله ويدع ما سوى ذلك قال فقال شداد انا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل انا خير شريك أو قسيم من أشرك بي فعمله قليله وكثيره لشريكي وأنا منه برئ » [العلامة الطيالسي – مسند الطيالسي ج١ ص١٥٢ – الحديث: ١١٢٠]، وأخرج الدار قطني عن الضحاك بن قيس الفهري قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله عز وجل فإن الله لا يقبل إلا ما أخلص له ولا تقولوا هذا لله وللرحم فأنها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء » [سنن الدارقطني ج١ ص٥١ الحديث: ٣]، وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن الله عز وجل أنه قال [أنا خير الشركاء فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » [أخرجه أحمد – مسند الإمام أحمد – الحديث: ٥٤٢٨]

(٢) محمود بن لبيد بن رافع بن امرئ القيس الأشهلي له صحبة مات سنة ثلاث وتسعين، وأكثر ما يروى سمعه من أصحاب رسول الله أمه بنت محمد بن مسلمة الأنصاري، وأكثر ما يروى سمعه من أصحاب رسول الله أمه بنت محمد بن مسلمة الأنصاري » [راجع جامع التحصيل ج١ ص٢٧٥ رقم: ٧٤١، وراجع مشاهير علماء الأمصار ج١ ص٢٨ – رقم: ١٣٠١ وراجع التاريخ الكبير ج٧ ص٤٠٢ رقم: ١٧٦٢].

تجدون عندهم جزاء][1]. وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به][2].

وعن أنس رضي الله عنه قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة فيقول الله ألقوا

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٥ ص٤٢٨ – الحديث: ٢٣٦٨٠ ، ج٥ ص٤٢٩ الحديث: ٢٣٦٨٦، وأخرجه العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج١ ص٣٤ – الحديث: ٥٠ وأخرج الطبرانى بلفظ « عن رافع بن خديج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء يقال لمن يفعل ذلك إذا جاء الناس بأعمالهم انهبوا إلى الذين كنتم تراؤن فاطلبوا ذلك عندهم » [المعجم الكبير ج٤ ص٢٥٣ – الحديث: ٤٣٠١]، وأخرج البزار عن محمد بن السائب في قوله وتعالى " من كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " عن عبد الرحمن بن غنم « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي فقال معاذ اللهم غفرا فقال يا معاذ أما سمعت رسول الله يقول من صام رياء فقد أشرك ومن تصدق رياء فقد أشرك ومن صلى رياء فقد أشرك قال بلى ولكن رسول الله تلا هذه الآية من كان يرجوا لقاء ربه الأية فشق ذلك على القوم واشتد عليهم فقال ألا أفرجها عنكم قالوا بلى فرج الله عنك الهم والأذى فقال هي مثل الأية التي في الروم وما أتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله الأية من عمل عملا رياء لم يكتب له لم يكتب عليه لا له ولا عليه» [مسند البزار ج: ٧ ص١٠٦ – الحديث: ٢٦٦٣] وأخرج الترمذى وابن ماجة وعن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » [الإمام الترمذي – سنن الترمذى – الحديث: ٣١٥٤، وأخرجه ابن ماجه – سنن ابن ماجة – الحديث: ٤٢٠٣]

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٨٩ – [٥[باب من أشرك في عمله غير الله وفي نسخة باب تحريم الرياء – الحديث: ٢٩٨٦] ، والمراد بـ : [(من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به) قال العلماء: معناه من راءى بعمله وسمعه الناس – ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره، سمع الله به يوم القيامة الناس وفضحه. وقيل: معناه من سمع بعيوب الناس وأذاعها، أظهر الله عيوبه. وقيل: أسمعه المكروه. وقيل: أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه، ليكون حسرة عليه. وقيل: معناه من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس، وكان ذلك حظه منه]. (راجع صحيح مسلم بشرح النووى – الحديث رقم: ٤٧ من نفس الباب) وروى البخارى « عن سفيان عن سلمة قال سمعت جندبا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ولم أسمع أحدا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم غيره فدنوت منه فسمعته يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به » [الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص٢٣٨٣ – [٣٦] باب الرياء والسمعة – الحديث: ٦١٣٤]. وروى أحمد وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال من يرائي يرائي الله به ومن يسمع يسمع الله به » [الإمام أحمد – مسند الإمام أحمد – الحديث: ٣٤٠]

هذا وأقبلوا هذا فتقول الملائكة يا رب والله ما رأينا منه إلا خيرا فيقول إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي][١]. وعن ابن مسعود رضي الله قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك إستهانة إستهان بها ربه تبارك وتعالى][٢]. وقال ابن كثير : « وهذه الآية الكريمة لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هي مثبتة محكمة»[٣].

* **الثالث : بيان أن إتباع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم أب البشر عليه السلام** حتى سيدنا محمد الخاتم ﷺ هى غاية ينشدها المسلم، ويبحث عنها؛ لأن الله تعالى ذكر رسوله الكريم معهم، وبيّن جل شأنه أنهم جميعا قد هداهم الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤]. ومادام الله قد إختارهم لذاته، حتى صاروا المخلَصين عنده، فإن من اقتدى بالأنبياء والمرسلين؛ صار هو الآخر ممن هداهم الله رب العالمين، ومن شأن أهل الهداية أن يرزقهم الله ما تقر به عيونهم، وتطمئن به قلوبهم فى الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾[٥].

۞ **يقول القرطبى** : « يهدي الله الذين آمنوا، وتطمئن قلوبهم بذكر الله حيث تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن، على الدوام بذكر الله باللسان والجنان، حتى

---

(١) الحافظ أبو بكر البزار – مسند الزار – الحديث: ٣٤٣٥ ، وعن عبد الله بن قيس الخزاعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قام رياء وسمعة لم يزل في مقت الله حتى يجلس.[العلامة الحافظ الهيثمى – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – ج١٠ ص٢٢٣].

(٢) العلامة عبدالرزاق – مصنف عبد الرزاق ج٢ ص٣٦٩ – الحديث: ٣٧٣٨ ، وأخرجه أبو يعلى – مسند أبي يعلى ج٩ ص٥٤ – الحديث: ٥١١٧ ، والعلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج١ ص٣٣ الحديث: ٤٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج: ٣ ص١١١ .

(٤) سورة الأنعام – الآية ٩٠ .

(٥) سورة الرعد – الآيتان ٢٨/٢٩ .

يطغى ذلك على البيان أيضا، وذلك بذكر فضله وإنعامه كما توجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه، منهم الذين يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة، ألا بذكر الله تطمئن القلوب[١]، أي قلوب المؤمنين قال ابن عباس هذا في الحلف فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه، فهم الذين يطمئنون بذكر الله وطاعته، حيث يقع لهم ثواب الله »[٢].

والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم من الخير الكثير، روى أنه جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فاكهة الجنة قال فيها شجرة تُدعى طوبى فقال أي شجرنا تشبه قال ليس تشبه شجرا من شجر ارضك ولكن أتيت الشام قال لا يا رسول الله قال انها شجرة بالشام تدعى الجميزة تشتد على ساق ثم ينتشر اعلاها قال ما عظم أصلها قال لو ارتحلت جذعة من إبل أهلِكَ ما احطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتاها هرما][٣].

وعن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله تعالى لها تفتقي لعبدي عما شاء فتفتق له عن فرس بسرجه ولجامه هيئته كما شاء وتفتق عن الرحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء وعن النجائب والثياب[٤].

وهذه الأقوال متقاربة لأن طوبى فُعلى من الطيب أي العيش الطيب لهم وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطيب وقال الزجاج طوبى فعلى من الطيب وهي الحالة المستطابة لهم[٥].

---

(١) الشيخ مختار بن نصار السامانى – ذكر الله ص٥٩ – طبعة دار المنتصر بالله – تركيا ١٣٣٧هـ.

(٢) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – ج٩ ص٣١٥ .

(٣) العلامة ابن حبان صحيح ابن حبان ج١٦ ص٤٢٩/٤٣٠ – ذكر الأخبار عما تشبه شجرة طوبى من أشجار الدنيا – الحديث: ٧٤١٤

(٤) وعن أبي أمامة الباهلي قال طوبى شجرة في الجنة ليس منها دار إلا وفيها غصن منها ولا طير حسن إلا هو فيها ولا ثمرة إلا هي منها وقد قيل إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ثم تنقسم فروعها على منازل أهل الجنة كما انتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا.

(٥) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – ج٩ ص٣١٦. والأصل طيبى فصارت الياء واوا لسكونها وضم ماقبلها كما قالوا موسر وموقن.

وعن معاوية بن قرة[1] عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحُلي والحُلَل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة][2]. وعن أبي سعيد الخدري [عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال له رجل يا رسول الله ـ طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها][3].

وقال أبو جعفر محمد بن علي: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى طوبى لهم وحسن مآب قال شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة،ثم سئل عنها مرة أخرى فقال شجرة أصلها في دار علي وفروعها في الجنة. فقيل له يا رسول الله سئلت عنها فقلت أصلها في داري وفروعها في الجنة ثم سئلت عنها فقلت أصلها في دار علي وفروعها في الجنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن داري ودار علي غدا في الجنة واحدة في مكان واحد، وعنه صلى الله عليه وسلم هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دوركم إلا مدلى فيها غصن منها وحسن مآب آب إذا رجع وقيل تقدير الكلام الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم »[4].

---

(١) معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رئاب المزني أبو إياس من فقهاء التابعين ودهاة أهل البصرة، سمع أباه وأنس بن مالك روى عنه شعبة والأعمش قال موسى بن إسماعيل عن مطر بن عبد الرحمن قال حدثني معاوية بن قرة قال رأيت عدة من أصحاب النبي كثيرة منهم خمسة وعشرون من مزينة، مات سنة ثلاث عشرة ومائة. [راجع مشاهير علماء الأمصار ج١ ص٩٢رقم: ٦٧٤ ، والتاريخ الكبير ج٧ ص٣٣٠ رقم:١٤١٣]

(٢) العلامة العجلوني – كشف الخفاء ج٢ ص٦٣ – الحديث قم:١٦٨٣ وقال ابن عباس طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار علي وفي دار كل مؤمن منها غصن. وأخرج أبو نعيم عن شهر بن حوشب قال « طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة » [أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء ج٦ ص٦١].

(٣) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص٤٢٩ – ذكر الأخبار عن اسم هذه الشجرة التي تقدم نعتنا لها – الحديث:٧٤١٣ . وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح قال « طوبى شجرة في الجنة لو أن راكبا ركب حقة أو جذعة فأطاف بها ما بلغ الموضع الذي ركب فيه حتى يقتله الهرم » [مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص٢٠٥ – رقم: ٣٥٣٦٥].

(٤) الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج: ٩ ص: ٣١٧/٣١٥ .

وعن مغيث بن سمي[١] في قوله عز وجل "طوبى لهم وحسن مآب" قال: « شجرة في الجنة ليس من أهل دار إلا يظلهم غصن من أغصانها فيها من ألوان الثمر ويقع عليها طير أمثال البخت فإذا اشتهى الرجل طائرا دعاه حتى يقع على خوانه فيأكل من أحد جانبيه شواء والآخر قديدا ثم يطير فيذهب »[٢].

وعن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى لو يسخر الراكب الجواد يسير في ظلها لسار فيه مائة عام ورقها برود خضر وزهرها رياط[٣] صفر وأفنانها سندس وإستبرق وثمرها حلل وصمغها زنجبيل وعسل وبطحاؤها ياقوت أحمر وزمرد أخضر وترابها مسك وعنبر وكافور أصفر وحشيشها زعفران مونع والألنجوج[٤] يتأججان من غير وقود يتفجر من أصلها السلسبيل والمعين والرحيق وأصلها مجلس من مجالس أهل الجنة يألفونه ومتحدث يجمعهم،فبينا هم يوما في ظلها يتحدثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجبا جبلت من الياقوت ثم نفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من ذهب كأن وجوهها المصابيح نضارة وحسنا وبرها خز أحمر ومرعزي أبيض مختلطان لم ينظر

---

(١) مغيث بن سمي الأوزاعي أبو أيوب الشامي روى عن عمر بن الخطاب وأبي مسعود وأبي هريرة وابن الزبير وكعب الأحبار وغيرهم وعنه نهيك بن يريم الأوزاعي وزيد بن واقد وعمير بن ربيعة الدمشقي وحسان بن أبي الأشرس وجبلة بن سحيم ومحمد بن يزيد البرجمي وعاصم بن بهدلة وغيرهم قال الغلابي عن بن معين كان صاحب كتب كأبي الخلد ووهب وقال يعقوب بن سفيان شامي ثقة، ذكره ابن حبان في الثقات وذكره ابن سميع في الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام وقد أدرك الزبير وكعبا، وعنه أنه قال: أدركت ألفا من أصحاب النبي. [راجع تهذيب التهذيب ج١٠ ص٢٢٨ رقم: ٤٦٠ ، والتاريخ الكبير ج٨ ص٢٤ رقم: ٢٠٢٠]

(٢) العلامة سعيد بن منصور – سنن سعيد بن منصور ج: ٥ ص: ٤٣٥ – رقم: ١١٧٠ .

(٣) الرياط : بالياء المثناة تحت جمع ريطة وهي كل ملاءة تكون نسجا واحدا ليس لها لفقين وقيل ثوب لين رقيق حكاه ابن السكيت والظاهر أنه المراد في هذا الحديث. [الترغيب والترهيب ج٤ ص٣٠٦]

(٤) الألنجوج بفتح الهمزة واللام وإسكان النون وجيمين الأولى مضمومة هي عود البخور، وزنه ومعناه، بزاي وحاء مهملة مفتوحتين معناه تنحت لهم عن الطريق. أنصبتم أي أتعبتم والنصب التعب. [الترغيب والترهيب ج٤ ص٣٠٦]

الناظرون إلى مثلها حسنا وبهاء ذلل من غير مهابة،نُجب من غير رياضة،عليها رحائل ألواحها من الدر والياقوت،مفضضة باللؤلؤ والمرجان صفائحها من الذهب الأحمر،ملبسة بالعبقري والأرجوان فأناخوا لهم تلك النجائب.

ثم قالوا لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويستزيركم لتنظروا إليه وينظر إليكم وتكلمونه ويكلمكم وتحيونه ويحييكم ويزيدكم من فضله ومن سعته إنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم،فيتحول كل رجل منهم على راحلته ثم ينطلقون صفا معتدلا لا يفوت شيء منه شيئا،ولا تفوت أذن ناقة أذن صاحبتها،ولا يمرون بشجرة من أشجار الجنة إلا بثمرها وزحلت لهم عن طريقهم كراهية أن ينثلم صفهم أو تفرق بين الرجل ورفيقه فلما دفعوا إلى الجبار تبارك وتعالى أسفر لهم عن وجهه الكريم،وتجلى لهم في عظمته العظيمة تحيتهم فيها السلام،قالوا ربنا أنت السلام ومنك السلام ولك حق الجلال والإكرام،فقال لهم ربهم إني أنا السلام ومني السلام ولي حق الجلال والإكرام فمرحبا بعبادي الذين حفظوا وصيتي،ورعوا عهدي وخافوني بالغيب،وكانوا مني على كل حال مشفقين،قالوا أما وعزتك وجلالك وعلو مكانك ما قدرناك حق قدرك ولا أدينا إليك كل حقك فائذن لنا بالسجود لك فقال لهم ربهم تبارك وتعالى إني قد وضعت عنكم مؤونة العبادة وأبحت لكم أبدانكم فطالما أنصبتم الأبدان وأعنيتم[1] الوجوه فالآن أفضيتم إلى روحي ورحمتي وكرامتي فسلوني ما شئتم وتمنوا علي أعطكم أمانيكم فإني لن أجزيكم اليوم بقدر أعمالكم ولكن بقدر رحمتي وكرامتي وطولي وجلالي وعلو مكاني وعظمة شأني.

فما يزالون في الأماني والمواهب والعطايا حتى إن المقصر منهم ليتمنى مثل جميع الدنيا منذ يوم خلقها الله عز وجل إلى يوم أفناها قال ربهم لقد قصرتم في ورضيتم بدون ما يحق لكم فقد أوجبت لكم ما سألتم وتمنيتم وزدتكم على ما قصرت عنه أمانيكم فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم فإذا بقباب في الرفيع الأعلى وغرف مبنية من الدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت وفرشها من سندس وإستبرق ومنابرها من نور يثور من أبوابها وأعراضها نور كشعاع الشمس مثل الكوكب الدري في النهار المضيء وإذا قصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها

---

(١) وأعنيتم هو من قوله تعالى وعنت الوجوه للحي القيوم (طه ١١١) أي خضعت وذلت والحكمة بفتح الحاء والكاف هي ما تقاد به الدابة كاللجام ونحوه. [الترغيب والترهيب ج٤ ص٣٠٧]

فلولا أنه سخر لالتمع الأبصار فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر مموه بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قواعدها وأركانها من الياقوت، وشُرَفُها قباب اللؤلؤ، وبروجها غرف المرجان، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من الياقوت الأبيض منفوخ فيها الروح بجنبها الولدان المخلدون وبيد كل وليد منهم حَكَمة برذون ولجمها وأعنّتها من فضة بيضاء متطوقة بالدر والياقوت وسرجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم وتنظر رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا فيها جميع ما تطول به ربهم عليهم مما سألوه وتمنوا وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربع جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاختان وفيهما من كل فاكهة زوجان وحور مقصورات في الخيام فلما تبوأوا منازلهم واستقر بهم قرارهم قال لهم ربهم هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا قالوا نعم رضينا فارض عنا قال برضاي عنكم حللتم داري ونظرتم إلى وجهي وصافحتكم ملائكتي فهنيئا هنيئا عطاء غير مجذوذ[1] ليس فيه تنغيص ولا تصريد فعند ذلك قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وأحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب إن ربنا لغفور شكور»[2].

ومادام ﷺ هو الخاتم ورسالته هى الرسالة الخاتمة، فمن المنطقى الإعلان بأن أمته هى الأخرى خاتمة الأمم لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا

---

(١) المجذوذ بجيم وذالين معجمتين هو المقطوع. التقليل كأنه قال عطاء ليس بمقطوع ولا منغص ولا.

[الترغيب والترهيب ج٤ ص٣٠٨]

(٢) العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج: ٤ ص: ٣٠٦/٣٠٨ – الحديث: ٥٧٤١، وقال: رواه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم هكذا معضلا ورفعه منكر والله أعلم.

عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

۞ **يقول صاحبا الجلالين**: « كما هديناكم إلى الله تعالى جعلناكم يا أمة محمد أمة وسطا خيارا عدولا لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، أن رسلهم بلّغتهم، ويكون الرسول عليكم شهيدا، أنه بلغكم وما صيرنا القبلة لك الآن الجهة التي كنت عليها أولا وهي الكعبة[٢]، لنعلم علم ظهور من يتبع الرسول فيصدقه ممن ينقلب على عقبيه ويرجع إلى الكفر شكّاً في الدين وظنا أن النبي صلى الله عليه وسلم في حيرة من أمره[٣]، والتولية إليها لكبيرة شاقة على الناس إلا على الذين هدى الله منهم، وما كان الله ليضيع إيمانكم القائم في صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليه لأن سبب نزولها السؤال عمن مات قبل التحويل إن الله بالناس من المؤمنين لرؤوف رحيم في عدم إضاعة أعمالهم»[٤]؛ لأنهم أقاموها على شرع الله مع نبيه الخاتم ﷺ، ومن ثم فلن يضيعها عليهم مادامت على أصول الشرع كانت قائمة.

وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيدعو قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد. فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فذلك قوله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ لأن الوسط هو العدل، فتدعون

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٤٣ .

(٢) وكان صلى الله عليه وسلم يصلي إليها فلما هاجر أمر باستقبال بيت المقدس تألفا لليهود فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول إلا. [تفسير الجلالين – ج١ ص٣٠]

(٣) حيث كان قد ارتد جماعة بعد تحويل القبلة، وفشا خبرهم بين الناس، فكان للرسول ﷺ معهم الموقف الذى شرعه الله. [راجع فى هذا الشأن: تفسير الفخر الرازى – مفاتيح الغيب، وتفسير المنار – القرآن الحكيم].

(٤) الإمامان جلال الدين المحلى – وجلال الدين السيوطى – تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٣٠

تشهدون له بالبلاغ ونشهد عليكم][1]. وتلك شهادة من الله تعالى لأمة سيدنا محمد ﷺ بأنهم عدول. وأنهم على الباطل لا يقرون. ولا به يرتضون. إنما أمرهم إلى الله وعليه يتوكلون. فعن أبي سعيد قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيدعى محمد وأمته. فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا. فذلك قوله ﴿وكذلك جعلناكم امة وسطا﴾ قال: عدلا ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾][2].

وعن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ["أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا وَدّ أنه مِنّا. وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه". وعن أبي سعيد في قوله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن الرسل قد بلغوا ﴿ويكون الرسول عليكم شهيد﴾ بما عملتم][3].

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٣ ص٣٢ – الحديث: ١١٣٠١ ، وأخرجه الحافظ ابن أبى شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص٣١٠ – الحديث: ٣١٦٨٤. وأخرج البخارى وغيره بلفظ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا فذلك قوله جل ذكره وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا والوسط العدل » [الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٦٣٢ – الحديث: ٤٢١٧ . والترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص٢٠٧ – الحديث: ٢٩٦١ ، وابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٤ ص٣٩٧ – ذكر الإخبار بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم وأمته يكونون شهداء على سائر الأمم في القيامة – الحديث: ٦٤٧٧ . وأبو يعلى – مسند أبي يعلى ج٢ ص٣٩٧ – الحديث: ١١٧٣.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٣ ص٥٨ – الحديث: ١١٥٧٥.

(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه. وأخرج الطيالسي وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس قال: مروا بجنازة فأثني عليه خير فقال النبي صلى الله عليه وسلم "وجبت وجبت وجبت. ومر بجنازة فأثني عليه بشر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت فسأله عمر...؟ فقال: من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة. ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض. أنتم شهداء الله في الأرض. أنتم شهداء الله في الأرض. زاد الحكيم الترمذي ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ ". وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر. أنه مرت به جنازة فأثني على صاحبها خيرا فقال: وجبت وجبت. ثم مر بأخرى فأثني شرا فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: وما وجبت؟ قال: قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. فقلنا: وثلاثة...؟ فقال: وثلاثة. فقلنا: واثنان...؟ فقال: واثنان. ولم نسأله عن الواحد".

وعن جابر قال ["شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة في بني سلمة وكنت إلى جانبه، فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنعم المرء كان، لقد كان عفيفا مسلما، وأثنوا عليه خيرا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت الذي تقول؟ فقال: يا رسول الله بدا لنا والله أعلم بالسرائر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجبت. قال: وكنا معه في جنازة رجل من بني حارثة أو من بني عبد الأشهل، فقال رجل: بئس المرء ما علمنا إن كان لفظاً غليظا إن كان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت الذي تقول؟ فقال: يا رسول الله الله أعلم بالسرائر. فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال: وجبت، ثم تلا رسول الله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ "][1].

وعن أنس قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون منه إلا خيرا إلا قال الله تعالى وتبارك قد قبلت قولكم أو قال شهادتكم وغفرت له ما لا تعلمون][2].

وعن أبي هريرة [عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل قال ما من عبد مسلم يموت يشهد له ثلاثة أبيات من جيرانه الأدنين بخير الا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادي على ما علموا وغفرت له ما أعلم][3].

---

(١) الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٢٩٤ – الحديث: ٣٠٦١. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال "أتي النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة يصلي عليها فقال الناس: نعم الرجل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت. وأوتي بجنازة أخرى فقال الناس: بئس الرجل. فقال: وجبت. قال أبي بن كعب: ما قولك؟ فقال: قال تعالى ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ ".

(٢) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص٥٣٤ – الحديث: ١٣٩٨ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج٣ ص٢٤٢ – الحديث: ١٣٥٦٥ ، وأخرجه أبو يعلى – مسند أبي يعلى ج٦ ص١٩٩ الحديث: ٣٤٨١، وأخرجه العلامة الحافظ الهيثمي – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – ج٣ ص٤ ، وأخرج أحمد وابن ماجة والطبراني والبغوي والحاكم في الكنى والدارقطني في الأفراد والحاكم في المستدرك والبيهقي في سننه عن أبي زهير الثقفي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبناوة يقول"يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم. قال: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيء، أنتم شهداء الله في الأرض".

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٢ ص٣٨٤ – الحديث: ٨٩٧٧ ، ج٢ ص٤٠٨ – الحديث: ٩٢٨٤.

وعن سلمة بن الأكوع[1] قال ["مر على النبي صلى الله عليه وسلم بجنازة رجل من الأنصار. فأثني عليها خيرا فقال: وجبت. ثم مر عليه بجنازة أخرى. فأثني عليها دون ذلك فقال: وجبت. فقال: يا رسول الله وما وجبت؟ قال: الملائكة شهود الله في السماء وأنتم شهود الله في الأرض"][2].

وعن كعب قال: أعطيت هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطها إلا الأنبياء، كان النبي يقال له: بَلِّغ ولا حرج، وأنت شهيد على قومك، وادع أجبك. وقال لهذه الأمة ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾[3]، وقال ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، وقال ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾[4]. وعن زيد بن أسلم أن الأمم يقولون يوم القيامة: والله لقد كادت هذه الأمة أن يكونوا أنبياء كلهم لما يرون الله أعطاهم[5].

وروى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [إذا جمع الله عباده يوم القيامة كان أول من يدعى اسرافيل، فيقول له ربه: ما فعلت في عهدي هل بلغت عهدي؟

---

(١) سلمة بن الأكوع وهو « سملة بن عمرو بن الأكوع وقد قيل ان الأكوع لقب كنيته أبو عامر كان من أشد الناس بأسا وأشجعهم قلبا وأقواهم راجلا أعطاه رسول الله في غزوة ذات قرد سهم الراجل والفارس معا ومات بالمدينة سنة أربع وسبعين » [راجع مشاهير علماء الأمصار ج١ ص٢٠ – رقم: ٨٠].

(٢) العلامة الحافظ ابن أبي شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٣ ص٤٦ – [١٧١] في الجنازة يمر بها فيثني عليها خيرا – ١١٩٩٤ ، وأخرج ابن أبي شيبة بلفظ عن الحسن قال « مرت جنازة برسول الله صلى الله عليه وسلم فأثني عليها بخير حتى تتابعت الألسن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت قال ومرت به جنازة فأثني عليها بشر حتى تتابعت الألسن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله قلت في الجنازة الأولى حين أثني عليها خيرا وجبت وقلت في الثانية كذلك فقال هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار أنتم شهود الله في الأرض مرتين أو ثلاثا » [مصنف ابن أبي شيبة ج٣ ص٤٦ – [١٧١] في الجنازة يمر بها فيثني عليها خيرا – الحديث: ١١٩٩٣]

(٣) سورة الحج – الآية ٧٨ .

(٤) سورة غافر – الآية ٦٠ .

(٥) العلامة جلال الدين السيوطي – الدر المنثور في التفسير بالمأثور – الطبعة الثانية – طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

فيقول: نعم، رب قد بلغته جبريل. فيدعى جبريل فيقال: هل بلغك اسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم. فيخلى عن اسرافيل، ويقول لجبريل: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم، قد بلغت الرسل، فتدعى الرسل فيقال لهم: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم. فيخلى جبريل، ثم يقال للرسل: هل بلغتم عهدي؟ فيقولون: نعم. بلغناه الأمم. فتدعى الأمم فيقال لهم: هل بلغتكم الرسل عهدي؟ فمنهم المكذب ومنهم المصدق. فتقول الرسل: إن لنا عليهم شهداء. فيقول: من؟ فيقولون: أمة محمد. فتدعى أمة محمد فيقال لهم: أتشهدون أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فيقولون: نعم. فتقول الأمم: يا ربنا كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله: كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولا، وأنزلت علينا كتابا وقصصت علينا فيه أن قد بلغوا، فنشهد بما عهدت إلينا. فيقول الرب: صدقوا، فذلك قوله ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ والوسط العدل ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾][1]، وليست المحاورة التى تدور بين الله تعالى وأهل الإيمان من الأمة الخاتمة، إلاّ لبيان منزلة الصالحين من أهل الإسلام عند رب العالمين.

وعن عكرمة قال: يقال: يا نوح قد بلغت؟ قال: نعم يا رب. قال: فمن يشهد لك؟ قال: رب أحمد وأمته. قال: فكلما دعي نبي كذّبه قومه شهدت له هذه الأمة بالبلاغ، فإذا سأل عن هذه الأمة لم يسأل عنها إلا نبيها. وعن حبان بن أبي جبلة قال: بلغني أن ترفع أمة محمد على كوم بين يدي الله تشهد للرسل على أممها بالبلاغ، فإنما يشهد منهم يومئذ من لم يكن في قلبه احنة على أخيه المسلم[2]،

---

(١) العلامة جلال الدين السيوطى – الدر المنثور فى التفسير بالمأثور – الطبعة الثانية – طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. وقال: أخرجه ابن المبارك في الزهد وابن جرير عن حبان بن أبي جبلة – وعن أبي بن كعب في الآية قال ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح، وعلى قوم هود، وعلى قوم صالح، وعلى قوم شعيب، وعندهم أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم. قال أبو العالية: وهي في قراءة أبي (لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة). وعن عطاء في قوله ﴿ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ قال: يشهد أنهم قد آمنوا بالحق إذ جاءهم وقبلوه وصدقوا به. وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير قال: يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بإذنه ليس معه أحد، فتشهد له أمة محمد أنه قد بلغهم.

(٢) العلامة جلال الدين السيوطى – الدر المنثور فى التفسير بالمأثور – الطبعة الثانية – طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وبالتالى فإن المسلم الذى يموت وفى قلبه حقد على أحد أو حسد له، أو شيء من غل، فإن الله تعالى لا يقبل شهادته، ولا يختاره بها، لأن مقام الشاهد فى الآخرة من المقامات التى لا تنال إلاّ برضوان الله تعالى، ولا تكون إلاّ لمن على شرعه استقام، ودليل ذلك ما روى عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله [لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة][1].

من ثم فإن ممارسة الشرعيات على الناحية العملية السلوكية بجانب العلمية الاعتقادية. تعتبر أمراً يجب فيه الاتباع[2]. ويحرم الابتداع[3]. وأن يقوم ذلك على الدليل لا على التقليد، ولا يكون الدليل إلاّ مع من سلك طرائق المعرفة مستخدما قدراته العقلية، وإمكانياته الذهنية، والملكات التى منحها إياه رب البرية، مع الأخذ

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٠٦ – الحديث:٢٥٩٨ . وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص١١١ – الحديث:١٤٩.

(٢) الاتباع هو التزام ما شرعه الله تعالى فى كتبه، وجاء على ألسنة رسله، ففى الأثر : « عن عبد الله بن مسعود قال اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم وكل بدعة ضلالة » [الطبرانى – المعجم الكبير ج٩ ص١٥٤ – رقم: ٨٧٧٠ ، والدارمي – سنن الدارمي ج١ ص٨٠ رقم: ٢٠٥ ، والهيثمى – مجمع الزوائد ج١ ص١٨١ – باب الإقتداء بالسلف . ورواه العجلونى – كشف الخفاء ج١ ص٣٤٤ « عن أبي مسعود من قوله ولا تستشرفوا البلية فانها مولعة بمن يشرف لها ان البلاء مولع بالكلم فاتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » .

(٣) ذهب العلماء إلى أن البدعة لغة: ما كان مخترعا على غير مثال سابق، وشرعا ما أحدث على خلاف أمر الشارع، وتنقسم إلى قسمين، وكل منهما أنواع من حيث الحكم الشرعى والعقلى. فمن ناحية الحكم الشرعى تتنوع إلى خمسة أنواع.

الأول: الواجب وهو ما تناولته قواعد الوجوب وأدلته من الشرع، كتدوين القرآن الكريم والشرائع، إذا خيف عليها الضياع. فإن التبليغ لمن بعدنا من القرون واجب إجماعا وإهمال ذلك حرام إجماعا، وما لا يتأتى الواجب المطلق إلا به، فهو واجب.

وثانيها: حرام: وهو كل بدعة تناولتها قواعد التحريم، وأدلته الشرعية كالمكوس، وتقديم الجهال على العلماء وتولية المناصب الشرعية من لا يصلح لها بطريق التواتر، وجعل المستند فى ذلك كون المنصب كان لابيه وليس فيه أهلية له.

وثالثها [illegible] وهو ما تناولته قواعد الندب وأدلته كصلاة التراويح جماعة، وإقامة صور الأئمة والقضاة وولاة الأمور على خلاف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم...، وأحداث الربط والمدارس وكل إحسان لم يعهد فى الزمان الأول والكلام فى دقائق التصوف.

ورابعها: مكروه وهو ما تناولته أدلة الكراهة من الشريعة وقواعدها كتخصيص الأيام الفاضلة على غيرها بنوع من العبادة، وزخرفة المساجد، وتزويق المصاحف.

وخامسها مباح وهو ما تناولته أدلة الإباحة وقواعدها من الشريعة. كاتخاذ المناخل للدقيق ففى الآثار أول شيء أحدثه للناس بعد رسول الله اتخاذ المناخل، لأن لين العيش وإصلاحه من المباحات فوسائله مباحة أيضا، وكذلك التوسع فى لذيذ المآكل والمشارب، وتوسيع الأكمام من أطراف القميص. [العلامة الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص٦].

بعين الاعتبار أن المعرفة التى لا يأتيها الباطل أبداً هى المعرفة النقلية التى جاء بها الوحى المنزل، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[١].

۞ **يقول السيوطى** : « كان يؤتيهم الغنائم وينهاهم عن الغلول. كما أن الله تعالى قد أمرهم أن يتمسكوا بما أتاهم به الرسول. وعن ابن جريج من طاعتي وأمري ﴿فخذوه وما نهاكم عنه﴾ من معصيتي فانتهوا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ألم يقل الله ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ قالوا: بلى، قال: ألم يقل الله: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[٢]، الآية قال: فإني أشهد أن رسول الله ﷺ نهى عن الدباء[٣]، والحنتم[٤]، والنقير[٥]،

---

(١) سورة الحشر – الآية ٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦

(٣) الدُّبَّاء: « القَرْعُ واحدها دُبَّاءةٌ كانوا ينتبذون فيها فتُسْرع الشّدّةُ في الشراب وتحريمُ الانْتباذ في هذه الظُّرُوف كان في صدْر الاسلام ثم نُسِخ وهو المذهبُ وذهب مالك وأحمد إلى بقاء التَّحريم » [العلامة ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٩٦] ، ويقول الرازى: « الدُّبَّاءُ بالضم والتشديد والمد القرع الواحدة دُبَّاءَةٌ » [مختار الصحاح ج١ ص٨٣].

(٤) الحَنْتَم: « جِرَار مدْهُونه خُضْرٌ كانت تُحْمَل الخَمر فيها الى المدينه ثم اتُّسِع فيها فقيل لِلْخَزَف كلّه حنْتم، واحدّتها حَنْتَمه. وإنما نُهى عن الانْتباذ فيها لأنَّها تُسْرع الشّدّةُ فيها لأجْل دَهْنها. وقيل لأنها كانت تُعْمل من طين يُعجن بالدَّم والشَّعر فَنهي عنها ليُمْتَنع من عَملها والأوّل الوجه » [العلامة ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث ج١ ص٤٤٨] ويقول العلامة الرازى : « الحَنْتَمُ الجرة الخضراء » [مختار الصحاح ج١ ص٦٦].

(٥) النَّقِيرُ : « النُّقرة التي في ظهر النَّواة والنَّقِير أيضا أصل خشبة يُنقر فيُنبذ فيه فيشتد نبيذه وهو الذي ورد النهي عنه » [العلامة الرازى مختار الصحاح ج١ ص٢٨١] وقال ابن الأثير: « النَّقِير أصلُ النَّخْلة يُنْقَر وسَطه ثم يُنْبَذُ فيه التَّمر ويُلْقَى عليه الماء ليَصير نَبيذاً مُسْكراً والنَّهي واقِعٌ على ما يُعْمل فيه لا عَلى اتِّخاذ النَّقير » [النهاية في غريب الحديث ج٥ ص١٠٣]، وقال ابن منظور: « النقير النكتة التي في ظهر النواة. وروي عن أبي الهيثم أنه قال: النَّقِيرُ نُقْرَةٌ في ظهر النواة منها تنبت النخلة. و النَّقِيرُ: ما نُقِبَ من الخشب والحجر ونحوهما، وقد نُقِرَ و انْتُقِرَ. وفي حديث عمر، رضي اللَّه عنه: على نَقِير من خشب؛ هو جِذْعٌ يُنْقَرُ ويجعل فيه شِبْهُ المَراقي يُصْعَدُ عليه إلى الغُرَف. و النَّقِيرُ أيضاً: أصل خشبة يُنْقَرُ فَيُنْتَبَذ فيه فَيَشْتَدُّ نبيذه، وهو الذي ورد النهي عنه » [لسان العرب ج٥ ص٢٢٨].

والمزفت[1]][2].

وعن عبد الله قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله،قال فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله فقال عبد الله وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله فقالت المرأة لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته فقال لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه قال الله عز وجل ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ فقالت المرأة فإني أرى شيئا من هذا على امرأتك الآن قال اذهبي فانظري قال فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئا فجاءت إليه فقالت ما رأيت شيئا فقال أما لو كان ذلك لم

---

(١) المزفت : « يقال لبعض أوعية الخمر المُزَفَّتُ وهو المُقَيَّر ونهى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن هذا الوعاء المُزَفَّتِ أن يُنْتَبذ فيه كما ورد في الحديث أنه نهى عن المُزَفَّتِ من الأوعية ، قال هو الإناءُ الذي طُلِيَ بالزِّفتِ وهو نوع من القار ثم انْتُبِذ فيه » [العلامة ابن منظور - لسان العرب ج٢ ص٣٤] ، ويقول ابن الأثير : « المُزفَّت من الأوْعِية هو الإناء الذي طُلِي بالزِّفت وهو نوعٌ من القار ثم انْتُبِذ فيه » [النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٣٠٤ – باب الزاي مع الفاء مادة زفت].

(٢) ففي الحديث النبوى الشريف عن ابن عباس قال « قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إنا هذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام فمرنا بأمر نعمل به وندعو إليه من وراءنا قال آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع الإيمان بالله ثم فسرها لهم فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمقير زاد خلف في روايته شهادة أن لا إله إلا الله وعقد واحدة » [الإمام البخارى – صحيح البخاري ج١ ص١٩٥ – [١٣] كتاب مواقيت الصلاة [١] باب منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين – الحديث: ٥٠٠ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٤٦ – [٦] باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه – الحديث: ١٧ ، وأخرج مسلم عن أنس بن مالك أنه أخبره « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الدباء والمزفت أن ينبذ فيه » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٣ ص١٥٧٧ – [٦] باب النهي عن الانتباذ في المزفت والدباء والحنتم والنقير وبيان أنه منسوخ وأنه اليوم حلال ما لم يصر سكرا – الحديث: ١٩٩٢] ، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه سمع ابن عمر وابن عباس يشهدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

نجامعها »[1]، وقد ذهب إلى ذلك العلامة الجلال السيوطى[2]، بل أكد عليه والظواهر النقلية تسانده فى الاتجاه الذى سار عليه.

كما أن التقليد فى الاعتقاديات يكون أكثر ضرراً منه فى الشرعيات، لأن الاعتقاديات هى التى يقوم عليها الدين، وتفصل بين الإيمان والكفر.

ولذا فقد اختلف العلماء فيمن قلد بالنسبة للعقيدة على ستة أقوال:-

❊ **الأول: الاكتفاء بالتقليد مع العصيان**، إن كان فى المقلد أهلية النظر، فإن لم تكن فيه أهلية النظر، فلا يكون عاصيا بتقليده[3]، لأن فاقد الملكة لا يحاسب عليها، ومفهوم أهلية النظر عند العلماء هو أن تكون لديه بصيرة نافذة، وعلم واسع.

واليه أشار الشيخ عوض الغمراوى فى قوله:

إن رمت علم الأصول كن مجتهدا ⁖ ولا تقلد فالخلاف قد بدا
والقولة الصحيحة الشهيرة ⁖ عصيان إن كان ذا بصيرة[4]

❊ **الثاني : عدم الاكتفاء بالتقليد مادام المقلد صاحب بصيرة**، وبالتالى فإنه يكون كافراً بتقليده، ولابد له من النظر حتى يتم له صحيح الإيمان، وعليه العلامة السنوسي

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٣ ص١٦٧٨ – رقم: ٢١٢٥، وروى البخارى بلفظ عن علقمة عن عبد الله قال: « لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى ما لي لا ألعن من لعن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله وما آتاكم الرسول فخذوه إلى فانتهوا » [الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص٢٢١٦ – [٨٠] باب المتفلجات للحسن – الحديث: ٥٨٧، ج٥ ص٢٢١٩ – الحديث: ٥٥٩٩ .

(٢) العلامة جلال الدين السيوطى – الدر المنثور فى التفسير بالمأثور – الطبعة الثانية – طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٣) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص٧ .

(٤) الشيخ عوض الغمراوي – نقلا عن نظرات فى العقيدة الإسلامية ص ٧١ للشيخ طاهر محمد الطاهر – ط دمشق ١٣٧٥هـ .

قال الشيخ المنيلى: وهذا القول بالحكم على المقلد بالكفر مبنى على منـع التقليـد، وأن المعرفة شرط فى صحة الإيمان. والحق خلاف ذلك الأمر[١].

❊ **الثالث: الاكتفاء بالتقليد مع العصيان مطلقا.** سواء أكان فيه أهلية للنظر، أم لم تكن فيه تلك الأهلية. قال الشيخ عبدالرحمن المنيلى وهو أيضا مردود ومحل الخـلاف، إنما هو فى المقلد الذى عنده طمأنينة نفس، بأن كـان بحيـث لـو رجـع مقلـده لم يرجع هو وإلا كان كافراً اتفاقا[٢]، ويكون تقليده من باب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

❊ **الرابع: أن من قلد باتباع القرآن الكريم والسنة القطعيـة**[٤]، صح إيمانـه؛ لاتباعـه القطعى من الأدلة، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمـن الخطـأ علـى غـير المعصوم.

❊ **الخامس: الاكتفاء بالتقليد من غير عصيان مطلقاً.** لأن النظر شرط كمـال فمـن كـان فيـه أهليـة النظـر، ولم ينظـر فقـد تـرك الأولى. وهـو الـذى ذهـب إليـه العلامـة الباجوري، وقال الشيخ عبدالرحمن المنيلى، وعلـى هـذا يكـون النظـر الموصـل إلى المعرفة مستحبا.

---

(١) لأن المقلد الذى يحكم عليه بالكفر هو الذى أتيح له النظر مع القدرة عليه، بجـانب طـول العمـر، أما إذا لم يتح له النظر العقلى، أو كانت به علة أو أسلم ثـم مـات، فـإن تقليـده فـى العقيـدة مـادام تقليداً لأهل العلم فإنه ينفع إن شاء الله تعالى.

(٢) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص٧ .

(٣) سورة آل عمران – الآية ١٣٥ .

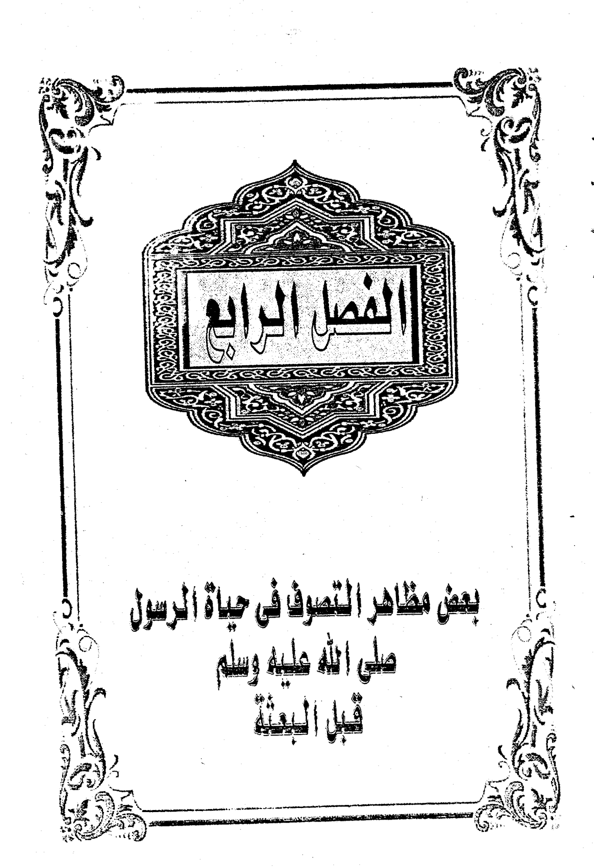
(٤) المراد بالقطعى هنا هو قطعى الورود، سواء أكان قطعى الدلالة أم احتماليها، والمعروف أن قطعـى الدلالة والورود معا هو المتعلق بالأحكام الاعتقادية، كما أن المراد بقطعى الورود فقط مع كونه ظنـى الدلالة، إنما يجيء فى الأحكـام الشـرعية العمليـة. [راجـع فـى هـذا الشـأن الأحكـام فـى أصـول الأحكام لابن حزم الظاهرى، وكذلـك الأحكـام فـى الأحكـام للآمـدى. وأصـول التشـريع الإسـلامى للدكتور على حسب الله، وكتابنا أوراق منسية فى النصوص الفلسفية.

* **السادس: أن إيمان المقلد صحيح، ويحرم عليه النظر**[1]، متى كان ذلك النظر مخلوطاً بالمسائل الفلسفية التى مرجعها إلى التراث اليونانى. والأفكار الوثنية؛ لأن النظر فيها والتمسك بها حرام شرعاً، إذ فيه إضاعة الوقت بغير فائدة ترجع للمسلم، وذلك منهى عنه شرعاً.

ولما كان التقليد فى الاعتقاديات تجرى فيه تلك الأحكام؛ فإن النظر العقلى يكون واجبا بالنسبة للقادر عليه، مادام موضوعه ليس مما اختلفت فيه المباحث الفلسفية، والأفكار الوثنية بالقضايا الدينية، وذلك مما يدفع إلى القول بأن الاقتداء برسول الله ﷺ فى العمليات والأخلاقيات إنما هو التزام بما شرع الله. واتباع لما جاء فى كتاب رب العالمين جل علاه، وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص٧.



بعض مظاهر التصوف فى حياة الرسول
صلى الله عليه وسلم
قبل البعثة

مما من شك فى أن سيدنا محمداً ﷺ قد أعانه الله على ترويض نفسه من مطلع حياته الأولى، حيث كان فى الطفولة، وظل على ذلك حتى لقى ربه، فلم يكن فى طفولته كباقى الصبية يعيش فى لعب أو لهو[١]. وإنما كان جادا فى حياته كلها ابتداء من طفولته لا يعرف اللعب الفاسد، ولا اللهو المحرم، مع أنه ولد يتيما. إلا أن هذا اليتم كان نعمة من الله عليه، فقد كان أبناء عمومته[٢] يجلسون مجالسهم الخاصة على ما توجهه إليهم أمهاتهم وآباؤهم، أما هو ﷺ فقد كان يجلس على ما يجلس عليه جده عبدالمطلب وهو كبير القرشين، وصاحب الكلمة المطاعة، ولا يجلس مجالس الكبار ويحكم نفسه بحكمهم، إلامن روض نفسه على قواعد هؤلاء، بحيث يكون مقبولا بينهم، مسموع الرأى فيهم.

ثم إن تأديب الله تعالى له منذ طفولته قد برز فى سلوكياته العملية والعقلية والاعتقادية، إذ كانت تأملاته الروحية فى الكون بمثابة الدليل على أن عقيدته ﷺ

---

(١) الأستاذ فهمى محمود حسن – حياة العرب قبل الإسلام ص٣٥ – طبعة دار التقوى ١٩٣١م.

(٢) أعمام النبى اثنا عشر هم: ١- حمزة وأمه هالة بنت أهيب. وهو أخوه ﷺ من الرضاعة. حيث أرضعتهما ثويبة جارية أبى لهب، وهو أسن من الرسول بأربع سنين. ٢- العباس وأمه قيلة بنت حبان وهو أصغر الأعمام وأسن من الرسول بعامين. ٣- أبو طالب وأمه فاطمة بنت عمرو وهو شقيق عبدالله أبو النبى ﷺ . ٤- أبو لهب وأمه لين بنت هاجر ومات كافرا. ٥- الحارث وأمه ثمرة بنت جندب، وهو أكبر أولاد عبدالمطلب وبه كان يكنى ولم يدرك الإسلام. ٦- الزبير وهو شقيق عبدالله ولم يدرك الإسلام. ٧- حجل وهو شقيق حمزة. ٨- عبدالكعبة وأمه أم عبدالله ولم يدرك الإسلام ولم يترك نسلا. ٩- قثم وأمه أم الحارث مات صغيرا. ١٠ ضرار وأمه أم العباس مات أيام أوحى للنبى ﷺ ولم يسلم وكان أكثر فتيان قريش جمالا وسخاء. ١٠- الغيداق واسمه مصعب كان أكثر القرشين مالا وطعاما وجودا فكان يلقب بالغيداق . ١٢- المقوم وأمه أم حمزة ومن الناس من يعدهم عشرة ويجعل عبدالكعبة والمقوم واحدا، وحجلا والغيداق واحدا والأشقاء لعبدالله والد النبى من هؤلاء هم أبو طالب والزبير وعبدالكعبة. أما عماته فهن ست: ١- صفية وهى أم الزبير بن العوام وأمها هالة بنت أهيب أم حمزة أسلمت ودفنت بالبقيع. ٢- أروى... ٣- عاتكة وفى اسلامها خلاف. ٤- أم حكيم وهى البيضاء. ٥- برة. ٦- أميمة ولا خلاف فى عدم إسلام أم حكيم وبرة وأميمة. والخمسة الأخيرات شقيقات عبدالله والد النبى ﷺ . [راجع الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص٣٧].

متجة نحو الخالق العظيم، إيمانا وتوحيدا له، وانقطاعه لتلك التأملات فى غار حراء من الأدلة على أن اعتقاده ﷺ كان نقيا منذ ولادته، وهى الفطرة التى يخلق الله الإنسان عليها. قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير**: « فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، وفي الحديث القدسي يقول رب العزة: إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم[2] »[3]، فالله تعالى فطر خلقه على الإسلام ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية وقوله تعالى لا تبديل لخلق الله[4]، وهو دينه الذى شرعه ولعباده ارتضاه.

---

(١) سورة الروم – الآية ٣٠.

(٢) هذا جزء من حديث طويل عن عياض بن حمار المجاشعي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومى هذا كل مال نحلته عبدا حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان وإن الله أمرني أن أحرق قريشا فقلت رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢١٩٧ – [١٦] باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار – الحديث: ٢٨٦٥ ، صحيح ابن حبان ج٢ ص٤٢٥ – ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن هذا الخبر تفرد به قتادة بن دعامة – الحديث: ٦٥٤، مسند البزار ج٨ ص٤١٩ – الحديث: ٣٤٩١ ، المعجم الأوسط ج ٣ ص٢٠٦ – الحديث: ٢٩٣٣ ، مسند أحمد ج٤ ص١٦٢ –الحديث: ١٧٥١٩ ، مسند الطيالسي ج١ ص١٤٥ – [٦٤] عياض بن حمار المجاشعي – الحديث: ١٠٧٩.

(٣) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص٤٣٣ .

(٤) وذهب فريق إلى أن معناه: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فيكون القول خبرا بمعنى الطلب وقال آخرون هو خبر على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك. [العلامة ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص٤٣٣]

فعن أبى هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولـود يولـد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمـة جمعـاء هـل تحسـون فيها من جدعاء ثم يقول فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم][1].

كما أنه ﷺ ظل على ذلك الحال من التأمل فى ملكـوت السـماوات والإيقـان بوجود الخالق الواحد القهار وتوحيده، حتى اصطفـاه الله للرسـالة الخاتمـة ؛ ليكـون للنـاس جميعـاً. قـال تعـالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

۞ **يقول العلامة القرطبى**: « وما أرسلناك يا محمد إلا للنـاس كافـة وعامـة. حيـث جئت إليهم إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ كافا للناس عما هم فيه من الكفر، وتدعوهم إلى الإسلام، وتبشرهم بالجنة لمن أطاع وتنذر من النار لمن كفر ولكن أكثر

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٤٧ – [٦] باب معنى كـل مولود يولـد على الفطـرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين – الحديث:٢٦٥٨، وعن سعيد بن المسيب عن أبـي هريـرة أنـه كان يقول « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطـرة فـأبواه يهودانـه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعـاء ثـم يقـول أبـو هريرة واقرؤوا إن شئتم فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلـق الله » [الإمـام البخـارى – صحيح البخاري ج١ ص٤٦٥ – [٩١] باب ما قيل في أولاد المشركين – الحديث: ١٣١٩ ، وأخرجـه مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٤٧ – الحديـث:٢٦٥٨. وأخـرج الـترمذى عـن أبـي صـالح عـن أبـي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولـود يولـد على الملـة فـأبواه يهودانـه أو ينصرانـه أو يشـركانه قيـل يـا رسـول الله فمـن هلـك قبـل ذلـك قـال الله أعلـم بمـا كـانوا عـاملين به » [الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٤ ص٤٤٧ – [٥] باب ما جاء كل مولود يولد على الفطـرة – الحديث:٢١٣٨ ، وقال أبو حاتم بن حبان « قولـه صلـى الله عليـه وسـلم كـل مولـود يولـد علـى الفطرة: أراد به على الفطرة التي فطره الله عليها جل وعلا. يوم أخرجهم من صلب آدم، لقوله جل وعلا "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" يقول لا تبديل لتلك الخلقة التي خلقـهم لها إما الجنة وإما النار، حيث أخرجهم من صلب آدم. فقال هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار. ألا ترى أن غلام الخضر قال صلى الله عليه وسلم طبعه الله يوم طبعه كافرا، وهو بين أبوين مؤمنين. فأعلم الله ذلك عبده الخضر، ولم يعلم ذلك كليمـه موسـى ﷺ. [صحيـح ابـن حبـان ج١ ص٣٣٧ – ذكـر إثبات الألف بين الأشياء الثلاثة التي ذكرناها – شرح الحديث رقم:١٢٩]

(٢) سورة سبأ – الآية ٢٨ .

الناس لا يعلمون ما عند الله وهم المشركون وكانوا في ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا »[1].

إذن صفاء الرسول ﷺ وتصفيته لنفسه ظلاّ يلازمانـه ﷺ منـذ ولادتـه، حتـى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وهذا الفهم هو معنى من معاني الأمي الذي وصف الله بـه النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[2]، وأميل إلى التمسك به أيضا بجانب المعاني الأخرى[3]، التي تتناسب مع مقام سيدنا محمد ﷺ .

---

(١) الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٤ ص: ٣٠٠/٣٠١ .

(٢) سورة الأعراف – الآية ١٥٧ .

(٣) يذهب البعض إلى أن الأمي:

أ- من لا يقرأ ولا يكتب وأميته معناها عدم قدرته على القراءة والكتابة، ولا يمكنه تعلم أي منهما.

ب- من لا يقرأ ولا يكتب، ولكن يمكنه تعلم كل منهما إلا أنه صرف عن ذلك لأمر يعلمه الله.

جـ- من يتبع أمه ولا يمكنه اتخاذ خطوة في حياته إلا بها، فهو أمي؛ لأنه ينقاد إليها في مطعمه ومشربه وحياته الخاصة والعامة، كما كان معها عند ولادته، فهو كالبله الذين يدير أمورهم غيرهم.

د- الأمي الذي لا يقرأ بنفسه ولا يكتب بنفسه، ولكنه يفهم ما يقرأ له ويستطيع الإملاء على غيره فيكتب له كفاقد البصر من أهل العلم والعرفان، فإنه أمي لأنه لا يقرأ ولا يكتب بنفسه، ولكنه أعلى في الفهم من قارئين وكاتبين فأميته أمية وصف، لفقد ملكة البصر فقط.

هـ- الأمي الذي ظل على نقاء عقيدته، وصفاء سريرته، وسلامة عقليته منذ ولادته، حتى انتقاله للرفيق الأعلى، وأن أملى على غيره كتابة، أو استمع له قراءة، فإنه يكون الأعلى فهما، والأسرع حفظا لما يقرأ له، والأدق تعبيرا لكل ما تنطلق به، وهو حال النبي ﷺ، وبالتالي فالمعنى الأخير هو الذي أراه مناسبا في وصف النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ بالأمي، والقى الله تعالى عليه، ولله در القائل:

أيها الأمي حسبك رتبة في العلم ... إن أزانت بك العلماء

أما العبادة فلم يسجد ﷺ لصنم ولا وثن ولا غير ذلك، إنما كان سجوده لله العظيم الخالق الأعلى جل علاه أبدا. كما لم يشرب خمرا، ولم يعرف لهوا. وإنما كان يتعبد الله على بقية من دين الخليل إبراهيم عليه السلام وهو الحنيفية البيضاء التي كان يتوارثها الحنفاء حينا، ويحافظ عليها بعض أهل العرفان في سلوكياتهم. كما أن الله تعالى ألهم نبينا ﷺ فيها أُلْهِم معرفة الحنيفية الإبراهيمية. وأنه كان يقوم عليها منذ طفولته، حتى أتاه الوحي.

۞ قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾[(١)].

۞ **يقول الإمام القرطبي:** « نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبيّن أنه كان على الحنيفية الإسلامية، ولم يكن مشركا والحنيف الذي يوحد ويحج ويضحي ويختتن، ويستقبل القبلة، والمسلم هو المتذلل لأمر الله تعالى، المنطاع له »[(٢)].

في نفس الوقت فإن الوحي لما جاء رسولنا الخاتم أول مرة وعرفت زوجه أم المؤمنين خديجة[(٣)]، أرادت الاستيثاق من أن الذى يأتى رسول الله هو جبريل الأمين

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٦٧ .

(٢) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ٤ ص: ١٠٩ .

(٣) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي القرشية الأسدية زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأول من صدقت ببعثته مطلقا قال الزبير بن بكار كانت تدعى قبل البعثة الطاهرة وأمها فاطمة بنت زائدة قرشية من بني عامر بن لؤي وكانت عند أبي هالة بن زرارة بن النباش بن عدي التميمي أولا ثم خلف عليها بعد أبي هالة عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ثم خلف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة قبل البعثة بخمس عشرة سنة وقيل أكثر من ذلك وكانت موسرة وكان سبب رغبتها فيه ما حكاه لها غلامها ميسرة مما شاهده من علامات النبوة قبل البعثة ومما سمعته من بحيرا الراهب في حقه لما سافر معه ميسرة في تجارة خديجة وولدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاده كلهم إلا إبراهيم، وقد ذكرت عائشة في حديث بدء الوحي ما صنعته خديجة من تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم لتلقى ما أنزل الله عليه فقال لها لقد خشيت على نفسي فقالت كلا والله لا يخزيك الله أبدا وذكرت خصاله الحميدة وتوجهت به إلى ورقه وهو في الصحيح . وقال الواقدي توفيت لعشر خلون من رمضان وهي بنت خمس وستين سنة ثم أسند من حديث حكيم بن حزام أنها توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بني هاشم من الشعب ودفنت بالحجون.-راجع الإصابة لابن حجر العسقلاني - القسم الأول [من ذكر لها صحبة، وبيان ذلك]. رقم: ١١٠٨٦[ص: ٦٠٠] وراجع النبي زوجا للأستاذ نشأت المصرى ص٣٣ المختار الإسلامي .

حتى تفرح وتزداد سرورا؛ لأنها كانت على علم بالملة الإبراهيمية الحنيفية، كما كان ورقة بن نوفل ابن عمها[1] هو الأخر على الملة الحنيفية، فقالت لرسول الله ﷺ يا ابن عم ان استطعت أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاء قال نعم، فلما جاءه قال: يا خديجة هذا جبريل. قالت يا ابن عم قم فاجلس على فخذى اليسرى فقام فجلس عليها قالت: هل تراه؟ قال نعم.

قالت فتحول فاقعد على فخذى اليمنى، فتحول فقعد على فخذها اليمنى قالت: هل تراه؟ قال نعم، قالت فأجلس فى حجرى ففعل، قالت هل تراه قال نعم، فتحسرت[2] فألقت خمارها، ثم قالت: هل تراه؟ قال لا. قالت أثبت وأبشر فو الله إنه

---

(١) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي بن عم خديجة زوج النبي. قال ابن عباس عن ورقة بن نوفل قال قلت يا محمد كيف يأتيك الذي يأتيك قال يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر ، وعن عائشة أول ما بدئ به رسول الله الحديث في مجيء جبريل بحراء وفيه فانطلقت به خديجة الى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان تنصر في الجاهلية الحديث وفيه فقال ورقة هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذعا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك وفي أخره ولم ينشب ورقة أن توفى فهذا ظاهره أنه أقر بنبوته ولكنه مات قبل أن يدعو بحيرا رسول الله الناس إلى الإسلام فيكون مثل بحيرا .وعن أبي ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل وهو من كبار التابعين أن رسول الله قال لخديجة اني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت على نفسي فقالت معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله انك لتؤدي الأمانة الحديث فقال له ورقة أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به بن مريم وانك على مثل ناموس موسى وانك نبي مرسل وانك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وان يدركني ذلك لأجاهدن معك فلما توفي قال رسول الله لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني [العلامة ابن حجر - الإصابة ج:٦ ص٦٠٧ - رقم:٩١٣٧]

(٢) تحسرت معناه ضمت ملابسها إلى بعضها كأنها تريد التخلي عن بعضها كما تفعل السيدات المسلمات داخل بيوتهن، حتى تتأكد من أن هذا هو الملك الكريم فتسعد به، وتستعد للقيام بأعباء جديدة تقوم على المعاونة والمؤازرة لسيدنا رسول الله، حتى قال رسولنا فيها حين قالت له عائشة: ما تذكر من خديجة وقد أبدلك الله بها خيرا قال : « ما أبدلني الله بها خيرا منها صدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد إذ لم يرزقني من غيرها »[الطبراني - المعجم الكبير ج: ٢٣ ص: ١٣ الحديث رقم:٢٢ عن عائشة].

الملك وما هذا بشيطان[١]، فهذا دليل على أن أم المؤمنين خديجة قبل بعثة الرسول ﷺ كانت على علم بما يقوم به النبى ﷺ من تأمل وتفكير فى الكون الذى خلقه الله رب العالمين، كما أنها كانت تزوده ﷺ قبل البعثة بزاد يكفيه شهر رمضان من كل عام. حيث كان ينقطع فيه الرسول للعبادة والتأمل وصقل الداخل. حتى إذا بلغ الأربعين جاءه الوحي تفضلا من رب العالمين.

ففي الصحيح: عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أنها قالت « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من لوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[٢]، ثم حُبّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء[٣]، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني[٤]، فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك

---

(١) الحافظ المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ٧٤٨هـ - تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ج٢ ص٧٤ تحقيق حسام الدين العوسى.

(٢) والذى عليه أهل الحق أن رؤيا الأنبياء التى تأتيهم فى المنام إنما هى حق. وأنها وحى من الله تعالى، وإنما يمكن التعبير عنها كالحال مع رياء إبراهيم الخليل فى ذبح ولده إسماعيل، وافتداء الله له بالذبح العظيم، وكذلك رؤيا رسول الله ﷺ يدخلون المسجد الحرام. قال تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾ [سورة الفتح - الآية ٢٧]

(٣) وبالتالى أول مجيء الوحى لرسول الله ﷺ فى غار حراء. وهو الذى عليه أهل الحق، ولا التفات لما يقوله المستشرقون المغرضون من أن الوحي جاءه ﷺ وهو فى الطريق من مكة إلى شعب من الشعاب. [راجع خطر المستشرقين على الفكر الإسلامى ص١٨٧].

(٤) لفظ فى لغة العرب يطلق على الغمس فى الشيء والوقوع تحت سيطرته. كما يطلق على الضم الشديد الذى لا يستطيع المضموم فيه الانفلات من الممسك به. [راجع قطر المحيط]

الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم[١]، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع[٢]، فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت علي نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق[٣]، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذع ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو

---

(١) وبالتالى فمطالع سورة العلق هى أول ما نزل من القرآن الكريم باتفاق العلماء. [راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي].

(٢) الروع: هو داخل النفس الذى لا يمكن لأحد التحكم فيه، وإنما يقع لصاحبه به الخوف أو الاطمئنان، وفي الحديث الشريف : عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: « أيها الناس إنه ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به وليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله فانه لا ينال ما عنده إلا بطاعته » [العلامة أبو عبدالله بن أبى شيبة - مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص: ٧٩ - رقم: ٣٤٣٣٢ ، وأخرج الحافظ الهيثمى فى الزوائد ج٤ ص٧١ عن حذيفه، وراجع الترغيب والترهيب ج٢ ص٣٣٩ - رقم٢٦٣١، كشف الخفاء ج١ ص:١٥٥- رقم٣٩٩ عن أبى أمامة، وحلية الأولياء ج١٠ ص٢٧، وأخرج العجلونى عن جابر عن رسول الله ﷺ قال: « ان روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » [العلامة العجلونى - كشف الخفاء ج١ ص٢٦٨ قم: ٧٠٧].

(٣) وهى بعض صفاته ﷺ التى كانت له قبل النبوة، وزاد عليها، لكن أم المؤمنين لضيق المقام عبرت عن ما أمكنها.

مخرجي هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي »[1].

ثم إن عبادته ﷺ ما كانت مجهولة إذ كل المتعاملين مع هـذا البيـت الكريـم كانوا يعلمون أن زوج السيدة خديجة يعبد ربه على دين الخليل إبراهيـم عليه السلام. كمـا أن الحنفاء هم الآخرون كانوا على علم بما يقوم به سيدنا محمد ﷺ، ومن ثـم فحـين بلغهم أمر نبوته ومجيء الوحي إليه؛ أسرع الكثيرون منهم إلى الإيمان به والإعلان عن صدق نبوة هذا النبى الكريم.

من ذلك ما شهد به ورقة بن نوفل حيث يقول:

إن يـك حقـا يـا خديجـة فـاعلمى ∴ حديثـك إيانـا فـأحمد مرسـل
وجـبريل يأتيـه وميكـال معـهما ∴ من الله وحـي يشـرح الصـدر منـزل
يفـوز بـه مـن فـاز فيـها بتوبـة ∴ ويشـقى بـه العـانى الغـوى المضلـل
فسبحان مـن تـهوى الريـاح بـأمره ∴ ومن هـو فـى الأيـام مـا شـاء يفعـل
ومـن عرشـه فـوق السـماوات كلـها ∴ وأقضاؤه فـى خلقـه لا تبـدل[2]

وبالتالى فإن النبى الخاتم سيدنا محمد ﷺ يعبد الله تعـالى قبـل البعثـة علـى طريقة أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت حياته الروحية فى العقيـدة والعبـادة تسـير باتجاه الخالق العظيم جل علاه، بما ألهمه الله إياه من ملامح الدين الصحيـح. وهـو الذى يمكن فهمه والتعرف عليه بالنسبة لعقيدة التوحيـد والعبـادة الصحيحـة. التـى كانتا تشغلان عقل الرسول ، وتملأن مشاعره الروحية قبل البعثة المباركـة، وأن ذلـك كان يلازمه منذ طفولته، وقد عرف العرب ذلك عنه. حتى كانوا فـى شـدتهم يـأتون أبا طالب بغية أن يستسقى لهم برسول الله.

وفى ذلك يقول أبو طالب:

وأبيـض يستسـقى الغمـام بوجهـه ∴ ربيـع اليتـامى عصمـة للأرامـل[3]

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص٤ كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي – الحديث قم: ٢.
(٢) الحافظ الذهنى – تاريخ الإسلام ج٢ ص٧٤.
(٣) الأرامل : « يقال: رجل أرمل وامـرأة أرملـة: محتاجة، وهـم الأرملـة و الأرامـل و الأراملـة. كسروه تكسير الأسماء لقلته، وكل جماعة من رجال ونساء أو رجال دون نساء أو نساء دون رجـال أرملـة. بعـد أن يكونوا محتاجين. ويقال للفقير الذي لا يقدر على شيء من رجل أو امرأة أرملـة، ولا يقـال للـمرأة التـي لا زوج لها وهي موسرة أرملـة، والأرامـل: الـمساكين. ويقـال: جـاءت أرملـة مـن نسـاء ورجـال محتاجين، ويقال للرجال الـمحتاجين الضعفاء أرملة، وإن لـم يكن فيهم نسـاء. وأرملت الـمرأة إذا مـات عنها زوجها و أرملت: صارت أرملة، والأرملة التـي مات عنها زوجـها؛ سـميت أرملـة لذهـاب زادهـا وفقدها كاسبها ومن كان عيشها صـالحا بـه، ولا يقال له إذا ماتت امرأته أرمل إلا فـي شـذوذ، لأن الرجـل لا يذهب زاده بموت امرأته إذ لـم تكن قيمة عليه، والرجل قـيم علـيها وتلزمـه عيلولتـها ومؤنتـها ولا يلزمها شيء من ذلك » [راجع لسان العرب ج١١ ص٢٩٦/٢٩٧].

تطيف به الهُلّاك من آل هاشم ∴ فهم عنده فى نعمة وفواضل

وميزان عدل لا يخيس[١] شعيرة ∴ ووزان صدق وزنه غير عائل[٢]

وزعم نيكولسون ومن معه أن عرب الجاهلية كانوا على حظ قليل من التفكير الدينى ...، ولم يخطر ببالهم أن يعدوا أنفسهم لحياة روحية وراء حدود القبر، وأن المسيحية غير التقليدية هى التى بذرت فيهم بذور الزهد قبل البعثة المحمدية. وأن العرب كانوا يجلون رهبان المسيحية، ويقتدون بهم، وأن هؤلاء الرهبان هم الحنفاء، وكان لبعضهم الأثر فى محمد الذى كان معاصرا لكل منهم، وكان اثنان منهم متصلين به صلة قرابة أو نسب[٢]، حتى يخلص إلى أن رسول الله ﷺ كان قبل البعثة مسيحيا كما كان الحنفاء.

۞ **وفى تقديرى:** أن مقدماته خاطئة ونتائجه كمقدماته، لا يمكن التصديق بها أو التسليم لها، بل الصواب أن الرسول الخاتم حفظه الله عن ذلك كله، وأن الحنفاء لم يكونوا رهبان المسيحية. كما أن العرب الجاهليين لم يكونوا بهذا القدر من الغباء حتى ينهمكوا فى الحياة الدنيا ومتعها تاركين الحياة الأخرى على ما زعم ذلك المستشرق ومن يجرى معه.

وذلك لما يلى:-

أولا: <u>حنفاء العرب غير رهبان المسيحية</u>؛ لأن الحنفاء كانوا يعبدون الله تعالى على دين الخليل إبراهيم، فنسبوا إليه، والله عز وجل قال: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا

---

(١) الخيس بالفتح: « مصدر خاس الشيء يخيس خيسا تغير وفسد وأنتن. و خاست الجيفة أي أروحت. و خاس الطعام والبيع خيسا: كسد حتى فسد. وهو من ذلك كأنه كسد حتى فسد. ويقال للشيء يبقى في موضع فيفسد ويتغير كالجوز والتمر: خائس. وقد خاس يخيس. فإذا أنتن. فهو مغل، وقيل: والزاي في الجوز واللحم أحسن من السين. و خيس الشيء: لينه. و خيس الرجل والدابة تخييسا و خاسهما: ذللهما: و خاس هو: ذل. ويقال: إن فعل فلان كذا فإنه يخاس أنفه أي يذل أنفه. و التخييس: التذليل » [العلامة ابن منظور – لسان العرب ج٦ ص٧٤].

(٢) الحافظ الذهبى – تاريخ الإسلام ج٢ ص٢٥

(٣) المستشرق رينولد ألن نيكولسون – فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص٤٢/٤٣ (بتصرف يسير) ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى – مطبعة لجنة التأليف ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾[1]. أما رهبان المسيحية فهم أتباع بولس شاؤل اليهودى الذى ادعى المسيحية، وكاد للمسيح والحواريين وظل خصما لهم، حتى انتهت رسالة عيسى ابن مريم رسول الله، ثم بنى بولس المسيحية على أنقاض النصرانية، فجاءت المسيحية بالتثليث بدل التوحيد، والتجسيم لله تعالى بدل التنزيه، وجعل عيسى ابن مريم هو الإله بدل أن كان عبد الله ورسوله إلى غير ذلك من العقائد التى وضعها بولس ومن جاء بعده[2]، إذن الرهبان غير الحنفاء، ومن ثم فلم يتعلم الحنفاء العرب من الرهبان المسيحيين، ولا دانوا بفكرهم، أو كانوا صورة منهم، حتى وإن حدث نوع من الاحتكاك بين الحنفاء والرهبان.

* **<u>ثانيا: أن حنفاء العرب كانوا يؤمنون بالله الواحد جل شأنه</u>**، ويقرون بالبعثة لكل أنبياء الله، ويؤمنون بقرب بعثة النبى الخاتم سيدنا محمد ﷺ، فلما بعثه الله أسرع الكثيرون منهم إلى إعلان الإيمان به والانضمام إلى دعوته، كالحال مع ورقة بن نوفل.

* **<u>ثالثا: أن بحيرا الراهب[3] كان نصرانيا، ولم يكن مسيحيا</u>** – والفرق بينهما كبير –

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٦٧ .

(٢) راجع للشيخ محمد رشيد رضا: الوحي المحمدى، وللدكتور محمد أبو الغيط الفرت – بولس والمسيحية، وللدكتور رفقى واهر: قصة الأديان، وراجع كتابنا: عقيدتا رفع عيسى ونزوله بين الإسلام والنصرانية، فكلها تحدثت عن أثر هذا البولس في بناء المسيحية وخطره على النصرانية.

(٣) يقول ابن حجر : « بحيرا الراهب ذكره بن منده وتبعه أبو نعيم وقصته معروفة في المغازي وما أدري أدرك البعثة أم لا وقد وقع في بعض السير عن الزهري أنه كان من يهود تيماء وفي مروج الذهب للمسعودي أنه كان نصرانيا من عبد القيس يقال له جرجيس فأما قصته فذكر بن إسحاق في المغازي أن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام فخرج رسول الله معه فلما نزل الركب بصري وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له وكان إليه علم النصرانية فلما نزل الركب وكانوا كثيرا ما ينزلون فلا يكلمهم فرأى بحيرا محمدا والغمامة تظله فنزل إليهم وصنع لهم طعاما وجمعهم عنده فتخلف محمد لصغره في رحالهم فأمرهم أن يدعوه فاحضره بعضهم فجعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده كان يجدها عنده من صفته فلما فرغوا جعل يسأله عن أشياء من حاله وهو يخبره فيوافق ذلك ما عنده ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه فأقبل على عمه فقال ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من يهود فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده ويقال إن نفرا من أهل الكتاب رأوا منه ما رأى بحيرا فارادوه فردهم عنه بحيرا وذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته وأنهم لا يستطيعون الوصول إليه فلم يزل بهم حتى صدقوه ورجعوا ورجع به أبو طالب إلى بلده بعد فراغه من تجارته بالشام » [الإصابة ج١ ص٣٥٢ – رقم: ٧٩٦]

وكان يقيم في بصرى. حيث كان من أعلم أهل النصرانية[١]، ومع هذا لم يأخذ عنه الحنفاء. وإنما كان بحيرا في صومعة يحافظ على كتاب عنده فيما يزعمون أنهم يتوارثونه كابرا عن كابر، وكان له خدم يقومون برعاية شئونه، وذلك لا يدل على أنهم أخذوا عن بحيرا أو غيره من رهبان النصارى، بل يدل على أنهم تركوا هؤلاء الرهبان في صوامعهم وأعمالهم دون أن يتعرضوا إليهم بشيء، فمزاعم نيكولسون بهذا الشأن لا أساس لها، ولم يتأثر الحنفاء بالرهبان أبدا.

* **رابعا: أن النبي الخاتم ﷺ كان أميا لم يجلس لمعلم أبدا**، ولم يجالس رهبانا. كما لم يتعامل مع هؤلاء الحنفاء في النواحي العقدية. ولا العبادية قبل البعثة، وإلا لكان قد تعلم منهم مبادئ القراءة والكتابة على الأقل. اما وأنه ﷺ لم يكتب بنفسه ولم يقرأ بنفسه، وظل على أميته. فقد دل الأمر على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجالس لا الرهبان ولا غيرهم ممن زعم المستشرقون تأثيرهم فيه، وبالتالي فزعم المستشرقين بأن الرسول ﷺ قد تأثر بالزهد المسيحي الذى نقله إليه الحنفاء من العرب غير مقبول، لا على ناحية العقل، ولا على ناحية الشرع والتاريخ، « ولكنها نزعات المستشرقين التى تجرى فى نفوسهم جميعا، يستوى فى ذلك نفوس المنصفين منهم والمتجاوزين »[٢]؛ لأنهم جميعا ارتضعوا نفس الأفكار منذ نعومة أظفارهم، وهم يرددونها دون نظر لصحة ما يقولون أو فساد لما عليه يتوافدون.

* **خامسا: أن العرب الجاهليين كانت عندهم فكرة واضحة عن الإله العظيم جل علاه**، وأنهم كانوا يوحدونه فى الاعتقاد. لكنهم أشركوا فى العبادة، يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٣].

يقول العلامة الطبرى: « يقول تعالى ذكره والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولونهم ويعبدونهم من دون الله يقولون لهم ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى على سبيل القربة والمنزلة وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا. وكانت قريش

---

(١) العلامة السهيلي – الروض الأنف ص١٨٢ .

(٢) راجع للأستاذ نصر الدين محمد حكمت الله – الاستشراق والمستشرقون ص٧١ طبعة أولى ١٩٦٧م.

(٣) سورة الزمر – من الآية ٣ .

تقوله للأوثان ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزيز. فعن قتادة قوله والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى قالوا ما نعبد هؤلاء إلا ليقربونا ويشفعوا لنا عند الله[1].

قال السدي في قوله ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى قال هي منزلة. وعن ابن عباس في قوله والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا يقربونا إلى الله زلفى. وقوله ولو شاء الله ما أشركوا يقول سبحانه لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. قال ابن زيد في قوله ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى قال قالوا هم شفعاؤنا عند الله وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفي يوم القيامة للأوثان والزلفى القرب »[2].

إذن العرب الجاهليون يؤمنون بالإله العظيم، كما كانوا يؤمنون بالبعثة واليوم الآخر على نحو من الأنحاء التى قد يكون لها بعض القبول، ذكر ابن حجر أن« عمرو بن الجموح[3] كان سيدا من سادات بني سلمة وشريفا من أشرافهم وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يعظمه فلما أسلم فتيان بني سلمة منهم ابنه معاذ ومعاذ بن جبل

---

(١) وإلى هذا ذهب مجاهد وقتادة ومن مال إلى نفس الاتجاه.

(٢) ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٢٣ ص١٩١/١٩٢ .

(٣) هو عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري السلمي رضي الله عنه شهد العقبة ويقال أنه شهد بدرا واستشهد يوم أحد وكان آخر الأنصار إسلاما ولما أراد الخروج إلى أحد استقبل القبلة وقال اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائبا فقتل يومئذ فقال رسول الله والذي نفسي بيده أن منكم من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح ولقد رأيته يطأ بعرجته في الجنة، وكان زوج هند بنت عمرو وعمة جابر بن عبد الله وأنه دفن هو وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام في قبر واحد، وعن جابر قال قال رسول الله من سيدكم يا بني سلمة قالوا الجد بن قيس على أنا نبخله فقال بيده هكذا وأي داء أدوأ من البخل بل سيدكم عمرو بن الجموح، وقال قتادة: أتى عمرو بن الجموح فقال يا رسول الله أرأيت أن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه العرجاء في الجنة قال نعم قال فقتل يوم أحد وذكر مقاتل بن سليمان في تفسيره أنه الذي سأل عن النفقة فنزلت يسألونك ماذا ينفقون ووصفه في هذه القصة بأنه كان حينئذ شيخا كبيرا » [راجع العلامة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي المولود ٧٧٣هـ والمتوفى ٨٥٢هـ – تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة ج١ ص٣٠٦/٣٠٧ رقم: ٧٨٤ – دار الكتاب العربي بيروت – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١ – تحقيق د. إكرام الله إمداد الحق].

كانوا يدخلون على صنم عمرو فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة فيغدو عمرو فيجده منكبا لوجهه في العذرة فيأخذه ويغسله ويطيبه ويقول لو أعلم من صنع هذا بك لأخزيته ففعلوا ذلك مرارا ثم جاء بسيفه فعلقه عليه وقال إن كان فيك خير فامتنع فلما أمسى أخذوا كلبا ميتا فربطوه في عنقه وأخذوا السيف فأصبح فوجده كذلك فأبصر رشده وأسلم[1].

وقال في ذلك أبياتا منها:

تالله لو كنت إلها لم تكن ∴	**انت وكلب وسط بئر في قرن**[2]
أف لمصرعك إلها مستدن[3] ∴	**الآن فتشناك عن سوء الغبن**
الحمد لله العلى ذى المنن ∴	**الواهب الرزق وديان الدين**[4]
هو الذى أنقذنى من قبل أن ∴	**أكون فى ظلمة قبر مرتهن**[5]

---

(١) وفى إسلامه يقول ابن خجر: « إن عمرو بن الجموح كان له صنم فكان أصحابه بعد أن أسلموا يلقون صنم عمرو في بعض الآبار فإذا أصبح التمسه حتي يجده فيستنقذه ويطيبه فلما طال عليه ذلك علق في عنقه سيفا فذهبوا فقرنوه بكلب ميت وطرحوه في حش فلما أصبح فرآه على هذه الصورة استبصر فأسلم » [العلامة ابن حجر – تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة ج١ ص٣٠٧ رقم: ٧٨٤]

(٢) القرن بالتحريك موضع وهو ميقات أهل نجد ومنه أويس القرني رضي الله عنه . [مختار الصحاح ج١ ص٢٢٢] ، والقرن للثور وغيره والقرن أيضا الخصلة من الشعر ويقال للرجل قرنان أي ضفيرتان وذو القرنين لقب إسكندر الرومي و القرن ثمانون سنة وقيل ثلاثون سنة و القرن مثلك في السن تقول هو على قرني أي على سني و القرن في الناس أهل زمان واحد. [مختار الصحاح ج١ ص٢٢٢]

(٣) مستدن : هو الذى يعجز عن مقاومة أعدائه، إذا أرادوا إلحاق الأذى به، فهو مستدن عند الدفاع عن نفسه، فكيف يعبد وهو لا يملك أن يدفع عن نفسه الضر حين وضعوه والكلب فى حيل واحد داخل العذرة مقترنين.

(٤) ديان الدين وهو الله رب العالمين؛ لأنه الذي يدين الناس جميعا يوم القيامة.

(٥) راجع للعلامة ابن حجر العسقلانى – الإصابة ج٤ ص٦١٥ – وللعلامة الحافظ الذهبى – تاريخ الإسلام ج٢ ص٢١٠/٢١١ .

ثم إن الله جل علاه قد حفظ رسولنا الخاتم من طفولته وأدبه بعنايته. ففي الحديث الشريف: « عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أدبني فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ »[1].

ومن مظاهر ذلك أن رسول الله كان يساهم مع قريش في بناء الكعبة، وهو صبي يحمل الحجارة، فعن جابر ﷺ قال: « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره فقال له العباس عمه يا ابن أخي لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة، قال فحله فجعله على منكبيه فسقط مغشيا عليه فما رؤي بعد ذلك عريانا صلى الله عليه وسلم »[2]؛ لأن الله تعالى يحفظه، ويرعاه برعايته، وبالتالي فلن يكون لأحد عليه سلطان إلا سلطان الله جل علاه، ومن حفظ الله له عدم تمكن أحد من رؤية شيء من عورته

وذكر الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « كان أبو طالب يعالج زمزم وكان النبي صلى الله عليه وسلم ممن ينقل الحجارة وهو يومئذ غلام فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم إزاره فتعرى واتقى به الحجر فغشي عليه فقيل لأبي طالب أدرك ابنك فقد غشي عليه فلما أفاق النبي صلى الله عليه وسلم من غشيته سأله أبو طالب عن غشيته فقال أتاني آت عليه ثياب بيض فقال لي استتر فقال ابن عباس فكان ذلك أول ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم من النبوة أن قيل له استتر فما رؤيت عورته من يومئذ »[3]، ومن كان ذلك شأنه فلاشك أن الله تعالى يحفظه ويصونه من كل ما فيه إساءة إليه في دينه أو عبادته، ومن ثم فإن أقوال المستشرقين في المسألة، إنما هي من نبت الخيال الذى عاشوا عليه وتمسكوا به.

---

(١) العلامة العجلوني – كشف الخفاء ج١ ص٧٢ – الهمزة مع الدال المهملة – الحديث رقم: ١٦٤، ورواه أيضا بلفظ: « أدبني ربي فأحسن تأديبي ». والآية من سورة الأعراف – الآية ١٩٩.

(٢) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج١ ص١٤٣ – [٧] باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها الحديث رقم: ٣٥٧، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٢٦٨ – الحديث رقم: ٣٤٠.

(٣) العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص١٩٨ – كتاب اللباس – الحديث قم: ٧٣٥٦.

وعن العباس بن عبد المطلب[١] قـال « كنـا ننقـل الحجـارة إلى البيـت حـين كانت قريش تبني البيت فانفردت قريــش رجـلان رجـلان ينقـلان الحجـارة وكـانت النساء تنقل الثيل فكنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسـلم ننقـل الحجـارة علـى رقابنا وأوزرنا تحت الحجارة فإذا غشينا الناس اتزرنا فبينا أنا أمشي ومحمد صلى الله عليه وسلم أمامي ليـس عليـه إزار خرَّ محمـد صلـى الله عليـه وسـلم فـانبطح فألقيت حجري وجئت أسعى فإذا هو ينظر إلى السماء فوقه قلت ما شأنك فقام فـأخذ إزاره وقال نهيت أن أمشي عريانا قال فكنت أكتمها الناس مخافة أن يقولوا مجنــون حتى أظهر الله نبوته »[٢].

ولاشك أن ستر الله لنبينا ﷺ منذ طفولته، وعدم رؤية أحد لشيء من عورته، إنما يمثل أحد الأدلة الموثقة على أن الرسول الكريم ﷺ قد حفظــه الله منـذ طفولتـه، وأنه في عبادته وسلوكياته كان مثالا فريدا في بني البشر، حتى يكون هو القدوة. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة[٣] حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[٤].

۞ **يقول العلامة ابن عاشور:** « وحق الأسوة أن يكون المؤتسى به هــو القـدوة، ولذلـك فحرف (في) جاء على أسلوب ما يسمى بالتجريد المفيد للمبالغـة، إذ يجـرد مـن الموسوف بصفة موصوف مثله، ليكون كذاتين. فالأصل: رسول الله أسوة، فقيـل: في رسول الله أسوة، وجعل متعلق الإئتساء ذات الرسول ﷺ دون وصف خـاص

---

(١) العباس بن عبد المطلب عم رسول الله كنيته أبو الفضل وأمه ابنة جناب بن كلب بن مالك بن النمر بن قاسط كان مولده قبل الفيل بثلاث سنين ومات سنة ثنتـين وثلاثـين في خلافـة عثمـان بـن عفان رضه وهو بن ثمان وثمانين سنة بالمدينة وصلى عليه عثمان بن عفان. [مشاهير علمـاء الأمصـار ج١ ص٩ – رقم:١٦]

(٢) الحافظ الهيثمى – مجمع الزوائد ج٣ ص٢٨٩/٢٩٠ .

(٣) أسوة بالكسر والضـم أى قـدوة . (مختـار الصحـاح ص١٧) . والأسـوة – القـدوة – المعجـم الوجـيز ص٢٨.

(٤) سورة الأحزاب – الآية ٢١ .

ليشمل الإئتساء به فى أقواله وأفعاله »[1]، وهو الذى يمكن أن يفهمه أهل المعانى من البيان القرآنى.

۞ **يقول صاحب الميزان « ذلك للدلالة على أن التأسى بالرسول ﷺ خصلة جميلة** زاكية، لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان، وإنما يتصف بها جميع ممن تلبس بحقيقة الإيمان، فكان يرجو الله واليوم الآخر – أى تعلق قلبه بالله، فآمن به، وتعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا، ومع ذلك ذكر الله كثيرا، فكان لا يغفل عن ربه، فتأسى بالنبى ﷺ فى أفعاله وأعماله »[2]. ومن ثم فمن آمن بالله تعالى. ولم يأتسى برسول الله ﷺ، فإنما هو متسّم به فقط. وهو الفرق الجوهرى بين التسمى بالإيمان والاتصاف بحقيقته، وكان الصوفية يتأسون برسول الله ﷺ ، فكان لهم من حقيقة الإيمان نصيب موفور.

۞ **يقول الشيخ الشعراوى** : « إن منهج الدين وحده لا يكفى إلا بالتطبيق، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا »[3]، وكان هو المربى لهم الذى يعلمهم كيف تكون النفوس المؤمنة على العقيدة الصحيحة مستقرة والعبادة السليمة والأخلاق القويمة قائمة.

۞ ويقول تعالى : : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[4]. يقول سيد قطب: « إن محمدا ﷺ – وحده – هو الذى يرقى إلى هذا الأفق من العظمة وهو – وحده – هو الذى يبلغ قمة الكمال الإنسانى المجانس لنفخة الله فى الكيان الإنسانى. إن محمدا – وحده – هو الذى يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية؛ حتى لتتمثل فى

---

(١) العلامة الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور – ج٢١ ص٣٠٢/٣٠٣ (باختصار) .

(٢) الشيخ الطباطبانى – الميزان فى تفسير القرآن – ج٢١ ص٢٨٩ .

(٣) تفسير الشعراوى – عدد ٤ ص٣١٠/٣١١ .

(٤) سورة القلم – الآية ٤ .

شخصه، حية تمشى على الأرض فى إهاب الإنسان »[1]. ويقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[2].

لقد كان الرسول الكريم هو الصفاء نفسه، والتصفية ذاتها منذ طفولته، فكانت القناعة مظهرا من مظاهر ذلك الصفاء، حيث إنه ﷺ كان يرضع من السيدة حليمة السعدية[3]، ومعه أخ فى الرضاعة، فكانت إذا وضعت أخاه على صدرها التهم ما فى الثديين من اللبن، فإذا حملت رسول الله ﷺ على صدرها لإرضاعه، أفاض الله فى صدرها اللبن من جديد، ومع هذا فلا يرضع الحبيب المصطفى إلا ثديا واحدا ويكتفى، فكان منذ طفولته يدرك القناعة الذاتية، ويعرف أن الزهد هو الاستغناء عن ما فى أيدى الناس، والتمسك بما عند الله[4]، ومن كان ذلك شأنه من المهد وقد استمر معه، حتى الانتقال إلى الرفيق الأعلى، فلاشك أنه المثل الأعلى والقدوة الكاملة.

---

(١) تفسير الظلال – ج٦ ص٣٦٥٧ .(بتصرف يسير) .

(٢) الحديث أخرجه مالك فى الموطأ ص٩٠٢ ، وأحمد فى المسند ج٢ ص٣٨١ .

(٣) هى : « حليمة السعدية مرضعة النبي هي بنت أبي ذؤيب واسمه عبد الله بن الحارث بن شجنة بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون بن رزام بكسر المهملة ثم المنقوطة بن ناضرة بن سعد بن بكر بن هوازن قال أبو عمر أرضعت النبي ورأت له برهانا، وروى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال جاءت حليمة ابنة عبد الله أم النبي من الرضاعة إلى رسول الله فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه وروى عنها عبد الله بن جعفر قلت حديثه عنها بقصة إرضاعها أخرجه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه وصرح فيه بالتحديث بين عبد الله وحليمة ووقع في السيرة الكبرى لابن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن جعفر قال حدثت عن حليمة والنسب الذي ساقه ذكره بن إسحاق في أول السيرة النبوية وفيه ثم التمس له الرضعاء واسترضع له من حليمة فساق نسبها وأخرج أبو داود وأبو يعلى وغيرهما من طريق عمارة بن ثوبان عن أبي الطفيل أن النبي كان بالجعرانة يقسم لحما فأقبلت امرأة بدوية فلما دنت من النبي بسط لها رداءه فجلست عليه فقلت من هذه قالوا هذه أمه التي أرضعته ونسبها بن منده إلى جدها فقال حليمة بنت الحارث السعدية وساق الحديث من طريق نوح بن أبي مريم عن بن إسحاق بسنده فقال فيه عن عبد الله بن جعفر عن حليمة بنت الحارث السعدية » [العلامة ابن حجر – الإصابة ج٧ ص٥٨٤ رقم:١١٠٥٠].

(٤) الشيخ مهران محمد نجيب البهنسى – النبى الخاتم محمد ﷺ ص٥٣ – طبعة أولى ١٣٣٥هـ.

إذن هو الذى تعبد الله منذ لحظات حياته الباكرة، فصار قائد الذين خلقهم الله تعالى لخدمته وجنته، لما هو معروف أن الله تعالى جعل الخلائق المكلفين على أربعة أقسام:-

* **<u>الأول: قوم خلقهم الله تعالى لخدمته وجنته</u>**: وهم الأنبياء والأولياء الصالحون والمؤمنون الذين عاشوا فى الدنيا بين آثاره وأنواره، اطمأنت بذكر الله تعالى قلوبهم، وطابت بطاعة الله تعالى حياتهم، وغنت بمحبته جل وتعالى أنوارهم، ورفعت إلى الملكوت أذكارهم(1).

قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾(2).

يقول الحافظ ابن كثير: « **هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى من بني** آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله وان هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله فإن أجره يكون بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»(3).

ودليل ذلك ما روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروا الحياة الطيبة بالرزق الحلال الطيب والقناعة التي تحقق السعادة في الدنيا والآخرة. وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [قال قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه](4).

---

(1) الشيخ عبد العزيز الديريني – طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ص١٩٤ – طبعة صبيح وهو غير مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب للإمام أبي حامد الغزالى، وإن كان كلاهما فى التصوف.

(2) سورة النحل – الآية ٩٧ .

(3) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٥٨٦.

(4) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص٧٣٠ – [٤٣] باب في الكفاف والقناعة – الحديث: ١٠٥٤ وأخرج ابن حبان بلفظ عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه قال قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا فصبر عليه » [ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص٤٤٤ – ذكر الإخبار عن من صار من المفلحين في هذه الدنيا الزائلة: ٦٧٠] ، وأخرج ابن ماجة عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » [ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٨٦ – [٩] باب القناعة – الحديث: ٤١٣٧]، وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » [صحيح مسلم ج٢ ص٧٣٠ – [٤٣] باب في الكفاف والقناعة – الحديث: ١٠٥٥، سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٨٧ – الحديث: ٤١٣٩]

... [illegible] عمرو] أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قد [illegible] الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به][1].

[illegible] مالك قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا [illegible] حسنة يعطي بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيطعم [illegible] حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا][2].

*** __اثنانى قوم خلقهم الله لجنته دون خدمته__. وهم الذين عاشوا كفارا، ثم ختم الله لهم بالإيمان، أو فرطوا مدة حياتهم وانهمكوا فى العصيان، ثم تاب الله عليهم عند الخاتمة، فماتوا على حالة التوبة والإحسان، كسحرة فرعون أمنوا بالله وقتلوا من يومهم ذلك، فدخلوا الجنة، وكانوا أول النهار يحلفون "وعزة فرعون أنا لنحن الغالبون"[3]، ثم بعد الضحى حلفوا، ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾[4].

وفى الحديث الشريف : « عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم

---

(١) الإمام الطبرانى – المعجم الكبير ج١٨ ص٣٠٦ – الحديث:٧٨٧ ، وأخرجه الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٨٦ – [٩] باب القناعة – الحديث: ٤١٣٨ عن عبدالله بن عمرو، وأخرجه العجلونى – كشف الخفاء ج١ ص١٧٨ – الحديث:٤٧٣.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٣ ص١٢٣ – الحديث: ١٢٢٥٩ ، ج٣ ص١٢٥ – الحديث: ١٢٢٨٦ ، ج٣ ص٢٨٣ – الحديث:١٤٠٥٠ ، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص١٠١ – ذكر البيان بأن الله جل وعلا قد يجازي المؤمن على حسناته في الدنيا كما يجازي على سيئاته فيها – الحديث:٣٧٧ ، وأبو يعلى – مسند أبي يعلى ج٥ ص٢٣١ – الحديث:٢٨٤٤ .

(٣) الشيخ عبدالعزيز الديرينى – طهارة القلوب ص١٩٥ .

(٤) سورة طه – الآيتان ٧٢/٧٣ ، وفى التفسير يقول العلامة القرطبى : « قوله تعالى قالوا يعني السحرة لن نؤثرك أي نختارك على ما جاءنا من البينات القائمة فى اليقين والعلم؛ لأنهم لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلهذا قالوا لن نؤثرك وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب فقيل لها غلب موسى وهرون فقالت آمنت برب موسى وهرون فأرسل إليها فرعون فقال انظروا أعظم صخرة فإن مضت على قولها فألقوها عليها فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها في الجنة فمضت على قولها فانتزع روحها وألقيت الصخرة على جسدها وليس في جسدها روح وقيل قال مقدم السحرة لمن يثق به لما رأى من عصا موسى ما رأى انظر إلى هذه الحية هل تخوفت فتكون جنيا أو لم تتخوف فهي من صنعة الصانع الذي لا يعزب عليه مصنوع فقال ما تخوفت فقال آمنت برب هرون وموسى والذي فطرنا. والمعنى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ولا على الذي فطرنا أي خلقنا وقيل هو قسم أي والله لن نؤثرك فاقض ما أنت قاض التقدير ما أنت قاضيه » [الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص٢٢٥/٣٢٦] ولن يكون فى [illegible] ما يبتلينا الله تعالى به.

يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة في مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[1]، والعبرة بالخواتيم. فمن قدر الله له فعل الخير وأعانه عليه، هداه للإيمان ويسر له أسبابه، ومن كان يرائى فى عمله، أو يصانع الناس فى عبادته، فإن ذلك كله مردود عليه ومعاقب به.

وعن سهل قال: « التقى النبي صلى الله عليه وسلم والمشركون في بعض مغازيه فاقتتلوا فمال كل قوم إلى عسكرهم وفي المسلمين رجل لا يدع من المشركين شاذة ولا فاذة إلا اتبعها فضربها بسيفه فقيل يا رسول الله ما أجزأ أحد ما أجزأ فلان فقال إنه من أهل النار فقالوا أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار فقال رجل من القوم لأتبعنه فإذا أسرع وأبطأ كنت معه حتى جرح فاستعجل الموت فوضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فجاء الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أشهد أنك رسول الله فقال وما ذاك فأخبره فقال إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة »[2].

❁ **الثالث: قوم خلقهم الله تعالى لا لخدمته**، ولا لجنته وهم الكافرون الذين يموتون على الكفر فى الدنيا، فهم حرموا فى الدنيا نعيم الإيمان، وفى الآخرة مخلدون فى العذاب والهوان، لقوله تعالى: ﴿إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٣ ص١٢١٢ – [٦٤] كتاب الأنبياء [١] باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته – الحديث رقم: ٣١٥٤، صحيح البخاري ج٦ ص٢٤٣٣ – [٨٥] كتاب القدر الحديث رقم: ٦٢٢١، وأخرجه سلم – صحيح سلم ج٤ ص٢٠٣٦ – [٤٦] كتاب القدر – [١] باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته الحديث رقم: ٢٦٤٣ .

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٥٤١ – الحديث رقم: ٣٩٧٠ .

فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾[١].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير** : « الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد فقالوا إنه من يأت ربه مجرما بحيث يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى كقوله لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور[٢]، وقال ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى[٣]، وقال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون[٤].

وعن أبي سعيد قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل][٥].

---

(١) سورة طه – الآيات ٧٤/٧٦ .

(٢) سورة فاطر – من الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأعلى – الآيات ١١/١٣ .

(٤) سورة الزخرف – الآية ٧٧ .

(٥) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج١ ص١٧٢ – [٨٢] باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار – الحديث: ١٨٥ ، وأخرجه ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٤٤١ – [٣٧] باب ذكر الشفاعة – الحديث: ٤٣٠٩ ، وأخرجه الإمام أحمد – مسند أحمد ج٣ ص١١ – الحديث: ١١٠٩٢، ج٣ ص٩ – الحديث: ١١٨٧٥، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١ ص٤١١ – ذكر الإخبار بأنهم يعودون بيضا بعد أن كانوا فحما يرش أهل الجنة عليهم الماء – الحديث: ١٨٤، والمراد بـ [(ضبائر ضبائر) منصوب على الحال. وهو جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها. أشهرها الكسر. ويقال فيها أيضا: إضبارة. قال أهل اللغة: الضبائر جماعات في تفرقة. (فبثوا) معناه فرقوا]. وراجع صحيح مسلم بشرح النووي – الحديث: ٣٠٦ .

وقوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات أي ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله فأولئك لهم الدرجات العلى حيث ينعمون في الجنة ذات الدرجات العاليات والغرف الآمنات والمساكن الطيبات »[١].

وعن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تخرج الأنهار الأربعة والعرش فوقها فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس][٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس قال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة][٣].

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين][٤]. فلهم عند الله تعالى جنات العلى التي « تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها على سبيل

---

(١) الإمام الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص١٦١ .

(٢) الإمام الترمذي – سنن الترمذي ج٤ ص٦٧٥ – الحديث: ٢٥٣١. وأخرجه العلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٥٣ – الحديث: ٢٦٧

(٣) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٣ ص١٠٢٨ – [٤] باب درجات المجاهدين في سبيل الله – الحديث: ٢٦٣٧ ، ج٦ ص٢٧٠٠ – الحديث: ٦٩٨٧.

(٤) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٣ ص١١٨٨ – [٨] باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة – الحديث: ٣٠٨٣ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢١٧٧ – [٣] باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء – الحديث: ٢٨٣١ ، وابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٦ ص٤٠٤ – ذكر البيان بأن الغرف التي ذكرنا نعتها هي للمؤمنين في الجنة دون الأنبياء والمرسلين – الحديث: ٧٣٩٣ ، وأخرجه الترمذي وأحمد عن أبي هريرة – سنن الترمذي ج٤ ص٦٩٠ – [١٩] باب ما جاء في ترائي أهل الجنة في الغرف – الحديث: ٢٥٥٦ . مسند أحمد ج٢ ص٣٣٥ – الحديث: ٨٤٠٤ ، ج٢ ص٣٣٩ – الحديث: ٨٤٥٢ وأخرجه ابن حبان عن سهل بن سعد – صحيح ابن حبان ج١ ص٤٣٩ – ذكر وصف الدرجات في الجنان لمن صدق الأنبياء والمرسلين عند شهادته لله جل وعلا بالوحدانية – الحديث: ٢٠٩

المكث الدائم، وذلك جزاء من تزكى أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك وعبد الله وحده لا شريك له وأتبع المرسلين فيما جاؤا به من خير وطلب »[1].

✲ **<u>الرابع: قوم خلقهم الله تعالى لخدمته</u>**، دون أن يكون لهم نصيب في جنته، وهم الذين كانوا عاملين بطاعة الله تعالى ثم مكر بهم حيث وقع عليهم التبدل، فتحولوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، وماتوا على الكفر بالله[2] رب العالمين؛ لأنهم كانوا يعبدون الله تعالى على حرف، والله تعالى قال في شأنهم وأمثالهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين * يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾[3].

۞ **يقول العلامة الطبرى:** « ومن الناس من يعبد الله على حرف أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرين من باديتهم فإن نالوا رخاء من عيش بعد الهجرة والدخول في الإسلام أقاموا على الإسلام وإلا ارتدوا على أعقابهم فقال الله ومن الناس من يعبد الله على شك فإن أصابه خير اطمأن به وهو السعة من العيش وما يشبهه من أسباب الدنيا اطمأن به يقول استقر بالإسلام وثبت عليه، وإن أصابته فتنة وهو الضيق بالعيش وما يشبهه من أسباب الدنيا انقلب على وجهه يقول ارتد فانقلب على وجهه الذي كان عليه من الكفر بالله[4]، قبل أن يدخل الإسلام الذى خرج منه؛ لأنه دخل فيه من باب الفتنة والعبادة على حرف.

---

(١) الإمام ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٣ ص: ١٦١/١٦٠ .

(٢) الشيخ عبدالعزيز الديريني – طهارة القلوب ص١٩٥ .

(٣) سورة الحج – الآيات ١٣/١١ .

(٤) وعن قتادة من يعبد الله على حرف قال شك، فإن أصابه خير يقول أكثر ماله وكثرت ماشيته اطمأن قال لم يصبني في ديني هذا منذ دخلته إلا خير وإن أصابته فتنة يقول وإن ذهب ماله وذهبت ماشيته انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة. [تفسير الطبرى ج١٣ ص١٢٢]

وعن ابن عباس قال: الفتنة البلاء كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما رضي به واطمأن إليه وقال ما أصبت منذ كنت علي ديني هذا إلا خيرا وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرا وذلك الفتنة »[1]، قال ابن جريج كان ناس من قبائل العرب وممن حولهم من أهل القرى يقولون نأتي محمدا صلى الله عليه وسلم فإن صادفنا خيرا من معيشة الرزق ثبتنا معه وإلا لحقنا بأهلنا،

وذكر الضحاك أنه كان ناس من قبائل العرب وممن حول المدينة من القرى يقولون نأتي محمدا صلى الله عليه وسلم فننظر في شأنه فإن صادفنا خيرا ثبتنا معه وإلا لحقنا بمنازلنا وأهلينا، وكانوا يأتونه فيقولون نحن على دينك فإن أصابوا معيشة ونتجوا خيلهم وولدت نساؤهم الغلمان اطمأنوا وقالوا هذا دين صدق وإن تأخر عنهم الرزق وأزلقت خيولهم وولدت نساؤهم البنات قالوا هذا دين سوء فانقلبوا على وجوههم[2]، قال ابن زيد في قوله ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة قال هذا المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، وإذا أصابته شدة أو فتنة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر[3]، فلم يقصد من دخوله الإيمان إلا ما فيه مصالحه، أما إذا تأخرت تلك المنافع؛ فإن ارتداده إلى الكفر يكون هو القاعدة الأصلية التي يقوم عليها، ومن ثم فهو قد خسر الدنيا والآخرة يقول غبن هذا الذي وصف جل ثناؤه صفته دنياه لأنه لم يظفر بحاجته منها بما كان من عبادته الله على الشك ووضع في تجارته فلم يربح والآخرة يقول وخسر الآخرة فإنه معذب فيها بنار الله الموقدة، وقوله ذلك هو الخسران المبين يقول وخسارته الدنيا والآخرة هي الخسران والهلاك المبين حيث يبين لمن فكر فيه وتدبره أنه قد خسر الدنيا والآخرة.

---

(١) العلامة الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج١٧ ص١٢٢ .

(٢) ولا شك أن ذلك هو عبادة السفهاء المفتونين في دين الله، الذين عاشوا على النفاق.

(٣) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٧ ص ١٢٣ .

وقوله تعالى "يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد" يقول تعالى ذكره وإن أصابت هذا الذي يعبد الله على حرف فتنة ارتد عن دين الله يدعو من دون الله آلهة لا تضره إن لم يعبدها في الدنيا ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها، ذلك هو الضلال البعيد حيث يكون ارتداده ذلك داعيا من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة والذهاب عن دين الله ذهابا بعيدا، قال ابن زيد في قوله يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه يكفر بعد إيمانه ذلك هو الضلال البعيد

ثم إن هذا المنقلب على وجهه إن أصابته فتنة آلهة لكنها لضرها في الآخرة له أقرب وأسرع إليه من نفعها، وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه يدعو من ضره أقرب من نفعه[١]، لبئس المولى الذى يتولاه هذا الذي يعبد الله على حرف، ولبئس العشير المعاشر والصاحب المخالط؛ لأن العشير هو المعاشر الصاحب، وقد قيل عني بالمولى في هذا الموضع الولي الناصر، وكان مجاهد يقول عني بقوله لبئس المولى ولبئس العشير الوثن »[٢].

والمؤكد أن الرسول ﷺ قبل بعثته كان نموذجا إنسانيا رائعا، وقدوة متميزة فى كل الجوانب الإيجابية من إعانة الضعيف، وإغاثة الملهوف، وحمل الجريح والمكلوم، وإقراء الضيف بجانب الأمانة والوفاء بالعهد والالتزام بالوعد، وحفظ أسرار الخلائق، والسعي فى المصالح التى تحقق الفائدة للمجتمع الإنسانى بوجه عام، فلم يكن عاطلا، بل كان عاملا رعى الغنم بالأجر، ففى الحديث الشريف: « عن عبدالرحمن بن عوف قال مر بنا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نجتني ثمر الأراك

---

(١) قال العلامة الطبرى : « واختلف أهل العربية في موضع من فكان بعض نحويي البصرة يقول موضعه نصب ب يدعو ويقول معناه يدعو لآلهة ضرها أقرب من نفعها ويقول هو شاذ لأنه لم يوجد في الكلام يدعو لزيدا، وكان بعض نحويي الكوفة يقول اللام من صلة ما بعد من كأن معنى الكلام عنده يدعو من لضره أقرب من نفعه وحكي عن العرب سماعا منها عندي لما غيره خير منه بمعنى عندي ما لغيره خير منه وأعطيتك لما غيره خير منه بمعنى ما لغيره خير منه » [تفسير الطبرى ج١٧ ص١٢٣].

(٢) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٧ ص: ١٢٥/١٢٢ .

فقال عليكم بالأسود منه فإني كنت أجتنيه وأنا أرعى الغنم قالوا رعيت يا رسول الله قال نعم ما من نبي إلا وقد رعاها »[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم فقال أصحابه وأنت فقال نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[2]، لأنها صنعة تعلم أصحابها الصبر، وتحفزهم على ممارسة النشاط. بجانب اليقظة الدائمة، والحذر التام؛ لأن الأرض المسبعة يكون الراعي فيها حذرا على غنمه، حذرا على نفسه، وذلك كله مما كان يتحلى به رسول الله ﷺ.

وكان التعاون سمة من سماته؛ لأن التعاون يفضي إلى تحقيق المصالح المشتركة بين الناس، والله تعالى يقول: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[3].

❁ **يقول العلامة القرطبى**: « هو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى حتى يعين بعضكم بعضا وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه وهذا موافق لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الدال على الخير كفاعله وقد قيل الدال على الشر كصانعه، ثم إن البر والتقوى لفظان بمعنى واحد وكرر باختلاف اللفظ تأكيدا ومبالغة إذ كل بر تقوى وكل تقوى بر[4].

---

(١) الحافظ نور الدين الهيثمي – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٨ ص٢٢٩ ، وذكره أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء ج٧ ص٢٣٩ .

(٢) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٢ ص٧٨٩ – [٤٢] كتاب الإجارة – [٢] باب رعي الغنم على قراريط – الحديث رقم: ٢١٤٣ .

(٣) سورة المائدة – من الآية ٢ .

(٤) قاله جمع من نحاة الكوفة مستدلين بأن أحدهما يغني عن الآخر، ويحل محله، وحجتهم ضعيفة؛ لأنهما وردا كلفظين مستقل كل منهما عن الآخر في المادة الصرفية. [راجع للشيخ محمود محمد النجدي – الصرف العربي ص١١٢].

قال ابن عطية وفي هذا تسامح ما والعرف في دلالة هذين اللفظين أن البر يتناول الواجب والمندوب إليه والتقوى رعاية الواجب، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فبتجوز[١].

وقال الماوردي[٢]: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته، وعمت نعمته، ثم إن التعاون على البر والتقوى يكون بوجوه، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم[٣]. ويعينهم الغني بماله[٤]، والشجاع بشجاعته في سبيل الله[٥]، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة.

---

(١) والتجوز فى الاستعمال كالتسامح لابد من أن تكون فيه قرينة، أما إذا لم توجد القرينة، فإن الأمر يكون مجرد شكل من أشكال الأوعاء.

(٢) الإمام الماوردى : هو الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، من كبراء فقهاء الشافعية، ولد ٣٦٤هـ ، توفي سنة ٤٥٠هـ، وعمره ست وثمانون سنة . وهو صاحب الحاوي الكبير ، وصاحب التصانيف الكثيرة في الأصول والفروع والتفسير والأحكام السلطانية وأدب الدنيا والدين قال بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة يعني الإقناع ، وصاحب أعلام النبوة ، وقد ولي الحكم في بلاد كثيرة وكان حليما وقورا أديبا لم ير أصحابه ذراعه يوما من الدهر من شدة تحرزه وأدبه وقد استقصيت ترجمته في الطبقات توفي عن ست وثمانين سنة ودفن بباب حرب . راجع البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثاني العشر ص٥١٧ – طبعة دار الغد العربية ، وراجع أبجد العلوم للعلامة الفتوحى (٢/ ٤٩٣)

(٣) وهو التعاون العلمى الذى به يفسح العالم فى صدره ومجلسه، حتى يعلم من ليس لديه ذات العلم. وفى الحديث الشريف عن جابر قال قال رسول الله إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل على محمد [الطبرانى – المعجم الأوسط ج: ١ ص: ١٣٧ – الحديث: ٤٣٠].

(٤) وهذه الإغاثة المالية تدخل فى إطار التكافل الاجتماعى الذى يبتدئ بالزكاة ثم الصدقات، ثم القرض الحسن، والهبة المشتركة إلى أخر ما يقوم عليه ذلك الجانب من التعاون فى مصالح الحياة .

(٥) ويتمثل ذلك فى نصرة المظلوم، ودفع المظالم، ودفع العدوان عن أهل الإسلام، والوقوف فى وجه دولة الظلم والكفران.

ففى الحديث الشريف عن على بن أبى طالب قال: [قال رسول الله ﷺ المؤمنون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم][1]. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال [خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فقال فيه والمسلمون يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم يرد عليهم أقصاهم ترد سراياهم على قعدتهم][2].

ويجب الإعراض عن المتعدي وترك النصرة له ورده عما هو عليه ثم نهى عن أمور بعينها فقال ولا تعاونوا على الإثم والعدوان وهو الحكم اللاحق عن الجرائم وعن العدوان وهو ظلم الناس ثم أمر بالتقوى وتوعد توعدا مجملا فقال واتقوا الله إن الله شديد العقاب »[3].

۞ **ويقول أبو نعيم الأصبهانى**: « قال سفيان بن عيينة عندما سئل عن قوله تعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى" قال: هو أن تعمل به وتدعو إليه وتعين فيه وتدل عليه »[4]، لأن الإنسان لم يخلق لنفسه وحده. وإنما خلق ليتعاون مع باقى أفراد المجتمع الإنسانى، حتى يتحقق الخير للجميع[5].

---

(١) الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص٨٩٥ – [٣١] باب المسلمون تتكافأ دماؤهم – الحديث: ٢٦٨٣، وأخرج النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٨ ص٢٠ –[١٠] باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس – الحديث: ٤٧٣٥ ، والحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص١٥٣ – الحديث: ٢٦٢٣ ، والبيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٨ ص١٩٣ – الحديث: ١٦٥٩٠ وزاد (لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده)، وأخرج النسائى سنن النسائي (المجتبى) ج٨ ص١٩ – [١٠] باب القود بين الأحرار والمماليك في النفس – الحديث: ٤٧٣٤. والبيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٨ ص٢٩ – الحديث: ١٥٦٨٨ وزاد (ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ألا من أحدث حدثا أو آوى محدثنا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)

(٢) الإمام البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٥١ – الحديث: ١٧٧٣٧ .

(٣) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ٦ ص: ٤٦/٤٧ .

(٤) العلامة أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج٧ ص٢٨٤ .

(٥) راجع فى ذلك كتابنا: الغزاليات فى النبوات، وكتابنا الغزاليات فى السمعيات، وكتابنا: لماذا انتشر الإسلام ج١ .

فكان صفاؤه ﷺ يدفعه إلى ممارسة الأعمال التى يؤكل إليه أمرها بكل همة واجتهاد ونشاط، يستوى فى ذلك عمله برعى الغنم، أو حمل الحجارة لبناء الكعبة، أو دفع النبال عن أعمامه فى حرب الفجار، أو غير من الأعمال التى أوكلت، حتى فى طهى الشاة التى قال فيها وَعَلَيّ جمع الحطب ، حيث اختار أشق الأعمال فى المسألة[1].

فلما يفع تمثلت فيه الأعمال الخيِّرة أكثر من ذي قبل أصدق تمثيل، فكان تاجرا صادقا، أمينا رغم أنه لم يكن صاحب مال، بل كان يستأجره أصحاب الأموال، حتى يذهب فى تجارتهم بيعا فيها أو شراء لها[2]، فلما سمعت السيدة خديجة به طلبته ليعمل فى تجارتها، لما عرفته عنه من صدق فى القول والعمل، وأمانة فى كل ما يصدر عنه، أو يوكل إليه.

وكان ﷺ يقوم بذلك كطبيعة ثابتة فيه، حيث قد أعدته العناية الإلهية لهذا كله بدءا من الرضاع وشق الصدر وهما من الدلائل على أن رعاية الله تعالى للنبى الخاتم كانت تأتيه على كل ناحية[3]، وقد أمتن الله علينا بهذا النبى العظيم الخاتم فى قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾[4].

❁ **يقول الحافظ ابن كثير** : « إن هذه الأمة المحمدية هى خير الأمم، فقال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس، عن أبي هريرة رضي الله عنه كنتم خير أمة أخرجت للناس قال خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ولهذا قال تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله[5].

---

(١) راجع كتابنا: لماذا انتشر الإسلام ج٢ ص٧٥ – الطبعة الخامسة .

(٢) الشيخ محمود محمد ثروت – النبى محمد ص١٣٧ .

(٣) الدكتور رءوف شلبى – بشائر النبوة الخاتمة ص١١٧ وما بعدها.

(٤) سورة آل عمران – الآية ١١٠ .

(٥) الإمام البخارى – صحيح قال البخاري – رقم: ٤٥٥٧ .

وعن درة بنت أبي لهب[1] قالت [قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال يا رسول الله أي الناس خير قال خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم][2].

والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما قال في الآية الأخرى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي خيارا لتكونوا شهداء على الناس[3].

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامة »[4].

---

(١) درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية بنت عم النبي عليه السلام أنه سئل أي الناس خير قال أتقاهم لله وروت أيضا عن عائشة أم المؤمنين روى عنها علي بن أبي طالب وعبد الله بن عميرة وغيرهما ذكرها بن حبان في الصحابة من كتاب الثقات قال وأمها أم جميل بنت حرب بن أمية واسمها فاختة وهي حمالة الحطب التي أنزل الله فيها ما أنزل. [راجع الإكمال للحسيني ج١ ص٦٢٠ - رقم:١٤٦٧، و تعجيل المنفعة ج١ ص٥٥٦ قم:١٦٣٨].

(٢) الإمام أحمد بن حنبل - أحمد في مسند أحمد - الحديث: ١٣٧٢ والنسائي في سننه كبرى - الحديث: ١١٠٧٢ والحاكم في المستدرك - الحديث: ٢٢٩٤ .

(٣) ففي الحديث الشريف عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذي ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه. [الإمام الترمذى - - سنن الترمذى - الحديث ٣٠٠١ . وابن ماجه - سنن ابن ماجه - الحديث:٤٢٨٧ . والحاكم فى المستدرك - الحديث: ٤٨٤ . والإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد - الحديث:٤٤٤٧]

(٤) الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج١ ص٣٩٢ . وذكر الإمام ابن كثير فى معنى الآية إن الله تعالى يقول يا عيسى إني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم قال يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم قال أعطيهم من حلمي وعلمي. فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجل واحد فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفا فقال أبو بكر رضي الله عنه فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادي. [الإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد - الحديث رقم:١٩] وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن ربي أعطاني سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فقال عمر يا رسول الله فهلا استزدته فقال استزدته فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفا قال عمر فهلا أستزدته قال قد أستزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني. [الإمام أحمد -المسند - الحديث: ١١٩٧]

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء فقلنا يا رسول الله ما هو قال نصرت بالرعب وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد وجعل التّراب لي طهورا وجعلت أمتي خير الأمم][١].

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم [قال عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى صلى الله عليه وسلم وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما الذي تخوضون فيه فأخبروه فقال هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة][٢].

ولا شك أن أهل الإسلام هم أهل الصفاء، الذين يسبقون الأمم إلى نعم الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [نحن

---

(١) **الإمام البيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج١ ص٢١٣ – الحديث: ٩٦٥ ، مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص٣٠٤ – الحديث: ٣١٦٤٧ ، مسند أحمد ج١ ص٩٨ – الحديث: ٧٦٣ ، ج١ ص١٥٨ – الحديث: ١٣٦١.**

(٢) **الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٥ ص٢١٧٠ – [٤١] باب من لم يرق – الحديث: ٥٤٢٠ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج١ ص١٩٩ – الحديث: ٢٢٠. وعن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا أو سبع مئة ألف آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر. [الطبراني – المعجم الكبير – الحديث: ٦٥٧٨٢ ، وأخرجه البخاري – صحيح البخاري – الحديث: ٦٥٥٤ ، ومسلم – صحيح مسلم – الحديث: ٢١٩]**

الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع غدا لليهود وللنصارى بعد غد][1]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي][2].

ويدخل في معنى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله فكل من اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح كما قال قتادة بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية كنتم خير أمة أخرجت للناس ثم قال من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها، ومن لم يتصف بذلك تشبه بأهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه الآية ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى ولو آمن أهل الكتاب بما أنزل على محمد لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم وأكثرهم على الضلالة

---

(١) الإمام البخارى – البخاري – صحيح البخارى – الحديث: ٨٩٦، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم – الحديث: ٨٤٩.

(٢) الطبرانى – المعجم الأوسط ج١ ص٢٨٩ – الحديث: ٩٤٢ ، والهيثمى فى الزوائد ج١٠ ص٦٩ . وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مالك عن مكحول « قال كان لعمر على رجل من اليهود حق فأتاه يطلبه فلقيه فقال له عمر لا والذي اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على البشر لا أفارقك وأنا أطلبك بشيء فقال اليهودي ما اصطفى الله محمدا على البشر فلطمه عمر فقال بيني وبينك أبو القاسم فقال إن عمر قال لا والذي اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على البشر قلت له ما اصطفى الله محمدا على البشر فلطمني فقال أما أنت يا عمر فأرضه من لطمته بلى يا يهودي سمي الله باسمين سمى بهما أمتي هو السلام وسمى أمتي المسلمين وهو المؤمن وسمى أمتي المؤمنين بلى يا يهودي طلبتم يوما وذخر لنا اليوم لنا وغدا لكم وبعد ذلك للنصارى بلى يا يهودي أنتم الأولون ونحن الآخرون السابقون يوم القيامة بلى إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها وهي محرمة على الأمم حتى تدخلها أمتي » [مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص٣٢٧ – الحديث: ٣١٨٠٢]

والكفر والفسق والعصيان ثم قال تعالى مخبرا عباده المؤمنين ومبشرا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين »[1].

وامتن الله على نبينا محمد ﷺ فقال: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾[2].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير**: « يعدد الله عز وجل نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه قائلا: "ألم يجدك يتيما فآوى" وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه وقيل بعد أن ولد عليه السلام ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به[3].

۞ **وفي تقديري**: أن المعنى أعم من ذلك وأدق، لأن الرسول ﷺ كان يتيم الأب، ثم ماتت أمه وهو غريب عن ديار أهله صغير السن، لم يتجاوز السادسة من عمره، وكانت معه حاضنته أم أيمن، فلو باعته كما يباع الرقيق ما عرف أحد طريقه، ولو ادعت أنها مولاته، وأنه عبدها ما عرف طريقه أحد من أهله، ولو ألقت به في غياهب الجب، كما فعل أخوة يوسف به، ما وصل إليه أحد من أقاربه، ولكن الله

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج١ ص٣٩٧ .

(٢) سورة الضحى – الآيات ٦/١١ .

(٣) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٤ ص٥٢٤ .

تعالى ألقى في قلبها حبه، فاحتملته إلى ديار أهله. وظلت أمة عنده ﷺ[1]. وهو معنى قوله تعالى ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾.

وقوله تعالى "ووجدك ضالا فهدى" كقوله وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا الآية ومنهم من قال أن المراد بهذا أن النبي صلى الله عليه وسلم ضل في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع،وقيل إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكبا ناقة في الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق[2]،وكلها أوجه تمثل اجتهادات قامت أمام أنظار أصحابها على أدلة استوت قواعدها لديهم.

وقوله تعالى "ووجدك عائلا فأغنى" أي كنت فقيرا تُعَالُ فأغناك الله عمن سواه فجمع له مابين مقامين الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه وقال قتادة في قوله ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى قال كانت هذه منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله عز وجل[3].

ثم قال تعالى "فأما اليتيم فلا تقهر" أي كما كنت يتيما لا أب لك ولا أم، فجعل الله محبتك في قلب المحيطين بك، حيث آواك الله فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره وتهنه ولكن أحسن إليه وتلطف به بل كن لليتيم كالأب الرحيم. كما جعل الله تعالى ذلك في قلب أم أيمن وجدك عبدالمطلب وعمك أبي طالب، وكل من تعامل معك في طفولتك الأولى وصباك الباكر.

---

(١) وهذا يرجح عندي في فهم الآية على غيره؛ لأن أم أيمن كان بإمكانها أن تطلق نفسها من قيد العبودية، وهي لا تعرف إن كان هذا الصغير سيحافظ عليها، أم سيلقي بها على عادة قومه؛ لأن الغيب سر من أسرار الله جل علاه.

(٢) وهو بين الوجهين مما حكاه الإمام البغوي ونقلهما عنه من نقل.

(٣) رواه ابن جرير الطبري ، وربما دل عليه ما حكاه أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس، [وفي صحيح مسلم - الحديث: ١٠٥٤] عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه.

"وأما السائل فلا تنهر" أي وكما كنت ضالا فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد قال ابن إسحاق وأما السائل فلا تنهر أي فلا تكن جبارا ولا متكبرا ولا فحاشا ولا فظا على الضعفاء من عباد الله وفى نفس المعنى فإن عليط أن ترد المسكين برحمة ولين[1]، لأن ذلك مما يطمئنه ويزيل ما به من خوف وقلق.

"وأما بنعمة ربك فحدث" أي وكما كنت عائلا فقيرا فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك كما جاء في الدعاء المأثور النبوي واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا[2]، وعن النعمان بن بشير قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكرها وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب][3].

وأما بنعمة ربك فحدث قال ما عملت من خير فحدث إخوانك، وما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث فيها واذكرها وادع إليها قال فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرا إلى من يطمئن إليه من أهله وافترضت عليه الصلاة فصلى »[4].

وكانت ملامح الصفاء القلبى والنقاء الروحى والسمو الوجدانى لا تفارق رسول الله ﷺ قبل البعثة أبدا، حتى بدأت تراوده الرؤى الصادقة، فعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا

---

(١) وراجع للشيخ على الدين اليسرى: نظرات فى سورة الضحى ص١٧٥ طبعة ١٩٥٧م.

(٢) وعن أبي نضرة قال كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها [تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٢٤].

(٣) الإمام أحمد – مسند أحمد ج٤ ص٢٧٨ – الحديث: ١٨٤٧٢ ، وأخرجه البزار – مسند البزار – ج٨ ص٢٢٦ – الحديث: ٣٢٨٢. وعن أنس أن المهاجرين قالوا يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله قال لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس، وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ومن كتمه فقد كفره، وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من أعطي عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره.

(٤) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ٥٢٥/٥٢٤ .

الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[1]، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها..»[2].

وكان رسول الله ﷺ يذهب إلى شعاب مكة وبطون أوديتها خاليا بنفسه، مدربا إياها على المزيد من الصبر، بجانب تحنثه ﷺ في غار حراء متجها إلى الله بعقله وفكره وضميره، بحيث لم يكن يشغله عن الله تعالى أى شاغل أخر، وظل على ذلك حتى جاءه الوحي، فكان ذلك من تصوفه القلبي والعقلي. يقول الدكتور النشار: « إن مواقف الرسول ﷺ قبل الإسلام تصبح مواقف الصوفية فى الإسلام »[3]، فيما بعد الرؤيا الصادقة والخلوة وهو التحنث، فهو الأمين وهو العطوف، وهو الرحيم مع كل من يتعاملون معه، وهو أيضا العادل الذى لا يجور أو يحيد، وهو الصادق الذى لم يكذب أبدا.

وهو المواسى فى النكبات، وقد عبرت أم المؤمنين خديجة عن شيء من ذلك حين قالت له ﷺ حين جاءه الوحى أول مرة: « كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب

---

(١) كفلق الصبح بفتح الفاء واللام أي جاءت مجيئا مثل فلق الصبح والمراد به ضياؤه ونوره وعبر به؛ لأن شمس النبوة قد كانت مبادىء أنوارها الرؤيا إلى أن ظهرت أشعتها وتم نورها وحبب إليه الخلوة. [العلامة محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا المولود ١٢٨٣هـ المتوفى ١٣٥٣هـ – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج: ١٠ ص: ٧٦ – دار الكتب العلمية – بيروت – عدد الأجزاء١٠].

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج١ ص٤ – كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي – الحديث رقم:٣ والحديث سبق روايته كاملا بنفس الفصل. وروى أحمد عن عائشة قالت « أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة أو قال الرؤيا الصالحة شك بن المبارك قالت وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح »(الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٦ ص١٥٣ رقم: ٢٥٢٤٣).

(٣) الدكتور على سامى النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ص٨١/٨٠ – ط٨ دار المعارف .

الحق ...»[1]، وتؤدى الأمانة[2]، أبشر يا ابن العم والذى نفس خديجة بيده لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة[3]، ومن كان ذلك شأنه قبل البعثة فلاشك أنه المصطفى من قبل الله تعالى، حتى إنه من شدة صفائه يسر الله له الأسباب، فخاطبته الأحجار قبل أن يفْجُرَ الكفار، وفى الحديث الشريف « عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عَلَيّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن »[4].

ولا أتجاوز الحقيقية إذا قلت: إن تصوف الرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ قبل البعثة كان واضحا فى كل ما يصدر عنه، وأن أثاره كانت بادية عليه، يدركها القريب كما يلمسها البعيد، ويتعرف على ملامحها القاصى، كما كان يستفيد بها الدانى، وأن صفاءه القلبى والعقلى والوجدانى كان سمة أساسية فيه، كما ان زهده فى الحياة الدنيا متعا وملذات كان أكثر من وضوح الشمس فى رابعة النهار، إذ لم يكن هناك من هو أزهد منه فيها، أضف إلى ذلك أن قربه من رب العالمين -- قبل البعثة – واحتماءه به جعله يتصرف كأنه يوحى إليه إعلاما لا إلهاما، وصيره نجيا لربه قبل أن يأتيه جبريل الأمين بالوحي كاملا.

وآية ذلك أن الوحي حينا جاء رسول الله ﷺ أول مرة رجع رسول الله إلى خديجة يرتجف فؤاده، ويقول: زملونى زملونى، حتى إذا ذهب عنه الروع، أخبر

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص٤ كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي -- الحديث رقم:٣ وهذا جزء من حديث طويل سبق روايته، وراجع أيضا الإمام الحافظ الذهبى – تاريخ الإسلام ج٢ ص٤٤ والإمام السيوطى – الخصائص الكبرى ج١ ص٢٣٢ .

(٢) الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى – فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج١ ص٢٧/٢٨ المتن والشرح، وللعلامة ابن سعد – الطبقات الكبرى ج١ ص١٩٥ .

(٣) الإمام الحافظ ابن كثير – السيرة ج١ ص٤٠٤، وللإمام ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج٢ ص٤٠.

(٤) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص١٧٨٢ – ٤٣ كتاب الفضائل – ١ باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة صحيح مسلم – الحديث رقم:٢٢٧٧ ، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٤ ص٤٠٢ – ٥ باب المعجزات – الحديث:٦٤٨٢ ، والترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص٥٩٢ – [٥] باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله عز وجل به – الحديث:٣٦٢٤ ، والدارمي – سنن الدارمي ج١ ص٢٤ – الحديث:٢٠

خديجة الخبر، وقال لها: لقد خشيت على نفسي. وهنا ينبثق أمر: هل خشي الرسول ﷺ هل خشي على جسده. أم خشي على عقله وقلبه. أم خشي على شيء أخر؟

❋ **والجواب**: أن الرسول ﷺ لما رجع من ملاقاة أمين الوحي جبريل وكان وحيدا. وكانت المرة الأولى التي يأتيه الوحي يقظة. وبالصورة الملائكية الطبيعية، وقد رجع بالنبوة الواضحة له وبالآيات البينات عنده، فرجفة فؤاده كان نوعا من الغبطة وفرحا بحاله، وإقبالا على الله تعالى. وبالتالي فإن خشيته على نفسه هى خشية أن يشتغل بغير الله عن الله، فإن ملازمات النبوة، ومعالجة شدة الوحي أعباء فوق طاقة البشر، وهو الذى خشيه على نفسه[1]، ولم يخشى شيئا أخر وراء ذلك.

۞ **والذى تطمئن إليه النفس**: أن الحبيب المصطفى ﷺ كان قبل البعثة رأسا فى الصفاء، بحيث يتمثل الصفاء فيه وحده، ثم يأخذ عنه غيره، ولما كان صوفية الإسلام قدوتهم هو رسول الله ﷺ، فلا شك أنهم على طريق الحق يسيرون؛ لأن اتباع الرسول الكريم واجب شرعى، ومخالفته محادة لله ورسوله. قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله

---

(١) العلامة الزرقانى – شرح المواهب اللدنية ج١ ص٢٢١. وقد استغل بعض المستشرقين تلك العبارة منه ﷺ "وقد خشيت على نفسي" وحاول تفسيرها بما لا يتفق مع مكانة المصطفى ﷺ، والمؤسف له أن بعضا ممن وثقوا فى المستشرقين نقلوا عنهم ذات الأفكار/ على أنها حقائق. بينما هى تجاوزات غير مقبولة، ووجهات نظر لم يقم دليل عليها؛ لأن الله تعالى حفظ رسول الله من ذلك كله. وقد تعقب تلك الأقوال الإمام العسقلانى بعد أن نقلها وبين فسادها. ثم قال: إن تصبب جبين الرسول عرقا، إنما كان من كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، إذ أنه أمر طارئ زائد على الطباع البشرية، وإنما كان كذلك ليبلو صبره فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة [العلامة شهاب الدين أحمد العسقلانى – إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى ج١ ص٢٤٠ ط٧ – المطبعة الكبرى الأميرية ١٣٢٣هـ.

غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾[1].

❁ **يقول العلامة القرطبي** : « نزلت الآية في وفد نجران إذ زعموا أن ما ادعوه في عيسى حب الله عز وجل قاله بن جعفر بن الزبير وقال الحسن وابن الجريح نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا نحن الذين نحب ربنا وروى أن المسلمين قالوا يا رسول الله والله إنا لنحب ربنا فأنزل الله عز وجل قل إن كنتم تحبون الله فأتبعوني قال ابن عرفة المحبة عند العرب إرادة الشيء على قصد له قال الأزهري محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما قال الله تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران قال الله تعالى إن الله لا يحب الكافرين أي لا يغفر لهم»[2].

وقال سهل بن عبدالله علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبلغة[3]. وعن ابن مسعود قال [من أحب أن يحبه الله ورسوله فلينظر فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله][4].

وقال أبو عبدالله الحارث بن أسد عندما سئل ما علامة محبة الله للعبد فقال للسائل « ما الذي كشف لك عن طلب علم هذا فقال قوله تعالى إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله فعلمت أن علامة محبة العبد لله اتباع رسوله ثم قال يحببكم الله فما علامة محبة الله للعبد؟ فقال لقد سألت عن شيء غاب عن أكثر الشرب إن علامة محبة الله للعبد أن يتولى الله سياسة همومه فيكون في جميع أموره هو المختار

---

(١) سورة آل عمران – الآيتان ٣٢/٣١ .

(٢) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج: ٤ ص: ٦٠, ٦٢ .

(٣) البلغة: ما يبلغ به إلى الدار الآخرة من متاع قليل، وعمل كثير. لقوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾ [سورة البقرة – من الآية ١٩٧]

(٤) العلامة الحافظ الهيثمي – مجمع الزوائد ج٧ ص١٦٥ .

لها ففي الهموم التي لا تعترض عليها حوادث القواطع ولا تشير إلى التوقف؛ لأن الله هو المتولي لها فأخلاقه على السماحة، وجوارحه على الموافقة، يحرز به ويحثه بالتهدد والزجر.

فقال السائل: وما الدليل على ذلك؟ فقال خبر النبي صلى الله عليه وسلم [إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه][1]. فقال السائل زدني من علامة محبة الله للعبد قال ليس شيء أحب إلى الله من أداء الفرائض بمسارعة من القلب والجوارح والمحافظة عليها ثم بعد ذلك كثرة النوافل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم [إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته][2].

فقال السائل: صف لي من علامات وجود قلبه قال محبوسة يا فتى في سر الملاطفة،مخصوصة بعلم المكاشفة،مقلبة بتنعم النظر في مشاهدة الغيب،وحجاب العز ورفعة المنعة،فهى القلوب التي أسرت أوهامها بعجب نفاذ إتقان الصنع فعندها تصاعدت المنى وتواترت على جوارحها فوائد الغنى فانقطعت النفوس عن كل ميل إلى راحة وانزعجت الهموم وفرت من الرفاهة فنعمت بسرائر الهداية وعلمت طرق الولاية وغذيت من لطيف الكفاية وأرسلت في روضة البصيرة وأحلت القلوب محلا نظرت فيه

---

(١) العلامة العجلونى – كشف الخفاء ج١ ص٨١ – الحديث: ١٩٠.

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢٣٨٤ – باب التواضع الحديث: ٦١٣٧، ورواه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج: ٢ ص: ٥٨ – ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله في أحواله عند قيامه بإتيان المأمورات وانزعاجه عن جميع المزجورات – رقم: ٣٤٧، ورواه البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج: ٣ ص: ٣٤٦ – باب الخروج من المظالم والتقرب إلى الله تعالى بالصدقة ونوافل الخير رجاء الإجابة– رقم: ٦١٨٨، ج١٠ ص: ٢١٩ – رقم: ٢٠٧٦٩، وراجع فى كتب الشروح فتح البارى ج١١ ص٣٤٤، ص٣٤٧، وتحفة الأحوذى ج١٠ ص٩٧، وشرح النووى على صحيح مسلم ج١٥ ص١٥١، وحلية الأولياء ج١ ص٤، ج١٠ ص٨٢، ص٩٩ .

بلا عيان وجالت بلا مشاهدة وخوطبت بلا مشافهة فهذا يا فتى صفة أهل محبة الله من أهل المراقبة والحياء والرضا والتوكل فهم الأبرار من العمال وهم الزهاد من العلماء وهم الحكماء من النجباء،وهم المسارعون من الأبرار،وهم دعاة الليل والنهار وهم أصحاب صفاء التذكار وأصحاب الفكر والاعتبار وأصحاب المحن والاختبار هم قوم أسعدهم الله بطاعته وحفظهم برعايته وتولاهم بسياسته فلم تشتد لهم همة ولم يتسقط لهم إرادة همومهم في الجد والطلب »[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض][2]. وعن أبي هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إني أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء قال ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء أن الله يبغض فلانا فأبغضوه قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض][3]، فقد يظن المرء بنفسه كل خير، لكنه لم يوضع له

---

(١) العلامة أبو نعيم الأصبهاني – حلية الأولياء – ج١٠ ص٩٩/١٠١ .

(٢) صحيح البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رحمه الله تعالى)ج٣ ص١١٧٥ باب: ذكر الملائكة. الحديث رقم: ٣٠٣٧، و باب: المقة من الله تعالى ج٥ ص٢٢٤٦ حديث رقم: ٥٦٩٣، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ج٦ ٢٧٢١ – الحديث: ٧٠٤٧ (الطبعة الثالثة – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م – تحقيق دكتور مصطفى الديب البغا). وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب: إذا احب الله عبدا حببه إلى عباده، رقم: ٢٦٣٧. والمراد بـ: [(القبول في الأرض) المحبة في قلوب من يعرفه من المؤمنين، ويبقى له ذكر صالح وثناء حسن]. والحديث ذكره ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) في فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٦ ص١٩٤ وبهامشه الجامع الصحيح للبخاري – المطبعة الخيرية مصر ١٣٢٥ .

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٣٠ – [٤٨] باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده – الحديث: ٢٦٣٧

القبول، ومن ثم فإنه منصرف إلى إشباع نفسه بالحقد على الآخرين. وأكالة الاتهامات لهم، والاستمرار في تجريحهم، حتى تبرأ منه ذمة الله وذمة رسوله.

وكأني بآمنة بنت وهب وقد استجاب الله دعاء قلبها الذى توجهت به إلى الله تعالى، روى أبو نعيم عن أم سماعة بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة بنت وهب في علتها التي ماتت فيها ومحمد غلام يفع له خمس سنين عند رأسها فنظرت آمنة إلى وجهه ثم قالت:

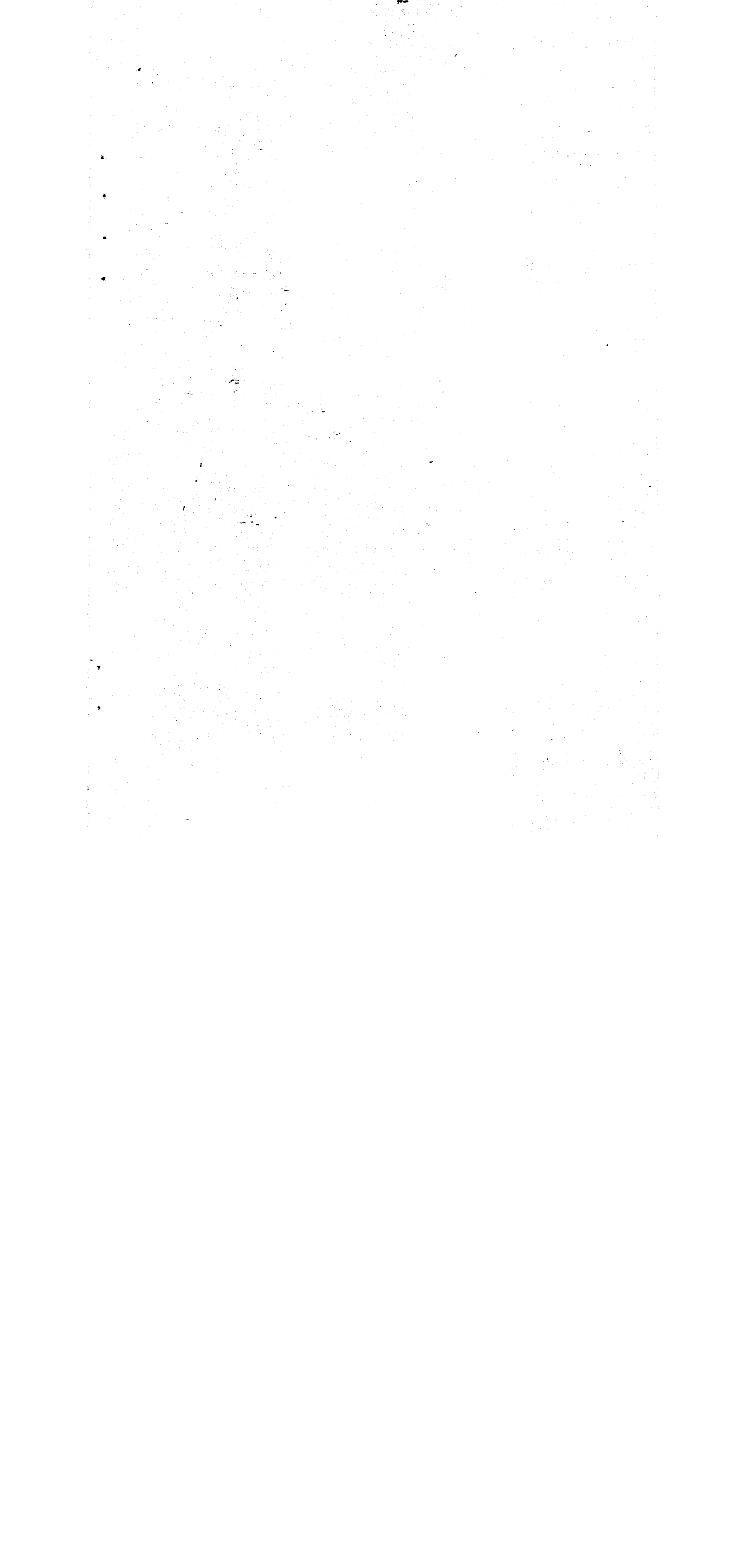
بارك فيك الله من غلام ∴ يا ابن الذى من حومة الحمام
نجا بعون الملك المنعام ∴ فودى غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سوام ∴ إن صح ما أبصرت في منامي
فأنت مبعوث إلى الأنام ∴ من عند ذى الجلال والإكرام
تبعث في الحل والحرام ∴ تبعث بالتحقيق والإسلام

ثم قالت: كل حي ميت ، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة، وذكرى باق، وقد تركت خيرا وولدت طُهرا ثم ماتت ودفنت بالأبواء[1] »[2]. وقد أكرمنا الله تعالى به نبيا لنا وخاتما للأنبياء، وشفيعا يوم نلقى الله إن شاء الله تعالى.

---

(١) الأبواء بالمد : هو بفتح الهمزة وسكون الباء موضع جبل بين مكة والمدينة وعندد بلد ينسب إليه. [لسان العرب ج١٤ ص١٤] وقال ابن الأثير : أرثد بفتح الهمزة وسكون الراء واد بين مكة والمدينة ، وهو وادى الأبواء . [النهاية في غريب الحديث ج١ ص٣٧]

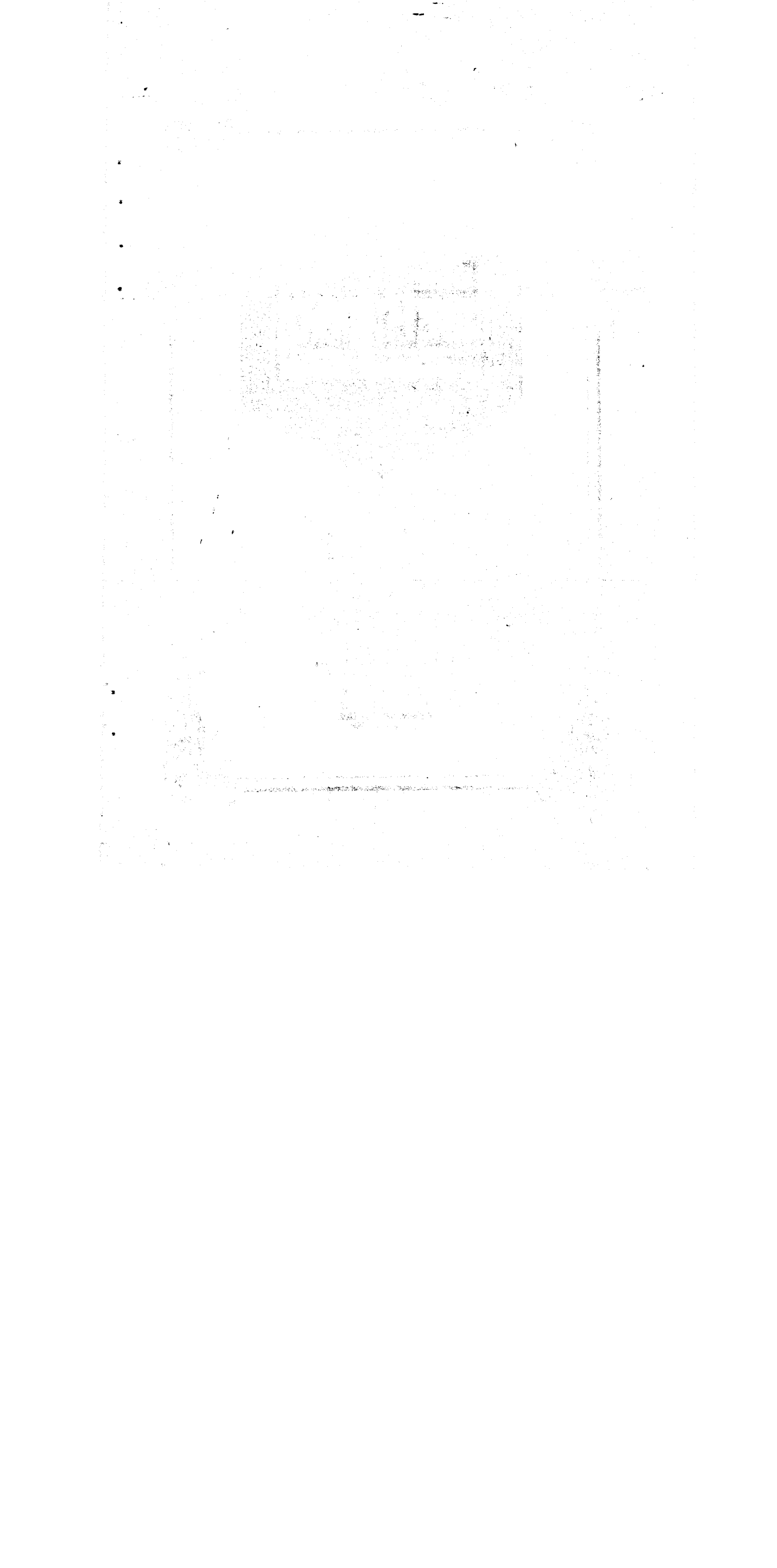
(٢) سبل الهدى والرشاد ج٢ ص١٦٤ والمواهب اللدنية ج١ ص٢١٨/٢١٩ .





الفصل الخامس

المتقطع والموصول في تصوف الرسول صلى الله عليه وسلم في البعثة



سلف الحديث عن ملامح التصوف فى حياة الرسول ﷺ قبل البعثة[١]. وهاأنذا أتناول بعض تلك الملامح فى بعثته المباركة ﷺ حتى انتقاله ﷺ للرفيق الأعلى، إذ تمثل شيء من ذلك فى شدة الإقبال على الله تعالى، والرغبة فيما عنده جل شأنه، والعزوف عن ملذات الدنيا الفانية. وعدم التعلق القلبى بها، حتى مع السيطرة عليها. وامتلاكها أولا من تسخيرها فى سبيل مرضاة الله؛ لأن ذلك من واجبات كل مسلم، إذ المسلم مكافح دائما فى سبيل الله، ومن أجل مرضاته. وقد امتلك المسلمون الأوائل الدنيا، ودانت لهم المعمورة. وخضعت لهم المارة. فاستخدموا كل ذلك فى الخير وإسعاد الإنسانية[٢]، على ما جاء شرع رب البرية.

والدارس لحياة الرسول ﷺ بحيدة وموضوعية، يراها مثلا أعلى فوق كل المثل العليا، كما أن الناظر إلى شرف رسول الله يجده فوق كل شرف، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « ما خلق الله خلقا أحب إليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ »[٣]، فقال جل شأنه: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[٤].

۞ **يقول العلامة الطبرى:** « يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وحياتك يا محمد إن قومك من قريش لفي سكرتهم يعمهون وهم لفي ضلالتهم وجهلهم يترددون، فعن ابن عباس قال ما خلق الله وما ذرأ وما نَفْسًا أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال الله تعالى

---

(١) بينما كنت أصحح هذا الباب وقد وقفت عند هذا الفصل منه، أرانى الله فى منامى فجر اليوم الأحد ٥ من ذى الحجة ١٤٢٢هـ الموافق ١٦ من فبراير ٢٠٠٢م أن هاتفا قلبيا يحدثنى، قائلا لى: ألف كتابا فى التصوف عنوانه المقطوع والموصول فى تصوف الرسول، فقمت من نومى فرحا، وصليت ما شاء الله لى أن أصلى، وأعاننى على العمل فى تصحيح هذا الجزء من الموسوعة، فإن أمد الله فى العمر فأكتب تحت ذلك العنوان والله المستعان.

(٢) الدكتور عبدالحليم محمود – القرآن والنبى ص١٩٨ .

(٣) الحافظ الذهبى – تاريخ الإسلام ج٢ ص٣٧٦ .

(٤) سورة الحجر – الآية ٧٢ .

ذكره لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون[١]. وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم قال وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون»[٢].

۞ **وقال الشافعي:** « إن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وليس ذلك لغيره لثبوت النهي عن الحلف بغير الله تعالى، وقد عد الأئمة ذلك في فضائل النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى أقسم به حيث قال لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون »[٣].

۞ وكيف لا تكون له تلك المنزلة، والله عز وجل قال فيه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٤].

وقال الشيخ المرزوقي - رحمه الله -:

خاتمة في ذكر باقي الواجب ∴	**مما على مكلف من واجب**
نبينا محمد قد أرسلا ∴	**للعالمين رحمة وفضلا**
أبوه عبدالله عبدالمطلب ∴	**وهاشم عبد مناف ينتسب**
وأمه آمنة الزهرية ∴	**أرضعته حليمة السعدية**[٥]

---

(١) وفي هذا دليل على من ينكر جواز الحلف برسول الله، إذ أنه قد حلف الله به على سبيل القسم، وبالتالي فلا دليل مع منكر الحلف به ﷺ.

(٢) ابن جرير الطبري – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٤ ص: ٤٥/٤٤ ، وعن أبي عن سفيان قال سألت الأعمش عن قوله: "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" قال: لفي غفلتهم يترددون، وقال قتادة "في سكرتهم" أي في ضلالتهم. "يعمهون" أي يلعبون، وقال مجاهد: "يعمهون" يترددون، وعن ابن عباس قوله "لعمرك" يقول لعيشك. "إنهم لفي سكرتهم يعمهون" قال يتمادون، وقيل: كانوا يكرهون أن يقول الرجل لعمري يرونه كقوله وحياتي .

(٣) العلامة محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب – عون المعبود شرح سنن أبي داود – ج٩ ص ٦٧ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ – الطبعة الثانية – عدد الأجزاء ١٠

(٤) سورة الأنبياء – الآية ١٠٧ .

(٥) العلامة الشيخ أحمد المرزوقي المالكي المكي – منظومة عقيدة العوام بهامش نور الظلام ص٢٥ .

❁ **وذهب العلامة محمد نووي الشافعي إلى أن رسول الله تعالى قد ارسله الله على الجهات الآتية:ـ**

١ـ إرسال تكليف إلى الإنس والجن

حيث إن الله تعالى أرسل سيدنا محمدا ﷺ إلى جميع المكلفين من الثقلين – الإنس والجن – إرسال تكليف إجماعا، وذلك معلوم من الدين بالضرورة. فيكفر جاحده[1]، وقد جاء بذلك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فمن القرآن الكريم في إرساله للإنس كافة قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[2].

❁ **يقول صاحبا الجلالين:** « "قل" خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ترشدون »[3].

وعن أبي إدريس الخولاني[4] قال « سمعت أبا الدرداء يقول كانت بين أبي بكر وعمر محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه أبو بكر

---

(١) هناك فرق بين المعلوم من الدين بالضرورة، والمعلوم من الدين بالنظر؛ لأن المعلوم بالضرورة بدهي. يستوى فيه الأمي والمتعلم وساكن القصور مع ساكن القبور، كوحدانية الله تعالى. وبعثة الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ واليوم الآخر والقضاء والقدر، أما إثبات تفاصيل الصفات الإلهية وعدد المرسلين، فهو من المعلوم من الدين بالنظر العقلي والبحث العلمي، والاجتهاد الفقهي، ولذا؛ أطلق عليه اسم المعلوم من الدين بالنظر لا بالضرورة. [راجع في ذات المسألة المطالب العالية للإمام الفخر الرازى ففيه تفاصيل ذلك، وبخاصة الجزء السابع والثامن].

(٢) سورة الأعراف – الآية ١٥٨ .

(٣) تفسير الجلالين ج: ١ ص: ٢١٧ .

(٤) أبو إدريس الخولاني : « عائذ الله بن عبد الله ويقال فيه عيذ الله بن إدريس بن عائذ بن عبد الله بن عتبة قاضي دمشق وعالمها وواعظها ولد عام الفتح. وحدث عن أبي ذر وأبي الدرداء وحذيفة وأبي موسى وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وعوف بن مالك الأشجعي وعقبة ابن عامر الجهني والمغيرة بن شعبة وابن عباس ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن حوالة وأبي مسلم الخولاني وعدة. حدث عنه أبو سلام الأسود ومكحول وابن شهاب وعبد الله ابن عامر اليحصبي ويحيى بن يحيى الغساني وعطاء بن أبي مسلم وأبو قلابة الجرمي ومحمود بن يزيد الرحبي ويونس بن ميسرة بن حلبس ويزيد ابن أبي مريم وربيعة القصير وآخرون . وعنه أنه قال: أدركت أبا الدرداء ووعيت عنه وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ووعيت عنهما وفاتني معاذ بن جبل. ومات أبو إدريس الخولاني سنة ثمانين ، وكان مولده عام حنين. بالتالى يكون عمره اثنتين و سبعين سنه رحمه الله » [سير أعلام النبلاء ج٤ ص٢٧٢ رقم: ٩٩]

يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما صاحبكم هذا فقد غامر قال وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر قال أبو الدرداء وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل أبو بكر يقول والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أنتم تاركون لي صاحبي هل أنتم تاركون لي صاحبي إني قلت يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت »[1].

ومن إرساله ﷺ للجن قوله تعالى: ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا﴾[2].

يقول العلامة ابن كثير : « يقول تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد حيث إلى السداد والنجاح فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾[3].

وكانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه

---

(١) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٤ ص١٧٠١ –[١٣٧] باب قوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا...﴾ الحديث:٤٣٦٤ .

(٢) سورة الجن – الآيات ١/٥ .

(٣) سورة الأحقاف – الآية ٢٩ .

وخفارته فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقا خوفا وإرهابا وذعرا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم، وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة »[1].

وعن عكرمة قال: كان الجن يَفْرَقُون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون فذلك قول الله عز وجل وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا.

وعن كردم بن أبي السائب الأنصاري[2] قال: خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم فوثب الراعي فقال يا عامر الوادي جارك فنادى مناد لا نراه يقول يا سرحان أرسله فأتي الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة[3].

ومن الحديث الشريف قوله ﷺ أنه قال :« فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون »[4]. وبالتالى فإرساله ﷺ على جهة التكليف يكون للخلق المكلفين كافة من الجن والإنس.

---

(١) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ٤٢٩.

(٢) كردم بن سفيان الثقفي والد ميمونة له صحبة روت عنه ميمونة وقال عمرو بن شعيب عن ابنة كردم عن أبيها. [راجع التاريخ الكبير ج٧ ص٢٣٧ – رقم:١٠١٩ ، وللمزيد راجع الإصابة ج٥ ص٥٧٧ رقم:٧٣٩٤]

(٣) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٤٣٠ .

(٤) الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيرى النيسابورى (٢٠٦-٢٦١هـ) – صحيح مسلم ج: ١ ص: ٣٧٠ – كتاب المساجد ومواضع الصلاة صحيح مسلم ج: ١ ص: ٣٧١ – الحديث رقم:٥٢٣ (طبعة دار إحياء التراث العربى – بيروت – تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى– بدون) . وراجع العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمى البستى – (ت:٣٥٤هـ – طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م الثانية – تحقيق شعيب الأرنؤط) – صحيح ابن حبان ج: ٦ ص: ٨٧ – الحديث رقم: ٢٣١٣ ، وأخرجه الإمام العلامة المحدث محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ("٢٠٩– ٢٧٩ هـ") – سنن الترمذي ج:٤ ص:١٢٣ – كتاب السير باب ما جاء في الغنيمة – الحديث رقم:١٥٥٣ . وراجع العلامة أحمد بن حسين بن على بن موسى أبو بكر البيهقى – (٣٨٤-٤٥٨هـ – مكتبة دار البار بمكة المكرمة – ١٩٩٤/١٤١٤م – تحقيق محمد عبدالقادر عطا)– سنن البيهقي الكبرى ج: ٢ ص: ٤٣٣ – باب أينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد وفي ذلك دلالة على أن أصل الأرض على الطهارة ما لم تعلم نجاسة الحديث رقم:٤٠٦١ . وراجع الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت : ٢٤١هـ) – المكتب الإسلامى للطباعة والنشر – بيروت – ط١ دار كتب الفقه) – مسند أحمد ج: ٢ ص: ٤١١– الحديث رقم:٩٣٢٦ . وراجع العلامة أحمد بن على بن المثنى أبو يعلى الموصلى التميمى [(٢١٠/٣٠٧)هـ – طبعة دار المأمون للتراث بدمشق (ط١) – ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م – تحقيق حسين سليم أسد] – مسند أبي يعلى ج: ١١ ص: ٣٧٧ – الحديث رقم: ٦٤٩١ .

٢ـ إرسال تشريف إلى الملائكة

وهو أن الله تعالى أرسل سيدنا محمدا إلى الملائكة إرسال تشريف؛ لأن طاعاتهم جبلية، وهم مكلفون من أصل الخلقة، وإليه ذهب جمع من العلماء منهم شيخ الإسلام الباجوري رحمه الله، وذهب العلامة ابن حجر وجمع من المحققين كالعلامة السبكي ومن تبعه إلى أن سيدنا محمدا ﷺ مرسل إلى الملائكة إرسال تكليف، لما يليق بهم، فإن منهم الراكع والساجد إلى يوم القيامة[1]، ولكن يغلب على تقديري انه إرسال تشريف؛ لأن المكلف من بني الإنسان لا يحاسب على ما يصدر عنه إلا بعد بلوغه، وقدرته على ممارسة الأفعال الإرادية التى تصدر منه، سواء أكانت تلك القدرة على ناحية العقل أم على ناحية الحواس لقوله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل »[2]. بينما الملائكة ليسوا كذلك؛ لأنهم مكلفون من أصل الخلقة ولا يرفع التكليف عنهم أبدا فى وقت من الأوقات، أو حال من الأحوال.

٣ـ إرسال رحمة للحيوان

ذهب الشيخ الصيرفى إلى أن الله تعالى أرسل سيدنا محمدا ﷺ للحيوان رحمة به، مستدلا بقوله ﷺ « وأرسلت إلى الخلق كافة»[3]. فالحيوان من جنس الخلائق، كما أن الله تعالى أنطق الحيوانات شاهدة له بالنبوة والرسالة، كالحال مع شهادة الضب والجدى وغيرهما، فإنها ثابتة له ﷺ ، ودليل على أنه ﷺ أرسل للحيوانات رحمة.

---

(١) الشيخ محمد نووى الشافعى – نور الظلام ص٢٥ .

(٢) الإمام أبو داود – سنن أبى داود ج٤ ص ١٣١ – كتاب الحدود – باب فى المجنون يسرق أو يصيب حدا – تحقيق صدقى محمد جميل – دار الفكر ١٩٩٤م، وروى النسائى بلفظ: « رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، والصبى حتى يحلم، والنائم حتى يستيقظ» (الحديث أخرجه النسائى فى كتاب الطلاق – باب من لا يقع طلاقه – جـ٦ ص١٥٦، وأبو داود فى كتاب الحدود باب: فى المجنون يسرق أو يصيب حدا رقم: ٤٤٠٢، الترمذى: كتاب الحدود – باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، حديث رقم ١٤٢٣، وقال حسن غريب).

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٩ ص: ٣٧٠ – كتاب المساجد ومواضع الصلاة صحيح مسلم ج: ٩ ص: ٣٧١ – الحديث رقم: ٥٢٣ ، صحيح ابن حبان ج: ٦ ص: ٨٧ – الحديث رقم: ٢٣١٣، وهذا جزء من حديث سبق روايته.

كما استدل أيضا بأن البعير اشتكى لرسول الله ﷺ كان يعانيه من صاحبه، سواء أكان على ناحية العمل الدءوب أم من ناحية إجاعته له وتعذيبه[1] إياه على ما جاءت به كتب السنة المطهرة، وتحدث عنه الكاتبون في معجزات سيدنا محمد ﷺ .

وانتهى العلامة الصيرفي ومن تبعه إلى أن سيدنا محمدا ﷺ قد أرسله الله للحيوان جميعه المفترس منه والمستأنس الأليف وغيره. ماله ناب ومالا ناب له. بل ما يطير في الهواء، أو يمشي على الأرض، أو يعيش في الماء، فهو مرسل إليهم جميعا من غير استثناء[2]، وتلك ميزة جعلها الله تعالى له فوق كافة الأنبياء والمرسلين.

إرسال تأمين للجماد

ذكر الشيخ نووى الشافعي : « أن الله تعالى أرسل سيدنا محمدا ﷺ إلى الجمادات إرسال تأمين لها من الخسف »[3]، لأن الخسف لا يكون إلا عقابا من الله تعالى للعصاة والكافرين. قال تعالى في شأن قارون: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾[4].

۞ ثم قال الشيخ محمد نووى: « والتحقيق انه ﷺ مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة، لكن باعتبار عالم الأرواح. فإن روحه خلقت قبل الأرواح، وأرسلها الله إليهم، فبلغت الجميع والأنبياء نوابه في عالم الأجسام، فهو ﷺ مرسل لجميع الناس من لدن آدم إلى يوم القيامة، حتى إلى نفسه لدخول الجميع تحت قوله

---

(١) راجع كتابنا حصاد الاقتصاد في الاعتقاد - شرح وتعليق على كتاب الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي – الجزء الرابع – طبعة آل بسيوني ١٩٩٨م.

(٢) الشيخ محمد محمود أمين الصيرفي – محمد رسول الله ص١٨٧ – طبعة أولى ١٣٣٥هـ، وقد ساق أدلة كثيرة على ما ذهب إليه، وكلها قائمة على هذه الناحية، وهي وجهة نظر له عنده ما يبررها، لكن الشيخ محمد نووى الشافعي يرى أن إرساله إلى الحيوان إرسال تشريف، وليس إرسال رحمة على ما ذهب إليه سابقه، ولكل وجهة، وكل اجتهد قدر طاقته فأجره عند الله جل علاه.

(٣) الشيخ محمد نووى الشافعي – نور الظلام شرح منظومة العوام ص٢٥ .

(٤) سورة القصص – الآية ٨١ .

تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1]، وقوله ﷺ [بعثت إلى الناس كافة]، فمن نفى عموم بعثته ﷺ فقد كفر »[2]، لأنه إنما ينفي معلوما من الدين بالضرورة.

وحيث قد علمت أن شرف رسول الله ما بعده شرف، فإن زهده وتقواه كانا من مظاهر تصوفه وصفائه لله رب العالمين قبل البعثة، وأن الله تعالى منحه علم الباطن الذي يقوم على تصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، فإذا تطهرت النفس من الرذائل، وتحلت بالفضائل، أشرقت عليها الأنوار، ولاحت لها الأسرار، فتكاشفت بالحقائق العرفانية والأسرار الربانية، لأنه متى فعل العبد ذلك وصل إلى معرفة العيان، ونال مرتبة مقام الإحسان[3]، ومتابعة ذلك فيَّ حياته ﷺ منذ البعثة المباركة، وحصره يعتبر أمرا صعبا، لأنه يحتاج مجهودات كثير من الباحثين، وربما انقضت الأعمار دون أن يحصروا على وجه اليقين معالم صفائه ﷺ.

◉ **يقول الشيخ الصيرفي:** « إن شمائل رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصى، لأنه في طفولته كان يتبع ملة أبيه إبراهيم خليل الرحمن، وكان ذلك عن طريق الإلهام الداخلي، لقوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾[4]، فكان وعيه الداخلي يأخذه إلى الصفاء وهو مستريح للطريق الذى يسير فيه[5]، فصفاؤه النفسي والقلبي والعقلي تمثلت فيه بعض شمائله قبل البعثة وبعدها.

---

(١) سورة سبأ – الآية ٢٨ .

(٢) الشيخ محمد نووي الشافعي – نور الظلام ص٢٥ .

(٣) العارف بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة – الفهرسة ص٤٤/٤٥ – تحقيق د: عبدالحميد صالح حمدان – طبعة أولى ١٩٩٠ – دار الغد العربي.

(٤) سورة النحل – الآية ١٢٣ .

(٥) الشيخ محمد محمود أمين الصيرفي – محمد رسول الله ص١٩٣ .

ﷺ غير أنى سأحاول تقديم بعض ملامح تصوف النبى الخاتم المختار ﷺ من الرحيم الغفار هى فى صدر بعثته ﷺ حتى انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

الأول : الزهد

يعتبر الزهد مظهرا من مظاهر سيطرة العقل والقلب على نزعات الجسد، ورغبات البدن، وكلما ارتاض المرء على ذلك حقق فيه نجاحا واسعا، أما إذا كان يقوم فى ذلك على أصول الشرع الحنيف؛ فإنه يحقق كل النجاح، لأن الزهد هو الإعراض عن شهوات البدن واحتقارها والرضا فيها باليسير مما يتأكد له حله مع ترك الزائد على ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى[1]. وكان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى ذلك كله، وكان يقوم به عن رغبة منه واختيار له. لقوله ﷺ: « لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة »[2].

ﷺ ثم أن الله تعالى قال فى كتابه العزيز: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾[3]. وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « إن الله عز وجل أرسل إلى نبيه صلى الله عليه

---

(١) وردت مادة الكلمة حاوية للعديد من المعانى أبرزها: ١- الأعراض والترك. ٢- الاحتقار والاستقلال. [انظر لسان الميزان ومعجم مقاييس اللغة. وقطر المحيط فقد تحدثت عن مادة الكلمة فى شيء من الاستفاضة].

(٢) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٥ ص٥٠ – [١٩]باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة – الحديث: ٢٦٨٦ عن أبي سعيد الخدري . وأخرج ابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليقل في دعائه اللهم صلى على محمد عبدك ورسولك وصلى على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة وقال لا يشبع المؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة » [ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٣ ص١٨٥ – ذكر البيان بأن صلاة الداعي ربه على صفته صلى الله عليه وسلم في دعائه تكون له صدقة عند عدم القدرة عليها – الحديث: ٩٠٣ ، والحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص١٤٤ – الحديث: ٧١٧٥].

(٣) سورة طه – الآية ١٣١ .

وسلم ملكا من الملائكة معه جبريل عليه السلام فقال الملك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا وبين أن تكون ملكا نبيا فالتفت نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل عليه السلام كالمستشير له فأشار جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أكون عبدا نبيا قال فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا حتى لقي ربه عز وجل »[1]؛ لأنه كان زاهدا فى كل ما يتمسك به الناس أو يقبلون عليه، تمسكا لا انفكاك لهم عنه.

وعن عمر بن عطاء « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اتخذ عسيبا من جريد النخل يُسَكِت به الناس ويشير به فأوحى الله إليه يا محمد لِمَ تكسر قرون رعيتك فألقاه فجاءه جبريل وميكائيل فقال ميكائيل إن ربك يخيرك أن تكون ملكا نبيا أو نبيا عبدا فنظر إلى جبريل فأشار بيده أن تواضع فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل نبي عبد فقال جبريل فإنك سيد ولد آدم وإنك أول من تنشق عنه الأرض وأول من يشفع »[2].

وسأذكر بعض أمثلة من زهده ﷺ :-

١- فى المأكل والمشرب

الرسول ﷺ بشر كسائر الناس فى الطبيعة البشرية، والشريعة الإسلامية قررت ذلك، وأكدت عليه، وأنه بحكم الطبيعة البشرية يعيش فى مجال الإنسانية،

---

(١) الإمام البيهقى - سنن البيهقي الكبرى ج٧ ص٤٩ - [١٥] باب ما روي عنه في قوله أما أنا فلا آكل متكئا - الحديث: ١٣١٠٥ . وراجع للحافظ المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى - تاريخ الإسلام ج٢ ص٣٢٧ .

(٢) العلامة - أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني المولود ١٢٦هـ والمتوفى ٢١١هـ - مصنف عبد الرزاق ج: ٣ ص: ١٨٣ - باب اعتماد رسول الله صلى الله عليه وسلم على العصا - الحديث: ٥٢٤٦ - المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣هـ الطبعة الثانية - عدد الأجزاء ١١ - تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

ويتحرك فى محيطها، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، إلا ما شاء الله[١]، قوله تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[٢]، وقوله عز وجل: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾[٣]. ومادام الرسول بشرا؛ فإنه حتما يأكل ويشرب كما يأكل الناس ويشربون، ولكنه قد يختلف عنهم فيما يأكلون ويشربون[٤].

أجل إنه ﷺ بشر، لكنه متميز بالزهد الكامل والاحتمال الذى لا مثيل له، من ذلك قوله ﷺ : « لا تواصلوا قالوا إنك تواصل قال إني لست كأحدكم إني أطعم وأسقى »[٥]، وكان يزهد فى كل أنواع المطعم والمشرب، حيث جاء فى الأثر عن أم المؤمنين عائشة قالت: « كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم حشوه

---

(١) الأستاذ عبدالكريم الخطيب – النبى محمد ص٣٢٠ – طبعة دار الفكر العربى الثانية ١٩٧٦م.

(٢) سورة الإسراء – الآية ٩٣ .

(٣) سورة الكهف – الآية ١١٠ .

(٤) هذا الاختلاف فى نوعية المأكول والمشروب؛ لأن الرسول ﷺ مصطفى من الله تعالى، فهو لا يأكل من الصدقة، ولا يأكل مما التبس أمره على الناس، فهو ﷺ يأكل ويشرب كسائر الناس، لكنه يختلف فى نوع المأكول على ما سلفت الإشارة إليه.

(٥) ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٨ ص٣٤٥ – ذكر الزجر عن الوصال في الصيام قم: ٣٥٧٩ عن أنس بن مالك. وأخرجه الترمذى – سنن الترمذي ج٣ ص١٤٨– [٦٢] باب ما جاء في كراهية الوصال للصائم رقم: ٧٧٨ ، وراجع عون المعبود ج: ٧ ص: ٥٦، وتحفة الأحوذي ج: ٦ ص: ١٦٢ ، ج٦ ص٢٨١، وأخرج أحمد « عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والوصال كذاك علمي قالوا انك تواصل قال اني لست كأحدكم اني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» مسند أحمد ج٢ ص٢٣٧ الحديث: ٧٢٢٨ ، وقال أبوحاتم هذا الخبر دليل على ان الاخبار التي فيها ذكر وضع النبي صلى الله عليه وسلم الحجر على بطنه هى كلها أباطيل وانما معناها الحجز لا الحجر والحجز طرف الإزار إذ الله جل وعلا كان يطعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسقيه إذا واصل فكيف يتركه جائعا مع عدم الوصال حتى يحتاج الى شد حجر على بطنه وما يغنى الحجر عن الجوع.

ليف قالت وكان يأتي علينا الشهر ما نستوقد نارا إنما هما الأسودان التمر والماء إلى أن يبعث إلينا جيران لنا بغزيرة شاتهم »[1].

وفي الحديث الشريف: عن عائشة قالت « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبزِ بُرّ حتى مضى لسبيله »[2]، فإذا كان الخبز الذى يتناوله كل الناس قد زهد فيه أكمل خلق الله، وأعلاهم عند رب العالمين، أفلا يكون ذلك من الأدلة العملية على زهده العملي ﷺ، وقد أخذ الصوفية الأعلام أنفسهم بهذا النوع من الزهد، اقتداء برسول الله ﷺ .

وعن مسروق قال « دخلت على عائشة فدعت لي بطعام وقالت ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قال قلت لِمَ؟ قالت أذكر الحال التي فارق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم »[3]، وعن الأسود بن يزيد عن عائشة قالت« ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض »[4]، فلا شبع من خبز بُرّ، ولا شبع من خبز شعير، ولا شبع من لحم، إنما كان يدّخر ذلك للقاء الله عز وجل، فعن أبي هريرة قال« ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاثا تباعا من خبز البر حتى فارق الدنيا »[5]. وعن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت

---

(١) ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٤ ص٢٧٥ – ذكر ما كان ضجاع المصطفى صلى الله عليه وسلم: رقم: ٦٣٦١ . وراجع القاضي عياض – الشفاء بأحوال المصطفى ج١ ص١١٢ .

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٨١ – رقم: ٢٩٧٠ ، وذكره مسلم بلفظ: عن عائشة قالت ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض.

(٣) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٥٧٩ – [٣٨] باب ما جاء في معيشة النبي صلى الله عليه وسلم وأهله– الحديث: ٢٣٥٦

(٤) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٥٧٩ – [٣٨] باب ما جاء في معيشة النبي صلى الله عليه وسلم وأهله– الحديث: ٢٣٥٧

(٥) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٥٧٩ – [٣٨] باب ما جاء في معيشة النبي صلى الله عليه وسلم وأهله– الحديث: ٢٣٥٨، وخبز البر هو المأخوذ من نبات القمح.

الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكـان أكـثر خـبزهم خـبز الشـعير »[1].
طبت يا رسول الله حيا وميتا، وزهدت فى الدنيا التى يقاتل عليـها الطّعَـام، ويبكـى فى أحضانها اللئام. وعن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسـلم قالت لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين »[2]؛ لأن حياته صلى الله عليه وسـلم كـانت الزهـد التـام القـائم علـى العلم النظرى والتطبيق العملى.

ولم يكن ذلك عن ضيق يد وبخاصة بعد أن تأسست الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة وبعد أن أفاء الله على المؤمنين بالغنائم وغيرها، وإنما كان زهـدا فيمـا يتشـارك فيه الناس وينطلقون إليه، أو يتعلق برغبات النفس الإنسانية ونوازعها الطبيعية التى متى تمكن من صاحبها إلى المهالك قادته، وفى النار ألقته.

كما لم يكن ذلك عن بخل منه ﷺ؛ لأنه كـان كـالريح المرسـلة فـى العطـاء، وبالتالى؛ فالبخل لا يأتيه أبدا؛ وإنما الكرم والجود والسخاء ومظاهر ذلـك فيـه ﷺ أكثر من أن تحصى.

بل دلت كتب السنة النبوية المطهرة أن رسول الله ما كانت توقد فى بيت من بيوته نار يطهى بها طعام الفترة الطويلة، قد تمتد إلى الشهور المتواصلـة، وهـو النبـى الخاتم، وزعيم الأمة الإسلامية كلها، وصاحب الدعاء المستجاب مع الشفاعة العظمى يوم القيامة، فعن عن عروة عن عائشة « أنها كانت تقول والله يا ابن أخـتي إن كنـا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلـة في شـهرين ومـا أوقـد في أبيـات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار قال قلت يا خالـة فمـا كـان يعيشـكم[3]؟ قـالت

---

(١) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٥٨٠ – [٣٨] باب ما جـاء في معيشـة النبـي صلـى الله عليه وسلم وأهله– الحديث: ٢٣٦٠ .

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٨٣ – الحديث: ٢٩٧٤ .

(٣) هذا السؤال واضح فيه الاستغراب من طول المدة التى تغطى بيـوت أمـهات المؤمنـين دون أن يوقـد فيها نار يطهى بها طعام، وهو دليل على أن رسول الله ﷺ كـان يمـارس الزهـد العملـى مـن داخـل نفسه، ومع أمهات المؤمنين، وهو الذى يقوم به الصوفية، فالعلاقة بـين الصوفيـة وبـين سـلوكيات رسول الله فى الزهد العملى قائمة لا تنقطع.

الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار وكانت لهم منائح[١]. فكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقيناه »[٢].

والواضح أنه ﷺ فى هذه الحالة فإنه يعطى نساءه، ولا يشرب هو لمعرفته أن الدنيا زائلة، وأن الآخرة مقبلة، وأنه مسئول شرعا عن نسائه أمهات المؤمنين. ففى الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كلكم راع ومسؤول عن رعيته فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته قال فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[٣].

فهو ﷺ يعطى نساءه ولا يأخذ هو، ويقدم ذلك كله للجميع، ويزهد هو فيه فهل بعد ذلك الزهد النبوى الكريم زهد؟ فإذا أمسك الصوفية أنفسهم عن لذات المطعم والمشرب، مكتفين بالقليل منه، الذى يقيم الأود. محاولين الاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ فهل عليهم ملامة، والله عز وجل أمرنا الاقتداء به. أم أنهم فى ذلك يكونون على صواب، ولا عبرة بمن يعترض طريقهم؟!

---

(١) المنايح هى العطايا من الحيوانات التى كانت ترعى فتكثر ألبانها وكان أصحابها يرسلون من تلك الألبان لرسول الله علي سبيل الهدية لا الصدقة، لأن الله تعالى حرم على الأنبياء الأكل من الصدقات وأباح لهم قبول الهدايا.

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٢ ص٩٠٧ – [٥٥] كتاب الهبة وفضلها [١] باب فضلها والتحريض عليها الحديث:٢٤٢٧، وأخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٨٣ – الحديث: ٢٩٧٢

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج ٢ ص٨٤٨ – [٢٠] باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه – الحديث: ٢٢٧٨، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٣ ص١٤٥٩ قم:١٨٢٩!

وعن عبد الرحمن بن عابس[١] عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت « ما فعله إلا في عام جاع الناس أراد أن يطعم الغني الفقير وإن كنا لنرفع الكراع[٢] بعد خمس عشرة وما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز بُرٍّ مأدوم ثلاثا حتى لحق بالله عز وجل »[٣]، والكراع هو مستدق الساق العارى من اللحم فى كل من البقر والغنم[٤]، فكانت أمهات المؤمنين تستمد من ذلك العظم فى كل شهر مرة، ليكون أدما[٥] للطعام، الذى يأكلنه، وربما لم يشاركهن رسول الله الطعام، وإنما اكتفى بالحصول عليه لهن.

وعن قتادة قال « كنا نأتي أنس بن مالك رضي الله عنه وخبازه قائم قال كلوا فما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله ولا رأى شاة سميطا[٦] بعينه قط »[٧]، كل ذلك وهو الرسول الخاتم والنبى العظيم، الذى لو سأل

---

(١) عبد الرحمن بن عابس بن ربيعة الكوفي النخعي سمع بن عباس رضي الله عنهما وأباه وعن بن أبي ليلى وسمع كميل بن زياد وأم يعقوب سمع منه سفيان وشعبة. [التاريخ الكبير ج٥ ص٣٢٧ رقم:١٠٣٨]

(٢) الكراع هو عظمة الساق التى دقت لنحافتها، فلا يوجد عليها شيء من لحم أو عصب.

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص٢٠٧٢ – [٣٦] باب القديد– الحديث قم:٥١٢٢ . وأخرجه النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٧ ص٢٣٥ – [٣٧] باب الادخار من الأضاحي – الحديث:٤٤٣٢، والبيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج٧ ص٤٧ – الحديث:١٣٠٩٣ ، وأحمد – مسند أحمد ج٦ ص١٨٧ – الحديث:٢٥٥٨١.

(٤) المعجم الوجيز – باب الكاف ص٥٣١ ، والكراع من الإنسان هو ما دون الركبة إلى الكعب، ومن البقى الغنم مستدق الساق العارى عن اللحم وجمعه أكارع.

(٥) الأدم والآدام الطعام الذى يؤكل مع الخبز، فهو أقرب شبها بمن يستعمل الدهون الموجودة داخل العظام لأغراض بعينها كالثريد وخلافه.

(٦) السميط هى المشوية يقال سمط الذبيحة غمسها فى الماء الجار أو فى مادة كيمياوية لإزالة ما على جلدها من شعر أو ريش قبل طبخها أو شيها، أو دبغ جلدها. [المعجم الوجيز ص٣٢١] وهذه كناية عن عدم وجود اللحم عنده ﷺ .

(٧) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص٢٠٦٨ – [٢٥] باب شاة مسموطة والكتف والجنب – رقم:٥١٠٥ .

الله تعالى أن يحول له جبال الرمل ذهبا لأجابه الله إلى سؤاله، ولكنه الزهد الإيمانى القائم على الأصول الشرعية.

يستوى فى ذلك أن يكون الطعام خبزا غليظا، أو خشنا جافا، أو عظما بدون لحم، وأنه لم ينل حظه من الطعام والشراب على الناحية التى يقبل عليها الآخرون، ويهتموا بها، وإنما كانت آماله متجهة نحو الخالق العظيم جل شأنه، يدل عليه قوله « إن لم يكن بك غضب عَلَيّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وَصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضي ولا قوة إلا بالله »[1]،

وعن أنس بن مالك قال: « إن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا قالت قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة قال أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام »[2].

فأى زاهد ذلك العظيم الذى جعله الله رحمة للعالمين، وأى زهد ذلك الذى أمتاز برسول الله وتميز به أنه أعلى زهد مشروع عرفته البشرية، فإذا اشتد به الجوع كان يشد صلبه بالحجر، حتى لا يؤلمه الجوع الشديد فعن أبى هريرة قال: « كان النبى ﷺ يشد صلبه بالحجر من الغرث[3] »[4]، ومهما اشتد به الجوع اشتد بصلب الحجر، وشده إلى أضيق مما كان.

❁ **يقول أحد الباحثين:** « ومما يجب تسجيله هاهنا لأهميته أن الرسول ﷺ لم يكن يعتبر التقلل من الطعام خصوصية من خصوصياته، التى لا يجوز لأحد من أمته أن يقتدى به فيها، وإنما كان ﷺ يدعو إلى ذلك، كما كان يحب من أمته التخفيف

---

(١) العلامة الهيثمى – مجمع الزوائد باب خروج النبى ﷺ إلى الطائف وعرض نفسه على القبائل ج٦ ص٣٥

(٢) العلامة الطبرانى – المعجم الكبير ج١ ص٢٥٨ – الحديث: ٧٥٠ . والعلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج٤ ص٩٢ – الحديث: ٤٩٤١

(٣) الغرث: هو الجوع الشديد، وغرث غرثا جاع. [محيط المحيط - باب الغين].

(٤) العلامة السيوطى – الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص٣١٦ – الحديث: ٥٨٥ .

من الطعام، لما فـي ذلك مـن فضيلـة التقشـف، وعـدم الانغمـاس فـي الدنيـا[١]، وبخاصة أن سلوكه ﷺ يمثل القدوة للمؤمنين بالله رب العالمين.

فعن أنس رضي الله عنه قال « لقد رهن النبي صلى الله عليه وسـلم درعـه بشعير ومشيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخة ولقد سمعته يقول ما أصبح لآل محمد صلى الله عليه وسلم إلا صـاع ولا أمسـى وإنـهم لتسـعة أبيات »[٢]، والله ما قالها استقلالا لرزق الله، ولكن أراد أن تتأسى به أمته[٣]، وقـد حث الرسول ﷺ على ممارسة الزهد فى المطعم والمشرب من خلال بيان فضـائل ذلـك التخفيف، حتى يكون المتأسى بالرسول على درجة عالية من الصفاء الروحـى والنقـاء القلبى بجانب الاقتناع الفكرى والوجدانى، فعن ابن عمـر قـال « تجشـأ رجـل عنـد النبي صلى الله عليه وسلم فقال كف جشاءك عنـا فـإن أطولكـم جوعـا يـوم القيامـة أكثركم شبعا في دار الدنيا »[٤]، وكلما كان العكس صح الأمر.

ويحذر رسول الله ﷺ أصحابه من الأمراض الناتجة عن التخمة، فيقول « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه بحسـب الآدمـي لقيمـات يقمـن صلبـه، فـإن غلبـت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس »[٥].

---

(١) الدكتور محمد فوقى حجاج – التصوف الإسلامى والأخلاق ج٢١ ص٥٣ ط٢ ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٢ ص٨٨٧ – [٥٣] كتاب الرهن [١] باب في الرهن في الحضـر وقوله تعالى وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة – الحديث: ٢٣٧٣ .

(٣) العلامة ابن سعد – الطبقات الكبرى ج١ ص٤٠٢ – ط بيروت ١٣٧٦هـ.

(٤) العلامة محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجه – سنن ابن ماجـه ج٢ ص١١١١– [٥٠] بـاب الاقتصـاد في الأكل وكراهة الشبع – الحديث: ٣٣٥٠

(٥) العلامة محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجه – سنن ابن ماجـه ج٢ ص١١١١– [٥٠] بـاب الاقتصـاد في الأكل وكراهة الشبع – الحديث: ٣٣٤٩ عن المقداد.، وابن حبان – صحيح ابن حبان ج: ١٢ ص: ٤١ ذكر وصف أكل المسلمين الذي يجب عليهم استعماله رجاء ثـواب نـوال الخير في الداريـن بـه الحديث: ٥٢٣٦

وفوق ذلك فقد كان الرسول الكريم ﷺ يصوم الأيام المتوالية لا على أنـا سـنة عبادية، وإنما على أساس أنها سنة عادية فى شيء يخصه ﷺ حتى أوثر أنه ﷺ ما رئى فى شعبان إلا صائما، بل وفى أيام كثيرة ما رؤى إلا صائما.

فعن أسامة بن زيـد[١] قـال « قلـت يـا رسـول الله لم أرك تصـوم شـهرا مـن الشهور ما تصوم من شعبان قال ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان وهـو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم »[٢].

وعن أسامة بن زيد قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم الأيـام يسرد حتى يقال لا يفطر ويفطر الأيام حتى لا يكاد ان يصوم الا يومين من الجمعة ان كانا في صيامه وإلا صامهما ولم يكن يصوم من شهر من الشهور ما يصـوم مـن شـعبان فقلت يا رسول الله انك تصوم لا تكاد ان تفطر وتفطر حتى لا تكاد ان تصوم الا يومين ان دخلا في صيامك وإلا صمتهما قال أي يومين قال قلت يوم الاثنين ويـوم الخميـس قال ذانك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين وأحب ان يعرض عملي وأنـا صائم قال قلت ولم أرك تصوم من شهر مـن الشـهور مـا تصـوم مـن شـعبان قـال ذاك شهر يغفل الناس عنه بـين رجـب ورمضـان وهـو شـهر يرفـع فيـه الأعمـال إلى رب العالمين فأحب ان يرفع عملي وأنا صائم »[٣].

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرىء القيس المولى الأمير الكبير، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه وابن مولاه، وابن حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم أم أيمن، استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على جيش لغزو الشام وفي الجيش عمر والكبار فلم يسر حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فبادر الصديق ببعثهم فأغاروا على أبنى من ناحية البلقاء وقيل إنه شهد يوم مؤتة مع والده وقد سكن المزة مدة ثم رجع إلى المدينة فمات بها، حدث عنه أبو هريرة وابن عباس وأبو وائل وأبو عثمان النهدي وعروة بن الزبير وأبو سلمة وأبو سعيد المقبري وعامر بن سعد وأبو ظبيان وعطاء بن أبي رباح وعدة وابناه حسن ومحمد. [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٩٦/٤٩٩ رقم:١٠٤]

(٢) الإمام النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٤ ص٢٠١ – الحديث: ٢٣٥٧ وراجع مصنف ابن أبي شيبة ج٢ ص٣٤٦ – رقم:٩٧٦٥ .

(٣) الإمام احمد بن حنبل – مسند أحمد ج٥ ص٢٠١ – الحديث: ٢١٨٠١ .

أجل لم يحرم الرسول ﷺ شيئًا مما أحله الله، ولا أحل شيئًا مما حرمـه الله عليه، ولكن الله تعالى أمره الإبلاغ للناس جميعا. قال تعالى: ﴿ "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" ﴾(1).

ذكر الإمام ابن كثير - رحمه الله - عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قولـه تعالى: ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾، قال: كان رجـال يطوفون بـالبيت عـراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يوارى السوأة، وما سوى ذلك مـن جيـد البز والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد »(2)، وأن يـأكلوا ويشـربوا مـن المباحات التى جعلها الله لهم فى حدود ما شرعه الله تعالى، حتى لا يقع الإسراف.

❁ **قال الإمام القرطبى**: « قال ابن عباس: أحل الله فى هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا، أو مخيلة، فأما ما تدعو الحاجة إليه، وهو مـا سـد الجوعـة، وسكن الظمأ، فمندوب إليه عقلا وشرعا. لـا فيـه مـن حفـظ النفس، وحراسـة الحواس، ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوصال، لأنه يضعف الجسد، ويميـت النفس، ويضعف عن العبـادة »(3)، وكلما كـان الجسـم صحيحـا، كـان العقـل صحيحا، لما هو معروف مشهور من أن العقل السليم فى الجسم السـليم، ولـا هـو مقرر فى الأعراف السليمة من أن صحة الأديان من صحة الأبدان.

❁ **وقال العلامة أبو السعود**: « روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجـهم، لا يـأكلون الطعام إلا قوتا، ولا يأكلون دسما، يعظمون بذلك حجهم، فهَمّ المسلمون بمثله، فنزلت: ﴿ "ولا تسرفوا" ﴾، بتحريـم الحـلال، أو بـالتعدى إلى الحـرام، أو بالإفراط فى الطعام »(4).

---

(1) سورة الأعراف آية ٣١

(2) الإمام الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٢١٠ ورواية ابن عباس ذكرها السيوطى فـى الدر المنثور ج٤ ص٦١ - طبعة دار الغد العربى.

(3) الإمام القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - جـ٣ /ص٢٧٠٩.

(4) العلامة أبو السعود - تفسير أبو السعود - جـ٢ ص١٦٤ -ط على صبيح.

وبناء عليه فإن الصوفية الذين يقتدون برسول الله في عبادته وزهده، ليسوا خارجين على القواعد الشرعية، وليسوا معذبين للبدن الذى أمر الله بإكرامه، وإنما هم قد أقاموا أنفسهم أمام شرع الله، وحاولوا الالتزام به على كل ناحية، قدوتهم فى ذلك الرسول الكريم سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ.

ثم إن التخفيف من المأكل والمشرب يسمح للروح المؤمنة بالصعود إلى الملأ الأعلى والسمو إلى مراقى العلا، وكلما أمكن للروح التخلص من ظلمات الجسد وشهواته، أمكنها تحطيم قيوده وهزيمة غرائزه، وحينئذ تنطلق فى أمان وتعدو الآمال التى تنشدها، وقد تُمْسِك بتلابيبها حتى تنال منها، فيقع لها الرضوان، وتعيش فى رحابة الإيمان، وتنعم برحمات الرحيم المنان.

٢ـ فى اللباس والفراش

النفس الإنسانية تطمع فى إشباع رغباتها، وتحقيق ملذاتها فى المطعم والمشرب، والملبس والفراش؛ لأن متع الحياة متنوعة، وطرائق إشباع مطامحها لا تنقطع ومهما حاول المرء إشباع تلك الرغبات، وبلغ فى ذلك حد الإسراف، فإنها لا تقنع ولا تعود من تجوالها راضية؛ **لأن النفس الإنسانية أنواع:-**

◄◄ ١: **الأمارة وهى أسوأ النفوس**، حيث تشقى صاحبها إلى أبعد مدى، فتورده مورد الهلكة ، فلا هو بالعائد من تجواله معها إلى الخير، ولا هى تاركة له أمره يدبره، فربما التفت إلى الأوامر الإلهية إتيانا، والنواهى ابتعادا وإنكارا، ولكنها لا تدعه بل تظل به حتى تلقيه فى الردى، قال تعالى: ﴿**وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم**﴾(١).

۞ **قال الإمام الفخر الرازى** – رحمه الله – : « إن النفس لأمارة بالسوء، مندفعة إليه، غير مبتعدة عنه، ثم هى ميالة إلى القبائح، راغبة فى المعصية »(٢). ولا ترتدع تلك النفس بالوعظ والترغيب، وإنما يصلح لها الترهيب، والأخذ بالشدة، حتى تعود إلى الأسس الصحيحة.

---

(١) سورة يوسف – الآية ٥٣ .

(٢) العلامة الفخر الرازى – مفاتيح الغيب – ج٩ ص٨٠ .

۞ **وقال الإمام ابن القيم** – رحمه الله – عن هذه النفس : « وأما النفس الأمارة بالسوء فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها، إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له. كما قال تعالى مخبرا عن امرأة العزيز: : ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾. وقال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا﴾[1]. وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾[2]. وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة: [الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا. ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له][3]. وكلما كانت النفس أمارة بالسوء، كانت السيطرة على نوازعها تحتاج مجهودات كثيرة.

فالشر كامن في النفس، وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلى الله بين العبد ونفسه؛ هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه؛ نجاه من ذلك كله. فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه نعم المولى ونعم النصير، وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين؛ الأمارة

---

(١) سورة النور – الآية ٢١ .

(٢) سورة الإسراء – الآية ٧٤ .

(٣) الحديث رواه الإمام ابن ماجة في سننه – باب خطبة النكاح – الحديث رقم: ١٨٩٢ عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود؛ قال: أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم جوامع الخير، وخواتمه. أو قال فواتح الخير. فعلمنا خطبة الصلاة وخطبة الحاجة. خطبة الصلاة: التحيات لله ....، . وخطبة الحاجة: أن الحمد لله ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له. ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ثم تصل خطبتك بثلاث آيات من كتاب الله: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته. إلى آخر الآية. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إلى آخر الآية. اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم إلى آخر الآية. ورواه بنفس الباب في الحديث رقم : ١٨٩٣– عن ابن عباس.

واللوامة، وأكرمه بالمطمئنة، فهى نفس واحدة، تكون أمارة ثم لوامة ثم مطمئنة. وهى غاية كمالها وصلاحها »[١].

◄◄ ٢ـ **اللوامة: وهى التى تلوم صاحبها متى وقع فى المعاصى**، حيث تحاول إعادته إلى صوابه، وترتيب موقفه أمام الله جل علاه، فربما قفزت به إلى أعلى مراتب الصفاء، وربما لم تنجح فى اقتلاع النوايا السيئة، التى تصدر عنها أفعالها الشريرة. قال تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة • ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾[٢].

❁ **يقول الحافظ ابن كثير**: « قال الحسن أقسم الله تعالى بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة وقال قتادة بل أقسم بهما جميعا، والصحيح أنه أقسم بهما جميعا معا. وأما النفس اللوامة فى هذه الآية أن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي ما أردت بحديث نفسي وأن الفاجر يمضي قدما ما يعاتب نفسه[٣]،

وقال ابن عباس: هي النفس اللئوم وقال علي بن أبي نجيح عن مجاهد تندم على ما فات وتلوم عليه، وقال ابن جرير وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات »[٤].

◄◄ ٣ـ **المطمئنة: وهى التى تدفع صاحبها إلى الخير وتظل به**، حتى يكون من أهل العرفان بالله رب العالمين. قال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعي إلى ربك راضية مرضية • فادخلي في عبادي • وادخلي جنتي﴾[٥].

---

(١) العلامة ابن القيم – كتاب الروح – ص٣٠٠ .

(٢) سورة القيامة – الآيتان ٢/١ .

(٣) قال ابن كثير : « عن الحسن أنه قال في قوله ولا أقسم بالنفس اللوامة قال ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة، وقال عكرمة في قوله ولا أقسم بالنفس اللوامة: قال يلوم على الخير والشر لو فعلت كذا وكذا ، وعن سعيد بن جبير في قوله ولا أقسم بالنفس اللوامة قال تلوم على الخير والشر » [تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤٨ .

(٤) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ٤٤٩/٤٤٨ .

(٥) سورة الفجر – الآيات ٣٠/٢٧ .

❁ **يقول العلامة الطبرى:** « يعني بالمطمئنة التي اطمأنت إلى وعد الله الذي وعد أهـل الإيمان به في الدنيا من الكرامة في الآخرة فصدقت بذلـك وقـد اختلـف أهـل التأويل في تأويل ذلك. قال ابن عباس يا أيتها النفس المطمئنة يقول المصدقة. وقال قتادة قوله يا أيتها النفس المطمئنة هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى مـا وعـد الله.وقـال الحسـن في قوله يا أيتها النفس المطمئنة قال المطمئنة إلى ما قال الله والمصدقـة بمـا قال وقال آخرون بل معنى ذلك المصدقة الموقنة بـأن الله ربـها المسـلمة لأمـره فيما هو فاعل بها[1].

وعن مجاهد في قوله يا أيتها النفس المطمئنة قال النفس التي أيقنت أن الله ربها وضربت جأشا لأمره وطاعته، وقيل: يا أيتها النفس المطمئنة قال المنيبة المخبتة التي قد أيقنت أن الله ربها وضربت لأمره جأشا.

وعن أبي صالح ارجعي إلى ربك راضية مرضية قال هذا عند الموت فادخلي في عبادي قال هذا يوم القيامة، وقال آخرون في ذلك عن أسامة بن زيد عن أبيه في قوله يا أيتها النفس المطمئنة قال بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث. وقوله ارجعي إلى ربك اختلف أهل التأويل في تأويله فقال بعضـهم هـذا خـبر مـن الله جـل ثناؤه عن قيل الملائكة لنفس المؤمن عند البعث تأمرها أن ترجع في جسد صاحبها قالوا وعني بالرد هاهنا صاحبها،وعن ابن عباس قوله يا أيتها النفس المطمئنـة ارجعـي إلى ربك راضية مرضية، حيث ترد الأرواح المطمئنة يوم القيامة في الأجساد، وعن الحسين قال سمعت أبا معاذ يقول ثنا عبيد قال سمعـت الضحـاك يقـول في قولـه فـادخلي في عبادي وادخلي جنتي يأمر الله الأرواح يوم القيامة أن ترجع إلى الأجساد فيـأتون الله كما خلقهم أول مرة، وعن عكرمة في هـذه الآيـة ارجعـي إلى ربـك راضيـة مرضيـة إلى الجسد.

وقال آخرون: بل يقال ذلك لها عند الموت، فعن أبي صالح ارجعي إلى ربـك راضية مرضية قال هذا عند المـوت فـادخلي في عبـادي قـال هـذا يـوم القيامـة. وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن ابن عبـاس والضحـاك أن ذلـك إنمـا

---

(١) والاختلاف بين أصحاب الرأى يقوم على كون المطمئنة هى المصدقة أم المنيبة المخبتـة أم المؤمنـة، ولكل من أصحاب الرأى ما يقوى وجهة نظره.

يقال لهم عند رد الأرواح في الأجساد يوم البعث لدلالتـه، وقولـه فـادخلي في عبـادي وادخلي جنتي. اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم معنى ذلك فادخلي في عبادي الصالحين وادخلي جنتي. قال قتادة قوله فادخلي في عبادي" قال ادخلـي في عبادي الصالحين وادخلي جنتي.

وقال آخرون: معنى ذلك فادخلي في طاعتي وادخلي رحمتى وجنـتي. وكـان بعض أهل العربية من أهل البصرة يوجه معنى قوله فادخلي في عبادي إلى فادخلي في حزبي، وكان بعض أهل العربية من أهل الكوفة يتأول ذلك يا أيتها النفـس المطمئنـة بالإيمان والمصدقة بالثواب والبعث ارجعي تقول لهم الملائكة إذا أعطوا كتبهم بأيمانهم ارجعي إلى ربك إلى ما أعد الله لك من الثواب قال وقد يكون أن تقول لهـم شـبه هـذا القول ينوون ارجعوا من الدنيا إلى هذا المرجع قال وأنت تقول للرجل ممن أنت فيقول مضري فتقول كن تميميا أو قيسيا أي أنت مـن أحـد هذيـن فتكـون كـن صلـة كذلـك الرجوع يكون صلة لأنه قد صار إلى القيامة فكان الأمر بمعنى الخبر كأنـه قـال أيتـها النفس أنت راضية مرضية، وقد روي عن بعض السلف أنه كان يقرأ ذلك فـادخلي في عبدي وادخلي جنتي، فعن ابن عباس أنه قرأها فادخلي في عبدي على التوحيد»[1].

ولاشك أن الإقبال على نفيس اللباس مع وتثير الفـراش مـن شـهوات النفس الإنسانية التى تبحث عن طرائق عديدة، لإشباعهما قـد تـنزه عنـهما رسول الله ﷺ وزهد فيها، فلم يذكر التاريخ الصحيح أنه عليه السـلام تـاقت نفسـه إلى النفيس مـن اللباس، قبل البعثة، مع انه بعد زواجه من أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها صـار مالها ماله، وتجارتها تجارته، وشأن التجار فى نوع من التجارة أن يحتفظوا لأنفسهم بشيء منه، واستعماله على سبيل الدعاية له، أو إظهار قدرتهم على استعماله، وفـى الأمثال: "أعز التمر لأهله" ولو فعل المصطفى ﷺ ما ناقشته خديجة شيئًا مـن ذلـك؛ لأنها أحبته من كل قلبها، وتمنته من داخل أعماقها، وخطبته ليكون زوجا لها، فلا تثريب عليه إن لبس من الثياب أعلاه، وكان ذلك قبل بعثته المباركة، لكنه ﷺ زهد فيه كله، فكان يكسو الفقراء، ويطعم الأيتام، ويحنو على الضعفـاء، ويفك الرقـاب، ويفرج كرب المكروبين، ويحمل عن أصحاب الدماء، لقد كـان نبيـا قبـل أن يبعـث، ورحمة قبل أن يعلن عـن نبوتـه، وكأن الله تعـالى اصطفـاه منـذ طفولتـه، وكيـف لا

---

(١) ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٣٠ ص: ١٩٠/١٩٤ .

والحديث الشريف: عن عرباض بن سارية رضي الله عنه قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي منجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي آمنة التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين وأن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته له نورا أضاء لها قصور الشام ثم تلا يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[1].

أما بعد البعثة، فما لبس الرسول الكريم إلا ما يستر عورته، ويقي جسمه الشريف أذى الحر والبرد، ويحفظ عليه إقباله على الناس، وأدباره عنهم؛ لأنه على يقين من أن الآخرة فيها النعيم المقيم، فيها الحرير والسندس، فيها الإستبرق، فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين[2]، فيها رضوان من الله أكبر ومن شغلته تلك القيم الرفيعة، حتى سيطرت على وجدانه فلن ينشغل بسواها.

لقد كان الرسول ﷺ نورا يمشي بين الناس، لقوله تعالى ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾[3]، والكتاب المبين هو القرآن الكريم، فالنور بناء على ذلك هو الرسول الأمين سيدنا محمد ﷺ الذى كان وحيا يحدث أصحابه وسائر الناس، وحياء يعلمهم طرائق الحياء من الله، ومن كان ذلك شأنه حسبه من الملبس خشنه، حتى قيل في الأثر، ما أكل ﷺ إلا خشنا، وما لبس إلا خشنا، وما افترش إلا

---

(١) العلامة أبو عبد الله الحاكم النيسابوري – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٤٥٣ – الحديث: ٣٥٦٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) قال تعالى: ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ◦ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ◦ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ◦ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ◦ قوارير من فضة قدروها تقديرا ◦ ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ◦ عينا فيها تسمى سلسبيلا ◦ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ◦ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ◦ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ◦ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ [سورة الإنسان – الآيات ١٢/٢٢]

(٣) سورة المائدة – من الآية ١٥ .

الخشن، مع قدرته على استعمال الملبس الناعم الوريف، حتى يرتحل فيه، ولو فعل لكان هو زينة الثوب، وليس ثوبه بزينة له[١]، فعن أنس رضي الله عنه« أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل خشنا ولبس خشنا لبس الصوف[٢] واحتذى المخصوف »[٣]، قيل للحسن ما الخشن قال غليظ الشعير ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسيغه إلا بجرعة من ماء[٤]، ذلك أنه ﷺ قد نظر للآخرة فانشغل بالوقوف عليها، ولم يلتفت للدنيا، إلا كراحل استظل بشجرة بعض الوقت ثم انصرف[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله عز وجل يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس »[٦]، وعن أبي بردة رضي الله عنه قال « دخلت على عائشة رضي الله عنها فأخرجت إلينا كساء ملبدا من التي تسمونها الملبدة إزارا عظيما مما يصنع باليمن وأقسمت بالله لقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين الثوبين »[٧]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال

---

(١) وفى الأمثال: الكريم يزين ثوبه، والبخيل يشينه. [راجع كتابنا الأمثال العربية الشعبية والعامية، ففيه من ذلك كثير.

(٢) الصوف هو الشعر الذى يغطى جلد الضأن، ويسمى الفروة، ويؤخذ من الكبش والشاة عند جزه، وتغزل منه الملابس، فتستعمل بعد صنعها أو بدون صنع. [راجع معجم مقاييس اللغة - باب الصاد].

(٣) العلامة أبو عبدالله الحاكم - المستدرك على الصحيحين ج٤ ص٣٦١ - رقم: ٧٩٢٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه المنذرى - الترغيب والترهيب ج٣ ص٧٨ رقم: ٣١٥٣

(٤) العلامة أبو عبدالله الحاكم - المستدرك على الصحيحين ج٤ ص٣٦١ - رقم: ٧٩٢٥.

(٥) ففى الحديث النبوى الشريف عن علقمة عن عبد الله قال « اضطجع النبي صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر في جلده فقلت بأبي وأمي يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئا يقيك منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا والدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » [الإمام ابن ماجة - سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٧٦ - [٣] باب مثل الدنيا - الحديث: ٤١٠٩.

(٦) العلامة المنذرى - الترغيب والترهيب ج: ٣ ص: ٧٨ - الحديث: ٣١٥٠

(٧) العلامة المنذرى - الترغيب والترهيب ج: ٣ ص: ٧٨ - الحديث: ٣١٥١.

« توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن نمرة من صوف تنسج له »[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم براءة من الكبر لبوس الصوف ومجالسة فقراء المسلمين وركوب الحمار واعتقال العنز أو البعير »[٢]، فإن ذلك يذهب عن صاحبه الكبر، ويجعله يندرج في عداد الضعفاء، وربما جاز باب القبول، فصار بين الأصفياء، متى كان يقصد بذلك السمو نحو مراقي العلا، ابتغاء مرضاة الوهاب.

وعن حفص أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: « كان فراشه مِسْحا بكسر فسكون لباسا من شعر أو ثوب خشن يعد للفراش من وصف يشبه الكساء أو ثياب سود يلبسها الزهاد والرهبان، يثنيه ثنيتين فينام عليه فلما كان ذات ليلة قلت لو ثنيته أربع ثنيات لكان أوطأ فثنيناه له بأربع ثنيات فلما أصبح قال ما فرشتموه الليلة قلنا هو فراشك إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات قلنا هو أوطأ لك قال ردوه لحاله الأول فإنه منعني وطاؤه صلاتي الليلة »[٣]، ومن كان ذلك حاله، فلا شك أنه متعلق برضوان الله تعالى، الذى يهون أمامه كل شيء أخر من متع الدنيا وزينتها.

وعن عائشة « أنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة من صوف سوداء فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فقذفها قالتوأحسبه قال وكانت تعجبه الريح الطيبة »[٤]، وهو من الشواهد على أنه ﷺ ما كان يؤثر إلا الملابس الخشنة

---

(١) العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج: ٣ ص: ٧٨ – الحديث: ٣١٥٢ ، ج٤ ص١٠٠– رقم: ٤٩٨٢ ، وقوله ملبدا أي مرقعا وقد لبدت الثوب بالتخفيف ولبدته بالتشديد يقال للرقعة التي يرقع بها صدر القميص اللبدة والرقعة التي يرقع بها قب القميص القبيلة [الترغيب والترهيب ١٠١/٤]

(٢) العلامة المنذرى – الترغيب والترهيب ج: ٣ ص: ٧٩ – الحديث: ٣١٥٧

(٣)العلامة السيوطى – الجامع الصغير للسيوطي ج١ ص٢٢٢ – الحديث: ٣٧٢ .

(٤) الإمام أحمد – مسند أحمد ج٦ ص٢٤٩ – الحديث: ٢٦١٦٠ ، ج٦ ص١٣٢ الحديث: ٢٥٠٤٧ ، ج٦ ص١٤٤ – الحديث: ٢٥١٦٠، وابن حبان – صحيح ابن حبان ج١٤ ص٣٠٥ – الحديث: ذكر البيان بأن الرائحة الطيبة قد كانت تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم – الحديث: ٦٣٩٥

ذات الأسعار القليلة، لكنها نظيفة جميلة، إذ هو المناسب لرسولنا الكريم ﷺ لقوله « أمرت الرسل أن لا نأكل الا طيبا ولا نعمل إلا صالحا »[1].

وعن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس ان الله طيب لا يقبل إلا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين قال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم[2]، وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم[3]، قال ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك »[4].

والصوفية الأعلام قد نظروا إلى مقام الزهد عند رسول الله فأيقنوا أن متابعته ﷺ فيه ضرورة شرعية؛ لأن الملبس الناعم قد يدخل الغرور إلى صدر صاحبه، والخيلاء إلى نفسه، فربما اندفع به إلى هجر الشريعة والتعالى على الناس، والوقوع فى أحضان الدنيا اللعوب الفانية، فيقع عليه التبدل، ويتحول من التواضع إلى الكبر، ومن الإيمان إلى الكفر.

يقول الإمام الغزالى: « إن الدنيا عدوة الله عز وجل بغرورها، ضل من ضل، وبمكرها ذل من ذل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات ورأس القربات »[5]، والزهد فى الملبس طريق من طرق المباعدة بين شهوات النفس التى تحاول أن تضغط بها على الأصول الشرعية.

ويكرر الصوفية تحذيرهم من خداع الدنيا، فيقول الشعرانى: « إن غالب الناس ينظرون إلى ظاهر الدنيا دون ما فى باطنها من السموم القاتلة، والأباطيل

---

(١) العلامة الطبرانى – المعجم الكبير ج٢٥ ص١٧٤ – الحديث: ٤٢٨ .

(٢) سورة المؤمنون – الآية ٥١ .

(٣) سورة البقرة – من الآية ١٧٢ .

(٤) العلامة الدارمي – سنن الدارمي ج٢ ص٣٨٩ – [٩] باب في أكل الطيب – الحديث: ٢٧١٧ ، وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج٢ ص٣٢٨ – الحديث: ٨٣٣٠ .

(٥) الإمام الغزالى – إحياء علوم الدين ج٤ ص١٨٥ .

والخداع والمصائد، ولذلك تزاحموا عليها وتكاثروا وتحاسدوا وتباغضوا »[1]. والملبس الناعم من ظاهر الدنيا، بل ومن سمومها الناقعة. ولست أطالب الناس بتعريض حياتهم للأخطار، حتى يكونوا زهادا فى الدنيا. وإنما أطالبهم الاقتصاد فى الملبس. كما أدعوهم إلى ممارسته فى المطعم والمشرب. ففيه وسيلة ادخار تصون أمن الوطن. وتحفظ كرمته، كما تقدح نفس المؤمن حتى إذا خرج من الدنيا لاقاه النعيم فى الآخرة.

وكما كان رسول الله ﷺ زاهدا فى ملبسه. ولا يستعمل إلا الخشن. وهو زهد فى نوع الملبس، فقد كان أيضا زاهدا فى عدده. إذ لم تكن عنده الملابس كثيرة العدد. كما يفعل أغلب الناس اليوم، حتى إنهم يجعلون لصيف ملابس وللشتاء ملابس، وللربيع ملابس وللخريف كذلك، بل أن بعضهم يزيد فيجعل للسهرة ملابس، ولملاقاة الأضياف أخرى، وللعمل ثالثة، وللنوم رابعة، حتى تحولت بيوتهم إلى مكنات من الملابس المتنوعة فيقع عليهم الحكم بالإسراف- وإنما كان له ﷺ ملبس واحد يؤازره أخر. فإذا غسل أحدهما كان على جسم الحبيب المصطفى الثانى. ولذا كان يرقع ثوبه متى بلى، ويخصف نعله متى فتق، حتى يعلم الناس كيف تكون القدوة الصالحة. والقيادة الصحيحة والأعمال السليمة.

وفى الحديث الشريف عن هشام بن عروة[2] عن رجل قال « سألت عائشة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته قالت كان يرقع الثوب ويخصف

---

(١) الشيخ عبدالوهاب الشعرانى - لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ج١ ص٧٠ - طبعة القاهرة ١٣٢١هـ.

(٢) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب الإمام الثقة شيخ الإسلام أبو المنذر القرشي الاسدي الزبيري المدني ولد سنة إحدى وستين وسمع من ابيه وعمه ابن الزبير وزوجته أسماء بنت عمه المنذر وأخيه عبد الله بن عروة وعبد الله بن عثمان وطائفة من كبراء التابعين منهم اخوة عثمان وابن عمه عباد وابن ابن عمه عباد بن حمزة بن عبد الله وأبو سلمة وابن المنكدر وعمر بن عبد الله بن عمر وعمرو بن خزيمة وعمرو بن شعيب وعبد الله بن عامر بن ربيعة وعبد الرحمن بن سعد وعبد الرحمن بن كعب وعوف بن الطفيل ومحمد والد السفاح وابن شهاب وابو الزبير ووهب بن كيسان وابو وجزة وكريب ومحمد بن إبراهيم التيمي وبكر بن وائل وهو اصغر منه وعبد الله بن ابي بكر بن حزم وابو الزناد وابن القاسم ويزيد بن رومان وغيرهم ومات هشام ببغداد في سنة سته واربعين ومئة وصلى عليه ابو جعفر المنصور. [سير أعلام النبلاء ج٦ ص٣٤/٤٠ - رقم:١٢]

النعل أو نحو هذا »[١]. طبت حيا وميتا يا حبيبى يا رسول الله فقد علمتنا ما لو قمنا بتطبيقه فى حياتنا العامة والخاصة، لن يضل أحد فينا أو يشقى.

أما زهده فى أغطية فرشه ﷺ فحدث ولا حرج، عن أبى موسى الأشعرى قال: « دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بيته على سرير مرمول[٢] وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه »[٣]. وعن أنس « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على سرير وهو مرمول بشريط قال فدخل عليه ناس من أصحابه ودخل عمر فانحرف النبي صلى الله عليه وسلم فإذا الشريط قد أثر بجنبه فبكى عمر وقال والله إنا لنعلم أنك أكرم على الله من كسرى وقيصر وهما يعيشان فيما يعيشان فيه قال صلىّ الله عليه وسلم أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى قال فسكت »[٤]، فهو ﷺ لا ترضيه المقارنة بأصحاب الأعمال السيئة؛ لأنه مصطفى لله، ومختار من قِبله جل علاه، ثم هو يعمل للآخرة التى سيطول أمرها.

عن عائشة قالت « كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم وحشوه من ليف »[٥]، وحين وصفته كفراش قالت: إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذى ينام عليه آدما وحشوها ليف.

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٦ ص٢٤١ – الحديث: ٢٦٠٩٠ .

(٢) المرمول هو المنسوج من الحصير، فسرير رسول الله ﷺ كان مصنوعا من حصير وكانت أجزاؤه من جريد النخيل، والمعروف أن الجريدة هى سعفة طويلة تقشر من خوصها. [المعجم الوجيز باب الميم ص٩٩].

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٥٧١ – [٥٢] باب غزوة أوطاس– الحديث: ٤٠٦٨، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص١٩٤٣ – [٣٨] باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين رضي الله عنهما – الحديث: ٢٤٩٧

(٤) العلامة أبو حاتم بن حبان – صحيح ابن حبان ج١٤ ص٢٧٦ – ذكر البيان بأن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد كانت تؤثر خشونة ضجاعه في جنبه – الحديث: ٦٣٦٢، وراجع العلامة الحافظ الذهبى – تاريخ الإسلام ج٢/٣٢٨.

(٥) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص٢٣٧١ – رقم: ٦٠٩١ وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٣ ص١٦٥٠ – الحديث: ٢٠٨٢

وعن ابن عباس قال: « مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجا فخرجت معه فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك[1]، لحاجة له قال فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه فقال تلك حفصة وعائشة قال فقلت والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك قال فلا تفعل ما ظننت أن عندي من علم فاسألني فإن كان لي علم خبرتك به قال ثم قال عمر والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل[2]، وقسم لهن ما قسم[3].

قال فبينا أنا في أمر أتأمره إذ قالت امرأتي لو صنعت كذا وكذا قال فقلت لها ما لك ولما ههنا فيما تكلفك[4] في أمر أريده فقالت لي عجبا لك يا ابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها يا بنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان.

فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه فقلت تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم يا بنية لا تغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها يريد عائشة قال ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها فقالت أم سلمة عجبا لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فأخذتني والله أخذا كسرتني عن بعض ما كنت أجد[5]، فخرجت من عندها وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر ونحن نتخوف ملكا

---

(١) عدل إلى الأراك: مال عن الطريق حتى انتهى إلى شجرة الأراك، وهي التي يتخذ منها عود السواك. (تظاهرتا) تعاونتا عليه في الإفراط في الغيرة وإفشاء سره حتى استاء من ذلك.

(٢) أنزل الله فيهن ما أنزل: من القرآن الذي يأمر بالإحسان إليهن.

(٣) ما قسم: من الحظ في الميراث، والحق في النفقة ونحو ذلك.

(٤) فيما تكلفك: أي شيء حملك على التدخل فيما ليس من شأنك (فأخذ رداءه مكانه) أي ارتدى رداءه فور سماعه لكلامها، وذهب إلى بنته.

(٥) أجد: من الموجدة وهي الغضب.

من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينـا فقد امتـلأت صدورنـا منـه[1]، فـإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال افتح فقلت جاء الغساني فقال بـل أشـد مـن ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه فقلت رغم أنف حفصة وعائشة فأخذت ثوبي فأخرج حتى جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشربة لـه يرقى عليها بعجلة[2]، وغـلام لرسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم أسـود علـى رأس الدرجة فقلت له قل هذا عمر بن الخطاب فأذن لي.

قال عمر: فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لعلي حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف وإن عند رجليه قرظا مصبوبـا[3] وعند رأسه أهب معلقة[4] فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت فقال ما يبكيك فقلت يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه[5] وأنت رسول الله فقال أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[6]،

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يـا رسـول الله لو اتخذت فراشا أوْثر من هذا فقال ما لي وللدنيا وما للدنيا ومـا لي والـذي نفسـي

---

(١) امتلأت صدورنا منه: كنا في خوف شديد من مجيئه. (رغم أنف) لصق بالرغـام وهـو التـراب، أي ذلت وصغرت.

(٢) يرقى عليها بعجلة: يصعد عليها بسرعة.

(٣) قرظا: ورق شجر يدبغ بـه. (مصبوبـا) مسـكوبا، ويـروى (مصبـورا) أي مجموعـا كالصبرة وهـي الكومة.

(٤) أهب: جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ.

(٥) فيما هو فيه: من الرفاهية وأنواع النعيم الدنيوي.

(٦) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٤ ص١٨٦٦/١٨٦٧ – [٣٨٧] باب تبتغي مرضات أزواجـك قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم – الحديث: ٤٦٢٩، وأخرجـه مسـلم – كتاب الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن. رقم: ١٤٧٩]

بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»[1].

إذن مقام الزهد كان فيه رسول الله ﷺ يمارسه هو أثناء حياته بين الناس علما وعملا، ومارسه أصحابه من بعده، وقام عليه التابعون، وظل أهل الإسلام يتناقلون تلك السمات فيما بينهم، وإذا كان الصوفية الأعلام هم الذين شغلوا أنفسهم بممارسة ذلك الزهد، فهل عليهم ملام إن هم تبعوا قائد الغر المحجلين خير الأنام؟ أم أن هناك رغبة في الإدانة وتوجيه الاتهامات إليهم بغض النظر عن صحة تلك الاتهامات أو بطلانها.

۞ **يذهب الطوسى** إلى « أن الزهد أساس الأحوال الرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، فمن لم يحكم أساسه فى الزهد، لم يصح له شيء مما بعده، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فى الدنيا رأس كل خير »[2]، وبالتالى فإن الزهد أحد المقامات الهامة بالنسبة لصوفية الإسلام، التى ترفع صاحبها إلى التقوى، حتى تكون طبيعة ثابتة فيه، فلا يصدر عنه إلا الخير، وحينئذ يكون طاقة مفيدة لأمته ومجتمعه الذى يعيش فيه، كما يكون عنصرا إيجابيا وفردا ذا قيمة، وهو الذى هدف إليه الإسلام، وأكدت عليه القواعد التى قام عليها الصوفية الأعلام.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج: ٤ ص: ٣٤٤ – الحديث: ٧٨٥٨ هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ، وروى العلامة المنذرى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه قلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » [الترغيب والترهيب ج٤ ص٩٨ الحديث: ٤٩٧٢].

(٢) العلامة أبو نصر السرج الطوسى – اللمع ص٧٢ – تحقيق د: عبدالحليم محمود والاستاذ عبدالباقى سرور – ط القاهرة ١٩٩٠م.

ولأن متاع الدنيا قليل مهما امتد حقير مهما عظم، زائل مهما استمر، فإن من يحرص عليه هو المتمسك بالأدنى، التارك للأعلى. قال تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾[1].

يقول الحافظ ابن كثير: « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى أي آخرة المتقي خير له من دنياه، ولا تظلمون فتيلا من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد، وقال الحسن: رحم الله عبدا صحبها على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه.

وقال ابن معين كان أبو مصهر ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن ∴ له من الله في دار المقام نصيبُ
فإن تعجب الدنيا رجالا فإنها ∴ متاع قليل والزوال قريبُ[2]

وحتى لا يكون المرء عبدا لشهواته، مربوطا بها، يجرى فى حدود ما ترسمه تلك الشهوات له، فقد بين الله جل شأنه أن متاع الحياة يتقاسمه الناس، قل أو كثر، عظم أو حقر، صغر أو كثر، فكل منهم يأخذ من ذلك المتاع ربما بالحيلة، وقد يكون بالجد والاجتهاد[3].

أما ما عند الله تعالى فهو من منح الوهاب، ومادام الأمر من عنده فإن منحه تكون عظيمة الشأن، رفيعة القدر قال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[4].

---

(١) سورة النساء – الآية ٧٧ .

(٢) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ١ ص: ٥٢٧ .

(٣) ولذا قيل فى الحكم الدنيا بالحيلة، والآخرة بالعمل. [راجع كتابنا حكم وأمثال ص٨٢].

(٤) سورة آل عمران – الآية ١٤ .

قال الإمام الشوكاني : « قوله تعالى: ﴿ زين للناس حب الشـهوات ... ﴾، كـلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس فى هذه الدار »[١]، تاركة ما يخفيه الواحد القهار، وما هو قائم عنده فى الآخرة دار القرار، التى جعل نعيمها لا ينقطع مع الطائعين وعذابها لا ينصرف عن العاصين.

وقال الإمام الزمخشرى : « جعل الأعيان التى ذكرها شهوات؛ لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء، مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمة، وقال: زين للناس حب الشهوات، ثم جاء بالتفسير، ليقرر أولا فى النفوس أن الذين لهم حب، لها ما هو إلا شهوة لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها. وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله »[٢]. فمن فعل ذلك فهو المتعلق بالخسيس من الشهوات التارك العظيم من النعم ومثله يكون مبعدا عن الجنة، قريبا من النار.

ولأن الزهد سمة تعلو بصاحبها فوق الهامات، وتحلق به أبعد ما بين الأرض والسماوات، فقد بين الله تعالى أن المتعلقين بالحياة الدنيا - حتى يأخذوا من متعها ما تشاؤه لهم أهواؤهم - قد تمسكوا بالزائل، وتركوا الباقى، أمسكوا بتلابيب العوارض، وتناسوا أمر الأصول والثوابت، ومن ثم فهم مغرورون وقع لهم متاع سريع الزوال. قال تعالى: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[٣].

يقول العلامة الطبري : « يقول وما لذات الدنيا وشهواتها وما فيها من زينتها وزخارفها إلا متاع الغرور فما هى إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل الذي لا حقيقة له عند الامتحان ولا صحة له عند الاختبار فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، كأن الله تعالى ذكره يقول: لا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها فإنما أنتم منها في غرور تمتعون ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون.

---

(١) العلامة الشوكانى - فتح القدير - ج١ ص٣٢٣ .

(٢) العلامة الزمخشرى - تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل - ج١ ص٤١٦ .

(٣) سورة آل عمران - الآية ١٨٥ .

السفلى[1]، فاليد التى تعطى الخير لا تمتد للحرام، ولأن الرشوة حرام[2]، فإن الزاهد لا يقترب منها أخذا أو إعطاء.

وفوق ذلك فإنه إذا أؤتمن على عمل أو أوكل إليه أمر القيام به، أو فى مال كان أكثر الناس حرصا على أداء العمل الذى أوكل إليه وإتقانه حتى يجيء على الوجه الأكمل، ابتغاء مرضاة الله[3]، وكان أكثر الناس صونا للأمانة[4]، وهو ليس فى حاجة إلى رقيب يدفعه لما يقوم به، لأن الزاهد يتعامل أساسا مع الله، ومن ثم فإذا كان فى حوزته مال تقتضى طبيعة عمله وجوده بين يديه، فإنه يقضى به مصالح

---

(١) وفي الحديث الشريف: عن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله » [الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٢ ص٥١٨ – [١٧] باب لا صدقة الا عن ظهر غنى...– الحديث: ١٣٦١ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص٧١٧ – [٣٢] باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد العليا هي المنفقة وأن اليد السفلى هي الآخذة الحديث: ١٠٣٤] ، وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة « اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة » [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص ٧١٧ – [٣٢] باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد العليا هي المنفقة وأن اليد السفلى هي الآخذة – الحديث: ١٠٣٣ ، وأخرجه مالك – موطأ مالك ج: ٢ ص: ٩٩٨ الحديث: ١٨١٣]

(٢) وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم » [الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٣ ص٦٢٢ – [٩] باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم – الحديث: ١٣٣٦ ، وابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص٧٧٥ – [٢] باب التغليظ في الحيف والرشوة – الحديث: ٢٣١٣ ، والحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٤ ص١١٥ – الحديث: ٧٠٦٦ ، وابن حبان – صحيح ابن حبان ج١١ ص٤٦٧ – [١] باب الرشوة – ذكر لعن المصطفى صلى الله عليه وسلم من استعمل الرشوة في أحكام المسلمين – الحديث: ٥٠٧٦].

(٣) وفي الحديث الشريف : عن أبيه عن عائشة أن رسول الله قال « إن يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » [الطبراني – المعجم الأوسط ج١ ص٢٧٥ – الحديث: ٨٩٧ ، وأخرجه أبو يعلى – مسند أبي يعلى ج: ٧ ص: ٣٤٩ الحديث: ٤٣٨٦].

(٤) لقوله تعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ [سورة النساء – الآية ٥٨].

النفس. ولا ينقلب إلا فيما صدرت له من أوجه الاتفاق. وهو فى كل ذلك صورة حسنة لمن يتعاملون معه فى الزهد والنزاهة مع الأمانة والقناعة[1]. لذلك كان الزهد وسيلة إصلاح فى المجتمع الإنسانى كله، وقد تعلمه الصوفية الأعلام من سيدنا محمد ﷺ خير الأنام، أكرمنا الله بشفاعته على الدوام.

٢- زهده فى النساء

كثير من الناس يقع فى حبائل شهوة الفرج، حتى إنه من شدة ولعه بها ينسى كل واجباته الأخرى، كأنه ما خلق إلا للعلاقات الجسدية، ومتى كانت زوجه على قدر من الجمال والجاذبية والرغبة فى مواصلة تلك العلاقات، متى طلب ذلك منها، أو كانت هى التى تدفعه إليها فإنه يدين نفسه لتلك الشهوة، يبحث عن مقوماتها ومعضدات قيامه بأعبائها، حتى وإن كانت النهاية الأليمة تنتظره[2] فى جملة من الأمراض المهلكة، أو الموت البطيء الذى يطارده.

ومن الناس من إذا لم تكن زوجه على قدر إشباع تلك الشهوات بصفة مستمرة، فإنه يلجأ إلى إطفاء تلك الشهوة المستعرة عن طرق تجرى فيها الشبهات. وربما لجأ إلى العشيقات خوفا من تعدد الزوجات لعلمه بعجزه عن الإنفاق عليهن، ولم ينظر إلى الزواج على أنه سكن ومودة[3]. وإنما ظنه شهوة ومتعة يجرى خلفها أو يسعى لإشباعها، دون اعتبار لشيء آخر.

والإنسان العاقل هو الذى يزن الأمور التى [illegible] بها أو يدعها بميزان الشرع الشريف، والإنسان الكامل[4] هو سيدنا محمد ﷺ. فعن أنس رضي الله عنه قال

---

(١) الدكتورة كوكب مصطفى عامر - التصوف ودوره فى التربية الأخلاقية للمسلم ص٦١.

(٢) وفى الأمثال: من جار على شبابه؛ جار عليه هرمه. والله تعالى قد حذر من الجور فى كل شيء. فقال تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾ [سورة البقرة - من الآية ٢٢٣]

(٣) قال تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [سورة الروم - الآية ٢١].

(٤) الشيخ عبدالكريم الجيلى له كتاب بهذا العنوان - الإنسان الكامل فى التصوف ، فراجعه لتعرف ما فيه .

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها[1] وأجود الناس كفا، وأشجع الناس[2]، قال وقد فزع أهل المدينة ليلة سمعوا صوتا قال فتلقاهم النبي ﷺ على فرس لأبي طلحة عَرِيٍ وهو متقلد سيفه فقال لِمَ تراعوا لِمَ تراعوا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدته بحرا يعني الفرس »[3]، ولا يوجد شخص واحد غير سيدنا محمد ﷺ اجتمعت فيه تلك الصفات بكمالها، فكأن الله تعالى جعل النبى الخاتم منفردا فى ذلك كله، لأنه الذى يناسب مقام النبوة الخاتمة.

---

(١) وفى ذلك يقول المادح فى رسول الله :

خلقت مبرأً من كل عيب ∴ كأنك قد خلقت كما تشاء

فأجمل منك لم ترقط عينى ∴ وأفضل منك لم تلد النساء

(٢) ففي الحديث : عن أنس رضي الله عنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي صلى الله عليه وسلم سبقهم على فرس وقال وجدناه بحرا » [صحيح البخاري ج٣ ص١٠٣٨ - [٢٤] باب الشجاعة في الحرب والجبن الحديث: ٢٦٦٥]وقال السيوطي :« كان أحسن الناس صورة وسيرة وأجود الناس بكل ما ينفع حذف للتعميم أو لفوت إحصائه كثرة لأن من كان أكملهم شرفا وأيقظهم قلبا وألطفهم طبعا وأعدلهم مزاجا جدير بأن يكون أسمحهم صلة وأنداهم يدا ولأنه مستغن عن الفانيات بالباقيات الصالحات ولأنه تخلق بصفات الله تعالى التي منها الجود وأشجع الناس أي أقواهم قلبا وأجودهم في حال البأس فكان الشجاع منهم الذي يلوذ بجانبه عند التحام الحرب وما ولى قط منهزما ولا تحدث أحد عنه بفرار وقد ثبتت أشجعيته بالتواتر النقلي قال المصنف بل يؤخذ ذلك من النص القرآني لقوله يأيها النبي جاهد الكفار فكلفه وهو فرد جهاد الكل و لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولا ضير في كون المراد هو ومن معه إذ غايته أنه قوبل بالجمع وذلك مفيد للمقصود وقد جمع صفات القوى الثلاث العقلية والغضبية والشهوية والحسن تابع لاعتدال المزاج المستتبع لصفات النفس الذي به جودة القريحة الدالة على العقل واكتساب الفضائل وتجنب الرذائل والجود كمال القوة الشهوية والغضبية كمالها الشجاعة وهذه أمهات الأخلاق الفاضلة فلذلك اقتصر عليها قاله الطيبي عن أنس ابن مالك وقضية صنيع المؤلف أن هذا هو الحديث بكماله والأمر بخلافه بل بقيته في البخاري ولقد فزع أهل المدينة أي ليلا فكان النبي صلى الله عليه وسلم سبقهم على فرس أي استعاره من أبي طلحة وقال وجدناه بحرا » [السيوطى - الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص٢٦]

(٣) الإمام البخارى - صحيح البخاري ج٣ ص١١٠٦ - [١٦٢] باب إذا فزعوا بالليل - الحديث: ٢٨٧٥.

تزوج ﷺ من النساء الكثيرات بقدر ما قضى الله عليه وقدره له[١]، منهن من عقد عليهن ثم طلقهن[٢]، ومنهن من خطبهن ولم يقدر الله له الزواج بهن[٣]، ومنهن من دخل بهن ونلن شرف الوصف بأمهات المؤمنين، حتى صارت كنية لكل واحدة منهن. وخاطبهن رب العالمين بقوله تعالى: ﴿ يا نساء النبي ﴾[٤]، بل إن البعض منهن جاء تزويجه بهن من قِبلِ الله تعالى[٥].

وانتقل ﷺ للرفيق الأعلى عن تسع منهن، وكان أحيانا يطوف عليهن جميعا في الليلة الواحدة بغسل واحد، أو بأغسال حسب توفيق الله تعالى.

۞ **ذكر الشيخ محمد نووي**: « أن العلامة الشرقاوى قال: مات رسول الله ﷺ عن تسع، وعقد على خمس عشرة، واجتمع في عصمته إحدى عشرة، وطلق اثنتين، والتسعة التي توفي عنهن هن: أم المؤمنين سودة بنت زمعة، وعائشة بنت الصديق، وحفصة بنت الفاروق، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وأم حبيبة، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي، وميمونة بنت الحارث.

ثم نقل عن صاحب مشارق الأنوار[٦]، أنه قال في المواهب: والمتفق عليه أن أزواجه اللاتي دخل بهن ولم يطلقهن هن إحدى عشرة امرأة ست من قريش، وهن:

---

(١) عن قتادة أن رسول الله تزوج خمس عشرة امرأة، دخل بثلاث عشرة منهن، واجتمع عنده منهن إحدى عشرة، وقبض عن تسع، فأما اللتان لم يدخل بهن فأفسدتهما النساء فطلقهما، وذلك أن النساء قلن لإحداهما - المطلقات - إذا دنا منك فتمنعي فتمنعت فطلقها، وأما الأخرى فلما مات ابنه إبراهيم قالت: لو كان نبيا ما مات ابنه فطلقها. [الحافظ الذهبي - تاريخ الإسلام ج٢ ص٤١٤].

(٢) راجع في المسألة للحافظ ابن عبدالبر - الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص٣٤ .

(٣) قال الذهبي : خطب رسول الله أم هانئ بنت أبي طالب وضباعة بنت عامر، وصفية بنت بشامة ولم يقدر له أن يتزوجهن . (الحافظ الذهبي - تاريخ الإسلام ج٢ ص٤١٩).

(٤) سورة الأحزاب - من الآية ٣٠ .

(٥) عن رسول الله ﷺ قال: ما تزوجت شيئا من نسائي، ولا زوجت شيئا من بناتي إلا بوحي جاءني به جبريل عن ربي عز وجل، فأول من تزوج خديجة ثم سودة بنت زمعة بعد خديجة. (الحافظ ابن سيدي النحاس - عيون الأثر)

(٦) صاحب مشارق الأنوار هو الشيخ حسن العدوي الحمزاوي .

خديجة بنت خويلد وعائشة بنت الصديق. وحفصة بنت عمر. وأم حبيبة بنت أبي سفيان. وأم سلمة بنت أبي أمية. وسودة بنت زمعة. وأربع عربيات أي من غير قريش وإلا فالكل عربيات هن: زينب بنت جحش ، وميمونة بنت الحارث. وزينب بنت خزيمة، وجويرية بنت الحارث، وواحدة إسرائيلية وهى صفية بنت حيي الخيبرية[(١)].

ثم قال الحمراوى: ولم يذكر ريحانة من الزوجات، وذكرها من السرارى. مع عدها زوجه فهن اثنتا عشرة امرأة، وتوفى عن تسع منهن، وأما غيرهن فمن وهبت نفسها أو خطبها، ولم يعقد عليها، أو عقد عليها ولم يدخل بها لموت أو طلاق فنحو ثلاثين امرأة[(٢)]، وقد أكثر أهل العلم الكلام فى ذلك الجانب. وكل يتحمل نتائج ما ذكر.

ومع ذلك فقد كان يملك أربه ويمكف نفسه عنهن جميعا، حتى جاء التوجيه الإلهى من الله تعالى فى قوله جل شأنه: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾[(٣)].

عن أنس بن مالك [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك إلى آخر الآية][(٤)].

وعن زيد بن أسلم [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه فقالت أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي فجعلها عليه حراما

---

(١) راجع للعلامة ابن سعد: الطبقات الكبرى لتعرف ذلك على وجه التفصيل.

(٢) الشيخ محمد نووى الشافى – نور الظلام ص٣٦.

(٣) سورة التحريم – الآية ١ .

(٤) الإمام النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٧ ص٧١ – الحديث: ٣٩٥٩ ، والسنن الكبرى – الحديث رقم: ١١٦٠٧ .

قالت يا رسول الله كيف يحرم عليك الحلال فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك][1].

وعن ابن عباس قال [قلت لعمر بن الخطاب من المرأتان قال عائشة وحفصة وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية أصابها النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في نوبتها فوجدت حفصة فقالت يا نبي الله لقد جئت إلي شيئا ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي قال ألا ترضين أحرمها فلا أقربها قالت بلى فحرمها وقال لها لا تذكري ذلك لأحد فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفر عن يمينه وأصاب جاريته][2].

❁ وروى ابن كثير « عن ابن عباس في قوله تعالى يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك قال حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريته ومن ههنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاما أو شرابا أو ملبسا أو شيئا من المباحات وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قول فأما إذا نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما »[3].

---

(١) الحديث رواه ابن جرير . وفي هذا دلالة على أن الرسول ﷺ بشر في كل ما يتعلق بالبشرية المتميزة. لكنه ﷺ يوحى اليه في أمور الشرع كلها. كما انه في الأمور العادية يتولى الوحي توجيهه إلى الأفضل؛ لأن ذلك هو المناسب لمقام النبوة. وعن ابن عمر عن عمر قال [قال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة لا تخبري أحدا وإن أم إبراهيم علي حرام فقالت أتحرم ما أحل لك قال فوالله لا أقربها قال فلم يقربها حتى أخبرت عائشة قال فأنزل الله تعالى قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم]. الحديث ذكره الهيثم بن كليب في مسنده.

(٢) رواه ابن جرير. ولعل كان ذلك لتعليم أهل الإسلام كيفية المخرج من هذا الشيء. لو أنه تم وكثيرا ما كانت تأتي الأحكام العملية فيعلمها رسول الله للناس بشكل عملي يمكنهم استيعابه والتعرف عليه. وعن ابن عباس قال: في الحرام يمين تكفرها وقال ابن عباس لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة يعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم جاريته فقال الله تعالى يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك إلى قوله قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فكفر يمينه فصير الحرام يمينا. [الإمام البخاري - صحيح البخاري - الحديث: ٤٩١١]

(٣) الإمام الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج٤ ص٣٣٨ .

عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير قال لا ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا تبتغي مرضات أزواجك][1].

وعن عمر بن الخطاب قال : « لما اعتزل نبي الله صلى الله عليه وسلم نساءه قال دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب فقال عمر فقلت لأعلمن ذلك اليوم قال فدخلت على عائشة فقلت يا بنت أبي بكر أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت مالي ومالك يا ابن الخطاب عليك بعيبتك قال فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لها يا حفصة أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبك ولولا أنا لطلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت أشد البكاء فقلت لها أين رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت هو في خزانته[2] في المشربة فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا على أسكفة المشربة مدل رجليه على نقير من خشب وهو جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٤ ص١٨٦٥– [٣٨٦] باب يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم– الحديث: ٤٦٢٨، وزعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يخبر أنه سمع عائشة تخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا قالت فتواطيت أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل لم تحرم ما أحل الله لك إلى قوله إن تتوبا لعائشة وحفصة وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا لقوله بل شربت عسلا [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص١١٠٠ – [٣] باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق – رقم: ١٤٧٤]

(٢) الخزانة هى مكان حفظ الأشياء المهمة التى تمثل الاحتياطى لأصحابها. [المنجد فى اللغة والآداب والأعلام – باب الخاء].

فناديت يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئا ثم قلت يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إليّ فلم يقل شيئا ثم رفعت صوتي فقلت يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظن أني جئت من أجل حفصة والله لئن أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقها لأضربن عنقها ورفعت صوتي فأومأ إلى أن ارقه فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظا[1] في ناحية الغرفة وإذا أفيق[2] معلق قال فابتدرت عيناي قال ما يبكيك يا ابن الخطاب قلت يا نبي الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته وهذه خزانتك فقال يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا قلت بلى قال ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول ونزلت هذه الآية آية التخيير عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أطلقتهن قال لا قلت يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن قال نعم إن شئت فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى كشر فضحك

---

١) القرظ : شجر عظام من الفصيلة القرنية لها سوق غلاظ أمثال شجر الجوز، وهي نوع من السنط العربي يستخرج منه صبغ معروف مشهور. [المعجم الوجيز باب القاف ص٤٩٨].

٢) الأفيق: هو الجلد الذى لم يتم دبغه، وإنما يترك همـلا حتى يجف وحده. [راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ، تاريخ الإسلام ج٢ ص٤١٤].

وكان من أحسن الناس ثغرا ثم نزل نبي الله صلى الله عليه وسلم ونزلت فنزلت أتشبث بالجذع ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده فقلت يا رسول الله إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين قال إن الشهر يكون تسعا وعشرين فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر وأنزل الله عز وجل آية التخيير »[١].

فزهد الرسول الكريم ﷺ فى كل مظاهر الدنيا كان أحد سماته الخاصة. وعن ابن عباس ﷺ فى ذات القصة : « ... ما رأيت في بيت النبوة شيئا يرد البصر غير أهبة[٢] ثلاثة فقلت ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله وكان متكئا فقال أو في شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة وكان قد قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله ... »[٣].

أجل كان رسول الله ﷺ قويا إذا أعطى، فإنه يطوف على نسائه جميعا فى ليلة واحدة[٤]، وذلك مما يعجز عن مثله الرجل الشديد. بل أى شديد، أما رسول الله فقد كان يتم ذلك بتوفيق الله تعالى، كما أنه ﷺ إذا غضب من نسائه أمسك نفسه

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٢ ص: ١١٠٥/١١٠٧ – [٥] باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى وإن تظاهرا عليه الحديث : ١٤٧٩ .

(٢) الأهاب : هو الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ وجمعه أهب وفى علم الأحياء: هو الغلاف الذى يحيط بباقى النبات والجذور وبعض الحيوان كالأصداف. [قطر المحيط – باب الألف ، والمعجم الوجيز باب الألف ص٢٩].

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٢ ص: ٨٧١/٨٧٣ –[٢٥] باب إماطة الأذى – [٢٦] باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها – الحديث: ٢٣٣٦، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص١١١١ – الحديث: ١٤٧٩

(٤) فعن أنس بن مالك قال: « كان النبى ﷺ يطوف على نسائه فى ضحوة يوم بغسل واحد » [الإمام الحافظ الذهبى – تاريخ الإسلام ج٢ ص٣٣٦].

عنهن الشهر والشهرين والأكثر من ذلك[1]، حتى إنه قد أمره الله تعالى أن يخير زوجاته بين متع الحياة الدنيا الفانية، وبين رضوان الله تعالى ومحبة رسوله، فاخترن. الثاني في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾[2].

عن جابر بن عبدالله قال: [دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال فأذن لأبي بكر فدخل ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا قال فقال والله لأقولن شيئا أضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقدمت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده فقلن والله لا نسال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية يا أيها النبي قل لأزواجك حتى بلغ للمحسنات منكن أجرا عظيما قال فبدأ بعائشة فقال يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك قالت وما هو يا رسول الله فتلا عليها الآية قالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت قال لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا][3].

---

(١) راجع في هذا الشأن للشيخ محب الدين الطبري – السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين وللعلامة الحافظ ابن سيد الناس عيون الأثر ولغيرهما سيدات بيت النبوة أمهات المؤمنين، ونور الظلام ففي ذلك تفاصيل دقيقة عن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين.

(٢) سورة الأحزاب – الآيتان ٢٨/٢٩ .

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص١١٠٤ – [٤] باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية – الحديث: ١٤٧٨ ، وأخرجه البيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٧ ص٣٨ – الحديث: ١٣٠٤٧، وعن عائشة قالت « لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي فقال إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك قالت قد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه قالت ثم قال إن الله عز وجل قال يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما قالت فقلت في أي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة قالت ثم فعل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت » [الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٤ ص١٧٩٦ – [٢٧٦] باب قوله ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا .. ﴾ – الحديث: ٤٥٠٧ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص١١٠٣ – [٤] باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية – الحديث: ١٤٧٥]

❁ **قال العلماء** « وأما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختار فراقه ويعلم من أبويها أنهما لايشيران عليها بفراقه »[1].

ومن البين أن الرسول ﷺ رغم أن لديه العديد من أمهات المؤمنين، إلا أنه كان يزهد فيهن جميعا، لاكرها لهن ولا إرهاقا، ولا عجزا عن القيام بواجبه معهن، ولكن تعلقا فيما عند الله تعالى، وزهدا عن كل ما يعرف الناس ممن تجرى بهم الرغبات أو تحركهم الغرائز، وتنطلق فيهم الشهوات، وما كان زهده ﷺ من النوع الذى يكره عليه القائم به، كرها أدبيا أو كرها ماديا، وإنما كان يفعل ذلك عن إرادة حرة، واختيار تام، وآية ذلك أن الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فلما علموها وجدوا عبادتهم قليلة جدا بالنسبة لعبادة النبى المختار، الذى جعله الله قدوة للأبرار، فحاولوا ممارسة الزهد على ناحية غير مشروعة، إلا أنه ﷺ نهاهم عن ذلك.

ففى الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدا وقال آخر انا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني »[2].

---

(١) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – ج٤: ص١٦٤.

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص١٩٤٩ – [٧٠] كتاب النكاح [١] باب الترغيب في النكاح لقوله تعالى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء – الحديث: ٤٧٧٦ ، وأخرجه ابن حبان صحيح ابن حبان ج٢ ص٢٠ – ذكر التغليظ على من خالف السنة التي ذكرناها – الحديث:٣١٧ وأخرج البيهقى بلفظ عن أنس بن مالك « أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن سريرته فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا أكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش وقال بعضهم أصوم ولا أفطر فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وافطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » [سنن البيهقي الكبرى ج٧ ص٧٧ – الحديث: ١٣٢٢٧].

في ذات الوقت فإن الرسول ﷺ لو لم يزهد في متاع الدنيا، ما كان هو القدوة حتى يأمرنا الله باتباعه في قوله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾(١).

إذن زهد الرسول ﷺ كان باختيار منه وتوفيق الله تعالى له ودليل ذلك ما رواه أبو أمامة ﷺ « عن النبي صلى الله عليه وسلم قال عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما وقال ثلاثا أو نحو هذا فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك »(٢).

❁ **وفى تقديرى**: أن زهد رسول الله شمل المطعم والشرب، كما شمل الملبس والمفرش، بل شمل حياته كلها، وأنه في كل ذلك إنما كان يفعل ما يرضى الله تعالى. ويقر به من رضوانه جل علاه، ففي ذلك راحة نفسه. واطمئنان قلبه، وسلوى فؤاده. وقد رأى الصوفية أن أقرب طريق لرضوان الله تعالى هو اتباع سيدنا رسول الله ﷺ، ومن ثم انطلقت مشاعرهم تحكى عن قدرة الله وإرادته، وتتمسك بمحبته.

❁ **يقول الشعرانى**: « ليس فى الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت ولا نهار ولا دليل، ولا اعتدال ولا ميل ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا سهاء ولا رقاء، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشرة ولا لب، ولا شيء من جميع المضادات والمختلفات والمتبادلات إلا هو مراد الحق جل علاه »(٣).

---

(١) سورة الأحزاب – الآية ٢١ .

(٢) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٤ ص٥٧٥ – [٣٥] باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه – الحديث:٢٣٤٧ . وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٥ ص٢٥٤ – الحديث: ٢٢٢٤٤ ، والمنذرى – الترغيب والترهيب ج٤ ص٧٣ الحديث: ٤٨٥٢ ، ج٤ ص٩٣ – الحديث: ٤٩٤٤

(٣) الشيخ عبدالوهاب الشعرانى – الصفات الكشفية ص٨/٧ وراجع له أيضا الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية ط القاهرة ١٣٠٦هـ، وراجع له أيضا الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية ط الأميرية ١٩٧٣م. ولواقح الأنوار القدسية فى العهود المحمدية ط القاهرة ١٣٤٣هـ. والأجوبة المرضية في أئمة الفقهاء والصوفية ط القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

فالصوفية لا يرون شيئا فى الوجود إلا وهو أثر من آثار قدرة رب الوجود جل علاه، فتسميات الموجودات إنما هى من الله على سبيل الإرادة، لذات التسميات. وبالتالى فكل ما فى الوجود واقع تحت إرادة وقدرة الواهب المنان جل علاه. مما يجعل العاقل لا يفكر إلا فى كيفية طاعة الخالق العظيم، وكيفية أن يكون العبد صالحا للوقوف أمام الرب فى دارى الدنيا والآخرة، باعتبار أن الإنسان هو المخلوق الأعلى فى جملة المخلوقات المكلفة، حيث قرَّ فى عقولهم قوله ﷺ « خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وخلق الله البهائم من شهوة بلا عقل، وخلق آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته كان خيرا من الملائكة، ومن غلب شهوته على عقله كان أشر من البهائم »[1]، والصوفية الأعلام قد أيقنوا أن هذه الدنيا ليست لمقيم وطنا، فكان الزهد طريقهم العملى الذى يعبرون به عن موقفهم من متاع الحياة الدنيا، وتوكلهم عليه جل شأنه.

۞ **يقول التوحيدى** : « لا معرج إلا على باب الله، ولا ظن بحسن إلا بالله، ولا أمل يصح إلا فى الله، ولا رجاء يستقيم إلا فيما عنده، ولا خير بحق إلا عنه، ولا توكل إلا عليه، ولا نجاة إلا بروح الله، ولا أنيس إلا بكرامة الله، ولا سكن إلا إلى جوار الله، ولا أمن إلا فى حرم الله، ولا توجه إلا إلى كعبة الله، ولا غنى إلا من خزائن الله، ولا فوز بالجنة إلا بتفضل الله، ولا خلاص من النار إلا برحمة الله »[2]، فهل بعد هذا يقدح القادح فى سلوكيات الصوفية؟! ويتهمهم بما لا يليق بمن صفى نفسه لله، فصافاه مولاه.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحافظون تمام المحافظة على تتبع أحوال النبى ﷺ فى حركاته وسكناته، وإسراره وإعلانه، حتى حفظ الله بهم الدين[3]، فسلكوا مسالك رسول الله، ثم أسلموا ذلك للتابعين، وظل التمسك بسنة

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخارى – كتاب الإيمان، وصحيح مسلم ج٣ ص١٣١ .

(٢) العلامة أبو حيان التوحيدى – الإشارات الإلهية ص٨٥ – تحقيق وتقديم الدكتور عبدالرحمن بدوى – وكالة المطبوعات الكبرى ١٩٥٨م.

(٣) العلامة محمد زكى الدين محمد أبو هاشم – جامع البيان لم اتفق عليه الشيخان – القسم الثانى – العبادات – الجزء الخامس ص٥١ طبعة دار الصفوة – الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م وهو غير اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

رسول الله ديدن أهل الصلاح والعلماء العاملين، والصوفية كان فيهم من صحابة الرسول ﷺ أبو بكر الصديق وعمر الفاروق، بل كان فيهم عثمان الحيي، وعلى الشجاع، وعبدالرحمن بن عوف، بل لا أكون مخطئا إذا قلت: إن كل الصحابة والصحابيات كانوا صوفية، اخلصوا لله قلوبهم، وصفوها من كل ما سواه، وتركوا هموم غدهم، فانصلحت أحوالهم، ثم جاء التابعون، فكان فيهم جمع كبير من الصوفية، وظل حال أهل الصفاء يتسابق مع السنين حتى يومنا هذا، ولكن عددهم قد يقل في بعض الأحيان أو يزيد فى بعض أخر، وما أظن المنكر للتصوف يجد دليلا ينقض ما ذهبت إليه.

من ثم فإن حياة رسول الله تعتبر مصدرا من مصادر التصوف الإسلامى الذى يمارسه صوفية أهل الإسلام، وأخشى أن يقع منكرو التصوف الإسلامى فى مواجهة مع النقل الصحيح، فتكون الفتنة التى حذر الرسول ﷺ منها، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي ومن يشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به »[1].

وعن أسامة بن زيد ﷺ « أن النبي صلى الله عليه وسلم أشرف على أطم من آطام المدينة ثم قال هل ترون ما أرى إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٦ ص٢٥٩٤ – [٩] باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم – الحديث: ٦٦٧٠ ، ج٣ ص١٣١٨ –[٢٢] باب علامات النبوة فى الإسلام– الحديث: ٣٤٠٦، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢١١ – [٣] باب نزول الفتن كمواقع القطر – الحديث: ٢٨٨٦ والمراد بـ:[(خير) أي أكثر سلامة وأقل شرا. (الساعي) اسم فاعل من السعي وهو العدو والإسراع في السير، وهو تشبيه لمن يشارك في الفتن ويجتهد في إثارتها. (يشرف لها) من الإشراف. وهو الانتصاب للشيء والتعرض له والتطلع إليه. (تستشرفه) تغلبه وتصرعه وتهلكه. (ملجأ) موضعا يلتجيء إليه ويحمي نفسه فيه من الفتن. (معاذا) بمعنى الملجأ]. وعلق عليه الإمام النووى فى شرح – الحديث رقم: ١٠ قائلا: [(القاعد فيها خير من القائم الخ) معناه بيان عظيم خطرها. والحث على تجنبها والهرب منها ومن التشبث في شئ. وإن شرها وفتنتها يكون على حسب التعلق بها. (من تشرف لها تستشرفه) أما تشرف فروي على وجهين مشهورين: أحدهما بالتاء والشين والراء. والثاني يشرف، وهو من الإشراف للشيء. وهو الانتصاب والتطلع إليه والتعرض له. ومعنى تستشرفه تقلبه وتصرعه. وقيل: هو من الإشراف، بمعنى الإشفاء على الهلاك. ومنه: أشفى المريض على الموت وأشرف. ((ملجأ) أي عاصما وموضعا يلتجئ إليه ويعتزل فيه. (فليعذ به) أي فليعتزل فيه]. وفى رواية لمسلم : « عن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم تكون فتنة النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الساعي فمن وجد ملجأ أو معاذا فليستعذ » [رواية أخرى من الحديث رقم: ٢٨٨٦]

القطر »[1]. وعن أبي بكرة يحدث قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها ستكون فتن ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها والماشي فيها خير من الساعي إليها ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه قال فقال رجل يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض قال يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاة اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت قال فقال رجل يا رسول الله أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه أو يجئ سهم فيقتلني قال يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار »[2]،

ومن يعتزل الوقوع فى الفتن يسلم من شرها، لأن السيف آلة القتال. فإذا انكسر السيف لم تعد مسالك الشيطان قوية، فاسأل الله السلامة فى الدين والنجاة من آفات النفس فى الدنيا، والفوز بشفاعة النبى الخاتم الحبيب سيدنا محمد بن عبدالله يوم لقاء الله فى الآخرة إن شاء الله.

الثانى الصبر[3]

عرفت أن المقامات عند الصوفية هى المنزلة التى يحل بها السالك حتى يتوصل إلى غاية جهده فيها، ثم ينتقل الى المقام الآخر، باعتبار أن المقام هو ما يتحقق

---

(١) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢١١ – كتاب الفتن وأشراط الساعة كتاب الفتن وأشراط الساعة [٣] باب نزول الفتن كمواقع القطر – الحديث: ٢٨٨٥

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢١٢ – الحديث: ٢٨٨٧ . والمراد بـ: [(يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر) قيل: المراد كسر السيف حقيقة، على ظاهر الحديث: ليسد على نفسه باب هذا القتال. وقيل: هو مجاز. والمراد به ترك القتال. والأول أصح. (يبوء بإثمه وإثمك) معنى يبوء بإثمه، يلزمه ويرجع به ويتحمله. أي يبوء الذي أكرهك، بإثمه في إكراهك وفي دخوله في الفتنة. وبإثمك في قتلك غيره].

(٣) وردت مادة الكلمة فى القرآن الكريم مرات عديدة، وعلى أنها شتى. حيث جاءت اسما وفعلا ومصدرا، مما يدل على أن الصبر ذو أهمية عظمى.

به العبد بمنازلته من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف[1]، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف، فمقام كل أحد هو موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له لما عرفت أن هذه المقامات تتعدد عند الصوفية[2]، فهى عند البعض سبعة[3]، بينما عدها البعض الآخر عشرة[4]. ويرى غيرهم أنها غير ذلك، وربما وصل فى عدها وتقسيماتها إلى ثمانية عشر[5]، أو يزيد، ومن ثم فأود أن تعتبر مسالة عدد المقامات مما يعبر عن حالات الصوفية، ويغلب على اتجاهات أصحابها.

وقد ألمحت إلى مقام الزهد، وكيف استفادهالصوفية من رسولنا الخاتم سيدنا محمد ﷺ، حيث عرضت لمحات من زهده ﷺ فى المطعم والمشرب والملبس والفراش، وإن كان زهده ﷺ قد عم أطراف الحياة كلها – على النحو الذى سلف – وتأكد للدارس أن العلاقة بين زهد الصوفية الأعلام ورسول الله ﷺ لا يمكن إنكارها. وأن رسول الله ﷺ هو القدوة لنا جميعا نحن أهل الإسلام. أمرنا الله جل شأنه أن نتبعه إن كنا صادقين فى محبة الله رب العالمين. : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى

---

(١) العلامة نصير الدين الطوسى – اللمع ص٦٥ ، والعلامة أبو القاسم عبدالكريم بن هوزان القشيرى – الرسالة القشيرية فى علم التصوف – شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى .

(٢) هذا العد من أصحابه فى تقديرى ليس مرادا به حقيقته بقدر ما يراد به الحديث عن مجموعة من المقامات التى بلغها ذلك السالك. فهو يحكى حالته الخاصة؛ لأن التصوف حياة روحية ذاتية. حكايتها تقترب من السير الذاتية، لكن فى جانب بعينه يتعلق بصفاء القلب ونقاء الوجدان، وسلامة السريرة، وإخلاص الوجه لله رب العالين.

(٣) الشيخ نصير الدين الطوسى – اللمع ص٦٥ ، وهو تقسيم للمقامت أكثر مما هو حديث عن العدد هذا من وجهة نظرى، والله تعالى أعلم.

(٤) الشيخ السهروردى – عوارف المعارف ص٢٣٨ وما بعدها.

(٥) هى : ١– مقام التوبة. – الزهد . ٣– التوكل . ٤– الشكر. ٥– الإحسان. ٦– التقوى. ٧– الورع. ٨– الخوف. ٩– الرجاء. ١٠– الصدق. ١١– الحياء . ١٢ التواضع. ١٣ الرضا. ١٤– المحبة. ١٥– الشوق. ١٦– المحاسبة. ١٧– المراقبة. ١٨ الصبر. [رجع للدكتورة كوكب مصطفى عامر – التصوف ودوره فى التربية الأخلاقية للمسلم ص١٠٨/٥١ – مطابع رزيق ١٩٩٥م.

يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾[1].

وألمحت إلى أن المقامات التى تحدث عنها الصوفية، إنما هى رجع صدى لسلوكيات أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ، فهو الذى مارس التصوف العملى على كل ناحية، حتى صار ذلك كتابا مفتوحا يأخذ منه صوفية الإسلام بقدر استطاعة كل واحد منهم، بل إن التسميات التى أطلقت على كل مقام من المقامات إنما هى تسمية إسلامية، ورد بها النقل المنزل - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة - وبالتالى فليس من الصواب ما يقوم به خصوم التصوف من إرجاع مصادره إلى المنابع التى لا علاقة لها بالإسلام، وهاأنذا أنتقل إلى الحديث عن الصبر كمقام من المقامات الصوفية، أخذاً إياه من حياة سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

ويعرف الصبر فى المفهوم اللغوى بأنه حبس النفس وحملها على التجلد والاحتمال فى مواجهة الأمر الذى يحيط بها[2]، وشهر رمضان سمى شهر الصوم؛ لأن الصائم يحبس نفسه ويمسكها عن شهواتها جميعا، البطن والفرج والقلب والعقل والجوارح.

أما فى مفهوم الصوفية فيعرف بأنه ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوة، فإن ترك شهوات النفس يثمر الصبر، فالصبر ثمرة امتلاء زوايا القلب من المحبوب، نتيجة اضمحلال الرسوم، فهو جلوس النفس على مجارى القضاء، وعدم الشكوى، واستلذاذ البلوى[3]، مادام ذلك لا يتعلق بأمور الدين، التى هى سياج المؤمن الواقى له من نزعات الشيطان.

---

(١) سورة آل عمران - الآيتان ٣٢/٣١.

(٢) الشيخ شهاب الدين السهروردى - عوارف المعارف ص٤٤٣.

(٣) العلامة مجد الدين الفيروز أبادى - القاموس المحيط - باب الراء فصل الصاد وتتعدد معانى الكلمة، فمنها الحبس، ومنها ما يقى من الفساد، وما يعين على احتمال ما بعده، سواء أكان عن عتاب المحبوب أم على احتمال المكروه دون جزع، كما ترد فى الصبر الذى هو عصارة شجر واحدة صبرة والصبار الذى هو نبات صحراوى عصارته شديدة المرارة، وأوراقه عريضة تجنيه دائمة الخضرة، كثيرة الماء فيه أشواك وسمى بذلك؛ لأنه يحتمل افتقاد الماء فترة أطول من غيره، والتصبيرة هى ما يتناوله الجائع حتى يستعين به على الصبر، حتى ينضج الطعام، أو يحين وقت تناوله، والصبرة هى الكومة من الطعام بلا كتل أو وزن. [المعجم الوجيز - باب الصاد ص٣٥٩/٣٥٨].

* **ويقرر الإمام الغزالي:** «أن الصبر نصف الإيمان، لأن الإيمان – في مفهومه نصفان: نصف صبر ونصف شكر. وفوق ذلك فإن الصبر والشكر اسمان من أسماء الله الحسنى. إذ الله سمى نفسه صبورا وشكورا[١]. «وقال عمر بن الخطاب: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت»[٢]. وقال الإمام علي: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[٣].

والصبر في حياة الرسول الكريم يصعب على مثلي القيام بإحصاء مظاهره. سواء أكان منه قبل بعثته الشريفة، أم بعد البعثة المباركة، حتى الانتقال إلى الرفيق الأعلى، ذلك لأن حياة الرسول ﷺ كانت سلسلة من الابتلاءات التي قضاها[٤] الله تعالى في رسولنا ﷺ وقدرها[٥] عليه إذ مات أبوه وهو ما يزال جنينا في رحم أمه[٦]،

---

(١) الإمام الغزالي – إحياء علوم الدين ج٤ ص٥٩ والشيخ الحافظ العراقي قد خرج أحاديث الإحياء فارجع إلى النسخة المخرجة في أحاديثها، لأن في الرجوع إلى النسخة المخرجة خيرا كثيرا.

(٢) الشيخ عبدالكريم القشيري – الرسالة القشيرية ص١٤٤/١٤٦ .

(٣) العلامة أبو بكر محمد بن أبي شيبة الكوفي – مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص١٧٢ – رقم: ٣٠٤٣٩. ورجع أيضا الشيخ عبدالكريم القشيري – الرسالة القشيرية ص١٤٤/١٤٦ .

(٤) القضاء الإلهي هو ما دون في علم الله الأزلي بالنسبة لكافة المخلوقات ما كان وما هو كائن وما سيكون.

(٥) القدر الإلهي هو تنفيذ ما في علم الله الأزلي الذي قضاه جل شأنه على أن تنفيذ ذلك متوافق مع المكتوب، لا يخرج عنه في شيء أبدا. [راجع في تفصيل ذلك كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ص٣٦٧/٤٢٧. وكذلك كتابنا: القضاء والقدر وأثرهما في حياة المؤمن].

(٦) ذلك هو الرأي المشهور. وهو المعول عليه من ناحية الصحة.

فلما ولد كان اليتم معه بديلا له عن أبيه[١]. ثم لم يلبث أن ماتت أمه وكان ما يزال صغير السن، فانضم إلى يتم الأب يتم الأم أيضاً[٢].

وقدر الله تعالى أن تحمله من ديار الغربة إلى ديار أهله مولاته أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ فذاق اليتم وفقدان الكفيل الحانى، ولم يكن سنه ﷺ قد تجاوز السادسة، فصبر واحتسب وثبت فى مقام الصبر، وكأن الله تعالى خاطبه بهو في عنفه الأرواح بقوله: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾[٣]. حتى شأن الرسول ﷺ هو الصبر ذاته، و أن الله تعالى رزقه القدار الأكبر من الصبر، بحيث لو وزع الصبر الذى عنده على الجمع الغفير، فإن صبر رسول الله ﷺ فاق صبر جميع أهل الأرض.

ولما كان الابتلاء من الله يجيء لغاية سامية، لا يعلمها إلا الله، وتتعدد أنواع ذلك الابتلاء ومظاهره، فقد جعله الله تعالى مقروناً بالصبر حتى يتحقق عظيم الأجر، وجاء ذلك فى العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة:

فمن القرآن الكريم قوله قال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ۝ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ۝ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[٤].

---

(١) ذكر الحافظ الذهبى: أن عبدالله بن عبدالمطلب – والد النبى محمد ﷺ – خرج إلى الشام إلى غزة فى عير تحمل تجارة، فلما قفلوا مروا بالمدينة وعبدالله مريض. فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار، فأقام عندهم مريضاً مدة شهر. فبلغ ذلك عبدالمطلب فبعث إليه الحارث وهو أكبر ولده. فوجده قد مات فى دار النابغة أحد بنى النجار، والنبى محمد ﷺ يومئذ حمل على الصحيح. [تاريخ الإسلام ج٢ ص٢٢].

(٢) توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء، وهى راجعة به ﷺ إلى مكة بعد زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار، وهو يومئذ بن ست سنوات ومائة يوم، فلما ماتت ودفنت حملته أم أيمن مولاته إلى مكة حتى جعلته عند جده عبدالمطلب، فكان فى كفالته حتى توفى جده أيضاً. [المصدر نفسه ج٢ ص٢٣]

(٣) سورة الأحقاف – من الآية ٣٥ .

(٤) سورة البقرة – الآيات ١٥٥/١٥٧ .

۞ **يقول الحافظ ابن كثير**: « أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده ويختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[1]، فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع. كما قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[2].

فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ولهذا قال لباس الجوع والخوف وقال هاهنا بشيء من الخوف والجوع أي بقليل من ذلك ونقص من الأموال بذهاب بعضها والأنفس كموت الأصحاب والأقارب والأحباب والثمرات أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها قال بعض السلف فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه ولهذا قال تعالى "وبشر الصابرين" وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله وبالجوع صيام رمضان وبنقص الأموال الزكاة والأنفس الأمراض والثمرات الأولاد، وقد بين الله تعالى نوعا من الصابرين الذين شكرهم فقال الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك الصبر الجميل، فقال أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة أي ثناء من الله عليهم قال سعيد بن جبير أي أمنة من العذاب وأولئك هم المهتدون قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعمت العلاوة أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة فهذان العدلان وأولئك هم المهتدون فهذه العلاوة][3]. وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا.

وكلما كان الصبر على الابتلاء الغرض منه رضوان الله تعالى، فإن العوض يكون عظيما، دليل [illegible] روى عن أم سلمة قالت أتاني أبو سلمة يوما من عند

---

(١) سورة محمد – الآية [illegible].

(٢) [illegible] – الآية ١١٢.

(٣) العلامة سعيد بن منصور – سنن سعيد بن منصور ج٢ ص٦٣٣ – رقم:٢٣٣، وخرج البخاري والحاكم وغيرهم بلفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر رضي الله عنه قال « نعم العدلان ونعم العلاوة الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة نعم العدلان وأولئك هم المهتدون نعم العلاوة » [الإمام البخاري – صحيح البخاري ج١ ص٤٣٨ – [٤١] باب الصبر عند الصدمة الأولى، والعلامة الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٢٩٦ – رقم:٣٠٦٨، والبيهقي – سنن البيهقي الكبرى ج٤ ص٦٥ رقم:٦٩١٨].

وقرن الله تعالى الصبر بالصلاة تارة[١]. كما قرن الصبر بالجهاد أخرى[٢]. وقرن الصبر بالغفران ثالثة[٣]. وهكذا تتعدد مظاهر الصبر التي يجيء فيها. كما تتعدد أنواعه، فهناك صبر على المكاره، وصبر على المحبب، وصبر على أداء ما افترضه الله، وصبر على مشكلات في طرائق الوصول إلى الله، ومن ثم فقد بين الله تعالى أن الصبر ضياء ففي الحديث الشريف: عن أبي مالك الأشعري قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها »[٤].

ولما كان الصبر بهذه المنزلة التي يقع فيها اختبار المرء لإيمانه، فقد قال ﷺ « من يرد الله به خيرا يصب منه »[٥]. لأن في الابتلاء نوع من معرفة الإنسان لنفسه، وبيان قيمته الذاتية، أمام نزعات النفس البشرية، وأوامر الله جل شأنه ونواهيه، فإما أن يصبر ويحتسب ويقدر أن ما أصابه لم يكن ليخطئه فيكون مع الصابرين الذين يوفيهم الله أجرهم بغير حساب، وإما أن يجزع ويرفض قبول أمر الله به أو قضاءه فيه فيكون ممن يعبد الله على حرف.

---

(١) من ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ [سورة البقرة – الآية ١٥٣].

(٢) قال تعالى: ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [سورة محمد – الآية ٣١].

(٣) قال تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور﴾ [سورة الشورى – الآية ٤٣]

(٤) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج:١ ص:٢٠٣ – كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء – الحديث: ٢٢٣. والحديث ورد ذكره في مسند أبي عوانة ج١ ص١٨٩. ومسند أبي عوانة ٢ ج١ ص٢٢٣. سنن الدرامي ج١ ص١٧٤، سنن البيهقي الكبرى ج١ ص٤٢، مصنف بن أبي شيبة ج١ ص١٤. ج٦ ص١٧١، مسند أحمد ج٥ ص٣٤٢، المعجم الكبير للطبراني ج٣ ص٢٨٤. الترغيب والترهيب ج١ ص١٥١. ج٢ ص٢٧٨، وتحفة الأحوذي ج٩ ص٣٤٩. حاشية السندي ج٥ ص٥. كشف الخفاء للعجلوني ج٢ ص٥٨ .

(٥) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٥ ص٢١٣٨ – الحديث رقم: ٥٣٢١ عن أبي هريرة. وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٧ ص١٦٨– ذكر إرادة الله جل وعلا الخير بمن تواترت عليه المصائب والأحزان الحديث: ٢٩٠٧، وأخرجه مالك – موطأ مالك ج٢ ص٩٤١ – الحديث: ١٦٨٤. وذكره محمد الحسن الشيباني في الموطأ بشرح محمد الحسن الشيباني (طبعة دار القلم بدمشق ١٤١٣هـ/١٩٩١م)– الحديث رقم: ٩٦٠. وقال: قوله: يصب منه. قال القاري: أي ابتلاه بالمصائب والأمراض وهو بضم أوله وكسر ثانيه. وفاعله ضمير راجع إلى الله. وضمير "منه" راجع إلى "من".

ﷻ قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[١].

﴿۞﴾ **يقول الإمام القرطبى** : « قوله تعالى ولنبلونكم أي نتعبدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور ولنعاملنكم معاملة المختبرين حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين عليه قال ابن عباس حتى نعلم ونميز وقال علي رضي الله عنه حتى نعلم ونرى. والعلم هو العلم الذي يقع به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم فتأويله حتى نعلم المجاهدين على شهادة لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة ونبلو أخباركم نختبرها ونظهرها قال إبراهيم بن الأشعث كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا »[٢].

وفى الحديث الشريف عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله ونفسه حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة »[٣]، فالابتلاء للمؤمن نعمة تستوجب منه شكر الله تعالى عليها، إن كانت فى السراء، وتستوجب الصبر عليها والرضا بما قدره الله تعالى إن كانت فى الضراء، فعن صهيب قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك »[٤].

---

(١) سورة محمد – الآية ٣١ .

(٢) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٦ ص: ٢٥٤/٢٥٣ . وروى رويس عن يعقوب إسكان الواو من نبلو على القطع مما قبل ونصب الباقون ردا على قوله حتى نعلم .

(٣) الإمام الترمذى – [٥٦] باب ما جاء فى الصبر على البلاء – سنن الترمذي ج٤ ص٦٠٢ – الحديث: ٢٣٩٩ ، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٧ ص١٧٦ – ذكر البيان بأن تواتر البلايا على المسلم قد لا تبقي عليه سيئة يناقش عليها في العقبي – الحديث: ٢٩١٣ ، ج٧ ص١٨٧ – ذكر البيان بأن البلايا بالمرء قد تحط خطاياه بها – الحديث: ٢٩٢٤ ، وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص٤٩٧ الحديث: ١٢٨١ ، ج٤ ص٣٥٠ الحديث: ٧٨٧٩

(٤) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٩٥ – [١٣] باب المؤمن أمره كله خير الحديث: ٢٩٩٩. وروى ابن حبان عن صهيب بلفظ « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر وكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » [صحيح ابن حبان ج٧ ص١٥٥ – ذكر إثبات الخير للمسلم الصابر عند الضراء والشاكر عند السراء الحديث: ٢٨٩٦]

كما أن ما يصيب الإنسان من أنواع البلاء إنما يخفف الله عنه بها عقوبات ما قد يكون واقعا فيه، ثم لم يتم عنه أو تاب، ولكن الله تعالى يريد أن يطهره من ذلك الذنب.

فعن أنس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»[1]. وعن عائشة قالت: « ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم »[2]. وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال « قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة »[3].

ثم إن الصبر على البلاء يعد عند أهل الفضل من أوسع العطايا والمنح الإلهية، لأن البعض قد يبتليهم الله حتى يرفع درجاتهم عنده، لكنهم لا يصبرون على ما ابتلاهم الله به، ظانين بأنفسهم علو المقام، وارتفاع الهمة، وقد ضربت السنة النبوية المطهرة المثل بالصبر على أنه من المنح الإلهية.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ « أن أناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى إذا نفد ما عنده قال ما يكن عندي

---

(١) الإمام محمد بن يزيد بن ماجة القزويني - سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٣٨ - الحديث: ٤٠٣١ ، وأخرجه الإمام الترمذي - سنن الترمذي ج٤ ص٦٠١ - [٥٦] باب ما جاء في الصبر على البلاء الحديث: ٢٣٩٦ .

(٢) الإمام الترمذي - سنن الترمذي ج٤ ص٦٠١ - [٥٦] باب ما جاء في الصبر على البلاء الحديث: ٢٣٩٧ .

(٣) الإمام الترمذي - سنن الترمذي ج٤ ص٦٠١ - [٥٦] باب ما جاء في الصبر على البلاء الحديث: ٢٣٩٨ .

من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يصبر يصبره الله وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر»[1].

من جماع ما سبق؛ اتضح أن الصبر كان إحدى سمات الرسول ﷺ، وقد تعددت مظاهر الصبر عنده ﷺ كما تنوعت صور[2] ممارسته ﷺ للصبر الذى يرضى الله عز وجل، **لما هو معروف من أن الصبر أنواع:**-

☆ **الأول:** صبر على القيام بالطاعات.
☆ **الثاني:** صبر على احتمال المكاره.
☆ **الثالث:** صبر عند نزول البلاء.
☆ **الرابع:** صبر على ما ورد فى القضاء.
☆ **الخامس:** صبر على شكر النعم.
☆ **السادس:** صبر على ممارسة المعاصي.

والأنواع الخمسة الأولى فيها الكثير من القبول، أما النوع السادس والأخير فهو المحرم شرعا؛ لأن صاحبه مقيم على المعاصى، يبحث عنها، ويجتهد فى سبيل الوصول إليها، مع الحرص على الشديد على ممارستها، وكل معصية تناديه كأنها وثقت حبال الود معه، فهو والشيطان سواء ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل

---

(١) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٢ ص٥٣٤ – [٤٩] باب الاستعفاف عن المسألة – الحديث: ١٤٠٠ وأخرجه الإمام مسلم – صحيح مسلم ج٢ ص٧٢٩ – [٤٢] باب فضل التعفف والصبر – الحديث١٠٥٣ وأخرجه النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج٥ ص٩٥– [٨٥] باب الاستعفاف عن المسألة – الحديث: ٢٥٨٨

(٢) مظاهر الصبر فى الإسلام غير صوره باعتبارات مختلفة، وسوف أعرض لها فى شيء من التفصيل متى يسر الله تعالى الأسباب، وسأحيل إلى المصادر التى يمكننى الوقوف عليها والاقتباس منها، متى رأيت فى ذلك ضرورة.

ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾[1].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير** : « قوله تعالى "ومن يعش" فيتعامى ويتغافل ويعرض عن ذكر الرحمن بعقله وعينه وبصيرته نقيض له شيطانا فهو له قرين كقوله تعالى :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾[2]، وكقوله : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[3]، وكقوله جل جلاله : ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾[4]، الآية ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيّض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرأ من الشيطان الذي وكل به»[5].

قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين ، فعن سعيد الجريري قال بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفع بيده الشيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما تبارك وتعالى إلى النار فذلك حين يقول يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين[6] ،

---

(١) سورة الزخرف – الآيات ٣٦/٣٨.

(٢) سورة النساء – الآية ١١٥ .

(٣) سورة الصف – الآية ٥

(٤) سورة فصلت – الآية ٢٥ .

(٥) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ١٢٩

(٦) أرى أن بعد المشرقين يمكن حمله على ظهور المشرق الأول، ثم مجيء المشرق الثاني لليوم الثاني بعده، فبينهما بعد كبير؛ لأن الأمس لا يمكن إعادته، وهى لطيفة سأفيض عنها إن شاء الله تعالى بعد ذلك.

فبئس القرين والمراد بالشرقين ههنا هو مـابين المشـرق والمغـرب وإنمـا اسـتعمل هـهنا تغليبا كما يقال القمران والعمران والأبوان قاله ابن جرير وغيره»[1].

ويقرر القشيرى أن الصبر أقسام :

☆ **الأول**: صبر على ما هو كسب للعبد.

☆ **الثانى** : صبر على ما ليس بكسب للعبد: ويعرف بأنـه مـا يقـوم بـه العبـد علـى مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما يناله فيه مشقة[2].

والأول يتنوع إلى :

أ- صبر على ما أمر الله تعالى به.

ب- صبر على ما نهى الله تعالى عنه[3].

وذهب العلامة الشبلى إلى أن الصبر أنواع:

☆ **الأول**: الصبر فى الله عز وجل: وهو أدنى أنواع الصبر: لأن صاحبه مرغم عليـه، خوفا من العقاب الذى ينتظر المخالف[4].

☆ **الثانى**: الصبر لله تعالى: وهو أعلى من سابقه، لكنه أدنى من لاحقه.

---

(١) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٤ ص: ١٢٩

(٢) العلامة الشيخ عبدالكريم القشيرى – الرسالة القشيرية ص١٤٤ (بتصرف).

(٣) لأن إمساك النفس عن شهواتها التى حرمها الله تعـالى كالامتنـاع عـن الزنـا والسـرقة أو أكـل مـال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، إلى غير ذلك من الشـهوات التـى تحببـها الشـياطين للنفوس الضعيفة، يعتبر نوعا من الصبر على ما نهى الله تعالى عنه، وفي الحديث الشـريف : عـن أنس بن مالك قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم حفت الجنـة بالمكـاره وحفـت النـار بالشهوات » [الإمـام مسـلم – صحيح مسـلم ج ٤ ص٢١٧٤ – [٥١] كتـاب الجنـة وصفـة نعيمـها وأهلها – الحديث: ٢٨٢٢، وأخرجـه الترمذى – سنن الترمذي ج٤ ص٦٩٣ [٢١] بـاب مـا جـاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات – الحديث: ٢٥٥٩ وأخرجه أحمد بـن حنبـل – مسـند أحمد ج٢ ص٢٦٠ – الحديث: ٧٥٢١ ، وأخرجه ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص٤٩٢ – ذكـر الإخبار عما يجب على المرء من ذمه نفسـه عن شهواتها واحتماله المكاره في مرضاة الباري جل وعلا الحديث: ٧١٦

(٤) الشيخ محمد الهاشمى – نفحات من الحق ص٣٧ – طبعة أولى ١٣٣٥هـ.

☆ **الثالث**: الصبر مع الله تعالى: وهو أعلى من الأولين، لكنه أدنى من الأخير.

☆ **الرابع**: الصبر عن الله تعالى: وهو أعلى أنواع الصبر، وبناء عليه فقد عرفوا الصبر بأنه مالا يفرق فيه بين حال النعمة والمحنة، مع سكون الخاطر فيهما، أما التصبر فهو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة[1].

ولأن هذه التقسيمات معبرة عن حالات أصحابها، فإن الدارس يراهم قد اختلفوا فى هذه الأقسام مراتبها، فقيل: الصبر لله تعالى عناء، والصبر بالله تعالى بقاء، والصبر فى الله تعالى بلاء

بيد أنه لما كان النبى ﷺ تتمثل فيه القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة، فقد جاء صبره ﷺ على الناحية المشروعة، يستوى فى ذلك وقت اليسر مع وقت العسر وقت الرخاء مع وقت البأس والشدة.

ومن ملامح ذلك ما يلى:-

١- حين بدأ الإعلان عن اصطفاء الله تعالى له

أمر الله الحبيب المصطفى إنذار قومه الأقربين، بأنه ﷺ نبى مرسل، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأنه النبى الخاتم فى قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[2].

يقول العلامة القرطبى : « فيه مسألتان:-

* **الأولى: خص عشيرته الأقربين بالإنذار** لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك وعشيرته الأقربون قريش وقيل بنو عبدمناف ووقع في صحيح مسلم وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ[3]، إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر ويلزم على ثبوته

---

(١) العلامة الشيخ عبدالكريم القشيرى – الرسالة القشيرية ص١٠٥ .

(٢) سورة الشعراء – الآيتان ٢١٥/٢١٤ .

(٣) وفيه دليل على أن النسخ للسنة بالسنة واقع أيضا، كما أن النسخ يقع بين القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة. [راجع فى ذلك مبحث النسخ فى الإتقان فى علوم القرآن، والبرهان فى علوم القرآ

إشكال وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي صلى الله عليه وسلم لا المشركون لأنهم ليسوا على شيء من ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم صلى الله عليه وسلم فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى(١).

فعن أبي هريرة قال لما نزلت هذه الآية وأنذر عشيرتك الأقربين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعَمّ وخص فقال يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبدشمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبدمناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أني لكم رحما سأبُلّها ببَلالِها](٢).

❊ **الثانية : أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب** ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته لقوله إن لكم رحما سأبلها ببلالها وقوله عز وجل لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين الآية »(٣).

---

(١) وكان الرسول يبلغ ما أنزل إليه من ربه لقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ [سورة المائدة – الآية ٦٧].

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج١ ص١٩٢ – [٨٩] باب في قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين – الحديث: ٢٠٤ – سنن الترمذي ج٥ ص٣٣٨ – [٢٧] باب ومن سورة الشعراء – الحديث: ٣١٨٥. وأخرجه النسائى – سنن النسائي (المجتبى) ج ٦ ص٢٤٨ – [٦] باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين الحديث: ٣٦٤٤ ، وأخرجه الطبرانى – المعجم الأوسط ج٨ ص٢٣٨ – الحديث: ٨٥١١ . وأخرجه أحمد – مسند أحمد ج٢ ص٣٣٣ – الحديث: ٨٣٨٣ . وابن حبان – صحيح ابن حبان ج ٢ ص٤١٢ – ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن أولاد فاطمة لا يضرهم ارتكاب الحوبات في الدنيا رضي الله عنها وعن بعلها وعن ولدها وقد فعل – الحديث: ٦٤٦.

(٣) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٣ ص: ١٤٣/١٤٤.

۞ **وقال العلامة الطبرى** : « قال ابن زيد في قوله واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين قال يقول لِنْ لهم. وكن هادئا فى تعاملاتك إياهم »[1].

والمفترض فى مجتمع قبلى أن يتكاتف أقارب النبى جميعا، حتى يكونوا سدا منيعا للدفاع عنه، وإعانته على إبلاغ دعوته. ولو من باب العصبية القلبية. أو القاعدة الاجتماعية، التى تقرر أن عصبة المرء هم الأسرع فى التمسك بما يدعو إليه والدفاع عنه، لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان.

انطلق أبو لهب[2] فى طرئق العداء السافر للرسول ﷺ مستخدما ألوان الإيذاء. وتشاركه فى ذلك زوجه العوراء[3]، التى جاء ذمهما معا فى القرآن الكريم جزاء ما فعلاه برسول الله، وكتاب الله، ودين الله.

۞ قال تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد﴾[4].

۞ **يقول صاحبا الجلالين**: « لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم قومه وقال إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال عمه أبو لهب تبا لك ألهذا دعوتنا فنزل تبت خسرت يدا أبي لهب أي جملته وعبر عنها باليدين مجازا لأن أكثر الأفعال تزاول بهما وهذه الجملة دعاء وتب خسر هو وهذه خبر كقولهم أهلكه الله وقد هلك ولما خوفه النبي بالعذاب فقال إن كان ما يقول ابن أخي حقا فإني أفتدي منه بمالي وولدي نزل ما أغنى عنه ماله وما كسب أي وكسبه أي ولده ما أغنى بمعنى يغني

---

(١) ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ١٩ ص: ١٢٣ .

(٢) هو أبو لهب عدو الله مذكور في المهذب في باب أسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف مات بعد غزوة بدر بسبعة أيام ميتة شنيعة بداء يقال له العدسة » [العلامة أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام – تهذيب الأسماء واللغات ج٢ ص ٥٤٣ حرف اللام رقم: ٨٥٥ – دار الفكر – بيروت ١٩٩٦م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء١].

(٣) تكنى أم جميل بنت حرب بن أمية واسمها فاختة وهي التي انزل الله فيها حمالة الحطب [راجع الثقات ج٢ ص١١٨ أثناء الحديث عن درة بنت أبي لهب رقم: ٣٩٦]

(٤) سورة المسد (تماما) .

سيصلى نارا ذات لهب أي تلهب وتوقد فهي مآل تكنيته لتلـهب وجهـه إشـراقا وحمرة وامرأته وهي أم جميل حمالة الحطـب الشـوك والسـعدان تلقيـه في طريـق النبي صلى الله عليه وسلم في جيدها عنقها حبل من مسد ليف وهذه الجملة حال من حمالة الحطب الذي هو نعت لامرأته أو خبر مبتدأ مقدر »[1].

وكان إيذاؤهما لشخصه وأصحابه من المستضعفين كبيرا، فكأنهما ما خلقـا إلا لذلك الإيذاء ممارسة له، واسـتئجارا لمن يقـوم بـه، وإعلانـا لـه بجـانب التحريـض للآخرين على ممارسته وعدم التهاون أو التفريط فيـه، وذكـر أصحـاب السـير أن أبـا لهب وزوجه – أم قبيح – لم يتركا فرصة لذلك الإيذاء إلا أهتبلاها[2]، فكان عقابهما من الله بقدر ما أسرفا في عداوة سيدنا رسول الله ﷺ .

بيد أن الرسول الكريم ﷺ لم تصرفه هذه الإيذاءات عن الدعوة التى كلفه الله تعالى بها للأقربين بداية، كما لم تبعده عن دعوتهم كأقارب إلى دين الله تعـالى الـذى بعثه الله به رب العالمين، وإنما صبر واحتسب، فـلا الحجـارة التى كـان أبـو لهـب يقذفه بها صرفته عن دعوتهم إلى الله، ولا الشوك الذى كانت تجمعه أم ذميـم وتلقيـه على رسول الله ﷺ بمانع له ﷺ من استمرار هذه الدعوة، وما كانت بقايا الحيوانات التى يلقونها على رسول الله ﷺ من فرث وروث مما تفننت فيه العوراء بمبعد له ﷺ عن دعوة الخلق إلى الحق.

ﷺ وكيف لا والله عز وجـل قـال لنبيـه الخـاتم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[3]، وقال عز وجل : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا

---

(١) تفسير الجلالين ج١ ص٨٢٥/٨٢٦ .

(٢) أهتبل الشيء جعله حقا له، فحاول الظفر به دون اعتبار لشيء أخـر [محيط المحيط] واهتبـل الفرصة اغتنمها [المعجم الوجيز باب الهاء ص٦٤٣].

(٣) سورة الإنسان – الآيات ٢٤/٢٦ .

تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾[١].

٢ـ صبره على إيذاء المشركين

تفنن المشركون فى إيذاء الأنبياء بدأ من نوح عليه السلام حتى الخاتم الكريم سيدنا محمد ﷺ، ومع أن الكافرين جملة واحدة، وملتهم واحدة، إلا أن طرائقهم فى التعامل مع الأنبياء متنوعة، ورغباتهم فى إيذاء المرسلين متشابهة متشاكلة. يستوى فى ذلك الإيذاء البدنى الذى يصل إلى حد القتل، كالحال مع كثيرين من أنبياء الله تعالى فى بنى إسرائيل[٢]، والإيذاء النفسى، ولم يتوقف إيذاء الكافرين عند حد مادام يتعلق بعباد الله المؤمنين به.

فعن أبى عبدالله خباب بن الأرت[٣]، قال « شكونا إلى رسول الله صلى الله

---

(١) سورة القلم – الآيات ٤٨/٥٠ .

(٢) قال تعالى: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ۝ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ۝ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ [سورة آل عمران – الآيات ١٨١/١٨٣] وقوله : ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ۝ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ [سورة آل عمران – الآيتان ٢١/٢٢]

(٣) هو « خباب بن الأرت ابن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم أبو يحيى التميمي، من نجباء السابقين له عدة أحاديث وقيل كنيته أبو عبد الله شهد بدرا والمشاهد، حدث عنه مسروق وأبو وائل وأبو معمر وقيس بن أبي حازم وعلقمة بن قيس وعدة. ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين وصلى عليه علي، وقيل عاش ثلاثا وسبعين سنة. وقال مجاهد أول من أظهر إسلامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وخباب وبلال وصهيب وعمار. وعن مسروق عن خباب قال كنت قينا بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت اتقاضاه فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث فقال إذا بعثت وكان لي مال فسوف أقضيك فقلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت أفرأيت الذي كفر بآياتنا مريم » [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٣٢٣/٣٢٤ – رقم:٦٢].

عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة[١] فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليُتِمَّن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »[٢].

غير أن الإيذاء الذى وقع على سيدنا محمد تنوعت مظاهره وتعددت أشكاله من قذف بالقول إلى قذف بالحجارة، إلى رمى بالسهام والنبال، وكان ذلك كله فى مطلع الإعلان عن الدعوة الإسلامية، دعوة التوحيد لله رب العالمين، وقد استمر ذلك ثلاث عشرة سنة ما توقف يوما وما عرف الكافرون هدنة، ومع ذلك كان النبى ﷺ يقول اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، وفى الحديث الشريف عن عبد الله قال « كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول .اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »[٣].

فلم يكن النبى ﷺ ليجارى هؤلاء السفهاء فى الإيذاء، وإنما كانت سلواه الصبر على ما ابتلاه الله، كما أنه لم يكن ﷺ قد أُمِر بدفع السيئة بمثلها، وفوق ذلك فإنه ﷺ أخبر أن عِظَم الأجر يكون مع عظم البلاء، فعن أنس « عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط»[٤].

---

(١) كانت تلك الشكوى قبل الهجرة، وهى تمثل صورة من المعاناة التى عاناه أهل الإسلام من إيذاء المشركين وتعذيبهم لهم، ودليل ذلك ما جاء فى ورواية أخرى شكونا شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له وقد لقينا من المشركين شدة. [رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام النووى ص٣٣].

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج: ٦ ص: ٢٥٤٦ – [١] باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر الحديث: ٦٥٤٤

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٣ ص١٢٨٢ – الحديث: ٣٢٩٠، ج ٦ ص٢٥٣٩ – الحديث: ٦٥٣٠ ، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج٣ ص١٤١٧ – الحديث: ١٧٩٢

(٤) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٤ ص٦٠١ – [٥٦] باب ما جاء في الصبر على البلاء الحديث: ٢٣٩٦ .

ذكر أصحاب السير من المحدثين أنه لما مات أبو طالب، وأم المؤمنين خديجة[١]، بدأت قريش تنال من رسول الله ﷺ ما لم تكن تناله منه قبل ذلك[٢]. فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف[٣]، حتى يدعوهم إلى الله تعالى، فربما استجابوا لأنوار الإيمان، كما كان يأمل ﷺ أن تقف معه ثقيف، هى الأخرى، بحيث يوفر له ذلك نوعا من المنعة والحماية، أملا فى إنجاح الجهود التى يقوم ﷺ بخصوص الدعوة الإسلامية بأعبائها، وكان ذلك فى ليال من شوال[٤] السنة العاشرة من الهجرة، فلما

---

(١) ذكر صاحب البداية والنهاية أنها رضى الله عنها ماتت بعد أبى طالب بثلاثة أيام أو بخمسة أيام. [العلامة الحافظ ابن كثير - البداية والنهاية ج٣ ص١٢٧].

(٢) يا سبحان الله قاتلوه وفى الشعاب حاصروه وعن متطلبات الحياة الضرورية منعوه، وفى أصحابه المستضعفين أمام عينيه أذوه. وبالأفعال والأقوال حاربوه، فماذا بقى بعد ذلك حتى ينالوه، حبيبى يا رسول الله تحملت من أذى القوم ما تنوء عن حمله الجبال، ومع هذا كنت تدعو اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، أى مثالية بشرية تلك التى تمتعت بك يا رسول الله، واعتصمت بداخلك أنت حبيب الله وشفيعنا، فاللهم شفعه فينا. واجعلنا ممن يردون حوضه الشريف، ويشربون منه ومتعنا برضوانك يوم لقائك فى صحبة أهل الشفاعة إنك نعم المولى ونعم النصير.

(٣) هي مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة و الطائف هو وادي وج وهو بلاد ثقيف بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا ، ويقول ابن عباس سميت الطائف لأن إبراهيم عليه السلام لما أسكن ذريته مكة وسأل الله أن يرزق أهلها من الثمرات أمر الله عز وجل قطعة من الأرض أن تسير بشجرها حتى تستقر بمكان الطائف فأقبلت وطافت بالبيت ثم أقرها الله بمكان الطائف فسميت الطائف لطوافها بالبيت وهي مع هذا الاسم الفخم بليدة صغيرة على طرف واد وهي محلتان إحداهما على هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف والأخرى على هذا الجانب يقال لها الوهط والوادي بين ذلك تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأديم يصرع الطيور رائحتها إذا مرت بها وبيوتها لاطئة حرجة وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل وهي طيبة الهواء شمالية ربما جمد فيها الماء في الشتاء وفواكه أهل مكة منها والجبل الذي هي عليه يقال له غزوان وروى أبو صالح ذكرت ثقيف عند ابن عباس فقال إن ثقيفا والنخع كانا ابني خالة فخرجا منتجعين ومعهما أعنز لهما وجدي فعرض لهما مصدق لبعض ملوك اليمن فأراد أخذ شاة منهما فقالا خذ ما شئت إلا هذه الشاة الحلوب فإنا من لبنها نعيش وولدها فقال لا آخذ سواها فرفقا به فلم يفعل فنظر أحدهما إلى صاحبه وهما بقتله ثم إن أحدهما انتزع له سهما فلق به قلبه فخر ميتا فلما نظرا إلى ذلك قال أحدهما لصاحبه إنه لن تحملني وإياك الأرض أبدا فإما أن تغرب وأنا أشرق وإما أن أغرب وتشرق أنت فقال ثقيف فاني أغرب» [راجع المعجم البلدان ج٤ ص١٠/٨]

(٤) ذكر العلامة المؤرخ ابن سعد أن رسول الله كان معه فى الخروج إلى الطائف زيد بن حارثة .

[راجع لابن سعد - الطبقات الكبرى ج١ ص٢١١ - ط بيروت] وكانت فى زوجا لواحد منهم امرأة قرشية من بنى جمح، وهى صفية بنت معمر بن حبيب بن قدامة بن جمع أم صفوان بن امية.

بلغ الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم سادتها آنئذ وفيهم أخوة ثلاثة من الأشراف فيهم عبد ياليل[1] وأخوه مسعود، وثالثهم حبيب وهم بنو عمرو بن عمير بن عوف[2]، فجلس إليهم رسول ﷺ وحدثهم فى شأن ما جاءهم به من كونه نبيا مرسلا من قبل الله تعالى إلى الناس كافة، كما رجاهم نصرة الإسلام والقيام على من خالفه، وكان ذلك عادة فى العرب من نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، والإجارة التامة من يطلبها.

غير أن هؤلاء الثلاثة رفضوا الاستجابة ، وتناولوه ﷺ بما يسيء إليه، حيث قال أحدهم: أما وجد ربك أحدا يرسله فى الناس غيرك[3]، بينما قال الثانى، أما أنا فإنى لا أحب الحديث معك؛ لأنك أما أن تكون رسولا كما تزعم فتكون رسالتك خطرا علينا، ومثلك خطير لا يرد معه الكلام ولا يتداول، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغى لمثلى أن يكلمك أو يتعامل معك. أما ثالثهم فقال: كفانى ما سمعت من أخوى[4]، فقم عنا حتى ننهض لأحوالنا.

قام الرسول ﷺ عنهم بعد أن رجاهم كتمان ما جاءهم من أجله؛ حتى لا يبلغ موقفهم السيئ قومه، فيزداد أمرهم عنتا وشدة، ولكنهم لم يعرفوا ولم يحققوا رجاءه

---

(١) هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفى كان وجها من وجوه ثقيف وهو الذى أرسلته ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إسلامهم وبيعتهم وبعثت معه لذلك خمسة رجال إذ أبى أن يمضى وحده خوفا مما صنعوا بعروة ابن مسعود وهم عثمان بن ابى العاص وأوس بن عوف ونمير بن خرشة والحكم بن عمرو وشرحبيل بن غيلان بن سلمة فأسلموا كلهم وحسن إسلامهم وانصرفوا إلى قومهم ثقيف فأسلمت بأسره. [راجع الاستيعاب ج٣ ص١٠٠٧ – رقم:١٧٠٦ وراجع الثقات ج٣ ص٣٠٥ رقم:٩٩١]

(٢) العلامة الذهبى – تاريخ الإسلام ج٢ ص١٣٥ .

(٣) تصور هذا السانج أن النبى لا يصح أن يكون طريدا عند قومه، أو فقيرا فيهم، وهى مقاييسهم الباطلة وقد حكاها القرآن الكريم عنهم. قال تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ [سورة الزخرف الآيتان ٣١/٣٢].

(٤) الشيخ محمود أحمد الطاهومى – الدعوة الإسلامية فى مراحلها الأولى ص١٤٧ – طبعة الدار الجديدة ١٩٤١م.

فى كتمانهم أمره، ومع ذلك ظل رسول الله فيهم أياما بلغت الشهر، لم يترك سيدا من ساداتهم، أو شريفا من أشرافهم إلا جاءه يحدثه خبره، ويكلمهم فى شأن النبوة والرسالة، ولكنهم أصروا على عدم الالتفات إليه، والاستماع لما يقول، بل الأكثر من ذلك أنهم لم يدعوه وشأنه، وإنما خافوا على غلمانهم وشبابهم وأحداثهم ونسائهم،فأمروه بمغادرة ديار الطائف من خلال لغة تحمل العنف، والإيذاء معا، حينما قالوا له: يا محمد اخرج من بلدنا، ودعنا لأمرنا[١]، الذى ورثناه عن آبائنا والأجداد[٢]، وأحذر من أن تمكث فى ديارنا قليل الوقت أو كثيره.

ويصف ابن سعد الموقف حاكيا أن هؤلاء قد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، حتى راح هؤلاء وأولئك يسبونه ويصيحون به، وكأنه قد ارتكب فيهم الجريمة، بينما هو قد جاءهم لإصلاح نفوسهم اللئيمة، وظلوا على ذلك الحال حتى اجتمع عليه كثير من الناس، فلما انصرف خارجا من الطائف وقفوا له فى صفين على جانبى الطريق الذى يسير به، وكأنهم يتعاملون مع شخص غير مرغوب فيه، وكلما مر عليه الصلاة والسلام بين الصفين، كلما قذفه هؤلاء بالحجارة، حتى إنه ﷺ جعل لا يرفع رجلا ويضع أخرى إلا رضخه هؤلاء بالحجارة، وظلوا به ﷺ كذلك حتى أدموا رجليه من القدم إلى الساق[٣]، لا يفترون عن ذلك ولا يتركونه لحال سبيله.

وكذا شأن أهل الهوى إذا نصحهم أهل الهدى، فإنهم لا يدعون للخير فرصة التسلل إلى وجداناتهم، أو مس شغاف قلوبهم، أو تحريك أوتار مشاعرهم، وكلما ألحّ أهل الهدى فى هدايتهم أمعن الآخرون فى الهوى، وراحوا يحاربونهم بكل ما أمكنهم من وسائل المحاربة، حتى وإن ترتب على ذلك سقوط العديد من الضحايا الأبرياء.

---

(١) وكأن أمرهم قد صح على لسان الشريعة، وكأنه ﷺ قد أتاهم ليغير مواقفهم من عقيدة صحيحة إلى غيرها مع أن العكس هو الصحيح، لأنهم ما كانوا إلا على الباطل، وما كان سعيهم إلا فى الظلمات، وما كانت بعثته ﷺ إلا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد. قال ت : ﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ [سورة إبراهيم – الاية ١].

(٢) [illegible] محمود أحمد الطاهوى – الدعوة الإسلامية فى مراحلها الأولى ص١٤٩ .

(٣) الشيخ ابن سعد – الطبقات الكبرى ج١ ص٢١٢ .

وذكر البعض أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ كان معه، بينما ذهب آخرون إلى أنه ﷺ كان وحيدا، وأصحاب الرأى الأول يذهبون إلى أن العاندين من أهل الطائف كانوا يقذفون الرسول ﷺ بالحجارة، وسيدنا زيد بن حارثة يحاول إتقاء رسول الله بنفسه(١)، وظل على ذلك حتى شج المعاندون رأس سيدنا زيد، كما شجوا وجهه شجاجا(٢)، فسال الدم منه.

ولم يخلص الرسول الكريم منهم إلا ورجلاه تسيلان دما، ولما ابتعد عن هؤلاء المخدوعين، عمد ﷺ إلى حائط(٣) من حوائطهم، فاستظل بظل حَبَلَة(٤) منه، وهو مكروب موجع من شدة رضخ الحجارة له، وإذا فى الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، إذ كان الحقل ملكا لهما، فلما رآهما رسول الله ﷺ كره مكانهما، لأنهما من أعداء الله ورسوله، وهو لا يحب أن يرياه فى وضع كهذا فيه الكرب والشدة.

ۖ **ويذكر العلامة الهيثمى**: « عن عبد الله بن جعفر قال لما توفى أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ماشيا على قدميه يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه فانصرف فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين(٥)، ثم قال اللهم إني أشكو إليك

---

(١) يا للعجب رجل يدافع عن رسول الله بكل ما يملك، حتى وإن أدى به دفاعه إلى الإشراف على حافة الموت، وآخرون يقاتلون رسول الله ﷺ مع أنه يحاول أن ينقذهم من براثن الكفر والطغيان – رحم الله سيدنا زيد بن حارثه ورحمنا من بعده.

(٢) الشج هو الجرح فى الرأس أو الوجه بحيث يستبين أثره، ويقال شج شججا، تبين أثر الشجة فى جبينه فهو أشج. [معجم مقاييس اللغة – باب الشين].

(٣) الحائط هو الجدار الذى يحيط بما فى داخله، حتى يمنع من الوصول إليه، وقد يسمى به البستان من باب تسمية الشيء باسم ما يحيط به، وهو من المجاز المرسل علاقته المحلية أو المجاورة ومنه قول الشاعر: فشككت بالريح الأصم ثيابه ∴ ليس الكريم على القنا بمحرم. [أساس البلاغة باب الطاء]

(٤) ثمرة من فصيلة القطانيات كالفول والعدس والفاصوليا وغيرها، وتكون ذات فلقتين وتضع بزرات وهى تنضج عندما تنضج. [المعجم الوجيز – باب الحاء ص١٣٢].

(٥) ذهب البعض إلى أنه إذا كان ذلك قد تم قبل فرض الصلاة المكتوبة فى الإسراء والمعراج، فإن صلاته ﷺ تكون على الملة الحنيفية ملة الخليل إبراهيم عليه السلام ويذهب البعض إلى أن ذلك كان بعد الإسراء والمعراج، وأنه ﷺ صلى ركعتين شكرا لله تعالى إذ نجاه من بين أيديهم. [راجع للشيخ عبدالسميع حامد وهبه – دراسات فى السيرة النبوية ص١٥٧].

ضعف قوتي[1] وقلة حيلتي وهواني على الناس[2] أنت أرحم الراحمين أنت ربى وأنت رب المستضعفين إلى من تكلني[3] إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمرى إن لم بك غضب عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي[4]، أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتبى حتي ترضي ولا قوة الا بالله »[5].

ومع أن الرسول ﷺ قد انصرف من الطائف محزونا تجرى الأمور حواليه لحزنه على كفرهم[6]، حيث لم يستجب له رجل أو امرأة، إلا أنه حين كان سائرا فى الطريق سرّى الله تعالى عن نفس حبيبه الخاتم الأمين، فأرسل إليه سيدنا جبريل، ومعه ملك الجبال، حتى يكونا فى معيته يأتمران بأمره، فمتى طلب شيئا قاما بالتنفيذ الفورى، إلا أنه ﷺ كان فوق الجميع، وأعلى من كل الأحداث، فأظهر صبرا فوق صبر، وتجلدا فوق تجلد، وحبا لأهله من أمته فاق كل حب، عبرت عنه

---

(١) ظن العجلى أن الشكوى هنا بمعناها المألوف عند العامة، ولكن الشكوى هنا معناها الإخبار بما يجرى داخل نفسه، وهو كفرد من أفراد البشرية يجرى عليه ما يجرى عليهم، ولا يترتب على ذلك إنقاص شيء من قدره ﷺ بل على العكس فإنه يدل على كماله ﷺ، لأنه فى لجوئه إلى الله تعالى قد دل على المزيد من الصفاء النبوى.

(٢) الإمام السهيلى – الروض الأنف ص٢١٢ ، ولا قيمة للهوان عند الناس مادامت الرفعة قائمة عند الله تعالى .

(٣) هذا التساؤل المراد به الأعلام وليس الاستفهام، وفيه معنى الاستعطاف، كأنه ﷺ يريد أن يقول لرب العالمين: إن ما يقع على من أذاهم أنت تعلم به وإنى بما قضيت على راض ولن أحيد عنه.

(٤) لأن رحمة الله واسعة، وهو سبحانه وتعالى كتب النصر للمؤمنين. قال تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [سورة غافر – الآية ٥١]

(٥) العلامة الحافظ نور الدين الهيثمى – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٦ ص٣٥ – باب خروج النبي صلى الله عليه وسلم الى الطائف وعرضه نفسه على القبائل، وراجع مصنف عبد الرزاق ج٥ ص١٥٦ – الحديث رقم: ٩٢٣٤.

(٦) قال تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ [سورة الكهف – الآية ٦] وقوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ [سورة الشعراء – الآية ٣]

ألفاظه أنى أدعو الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبده. قال الله تعالى: ﴿فاصبر صبرا جميلا﴾[1].

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت للنبي صلى الله عليه وسلم «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[2].

ولا شك أن أى شخص أخر متى وافته الفرصة للقصاص من ظالمه، أو الثأر منه. فإنه لا يدعها تفلت، وإنما يسارع إليها بكل ما أمكنه. فلو كان الرسول ﷺ

---

(١) سورة المعارج - الآية ٥ .

(٢) الإمام البخارى - صحيح البخاري ج٣ ص١١٨٠ - [٧] باب: إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه- الحديث: ٣٠٥٩، وأخرجه مسلم - صحيح مسلم ج ٣ ص١٤٢٠ - كتاب الجهاد والسير - [٣٩] باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين - الحديث: ١٧٩٥ ، وشرحه العلامة النووى فى الحديث رقم: ١١١ ج١٢ ص١٥٤ وقال: [ش (لقد لقيت من قومك) المراد من قومها قريش. ومفعول لقيت محذوف، تقديره لقد لقيت منهم ما لقيت. (يوم العقبة) هو اليوم الذي وقف صلى الله عليه وسلم عند العقبة التي بمنى، داعيا الناس إلى الإسلام. فما أجابوه، وآذوه. وذلك اليوم صار معروفا. (على وجهي) أي على الجهة المواجهة لي. فالجار متعلق بانطلقت. أي انطلقت هائما لا أدري أين أتوجه. (فلم أستفق إلا بقرن الثعالب) أي لم أفطن لنفسي وأنتبه لحالي، وللموضع الذي أنا ذاهب إليه وفيه، إلا وأنا عند قرن الثعالب. لكثرة همي الذي كنت فيه. قال القاضي: قرن الثعالب هو قرن المنازل. وهو ميقات أهل نجد. وهو على مرحلتين من مكة. وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير. وقال ابن حجر (بقرن الثعالب) اسم موضع بقرب مكة، وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير. والثعالب جمع ثعلب وهو الحيوان المشهور، ولعله سمي الموضع بذلك لكثرة الثعالب فيه). (فما شئت) استفهام. أي فأمرني بما شئت. (إن شئت أن أطبق عليهم) شرط. وجزاؤه مقدر وهو: أطبقت. أي إن شئت ضممت الأخشبين وجعلتهما كالطبق عليهم. حتى هلكوا تحته. (الأخشبين) هما جبلا مكة: أبو قبيس والجبل الذي يقابله ، سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما. يقال: رجل أخشب إذا كان صلب العظام قليل اللحم. (أصلابهم) جمع صلب، وهو كل ظهر له فقار].

بالشخص العادى لسارع إلى أمر الملك بما فيه القصاص من الظالمين. حتى يجعل عاليها سافلها. مادام قلب الأخشبين بالنسبة للملاك أمرا يسره الله له. وجعله من إقدارات الله تعالى له. ولكنها رحمة الله تعالى التى أودعها فى قلب الحبيب الخاتم سيدنا محمد بن عبدالله. والله تعالى قال فيه: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1].

فالرأفة والرحمة من صفات الأفعال بالنسبة لله تعالى، التى يجوز وصف الخالق والمخلوق بها مع الفرق الهائل بين ما للخالق وما للمخلوق. لما هو معروف من أن الصفات نوعان:

الأول: صفات الذات

وهى ما يوصف به الله تعالى. ولا يصح أن يوصف بضدها، ولا يجوز أن يوصف بها أحد من خلقه. فذاتية الصفة دالة على خصوصية الموصوف بها. يقول الإمام الباقلانى: «إن صفات ذاته، هى التى لم تزل ولا يزال موصوفا بها»[2]. فالله عز وجل خص ذاته بصفات لا يمكن أبدا أن يقع فيها لأحد شيء من الاشتراك اللفظى والاسمى. وإنما الاستقلال والخصوصية فيها لله جل شأنه.

الثانى: صفات الأفعال

وهى كل ما يجوز أن يوصف به وبضده الله سبحانه وتعالى، ويجوز أن يوصف به غيره من المخلوقين على سبيل الاشتراك اللفظى أو الاسمى مع الاحتفاظ بالفارق الكبير بين ما لله وما لأحد من خلقه[3]، فالاشتراك فى مجرد الاسم لا يعنى التطابق فى المدلول

ويقرر العلامة الشريف الجرجانى الرأى فى هذه المسألة فيقول: «أعلم أن الصفات على ضربين، صفات الذات وصفات الأفعال، والفرق بينهما أن كل ما يوصف به الله، ولا يجوز أن يوصف بضده، فهو من صفات ذاته، كالوجود والقدم

---

(١) سورة التوبة – الآية ١٢٨.

(٢) الإمام القاضى أبو بكر بن الطيب – الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ص٢٦ – تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ط٢ الخانجى ١٣٨٢.

(٣) راجع كتابنا: – حبو الوليد فى علم التوحيد ج٢ ص١٦٥.

والقدرة والعلم والحياة، وكل ما يجوز أن يوصف به وبضده الله تعالى، فهو من صفات الأفعال نحو الرحمة والشفاعة والغضب »[1]، فإنها يجوز أن يوصف الله تعالى بها في وقت أو مع جماعة. ثم يوصف بضدها فى وقت أخر مع ذات الجماعة[2]، أو فى ذات الوقت مع جماعة أخرى.

ومادام الله تعالى قد وصف رسوله الأمين بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، فلاشك أن ذلك سيكون خلقا دائما معه ﷺ لا ينقطع عنه لا لأن الوصوف لا تنفصل عنه صفته، وإنما لأن الله تعالى هو الذى وصف رسوله بهذه الصفات فتكون تلك الصفات ثابتة له، راسخة فيه كأنها الاسم له، والعلم عليه[3]، ومن ثم فلم يقف داعيا على قومه كما فعل نوح عليه السلام حين قال: ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾[4].

---

(١) العلامة السيد الشريف الجرجانى - حاشية الجرجانى على مطالع الأنظار على طوالع الأنوار ص٩.

(٢) لأن الله تعالى متى أحب عبدا من عباده يخلى عليه برحماته، أما إذا غضب على عبد فإنه يسلط عليه ملائكة عذاب، وفى الحديث الشريف : « إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض »[الإمام البخارى - صحيح البخاري ج٣ ص١١٧٥ باب: ذكر الملائكة. الحديث رقم: ٣٠٣٧، و باب: المقة من الله تعالى ج٥ ص٢٢٤٦ حديث رقم: ٥٦٩٣، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ج٦ ٢٧٢١ - الحديث: ٧٠٤٧ (الطبعة الثالثة - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م - تحقيق دكتور مصطفى الديب البغا)، وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، رقم: ٢٦٣٧. والمراد بـ: [(القبول في الأرض) المحبة في قلوب من يعرفه من المؤمنين، ويبقى له ذكر صالح وثناء حسن]. والحديث ذكره ابن حجر العسقلانى (ت: ٨٥٢هـ) فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٦ ص١٩٤ وبهامشه الجامع الصحيح للبخارى - المطبعة الخيرية مصر ١٣٢٥].

(٣) راجع للأستاذ عبدالكريم الخطيب - النبى محمد ص١٧٥ .

(٤) سورة نوح - الآيتان ٢٦/٢٧ .

ولم يدع عليهم كما دعا نبيا الله موسى وهارون حين قالا : ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾[١]، فأجابهما الله تعالى إلى ما تم الدعاء به قال تعالى لهما: ﴿قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعآن سبيل الذين لا يعلمون﴾[٢].

❁ **يقول الحافظ ابن كثير** : « هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلما وعلوا وتكبرا وعتوا قال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة من أثاث الدنيا ومتاعها وأموالا جزيلة كثيرة في هذه الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك الذى أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجا منك لهم كقوله تعالى: ﴿لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾[٣].. وقرأ آخرون ليضلوا بضم الياء أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ربنا اطمس على أموالهم جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت »[٤].

وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا إلى قوله ربنا اطمس على أموالهم الآية فقال عمر يا أبا حمزة أي شيء الطمس قال عادت أموالهم كلها حجارة وقال عمر بن عبد العزيز ٢لغلام له ائتني بكيس فجاء بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة وقوله واشدد على قلوبهم قال ابن عباس أي اطبع عليها فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم

---

(١) سورة يونس – الآية .

(٢) سورة يونس – الآية ..

(٣) [illegible]رة طه – الآية ١٣١ .

(٤) الحافظ ابن كثير – [illegible]سير القرآن العظيم ج: ٢ ص: ٤٣٠ .

شيء كما دعا نوح عليه السلام : ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾[1].

ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى قد أجيبت دعوتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون فاستقيما وامضيا لأمري وهي الاستقامة قال ابن جريج « يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين أربعين يوما »[2].

۞ **وفي تقديري**: أن صبر رسول الله يتناسب معه من كونه النبي الخاتم، ورحمة للخلائق اجتمعت، وأن مقام الصبر عنده في الدعوة إلى الله تعالى كان وافيا في احتمال المكاره مادام ذلك في سبيل إبلاغ دعوة الله تعالى للعالمين في قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[3].

في نفس الوقت فإنه ﷺ ما كان ينظر إلى المحن إلا على أنها منح وعطايا من عند الله تعالى، وبالتالي كان دائم التوجه إليه جل شأنه، لا بالشكوى. مما لحق به؛ لأن مقام النبوة أعلى من مقام الشكاية، وأنه في التعامل مع المحن لم يكن إلا صابرا، محتسبا الأجر عند الله تعالى، لا لذات الأجر، فإن ذلك صبر الطامعين، وإنما كان صابرا لذات وجه الله الكريم، إن لم يكن بك غضب عَلَيّ فلا أبالي.

بيد أن الرسول ﷺ بشر، ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾[4]. فكان صبره على الشدائد في سبيل إبلاغ دعوة الله تعالى، بمثابة مصباح وضاء كاشف لمن يحملون عبئ توضيح الرسالة الخاتمة بعد رسول الله وهم العلماء، ويعطينا الأمل الوضاء في أنه مهما طالت ظلمة الليل، فإن شمس الضحى ستزيلها، وأن الأسباب مرهونة بأقدار الله

---

(١) سورة نوح – الآيتان ٢٦/٢٧ .

(٢) الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج: ٢ ص: ٤٣٠ .

(٣) سورة المائدة – الآية ٦٧ .

(٤) سورة الكهف – الآية ١١٠ .

تعالى، فصبر الرسول ﷺ وضراعته إلى الله تعالى ودوام التجائه إليه جل شأنه يجعل المرء المؤمن يبذل جهدا طويلا للتعرف على مناحي القوة والضعف في داخله. حتى إذا أيقن قدرته على قبول ما قضاه الله وقدره، فإنه حينئذ يتسامى فوق النزعات، ويعلو عن الشهوات، وينتصر على الرغائب والدنايا كما ينتصر على همزات الشياطين، وأنات أهواء العاصين.

والصوفية الأعلام كما صبروا على تحمل الأذى في سبيل إبلاغ رسالة رسول الله لساكني الصحراء، والمقيمين بالعراء، حيث أقاموا الربط، وأنشأوا الزوايا، وجاهدوا في سبيل الله حتى صح القول فيهم: بأنهم رهبان بالليل ركبان بالنهار، فإنهم كانوا مقتدين في ذلك كله بالحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يدارون حبهم لرسول الله ﷺ مهما كانت العواقب التي يهددهم بها خصومهم؟!

والملفت للنظر أيضا أن رسول الله ﷺ مع ابتلاء الله له بالذرية حيث كانوا معه من أنعم الله عليه أربعة من البنين[1]، وأربعا من البنات[2]، وجميعهم فارق الحياة حال حياة الرسول ﷺ عدا الزهراء، فقد انتقلت بعد أبيها، وكان ﷺ قد بشرها بذلك، وقد علمنا كيف يكون الصبر عند فقد الذرية، حين كان ابنه إبراهيم

---

(١) هم : ١- القاسم . ٢- عبدالله . ٣- الطيب . ٤- إبراهيم، وكلهم ماتوا حال حياته ﷺ، حتى قال الكافرون: إن محمدا أبتر، لأنه لم يعش له بنون فرد الله عليهم في قوله تعالى: إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ۝ إن شانئك هو الأبتر ﴾ [سورة الكوثر بتمامها]

(٢) هن : ١- السيدة زينب وهي زوج العاص بن الربيع الذى فرق الإسلام بينهما قبل إسلامه ثم أسلم وزوجها له رسول الله ﷺ ، وظلت معه حتى انتقلت إلى رحمة الله تعالى. ٢- السيدة رقية. ٣- السيدة أم كلثوم. وكانت الأخيرتان تحت عتبة وعتيبة ابني أبي لهب قبل الإسلام ثم أمر أبو لهب بنيه بتطليقهما، فتزوجا سيدنا عثمان الواحدة بعد موت أختها، ولذا لقب بذي النورين. ٤- السيدة فاطمة الزهراء زوج الإمام على كرم الله وجهه، ومنها امتداد النسب الشريف في ولديها الحسن والحسين ابني على فهي جدتنا نحن الحسينيين والحسنيين، وكل بناته ﷺ انتقلت في حياته عدا السيدة فاطمة فقد ماتت بعده ﷺ. [راجع للأستاذة سنية قراعة - مسلمات خالدات ص٨٩/٧٥ - مكتب الصحافة الدولي - المجموعة الأولى غرة رمضان ١٣٩٢هـ - أكتوبر ١٩٧٢م.

يعالج سكرات الموت حتى صعدت روحه إلى بارئها، وهو في حجر أبيه. فقال ﷺ تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون. ففي الحديث الشريف: «عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم ثم دفعه إلى أم سيف امرأة قين يقال له أبو سيف فانطلق يأتيه واتبعته فانتهينا إلى أبي سيف وهو ينفخ بكيره قد امتلأ البيت دخانا فأسرعت المشي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا أبا سيف أمسك جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بالصبي فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول فقال أنس لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون»(1).

ومن المؤكد أن الله تعالى قد جعل محبة الأبناء في قلب أبويهم فطرية. حتى قيل: إن آدم له أبناء وليس له أباء، وقد انتقل إبراهيم إلى الدار الآخرة وهو صغير، فما كان من رسول الله إلا إعلان التسليم بما قضاه الله وقدره، لقوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾(2).

❁ **يقول العلامة القرطبي**: «قوله تعالى ما أصاب من مصيبة في الأرض من القحط وقلة النبات والثمار أو الجوائح في الزرع ولا في أنفسكم بالأوصاب والأسقام وضيق المعاش، إلا في كتاب يعني في اللوح المحفوظ من قبل أن نبرأ هذه النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع، من قبل أن يخلق المصيبة. ومن قبل أن يخلق الأرض والنفس إن ذلك على الله يسير أي خلق ذلك وحفظ جميعه على الله يسير هين.

---

(1) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج1 ص439 – [49] باب قول النبي ﷺ إنا لمحزنون – الحديث: 1241، وأخرجه مسلم – صحيح مسلم ج4 ص1807 – [15] باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضع هو فضل ذلك – الحديث: 2315

(2) سورة الحديد – الآية 22.

وقال ابن عباس لما خلق الله القلم قال له اكتب فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة ولقد ترك لهذه الآية جماعة من الفضلاء الدواء في أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلا عليه وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة فلو حرص الخالق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا قال الله تعالى ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها وقد قيل إن هذه الآية تتصل بما قيل وهو أن الله سبحانه هون عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتل وجرح وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران فالكل مكتوب مقدر لا مدفع له وإنما على المرء امتثال الأمر »[1].

وقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[2]. ولاشك أن أجر الصابرين كبير. عبر عنه قوله تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[3]. يقول الإمام الطبرى : « إنما يعطي الله أهل الصبر على ما لقوا فيه حال الدنيا أجرهم في الآخرة بغير حساب يقول ثوابهم بغير حساب »[4].

وفى الحديث الشريف : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له عند الله دين. فليقم ليقضه، فينظر الخلائق بعضهم لبعض. ثم يقولون: من ذا الذى له عند الله دين. فتقول لهم الملائكة: من ابتلى فى الدنيا بما يحزن قلبه، أو يدمع عينه، فيقوم خلق كثير. فتقوم الملائكة ليست الدعوى بلا بينة. أرونا صحائفكم. فمن وجدوا فى صحيفته تسخطا أو كلام فحش. قالوا له أقعد ما أنت من الصابرين، ومن وجدوا فى صحيفته التسليم والرضا أخذوه إلى جنة الرضوان. وهناك يتجلى عليهم الرحيم الرحمن ويقول يا عبادى ما ابتليتكم لهوانكم على. ولكن لكرامتكم عندى. أردت أن أحط من أوزاركم وأرفع من أقداركم فأبتليتكم فصبرتم، وأستجبيتم من أجلى. فاليوم لا

---

(١) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج١٧ ص٢٥٧/٢٥٨ .

(٢) سورة البقرة – الآيات ١٥٥/١٥٧ .

(٣) سورة الزمر – الآية ١٠.

(٤) الإمام الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج٢٣ ص٢٠٣.

أنشر لكم ديوانا، ولا أنصب لكم ميزانا »[١]، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[٢].

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء »[٣]، وروى أبو نعيم الأصبهاني: « يحشر إلى الجنة الحمادون الله على كل حال فقال لي ويحك ليس هو أن نحمده على المصيبة وقلبك معتصر عليها فإذا كنت كذلك فأرج أن تكون من الصابرين ولكن أن تحمده وقلبك مسلم راض »[٤].

ورسوله الله ﷺ أعلمنا أنه متى فقد المرء المسلم صبيامن أحبابه، ثم احتسبه عند الله تعالى مفوضا الأمر فى ذلك كله لله تعالى، فإن الله تعالى يجزل له العطاء فى الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة »[٥].

أجل لقد كان الرسول الخاتم سيدنا محمد نورا يمشى فى الناس، وصبرا يتحرك فى كوامن النفس، وأملا يرتجى فى صدور أهل الإيمان، وقدوة يتبع فى كل حين، وأن الصحابة – رضوان الله عليهم – قاموا على الاقتداء به خير قيام فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال « كان ابن لأبي طلحة يشتكي فخرج أبو طلحة فقبض الصبي فلما رجع أبو طلحة قال ما فعل ابني قالت أم سليم (وهى أم الصبى) هو

---

(١) الشيخ محمود عبدالمطلب الكبير – من أنوار السنة ص١٩٢ .

(٢) سورة الزمر – الآية ١٠.

(٣) الإمام الطبرانى – المعجم الأوسط ج٣ ص٢٤٠ – من اسمه إدريس الحديث: ٣٠٣٣.

(٤) العلامة أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج١٠ ص١٠.

(٥) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٥ ص٢٣٦١ – [٦[باب العمل الذى ينبغى به وجه الله فيه سعد – الحديث: ٦٠٦٠ ، وأخرجه احمد بن حنبل – مسند أحمد ج٢ ص٤١٧ – الحديث: ٩٣٨٢

أسكن ما كان[1]، فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها[2]، فلما فرغ قالت واروا الصبي فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال أعرستم الليلة قال نعم قال اللهم بارك لهما فولدت غلاما قال لي أبو طلحة احفظه حتى تأتي به النبي صلى الله عليه وسلم فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم وأرسلت معه بتمرات فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال أمعه شيء قالوا نعم تمرات فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم فمضغها ثم أخذ من فيه[3]، فجعلها في في الصبي وحنكه به وسماه عبد الله »[4].

---

(١) يعني أنه لم يعد يشتكي وهي صادقة فيما قالت؛ لأنه مات والميت يفقد الإحساس بالمرض؛ لأنه فارق الحياة التي نعرفها نحن المسلمين، ويتعلق بها أمر الفرح والحزن والسرور والألم بل العوارض كلها.

(٢) لقد تغلبت الصحابية الجليلة على نوازع الأمومة، وأحتسبت ذلك عند الله تعالى، وحبست عواطفها وكافة ما يتعلق بهذا الجانب. حتى تم الوقاع بينها وبين زوجها مع أنها التي ابتدأته حتى تروح عن نفسه، وتمهد له الطريق، متى أبلغته خبر وفاة ابنه. وليت نساء اليوم تتعلمين من هذه الصحابية الفاضلة؛ لأن إدخال السرور على طرفي الأسرة واجب مشروع على كل من الطرفين لبعضهما ، وليت نساء اليوم يدركن أن السعادة في الآخرة تكون برضوان الله تعالى. وبخاصة أن أم سليم منحها الله تعالى المكافأة فكان من ابنها الوحيد هذا بضعة من الأولاد. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٣) هو الفم وابن مالك يقول :

فارفع بواو وانصبن بالألف	.·.	واجرر بياء ما من الأسماء أصف
من ذاك ذوان صحبة أبانا	.·.	والفم حيث الميم منه بانا
أب أخ حم كذلك وهن	.·.	والنقص في هذا الخير أحسن
وفي أب وتاليبه يندر	.·.	وقصرها من نقصهن أشهر

(٤) الإمام البخاري – صحيح البخاري ج٥ ص٢٠٨٢ –[١] باب: تسمية المولود غداة يولد، لن لم يعق عنه، وتحنيكه. الحديث: ٥١٥٣ وأخرجه مسلم في الآداب، باب: استحباب تحنيك المولود عند ولادته، رقم: ٢١٤٤. والمراد بـ:[(أصاب منها) جامعها. (وار الصبي) ادفنه. (أعرستم) من الإعراس. وهو وطء الرجل زوجته].

وفى رواية للإمام البخارى قال ابن عينية فقال رجل من الأنصار فرأيت تسعة أولادكلهم قد قرءوا القرآن يعنى من أولاد عبدالله المولود[1]، الوحيد الذى جعله الله تعالى عوضا لأهله عن أبنهم الذى انتقل، وقد فوضوا الأمر فيه لله تعالى، وعنده جل شأنه العوض كل العوض؛ لأنه وحده الذى يملك كل شيء، فسبحانه جل علاه من عظيم بيده الملك، وهو المالك وهو على كل شيء قدير.

۞ **والذى تطمئن إليه النفس**: أن رسول الله ﷺ كان صفاء كاملا، ونورا متلألئا يمضى على الأرض، ويأخذ بأيدى الناس إلى حيث رضوان الله رب العالمين، ونشهد أنه ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة فكشف الله به الغمة حتى تركها كالمحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فعن العرباض بن سارية[2] يقول « وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا قال قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وعليكم بالطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد »[3].

وأن ذلك النور المحمدى قد تحول إلى حركات وسكنات بجانب المفردات اللغوية، حتى صار كل ذلك من مظاهر القدوة التى جعلها الله تعالى فى الرسول ﷺ وأمرنا باتباعه والقيام بمثل ما قام به عليه الصلاة والسلام، وأن الصوفية الأعلام قد

---

(١) الإمام النووى – رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – ص٣٥٤ .

(٢) العرباض بن سارية السلمى يكنى أبا نجيح، والعرباض أبو الحارث، من البكائين ومن أهل الصفة سكن الشام ومات بها سنة خمس وسبعين وقيل بل مات فى فتنة ابن الزبير روى عنه من الصحابة أبو رهم وأبو أمامة وروى عنه جماعة من تابعى أهل الشام، وهو ممن نزل فيه "ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم" الآية

راجع الاستيعاب ج: ٣ ص: ١٢٣٨ رقم:٢٠٢٦ ، والكاشف ج٢ ص١٧ رقم:٣٧٦٦ ، والثقات ج٣ ص٣٢١ رقم:١٠٤٦، ومشاهير علماء الأمصار ج١ ص٥١ رقم: ٣٣١].

(٣) الإمام محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجة – سنن ابن ماجة ج١ ص١٦ – الحديث:٤٣ ، وأخرجه الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٧٥ – الحديث: ٣٣١ .

أخذوا سنة رسول الله مآخذ التنفيذ العملي، ففاز منهم بالرضوان ما كان على بصيرة ويسر الله له الأسباب المشروعة، وأن الرسول ﷺ هو المصدر الثاني من مصادر التصوف الإسلامي، حيث تجيء السنة النبوية المطهرة الصحيحة بعد القرآن الكريم في هذا الشأن.

شبهة ومناقشتها

الدارس لتصوف رسول الله ﷺ يرى أن كل المقامات قد تحققت في رسول الله ﷺ تحققا لا يمكن إنكاره، كما لا يجدى القول بغيره، وليس معنى ذلك أن الرسول ﷺ كان يسير على نمط الصوفية، أو أنه ﷺ عرف المقامات والأحوال التي نظم الصوفية حياتهم الروحية عليها؛ لأن ذلك قول من لم يدرس هذه القضايا بشيء من الموضوعية[١].

◈ **كذلك قد يقال: هل كان الرسول ﷺ صوفيا على قواعد الصوفية[٢]؟**

❊ **والجواب:** أن هذا السؤال مغلوط، أراد به صاحبه تعجل نتائج لم تدر بخلد الصوفية أنفسهم، كما أنه سؤال مقلوب، ولو عكس فقال: هل التصوف له سند من حياة الرسول ﷺ لصح السؤال؟ لأن الجواب سيكون بنعم، ولا ينكر ذلك دارس على ناحية علمية موضوعية.

◈ **وربما يتساءل آحاد الناس قائلين:** هل التصوف مشروع، وهو لم يعرف إلا في القرن الثاني للهجرة[٣]؟ وبالتالي فلم يسمح به الرسول، ولا الصحابة والتابعون، وإنما هو وليد خطوات غير مأمونة، قطعها بعض من توهموا النسك والعبادة في البلاد

---

(١) راجع في هذه التساؤلات للأستاذ محب بن سعد العنزى – التصوف والصوفية مشكلات في طريق الدعوة الإسلامية ص١٧ .

(٢) الشيخ سعد الله بن سعيد القيبى – الصوفية ومشكلاتهم ص٣١ – طبعة دار العز ١٣٣٥هـ وهو يهاجم الصوفية وينتقدهم مر الانتقاد. لكن للأسف انتقاداته تجيء على المتصوفة وليس على الصوفية. ولو وضع في اعتباره أنه يدلى بشهادة سوف يحاسبه الله تعالى عليها؛ ربما كانت له وجهة نظر أخرى.

(٣) الشيخ محمد عبدالعظيم البهنساوى – أضواء على الصوفية ص٧٢ – طبعة أولى ١٣٦٥هـ.

الإسلامية، ثم جعلوا لها قواعد، ثم صبغوها بالصبغة الإسلامية[1]: حتى تنال القبول في المجتمعات الإسلامية؟

❋ **والجواب** : أن الرسول ﷺ كان الصفاء كله، وقد مارس التصوف العملي والعلمي والسلوكي والنظرى قبل البعثة ومعها، وظل على ذلك حتى لحق بالرفيق الأعلى.

وأنه ﷺ ما كان يقف على مقام من المقامات إلا ويجتهد بغية الوصول إلى المقام الأعلى منه، ابتغاء مرضاة الله تعالى، ففى الحديث الشريف عن أبي بردة عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »[2]، وعن المغيرة رضي الله عنه يقول إن « كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول أفلا أكون عبدا شكورا »[3].

ومن المعروف أن الصوفية الأعلام نظروا إلى الشكر على أنه مقام من المقامات التى حَافظ عليها رسول الله فأخذوها عنه؛ لأنه ﷺ مع أنه قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، إلا أنه ما يزال قائما على إعلان العبودية لله وممارسة شكر المنعم على ما أنعم عن قناعة إيمانية، واعتقاد صحيح فى الله، لا يخالطه شيء أخر أبدا، والصوفية يقولون من لا قناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له

---

(١) الشيخ أبو عاقلة إدريس بن عثمان الأبيض – التصوف بدعة ص٧ ط٧/١٩٣٦م.

(٢) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٤ ص: ٢٠٧٥ – [١٢] باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه الحديث: ٢٧٠٢ وورى مسلم فى الحديث: ٢٧٠٢ عن الأغر وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحدث بن عمر قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة » ، ورواه أحمد – مسند أحمد ج ٤ ص٢٦١ – حديث رجل من المهاجرين رضي الله عنه – الحديث: ١٨٣٢٠.

(٣) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج١ ص٣٨٠ – [٦] باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم حتى ترم قدماه وقالت عائشة رضي الله عنها حتى تتفطر قدماه والفطور الشقوق انفطرت انشقت الحديث ١٠٧٨، وأخرج الإمام مسلم صحيح مسلم ج٤ ص٢١٧١ – [١٨] باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة – الحديث: ٢٨١٩ عن المغيرة بن شعبة « أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه فقيل له أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا ».

التسليم، وكذلك من لا توبة لـه لا تصلح لـه الإنابـة، ومـن لا ورع لـه لا يصح لـه الزهد[1]. ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الرسول هو الذى أقام التصوف عمليا وعلميـا، وأنهم أخذوا قواعد ذلك من سلوكيات رسول الله ﷺ ويكون سند التصـوف هـو حيـاة المصطفى الخاتم سيدنا محمد ﷺ.

أما عن كون التصوف مشروعا أو غير مشروع؛ فـإن الجـواب سـهل ميسـور؛ لأنه مادام قد ثبت أن الصوفية الأعلام أخذوا قواعدهم من فعل رسول الله، فإنه يكون مشروعا على الناحية الدينية؛ لأن السنة النبوية المطهرة الصحيحة هى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى لقوله ﷺ: « إني قد تركت فيكم شيئين لـن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض »[2].

وقوله ﷺ: « ألا اني أوتيـت الكتـاب ومثلـه معـه ألا إنـي أوتيـت القـرآن ومثله معه الا يوشك رجل ينثني شبعانا على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجـدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه الا لا يحل لكـم لحـم الحمـار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ألا ولا لقطة من مال معاهد الا ان يستغني عنـها صاحبها ومن نزل بقـوم فعليـهم ان يقروهـم فـان لم يقروهـم فلـهم ان يعقبوهـم بمثـل قراهم »[3]. وقوله ﷺ: « إني أوتيت الكتاب وما يعدله يوشك شبعان على أريكته أن يقول بيني وبينكم هذا الكتاب فما كان فيه من حلال أحللنـاه ومـا كـان فيـه مـن حرام حرمناه ألا وإنه ليس كذلك »[4].

---

(١) الشيخ عبدالكريم بن هوزان القشيرى – الرسالة القشيرية ص٥٤ بالهامش شرح شيخ الإسلام زكريا النصارى – ط صبيح بالقاهرة.

(٢) الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٧٢ – الحديث: ٣١٩ عن أبى هريرة.

(٣) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٤ ص١٣٠ – الحديث: ١٧٢١٣ عن المقداد بن معد يكرب الكندى.

(٤) العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج١ ص١٨٨ – ذكر الخير المصرح بأن سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم كلها عن الله لا من تلقاء نفسه الحديث: ١٢ عن المقداد وروى البيهقى بلفظ « قال أوتيت الكتاب وما يعدله يعني ومثله يوشك رجل شبعان على أريكته يقول بيننا وبينكم هذا الكتاب فما كان فيـه من حلال أحللناه وما كان من حرام حرمناه ألا وإنه ليس كذلك ألا لا يحل ذو ناب من السباع ولا الحمار الأهلي ولا اللقطة من مال معاهد إلا أن يستغني عنها وأيما رجل أضاف قوما فلم يقروه فإن له أن يعقبهم بمثل قراه » [سنن البيبقي الكبرى ج٩ ص٣٣٢ – الحديث: – ١٩٢٥٣، والدار قطني – سنن الدارقطني ج٤ ص٢٨٧ – الحديث: ٥٩]. وقال [illegible] عون المعبود: « أوتيت الكتاب أي القرآن وما يعدله أي الوحي الباطن غير المتلو أو تأويل الوحي الظاهر وبيانه بتعميم وتخصيص وزيادة ونقص أو أحكاما ومواعظ وأمثالا تماثل القرآن في وجوب العمل أو في المقدار، قال البيهقي هذا الحديث يحتمل وجهين أحدهما أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أوتي من الظاهر المتلو والثاني أن معناه أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى وأوتي مثله من البيان أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس في الكتاب له ذكر فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن ألا يوشك قال الخطابي يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس له ذكر في القرآن على ما ذهب إليه الخوارج والروافض من الفرق الضالة فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا انتهى رجل شبعان هو كناية عن البلادة وسوء الفهم الناشىء عن الشبع أو عن الحماقة اللازمة للتنعم والغرور بالمال والجاه على أريكته أي سريره المزين بالحلل والأثواب وأراد بهذه الصفة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه فأحلوه أي اعتقدوه حلالا فحرموه أي اعتقدوه حراما واجتنبوه ألا لا يحل لكم بيان للقسم الذي ثبت بالسنة وليس له ذكر في القرآن » [عون المعبود ج١٢ ص٢٣١/٢٣٢].

ﷺ وقال تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾(1).

أما كون التصوف لم يعرف إلا فى القرن الثانى الهجرى، فهى دعوى خالية من الأدلة؛ لأنه مادام قد ثبت أن التصوف الإسلامى قد مارسه رسول الله ﷺ، فإن تاريخه يكون ممتدا من حياة الرسول ﷺ على الأقل. وإلا فكيف يكون الرسول ﷺ قد مارسه، ثم لا يكون لذات التصوف ظهور إلا فى القرن الثانى الهجرى، أليس ذلك مما لا يمكن قبوله على الناحية العلمية.

لكن يمكن القول بأن التصوف الإسلامى لم تكتب قواعده، ولم تدون قضاياه إلا فى القرن الثانى الهجرى، والفرق بين الأمرين كبير(2)، وكذلك فإن العلوم الإسلامية لم يدون أغلبها على ناحية تنظيمية إلا مع مطالع القرن الثانى، وليس ذلك خاصا بالتصوف الإسلامى وحده، ومن ثم فإن الدعوى التى أقامها خصوم التصوف على تلك الناحية لا تجد سندا لها مقبولا.

كما أن علوم الشريعة الإسلامية من الفقه والتفسير والحديث، بل والعلوم العربية من النحو والصرف والبلاغة، وباقى العلوم الشرعية لم يكن لها وجود أثناء حياة النبى ﷺ، ولم يقل أحد أنها بدعة غير مشروعة، بل الكل على أنها لم تكن فى حياة الرسول ﷺ وأنها دونت بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، بل وانتقال الخلفاء الراشدين، ومع هذا فهى بدعة واجبة على الناحية الشرعية؛ لأنها تخدم

---

(1) سورة الحشر – الآية ٧ .

(2) الخلط بين الأمور ليس فى صالح أهل الإسلام، وأظن أن كل علماء الإسلام يدركون ذلك، ويرفضونه؛ لأن الله تعالى أمرنا بالعدل حتى مع الخصوم. فما بالنا إذا كان ذلك مع إخواننا فى الدين. ربنا واحد ونبينا واحد، وكتاب الله إلينا واحد. قبلتنا واحدة، وحجنا واحد، ... واحد، وكلنا يتجه إلى الله الواحد، فهل يراجع أنفسهم من يتعجلون القفز فوق الأكتاف؟!

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة[1]. ومالا يتأتى إلا به الواجب فهو أيضا واجب.

فلم يكن علم التوحيد الذى تقوم عليه العقيدة موجودا على سبيل التقعيد فى زمن المصطفى ﷺ بمعنى أنه لم تكن هناك كتب تحمل عنوان علم التوحيد أو علم العقيدة، أو علم الكلام؛ لأن حركة التأليف فيه لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت مع أن الرسول ﷺ مارسه عمليا مع كل من دعاهم إلى الله تعالى بالأدلة الشرعية، وجاء به القرآن الكريم.

قال تعالى ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[2].

مع أن التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله تعالى، وما يجب أن يثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم. وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم؛ لأن أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك، وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبىّ محمد ﷺ كما تشهد به آيات الكتاب العزيز[3].

وكذلك علم القراءات الذى يعرف بأنه علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالى، واختلافهم فى الحذف والإثبات والتحريك والتسكين والفصل والوصل. وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال وغيره من حيث السماع...، كما يعرف بأنه علم بكيفية

---

(١) راجع فى هذا الشأن كتابنا : التصوف المفترى عليه، وكذلك كتابنا أوراق مطوية فى التصوف والصوفية. وكتابنا أنسام حييه فى الأفكار الصوفية حيث تعرضت لهذه المسألة تصريحا فى بعضها وتلميحا فى البعض الأخر.

(٢) سورة النمل - الآية ٦٤ .

(٣) الأستاذ الإمام محمد عبده - رسالة التوحيد ص٤ - تعليق الشيخ محمد شيد رضا ص١٧ - طبعة دار المنار ١٣٨٦هـ.

الأداء لكلمات القرآن واختلافها معزوا لناقله[1]، ولم يكن قد تم تدوينه في عصر النبوة، وإنما بعد ذلك، مع أنه كان موجودا على الناحية العلمية والعملية معا، حيث نقله الصحابة عن رسول الله ﷺ نقلا متواترا، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول « سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها وكدت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها فقال لي أرسله ثم قال له اقرأ فقرأ قال هكذا أنزلت ثم قال لي اقرأ فقرأت فقال هكذا أنزلت إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه ما تيسر »[2]،

وعن أبيّ بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بني غفار قال « فأتاه جبريل عليه السلام فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ثم أتاه الثانية فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ثم جاءه الثالثة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك ثم جاءه الرابعة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا »[3].

---

(١) اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ج١ ص٣١٨ – تحقيق وتعليق الدكتورشعبان محمد إسماعيل وراجع للعلامة الشيخ شهاب الدين القسطلاني – ولطائف الإشارات لفنون القراءات وللعلامة الزركشي – البرهان في علوم القرآن، وللعلامة السيوطي – الإتقان في علوم القرآن، وللشيخ الزرقاني مناهل العرفان في علوم القرآن، وللشيخ مناع القطان – مباحث في علوم القرآن.

(٢) الإمام البخارى – صحيح البخاري ج٢ ص١٥١ – الحديث: ٢٢٨٧ ، ج٤ ص١٩٢٣ – [٢٧] باب من لم ير بأسا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا– الحديث: ٤٧٥٤.

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم ج١ ص٥٦٢ [٤٨] باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه – الحديث: ٨٢١ ، وعن أم أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « نزل القرآن على سبعة أحرف فبأي حرف قرأت أصبت » [العلامة سعيد بن منصور المولود ٢٢٧هـ– سنن سعيد بن منصورج١ ص١٥٧ – الحديث: ٣٢ – دار العصيمي – الرياض ١٤١٤هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٥ – تحقيق د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد]. وعن عمرو بن دينار يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » [العلامة سعيد بن منصور المولود ٢٢٧هـ– سنن سعيد بن منصورج١ ص١٥٩ – الحديث: ٣٣].

إذن القراءات على الناحية العملية كانت موجودة، أبان عصر نزول الوحي على رسوله ﷺ ، وكان الرسول الكريم ﷺ يقرأ على أصحابه. ويعلمهم أوجه القراءات التى أنزلها الله عز وجل، ولم يقل أحد أن علم القراءات بدعة؛ لأنه لم يدون فى عصر النبوة، ولم يقل أحد أن علم العقيدة والفقه والنحو بدعة؛ لأنها لم تدون فى عصر النبوة.

بل إن علم الحديث لم يكن قد وضعت قواعده فى عصر النبوة الخاتمة، حيث لم يكن الرسول ﷺ قد أمر بكتابة سوى القرآن الكريم، حتى لا يختلط أمر التنزيل فى عقول الناقلين[1]، الذين كان أغلبهم حديثى عهد بالإسلام، كما كان فيهم من لم يكن عربى الأصل، بحيث يميز بين بلاغة القرآن الكريم، وبلاغة الحديث النبوى الشريف. أجل هما من مصدر واحد، لكن القرآن الكريم وحى منزل بلفظه ومعناه[2]، أما الحديث النبوى الشريف المطهر فهو وحي بمعناه، ولفظه من عند رسول الله ﷺ، ولأن الحديث الشريف تجوز روايته بالمعنى، فإن حفظ معناه هو الذى أوحى به الله. أما لفظه فمن رسول الله.

كما أن علم الحديث يعرف بأنه علم يعرف به أحوال السند والمتن، ولم يكن لشيء من ذلك وجود فى عصر صدر الإسلام، ولم يقل واحد من أهل العلم: إن ممارسة ذلك بدعة. لمجرد عدم وجوده فى عصر النبوة الخاتمة، والتصوف الإسلامى مثل علم الحديث وعلم الفقه والعقيدة والقراءات وسائر العلوم الشرعية؛ لأن الشأن فى

---

(١) الله سبحانه وتعالى بين أن القرآن الكريم سيظل محفوظا أبد الدهر فى قوله تعالى: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [سورة الحجر – الآية ٩] ولكن الاختلاط فى عقول المستمعين قد يقع؛ لأنهم قد يتصورون أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة شيء واحد، ولذا لم يكن بأمر الرسول ﷺ إلا بكتابة القرآن الكريم فقط أول الأمر.

(٢) يعرف الوحي بأنه إعلام الله أنبياءه ورسله بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو بغير واسطة. كما يعرف بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، وكذلك يعرف بأنه ما أنزل الله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع. [راجع للشيخ محمد عبده – رسالة التوحيد ص٨٤ – تحقيق الشيخ محمد عبدالله بن عبدالحميد والبدر العينى ج١ ص١٤ والدين والوحي والإسلام لشيخ الإسلام مصطفى عبدالرازق]

العلوم الإسلامية لا يختلف مادامت كلها لخدمة ديـن الإسـلام الـذى شـرعه الله رب العالمين.

❁ **وربما يقال:** إن عصر صدر الإسلام لم يكـن بحاجـة إلى أن تنشـأ هـذه الظـاهرة – التصوف – ولا أن يكون بين أهله من يحـاول التميز بسلوك ينفرد هـو بـه دون غيره، أو أن يذهب فيفسر شططا بعض أمور العقيدة[1]، على ضوء ما يروق له فى ظل ظروفه الخاصة، أو على ضوء ما بدر منه[2]، وهـى وجهـة نظـر لأصحابـها، لكنها على أحسن تقدير، ومتى أحسن الظن بها تنصرف للمتصوفة، ولا تنصـرف للصوفيـة؛ لأن الصوفيـة يلـتزمون النقـل المـنزل، ورسـول الله ﷺ قدوتـهم، وهـم متمايزون بالاتباع الذى يمثل نوعا من السلوك الراقى فـى سـبيل إرضـاء الله رب العالمين.

ثم إن الصوفية الأعلام أفراد يوجدون فى المجتمع الإنسـانى ككـل، وداخـل المجتمع المسلم خاصة، فتأثرهم بالمجتمع المحيط بهم أمـر طبيعـى، وتأثيرهم فيمـن حولهم أمر طبيعي أيضا، ولكن إذا نظر إليهم المحيطون بهم نظرة ازدراء وكراهيـة أو عداوة وبغضاء، فإنهم سوف يبادلونهم الحسنة بالسـيئة، ولـن يكـون لخصومـهم مـن المبررات مـا يسمح لهم بفرض آرائهم عليهم، أو تصريفهم لإرادة غـيرهم، وذلـك أمـر قائم فى أعماق الصوفية الأعلام من أهل الإسلام.

أضف إلى ما سبق أن تمـايز بعـض الأفـراد عـن بعـض بـالعقيدة الصحيحـة، والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة قاعدة ثابتة فى تاريخ الإنسانية، كلها وذلك راجع لأمر لا يعلمه إلا الله جل علاه، كما أن هناك تمايزا فى بعـض الأفـراد علـى ناحيـة الرزق.

---

(١) الشيخ الأنصارى – شرح منازل السائلين ص٤١ شرح وتعليق الشيخ الفركاوى .

(٢) الدكتور صابر عبدالرحمن طعيمة – الصوفية معتقدا ومسلكا – مطابع العبيكان بالريـاض – طبعـة أولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

۞ قال تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون﴾[1].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير** : « يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم أثناء حجهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فقال تعالى منكرا عليهم أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم كما قال في الآية الأخرى ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾[2]، قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله أفبنعمة الله يجحدون[3]، بل كيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم[4].

وقال مجاهد في أن هذا مثل الآلهة الباطلة وقال قتادة هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منك أفبنعمة الله يجحدون حيث جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري قائلا: واقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلى به كلا من الناس فيبتلى من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله »[5].

---

(١) سورة النحل - الآية ٧١ .

(٢) سورة الروم - الآية ٢٨ .

(٣) وهذا من الأمثال التي تجرى فيها الضرورة العقلية المجرى الحسن .

(٤) وهذا الوجه أشمل من الذى قبله ، لأنه يحرك العقل والوجدان معا . فإذا كان الواحد منكم يرفض أن يشاركه أحد خصوصية من خصائصه . فكيف يسمح لمخلوق أن يشارك الخالق.

(٥) العلامة الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ج: ٢ ص: ٥٧٨ .

فتمايز الصوفية بهذا الوصف أمر لا منازعة فيه، لمن يتأمل القواعد العامة التى جعلها الله تعالى بين الناس أجمعين، بل دلت بعض الآيات القرآنية على أن هناك نوعا من التمايز بين الناس فى المعايش، وذلك من عند الله تعالى، ولا دخل لأحد فى ذلك التمايز.

۞ قال تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾[1].

۞ **يقول القرطبى:** « إن الوليد بن المغيرة وكان يسمى ريحانة قريش كان يقول لو كان ما يقوله محمد حقا لنزل علي أو على أبي مسعود فقال الله تعالى أهم يقسمون رحمة ربك يعني النبوة فيضعونها حيث شاءوا نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا حيث أفقرنا قوما وأغنينا قوما فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم قال قتادة: إنك قد تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مقتر عليه، فالأرزاق بين الرزاق[2]، نحن أعطينا عظيم القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما علي وأنا قادر على نزع النعمة عنهما فأي فضل وقدر لهما .ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات حيث فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس[3]، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، وخداما يسخر الأغنياء الفقراء فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض على سبيل أن يملك بعضهم بعضا[4]، ورحمة ربك خير مما يجمعون أي أفضل مما يجمعون من الدنيا ثم إن الرحمة هى النبوة التى تهوى الجنة بعد تمام الفرائض

---

(١) سورة الزخرف – الآية ٣٢ .

(٢) والرزاق من أسماء الله الحسنى، ومن ثم فكل الأرزاق بيديه، والأموال تجرى بأمره. وقلوب العباد كلها بين إصبعين من أصابعه جل شأنه يقلبها كيف شاء.

(٣) وذهب مقاتل إلى أن المفاضلة الواقعة هنا إنما هى فى الحربة والرق وهو معنى ضيق ولو اتسع لكان أولى .

(٤) وقيل هو من السخرية التي بمعنى الاستهزاء أي ليستهزيء الغني بالفقير قال الأخفش سخرت به وسخرت منه وضحكت منه وضحكت به وهزئت منه وبه كل يقال والاسم السخرية بالضم والسخري والسخري بالضم والكسر وكل الناس ضموا سخريا إلا ابن محيصن ومجاهد فإنهما قرأ سخريا. [الجامع لأحكام القرآن ج١٦ ص٨٣].

التى هى خير من كثرة النوافل وقيل ما يتفضل به عليهم ضر مما يجازيهم عليه من أعمالهم »[1].

إذن الصوفية الأعلام من أهل الإسلام وإن تمايزوا عن غيرهم، فإن ذلك التمايز ليس عيبا فيهم، أو منقصة يعابون بها، وماداموا قد التزموا المنهج الإسلامى فى سلوكياتهم، فإن الحكم عليهم بما لم يقولوا به أو يعتقدوه يعتبر حكما من خصم غير موضوعي، لا يعنيه سوى إلقاء التهم بغية النيل من الأبرياء، والوقوع فى أهل الفضل[2].

❁ **وفى تقديرى**: أن الصوفية يجتهدون فى مهام الأمور جهدهم، فلا تعترض أحدهم مشكلة أو ينتابه هم إلا ويمن الله عليه باليسر بعد العسر، وتتبدد سحب الهم بفضل ما وهبهم الله من ماضى عزمهم وحرارة إخلاصهم، وشموس يقينهم، لهم فى الصادقين الحُظوة، وعند الله الدرجة والمنزلة، انصرفوا بقلوبهم إلى الله فصرف الله عنهم كل ما سواه، أخلصوا لله فى السر والعلن، فخلصهم مما يشغلهم عنه فيما ظهر وما بطن، يشار إليهم إذا ساروا، ويرجى رفدهم إذا حلوا وأقاموا، أمناء إذا استشيروا، علماء إذا قالوا، حكماء فيما أشاروا، رسل هداية وقادة سلام، أدلاء على الحق وللطريق أعلام[3].

وقد عرفت أن سيدنا محمدا ﷺ كان على أعلى جانب من حسن الخلق، كما اشتهر بين قومه بالمروءة والوفاء بالعهد، وحسن الجوار والحلم والتواضع، بجانب الجود والشجاعة والصدق والأمانة[4]، وأنها صفات عظيمة ومتى لحقت بالنبى العظيم سيدنا محمد ﷺ فقد أضيفت إلى عظمتها ميزة انتسابها لرسول الله ﷺ، والصوفية الأعلام على طريق رسول الله ﷺ يسيرون، تسمع منهم صدق المقال المعبر عن صادق الحال، وترى فيهم حسن التعامل الدال على السلوك الكامل، وتشم منهم عبير

---

(١) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٦ ص: ٨٣

(٢) والمؤسف له أن الكثيرين يعادون الحق، وينقلبون للباطل، لمجرد التعصب للرأى والغلبة أو الحرص على تجريح الأبرياء، والطعن على الأوفياء، ومحاولة النيل من الأتقياء.

(٣) الشيخ عبدالجليل قاسم – المنار الهادى فى خصائص شيخنا القاضى ص٣٠٤ – مطبعة حسان.

(٤) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين – فلسفة الحضارة ص١٥٨ مكتبة سعيد رأفت.

الإخلاص الناشر لطيب أسرارهم، والمفصح عن زهدهم في الدنيا، والتجرد منها والخلاص عن علائقها.

الصفح عادتهم، والحلم حليتهم، والكرم صفتهم، والذكر شعارهم : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[1]. والانكسار سيماهم، تأنس لقربهم وتستريح في ظلهم. هم كهف لمن آوى إليهم، وحصن لمن لجأ إليهم. فهم أهل الله وخاصته وهم القوم الذين لا يشقى لهم جليس، ظلهم وارف لمن رغب فيهم، أو مال إليهم. القيود بينهم مرفوعة، والألقاب موضوعة. والكلفة لديهم منزوعة، لا أنانية ولا امتنان: لا رياء ولا اغترار. سكنوا للآخرة، فلم يغرهم بريق تلك الديار، لا ميل فيهم ولا هوى. لا تكبر عندهم ولا صلف، لا جدال ولا مراء[2].

وكأني بالقائل قد عناهم حين قال:

ما الفضل إلا لأهل العلم أنهمو ∴ على الهدى لمن استهدى أدلاء

من ثم فإن التصوف الإسلامي صحيح الانتساب إلى دين الإسلام في مصادره الأولى ، دقيق في أغراضه. واضح في مقاصده، محدد الأهداف يسعى إليه أهل الله، تسمو أرواحهم معه إلى الملأ الأعلى، وتتعانق آمالهم الكريمة مع غاياتهم العظيمة، حتى يجتمع ذلك كله تحت ظلال الحبيب المصطفى ﷺ الذى قال عن نفسه إنما أنا رحمة مهداه، فعن أبي صالح عن النبي ﷺ يناديهم : « أيها الناس إنما أنا رحمة مهداه »[3]. فما هو التصوف في حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ذلك ما سوف ألتفت إليه في فصل مستقل إن شاء الله تعالى، والله المستعان وعليه التوكل فهو أرحم الراحمين.

---

(١) سورة الرعد – من الآية ٢٨.

(٢) الشيخ عبدالجليل قاسم – المنار الهادى ص٣٠٤ .

(٣) الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (١٥٩هـ–٢٣٥هـ)– الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار(مصنف ابن أبى شيبة) – ج:٦ ص:٣٢٥ – الحديث:٣١٧٨٢ – مكتبة الرشد – الرياض ١٤٠٩هـ ط الأولى– تحقيق كمال يوسف الحوت. وراجع الإمام الكبير أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضيل بن حزام الأرامى سنن الدرامى ج١ ص٩٠ (دار الكتب العلمية بيروت). راجع شرح الجامع الصغير الحديث رقم ٢٥٨٣، وراجع (ابن سعد) في الطبقات (والحكيم) في النوادر (عن أبي صالح) . وقوله تعالى : ﴿ " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" ﴾ سورة الأنبياء الآية ١٠٧



* راعيت ترتيب هذه المصادر طبقا للطريقة العلمية الحديثة، وهي ذكر اسم الشهرة للمؤلف أولا بعد تجريده من حرف أل إن كان فيه، ثم ذكر اللقب، ثم الاسم وسنة الميلاد والوفاة متى أمكنني الوقوف على ذلك، وبخاصة إذا كان ممن انتقلوا للدار الآخرة، ثم اسم الكتاب والمطبعة والسنة إن وجدت، مبتدئا بالقرآن الكريم وعلومه، ثم السنة النبوية المطهرة الصحيحة وعلومها، ثم المعاجم العربية والتراجم، وأخيرا المصادر العامة، وهي التي اتبعت فيها الترتيب العلمي طبقا للطريقة الحديثة.

أولا : القرآن الكريم وعلومه

(١) القرآن الكريم.

(٢) أحكام القرآن - الإمام محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله (ت: ٢٠٤هـ) - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٠هـ - تحقيق عبد الغنى عبد الخالق.

(٣) الأساس في التفسير - الأستاذ: سعيد حوى - طبعة دار السلام - بيروت ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٤) الإتقان في علوم القرآن - العلامة جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١١هـ) - طبعة المطابع الأزهرية.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل - الإمام الشيخ / القاضي ناصر الدين الشيرازي البيضاوي (المتوفى ٧٩١هـ) - طبعة دار المعارف بمصر ١٣١٦هـ، ودار الفكر - بيروت ١٩٩٦م.

(٦) البحر المحيط - العلامة أثير الدين أبو عبد الملك محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي - دار إحياء التراث العربي بيروت ط٢/١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٧) التحرير والتنوير - العلامة محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس ١٩٩٧م.

(٨) تفسير الجلالين - جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي - دار الحديث بالقاهرة الأولى.

(٩) تفسير الشعراوي - الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي - مؤسسة أخبار اليوم.

(١٠) تفسير القرآن الحكيم، المسمى تفسير المنار - الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا - دار المعرفة بيروت، دار المنار بالقاهرة - ط٢/١٣٥٠هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

(١١) تفسير القرآن العظيم - الإمام الجليل / الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي القرشي (٧٧٤هـ) - مكتبة الإرشاد ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار الغد العربي ١٩٨٩م. وطبعة دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ.

(١٢) التفسير القرآني للقرآن - للأستاذ عبد الكريم الخطيب - طبعة دار الفكر العربي.

(١٣) تفسير المراغي - الشيخ الأستاذ أحمد المراغي.

(١٤) تفسير جزء عم - الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - طبعة دار المنار.

(١٥) جامع البيان في تفسير القرآن المشهور بتفسير الطبري - العلامة الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤/٣١٠هـ) - دار الجيل - الطبعة الثالثة - طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٤م وطبعة دار الغد العربي بالقاهرة ١٩٩٥م، وطبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٥.

(١٦) الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي - الإمام / أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الأنصاري القرطبي (ت: ٦٧١هـ) - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، وطبعة دار الغد العربي ١٩٨٨م، وطبعة دار الشعب بالقاهرة (الطبعة الثانية) ١٣٧٢هـ - تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني.

(١٧) حاشية العلامة الصاوي على الجلالين - للعلامة الشيخ أحمد الصاوي - طبعة دار الفكر

(١٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور - للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) - طبعة دار الفكر - ط الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

(١٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - الإمام / أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥.

(٢٠) السراج المنير - الإمام الخطيب الشربيني - دار المعرفة - بيروت.

(٢١) صفوة البيان في علوم القرآن - الدكتور محمد متولي.

(٢٢) صفوة التفاسير - الشيخ محمد علي الصابوني - مكتبة الغزالي - بيروت.

(٢٣) طبقات المفسرين - للعلامة الداودي.

(٢٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان – العلامة نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري (٧٢٨هـ) بهامش تفسير الطبري – دار الجيل – بيروت .

(٢٥) فتح القدير – الإمام محمد بن على بن محمد الشوكاني (المتوفى ١٢٥٥هـ) – طبعة دار الحديث بالقاهرة – ط٣/١٩٩٧م .

(٢٦) في ظلال القرآن الكريم – الأستاذ الشيخ سيد قطب – الطبعة السادسة – دار الشروق ١٩٧٨م .

(٢٧) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – الإمام / أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت : ٥٢٨) – تحقيق مصطفى حسين – مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٦م . وطبعة دار المعرفة – بيروت / لبنان .

(٢٨) لباب التأويل في معاني التنزيل – العلامة علاء الدين على بن محمد المعروف بالخازن (ت: ٧٢٥هـ) – دار الفكر – بيروت .

(٢٩) لطائف الإشارات – الإمام القشيري – تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م .

(٣٠) مختصر تفسير ابن كثير – الإمام الجليل / الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي – اختصار وتحقيق الأستاذ / محمد على الصابوني دار التراث العربي – القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، وطبعة دار الصابوني للطباعة والنشر ١٩٨٨م .

(٣١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي – مكتبة دار الحديث – الطبعة الأولى – طبعة الشعب ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

(٣٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – العلامة ابن عطية – دار الكتب العلمية .

(٣٣) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي) – العلامة الإمام / فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التيمي البكري الرازي المعروف بفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ) – المطبعة البهية المصرية – الطبعة الأولى ١٩٩١م ، وطبعة دار إحياء التراث العربي ، طبعة دار الغد العربي ١٩٩٣م .

(٣٤) المفردات في غريب القرآن – العلامة أبو القاسم الحسين محمد الراغب الأصفهاني – دار المعرفة بيروت – لبنان.

(٣٥) الميزان في تفسير القرآن – للشيخ الطباطبائي.

(٣٦) نظرات في سورة الضحى – للشيخ علي الدين اليسري.

ثانياً: السنة النبوية المطهرة وعلومها

(٣٧) إرشاد الساري إلى صحيح البخاري – المطبعة الكبرى الأميرية ١٣٢٣هـ.

(٣٨) الاستيعاب في معرفة الأصحاب – يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت: ٤٦٣) – – ط١ – تحقيق علي محمد البجاوي – طبعة دار الجبل بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٣٩) أسد الغابة في معرفة الصحابة – العلامة ابن الأثير – مكتبة دار التراث – حلب ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

(٤٠) الإكمال في ذكر من له رواية في مسند الإمام أحمد من الرجال – العلامة محمد بن علي بن الحسن أبو المحاسن الحسيني المولود ٧١٥هـ – المتوفى ٧٦٥هـ – جامعة الدراسات الإسلامية – كراتشي ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م – تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي.

(٤١) البحر الزخار – العلامة أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار المولود ٢١٥هـ المتوفى ٢٩٢هـ – مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم – بيروت، المدينة ١٤٠٩هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١٠ – تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله.

(٤٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي – الإمام الحافظ أبو العلى محمد عبد الرحمن المباركفوري (ت: ١٣٥٣هـ) المكتبة السلفية بالمدينة المنورة – ط٢/١٩٦٧م.

(٤٣) التاريخ الصغير (الأوسط) – العلامة الإمام محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي المولود ١٩٤هـ المتوفى ٢٥٦هـ – دار الوعي، مكتبة دار التراث – حلب، القاهرة – ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٢ – تحقيق محمود إبراهيم زايد

(٤٤) التاريخ الكبير – العلامة محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي المولود ١٩٤هـ – المتوفى ٢٥٦هـ – دار الفكر – عدد الأجزاء ٨ – تحقيق السيد هاشم الندوي.

(٤٥) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف – العلامة عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد المولود ٥٨١هـ والمتوفى ٦٥٦هـ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٧هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٤ – تحقيق إبراهيم شمس الدين، وطبعة دار الحديث – القاهرة.

(٤٦) تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة – العلامة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي المولود ٧٧٣هـ المتوفى ٨٥٢هـ – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى – تحقيق د. إكرام الله إمداد الحق (بدون).

(٤٧) تقريب التهذيب – العلامة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي – المولود ٧٧٣هـ – المتوفى ٨٥٢هـ – دار الرشيد – سوريا ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١ – تحقيق محمد عوامة.

(٤٨) تهذيب الأسماء واللغات – العلامة أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام – دار الفكر – بيروت ١٩٩٦م – الطبعة الأولى

(٤٩) تهذيب التهذيب – أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي المولود ٧٧٣هـ والمتوفى ٨٥٢هـ – دار الفكر – بيروت – ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ١٤.

(٥٠) تهذيب الكمال – العلامة يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي المولود ٦٥٤هـ والمتوفي ٧٤٢هـ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٣٥ – تحقيق د. بشار عواد معروف،

(٥١) تهذيب سنن أبي داود، الإصدار لابن القيم – طبعة مجمع أبي النور

(٥٢) الثقات – العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى ٣٥٤هـ – دار الفكر – ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٩ – تحقيق: السيد شرف الدين أحمد

(٥٣) جامع البيان فيما اتفق عليه الشيخان – العلامة محمد زكى الدين أبو هاشم – طبعة دار الصفوة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٥٤) الجامع الصغير السيوطى – العلامة عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى – (٨٤٩/٩١١)هـ – تحقيق محمد بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن على زين العابدين المناوى – طبعة دار العلم بجدة – بدون.

(٥٥) الجامع لمعمر بن راشد – العلامة معمر بن راشد الأزدى – (ت: ١٥١هـ) – طبعة المكتبة الإسلامى ببيروت ١٤٠٣هـ – الطبعة الثانية – تحقيق حبيب الأعظمى (منشور كملحق) – بكتاب المصنف للصنعانى ج١٠.

(٥٦) الجرح والتعديل – العلامة عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي المتوفى ٣٢٧هـ – دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٢٧١هـ/ ١٩٥٢م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٩.

(٥٧) جمع الجوامع – الشيخ تاج الدين السبكي .
(٥٨) حاشية السندي على النسائي للإمام السندي – طبعة مجمع أبي النور .
(٥٩) حلية الأولياء – أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) – طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ – الطبعة الرابعة .
(٦٠) رجال صحيح مسلم – العلامة أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني أبو بكر – المولود ٣٤٧هـ المتوفى ٤٢٨هـ – دار المعرفة – بيروت ١٤٠٧هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٢ – تحقيق عبد الله الليثي .
(٦١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – الإمام المحدث الحافظ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) طبعة الحلبي .
(٦٢) سنن أبي داود – الإمام الحافظ / أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
(٦٣) سنن ابن ماجه – للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه – طبعة دار إحياء التراث العربي بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .
(٦٤) سنن البيهقي الكبرى – أحمد بن حسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي – (٣٨٤/٤٥٨)هـ – مكتبة دار الباز بمكة المكرمة – ١٤١٤/١٩٩٤م – تحقيق محمد عبد القادر عطا .
(٦٥) سنن الترمذي – الإمام / محمد الحافظ أبو عيسى محمد بن سورة (٢٠٩/٢٧٩هـ) – مطبعة مصطفى الحلبي .
(٦٦) سنن الدارقطني – العلامة علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي (٣٠٦/٣٨٥)هـ – طبعة دار المعرفة بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م – تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني .
(٦٧) سنن الدارمي . الإمام الكبير أبو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت: ٢٥٥هـ) – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، وطبعة دار إحياء السنة النبوية .
(٦٨) سنن النسائي – الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي (ت: ٣٠٢هـ) دار الحديث ١٩٨٧م .
(٦٩) سنن سعيد بن منصور – العلامة سعيد بن منصور المتوفى ٢٢٧هـ – دار العصيمي
(٧٠) مدينة النشر :: الرياض ١٤١٤هـ – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٥ – تحقيق د . سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد .

(٧١) سير أعلام النبلاء – العلامة محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله المولود ٦٧٣هـ المتوفى ٧٤٨هـ – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٣هـ – الطبعة التاسعة – عدد الأجزاء ٢٣ – تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي.
(٧٢) شرح مسند الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه، مع شرحه للإمام الهمام ناصر السنة وقامع البدعة الملا علي القاري الحنفي، (مع تعليق الشيخ خليل محيي الدين الميس مدير أزهر لبنان) طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
(٧٣) الإصابة في تمييز الصحابة – العلامة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (٧٧٣/٨٥٢)هـ – ط١ – تحقيق علي محمد البجاوي – طبعة دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
(٧٤) صحيح الإمام البخاري – الإمام / محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ) – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط٤/١٩٩٨م.
(٧٥) صحيح مسلم – الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ) – طبعة الحلبي.
(٧٦) صحيح ابن حبان – العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي – (ت: ٣٥٤هـ) – طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م الثانية – تحقيق شعيب الأرنؤط.
(٧٧) صحيح مسلم بشرح النووي – الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي – الطبعة الأولى – تعليق الأستاذ محمد محمد تامر – دار الفجر للتراث ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، وطبعة المطبعة المصرية ومكتبتها.
(٧٨) طبقات الحفاظ – العلامة عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل المولود ٨٤٩هـ المتوفى ٩١١هـ – الطبقة السادسة – رقم: ٢٢٠ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٣هـ – ط١.
(٧٩) عون المعبود – شرح سنن أبي داود – العلامة شمس الحق أبو الطيب – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ – الطبعة الثانية.
(٨٠) الغريب – العلامة ابن سلام – طبعة دار الفكر – بيروت ١٩٨٨م.
(٨١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للعلامة ابن حجر العسقلاني – تحقيق محب الدين الخطيب وقصي الدين الخطيب – طبعة دار الريان للتراث. ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
(٨٢) فتح القدير – الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى ١٢٥٥هـ) – دار الحديث بالقاهرة – ط٣/١٩٩٧م.
(٨٣) الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة – العلامة محمد بن أحمد أبو عبد الله الذهبي الدمشقي المولود ٦٧٣هـ، المتوفى ٧٤٨هـ – دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علو – جدة – ١٤١٣هـ/١٩٩٢م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٢ – تحقيق محمد عوامة

٨٤) كشف الخفاء ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس – الشيخ إسماعيل محمد العجلوني (ت: ١١٦٢هـ) مكتبة الغزالي – دمشق .
٨٥) كنز العمال – للعلامة علاء الدين المتقي الهندي – طبعة عام ١٩٨٩م مؤسسة الرسالة – دمشق .
٨٦) لسان الميزان – العلامة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م – الطبعة الثالثة – عدد الأجزاء ٧ – تحقيق دائرة المعرف النظامية – الهند .
٨٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي – بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر – طبعة دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ، الموافق ١٩٩٢م .
٨٨) المستدرك على الصحيحين – الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١/٤٠٥)هـ – طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١/ ١٩٩٠م الأولى – تحقيق مصطفى عبد القادر عطا . -
٨٩) مسند أبي داود الطيالسي – العلامة سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي المتوفى ٢٠٤هـ – دار المعرفة – بيروت (بدون) .
٩٠) مسند الإمام أحمد – الإمام /أحمد بن محمد بن حنبل (ت : ٢٤١هـ) – المكتب الإسلامي للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الأول – دار كتب الفقه .
٩١) مسند أبي عوانة – العلامة أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائيني المولود فى ٣١٦هـ – دار المعرفة – بيروت ١٩٩٨م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٥ .
٩٢) مسند أبي يعلى – العلامة أحمد بن على بن المثنى أبو يعلى الموصلى التميمى (٢١٠/٣٠٧)هـ – طبعة دار المأمون للتراث بدمشق (ط١) – ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م – تحقيق حسين سليم أسد .
٩٣) مشاهير علماء الأمصار – العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى ٣٥٤هـ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٥٩م – تحقيق م . فلايشهمر
٩٤) مصنف ابن أبى شيبة – العلامة أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة (١٥٩/٢٣٥)هـ – طبعة مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٩هـ الأولى – تحقيق كمال يوسف الحوت .
٩٥) المعجم الأوسط – العلامة سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبرانى (٢٦٠/٣٦٠)هـ – طبعة دار الحرمين بالقاهرة – طبعة ١٤١٥هـ – تحقيق طارق بن عوض الله الحسينى .
٩٦) المعجم الكبير – العلامة سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبرانى (٢٦٠/٣٦٠)هـ – مكتبة العلوم والحكم – الموصل – ط٢ – ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م – تحقيق حمدى بن عبد المجيد السلفى .

(٩٧) معرفة الثقات – العلامة أحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي المولود ١٨٢هـ، المتوفى ٢٦١هـ – مكتبة الدار – المدينة المنورة – ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٢ – تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي

(٩٨) من أنوار السنة – الشيخ محمود عبد المطلب الكبير .

(٩٩) الموطأ للإمام مالك، برواية الإمام محمَّد بن الحَسَن – طبعة دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

(١٠٠) ميزان الاعتدال في نقد الرجال – العلامة شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي المولود ٧٤٨هـ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٥م – الطبعة الأولى – عدد الأجزاء ٨ – تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود .

(١٠١) نصب الراية لأحاديث الهداية، مع حاشيته النفيسة "بغية الألمعي في تخريج الزيلعي – طبعة دار الفكر .

(١٠٢) النهاية في غريب الحديث والأثر – للعلامة ابن الأثير – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٢هـ .

ثالثًا : المعاجم العربية والتراجم وكتب الرجال

(١٠٣) أبجد العلوم – العلامة صديق بن حسن القنوجي – طبعة دار الريان للتراث ١٤٠١هـ .

(١٠٤) أساس البلاغة – العلامة محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) طبعة دار الشعب ١٩٦٠م، طبعة دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

(١٠٥) الأعلام للزركلي – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستشرقين – تأليف خير الدين الزركلي – الطبعة الثالثة ١٣٦٧هـ .

(١٠٦) البداية والنهاية – الإمام الجليل / الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي – طبعة دار الغد العربي .

(١٠٧) تاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام – الإمام الذهبي – طبعة القاهرة .

(١٠٨) تاريخ الخلفاء الراشدين – العلامة جلال الدين السيوطي – طبعة بيروت .

(١٠٩) تاريخ بغداد – العلامة الخطيب أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (ت:٤٦٣) – طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ .

(١١٠) التعريفات – السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين أبي الحسن والحسين الجرجاني (٧٤٠/٨١٣هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م . وطبعة دار الريان للتراث

١٤٠٣هـ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإبياري، وتحقيق الدكتور عبد المنعم الحنفي - طبعة دار الرشاد ١٩٩١م

(١١١) دائرة معارف القرن العشرين - الأستاذ محمد فريد وجدى .

(١١٢) طبقات الشافعية - العلامة تاج الدين السبكي .

(١١٣) الطبقات الكبرى - العلامة ابن سعد - ط بيروت ١٣٧٦هـ .

(١١٤) القاموس المحيط - الإمام مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي - طبعة دار الجيل بيروت، وطبعة المطبعة الحسينية المصرية ١٣٣٠هـ، وطبعة الهيئة المصرية للكتاب ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(١١٥) الغريب - العلامة ابن قتيبة - طبعة دار الفكر - بيروت ١٩٨٦م .

(١١٦) قطر المحيط - المعلم بطرس البستانى ط دار لبنان ١٩٦٩م .

(١١٧) لسان العرب - العلامة / أبو الفضل جمال الدين بن منظور (ت: ٧١١هـ) - تحقيق عبد الله على الكبير وآخرون - الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٥م - دار المعارف .

(١١٨) كشاف اصطلاحات العلوم - العلامة حاجى خليفة .

(١١٩) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - العلامة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي - المولود ١٠١٧هـ / المتوفى ١٠٦٧هـ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م - عدد الأجزاء ٢ .

(١٢٠) محيط المحيط - المعلم بطرس البستاني - طبعة بيروت ١٨٧٠م .

(١٢١) المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير - العلامة أحمد بن محمد بن على المقرىء الفيومى (ت : ٧٧٠هـ) الطبعة الأولى - حققه الأستاذ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية، وطبعة المطبعة الخيرية ١٣٠٥هـ .

(١٢٢) معجم المؤلفين - العلامة عمر رضا كحالة - طبعة بيروت .

(١٢٣) المعجم الوسيط - الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون - القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

(١٢٤) المنجد فى اللغة والآداب والعلوم - الأب لويس معلوف العيسوى - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩١٣م .

(١٢٥) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية - الدكتورة فاطمة محجوب - طبعة دار الغد العربى بالقاهرة .

رابعا المصادر العامة

حرف الألف

* الأبيض - الشيخ أبو عائلة إدريس بن عثمان .

(١٢٦) التصوف بدعة ط٧/١٩٣٦م أم درمان .

* أشتانبك - الدكتور جفرى .

(١٢٧) الطب الجسدى - ترجمة هناء مرسى - طبعة الدار الثقافية بالعراق ١٩٦١م .

* الأشقر - الدكتور عمر سليمان.

(١٢٨) عالم الملائكة الأبرار - دار النفائس - الكويت - الطبعة الثالثة ١٩٩١م .

* الأصبهاني - العلامة أحمد بن عبدالله

(١٢٩) تذكرة الأولياء وصفوة الأصفياء - ط مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ١٤١٣هـ .

* أفندى - العلامة خير الدين عثمان .

(١٣٠) الصوفية والمتصوفة - طبعة الدار النعمانية ١٣١٧هـ .

* الأمورى - العلامة الشيخ نجم الدين بن على .

(١٣١) التصوف والمتصوفة الأصول والغايات - طبعة الدار الميمنية ١٣١٨هـ .

* الأنصارى - الشيخ محمود بن محمد .

(١٣٢) شرح منازل السائرين - شرح وتعليق الشيخ الفركاوى .

* الأنصارى - شيخ الإسلام زكريا .

(١٣٣) هوامش الأنصارى على الرسالة القشيرية - طبعة صبيح .

(١٣٤) الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذرات الإنسانية ١٩٧٦م .

* أيوب - الأستاذ حسن .

(١٣٥) تبسيط العقائد الإسلامية - طبعة دار التراث العربى بالقاهرة ١٩٨٦م .

* ابن الجوزي - شيخ الإسلام .

(١٣٦) تلبيس إبليس - طبعة دار الغد العربى ١٩٩٤م .

* ابن القيم - شيخ الإسلام أبو عبدالله شمس محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزُرعى الدمشقى.

(١٣٧) الروح - طبعة دار الفكر بيروت - ١٩٨٥م .

* ابن تيمية - شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم

(١٣٨) التصوف - من مجموع الفتاوى طبعة دار الرحمة .

(١٣٩) علم السلوك - من مجموعة الفتاوى - طبعة دار الرحمن .

* ابن خلدون - العلامة عبدالرحمن .

(١٤٠) المقدمة - طبعة دار الفكر - بيروت .

❊ **ابن عبدالسلام ـ شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام بن أحمد الفنلوى البغدادى ـ المتوفى ٦٥٩هـ.**

(١٤١) زبد خلاصة التصوف المسمى حل الرموز – تحقيق الأستاذ طه عبد الرءوف سعد – مكتبة العلم والإيمان بطنطا .

❊ **ابن عجيبة ـ الإمام العارف بالله أبو العباس أحمد بن محمد.**

(١٤٢) الفتوحات الإلهية – بشرح المباحث الأصلية – تحقيق الشيخ عبدالرحمن حسن محمود – طبعة عالم الفكر .

(١٤٣) الفهرسة – تحقيق الدكتور عبدالحميد صالح أحمد القيلوى البغدادى (ت: ٦٥٩هـ)

❊ **ابن عربى ـ الشيخ الأكبر محي الدين .**

(١٤٤) رد المتشابه إلى المحكم – تعليق الشيخ عبدالرحمن حسن محمود – طبعة عالم الفكر ١٩٨٨م .

❊ **الأمورى ـ العلامة الشيخ نجم الدين بن على .**

(١٤٥) التصوف والمتصوفة – الأصول والغايات – طبعة الدار الميمنية ١٣١٨هـ .

❊ **الأموى ـ العلامة عماد الدين.**

(١٤٦) حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب بهامش قوت القلوب – المطبعة الميمنية بالقاهرة .

❊ **الانطاكى ـ الشيخ خيرى محمد عبدالباسط.**

(١٤٧) الإسلام دين الله – طبعة أولى – الدار الدمشقية ١٣٧٥هـ .

حرف الباء

❊ **الباقلانى ـ الإمام القاضى أبو بكر بن الطيب.**

(١٤٨) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به – تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى – طبعة الخانجى بالقاهرة ١٣٨٢هـ .

❊ **بدوى ـ الدكتور عبدالرحمن .**

(١٤٩) تاريخ التصوف الإسلامى – وكالة المطبوعات بالكويت .

❊ **البرعى ـ الأستاذ نصر الله محمد .**

(١٥٠) الألفاظ العربية ودلالتها – ط دار الطبرى ١٣٨٥هـ .

❊ **بركة ـ الدكتور عبدالفتاح عبدالله.**

(١٥١) فى التصوف والأخلاق ط٣ عالم الفكر ١٩٨٢م .

❊ **البسنى ـ الشيخ منصور محمد .**

(١٥٢) الطريق إلى الله – الدار اليمانية ١٩٥١م .

❊ **البنجالى ـ الشيخ عصام الدين محمد البكرى .**

(١٥٢) أولياء الله – طبعة الدار الأهلية .

❊ **البنجالى ـ الشيخ محمود بن عمر .**

(١٥٤) شيوخ عرفوا الله – ط أولى دار المهند ١٣٢٨هـ .

* **البنغالى ـ الشيخ منصور بن محمد .**
(١٥٥) معالم الفكر الإسلامى – طبعة الدار النعمانية ١٣٣٥هـ .
* **بهجت ـ الأستاذ حمد .**
(١٥٦) قصص الأنبياء .
* **البهنساوى ـ الشيخ محمد عبدالعظيم.**
(١٥٧) أضواء على الصوفية – ط١/١٩٦٥هـ .
* **البهنسي ـ الشيخ مهران محمد نجيب .**
(١٥٨) النبى الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم – ط الأولى ١٣٣٥هـ .

حرف التاء

* **التبتريزى ـ العلامة أحمد بن محمد الأشقرى .**
(١٥٩) سراج القلوب – تحقيق الدكتور عبداللطيف محمد العبد – دار النهضة المصرية ١٣٦٩هـ/١٩٧٧م .
* **التبريزى ـ الشيخ منصور حسن .**
(١٦٠) الصوفية الأوائل ط٢ / ١٣١٨هـ .
* **التوحيدى ـ العلامة أبو حيان .**
(١٦١) الإشارات الإلهية – تحقيق الدكتور عبدالرحمن بدوى – وكالة المطبوعات الكبرى ١٩٥٨م .

حرف الثاء

* **ثروت ـ الشيخ محمود محمد .**
(١٦٢) النبى محمد – طبعة أولى – دار الهدى ١٩٣٧هـ .
* **الثنيان ـ الشيخ طلعت محمد.**
(١٦٣) الصفة وأهلها - طبعة الدار القومية ١٣٣٧هـ .
* **الثورى ـ الشيخ محمد سبع .**
(١٦٤) دراسات فى التصوف الإسلامى – طبعة الخلفاء – تركيا ١٣٦٥هـ .

حرف الجيم

* **الجابرى ـ الدكتورة فردوس أبو المعاطى .**
(١٦٥) التجربة الصوفية ودورها فى جوار الأديان .
(١٦٦) التجربة الصوفية وعلم النفس الدينى – ١٩٩٩م .
* **الجرجانى ـ العلامة السيد الشريف .**
(١٦٧) رسالة فى اصطلاحات الصوفية .
(١٦٨) حاشية الجرجانى على مطالع الأنظار إلى طوالع الأنوار .

✲ **الجزولي - الشيخ فتحي عبدالعظيم**

(١٦٩) التربية الروحية للصوفية - طبعة أم درمان ١٩٥٧م.

✲ **الجمل - الشيخ محب الدين عبدالعاطي.**

(١٧٠) نظرات في العقيدة الإسلامية - طبعة دار الهدى ١٩٥٨م.

حرف الحاء

✲ **الحامدي الأستاذ محمد بن علي.**

(١٧١) الإنسان والإسلام - طبعة الدار الميمنية ١٣٨٥هـ.

✲ **الحبشي - الشيخ محمد نصر الله.**

(١٧٢) التصوف العملي - ط أولى ١٣٣٥هـ.

✲ **حجاج - الدكتور محمد فوقي.**

(١٧٣) التصوف الإسلامي والأخلاق - مطبعة الفجر الجديد ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

✲ **حسن - الأستاذ فهمي محمود.**

(١٧٤) حياة العرب قبل الإسلام - طبعة دار التقوى ١٩٣١م.

✲ **حسين - الدكتورة نازلي إسماعيل.**

(١٧٥) فلسفة الحضارة - مكتبة سعيد رأفت - جامعة عين شمس.

✲ **حكمت الله - الأستاذ نصر الدين محمد.**

(١٧٦) الاستشراق والمستشرقون ط أولى ١٩٦٧م.

✲ **حلمي - الدكتور أحمد محمد.**

(١٧٧) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي - طبعة دار المعارف ١٩٦٩م.

✲ **الحووي - الشيخ محمود نور الدين.**

(١٧٨) التصوف والمستشرقون - طبعة دار الإيمان ١٩٥٧م.

حرف الخاء

✲ **الخص - الأستاذ توفيق عبدالعاطي.**

(١٧٩) الحياة الروحية الإسلامية - طبعة دار مراكش ١٩٥٥م.

✲ **الخراج - الأستاذ راجي بن محمد.**

(١٨٠) التصوف الدخيل - طبعة أولى ١٩٣٧م.

✲ **خيري - الأستاذ طه محمد عبدالعظيم.**

(١٨١) صوفية الألغاز - طبعة أولى ١٩٥٧م.

حرف الدال.

✲ **الدبواني - الشيخ محمد عثمان.**

(١٨٢) من شعر الصوفية ط٢ / ١٩٤٢م.

* **الدغرى جان - الأستاذ محمد خان .**

(١٨٣) التصوف قبل الإسلام - مطبعة القوقاز - تركيا ١٩٢٧م .

* **الدهلوى - الشيخ شمس الدين برهان أحمد .**

(١٨٤) الصوفية اعتقادا وسلوكا - طبعة الدهلوى ١٣٠٥هـ .

* **الدوثرى - الشيخ حمدان عبدالعاطى .**

(١٨٥) الصوفية الأوائل - طبعة الدار البيضاء بالمغرب ١٩٥٣م .

* **الديرينى - الشيخ عبدالعزيز .**

(١٨٦) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب - طبعة صبيح .

* **الدينورى - الشيخ محمد عبدالعاطى .**

(١٨٧) علم العقيدة الإسلامية - طبعة أولى ١٩٤٥م .

حرف الذال

* **الذكى - الشيخ عبدالعظيم حسن .**

(١٨٨) الصوفية رجال الله - طبعة مكتبة الحرية - أولى ١٣٣٤هـ .

حرف الراء

* **رضا - الأستاذ الشيخ محمد رشيد.**

(١٨٩) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - ط٢ دار المنار بالقاهرة ١٩٨٥م .

حرف الزاى

* **الزاوى - الشيخ محمد على عبدالمهيمن.**

(١٩٠) التصوف والصوفية ط٢ باكستان ١٣٨٧هـ .

* **الزحلوق - الشيخ محمد عبدالحميد .**

(١٩١) التصوف الإسلامى ودفع شبهات الخصوم - ط٢ الدار النعمانية ١٣٣٥هـ .

* **الزرقانى - الشيخ محمد خير الدين .**

(١٩٢) دراسات حول التصوف والصوفية - طبعة الدار القومية ١٩٣٧م .

* **الزرقانى - العلامة الشيخ .**

(١٩٣) شرح المواهب اللدنية .

* **الزعفرانى - الشيخ محمود بن محمد .**

(١٩٤) من أخلاق الأنبياء . طبعة الدار الحديثة ١٩٥٤م .

حرف السين

❊ السامانى - الشيخ مختار بن نصار .

(١٩٥) ذكر الله - طبعة دار المنتصر بالله ١٣٣٧هـ .

❊ السامرانى - الشيخ محمود زين الدين.

(١٩٦) التصوف الإسلامى - طبعة الدار الحديثة ١٣١٨هـ .

❊ السلمان - الشيخ عبدالعزيز المحمد .

(١٩٧) موارد الظمآن لدروس الزمان - ط١١/ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

❊ السلمى - العلامة الشيخ أبو عبدالرحمن.

(١٩٨) طبقات الصوفية - تحقيق الدكتور نور الدين شريبة - طبعة المسدى ١٩٧٦م .

❊ السهروردى - الشيخ أبو حفص بن محمد .

(١٩٩) عوارف المعارف - طبعة صبيح .

❊ السهيلى - العلامة المؤرخ

(٢٠٠) الروض الأنف - طبعة الحلبى .

❊ سيد الأهل - الدكتور عبدالعزيز .

(٢٠١) بين الشريعة والحقيقة - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

حرف الشين

❊ الشافعى - الشيخ محمد نووى .

(٢٠٢) نور الظلام - شرح منظومة عقيدة العوام طبعة الحلبى بمصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م .

❊ الشامى - العارف بالله عبدالمهيمن سند الله .

(٢٠٣) الإخلاص لله - ط٣/ ١٣٣٥هـ .

❊ الشعرانى - العلامة الشيخ عبدالوهاب.

(٢٠٤) الصفات الكشفية .

(٢٠٥) الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية - المطبعة الأميرية ١٩٧٣م .

(٢٠٦) لواقح الأنوار القدسية فى العهود المحمدية - طبعة القاهرة ١٩٤٣م .

(٢٠٧) الأجوبة المرضية فى أئمة الفقهاء والصوفية - طبعة القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

❊ شلبى - الدكتور رءوف

(٢٠٨) بشائر النبوة الخاتمة .

❊ الشنقيطى - الشيخ مختار بن أحمد الياسكى .

(٢٠٩) التاج الأغر فى شرح نظم نضار المختصر فى الفقه المالكى - طبعة دار القضاء الشرعى أبوظبى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

* الشوكانى - الإمام محمد بن على .

(٢١٠) قطر الولى على حديث الولى - تحقيق الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال .

حرف الصاد

* صابر - الأستاذ عبدالعاطى محسن .

(٢١١) الصوفية فى الميزان ط٣ / ١٣٨٥هـ .

* صالح - الأستاذ عبدالباسط محمد.

(٢١٢) التصوف الإسلامى - ط كركوك أولى ١٩٦٥م .

* الصيرفى - الشيخ محمد محمود أمين .

(٢١٣) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - ط أولى ١٣٣٥هـ .

حرف الطاء

* طاحون - العلامة الشيخ زكريا بن عبدالسلام .

(٢١٤) التصوف الإسلامى - ط الثالثة ١٩٢٥هـ .

* الطاهر - الشيخ طاهر محمد .

(٢١٥) نظرات فى العقيدة الإسلامية - ط مراد - دمشق ١٣٧٥هـ .

* الطاموى - الشيخ محمود أحمد .

(٢١٦) الدعوة الإسلامية فى مراحلها الأولى - طبعة الدار الجديدة ١٩٤١م .

* طعيمة - الدكتور صابر عبدالرحمن.

(٢١٧) الصوفية معتقدا ومسلكا - مطابع العبيكان بالرياض - ط أولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* الطوسى - العلامة الشيخ أبو النصر الدين السراج .

(٢١٨) اللمع - تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود والأستاذ عبدالباقى سرور - طبعة دار الكتب ١٩٦٠م .

* الطويل الشيخ حسن محمود صبحى .

(٢١٩) معالم الالتزام بدين الإسلام - ط الدار الأهلية بتونس ١٩٢٣م .

* الطويل - الشيخ نصر الدين بن محمد .

(٢٢٠) مع الله - ط الثالثة - دار مراد ١٣٢٥هـ .

(٢٢١) التصوف والصوفية ١٣٠٨هـ .

حرف الظاء

* ظهير - الأستاذ إحسان إلهى .

(٢٢٢) التصوف المنشأ والمصادر - طبعة دار ترجمان السنة - باكستان ١٩٨٦م .

حرف العين

* **عامر - الدكتورة كوكب مصطفى .**

(٢٢٣) التصوف ودوره في التربية الأخلاقية للمسلم - ط رضوان زريق ١٣٩٥هـ .

* **عبدالباقي - الشيخ منصور محمد**

(٢٢٤) الروح والعوالم العلوية ١٩٣٧م .

* **عبدالرازق - الأستاذ الشيخ مصطفى .**

(٢٢٥) مقدمته لكتاب ابن الفارض والحب الإلهي - د: محمد مصطفى حلمي - طبعة دار المعارف .

* **عبدالعظيم - الشيخ بدوي محمد .**

(٢٢٦) الصوفية الأوائل في الميزان - طبعة أولى ١٣٢٨هـ .

* **عبدالكامل - الشيخ عبدالباقي محمد .**

(٢٢٧) الصوفية الأوائل طبعة دار المتوكل بغداد ١٣٣٥هـ .

* **عبدالكريم - الشيخ محمود عبدالعاطي .**

(٢٢٨) نظرات في التصوف الإسلامي - التعريف والنشأة - الدار الملكية ١٩٢٢م .

* **عبده - الأستاذ الإمام الشيخ محمد**

(٢٢٩) رسالة التوحيد تحقيق الشيخ رشيد رضا .

(٢٣٠) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية - ط صبيح ١٣٧٣هـ .

* **عبيد - الدكتور رءوف .**

(٢٣١) مطول - الإنسان روح لا جسد .

* **العنزي - الشيخ محب بن سعد .**

(٢٣٢) التصوف والصوفية مشكلات في طريق الدعوة الإسلامية .

* **عون - الدكتور رفيق بدير .**

(٢٣٣) دراسات في التصوف الإسلامي والفلسفة - مكتبة الحرية بالقاهرة .

حرف الغين

* **الغنام - الدكتور أحمد طلعت.**

(٢٣٤) أضواء على التصوف - نشرة عالم الكتب ١٩٧٧م .

* **الغزالي - حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد المولود ٤٥٠هـ والمتوفى ٥٠٥هـ.**

(٢٣٥) إحياء علوم الدين - تحقيق د: بدوي طبانة - ط صبيح، وط الحلبي .

* **الغزالي - الدكتور محمد حسيني موسى محمد.**

(٢٣٦) أنسام حية في الأفكار الصوفية - ط٢ /١٩٩٦م .

(٢٣٧) أوراق مطوية في التصوف والصوفية - ط دار شروق ١٩٩٦م .

(٢٣٨) أوراق منسية في النصوص الفلسفية - الهيسوني ١٩٩٨م .

(٢٣٩) الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي ط٥ / ١٩٩٨م .

(٢٤٠) التصوف المفترى عليه – ط١/١٩٩٦م.

(٢٤١) حصاد الاقتصاد فى الاعتقاد ج٣ الأفعال الإلهية – آل بسيونى ١٩٩٨م.

(٢٤٢) قضايا حيسة فى الفلسفة الحديثة ط٣ – دار شروق ١٩٩٩م.

❊ غنى - الدكتور قاسم.

(٢٤٣) تاريخ التصوف الإسلامى.

❊ حرف القاف ❊

❊ قاسم الشيخ عبدالجليل.

(٢٤٤) المنار الحاوى فى خصائص شيخنا القاضى – مطبعة حسان.

❊ القحطانى - الشيخ عبدالرحمن بن قاسم.

(٢٤٥) الدرر السنية فى الأجوبة النجدية – الدار العربية – بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

❊ القيبى - الشيخ سعد الله بن سعيد.

(٢٤٦) الصوفية ومشكلاتهم – طبعة دار العز ١٣٣٥هـ.

❊ حرف الكاف ❊

❊ الكلاباذى - العلامة الحافظ الإمام أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسين البخاري - المتوفى سنة ٣٩٨م.

(٢٤٧) التعرف لمذهب أهل التصوف.

❊ الكابولى - الشيخ محيى الدين محمود.

(٢٤٨) التصوف الإسلامى – ط أولى ١٣٨٥م.

❊ الكابولى - الشيخ محمد على.

(٢٤٩) التصوف ما له وما عليه – ط أولى ١٣٣٩هـ.

❊ - الكاوندى - الشيخ نجم الدين حسن.

(٢٥٠) أهل الإيثار – ط٢ دار الحكمة ١٩٢٣م.

❊ حرف الميم ❊

❊ المالكى - الدكتور محمد بن علوى.

(٢٥١) فى رحاب البيت الحرام – مطابع جدة ط٣/ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

❊ مبارك - الدكتور محمد زكى عبدالسلام.

(٢٥٢) التصوف فى الأدب والأخلاق – ط أولى ١٣٥٧هـ.

❊ المتولى - الأستاذ فرج الله

(٢٥٣) شطحات الصوفية – الدار الجديدة – ط١/١٣٨٩، وط٢/١٩٤١م.

❊ المتولى - الشيخ حكمت الله مصطفى.

(٢٥٤) التصوف الإسلامى وتاريخه – مطبعة الأستانة ١٣٢٥هـ.

❊ المتيم - الشيخ طوقان فرغان.

(٢٥٥) المتصوف حركة واعية دار جدى ١٣٠٨هـ.

❊ محمود - الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم.

(٢٥٦) المنقذ من الضلال مع مقدمة فى أبحاث التصوف.

حرف النون

* نصر الله - الشيخ محمد .

(٢٥٧) الزهد فى الإسلام - الدار الميمنية ١٣١٨هـ .

* النشار - الدكتور على سامى.

(٢٥٨) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ط٨ دار المعارف بالقاهرة .

* النعمانى - الشيخ محمد عبدالقادر.

(٢٥٩) أصول الفقه الإسلامى طبعة دار المعتصم بغداد ١٩٣٧م .

* النعمانى - الشيخ محمد على .

(٢٦٠) تبصرة العارفين - طبعة الدار النعمانية ١٣٠٨هـ .

حرف الهاء

* هاشم - الأستاذ محمد عبدالله.

(٢٦١) علاقة الرمزية بالصوفية ط١/١٣٨٩هـ .

* الهاشمى - الدكتور محمد عبدالعظيم.

(٢٦٢) نفحات من الحق - ط أولى ١٣٣٥هـ .

* الهجويرى - العلامة .

(٢٦٣) كشف المحجوب .

* هراس - الدكتور محمد خليل

(٢٦٤) شرح العقيدة الواسطية - مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

حرف الواو

* الوردانى - العلامة عبد الخالق .

(٢٦٥) التصوف الإسلامى ط٣ / ١٣٢٩هـ .

حرف الياء

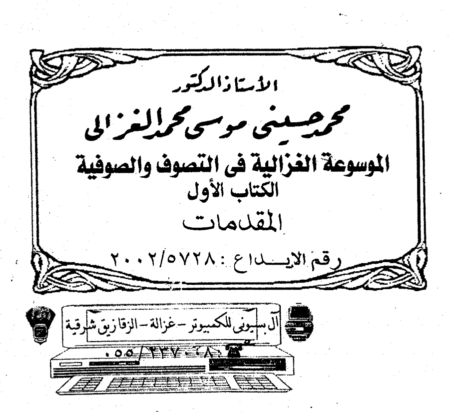
* يعقوب - الشيخ محمد عطا الله .

(٢٦٦) ألا بذكر الله تطمئن القلوب - ط أولى ١٩٢١م .

إلى غير ذلك من المصا[illegible] التى تركتها تخفيفا على صحيفة المصادر، وسوف يطالعها القارئ [illegible]الفاضل أسفل الصفحات من [illegible]لال الفهارس الموجودة على النحو الذى قدره الله تعالى، وما توفيقى إلا [illegible]الله عليه تو[illegible] أنيب .

فهرس الأعلام المترجم لها

فهرست الموضوعات



الأستاذ الدكتور

محمد حسيني موسى محمد الغزالي

الموسوعة الغزالية فى التصوف والصوفية

الكتاب الأول

المقدمات

رقم الايداع : ٢٠٠٢/٥٧٢٨